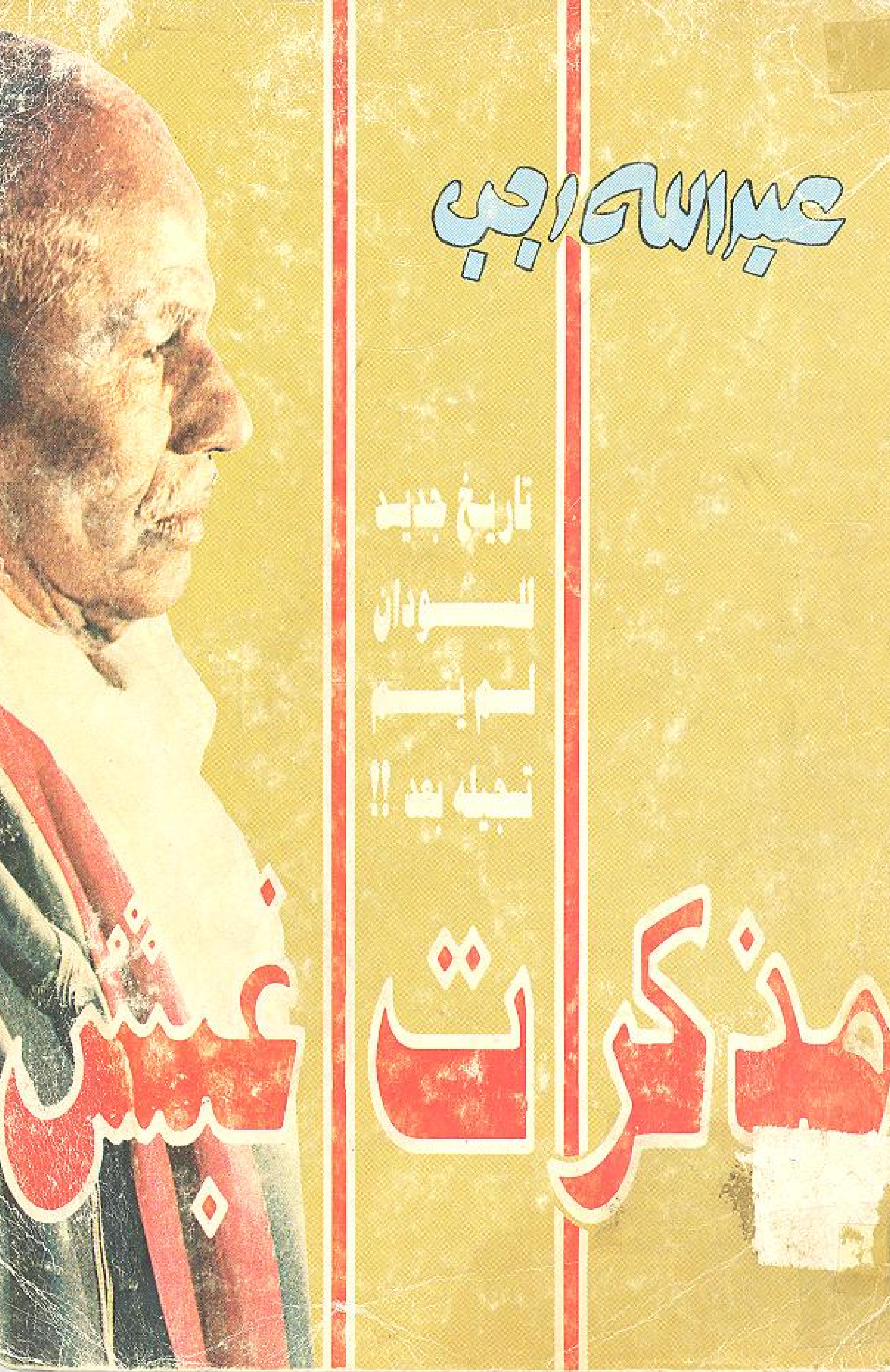

عبدالله رجب
تاريخ جديد
للسودان
لم يتم
تجليه بعد !!
مذكرات غبش

إهداء

لن نهديه لهواة الغبش

لأن هذا الكتاب في الأساس

لهم .. وملكهم !!

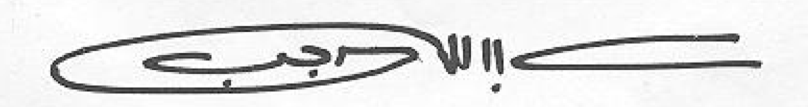
ولكنا نهديه إلى "الغيرغبش" !!

كي يتعرفوا على الغبش

من زعيم الغبش

أسرة أغبش

أستطيع الزعم بأن هذه المذكرات
سوف تصبح من كلاسيكيات
الشعب السوداني ..
مثل طبقات «ود ضيف الله»!!
وسوف تعيش في وجدان هذا الشعب
تتناقلها الأجيال جيلاً بعد جيل
بإذن الله ؟



المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمدٍ وعلى آله وأصحابه أجمعين.

وبعد...

فكثيرون رددوا في مقدمات مذكرات وكتب لمشاهير سواء في السودان أو خارجه جملة:

«وصاحب الكتاب لو حاولنا أن نتحدث عنه لاحتجنا الى مجلدات وأطنان من الورق... الخ».

لم أحس بأن هذه الجملة تحمل معناها الحقيقي الا عن قلائل وأولهم (أغبش) رحمة الله عليه.

ومنذ فجر الاستقلال وقبله. وبعده والى يومنا هذا لم يحدث ان كُتبت ونُشرت مقالات عن صحفي في حياته وبعدها مثلما حدث لـ (أغبش) فهو بلا جدال (ظاهرة) تستحق التأمل، واذا جُمعت تلك المقالات فسوف تشكل كتاباً يعادل حجم المذكرات هذه.. لذلك اخترنا مجموعة من هذه المقالات يجدها القارىء في نهاية هذا الكتاب وسوف نضيف باذن الله مجموعة أخرى للجزء الثاني من المذكرات..

وقد فكرت ونويت وشرعت بإذن الله تعالى أن يكون مشروعنا بعد المذكرات (موسوعة أغبش) تحمل مقالاته تلك منذ الثلاثينات الى الثمانينات.. فرحلة نصف قرن من الزمان في دنيا الصحافة تستحق ان يعرفها شباب هذا الجيل والأجيال القادمة، وأغبش يستحق منا اكثر من ذلك بكثير جداً:

نسأل الله التوفيق والعون مع دعواتكم الصالحات في انجاح هذا المشروع...

الحمد لله رب العالمين.

نحمده ونشكره.

كان يمكن لهذا الكتاب ان يكون من خمسة أجزاء واكثر.. لو حشوناه وثائق وخطابات ومستندات... الخ. ولكننا لم نفعل احتراماً لرغبة أغبش - طيب الله ثراه - والذي كان رأيه منذ سنوات:

«ان الغبش ينفرون من الوثائق والخطابات» رغم ان المذكرات بشكلها الحالي تصلح لكل دارس ومتخصص.

الحمد لله كثيراً...

هذه المذكرات...

كان المرحوم عبدالله رجب قد نشرها بادىء الأمر في (الصراحة) في الخمسينات ثم في بداية السبعينات نُشرت (بالرأي العام) بعنوان مذكرات أغبش ثم عاد ونشرها في (الصحافة) في الثمانينات بشكل جديد تحت عنوان (تجديد مذكرات أغبش).

في هذا الكتاب جمعنا ما نشره في الصحافة وما لم ينشره ومفاجأة (أغبش). يجدها القارىء في (تاريخ الصحافة السودانية) وهو بحث لم تنشره الصحف اطلاقاً.. وهو بشكل جديد على القارىء والباحث... لم نقصد ان نهمل ما تم نشره في (الصراحة) و(الرأي العام) فذاك يشكل الجزء الثاني من المذكرات - بإذن الله - وأحداثه اكثر من هذه.

قد تصبح مفاجأة للقارىء لو علم أن المرحوم عبدالله رجب قد كتب هذه المذكرات كلها من الذاكرة ولم يستعن بأي مرجع أو كتاب الا في حالة واحدة استعان فيها بـ «فقرات» من عدة سطور من (كتاب السودان عبر القرون) للمرحوم البروفسور مكي شبيكة وسوف يلاحظها القارىء في الكتاب.

كان رحمة الله عليه يطلق على ذاكرته (ذاكرة ريكوردرية) وقد يتفق معنا القارىء بعد اطلاعه على الكتاب أنها اكثر من (ريكوردرية).

في كثير من أوراق أغبش الخاصة تراه يكتب في كراسة أو ورقة وأحياناً (كرتونة) كبيرة أسماء لشخصيات بالعشرات ثم بالمئات تدريجياً كنوع من تمارين حفظ الذاكرة... يومياً.

وفي احدى كراساته كان يستعد وقتها لأداء فريضة الحج حاول أن يحصر المستفيدين من دعواته هناك من الأهل والأقارب والمعارف والأصدقاء فكانت النتيجة أن كتب ألف أربعمائة أسرة)... غير الأفراد!

جوانب كثيرة من أغبش لم يتعرض لها احد من قبل سوف أحاول بإذن الله وعونه جمعها في كتاب يصدر بعد الجزء الثاني من المذكرات إن شاء الله.

وقبل رفع الستار أنوه الى أنه وردت اشارات كثيرة في المذكرات للمرحوم الخليفة (الطيب عبدالحفيظ) فهو والد الحاجة فاطمة الطيب عبدالحفيظ - شريكة أغبش في رحلة العمر - ووالدتنا - أطال الله عمرها...

لا أستطيع القول بأن المجهود في اعداد هذا الكتاب كان لي وحدي فقد شارك فيه كل أبناء وبنات أغبش وهذا يشمل زوجتي (فتحية عثمان صالح أرباب) حتى أحفاده في شكل فرقة.. ولو حاولت القول بأنني كنت (مايسترو) الفرقة لسخرت مني مذكرات أغبش! لذلك اكتفي بأنني كنت ولا أزال (ضابط ايقاع!) لمعزوفة أغبش التي صاغها وألفها ولحنها وأنشدها بنفسه طيب الله ثراه.

الحمد لله كثيراً...

• حينما لبى نداء ربه كان كل ابناء وبنات أغبش قد تخرجوا من الجامعات ما عدا (عبدالفتاح) نهائي دراسات طبية بالمملكة العربية السعودية و(صدوقة) نهائي علوم - أحياء - بجامعة الزقازيق بمصر.

الحمد لله رب العالمين...

نحمده ونشكره ونسأله وندعوه أن يطيب ثراه ويدخله جنات النعيم مع الصديقين والشهداء.

الحمد لله كثيراً...

لك الحمد يا ربنا كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك.

نتقدم بالشكر والعرفان لكل من ساهم في انجاح هذا الكتاب ونخص منهم أسرة «الخليج» وفي المقدمة الأستاذ راشد عمران والأستاذ عباس عبدالرحيم الاحمدي وفي المطبعة مديرها محمد يونس وأبو أشرف، والأساتذة اسماعيل ابراهيم في التصحيح، وشوقي أيوب صف كمبيوتر، ومجدي الدويك، والشكر أيضاً للمخرجين عبدالعظيم ميرم ونواف علواني، والشكر لوزارة الاعلام والثقافة بدولة الامارات كما نشكر أيضاً الصديقين أبو بكر أبو عكر ومحمد الحسن السر وقد قاما بطباعة المذكرات في مرحلتها الأولى على الآلة الكاتبة في مرحلة تفريغ من قصاصات الصحف وأوراق أغبش.

وهناك العشرات من الأقارب والمعارف والأصدقاء الذين كان لهم اسهامات نتمنى من الله العلي القدير أن يوفيهم حقوقهم وديونهم علينا...

كما نشكر أيضا دار النشر التابعة لجامعة الخرطوم التي ظلت تلاحقنا منذ سنوات والى الآن لتقوم بنشر هذا الكتاب.

الحمد لله رب العالمين...

اللهم تقبل صلاته وصيامه ومداومته في قراءة القرآن وقيامه وحجه واعتماره...

اللهم تقبل أعماله الكثيرة من اجل بلده التي نذر لها نفسه وماله وشبابه.. وشيخوخته ومن اجل الغبش.

اللهم تقبل دعواتنا نحن أسرة أغبش وسائر أهله ومعارفه وأصدقائه ورفاق دربه وعموم الغبش، وأدخله فسيح جناتك مع الصديقين والشهداء...

اللهم تقبل... اللهم تقبل... اللهم تقبل...

والحمد لله رب العالمين....

عبدالحفيظ عبدالله رجب

الشارقة - ديسمبر ١٩٨٧



أغبش يحكي عن أغبش بخط يده

عبد الله رجب محمد رجب ـ ولد بسنجه التي كانت عاصمة مديرية الفونج ـ ٢١ يوليو ١٩١٥ ـ تخرج من المدرسة الاولية بسنجه ١٩٢٦ أفلت فرصة دراسة المرحلة التالية (مجاناً لتفوقه) لأن المدرسة الابتدائية كانت برفاعة ـ وهناك تكاليف لا قبل للأسرة بها ـ حاول تعلم صنعة النجارة بقسم الأشغال ـ ثم اشتغل مع التجار في اعمال البيع والشراء والقبانة ورصد الحسابات.

○ التفت الى الصحف في وقت مبكر بفضل قراء من أقاربه

○ اذكر اخبار او في الواقع البيانات الرسمية على صفحات حضارة السودان سنة ١٩٢٤ (لم أقرأها مباشرة) واذكر نبأ وفاة سعد زغلول في برقيات "الحضارة" من القاهرة سنة ١٩٢٧ ـ وقد رأيت جريدتي "المقطم" والاهرام في ايدي بعض الأعمام في تلك الفترة

○ عرفت منذ سنة ١٩٢٧ اقتناء المجلات بالثمن ومنها اللطائف المصورة، كل شيء والعالم، الدنيا المصورة، المصور، الفكاهة وعرفت طريقة اقتناء المجلات بالاشتراكات من القاهرة مباشرة

• ومنذ سنة ١٩٣٣ عرفت مجلة الرسالة. ثم "الثقافة" والهلال والمقتطف والمجلة الجديدة (سلامة موسى) الخ.

عرفت شراء الكتب الشعبية التي تباع محلياً واكثرها ديني

ولكنني عرفت ايضا طلب الكتب بالطرود المحول عليها من القاهرة منذ سنة ١٩٣٣. وكنت اطلب من اصحاب المكتبات في القاهرة ارسال قوائم مكتباتهم ـ واظل اوالي طلب الكتب.

وقد اهتممت في النصف الاول من الثلاثينات بكتب سلامه موسى (و) محمد عبده (و) الدكتور محمد عوض محمد ـ اتجاهي تجميع المعلومات بطريقة موسوعية مع ميل للظواهر العصرية ـ وكان هناك عزوف ظاهر عن القصص الخيالية ـ ومع ذلك كان يوجد اهتمام بالشعر (عرفت المتنبي وابا فراس وعمر بن ابي ربيعه) وكنت أقرأ شعر المعاصرين ايضاً"

بدأت الكتابة الى الصحف سنة ١٩٣٣ (وقبل ذلك نشرت لي مجلة الدنيا المصورة سنة ١٩٣١ تقريباً شكوى ضد احدى مكتبات القاهرة) ... اول رسالة بعثت بها الى الحضارة

كانت نقداً لتحريرها بالمقارنة مع الصحف المصرية — ولم ينشر المرحوم الشيخ احمد عثمان القاضي المقالة ، ولكنه كان يسلمها الى المخابرات (كما فعل اسلافه في قصيدة علي عبداللطيف)
في هذه الفترة اصدرت جريدة محلية بالسوق اسمها الحمد الصباح (١)
اول جريدة نشرت مقالاتي ورسائلي هي "السودان"
التي اصدرها الشيخ عبدالرحمن احمد رحمه الله ، منذ ١٩٢٥ وقد اشتهرت نسبياً على صفحاتها بالموالاة ، ومن مقالاتي المذكورة "السودان في طريقه الى التكرنة" ١٩٢٦ وهي تحاول تحليل ظاهرة الهجرة من غرب افريقيا الى السودان.

اهتمامي بالصحف هو الذي جعلني في سنة ١٩٤٤ افتتح بسنجة "مكتبة الثقافة العصرية" لصاحبها عبدالله رجب وقد عاشت الى سنة ١٩٤٧ بل فتحت لها فرعاً بالقضارف تحت ادارة صديقي المرحوم محمد احمد السلمابي ١٩٤٧
سنوات ١٩٤٠/٤٥/٤٠ ظللت الكاتب جريدة النيل بالخرطوم من القضارف والمفازة —
وكنت قد استقررت بالقضارف ١٩٤٤ حيث تزوجت وتهيأ لي عمل رابح؛
من العوامل التي عمقت نزعتي الصحفية مكاتبتي لجملة من الاخوان وتلقي رسائلهم اسبوعياً ، بعضهم مشهورون امثال عبدالرحمن احمد سعد (وهذا عرفني بالمرحوم محمد احمد محجوب) وعبدالرحمن كان يكتب للصحف بامضاء غشيم — كذلك الفاتح النور — الذي تورطت معه * بالاشتراك في مشروع جريدة كردفان ومطبعتها — قبل ان أراه — واشتركت في التمويل ١٩٤٤ وضحيت بعملي الرابح بالقضارف — ثم خرجت قبل صدور المجلة لمخاوف سياسية — ~~[illegible]~~ وكانت هذه الواقعة تمثل بالنسبة لي كارثة اقتصادية.

---

(١) هذه الجريدة كانت تكتب باليد وتكرر بالكربون وتوزع على عدد محدود وكانت تحتوي على مقالات ضد اعضاء المقام الديني — وقد ظهرت منها ٤ اعداد.

لم اتوقف عن مراسلة الصحف، وقررت مع الصديق
السلمابي. ان نتتابع للعمل بصحافة الخرطوم وقد سبقني
1946 الى الرأي العام، ولحقت به 1947 الى السودان الجديد
— وكان عملي بالسودان الجديد اليومية [illegible] أبريل 1947 الى ديسمبر 1948
أساساً كمدير للإدارة ولكنني ظللت اكتب مقالات وأترجم
الأخبار الخارجية والمقالات أيضاً (٤)

وفي سنة 1949 (النصف الثاني) طلبت رخصة جريدة الصراحة
واستفدت من سابقة كونهم قبلوني رئيس تحرير لجريدة كردفان
1945 ثم السودان الجديد 1948 في غياب المرحوم احمد يوسف هاشم.

○ قبل ان تخرج جريدة الصراحة كنت معروفاً بأنني ضد "الطائفية"
وضد "رجال الادارة الأهلية" — هذا طبعاً [illegible] بالاضافة الى الفورة
الوطنية العامة في تلك السنوات ضد الاستعمار .... ويمكن القول بأنني
منذ سنة 1945 بدأت التعمق في تفهم الايديولوجية الاشتراكية
تعلمت اللغة الانجليزية بمساعدة من الأصدقاء في مرحلة الصبا، ثم مدارس المراسلة
/ الإطلاع على الكتب والصحف — ويمكن القول انني "عصامي" وخاصة في دراسة العربية والانجليزية والتاريخ والجغرافيا والاقتصاد الخ
فواجهتي السياسية.

• وفي فترة 1947/1950 اتيحت لي جلسات متعددة في كل اسبوع
بنادي الخريجين بام درمان —
وفي هذه الظروف ظهرت "الصراحة" (اول يناير 1950) × معادية للطائفية
وضد الاستعمار، ومتعاطفة مع الاحزاب الاتحادية على قاعدة "الكفاح
المشترك" — ومن هنا نجد الأقلام التي تعاونت معي بالصراحة
مثل حسن الطاهر زروق (و) عبدالماجد ابو حسبو (و) الوسيلة
ثم عبدالخالق محجوب والتجاني الطيب ومحمد سعيد معروف
الخ — (لم تكن تعبر صحافة الجريدة عن فلسفة ماركسية ولا عن دعاية حزبية ولكن كنا نهاجم الاستعمار ومخططاته)
○ اننا كنا نركز على سواد الناس "الأهالي الغبش"
ولكن المرتبطين حقيقة بجريدتنا كانوا هم المثقفين من

طلبة وموظفين صغار — ودفاعنا لقضايا المزارعين والعمال لم تنعكس بشكل رواج لجريدتنا في اوساطهم — مثلا مزارعو الجزيرة نادراً ما وجد بينهم قارئ او كاتب للصراحة، بسبب الأمية والمواصلات — وعلى كل حال فانها كانت معروفة بالاسم عندهم ومقروءة بوفرة في بنادرهم — ويحصل تناقل الافكار شفهياً لديهم — بل ان دفاعنا عن قضاياهم قد خفف نزعة التعصب الطائفي ضدنا — فلا الأنصار بالجزيرة لاموا الصراحة، ولا الختمية بعطبره قاطعوها.

٥ - لما خرجت الصراحة في سنة ١٩٥٠ لم تتميز بشكل مثير في الاخراج، ولكنها ظلت منفردة في الجبهة التي فتحتها ضد الطائفية — فبلاح لم يحدث مطلقاً معاملة السيدين علي الميرغني وعبدالرحمن المهدي — واحلافهم .. بحسبانهم أناساً من الناس.

---

(٣) قرأت كتاب الاشتراكية تأليف نقولا حداد سنة ١٩٢٤ ولكنني لم اطلع على اي كتاب ماركسي قبل ١٩٤٥ حيث اختفيت بنشرات الكتب الماركسية بالانجليزية مصر وعرفت بعض الشيوعيين السودانيين هناك — ولكن كتاب نقولا الحداد البسيط هو اساس احترامي للاشتراكية —

٥- عبد الله رجب

(أ) أما عبد الله رجب فإنه الشخص الفقير الذي ظل فقيراً - وظل صحفياً طوال ٥٠ سنة ولا يماثله في الاستمرارية الصحفية في وادي النيل كله إلا مصطفى أمين يوسف أو مؤسس أخبار اليوم.

(ب) لم يعترف عبد الله رجب بالسياسة - حزبية ولا غير حزبية - (وما هو أهم من ذلك هو التباعد الكامل عن الدول الأجنبية):

○ مواقفه التعبيرية على الدوام كانت صحفية - تصيب أو تخطئ - والصحافة العلمية هي كانت ولا ... التي منبره الوحيد ما حاول أي انتماء أو إنزلاقه ذي صلة سياسية

○ وتاريخ عبد الله رجب كتاب مفتوح وقد سطر الله لو نفسه على بعض المواقف - والبقية تأتي - (ضمن مذكرات أغبش)

(ج) لم يحاول عبد الله رجب الإثراء عن طريق التجارة (وكان قد بدأ حياته تاجراً)

مالاً ولا عقاراً .

(٦) مذكرات أغبش

(أ) أن كتاب "مذكرات أغبش" هو منذ الآن من كلاسيكيات الشعب السوداني ؛

(وكلاسيكيات الشعب السوداني تبدأ بكتاب طبقات ود ضيف الله ، وتتسع لحياة فرح ود تكتوك (و) حياة بابكر بدري (وما أثر عنهما) (و) الأدب السياسي لمحمد أحمد المهدي (و) مأثورات الدوبيت والمدح النبوي والأغاني (و) تاريخ مؤتمر الخريجين وبعض القادة الوطنيين والسياسيين - أدباء وشعراء وعلماء ومؤرخين وفنانين قليلين ؛

(ب) ان كتاب مذكرات أغبش يصلح مدخلاً الى جميع الكتب والأبحاث التاريخية السابقة وسوف يحتاج اليه كل باحث في تاريخ

لسودان الحديث من الأجيال الحالية او
القادمة ... وقد تفضلت دار النشر التابعة
لجامعة الخرطوم بأن تطلب التعاقد على نشر ١٠
معبرة عن تقديرها في رسالة منها عن
قيمة الكتاب التسجيلية

المخلص
عبدالله محمد محمد
[توقيع]

الرحلة الطويلة لعبدالله رجب

من مساعد نجار بسنجة... الى كاتب صحفي ومترجم بقصر الشعب
مارس التجارة، شق الطرق وتجول طلباً للمعرفة
ماذا قال له «العراف» الهندي ومن أين اكتسب الأسلوب التلغرافي؟

قد تكون من أصعب الخيارات وأشقها للصحفي أن يكتب ويؤرخ لأحد رواد المهنة.. خاصة عندما يكون المعني بهذا هو: الأستاذ عبدالله رجب لأن حياته ملحمة من الكفاح المتصل المحفوف بالمخاطر، المليء بالاشواك والعقوبات.. أو لأن نشأته قصة نادرة تصلح كتاباً مشرفاً أو لأن سيرته الذاتية نموذج من نماذج النبوغ المبكر الذي يتحدى الصعاب، ويقهر المستحيل.

أو لأنه شمعة أضاءت الطريق في زمن كان فيه الظلام المعتم يلف كل شيء ولكن لأنه صحفي.. وكفى..!!

في الأسبوع الماضي كرمت جامعة الخرطوم الأستاذ عبدالله رجب ومنحته درجة الماجستير الفخرية في الأدب ضمن مجموعة من الرواد لنضالهم المتصل وعطائهم المثمر.. كل في مجاله..

ونُقتطف من الترجمة الذاتية والتي على ضوئها كرمته الجامعة ما يلي:

الأستاذ عبدالله رجب مدرسة في بناء الانسان وعطاء الانسان، انه نموذج في العصامية التي يبلغ بها الانسان العظيم المستوى الرفيع في المعرفة والإحساس المرهف بقضايا الناس والتعبير عنها... وإثارة وعي الناس بها وحثهم على تبنيها وحثهم على حلها.

ما ذكر الكادحون أو الأهالي الغبش إلا وذكر الأستاذ عبدالله رجب وذكرت جريدة الصراحة لسان حالهم وحادي نضالهم مدرسة الوطنية ومنازلة الاستعمار ومناصرة حركات التحرر.

* جلس الأستاذ في الحادية عشر قبل ظهر «الثلاثاء» بين أبنائه في «دار الصحافة» ودار حوار امتد لساعتين.. تحدث خلالها عن الكثير من جوانب حياته المليئة بالكفاح منذ أن بدأ تلميذاً في «الخلوة» بسنجة عام ١٩٢١ ـ الى الوظيفة التي يشغلها حالياً بمكتب الترجمة بقصر الشعب فضلاً عن أنه «كاتب صحفي» وجريدة الصحافة يطالع له قراؤه المتدين على مساحة القطر بابه المعروف (موضوع الساعة).

عن بداية نشأته يقول الأستاذ عبدالله رجب:

ولدت بسنجة عام ١٩١٥ ووالدي كان أحد الأفندية الثلاثة المشهورين هناك..كانوا موظفين في الحكومة ثم تفرغوا للعمل التجاري.. وفي الخلوة تعلم مبادىء القراءة وأتقنها ثم انخرط في التعليم الأولي عام ١٩٢١ (المدرسة الأولية بسنجة) الى عام ١٩٢٥.

كنت أحد الثلاثة المبرزين وقد رشحنا الشيخ الهادي الحاج الأمين ناظر المدرسة الأولية للدخول الى المدرسة الوسطى في رفاعة.. لكنني لم استطع الذهاب الى رفاعة.. فالتحقت بقسم الأشغال بسنجة (مساعد نجار) بمرتب قرشين في اليوم.

القرشان لها قيمة في ذلك الوقت فقد كانت مثلاً تجلب نصف رطل سكر بالاضافة الى ملوة ذرة وأشياء أخرى.

أسلوب التلغراف:

ومن ورشة النجارة الى السوق:

عملت مع بعض التجار ومنهم ناس أبوالعلا...

ويقف أستاذنا لحظة ثم يواصل:

أسلوب التلغراف الذي تخصصت فيه أخذته من ناس أبوالعلا.. فقد كان صاحب المكتب يختصر الى ابعد حد في المكاتبات ومنها الجوابات التي كانت تكتب بالكوبيا..

* أستاذنا يحكي لهذا الجيل كيف يمكن للشخص ان يواصل التعليم بمجهوده الذاتي وبما في ذلك تعلم اللغة الانجليزية.. نسمعه يقول:

أثناء فترة عملي بالسوق (محلات أبوالعلا) أرسلت أطلب منهج المدارس الوسطى لأدرسه أثناء العمل.. وفعلاً وصلني المنهج وبدأت في تعلم الحروف الانجليزية فكنت أعمل وأقرأ...

لكن القراءة تغلبت على العمل فتم نقلي لكبانية سنجة بمرتب قدره ٣ جنيهات في الشهر، لكن الموظف الذي يدير الكبانية وقتها كان مرتبه ٧٥ قرشاً فقط.. احتج على ذلك فجاء المفتش الانجليزي ونقلني..

في السوكي:

الرحلة عبر الحديث الممتد تتصل ونجد أن أستاذنا لا يكاد يستقر قليلاً في مكان حتى ينتقل الى مكان أخر.. فمن سنجة الى السوكي مواصلاً العمل بالتجارة مع أحد الأقرباء.. ثم انتقل الى السكة الحديد حيث استفاد في تطوير لغته الانجليزية..

كان شديد المداومة على قراءة الصحف والمجلات والكتب.. والأخيرة كان يرسل في طلبها من مصر.

اذكر من ضمن المطبوعات التي كانت تصلني من مصر،(المجلة الجديدة) وكان يحررها سلامة موسى.. المجلة كانت تخاطب الجيل الجديد.. وأسلوبها تلغرافي ومباشر وخال من المحسنات البديعية..

استفدت من ذلك قدر استفادتي من وكالات الأنباء كرويتر والوكالات التي تقرأ أخبارها في الصحف المصرية.

القضارف والمفازة:

ويبدو أن مدينة القضارف كان لها الأثر الكبير في حيات أستاذنا... فبعد أن استمرت المكتبة في سنجة لمدة سنتين أغلقها وسافر الى القضارف وتعرف على مجموعة من التجار (الشايقية) وبعد سنة كان يتجه الى المفازة ليفتتح دكاناً للسلع الاستهلاكية.

ثم أصبح وكيلاً لتجار المحاصيل في القضارف. يوم حياته مقسم بين العمل والقراءة وتنمية قدراته في الانجليزية بدراسة المناهج الدراسية.

يقول:

أثناء عملي بالمكتبة في سنجة تعرفت على الأستاذ أحمد خير. كان وقتها مترجم بمديرية كسلا وجاء الى سنجة في عطلته السنوية.. فوجهني لقراءة الكثير من الكتب الانجليزية.

فكثفت القراءة.. مستعيناً بالقاموس.

ويضيف:

«منذ بدأ تعليمي للانجليزية وحتى الآن اشتريت ٢٠ قاموساً مختلفاً في اللغة الانجليزية».

قواعد العربية:

«أما قواعد اللغة العربية فتعلمتها من كتب المدارس الوسطى بالاضافة الى انني كنت استمع لحلقات الدرس في الجوامع...»

مرة بالصدفة قرأت مقالة للأستاذ عبدالقادر المازني في مجلة الرسالة يقول فيها أنه يجب التركيز على القراءة الصحيحة وبذلك ترسخ قواعد اللغة في الذهن، كذلك كنت أهتم بقراءة الكتب ذات العبارات «المشكلة» منها كتاب «قادة الفكر» للدكتور طه حسين.

في القاهرة:

في بداية الحرب العالمية أنهى أعماله في المغازة ورجع لسنجة لمدة شهر ثم يسافر أستاذنا الى مصر بحثاً عن العمل!!..

ولكنه لم يجد شيئاً لجهلي بالبلد في الأيام الأولى.. فالتقيت بالأساتذة احمد السيد حمد أحمد، عابدين اسماعيل - محجوب باشري - وآخرين.

حاولت القيام بأي شيء التحقت بالمدارس الليلية واستمعت لبعض المحاضرات.. واستفدت من المسرح والسينما.. لكن مشكلتي انني لم استقر وكانت تلك هي مشكلتي الكبرى في ذلك الوقت فلم أكن متزوجاً..

بعد عدة أشهر وفي عام ١٩٤١ رجعت للسودان قاصداً القضارف كنت قد تعرفت على الأستاذ محمد أحمد السلمابي من قبل وعند رجوعي للقضارف عملنا سوياً في سلاح المهندسين حيث اتجهنا الى الروصيرص..

كانت فترة خصبة فقد حملنا معنا الكثير من الكتب ونقاشاتنا كانت مثمرة.. وفي الخريف رجعنا الى القضارف..

ومنها ذهبت الى اريتريا التي كان قد تم تحريرها بواسطة الحلفاء وقوة دفاع السودان.

كنت مسرف:

وفي أسمرا بحثت عن عمل.. وفعلاً وجد لي صديقي المرحوم خليفة محجوب فرصة لكنني فضلت التجارة بين كسلا وأسمرا لفترة بسيطة عدت بعدها للقضارف حيث وجدت وظيفة محجوزة (وكيل لمجموعة من التجار).. الوظيفة كانت مربحة.. كان دخلي في الشهر ١٠٠ جنيه كان ذلك في عام ١٩٤٢ وهذا المبلغ في ذلك الوقت كان كبيراً جداً ولكنني كنت مسرف ومبذر تضيع مني الفلوس بسرعة.. وفي نفس العام تزوجت بالقضارف.

جريدة كردفان:

ويحكي استاذنا عن بعض الذين تعرف عليهم في ذلك الوقت.. منهم على سبيل المثال الأستاذ عبدالرحمن أحمد عيسى وكان أستاذاً بالمدارس الوسطى وعن طريقه تعرف بالأستاذ عبدالرحمن سعد والآخر كان يوقع مقالاته في الصحف بامضاء «غشيم»..

وعن طريق الأخير أيضاً تعرف بالأستاذ محمد احمد محجوب وآخرين (وكان المرحوم الأستاذ محمد أحمد محجوب يزورني بمنزلي في كل زيارة يقوم بها للقضارف).

* تعرف على آخرين عن طريق المكاتبات والمراسلة.. من هؤلاء الأستاذ الفاتح النور الذي عرض عليه منصب رئيس تحرير جريدة كردفان في عام ١٩٣٥...

ولكن أستاذنا اشترط المشاركة لأنه في ذلك الوقت كان يملك رصيداً من المال..

وذهب الى مصر لاحضار مطابع جريدة كردفان.. ونترك الأستاذ عبدالله رجب يحكي بقلمه في تلك الفترة:

ماذا قال قارىء الكف للفاتح النور؟

وفي منتصف الأربعينات صرت صديقاً بالمراسلة للأخ الفاتح أحمد النور ترير بالأبيض ص.ب: ٤٩ ـ من القضارف ـ وكنا نتجادل ونتمازح كما كان دأبي مع الأخ الأستاذ عبدالرحمن أحمد سعد (غشيم) وآخرين، وهذه فترة أعتز بها من حياتي، وقد تعلمت منها وكان لها فضل تغييرات كثيرة في مسيرتي (كان قد وصفها الأخ الريفي في كلمته عني التي ما زلت استغفر الله مما حوته).

وكان ان عرض على الأخ الفاتح النور في سنة ١٩٤٥ رئاسة تحرير جريدة كردفان، وكان موعوداً بالتصديق له بامتيازها ولكنني قرنت موافقتي على وظيفة التحرير بالشراكة في رأس المال فقد كانت لي في تلك الأيام دراهم أبدت أعناقها.

ووافق الفاتح، ولحقت به بالقاهرة في مايو ١٩٤٥ ومكثت هناك ١٠٠ يوم باشرت فيها مهمة ترحيل ماكينات وآلات واكليشيهات وغير ذلك.

من القاهرة نفسها وجدت من يقول لي «انك تورطت» ووجدت أشخاصاً من هذا القبيل في الخرطوم وفي القضارف وفي الأبيض نفسها.

اكثر هؤلاء غذوا ميول التحسر على التضحية بفرصة عمري المالية (سنديكة القضارف) وأشار آخرون الى اهدار الفرص السياسية التي قد تتاح لي في الخرطوم (مع تفاصيل عن علاقات الفاتح بحزب الأمة، نفاها لي فيما بعد).

من أخطائي أنني لم أناقش الفاتح أبداً في الموضوع بل طلبت الانسحاب عندما جئت الى الأبيض، قبيل الموعد المقرر لصدور العدد الأول من جريدة كردفان.

ووافق الفاتح على انسحابي واستردت مالي الذي سبق أن دفعته ـ وكان مئات معدودات ـ (بل انني بعد شهور طالبت بجزء من تكاليف اقامتي بالقاهرة على اعتبار انني قد قضيت أعمالاً تخص الشراكة المنتهية ـ وقد استجاب الأخ الفاتح بسماحة، ودفع المبلغ الذي طلبته).

لا تتحسر على ما فات:

هذه النصيحة التي لقنونا إياها في المدرسة الأولية كثيراً ما ننساها ـ وهذه طبيعة بشرية ـ ولذلك فإنني والى ان صدرت جريدة الصراحة يوم ١٩٥٠/١/١ فشغلتني كنت آسف بيني وبين نفسي على ترك سنديكة القضارف قبل الأوان ـ ولو لم أفعل لكنت جمعت مالاً كافياً لفتح مطبعة وبناء بيت بالعاصمة (مع أن رسول الله (صلعم) قد نهى عن حرف لو).

ولكنني قد ظللت على الدوام الوم نفسي ـ ولا ألوم الفاتح فهو لم يصنع شيئاً غير «تقديم عرض» وكان بوسعي أن أعتذر عن عدم قبوله، ولما طلبت الانسحاب من شركته لم يعرقل طريقي.

ماذا قال قارىء الكف؟

قد يذكر الأخ الفاتح عرافاً «قارىء كف» هو مصري وكان يتظاهر بأنه هندي ـ وجدناه بإحدى مقاهي القاهرة في إحدى أمسيات مايو ١٩٤٥ وقال لي ان «أفكارك مشوشة» بينما قال للفاتح (لك شريك سيفارقك ولكنك تسير في طريقك).

* وكذب المتجمون ولو صدقوا!!..

استمرار الصداقة:

يسرني أن أشير الى أننا حافظنا على المودة ـ صداقة وزمالة ـ وكتبت من الخرطوم مقالات عديدة لجريدة كردفان، وظلت تصلني مجاناً، وقبضت مكافآت تحريرية بشيكات «صغيرة» بإمضاء الفاتح.

منافسة شديدة:

وقد أتيح لي منذ ١/١/١٩٥٠م ذلك الرضا الموقوت بصدور الصحيفة ـ الى ان انتهت.

والآن يتاح لي الرضا الباقي ان شاء الله ـ أو اطمئنان القلب المنبعث من ذكر الله تعالى، والمقترن في الآيتين (٢٧/٢٨ الرعد) بالإنابة وهدى الله والإيمان، وعمل الصالحات والتبشير بالطوبى وحسن المآب (كل هذا الحشد البليغ من التجليات في سطرين فقط من القرآن المجيد)...

وانني في الحقيقة الآن أنافس الفاتح النور منافسة شديدة ولكنها منافسة الأبرار التي أمرنا الله تعالى بها في القرآن (الآيات ١٨، ٢٦ المطففين) ونص الأمر «وفي ذلك فليتنافس المتنافسون».

أيها الأخ الفاتح: لا ياتي يوم شكرك..

الرحلة الطويلة لـ عبدالله رجب: (٢)

رفضت ربط السياسة بالمشيخة والطائفية الدينية حرصا على الوحدة الوطنية..

* تابعنا في العدد الأسبوعي المنصرم الحلقة الأولى من رحلة العمر الطويلة للأستاذ عبدالله رجب ووقفنا عبر ذلكم الحوار المطول على ومضات مشرقة في كفاح هذا الصحفي الذي اتسعت دائرة اهتمامه لقضايا الشعب ولكفاحه الوطني ضد الاستعمار وشن عبر جريدته «الصراحة» حرباً شعواء على الطائفية وأعلنها مقاومة سافرة لكل أوجه الاستغلال للانسان السوداني وانفعل بهموم الكادحين وانتصر لمشاكل أهلنا الغبش وتوقفنا معه نستشرق معنى العصامية التي حولت صبي نجار الى صحفي تتصدر مقالاته عبارة (صاحب هذا القلم الذي لا يملك داراً).

وها أنا ذا أواصل حوار (الصحافة) للأستاذ عبدالله رجب ليكمل لنا رحلة العمر التي بدأها صبي نجار ثم صحفي مشهور الى مترجم بقصر الشعب.

والأستاذ عبدالله رجب يتفرد عن جيله من الصحافيين بأنه يكاد يكون الوحيد من بينهم الذي يكتب للصحف السيارة بانتظام، فمن منا لم تستوقفه تحليلات عبدالله رجب للسياسة العالمية وترجماته للمجلات الأجنبية التي امتازت بالعلمية والأمانة والدقة... وأفاد منها قراء الصحافة السودانية أيما فائدة وأتاح لهم قراءة المؤشرات التي تشكل السياسة العالمية.. معاً في هذه السياحة الفكرية لنستقرىء خلالها بحمل أفكار ورؤى الأستاذ عبدالله رجب عبر رحلة العمر الصحفية التي قضاها خادماً أميناً ومدافعاً قوياً في بلاط صاحبة الجلالة.. فإليكم حصيلة حوارنا معه...

دور الأستاذ في حركة المؤتمر:

يتداخل العمل الصحفي بالعمل السياسي في كل الحقب إلا أن هذا التداخل يبرز أكثر وضوحاً في مراحل النضال الوطني ولقد ارتبط العمل السياسي في السودان بحركة المؤتمر باعتباره البوتقة التي تنصهر فيها القوى الوطنية.. فما دوركم في حركة المؤتمر؟

* يعتدل الأستاذ عبدالله رجب في جلسته إيذاناً باستعداده لبداية الحوار فيتذكر ما انقطع من حوار وحديث ذكريات فيعود بذاكرته الى فترة القضارف من عام ١٩٤٢ الى ١٩٤٥م، ويقول متذكراً: انشأنا حركة مؤتمر الخريجين وهي امتداد للحركة التي نشأت في أمدرمان.. وقد صادف أن وجدنا في القضارف بعض الشخصيات منهم الأستاذ ابراهيم يوسف سليمان وكان قد نقل نقلا تعسفياً من الخرطوم الى القضارف لأنه كان عضواً في اللجنة الستينية للمؤتمر. وفي القضارف اخترنا الدكتور أحمد علي زكي رئيساً لفرع المؤتمر في القضارف وقد عمل معنا الكثيرون من أهل القضارف...

السلمابي:

ويواصل الأستاذ عبدالله رجب حديث الذكريات قائلاً: في عام ١٩٤٩ بدأ الأخ محمد أحمد السلمابي مراسلة صحيفة الرأي العام التي صدرت في عام ١٩٤٥.. وكان السلمابي يتمتع بنشاط صحفي كبير، وكان وقتها قد عمل لنا تحقيقاً مع مدير الشؤون الطبية الانجليزي وفي اللقاء صرح الخواجة ان الشعب السوداني

لا يستحق البنسلين والذي كان وقتها اكتشافاً جديداً ومرتفع الثمن.. وعن طريق هذا اللقاء حقق الأستاذ السلمابي شهرة واسعة، ثم على اثرها رشح فيما بعد محرراً في الرأي العام..

العلاقة بالصحف:

تنقلتم عبر حياتكم الصحفية بين العديد من الصحف والمجلات فكيف كانت بداية ارتباطكم بالعمل في خدمة صاحبة الجلالة؟

حركت في يا ابني آمال وأحلام سنوات مضت فعزائي عنها ذكراً يجترها اللسان حيناً والقلم أحياناً فإليك وعبرك للقراء بداية تلكم العلاقة السرمدية في خدمة صاحبة الجلالة.. كنت أراسل الصحف منذ عام ١٩٣٥ ثم انتظمت على مراسلة جريدة السودان التي يرأسها الأستاذ عبدالرحمن أحمد (والد الأستاذ أحمد جمال الدين) وكانت نصف اسبوعية وهي جريدة وطنية، كتبت بها مقالات عديدة من ضمنها رسالة للأستاذ المرحوم حيدر موسى والذي كان يكتب عموداً بالصفحة الأولى.. قلت له عبرها ان الدكتور محمد حسنين هيكل كتب مقالة عن رحلة للسودان في مناسبة فتح خزان سنار في مجلة الهلال الشهرية، ووصف فيها السودانيين بالعبيد لأنه رأى مجموعة تستحم في النيل في تلك المنطقة.. هذه المقالة أثارت زوبعة كما أثارت المقالة الأخرى وهي بعنوان (السودان في طريقه للتكرنة)..

وكنت كذلك أراسل جريدة النيل ولم تكن عليها الصبغة الطائفية في ذلك الوقت وكذلك راسلت السودان الجديد الأسبوعية ومجلة كردفان، وتهيأت لي فرص التعارف مع بعض الشخصيات في الخرطوم منهم الأستاذ مكي عباس الذي عرض علي العمل في مجلة «الرائد» وكنت متردداً باعتبار مسألة الطائفية، وبالنسبة للطائفية كانت الختمية في جوارنا ودخلت فيها وقرأت المولد وأكلت الفتة!.. وكان الأنصار أيضاً في بيتنا، ولكن كان تفكيري السياسي يتبلور على رفض ربط السياسة بالمشيخة او الطائفية الدينية لأن ذلك سيعرض الوحدة الوطنية في السودان للفتن والتناحر.. وبتكريس الحكم لطائفة دون أخرى.. وكانت رؤيتي في ذلك الوقت ابعاد الدين عن السياسة والمناداة بدولة علمانية..

السودان الجديد:

يعود الحديث للأستاذ عبدالله رجب ويواصل حديثه متذكراً محطات السنين الصحفية قائلاً: .. وفي عام ١٩٤٧ عرض علي الأستاذ أحمد يوسف هاشم العمل في صحيفته (السودان الجديد) اليومية.. وفعلاً عينت مديراً للادارة، ولكنني شاركت في التحرير منذ اليوم الأول وأشرفت على القسم الخارجي ووجدت فرصة كبيرة للترجمة اذ كنت أترجم اخبار (السودان هيرالد) وأخبار الوكالات الأجنبية...

وأذكر انني في عام ١٩٤٨ ترجمت نص وثيقة حقوق الانسان قبل ان تنشر في اي صحيفة أو مجلة عربية ونشرت لأول مرة باللغة العربية في السودان الجديد.. كما كتبت العديد من المقالات منها سلسلة في باب (سياسة الغد).

أحمد يوسف هاشم:

يعود الأستاذ عبدالله رجب بذاكرته الى الأستاذ أحمد يوسف هاشم قليلاً: قد كان (أخو اخوان) واستطيع أن أقول انه كان يتقاسم النبقة مع اصدقائه ومع كل الناس ويتمتع بحاسة حرية الفكر فقد كان لا يخشى في الحق لومة لائم، يتمسك بحرية الرأي.. وكنت أكتب الكثير من المقالات الساخنة وكانت لها ردود فعل عنيفة وترد اليه الشكاوى من جهات عديدة وتتصل به الأطراف السياسية تليفونياً تشكو مني، لأنني كنت أهاجم الطائفية إلا أن المرحوم أحمد يوسف هاشم كان يدافع عني بقوة، حتى انه ذات يوم قال لأحد الأطراف

المعنية وأذكر انه كان السيد / الصديق المهدي.. ألم يقل والدكم «لا طائفية ولا أحزاب ان ديننا الاسلام ووطننا السودان» استمريت في العمل بالسودان الجديد حتى عام ١٩٤٩ حيث تم استدعائي لمؤتمر أركويت الذي كان يناقش موضوعات عامة لتطور السودان.. قدمت طلبا لعضوية المؤتمر وتم قبولي، وذهبت لأركويت مع مجموعة من الانجليز والمثقفين السودانيين وتمت مناقشات حادة وزارنا السير جيمس روبرتسون السكرتير الاداري في ذلك الوقت، وكذلك بعض أعوانه من الداخلية ومستر ويلشر مدير كلية الخرطوم الجامعية في ذلك الوقت وآخرين.. في تلك الفترة تبلورت لي فكرة اصدار جريدة (الصراحة) وكنت أدرس كيفية تمويلها، وكانت في ذلك بعض القيود على الصحفيين.. وكانت رخصة الجريدة تمنح للذي في حوزته ما يعادل الشهادة الثانوية، او عمل صحفياً لسنوات معينة.. وقد أشرت في طلبي الى انني سبق ان عملت بجريدة كردفان رئيساً لتحريرها عام ١٩٤٥م كما أرفقت سنوات الخدمة بالسودان الجديد.. ومجموعة مقالاتي كانت معروفة للسلطات المعنية وكان اسمي يظهر في السودان الجديد يومياً.. وقبلها كانت حكومة روبرتسون قد سمحت لي برئاسة تحرير جريدة كردفان عام ١٩٤٥..

الحركة الشيوعية السودانية:

يتذكر الأستاذ عبدالله رجب منعطفاً تاريخياً في مسيرته الصحفية فيستأذننا على العودة الى سنة ١٩٤٥ فنأذن له، فيقول:

في الحقيقة قبل الدخول في تفاصيل نشأة (الصراحة) وددت أن أسرد بعض الحقائق التاريخية فأعود بك الى علاقتي بالأخ الفاتح النور الذي كانت له علاقات واسعة بالصحفيين المصريين آنذاك وطلب مني ان أذهب معه الى مصر فلم أتمكن من السفر معه لظروف معينة إلا أنني لحقت به في مايو ١٩٤٥ بمصر وفي نيتي المكوث بها أكثر من ثلاثة أشهر أقضي بعضها اجازة والبعض الآخر عمل يتعلق بجريدة كردفان.. فطلب مني الأخ الفاتح النور الذهاب معه الى دار أخبار اليوم بشارع قصر النيل بالقاهرة لمقابلة الأستاذ مصطفى أمين وكانت تربطه بالفاتح صلات طيبة فعرفني به وأشار اليه برغبتي في التدريب بأخبار اليوم فوافق مصطفى أمين على أن أحضر في موعد معين لأتدرب على عمل المطبعة وتصحيح البروفات وكان وقتها تصدر دار أخبار اليوم «اخبار اليوم الاسبوعية» وبالصدفة اجتمعت في مساء ذلك اليوم بمجموعة من الشيوعيين السودانيين الموجودين بمصر، منهم عبده دهب، وعبدالماجد ابو حسبو، ومحمد عثمان جودة وصالح عرابي وبعض الطلاب السودانيين الذين يدرسون بالجامعات المصرية.. وكنت قد اشتريت من مكتبة الميدان التي يملكها هنري كوريل، زعيم الشيوعيين في مصر مجموعة كتب ماركسية طبعت في موسكو ولندن، واشتركت في مجلة تصدر بموسكو اسمها «الحرب والطبقة العاملة» التي تغير اسمها الى «نيو تايمز» في عام ١٩٤٦..

مجلة أمدرمان:

يواصل الأستاذ عبدالله رجب حديث الذكريات قائلاً: عرف عبده دهب بذهابي الى دار أخبار اليوم فحاول أن يثنيني عن العمل بها بمهاجمته لأصحابها والمحررين العاملين بها وقال لي بالحرف الواحد هؤلاء يعلمونك الديماجوجية والنفاق! فأثر في حديثه هذا فغيرت رأيي وصرفت النظر عن العمل بأخبار اليوم وذهبت مع عبده دهب الى مجلتهم (أمدرمان) التي يصدرونها بالقاهرة وشاركت في إصدار بعض أعدادها بكتابة مقالات عن الطائفية بالسودان.. وكانت المطبعة التي تطبع لهم هذه المجلة بحي الدراسة بالقاهرة وهو من الأحياء الشعبية التي لا يتصور وجود مطبعة بها وهذا من التكتيك الشيوعي في العمل السري.. وأذكر ان من ضمن أسرة هذه المجلة «أمدرمان» الأديب السوداني المرحوم الهادي العمرابي وكان رئيس تحريرها المرحوم محمد أمين حسين المحامي...

وكان قد تطوع الاخ عبدالماجد ابوحسبو بتدريسي (المنفستو) أي البيان الشيوعي الأول تأليف ماركس انجلز والذي صدر عام ١٨٤٨ واجتمعنا اجتماعين لدراسة هذا البيان وتوقفت عن دراسته نتيجة لاقتناعي بأن ما ورد في هذا البيان ينطبق على أحوال وظروف القرن التاسع عشر وليس القرن العشرين...

مجلة السودان:

وفي القاهرة أيضاً اتصلت بمكتب المرحوم علي البرير وتعرفت على أسرة تحرير مجلة (السودان) التي يمولها البرير ويحررها السادة/د. بشير البكري ود. عقيل احمد عقيل ود. احمد السيد حمد، وكتبت فيها مقالة متعلقة بالسياسة السودانية وكانت مجلة (أمدرمان) ومجلة (السودان) محظورتين في السودان.. هؤلاء هم الكوكبة التي تعرفت عليها عند زيارتي للقاهرة. من القاهرة وفي صحبة الأستاذ عبدالله رجب عدنا الى الخرطوم لنواصل حديث الذكريات في حضرة صاحبة الجلالة فيتذكر الأستاذ عبدالله قائلاً:

عندما عدت الى السودان بدأت أترجم المقالات من مجلة «النيوتايمز» لمجلة (السودان الجديد) الأسبوعية كان ذلك عام ١٩٤٦.. وفي عام ١٩٤٧ اتفقت مع الأستاذ المرحوم احمد يوسف هاشم على العمل بجريدة «السودان الجديد» التي صارت تصدر يومياً من ابريل ١٩٤٧.. وزاملت بها الأستاذ محمد عثمان جودة وهو فنان تشكيلي بالاضافة الى انه أديب ومفكر يساري فاثمرت هذه الزمالة تمازجاً فكرياً واستطعت من خلال المناقشات الجادة معه الى تضييق الفجوة التي كانت بينه وبين الدين، بعد أن كان يسارياً متطرفاً..!

المصالح الوطنية:

* هل كنتم تعبرون في جريدة (الصراحة) عن الفكر اليساري الذي انجذب اليه بعض المثقفين السودانيين في سعيهم بالانعتاق من قيود الاستعمار؟ أم كنتم تعبرون عن المصالح الوطنية والأهداف القومية التي كان يتدثر بها غالبية أبناء الأمة السودانية؟؟

* ينفي الأستاذ عبدالله رجب ما صدرنا به سؤالنا هذا عن تعبيرهم عن الفكر اليساري نفياً قاطعاً ويبسط الحقيقة قائلاً:

أؤكد لك أننا في تحريرنا جريدة الصراحة لم نكن نعبر عن فكر يساري بقدر ما كنا نعبر عن المصالح الوطنية والأهداف القومية، وكانت لي أنا شخصياً نزعة قوية لمهاجمة الطائفية وعبرت عنها في صفحات «السودان الجديد» بقدر محدود على الرغم من علاقة الأستاذ المرحوم احمد يوسف هاشم بالجبهة الاستقلالية.

* ويعود الأستاذ عبدالله رجب بذاكرته الى حديثه عن مجموعة الشيوعيين السودانيين في مصر قائلاً: ان هؤلاء المجموعة ينتمون الى مجموعة تعرف في مصر بـ (ح د ت و) الحركة الديموقراطية للتحرر الوطني، والفرع السوداني نشأ فيما بعد باسم (ح س ت و) والحركة السودانية للتحرر الوطني.. وعلمت ان المنتمين لهذه الحركة في ذلك الوقت منهم المرحوم حسن الطاهر زروق ود. عبدالوهاب زين العابدين.

الحزب الشيوعي والصراحة:

* يلحظ المتصفح لجريدة «الصراحة» اقلاماً يسارية موغلة في اليسار.. هل يعني هذا ان الصراحة في ذلك الوقت التزمت خطاً فكرياً يسارياً؟

* ينفي الأستاذ عبدالله رجب وجود أية صلة بين الحزب الشيوعي السوداني وجريدته (الصراحة) قائلاً: أظنك تقصد المقالات المهورة بأسماء بعض قياديي الحزب الشيوعي السوداني كالوسيلة وعبدالخالق محجوب والتجاني الطيب وقاسم أمين وغيرهم.. فأؤكد لك أنني لم أكن أتعامل مع الشيوعيين كحزب بل كنت

أتعامل مع الكتاب الذين يكتبون في «الصراحة» كأصدقاء بغض النظر عن اتجاههم السياسي والفكري فبجانب من ذكرت كتب في «الصراحة» بعض الذين خرجوا عن دائرة الشيوعية كمحمد أمين حسين وعبدالماجد أبوحسبو وغيرهما..

ومع ذلك لما حدث الانقسام المشهور في الحركة الشيوعية سنة ١٩٥١، حاول المنشقون كسب تأييدي لهم.. وعندما اجتمعت بهم اتضح لي انه ليس من بين مجموعتهم من يكتب بالصراحة عدا حسن أبو جبل.. وكان قد تزعم المنشقين عوض عبدالرازق وعبده دهب وحسين عثمان وني وحسن أبوجبل ود. سيد أحمد نقدالله وآخرون.. وكان تيارهم ضعيفاً فلم يكتب لهم النجاح..

* أعود بك الى حديث الذكريات فأقول: منذ مجيئي الى الخرطوم في عام ١٩٤٧م كنت أتردد على نادي الخريجين بأم درمان وتجددت معرفتي بالزملاء الممثلين لرئاسة مؤتمر الخريجين والآخرين من الوطنيين السياسيين والأدباء ومنهم المرحوم حسن الطاهر زروق وغيرهم..

وبدأت أعلن عن صدور جريدة (الصراحة) لفترة ستة أشهر ولما أوشكت للصدور أعطاني الأخ حسن زروق مقالة نشرت في العدد الأول لـ (الصراحة) وبعد ظهور عدة أعداد من الصراحة اتضح للقراء خط الصراحة السياسي والفكري.. وبدأت تنهال علي العديد من مقالات اليساريين، واتفقت مع الأخ محمد سعيد معروف ليعمل معي في تحرير (الصراحة) وبالفعل عمل معي طوال العشر سنوات التي كانت تصدر فيها (الصراحة).

رياح الاشتراكية:

* يواصل الأستاذ عبدالله رجب ذكرياته في حضرة صاحبة الجلالة قائلاً: إبان الحرب العالمية الثانية بدأت رياح الاشتراكية تهب علينا، ونحن كنا على معرفة وثيقة بسياسة الانجليز والفرنسيين وكان الأمريكان مجهولين لدينا في ذلك الوقت، أما الطليان فقد عرفناهم من خلال معاملتهم للاثيوبيين والاريتريين وكانت معاملتهم قاسية لتلك الشعوب.

وكنت قد درست كتاب الاشتراكية لنقولا الحداد في عام ١٩٣٥م وعرفت وجهها الانساني وانصافها للفئات المهضومة الحقوق، ولذلك كان ترحيبنا بالموجة الاشتراكية طبيعياً، وحتى في مجلة (نيوتايمز) سنة ١٩٤٦م ظهرت الحرب الباردة والهجوم على الرأسمالية والاستعمار الغربي، ولذلك كنت أؤيد التعاون مع المعسكر الشرقي ولا أنسى في سنة ١٩٤٨م لما عرضت قضية السودان في مجلس الأمن بواسطة النقراشي باشا.. كان جروميكو مندوب الاتحاد السوفييتي آنذاك، قد أيد حق تقرير المصير للسودان..

وما كانت الصراحة تعبر عن أية مصالح سوفييتية ولكن تبنينا قضية السلام العالمي في سنة ١٩٥٠م وبعدها..

الدين في الصراحة:

* ويتذكر الاستاذ عبدالله رجب شيئا غفل عنه في اجابته عن سؤالي عن صلة (الصراحة) بالحركة الشيوعية في السودان قائلاً:

لم تهمل الصراحة الجانب الديني فعند صدور العدد الأول صدرنا صفحتها الأولى بسورة الفاتحة وحتى النقاش الطائفي الذي كان يثار فيها كان معززاً بالأفكار الدينية.

سك الشعارات:

وعند لقائي بالمرحوم حامد العربي منشد الشعر المعروف، أخبرني ان المرحوم خلف الله خالد كان قد تقدم بطلب باسم السيد علي الميرغني للحصول على مشروع بالنيل الأبيض..

فعلقت على هذا الخبر في «الصراحة» بأن كثيرين تحصلوا على مشاريع زراعية ولكن الذي يهمنا هو مصالح الأهالي الغبش بالمنطقة..

فانتشرت هذه الكلمة ودخلت قاموس الصحافة السودانية..

الجاحظ:

الأستاذ عبدالله رجب على الرغم من فارق السن يكاد يكون الوحيد من بين جيله من الصحفيين السودانيين الذين يتواصل عطاؤهم بانتظام في الصحافة السودانية بل هو من القلة التي أثرت وما زالت تثري صحافتنا بترجمات حصيفة لأشهر المجلات الاجنبية الا اننا نلحظ ان الأستاذ عبدالله رجب انغلقت دائرة اهتمامه الصحافية في الشؤون العالمية، فإلى أي شيء تعزون هذا الانغلاق؟؟

* يرشف الاستاذ عبدالله رجب ما تبقى من فنجان الشاي ثم يجيب قائلاً: حرصي على تقديم أية خدمة تفيد المجتمع السوداني يجعلني أساهم بصورة منتظمة في جريدة (الصحافة)...

أما اختياري للكتابة في الشؤون الخارجية اعزوه لعدم استطاعتي التحرك الكثير لمقابلة الناس ومرد ذلك عامل السن ورحم الله الشاعر العربي الذي قال:

الا ليت الشباب يعود يوما   فأخبره بما فعل المشيب

* وما زلت أجد متعة معينة عند نشر اسهامي في جريدتكم الغراء.. وأمل أن أواصل هذا الاسهام على قاعدة أن الجاحظ مات وعلى صدره كتاب...

ثم ماذا:

* هذه حصيلة حواري مع الأستاذ عبدالله رجب الذي بدأ رصد مشوار مسيرته الصحفية الأخ بابكر العراقي.. فلما طلب مني مواصلة السياحة مع القارىء لنستكشف سوياً أبعاد رحلة عمر هذا الصحفي الذي انداحت اجتهاداته في دوائر الصحافة السودانية تثري قاموسها لفظاً ومعنى وتستحكم سياجها خلقاً ومسلكاً..

من منا ينسى عباراته الرصينة وأسلوبه التلغرافي فعروس الرمال من كنوز ألفاظه وعبارة «الرشيد المثقف» التي أطلقها على مجموعة من المفكرين السودانيين منهم المرحوم الأستاذ محمد أحمد المحجوب والمرحوم البروفسور سعدالدين فوزي والأستاذ جمال محمد أحمد بمناسبة صيغة معينة وضعوها للتوفيق بين الأحزاب في سنة ١٩٥١ قصد بهذه العبارة البليغة ان هؤلاء النفر رصيد الشعب السوداني.

فالعم الاستاذ عبدالله رجب لا ننسى له انفعاله الصادق بقضايا وهموم هذا الشعب، فقد كانت «الصراحة» لسان حال النقابات والجمعيات كافة.

* قصدت (الصحافة) باجراء هذا الحوار المطول وهذه السياحة الشائقة برفقة الأستاذ عبدالله رجب ألا نسدل فوق أمسه سترا وحجاباً لتواصل ويتداخل تقديرنا لعطائه الثري وجهده المتصل مع تقدير جامعة الخرطوم حين كرمته بمنحة درجة الماجستير الفخرية في الآداب.. فهكذا عانقت قلعة الثقافة أعلام الصحافة..

☆ ☆ ☆ ☆ ☆ ☆

شايقية القضارف والأسلوب التلغرافي ولغة الثراء

نشرت جريدة الصحافة حتى كتابة هذا (الاثنين ٦/٢/٨٤) ٤ مقالات عني فما أثقل العبء الذي حملوني إياه، فأسأل الله تعالى الغفران .

مقالة الأخ الريفي ١/٢٦ ـ وهو يكاد يكون شقيقي كما سيأتي ـ ومقالة الأخ الفاتح النور ١/٣١ وهو صديق قديم سميته في روسيا ١٩٦٠ (شريك حياتي) وقد أوضحت علاقتي به في مقال بالصحافة ٢/٤:

ثم التعريف الرسمي الذي تبنته جامعة الخرطوم الموقرة وكان قد أعده الأخ الأديب امام محمد امام من أسرة جريدة الصحافة وهذا التعريف قد شمل (التسعة الكرام) ـ المضاف اليهم شخصي الضعيف بضربة حظ.

والمعلومات عني نقلها الأديب امام عن صديق لي وكذلك حصيلة حوار الصحافة ٢/٤ بيني وبين الزميلين الشابين الأستاذين بابكر عراقي وأحمد محمد الحسن.

توضيحات:

أحتاج لتعقيبات حول القطعتين الأدبيتين الأخيرتين بعضها هنا والآن، وبعضها يأتي فيما بعد ـ خصوصاً كي أخفف عن عاتقي عبء غمط حقوق الآخرين ـ والأمر في بعض الحالات قد يرجع الى مجرد رغبة الكاتب في الاختصار.

شايقية القضارف:

ان الإشارة الى الشايقية بالقضارف لم تكن كافية ـ لأن كثيرين يظنونني واحداً منهم لا ينقصني سوى الشلوخ ثم أكون (مندلى كريمة)!!

وبداية العلاقة بالسوكي ١٩٢٢ وعمري ١٧ سنة جاء الأخ المرحوم الطيب عبدالحفيظ (وكان في حوالي الاربعين) وقد تعارفنا وتبادلنا الكتب التي نقرأها، ولأهمية تلك المجلدات أذكر أنني أخذت منه ديوان المتنبي طبعة صادرة ببيروت بشرح وجيز وأخذت كتابي النظرات والعبرات للمنفلوطي ـ بينما أخذ مني (نهج البلاغة) تأليف الشريف الرضي الذي يجمع مأثورات الامام علي كرم الله وجهه ـ وكتباً أخرى.

كان المرحوم الطيب يمثل شركة جيمس لينج المتخصصة في تصدير الصمغ العربي، وكان من مهامه الاشراف على عملية تنظيف الهشاب على أيدي الفتيات وكنت أتقن هذا العمل فصرت أعاونه في وقت فراغي وأنس به، ولما عاد الى القضارف جعلنا نتكاتب بانتظام، بل شملت مكاتباتي أشخاصاً لم أقابلهم منهم الأستاذ الريفي والمرحوم محمد حمد أبوسن زعيم الشكرية والمرحوم كرار كشة زعيم البجة والمرحوم عوض بشير جعلي وتاجر كبير والمرحوم أحمد حامد موسى (مشايخي من المتمة، وهو عم وصهر السفير السابق عثمان عبدالله حامد) والأخ اسماعيل سليمان محمد صالح (من أهلي المغاربة المقيمين بالقضارف وعصار منذ قبل المهدية) وقد ذكرت أسماء القبائل هنا بسبب اشارة العراقي الى الشايقية فقط.

واتصلت المكاتبات مع القضارف بعد أن فتحت بسنجة دكاناً ومكتبة ١٩٣٤ وكان أن جاءني عرض الأخ المرحوم عوض بشير (والد زميلنا الشاعر ابراهيم عوض بشير) لعمل تجاري كان يعد أفضل من عملي إذ ذاك بسنجة، وقد وصلت الى القضارف مع بداية يناير ١٩٣٧، وعلاقتي مع السادة آل بشير ـ أو بشير اخوان كانت علاقة كرم وإيثار من جانبهم ويا ليتني استطيع الوفاء حتى ولو بالدعاء.

مكتبة سنجة لم أغلقها على الفور بل أوكلت عليها بعض الأصدقاء، ثم عملت لها فرعاً بالقضارف تحت إدارة الأخ المرحوم محمد أحمد السلمابي.

أعود للشايقية فأقول انني تزوجت منهم ولكنني لم اسمح بتشليخ ابنائي ولا بناتي!!

مكتبة الفونج الكبرى:

ليس صحيحاً أن مكتبتي بسنجة كانت أول مكتبة بها، ففي الحقيقة كانت هناك (مكتبة الفونج الكبرى) في أواخر العشرينات وأوائل الثلاثينات لصاحبيها بابكر وأحمد مصطفى أبو حاج (الأول والد جعفر السفير الذي كان محرراً للصحافة في السبعينات، وكلا الرجلين أبقاهما الله هما أخوا الزميل زين العابدين أبوحاج).

الأفندية الثلاثة:

ذكرت الأفندية الثلاثة بسنجة بين ١٩١٩ والعشرينات لأوضح أنني عرفت الصحف بواسطة العمين اللذين بقيا بعد وفاة والدي وهما المرحومان ابراهيم أفندي العبد (والد الطاهر الضابط وصالح الصيرفي الموسيقار) وعمر أفندي حماد ـ والأخير بسبب مصاهرة كان يجرني في العطلة للبقاء بدكانه بدل اللعب ـ وكان يرسلني لعم ابراهيم لاحضار (الأهرام والمقطم) الجريدتان اليوميتان القاهريتان.

في أحد أيام الشهور الأخيرة من سنة ١٩٢٤ جاء الأخ عثمان ابراهيم قوته وقال لعم عمر وأصحابه الذين كانوا يلعبون الطاولة (حصل دشمان بالخرطوم) ثم قرأوا بجريدة (حضارة السودان) قطعة عرفت فيما بعد أنها أحد بيانات الحكومة في بعض حوادث انتفاضة ١٩٢٤.

يمكن القول أنني انتظمت في قراءة الحضارة ثم الصحف والمجلات المصرية منذ سنة ١٩٢٧.

محاولة الهرب لمصر:

في سنة ١٩٣٠ رشحني عم عوض أبوالعلا لادارة كبانية التلفونات حينما جاءوا بالترنك ـ وقال لي انه يحس بطموحي ويتمنى لي هنالك حظاً أحسن، ولكن العامل السابق اشتكى، وسحب وكيل البريد العرض... ولم أرجع لمحل أبوالعلا، بل دبرت رحلة الى الخرطوم تحت ستار العمل فيها ثم محاولة التسلل الى مصر للمجاورة بالأزهر.

ولكن أقاربي لحقوا بي وأقنعوني بالرجوع ـ فذهبت الى السوكي للمرة الثانية للعمل مع عم ابراهيم قوته (رحمه الله) في اشغال الترحيل ـ وهذا العمل جعلني على صلة بالمرحوم ميشيل بخاش وهو تاجر سوري مسيحي من حلب، يعد بارعاً في الأعمال التجارية والمكاتبات: فترة السوكي ٣٠/ ١٩٣٤ زادت من تفرغي للدراسة وكان لها فضل تحديد اتجاهاتي.

السكة الحديد:

لم أعمل بالسكة الحديد خلافاً لما نشر، وبرغم ظهور فرصتين (و) وظيفة جندي بوليس مرشح للترقي لوظيفة ضابط بوعد من قمندان بوليس السكة الحديد الذي جاء من عطبرة وصادفني بمحطة الاسكلة وتكلم معي ـ ولم اذهب الى عاصمة المصلحة كما طلب ـ و(ب) وظيفة عداد (تلى) وهي وظيفة وازن المشحونات الذي يكتب البوالص، وقد يتدرج حتى (رئيس مخزن) أو (ناظر محطة)...الخ.

لقد استفدت من السكة الحديد معاشرة طيبة لبعض مستخدميها وبعضهم ساعدني في دراستي (أين أنت أيها الأخ عبدالرحمن مصطفى؟ ألا يجوز للمرء أن يسأل عن أخ بعد فراق ٥١ سنة فقط؟!).

أحمد خير:

ان أحمد خير كان وما زال معروفاً بسنجة وفي كل مكان آخر ـ ولكننا تكاشفنا أو اكتشفنا بعضنا في سنة ١٩٣٥ بسنجة ـ واتصلت مقابلاتنا ومكاتباتنا، وهو قد عرفني بناس الخرطوم مثلاً لما جاء السيد مكاوي سليمان اكرت (كمراجع) الى سنجة ١٩٣٦ سأل عني.

في أيام الجمعية الأدبية بواد مدني التي أثمرت فكرة مؤتمر الخريجين ١٩٣٨ كتب لي أحمد خير يدعوني للمشاركة في المهرجان الأدبي ١٩٣٩ ولم أحضر فقد كنت بالمفازة (وقفاي أعوج) و(ب) رشح أحمد خير الأخ أحمد مختار ـ الصحفي والسفير فيما بعد ـ وكان في أواخر الثلاثينات موظفاً بالسكة الحديد بمدني، ورشحني كي نتكاتب، ولكننا لم نتبادل سوى رسالتين ولكن في ١٩٤٤ جئت لأمدرمان ممثلاً للقضارف في مؤتمر اللجان الفرعية لمؤتمر الخريجين، ونلت ترحيباً شديداً من أحمد مختار الذي عرفني بشقيقه الروحي المرحوم عثمان احمد عمر، وقد اخذاني معهما حيث بت ليلة مبهجة بمنزل عفان ـ الملاصق لمنزل اخيه المرحوم شريف ـ بحي العمدة أو (عوى الذئب) آخر نقطة شمالية للسكن في تلك الأيام بخلاف المقابر.

وكان أحمد مختار زميلاً مدرساً مع عفان بمدرسة حي العرب الوسطى وفيما بعد ذهب الأول الى مصر حيث درس التربية بالجامعة المصرية، وقابلته هناك في سنة ١٩٤٥، وجلسنا بمشرب (الجمال) بتشديد الميم في ضيافة المرحوم علي البرير.

التطوع في الحرب:

في سنة ١٩٤٠ وأنا مسافر الى مصر ركبت مع احمد خير بالباخرة الى السوكي وبالقطار حيث نزل بواد مدني وكان قد ترك الوظيفة وبدأ يدرس الحقوق بالمدرسة المستحدثة ضمن كلية غردون ـ في تلك الأيام.

حدثني أحمد خير (١٩٤٠) ان من الاحجى ان يقوم الخريجون بترويج فكرة اشتراك قوة ـ دفاع السودان في الحرب في صف الحلفاء (وأهم من ذلك) أن يتطوع المواطنون وخصوصاً الخريجون، فان هذه الفكرة لو نفذت سوف تساعد السودان في اكتساب حق تقرير المصير.

هذه قصة هامة جداً ـ ولا أعرف ما جرى لها في أجهزة مؤتمر الخريجين ولكن التطوع بالفعل قد حصل بمساعدة زعماء قبليين (مثلاً الناظر المرحوم عبدالله بكر بالقضارف، الذي شكل أورطة سميت (بندا بكر) كما تطوع مثقفون كأفراد منهم عبدالقادر يوسف هاشم وأحمد عبدالنبي ـ ابقاهما الله ومنهم المرحومان يوسف مصطفى التني ومحمد عشري الصديق ـ كضابطين مهندسين).

أنا نفسي غازلت فكرة التجنيد ـ ولم أفعل لأنني كنت التقي بمواطنين يؤيدون النازي وأتردد في تفكيري.

الأسلوب التلغرافي:

لقد اختصر حديثي عن الأسلوب التلغرافي وحيث ان الموضوع هام فلا بد من التوسع:

لا مشاحة أنني تعلمت أسلوب المكاتبات التجارية من محلات أبو العلا بسنجة ومن عملي ودراستي بالسوكي والقضارف ـ ومن الاطلاعات الصحفية والأدبية ـ ويجب أن يلاحظ القارىء أن أسلوب المؤرخ العلامة ابن خلدون في المقدمة ليس بعيداً عما نسميه الأسلوب التلغرافي.

وفي الحقيقة انني لم استفد من المرحوم سلامة موسى (الكاتب القبطي) المصري الذي اشتهر بالترويج لفكرة تقليد أوروبا على طريقة مصطفى كمال بتركيا، لم استفد منه إلا مجرد اسم الأسلوب التلغرافي.

أما الأسلوب نفسه فهو أمر كان وما زال شائعاً متوفراً.

حقيقة أخرى أنني استفدت من المرحوم سلامة موسى تفتحه للأفكار الجديدة وحماسته لمبادىء يدافع

عنها ويتابعها بشكل دعاية مستمرة الى درجة انه كان يهاجم اصحاب الأفكار المتناثرة غير المترابطة الذين لا يوالون أفكارهم ـ بالمتابعة ـ وقد قرأت كتابه (حرية الفكر، وابطالها في التاريخ) عشر مرات، قبل أن اكتشف ان كتاب الامام محمد عبده (الاسلام والنصرانية مع العلم والمدنية) أقدم منه وربما كان سلامة موسى قد اقتبس الكثير من مواضيعه.

إنني الآن متأسف على حماسي الشديد في الماضي للأسلوب التلغرافي وخصوصاً بعد أن أدركت انه قد جرد أدبي من الخيال والجمال ـ ذلك لأنني في برامج اطلاعاتي التكوينية قد خفضت قراءة القصص الخيالية والصور الجمالية ـ تفضيلاً للحقائق والمعلومات الواقعية ـ ونسيت ان العلوم التجريبية نفسها، وحتى الانجازات المادية بما في ذلك الأعمال التجارية والمالية والصناعية كلها (تحتاج الى خيال) وقد أدرك ذلك منذ وقت مبكر صديقي القديم الأخ المرحوم محمد أحمد السلمابي الذي كان يكتب القصص.. ويستعمل السجع في مقالاته قبل ان يكسب الأموال بالخيال والحقيقة.

دعني أنقل لكم هنا ما كتبه الأديب المصري البورجوازي ثروت بك اباظة بجريدة الأهرام ١٦ اكتوبر ١٩٨٣ ضمن مقالة (لغة العرب.. لغة الثراء) والنبذة التي انقلها عنه تتعلق بالأسلوب التلغرافي، قال:

(والاذن العربية ما زالت على رغم تطاول السنين تحب اللغة الأصيلة، وتحس وقع الكلمة ـ الممتازة الجميلة ـ ولهذا لم ينجح في أدبنا (الأسلوب التلغرافي) فهو لا يصل الى نفس القارىء في العمل الأدبي، وانما يجعله يحس أنه يقرأ كشف حساب، لا أدباً فنياً ولا أسلوباً عربياً)...



« خمسون سنة مع علم النفس ومحاولة تحديد الهدف »

الرئيس الأمريكي رقم ٢٨ ـ ما هي مواصفاته للشخص المثقف؟

أؤكد للقراء أنني غير مدفوع بأية شهوة نرجسية في كتابة هذا الكتاب الذي سيكون بمثابة (تجديد مذكرات أغبش) فانني متخم من النرجسية (تخمة البرم) الذي تعبر عنه الانجليزية بكلمتي (فد أب) ـ ذلك لأن تأبيني قد حدث عدة مرات، ولم يشأ الموت أن يأتي، حتى يبدو لي أن بيت المتنبي يصلح للتعبير الساخر عن حالتي:

كم قد نعيت وكم قد مت عندكم
ثم انتفضت وزال القبر والكفن!

والذي أبغيه من كتابة الفصول التالية انما هو نقل تجربتي للأبناء والأحفاد. وأقول لهم ان عصرهم الراهن يحرمهم من المغامرة، والتخصص يفوت عليهم فرصة الموسوعية ـ ولكنني أنصحهم بالتمرد وليمارسوا مغامرات من نوع راق يجدونه في التاريخ ـ ولا أعني المغامرات الشريرة التي يرسلها إلينا قوم لا يستحقون الاقتداء وخصوصاً في هذه النواحي.. ثم ان فرص الموسوعية لن تنعدم، وسوف يجد من يسعى إليها ألواناً من السعادة تثري حياته.

أنوي كتابة فصول عن تجربتي مع علم النفس ـ ودراسات أخرى ـ والدين والأدب والترجمة والصحافة والرحلات... وبين الحين والآخر أنقل صوراً عن حياتي البسيطة بين الشعب على طول مسيرتي في عشرات السنين.

وأبدأ اليوم بمسيرتي مع تحديد أهدافي والمساعدة التي وجدتها من علم النفس في هذا الشأن.

حافز البغر:

لم يشأ قاموس المنجد أن يعطيني المعنى الذي أريده للفظ (البغر) فقال انه (العطش الذي لا يرتوي).. وقبل ان ينجدني العلامة شاع الدين بتاع شرق كردفان، أفادني المنجد بأن (غبطه) فعل معناه (عظم في عينه، وتمنى مثل حاله، دون أن يريد زوالها ـ عنه فهو غابط).

إذن فهذا ما أريده حينما أشير الى رفاق الصبا عثمان الحويرص (و)عبدالقادر يس نابري (مهندسان) ومحمد علي يوسف الفلاتي (محافظ غابات سابق، والآن ضابط إداري بمؤسسة أعمال شرف) والمرحوم أحمد محمد علي السنجاوي الذي اكتسب خبرة إدارة الشركات الى جانب الاهتمام بكرة القدم (والميزة الأخيرة فقدتها، ومن أجل ذلك نلت غضب المحرر الرياضي أحمد محمد الحسن المحرر بالصحافة أثناء حوار في يوم الثلاثاء ٣١ (يناير) ٨٤).

في سنة ١٩٢٧م بدأت أفكر في مستقبلي، بعد ترك تعلم النجارة بقسم الأشغال بسنجة:

هل أذهب الى المدارس الصناعية بعطبرة أو مثل ذلك؟

هل أستمر في السوق حتى أصير تاجراً؟

وكنت أنا بالسوق، بمقر شركة أبو العلا، يجاورنا محلا أصلانيان وكان الأخ المرحوم حسن نجيلة يتولى بيع السجاير ماتوسيان بالجملة (والمرحوم أكبر مني في السن) ولكنني كنت آنس به وآتيه حاملاً المجـلات فيخطفها مني... وما لبث في تلك الفترة أن ذهب الى (قسم العـرفاء) الذي كـان يدار ضمن كليـة غردون بالخرطوم، ومنه يتخرج مدرسو المدارس الأولية.

أشار علي البعض أن اذهب أيضاً الى (قسم العرفاء) فلم أذهب وذهب أصدقاء آخرون في السنوات التالية منهم الأساتذة ميرغني مكي، وصديق مكي، وعبيد محمد ريس، وخليفة يس نابري (رحمه الله) - الأخيران تدربا في معهد بخت الرضا.

أضعت كل فرصة ذهاب للعرفاء بذهابي الى السوكي وانهماكي في الدراسة بالمراسلة بهدف نيل تعليم ثانوي بدافع البغر من الأصدقاء الأربعة المذكورين في بداية هذه الفقرة (كان هذا هو هدفي الأول الذي رسمته بدون استرشاد من شخص ولا من كتاب، باستثناء اعلانات مدارس المراسلات (المصرية) - أولاً ١٩٢٩ ثم الأمريكية ١٩٣٣ (مدارس المراسلات الدولية).

وقد تحدد هدف احترافي الصحافة في نفس تلك الفترة وهذا أمر سوف أعود إليه بعد الإنتهاء من هدف التعليم.

شروط ويلسون للرجل المثقف:

من المرجح أنني قرات كتاب العلامة أحمد أمين (المصري) في أوائل الثلاثينات (كتاب علم الأخلاق).. وبين أشياء أخرى، لقنت منه أن (تحديد الهدف) هو عنصر ضروري للنجاح في الحياة..

وكانت أهدافي مبلبلة بين التعليم والزواج والتجارة والصحافة والوطنية (ويبدو أن هذا المزيج ما يزال هو الغسيل اليومي الذي أعوم فيه).

ثم جاءت فترة ١٩٣٧/٣٤ فترة (مكتبة الثقافة المصرية) التي فتحتهـا بسنجة.. وبـين آلاف نسخ الصحف والمجلات، وعشرات الكتب التي قلبتها، عثرت في أحد الأيام على مقالة للمرحوم سلامة موسى - ربما على صفحات مجلته (المجلة الجديدة) وكانت تصدر أسبوعية وشهرية في وقت واحد - هذه المقالة كان لها دور هام في حياتي، وعنوانها (شروط ويلسون للرجل المثقف).

أعرفكم أولاً بالدكتور توماس وودرو ويلسون (١٨٥٦/ ١٩٢٤) وهو الرئيس رقم ٢٨ للولايات المتحدة (١٩٢١/١٣) وقد عرفناه في تاريخ القانون الدولي بأنه مؤلف (النقاط الـ ١٤) التي حققت تقرير المصير لأقطار معينة في أوروبا، وسلخت من الامبراطوريات الأربع المنهزمة (وهي ألمانيا والنمسا وتركيا العثمانية وروسيا القيصرية - الأخيرة منهزمة في هذا السياق بقيام الثورة البلشفية - وبالتالي انسلاخ فنلندا وجزء من بولندا ودويلات البلطيق استونيا ولاتفيا وليتوانيا - بعد حرب ١٤/ ١٩١٨).. كذلك فان ويلسون يعتبر المؤلف الرئيسي لميثاق عصبة امم جنيف (١٩/ ١٩٣٩) وقد خذله الكونجرس برفض انضمام الولايات المتحدة إليها - بين مرفوضات أخرى.

والنقاط الـ ١٤ لم تطبق على الأقطار العربية - التي انتزعت من السلطنة العثمانية ولا على الأقطار الافريقية الموروثة من ألمانيا (اقليم ناميبيا كما يسمى الآن وتنجانيقا والآن تنزانيا القارية بخلاف الجزيرتين زنجبار وبمبا ويوروندي وبروندي) كل هذه الأقطار توزعتها بريطانيا وفرنسا وجنوب أفريقيا وبلجيكا باسم (الانتداب) من عصبة الأمم، وكان استعماراً جديداً فقدنا من ورائه فلسطين وورثنا متاعب سوريا ولبنان والعراق، وعلى الأقل في أفريقيا ما نراه الآن في ناميبيا.

* دراسة اللغة الوطنية دراسة متقنة.
* الإلمام بلغة أجنبية واحدة على الأقل.
* استيعاب تاريخ الوطن على وجه مفصل.
* الإلمام بتاريخ العالم بطريقة مختصرة.
* التخصص في علم من العلوم (أو) فن من الفنون - يبدو لي أنني وضعت هذه المسطرة أمامي وظلت في مكانها حتى الآن - ولا يهم عدم الوصول الى غاية أو احراز شهادة - فإن التطلع الى ذلك (النجم) باستمرار خير لك من سقوطه عليك (فيما يتعلق بالعلم أو الفن التخصصي، فانني قد اعتبرت «فن الصحافة» كافياً لكي يسد هذا المسد).

- اعتذر للفتيات عن تعبير (الرجل المثقف) فقد أخذته عن سلامة موسى، والصحيح هو (الانسان المثقف) أو (الشخص) رجلاً كان أو امرأة، هكذا يجب ان نترجم كلمة (مان) في بعض الأحيان.

علم النفس:

منذ أواخر العشرينات وأنا أقرأ الصحف والمجلات كنت أمر بمقالات عن علم النفس، وفي تلك الأيام راج اسم (فرويد) البروفيسور سيقموند فرويد، مؤسس التحليل النفسي ١٨٥٦/١٩٣٩) ومنه عرفنا ما يسمى (العقل اللاوعي) - الذي سماه سلامة موسى (العقل الباطن) والكلمتان هما أيضاً عنوان كتابه الذي ظهر في أوائل الثلاثينات.

واقتنيت كتاب الأستاذ محمد عطية الابراشي (مصري) عن علم النفس وهو ثلاثة مجلدات، ولم أستفد منه في ذلك الوقت المبكر وترجع العلة الى صعوبة فهم الاصطلاحات لشاب صغير لم يتلق تعليماً أساسياً كافياً...

وأظن الكتاب كان من ضمن منهج دراسة علوم التربية وهو بمثابة (تكست بوك) - بمعنى (كتاب مدرسي يصلح للتدريس المنهجي).

وعلى كل حال واصلت قراءة ما يتاح من مقالات في علم النفس في المجلات الشهرية على الخصوص (المجلة الجديدة والهلال والمقتطف) - وحتى الأدب رأيناه يبدأ العناية بعلم النفس في الشعر والقصص والنقد.

تربية عقلية:

ان الأستاذ محمد فائق الجوهري - محام مصري كانت له اجتهادات في تعليم الكافة - كان له دور هام في حياتي بين ١٩٢٨ و١٩٣٤... فقد طلبت دروسه عن (التربية البدنية) وهي تمرينات رياضية مصورة تمارسها في غرفتك وقد ظللت استفيد منها (اللياقة) قبل التخلي عنها في السنوات العشر الأخيرة... وكذلك اشتركت في مجلته المسماة (الرياضة البدنية) بل اقتنيت منها مجموعة السنوات الفائتة ودرست جزءاً من المنهج الأوسط وخصوصاً في اللغة الانجليزية من مؤسسته (مدارس المراسلات المصرية).

واشتركت في منهج أعده فائق الجوهري صادراً عن مؤسسته المسماة (معهد التربية العقلية) - وكان المنهج مبنياً على (الإيحاء الذاتي) - وبالنظر الى الخبرة التي استفدتها فيما بعد فإنني أقول الآن بأن منهج الجوهري - على الأقل في أوائل الثلاثينات كان ناقصاً (مثلاً، فإن الإيحاء الذاتي كان مطروحاً بالمنهج بشكل ترديد شعارات قبل النوم والطريقة العلمية تتطلب «اقتران الإيحاء بالتصور» - وهذا يعني (تجسيم الهدف) - و.. س هذا التكنيك ضروري لتقوية الارادة).

مجلة السايكلوجست:

في سنة ١٩٤٠ وجدت بمكتبات القاهرة مجلة السايكلوجست التي كانت تصدر باللغة الانجليزية بانجلترا وقد (ماتت) بالأسف منذ سنوات قليلة.. وجمعت من هذه المجلة جملة أعداد، واشتريت مجموعة كتيبات سيكلوجية كانت تصدرها نفس المؤسسة.

بل من القضارف اشتركت فيها وطلبت منهم عشرات الكتب (كان كل شيء رخيصاً وفي تلك الأيام كانت تباع بمكاتب بريد السودان أذونات البريد الانجليزية ويمكنك عن طريقها التحويل للخارج بسهولة.

واستفدت من هذه المجلة معلومات سيكلوجية تطبيقية، وكنت أترجم بعض مقالاتها لنفسي لمجرد التمرين ـ وليس للنشر حتى جاء الأخ جعفر حامد البشير (زميلي الشاعر الذي له دوره في تاريخ الصراحة) جاء الى مجلة الاذاعة واستكتبني فاخترت الترجمة عن السيكلوجست، وسلسلتي التي تبلغ مئات المقالات ونشرتها مجلة الاذاعة مدى عشر سنوات منذ ١٩٦٨ يمكن ان نستخلص منها عدة مجلدات.

البلمانزم:

وعن طريق مجلة السايكلوجست (من اعلاناتها) عرفت البلمانزم ـ وهو منهج تربية عقلية ـ يرتبط تاريخي معه في سنة ٤٤/١٩٤٥ بتبلور هدف احتراف الصحافة (ولذلك فإن هذه القصة أؤجلها لحلقة تالية).

تجربة تحليل نفسي:

في سنة ١٩٤٠ كنت اتسكع بشارع الشواربي بالقاهرة وعثرت في فترينة أحد المتاجر على كتيب سيكلوجي باللغة الانجليزية فاشتريته، وقرأته وعرفت المؤلف الدكتور شكري جرجس، فالكتاب يدل عليه وعلى تخصصه في التحليل النفسي، وعنوانه بعمارة الأنيون للتأمين في نفس المنطقة (شارع فؤاد وشامبليون ومجمع المحاكم المختلطة)... وهذه القصة أحب أن أؤجلها لسياق آخر لأهميتها في حياتي.



المهدي فرز لجدي الكتب التي كان يدرسها ١٨٨٥م..
بابكر بدري قدم لي خدمة في سنة ١٩٢١م..
ملء طاقيتي دقة صابون بتعريفة لغسيل يوم الجمعة..

مات والدي سنة ١٩١٩ وكان له دكان صغير تولى ادارته بعده رجل استوصى علينا من أبناء العمومة، وأقلس الدكان بعد عام واحد، وكانت لنا بقرات ما لبثت ان نفقت بسبب المحل (انقراض الحشائش بسبب الجفاف).

أهلنا الأنصار:

وولكن أسرة والدتي تولت كفالتنا: أمي رحمها الله، بنت المنا ابنة الفكي أحمد ود حمدان أمير راية العركيين الذي استشهد بموقعة كرري بأمدرمان ١٨٩٨.

جدي ود حمدان من أعراك غرب السودان، وأهلنا عركيو الغرب تقول دعواهم انهم الأصل بينما أهلهم بالجزيرة وضواحي أمدرمان السروراب والنوفلاب...الخ. وهم الفروع، يضربون المثل بأن أم حراز بكردفان ولدت (أب حراز) المجاورة لحنتوب شرقي النيل الأزرق من واد مدني.

ذهب ود حمدان من أبي زبد ـ القريبة من المجلد ـ الى المهدي بجبل قدير ـ من جبال النوبة الشرقية ـ حيث كان قد تحصن هناك بعد انتصاره في معركة الجزيرة أبا ١٨٨١:

واشترك ود حمدان مقاتلا في معارك قدير ١٨٨٢، بارا والأبيض وشيكان ١٨٨٣ والخرطوم ينـاير ١٨٨٥.

المهدي يسنسر:

ومحمد احمد المهدي قبل وفاته في يونيو ١٨٨٥ كان قد عمل على ترسيخ ونشر تعاليمه الدينية، حيث عطل الطرق الصوفية، وأبطل العمل بالمذاهب، وأحرق العديد من الكتب، وركز على تفسير القرآن والسنن الصحيحة (راجع الصفحات ٣٤٥/ ٣٥٤ من كتاب البروفيسور مكي شبيكة ـ السودان عبر القرون ـ الطبعة الثانية، دار الثقافة بيروت ١٩٦٥).

* وننقل النص التالي عن الكتاب المذكور ص ٣٤٩ بدون تصحيح الأخطاء: (وكان الفكي احمد ود حمدان العركي، عرض كشف كتب للمهدي، ويرغب الاذن من المهدي ان يقرأهم ويقرئهم، فأجابه المهدي بأن يترك جميع ما ذكره من الكتب التي بالكشف، ويستعمل تفسير القرآن والحديث والسير الصحيحة المسنودة واما كشف الغمة للشيخ عبدالوهاب الشعراني فهو مقبول).

مع الخليفة:

وعمل ود حمدان بالقضاء في عهد الخليفة عبدالله ود تورشين (راجع الجزء الأول من كتاب القضاء في السودان تاليف الشيخ حسين المفتي).

* بالاسف كان جدنا ود حمدان مع الاجماع الذي وقف مع الخليفة ضد الشهيد الشيخ الحسـين الزهراء.

* أما قيادة الأمير احمد ود حمدان لراية العركيين فهي ثابتة في المستندات الحربية (راجع دراسة كرري للرائد زلفو).

الرحيل الى سنجة:

كانت لود حمدان زوجات من أعراك الجزيرة (رفاعة، جدتنا) وأب حراز والرضمة.. وكان له ثلاثة أبناء مكين ومختار ونور المدينة (الأخير ذهبت معه والدتنا واختها شقيقتها، لانهما كانتا صغيرتين، بينما ذهبت خالات أخريات مع الأزواج أو الأهل) واختار خالنا الفكي محمد نور المدينة الرحيل الى سنجة، بالاتفاق مع مشايخ قبيلة كنانة الكواتيل التي تربطنا بهم مصاهرة.

وذهب مع الخال نور المدينة بعض أخواته وبعض الأقارب من أعراك الغرب وبعض الجيران (التلاميذ) والموالي.. واستقروا ببلدة (تيقو) من (ضهاري) سنجة يعني في القرى البعيدة من النيل وهي منطقة كانت وما تزال خصبة وظلت تزرع بالمطر قبل ان تمتد منها وإليها الزراعة الآلية، التي جربت أولاً في منطقة القضارف في الخمسينات.

مساكنهم بأمدرمان:

كان ورثة ود حمدان قد هجروا منازلهم بأمدرمان ولم يسألوا عنها، وجاء أحد تلاميذه الى البقعة، وذهب الى كل من المشايخ الاجلاء محمد ود البدوي، ومحمد عمر البنا (الأكبر، صاحب قصيدة الحرب صبر) ومدثر الحجاز - بحسبانهم من زملاء ود حمدان، واستشارهم التلميذ (الخال سالم) في كيفية استرداد البيوت، فقالوا له: الأحسن ان تقنع الفكي نور المدينة بتولي الأمر بنفسه، وبالعدم جيء منه بتوكيل شرعي مع تواكيل من الورثاء الآخرين.

* ولكن خالنا نور المدينة قال انه لا يريد بيوتاً في البقعة بعد ان انتقل المهدي وانتقل خليفته (كان رحمه الله زاهدا، ومن عاداته رفض النوم على مرتبة القطن عندنا بسنجة مفضلا البرش على العنقريب).

* وانقسمت أسرة ود حمدان، فأقام بعضهم بقرى (أم بنين، بانت، أب كداية وهذه تقع على الذيل الأزرق، وقد وصلتها مشاريع الطلمبات في الخمسينات.

شربنا ماء الطملة:

أما ابن عمنا (الوصي) فقد اخذني معه مرتين الى (بلاده) بسنجة كان يجري بالسلوكة الجراية (بحفر الحفر) وكانت مهمتي ان (اتيرب) خلفه أي أرمي البذور في الحفر.

* كان عمري ست سنوات وكان ذلك الجري شاقاً على شخصي طوال خمس ساعات من السادسة الى الحادية عشرة (نهاية موعد الضحوة) وفي تلك النهاية نجلس في ظل الشجرة ونشرب ماء (الطملة) الترعة الضحلة من ماء المطر الشديد الامتزاج بالطين - بل قمنا بعجن الكسرة بماء الطملة (تنطق بثلاث فتحات).

* ولما حدثت أمي رحمها الله عن تلك الوجبة العجيبة، الكسرة الممزوجة بماء الطملة الذي شربناه أيضاً، بل شربنا (الموص) نفسه وهو ثخين، بسبب الطين وليس بسبب كثافة كسرة الذرة ودعكر... قالت لي الأم كلمتها الساخرة التي كانت ترددها كثيرا (العوافة مستضرة) والعوافة بواو مشدد، مؤنث عواف، وهو الذي يرفض الطعام نافراً من ريحته او قذارته... الخ.

تعال يا أبوطاقية:

كانت أمي قد خافت علينا من استبداد الوصي بنا واستغلاله لنا، وظلت تلح علينا (أنا وأخي الاصغر) في الذهاب الى خلوة الفكي نور الدين.. وشجعتني على الذهاب مع أبناء الجيران الى المدرسة الأولية.. وقد ذهبت مرة مع ابن جار لنا من الشام كان جزاراً اسمه جوزيف.. واستطعت الاقلات من الطابور حتى دخلت الى الفصل، فجاء عريف تحت التمرين وناداني (تعال أنت يا أبو طاقية... روح بيتكم) وكان هذا العريف هو أستاذنا فيما بعد الشيخ ابراهيم سليمان...

* وأدركنا ان هذه لم تكن الطريقة الصحيحة للذهاب الى المدرسة، ولم نجد عوناً من أبناء العمومة، فذهبنا الى أحد أصدقاء المرحوم والدي وقد تطوع باصطحابي الى ناظر المدرسة الشيخ الهادي الحاج الأمين رحمه الله فقبلني، وسجلت (مزارعاً) وكان هذا صحيحاً كما سيأتي ـ ولكن المزارع كان معفى من الدفع الفوري لمبلغ عشرة قروش في كل شهر، ذلك لأن نسبة من المال كانت تؤخذ من المزارعين ضمن (أو) مع ضريبة المحصول بصفة اتاوة خاصة للتعليم (الذي ما كان المزارعون الحقيقيون ينالون منه شيئاً).

* لما أخذني فراش الناظر لفصل السنة الأولى أشار علي الشيخ دفع الله بالجلوس في صف أمامي ـ ولكنني لم أفهم اشارته فجلست على كرسي الخيزران المخصص للمدرسين ـ فضج الفصل بالضحك.

الشيخ بابكر بدري:

والصف الأول الذي أجلست به كان مخصصاً للتلاميذ الجدد ـ بعضهم لا يعرفون (ألف باء تاء) ولم يوزعوا علينا ألواح اردواز ولا ألواح خشب ولا أقلام بوص وكانوا يتجاهلوننا، ولكنني جئت أعرف الكتابة والقراءة من خلوة الفكي نور الدين، ولذلك صرت أحضر معي من بيتنا الأوراق وأقلام الرصاص وأكتب دروس الاملاء على الاقل... ولم يهتم بي أحد.

* ثم جاء مولانا المرحوم الشيخ بابكر بدري نفسه بوصفه مفتش تعليم (ارجح ١٩٢١) وأجرى اختباراً لنا اشتركت فيه بالأوراق ـ مع ان الفصل كان يستعمل ألواح الاردواز ـ (الأمر الذي لفت نظر المدرس والمفتش وجرى نقلي حالاً الى صف الشطار) (من صف البلداء).

* ولقننا الشيخ بابكر بدري في ذلك اليوم نشيداً يربط الحروف الهجائية مع الحركات:يا الف با با يابى با يبتو..الخ.

دانقة منشي:

كان أهلنا القرويون يسمون بيت الطوب (دانقة) وكان شارعنا يحتوي على (دانقة منشي) في العشرينات كانت أكثر بيوت حينا من قطاطي القش.

كان منشي تاجراً يهودياً مات بسنجة، وكان جارنا، ولقد علمت انه في يوم موته قبل (١٩١٩) كان آباؤنا قد اجتمعوا حول فراشه واخذته سكرات الموت (يقوم يقع ويصرخ ويزبد) وقالوا ان والدي تطوع فثبته بالقوة على فراشه الى ان مات (أهلنا يعتقدون ان الكافر يعاني سكرات الموت ساعة الاحتضار لأنه يرى مناظر مخيفة ـ بينما تنزل السكينة على المؤمن مع المباهج التي تستقبله لدى الموت).

* سافر جارنا محمد بشير مع أسرة اليهودي منشي حتى أوصلهم الى أقاربهم باسكندرية ـ وجاء يتحدث عن اباحة الخمور بمصر حتى للسودانيين ـ وهم المحرمة عليهم في بلادهم كجزء من أفريقيا بموجب ميثاق دولي يحرم بيع الخمور المستوردة والأسلحة النارية للأفريقيين، ضمن الوسائل المنتهجة لانهاء تجارة

الرقيق (أنهي حظر الخمر هذا تدريجياً ابتداء من ١٩٤٠).

* ولست أدري من الذي اشترى دانقة منشي، ولكن ساكنيها في ١٩٢١ كانوا أسرة الشامي الجزار جوزيف.

تفسير عبس:

في العام التالي ١٩٢٢ آلت دانقة منشي الى أسرة قبطية ودودة كانت تملك الطاحونة الوحيدة وهي بخارية عتيقة مقامة بغابة السنط المجاورة لبيوتنا، وكان وقودها من حطب نفس الغابة، وكنا نستحم في حوض الماء المغلي المردود من الطاحونة البخارية (بعد ان يبرد قليلاً).

* وفي ظهر أحد الأيام جلست تحت ظل الدانقة بالشارع وكنت أقرأ جزء عم، فجاء عم غبريال صاحب الطاحونة وجلس معي واستمع الى قراءتي من سورة عبس، وصحح غلطاتي واستمع لي حيث حكيت له بطريقة صبيانية ان المدرس فسر لنا السورة بأن النبي (صر وشو) على راجل أعمى مسكين عشان كان يتكلم مع ناس كبارات.

* الغريب ان عم غبريال قد غضب جداً وقال لي ان هذه قلة أدب.. أوع تتكلم تاني زي الكلام دا في حق النبي العظيم (وتناول جزء عم مني وتلا احدى السور بخشوع شديد).

* بعد فترة حكيت هذه الحكاية مستغرباً ذلك الكلام من (خواجة نصراني) فوجدت من قال لي (انهم من أولاد بولس بالمسالمة بأمدرمان، وكانوا مسلمين في المهدية، وتدار في منازلهم الآن - إذ ذاك - خلوة قرآن).

عشيرة ود حمدان:

وظل أهلنا من عشيرة ود حمدان سواء بالضهاري أو قرى النيل الأزرق، يأتوننا في (الدرت) شهور اكتوبر الى ديسمبر في كل عام، وهي شهور الحصاد - بأنصبة من محاصيلهم المطرية والنيلية - ذرة او دخن وسمسم ولوبيا بيضاء وبامية مجففة، بخلاف الويكة التي هي البامية (البروس) التي تجمع من الأراضي البور بل كانوا يأتون لنا بالعنكوليب المجفف والنبق - الحب والمطبوخ (تابول - وهو يشبه ويتفوق على البسبوسة) وكذلك بعضهم يحمل اللالوب ومربة اللالوب (السرنو) ويحضرون لنا زيت الدملوج والدملوج هو بذور اللالوب.. والسمسم نفسه أحياناً يعصرونه ويحضرونه لنا بصفة زيت - بل يحضرون لنا السمن والعسل - الأول من البانهم والثاني يشترونه في الغابات.

* وكنا نتفنن في طعامنا كل درت.. هل تعرفون يا أولاد المدن ما هي (البتنة)؟ انها البليلة المخلوطة بالسمسم المقلي المدقوق؟ (البتنة بفتح الباء واسكان التاء).

* هل تعرفون عصيدة الدخن اللذيذة باللبن، او بالسمن والعسل؟.

* هل ذقتم بليلة الدخن الساخنة باللبن والسكر، وهي ألذ من البليلة المصرية في ليالي الشتاء بشوارع القاهرة؟

* هل تعلمون ما معنى (القراصة أم نارين)؟

وبلاد لنا أيضاً:

كل تلك المحاصيل عبارة عن هدايا: ولكنهم كانوا أيضاً يزرعون باسم والدتي (بلادا) خاصة بها: وكل ما كان علينا هو ان نرسل لهم البذور وبعض الهدايا من السوق ملح وشطة وبن وسكر وشاي وتمر، وكذلك حرجل وشب لبخور الوردة، بكسر الواو، وهي الملاريا.

مضيفون:

اننا برغم فقرنا كنا مضيوفين ـ دائماً الحمير مربوطة ـ وتتصاعد من بيوتنا مناقرات الرجال وورجفة النسوان.

* وكان الضيوف هم أهلنا المشار اليهم عركيون آخرون من (الرايات) شمالي سنجة على النيل الأزرق (وهي تجاور الرماش بتاعة أغنية يا سايق الفيات).

* ها هنا يجب ان أذكر ان جيراننا واصهارنا وأقاربنا في الجوار كانوا يشاركوننا الاستضافة فيرسلون لنا صوانيهم واقداحهم (قصعة الطعام المنجورة من الحطب).

رحلة الى تيقو:

ذهبت في أوائل العشرينات الى تيقو بمناسبة ختان حمدان ود خالي.. تيقو لم يكن بها ماء.. كانوا يرسلون الراو ية الى (ام قندول) حيث يحضرون الماء من بئر هناك.

رأيت الفتيات في حفلات الطهور يلصقن التمر على خصلات شعورهن من أجل الرقص.

وطبعاً تعرفون (القيد) أصدقاء العريس يجلسون على السباتة، وتدرع لهم المطربة المسابح النسوية في رقابهم، كناية عن الأسر.. ثم يفتدون انفسهم بالجنيهات.

* ولكن (قيد تيقو) في تلك الأيام كانت بواسطة الربط بالحبال.. والفدية كانت بالقروش (عشرة قروش أو أقل).

رحلة من أجل ابرة:

وذهبت مرة الى اهلي بقرى أم بنين على النيل الأزرق.. احتاج الأهل في أحد الأيام الى ابرة خياطة يدوية، لم يجدوها عند كائن من كان بالقرية ـ فارسلوني أنا مع احدى بنات الأسرة الى القرية الأخرى لاستعارة ابرة..

كانوا في تلك الأيام يحضرون اللحم والرغيف والتمر والفينو...الخ (يوم السوق) من سنجة أو دار عقيل (للترفيه) والآن صارت لديهم أفران وجزارات (وفي حالة أم بنين ماء بالحنفيات) ومن ابنائهم الآن عشرات المثقفين وبينهم أطباء).

دقة الصابون:

كنت في كل يوم جمعة (١٩٢١ـ١٩٢٤) اشيل تعريفة (قطعة نصف القرش الذي حدث إلغاؤها أخيراً) واذهب الى جيراننا آل ابودرق، ويملأون لي طاقيتي (دقة صابون) كانوا يصنعون الصابون البلدي الأبيض الناصع المشهور عندنا باسم (الصابون الكركوجي) وهو يصنع من زيت السمسم (أو زيت الدملوج) ويضاف اليه (الدالي) بتشديد اللام ـ وهو رماد عشب معين يحتوي على صودا نباتية.. (ثم يضاف الجير وملح الطعام ويستقطر المزيد فيترسب بشكل صابون يجمد ويقطع) وأما أنا فكان نصيبي ملء طاقيتي من دقة الصابون كل يوم جمعة، حيث يتم غسل ملابسي وملابس أخي من اجل المدرسة).

الويكاب:

وكان أهلنا القرويين يستقطرون من نفس نبات الدالي أو غيره ملحاً معيناً نضيفه الى مـلاح اللوبيا (اشتهيه في هذه الأيام بشدة)، أعني الويكاب وهذا أحياناً يستقطر بسرعة من رماد أي قش ويضاف الى ملاح اللبن و(ويكاب اللبن).

※ وقد يغضب أهلي الكردفانيون حينما يعلمون انني لا أحب (الكول) بفتحتين وهو نبات معين يجفف ويصير شديد السواد، ويضيفونه الى أي طعام بصفة أحد التوابل، ورائحته منفرة في أنفي وكما قالت أمي (العوافة مستضرة).

※ وهكذا عبر اغبش طفولته.

※ ※ ※

«حاشية» سوف اتحدث عن جدتي بوالدتي التي هي ليست عركية فقط بل جعليه أيضاً. وهذا يحملني على افتراض ان (ودالنمير) انما هو أمير جعلي أما اسرة والدي فانها تذهب بي الى قضية خطيرة.

* * * *

ومفاجأة أغبش عن أصل أبيه

والدنا: هو رجب افندي محمد رجب ـ توفي بسنجة ١٩١٩م وكان مولوداً ببلدة عصار (من قرى الضبانية بجوار كساب ـ القضارف)..

جدنا لأبينا هو محمد رجب نازح حجازي ينتسب الى أسرة بني شيبة (التي تتوارث سدانة ـ يعني حفظ وصيانة بيت الله ـ الكعبة ـ منذ الجاهلية ـ وفي الجاهلية كان اسمهم آل عبدالدار ـ ويوم فتح مكة ـ كان مفتاح الكعبة في يد سيدنا عثمان بن طلحة من آل عبدالدار، وكان قد أسلم وهاجر)، وحاول الامام علي أن ينتزع المفتاح من سيدنا عثمان بن طلحة ولكن النبي صلى الله عليه وسلم أمر برده اليه ـ عثمان بن طلحة لم يكن له أبناء ولذلك آلت تركة المفتاح الى بني أخيه (شيبة)...

لوالدنا أخ واحد هو «أحمد» أبو «خديجة» ـ والدة أحمد ابراهيم عرابي (حفيد الباشا الثائر) وكان ابراهيم (ود الباشا) موظفاً بالسودان وتزوج ابنة عمنا.

لوالدنا أخت واحدة كان اسمها «عيشة» (عائشة) ولم يكن لها أبناء.

والدة والدنا من المغاربة بعصار ـ ولهم علاقات بواد مدني آل البوشي، وحميدة سليمان ـ وبالهلالية، وقرية ود السيد شرق قنب بمنطقة الحصاحيصا ورفاعة. (أقرب أقارب والدنا المغاربة بسنجة البساتين ـ وبعصار اسماعيل سليمان (كساب) بالقضارف وأبناء أعمامه (أولاد محمد صالح، وكان والدنا خالهم ـ وترك لهم جنينة بعصار ـ رأينا آثارها في سنة ١٩٣٧م).

كان والدنا قد تعلم بمدرسة التاكة (كسلا) ـ في عهد الحكم المصري ـ وصار ضابطاً ـ وكان أحد ضابطين فقط بحامية سنار الصامدة للحصار حتى سقطت الخرطوم ومقتل غردون ـ ولم يسلم والدنا وزميله

بسنار إلا بعد وفاة المهدي سنة ١٨٨٥م (ثم بايع ـ وعاش قليلاً بأمدرمان) وكان الشيخ محمد عبدالماجد (جد أمير الصاوي) صديقه وأستاذه، كانوا جميعاً بسنار أثناء الحصار ورحلوا الى أمدرمان بعد التسليم

في فترة المهدية كان والدنا يذهب مع قوافل التجارة لمصر.

ومن زملائه في التجارة العم حسين أبوحاج (جد احمد وبابكر وزين العابدين مصطفى أبوحاج...الخ).

بعد قيام الحكم الثنائي اشتغل والدنا في مديرية سنار موظفاً، وهذه المديرية نقلت عاصمتها لسنجة وسميت مديرية الفونج.

وفي سنوات ١٥/١٩١٧م تقريباً كان والدنا يعمل «معاوناً» بسوق المحصول ـ ثم استعفى وصارت له تجارة بسيطة بالسوق وأبقار بالمنزل الى ان توفي ١٩١٩م.

تزوج والدنا والدتنا بسنجة أوتيقو سنة ١٩١٢م تقريباً وولد أخونا نورالدين ١٩١٣م (مات صغيرا) وأنا ١٩١٥م وشقيقي علي ١٩١٦م تقريباً.

والدتنا: «بنت المنا» ـ بنت الفكي أحمد حمدان ـ أمير راية العركيين في معركة كرري. استشهد بها في سبتمبر١٨٩٨م.

جدنا ود حمدان عالم ديني في الفقه، من أقرانه في المهدية ود البنا الكبير، وربما من تلاميذه ود البدوي.

جدنا هو الوحيد المذكور بصفته «عالم فقه» كانت له حلقة تدريس ـ وقد أملى عليه المهدي عدم تدريس بعض الكتب ـ (راجع مكي شبيكة ـ السودان عبر القرون ـ السودان في قرن ـ الخ).

كان جدنا ود حمدان قاضياً في عهد خليفة المهدي (راجع كتاب تاريخ القضاء في السودان، تاليف حسين المفتي ـ الجزء الأول).

لجدنا ود حمدان أعقاب في كل من سنجة وضهاريها وأبوحراز والرضمة وواد مدني ـ بالجزيرة ـ والقضارف (الحميليات والدلسات) وأبوزبد والنهود بكردفان والجزيرة أبا...الخ.

جدتنا لأمنا فاطمة بنت عبدالله شرف الدين هي أخت المليك عبدالله شرف الدين واخوانه دفع الله وعلي وغيرهم (فالشيخ بابكر المليك والشيخ يوسف دفع الله ومحمد بن دفع الله ـ الخ ـ أخوالنا).

والد جدتنا هو الشيخ عبدالله شرف الدين له بَنِيَة بقرية السوريبة بالجزيرة ـ ولآل شرف الدين سجادة قادرية بالنيل الأبيض ـ.

ولآل شرف الدين قرابات بعركيين آخرين من منطقة السواراب والتوفلاب بأمدرمان ـ منهم عبدالمحمود وقسم الله الأمين ـ ومنهم دفع الله الجيلاني المرضى (بالسواراب) وبهم قرابات بالرباطاب أحمد حسين والصافي حسين بواد مدني.

جدتنا والدتها جعلية من التراجمة بمنطقة شندي ـ وكان المهدي أحمد من أعيان أمدرمان «خالها» ـ وهو جد بشير محمد سعيد من ناحية والدته ـ.

مفتش المركز الانجليزي حاول حرق منزلنا ـ لماذا؟
بدأت معرفة الصحف مع ثورة ١٩٢٤ وعمري ٩ سنوات

كان الموكب مهيباً في صباح كل سبت وثلاثاء.. مفتش المركز الانجليزي (المستر بيسل) والمأمور المصري، ونائب المأمور السوداني ثلاثتهم على ظهور الجياد، وقد يكون معهم ضابط بوليس على جواد رابع ـ ثم يتتابع راكبو الحمير، العمدة وشيخ السوق ومشايخ الارباع ـ وحلاق الصحة (موظف طبي ذو واجبات طبية وصحية هامة، ولكن لماذا كان يسمونه حلاقاً؟ ان آخر حلاق صحة عرفته كان جارنا حسين الفار، من أصل مصري، وهو الذي استخرج شهادة وفاة والدي في سنة ١٩١٩) وكذلك كان بعض عساكر البوليس يمتطون البغال خلف الموكب، وبعض الجنود غير النظاميين يسمونهم المحافظين يجرون على اقدامهم وراء الحملة المهيبة.

كل هذا الموكب ضدنا:

اليكم القصة... في سنة ١٩٢٢ وقبلها وبعدها كان يقيم بسنجة مستخدم طويل وعريض ذو صوت جهير، كان اسمه محمود ابوالدقة ـ بضم الدال وتشديد القاف ـ وهو مصري صعيدي سمعت على لسانه أن أهله بأسيوط عاصمة الصعيد:

كان ابوالدقة يجوب بلدة سنجة في مساء بعض الأيام وهو ينادي: (اسمعوا الاوامر والتنبيه.. بكرة يوم التفتيش، النظافة في كل بيت بره ـ و ـ جوه).

(وجناب المفتش يأمركم بتصليح الصرفان ـ ما فيش صريف يكون ناقص أو واقع ولازم تكون الشعب (جمع شعبة) في الصريف من جوه والسواجة (السياجة بالفلكاب) تكون من بره.. تفتيش الصرفان يكون يوم السبت الجايي، والما يصلح صريفه يشوف شغله).

الانجليزي حرق بيتنا:

وفي يوم السبت كنت بدكان عم عمر حماد، لما رأيت الناس يتسابقون في الجري ناحية بيوتنا ـ وجريت معهم، ورأيت المفتش المستر بيسل، بعد أن جمع الناس بصرخات جنونية قد أخرج علبة كبريت من جيبه واضرم النار في صريف منزلنا (نحن أسرة اغبش) ثم امتطى حصانه وألهب ظهره بالسوط متجهاً الى منزله، وقد تتابع أعضاء الموكب فتفرقوا.

وسارع المتفرجون الى إطفاء النار بإلقاء الصريف على الأرض ودفن ألسنة اللهب بالتراب ـ وتدافع الصبية واحضروا الماء من البيوت المجاورة.

كان الحريق يمكن أن ينتشر، ونحن لعشرات السنين قبل وبعد ذلك كنا نسمع أو نقرأ أن الحريق في سنجة أو سنار او كوستي أو أم روابة... الخ. قد دمر مئات المنازل، والسبب في العادة هو تطاير الشرر من مثل هذا الحادث:

ما ذنبنا؟

ان ذنبنا كان هو عدم إعادة بناء الصريف وجعل الشعب من الداخل والسياج بالفلكاب من الخارج ـ لتكون المناظر جميلة في عيني المستر بيسل الخضراوين... والحقيقة أن التنافس على إعادة بناء مئات

الصرفان في مساحة ثلاثة أيام كان قد أدى الى رواج الموريب (قش نيلي) والشعب (الأعواد التي على رأسها علامة النصر «٧») الفلكاب الذي هو أعواد طويلة عبارة عن فروع أو عروق شجر... كذلك فان العمال المتخصصين في هذه المهمة انما هم نازحون من شرقي النيل ـ او الضهاري البعيدة ـ وقد أدى الرواج المفتعل الى زيادة أجورهم:

من أين لوالدة أغبش وحبوبته مبلغ ١٠ جنيهات لتصليح الصرفان؟ (هؤلاء العمال الذين يبنون القطاطي او الصرفان، بخلاف الأجرة نأكل وجباتنا معهم).

نكتة:

قال الفتى القروي لزميله (انت ما شفت أمدرمان...)؟

ـ منو قال ليك، أنا شفتها السنة الفاتت ولما أمشي في الشارع، البنات يتاوقن لي من الصرفان!

١٩٢٤:

كان دكان عم عمر حماد بجوار دكان والدي الذي كنت أجيء معه في حياته ١٩١٨/١٩١٩، وكنت أحمل اللحم والخضار ـ وفي يوم كنت أهتف في شارع بيتنا، الليلة جابوا ليكم لحم الكرور ـ وبقر الكرور هو البقر الحبشي الهزيل الذي لا بلحمه شحم وهو الآن في هذه الأيام (١٩٨٤) يصل الى القضارف.

وكنت اذهب مع (الوصي) في أيام إدارة دكان والدي بعد موته.. ولذلك لم أجد مانعاً حينما طلب مني عم عمر حماد الحضور في دكانه، بل صرت أتذوق حديث الأعمام عن الحوادث، وسمعت عن ثورة ١٩٢٤ نفسها ـ وقرأت البيان الحكومي بجريدة حضارة السودان في ذلك الدكان، وكنت أحضر جريدتي «الأهرام» و«المقطم» المصريتين من عم ابراهيم أفندي العبد الى عم عمر حماد، وكثيراً ما كنت اقلبهما وأتهجأ فيهما.

الزفة الدينية:.

جرت العاده في تلك الأيام ان تخرج زفة رسمية بها الجيش والبوليس والموسيقى العسكرية (كانت سنجة عاصمة مديرية سنار، ثم سميت مديرية الفونج، قبل ادماجها في النيل الأزرق ١٩٣٦)... هذه الزفة تخرج أما في اليوم السابق لعيد الفطر او عيد الأضحى ـ أو ـ في آخر أيام الاحتفال بالمولد النبوي، أي اليوم الحادي عشر من ربيع الأول.

في إحدى هذه الزفات، رأيت ضابطا سودانياً يمتطي حصاناً، ويطرده مبتعداً عن الزفة ـ ويهتف: «يعيش رأس سعد زغلول باشا»...

ومن التاريخ نعلم الآن أن الاحتلال البريطاني كان في سنة ١٩٢٤ قد تضايق من نجاح حزب الوفد برئاسة سعد زغلول في الانتخابات بمصر، وتوليه الحكم، ومن ثم جرت الاملاءات التي صدرت على لسان المندوب السامي اللورد اللنبي بطرد الجيش المصري من السودان واجراءات أو تهديدات أخرى (على أثر حوادث ثورة ١٩٢٤ بالسودان).

جو الخلوة:

ان انتظامي بالمدرسة الأولية وذهابي في العطلة الى دكان عمر حماد مما قطع صلاتي بخلوة الفكي نور الدين... وتقاليد خلاوي القرآن معروفة لدى القراء، ولكن يجب أن أشير الى (الفزعة) وهي أن يذهب الحيران الى الغابة من أجل إحضار الحطب وإيقاد (تقابة) الضوء للقراءة في الليل.

أنا وشقيقي كنا نحمل بعض الأعواد من منزلنا ـ لأننا كنا صغيرين كذلك لم تكن لنا مصلحة في السهر، والشوارع تعج بالكلاب لأن المرافعة جمع مرفعين ـ وهو الذئب ـ تغزو البلدة مبكرة جداً، وتختطف الأغنام

وتبقر بطون الأبقار والحمير (والعجيب أنني لاحظت في تلك الأيام ان البغل، وهو ابن الحمار من أمه الفرس، يؤذي الذئب بضربة ـ جوز ـ من قائمتيه الخلفيتين ـ بل كان البغل تعتريه الحماسة عند رؤية الذئب لدرجة تقطيع سلاسل الجنزير المربوط به).

وتقليد (الشرافة) معروف، وقد تشرفت أنا بحفظ سورة «البينة» وقد زيّنوا لي لوحي بالألوان الزاهية، وأحضرنا من منزلنا صينية طعام ـ ثم ذهبنا الى البيوت مع نشيد «يا رب يا مولانا» وجمعنا في مقطف بعض الذرة ـ ومن الدكاكين شوية تمر ـ ولكننا تقاسمنا القروش ولم نوصلها للفكي نور الدين.

الذهاب الى الصدقة:

الصدقة في اصطلاحنا كانت الطعام الذي يقدم للفقراء أو لقراء القرآن بصفة صدقة على روح الشخص الميت.

كان أهلنا يمنعوننا من الذهاب الى بيوت الصدقات، ولكننا كنا نذهب ونعتذر بأن الفكي عنده سوط.. وفي بيت المأتم يقعد شيخنا مع حيرانه الكبار ويتلون القرآن من المصاحف، بينما كان المطلوب من الحيران الصغار تلاوة سورة «قل هو الله أحد».

فتح الخشم:

كان من عاده الحيران الكبار المطالبة بقدح طعام قبل الشروع في التلاوة ـ ويسمونه (فتح الخشم): مع أن أصحاب المأتم كانوا يأكلون الطعام الخاص بهم ـ قال أحدهم للفقراء (الأكل لم ينضج) ـ ثم قال (وسمعناه): صدق من قال، ان الفقير (فكي القرآن) بطنه بطن سبعة مرافعة (ذئاب).

ونحن الحيران الصغار لما يأتي الطعام ننسى وصايا آبائنا، ونتخاطف اللحم والرز واللقيمات والتمر ـ ثم نجلس هادئين ونأكل التسقية (الثريد).

والفكي نورالدين كان يحمل كيس قماش ويملأه من الرز واللحم واللقيمات والتمر المبلول ـ كلها مع بعض ـ وفي اليوم التالي يوزع هذا الطعام على الأطفال في نهاية زمن القراية حيث يكونون جائعين وينسون نواهي أهلهم.

من أين لنا النقود؟

ان إعانات أهلنا من العركيين من تيقو وأب كداية ـ و ـ الرايات ـ في أيام الحصاد، كانت نادراً ما تتحول الى نقود... ولكنها على كل حال ظلت تسد الكثير من مطالبنا، والمحصول يجود في عام وينقص في آخر.

كان بعض جيراننا بسنجة يقدمون لنا أشياء، مثلاً السيدة كنانة زوجة العمدة عمر الخضر تأتينا في كل موسم بكمية من القمح... وكان عمنا علي سيفو يزرع وينتج دباء (قرعاً) مستطيل الشكل، ولكنه عسلي الحلاوة، لم أذق مثيلاً له منذ العشرينات، وقد ظل يرسل لنا هديته السنوية في حياة والدي وبعد وفاته، وكان أقارب وأصدقاء للوالد تصلنا منهم مبرات أخرى البصل من ساقية الأخ المرحوم/سليمان ود علي، والموز من الحامدية، وكنا نذهب الى معصرة عم الشيخ صالح المنشد رحمه الله، ونحمل منه الامباز (الكسب) قبل أن تموت بقراتنا، وكذلك ظلت تصلنا المبرات من جيراننا وبني عمومتنا (المغاربة) وأصهارنا (آل معتوق) ومجموعة الجيرة الودودة جداً الذين نسميهم الدناقلة ـ عائلات النصري والحكيم وقوته... الخ: (ونحن برغم فقرنا كانت تتيسر لنا في بعض الأحيان أشياء نهديها لأهلنا وجيراننا).

وكان يوجد رجال قد أخذوا من والدنا بعض القروض الحسنة، وقد حرصوا على الأداء لنا.

بعنا حتى المكوة:

مع ذلك باعت أمهاتنا حلي الذهب والفضة، وبعنا صواني النحاس المنقوش عليها اسم والدنا، وبعنا «المكوة» وبذلك سمحنا للقمل ان يستنزف دماءنا الشحيحة.

حرف يدوية:

أمهاتنا كن يمارسن حرفاً يدوية معينة، ضفر البروش الملونة ـ من السعف المضافة اليه قشوش معينة يحضرنها من قرى أهلنا ـ ويغزلن خيوط القطن (بطريقة فنية على قاعدة «اللحمة والسدى» حيث كان يقيم مع بعض أهلنا نساجون أحباش ينسجون الفراد بطريقة ممتازة، تجعل قيمتها مجزية برغم رخص اسعار الأقمشة المستوردة).

كان الأحباش الذين يصلون الى منطقتنا في العشرينات من (القاللا) وهم المخالطون لعناصر من الفونج والزنوج باقليمنا بني شنقول (الذي تنازل عنه خليفة المهدي لامبراطور الحبشة في فترة الغزو الانجليزي المصري ـ كان برنامج حزب الاتحاديين الذي صاغوه عام ١٩٤٦ ينص على المطالبة باسترداد بني شنقول، وكان هذا النص شبه مزحة، مكايدة لزميلهم المرحوم ميخائيل بخيت حبشي السودان الوحيد).

كان الأحباش القاللا يتقاطرون علينا وهم بؤساء ويعملون غالباً في حرف بسيطة مثل نقل الماء من النهر بالاخراج على ظهور الحمير.

إعانات من الجزيرة:

كانت جدتنا (أم والدتنا) تذهب كل سنة لأقاربها في الجزيرة (رفاعة وواد مدني) وتحصل منهم على إعانات، تحولها الى سلع تتاجر بها، وهذا يجعل في يدها بعض النقود على امتداد السنة.

البروتين من أين؟.

هناك أمر لم أذكره وهو أن أقاربنا القرويين كانوا يحضرون لنا لحوم صيد مقددة (لحوم غزلان وزراف) بشكل شرموط... لم أكن أحب ريحة هذا الطعام مع أنهم يقولون لك ان (زناخته) هي سر لذته عندهم ـ وكما كانت أمي تقول لي (العوافة مستضرة).

واللحم في الجزارة لم يكن غالياً ـ فالاقة (كيلو وربع) من الضان في العشرينات لم تزد على ٢ قروش ـ في شهور النقص ـ والبقر طبعاً أقل، وكذلك لحم الابل ـ وفي العصر والمغرب ينادون على بضاعتهم بنصف الثمن، والدجاجة الجيدة بقرش ونصف (ونحن نربي الدجاج في بيوتنا).

وهناك ما كنا نسميه (النقاش) بضم النون وتشديد القاف وهي الاحشاء وكنا نشتري ما يعادل أقة بقرش واحد.

العوافة مستضرة:

العركيون كثيراً ما يرفضون أكل لحم البقر.. ووالدتنا نفسها صاحبة عبارة (العوافة مستضرة) كانت تعاني حساسية إزاء اللحم البقري (كانت تصاب بالمرض بالفعل).

أهلنا العركيون خصوصاً في أب حراز، كانوا يرفضون لحم البقر.. سمعت أحدهم ينتقد أحد أقاربه بقوله (انه تمرعف) اي صار ذئباً، لأنه يأكل لحم البقر!

هم كانوا وما زالوا يأكلون لحم الابل ولحم الماعز، ما هو رأيك ان المصريين يقولون الآن ان (لحم القمال) ضروري لتماسك الكفتة المشوية.

الجراية والنمك:

في تلك الأيام حتى سنة ١٩٢٤م كانت حبوبتنا تعود من السوق ومعها (جراية) - وهو رغيف اسمر من مخلوط دقيق القمح والذرة، وكان يخبز خصيصاً لجنود الجيش المصري (وهم كانوا عندنا سودانيين) وكانوا يعرضون بعض جرايتهم بالسوق ليحصلوا على نقود يشترون بها أشياء أخرى:

كنا نجد تلك الجراية لذيذة مؤدمة بالسخينة، أو تسقية مرقة النقاش التي يسميها طباخو السوق «كمونية» - وأحياناً كنا نأكلها مسقاة بـ «النمك» - النون اعجمية - وهو الاسم التركي للعدس المجروش الذي نسميه العدس المصري، وكان العساكر يبيعونه لنا أيضاً.

أتراك تمام:

ان أهلنا الأنصار في التركية والمهدية وفي عهد الحكم الثنائي الانجليزي المصري، كانوا يسمون كل واحد من مستخدمي الحكومة ابتداء من الجندي - حتى ولو كان سودانياً - يسمونه (التركاوي).

ولكن ما رأيكم؟ انه حتى في سنة ١٩٢٤ كان بين الجنود المصريين أتراك وأكراد وأرناؤوط (ألبانيين) وجميعهم يرطنون رطانتهم - فليصحح المؤرخون المصريون معلوماتهم،،فإن جنود عرابي الذين حاربوا معه (١٨٨٢) لم يكونوا كلهم فلاحين - ... وجردة هكس باشا التي ذبحت في غابة شيكان (١٨٨٣)، كان بينها نسبة محسوسة من الضباط وضباط الصف والجنود الأتراك (هكذا أفادت مراجع انجليزية) بل كان الأتراك موجودين في الجيش المصري بالسودان على الأقل، حتى عام ١٩٢٤م.

نكتة:

حدثني الأخ المرحوم الخليفة أحمد الجاك بالقضارف ان أحد العساكر المصريين الأتراك في سنة ١٩٢٤م اخترق سوق النسوان واشترى أشياء متعددة فولاً ونبقاً ولالوباً وقضيماً - وبدون أن يشعر كان بينها (الكول) - حمل الخليط في خوذته وجعل يأكل وهو ماش، وبدون ان يشعر وصلت قطعة «كول» الى «أضراصه» فلفظها متأففاً وجعل يصيح «فين المره البيبيع هرأ!!..الخ».

ويـا حليـل الطير الرحـل

كان قريـب لـي أصبح زحـل

والتـلامـذة السـكنـوا البحـر

المدرسة الأوليــة أسست عندي القـرآن والدين واللغة العـربية والحساب...الخ

في بيت الزار امرأة تصير مرفعينة وتأكل اللحم النيىء

سجنوا حبوبتي في غيابي وأخرجتها من السجن

استدنت بلح الشام بمليمين من خادم أحد المدرسين وكان يبيعه بالمدرسة ثم لم يرني الدائن إلا في آخر العام ـ وشاكلني ـ وكنت مستعداً للدفع في السنة التالية إلا أنه لم يجىء بعد انتهاء الاجازة (وبلح الشام لقيمات مستطيلة الشكل).

وكان البائع المنافس يبيع طعمية لذيذة بدون رغيف وكان هذا يظفر بمصروفي اليومي وهو قطعة عملة مصرية نيكلية كنا نسميها (عشرة) والكبار كانوا يسمونها ١٠ فضة، وهذا غلط فإنها في الحقيقة ٨ فضة فالقرش يساوي ٤٠ فضة، وكانت فواتير التجار ودفاترهم تقسم القرش بهذه الكمية (للدقة الشديدة) فإذا قرأت هذا الرقم ١٠,٢٠ قرش فمعناه عشرة قروش ونصف.. وفي الحقيقة كانت توجد بمصر عملة نيكلية تعادل ١٠ فضة وهي مضلعة الشكل ـ ويسميها القاهريون (عشرين تعريفة) ويهش لك الجرسون في أي مطعم حينما تنفحه بها عام ١٩٤٠ وما قبله).

وحقيقة اننا كنا مع الشاي في الصباح نتقاسم رغيفة ـ ان وجدت ـ وفي بعض الأيام لقيمات (هانت الزلابية) وأحياناً قراصة دخن (أو حتى كسرة عادية) وربما تمر علينا الفلاتية (الهوساوية) ونشتري منها (واينا) الياء ساكن وهي خبز من الدخن مقلي في الزيت (كنت استطيب هذا الطعام الفلاتي) ولم أذق ما يسمونه (القدو قدو) بفتح القاف وضم الدال ـ لأنهم يعجنونه في الروب بأيديهم ويشربونه. لذا كنت اعافه والعوافة مستضرة. كما قالت أمي رحمها الله كان ثمن قطعة الواينا (مليمين) وهي تكفي لاشباع التلميذ في وجبة الفطور.

ابتزاز:

وفي يوم من الأيام التقطت من قمامة المدرسة قطعـة مكسورة من لوح اردواز وضعتهـا في شنطتي المصنوعة من قماش الدمورية، ورآها عندي تلميذ يدعى (ض) وهو ابن تاجر نازح يسكنان مع جيراننا فجعل الأخ (ض) يهددني بإبلاغ الناظر عن سرقتي للوح الاردواز، فعرضت عليه رشوة وهي أن نذهب للسوق حيث يعطيني أحد الأقارب قرشاً كاملاً نشتري به فولاً وتمراً ونتقاسمه (وأجبرني على هذا عدة اسابيع) والحقيقة ان الاستثمار الأمثل لذلك القرش كان يتمثل في توصيله للبيت من أجل انتفاع الأسرة كلها.. ولذلك ثار المظلوم الذي هو أنا ـ انكم لن تخسروا سوى أغلالكم ـ جررت الأخ (ض) في يوم ما من ذراعه وقلت له يللا الى مكتب الناظر (فجعل يرتجف ويتملص) ومن ذلك اليوم (برد) لي قرشي كاملاً.

لا غياب:

لم أغب عن المدرسة الأولية ولا يوماً واحداً طوال ٤ سنوات، وقد مرضت مرتين وذهبت للمستشفى مع دفتر العيادة ـ مرة من أجل علاج رمد العينين ومرة من أجل علاج مرض أبو عديلات (التهاب النكفة).

أما (أم ملدم) فقد زارتني أثناء العطلة وكنا نشرب محلول بودرة الكينا للوقاية أو العلاج بالاضافة الى

بخور الشب والقرض، والعجيب انني في هجمة ملاريا شديدة شاء صديقي محمد علي الفونجاوي أن يعالجني بحقن الكينا ـ ليست الحقن المستوردة المعقمة ـ وإنما أفرغ بودرة الكينا في الكباية وجاء بالماء من تحت الزير وصبه على البودرة، وساطه بقشة كسرها من الصريف ـ ثم شفط المحلول بطرمبة الحقن، وحقنني بها في الوريد (ولم يحدث لي شيء فها أنا أتكلم معكم زي أبو الدقة بعد ٦٠ سنة).

لا عقاب:

لم اعاقب في المدرسة إلا مرتين ـ فقد كنت مواظباً على الحضور وتسميع الواجبات ولكن في أحد الأيام اشتركت في عربدة تهريج في غياب المدرسين وجاء المدرس صدفة وضربني ١٥ جلدة على كفي وكنت أبدل يدي الواحدة بالأخرى بدون اختلاج أي عضلة في جسمي، حتى لقد قال صديقنا علي عطيوه (شوفوا العبد دا، بياكل الجلدة كيف)!.

ولكنني ظللت غير محظوظ مع الحبر، فقد لوثت كراس الاملاء وكان مصروفاً لنا من المدرسة فقالوا لي هات ٣٥ مليم غرامة ـ فلم أفعل ـ فحكموا علي بالجلد خمس جلدات (بطح) قد اصطبغ سروالي بالدم (الـ ١٥ سوط التالية في عمري أخذتها بعد ٩ سنوات كما سيأتي).

السنتان الأوليان:

لا أكاد أذكر اي شيء غير عادي بخلاف ما سلف ذكره عن التدريس والمدرسين في السنتين الأوليين بمدرسة سنجة الأولية (١٩٢١/١٩٢٢).

فقط، بعد أن وزعوا علينا الجزء الأول من كتاب التحفة السودانية (١٩٢٢) عادوا في اليوم التالي وجمعوا نسخ الكتاب. وقصوا منه بالمقص ورقة ذات صفحتين من الصفحات الأولى، وكانت تحتوي على أسماء قبائل السودان وهي عشرات القبائل (والكتاب كان من تأليف الأساتذة الأجلاء بابكر بدري (و) عمر اسحاق (و)عبدالله محمد عمر البنا ـ والأخير موجود زادنا الله بوجوده بركة ولعله يعرف سبب سحب أسماء القبائل من كتاب التحفة السودانية، وهو سبب سياسي بدون شك).

وقد حفظت جزء عم في السنة الثانية ولا أكاد أذكر اسم المدرس الذي حاضرنا بتفسير سورة عبس.

كذلك فانني غادرت السنة الثانية الأولية وأنا أتقن الاملاء والمطالعة وأعرف الأرقام والحساب (جمع وطرح وضرب وكنت قد حفظت جدول الضرب قبل موعده وهو مقرر للسنة الثالثة).

أساتذة وعلوم استفدتها منهم:

انني مدين تماماً لخمسة أساتذة في مدرسة سنجة الأولية (١٩٢٣/١٩٢٤):

١ ـ المرحوم الشيخ الهادي الحاج الأمين ناظر المدرسة، وقد استفدت منه الحساب، أتقنت القواعد الأربع (الجمع والطرح والضرب والقسمة) وعرفت الكسور الاعشارية والكسور الاعتيادية، وكان يعتبرني مبرزاً واجتهد كثيراً (رحمه الله) لاقناعي بالذهاب الى المرحلة الوسطى مجاناً (وكانوا يسمونها المدارس الابتدائية) ولم اقتنع كما سيأتي.

٢ ـ الشيخ ابراهيم عبدالله كليب رحمه الله ـ وهو شديد الحماس للغة العربية ـ وقد درست عليه الاملاء والمطالعة، واعتقد أنه قد تجاوز المقرر حيث لقننا محفوظات من أشعار عنترة والسموأل بن عاديا والامام علي، والفرزدق (هذا الذي تعرف البطحاء وطأته) وصفي الدين الحلي، والامام الشافعي (ثم خطبة قس بن ساعدة الايادي ـ وبعض خطب الرسول صلى الله عليه وسلم) وقد اتضح لي فيما بعد أن جميع هذه

النصوص كانت منقولة من كتاب (جواهر الأدب) للشيخ الهاشمي المصري ـ ذلك الكتاب الذي سماه المنفلوطي (خدعة عناوين).

وقد مرننا الشيخ كليب ـ رحمه الله ـ على الانشاء (كتابة الخطابات).

بل لقننا أستاذنا كليب مبادىء النحو (تقسيم الكلمات الى أسماء وأفعال وحروف ـ وتقسيم الفعل الى ماض ومضارع وأمر ـ وتقسيم الألفاظ الى مبنية ومعربة ـ ثم بعض أساسيات الاعراب...الخ)، وقد أجرى لنا اختباراً في النحو، واعتبرني (الأول) واعطاني كتاباً ـ كان معجماً لا يحتوي إلا على الكلمات التي تبدأ بالحرف (أ) الى (ض) أي أنه الجزء الأول من كتاب ذي جزءين ولكن الجائزة على كل حال كانت حافزاً عظيماً.

٣ ـ الشيخ ابراهيم سليمان لقننا مبادىء من الجغرافيا، وقد نال هذا العلم اهتماماً عظيماً مني (أ) عرفنا مديريات السودان التي كانت ١٥ قبل تخفيضها الى ٩ في سنة ١٩٣٦م و(ب) عرفنا الأقسام العنصرية الأربعة لسكان السودان العرب والنوبة والبجة والزنوج و(ج) كروية الأرض ودورتاها وفصول السنة و(د) خريطة افريقيا وعرفنا المناطق المناخية الخمس للكرة الارضية ـ التي يقسمها خط الاستواء ومدار الجدي ومدار السرطان ـ وكذلك عرفنا القارات والمحيطات وبعض البحار والأنهار الكبيرة، وحفظنا أسماء الشهور القمرية والشمسية واعداد أيام الشهور. ثم عرفنا ماهية السنة البسيطة والأخرى الكبيسة.

٤ ـ الشيخ يعقوب احمد الحلو، لقننا بعض مبادىء علم الصحة العامة، مثل اضرار الذباب والناموس ـ وخصوصاً أنثى البعوضة ناقلة الملاريا ودودة البلهارسيا وكيفية توالدها في الماء (ومن ثم) ضرورة تطهير البرك وتنقية مياه الشرب والاغتسال...الخ.

٥ ـ لست أذكر الأساتذة الذين تعاقبوا على تلقيننا ما كان يسمى (علم الأشياء) وهو بداية جيدة لدى الأطفال لكل ما سوف يتلقونه فيما بعد من علوم أو فنون أو زراعة أو صناعة ـ وأعتقد ان هذا العلم قد نمى عندي حب الاستطلاع.

٦ ـ حفظت في ثالثة ورابعة جزءي تبارك وقد سمع، وبذلك أكملت العشر الأخير الأجزاء ٢٨/٢٩/٣٠، من القرآن الكريم ـ وأذكر محاولة الشيخ عبدالله البخيت تلقيننا مبادىء التجويد في سنة ثالثة.

٧ ـ ودرست الدين في كتاب من جزءين تأليف أحمد أمين ـ أعتقد انه العلامة أحمد الأمين صاحب سلسلة تاريخ الاسلام الفكري (فجر وضحى وظهر الاسلام) والذي لقننا قبل ذلك تاريخ الفلسفة اليونانية مع الدكتور زكي نجيب محمود ـ وهو عينه مؤسس هيئة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة التي طبعت الرسالة ١٩٣٢ قبل ان يؤسس الزيات مطبعته. وأسست الهيئة مجلة الثقافة المنافسة للرسالة.

محاولة التجارة:

كنت في العطلة قبل الأخيرة (١٩٢٣) قد مررت على دكاكين عدد من التجار لمدد قصيرة منهم المشايخ محمد راشد ومحمد الاحيمر وأخوه سعد وأحمد الحجاز ومحمد سالم درمة ـ وكذلك الأخ آدم بشارة القهوجي الذي ألح علي في المكث معه لألقنه راتب المهدي (طبعة سليمان داود منديل في تلك الأيام).

وفي عطلة تالية جربت السرحان بالسجاير والكبريت في شوارع الحلة، وكنت أربح في اليوم عشرة قروش مع أن أولئك التجار لم يعطني أحدهم أكثر من ٥٠ قرشاً في الشهر.

ضربوني علقة ساخنة:

السرحان بالسجاير عرضني في أحد الأيام للضرب من عصابة من أولاد (فريق ورا) وكان الغلمان في يوم المطر، يخلطون الطين بالحيمورة (دقيق الطوب الأحمر) ثم يقسمون طينهم الى قطع صغيرة يقذفون بها

السقائين الأحباش البؤساء. ثم وقع فيها شقي الحال الذي هو أنا ـ وقد رجعت الى بيتنا في (فريق قدام) بحالة سيئة جعلت حبوبتي تصر على ان نذهب الى مسرح الحادث. وذهبنا ولم أكن قد عرفت من المعتدين إلا الأخ ابراهيم اب راكوبة، الذي كان تلميذاً معنا بالمدرسة (وهو الآن ترزي بسنجة، اليه تحياتي).

ذقت المريسة:

وكانت (زقلونا) منطقة مشارب المسكرات البلدية من الأسواق الهامة لبيع السجاير. هناك قد تجد شخصيات محترمة لا تتوقعها وقد رشوني مرة حيث ذقت (العسلية) والمريسة نفسها وأكلت المرارة واشتروا بضاعتي كلها.

بيت الزار:

ودخلت أكثر من مرة الى بيوت الزار.. ورأيت رقص النسوان الهستيري مع نقرات الطبل وغناء الشيخة (في مصر يسمونها الكودية).

كل امرأة من المزيورات أو المدسترات لها (خيط) أو (دستور) مثل دستور أحمد المصطفى الذي كان نازلا في الخرطوم ٣ ـ وربما تختار المزيورة دستورها بالاتفاق مع الشيخة (أ) هذه زارها الشيخ عبدالقادر الجيلاني ـ تصور!. وهذه (ب) دستورها (يوسيه الحبشي) و(ج) شيطانها يسمى (جبل ماما) والعجيب انه يوجد دستور (مرفعين) (ذئب) وقد رأينا (د) المرأة صاحبة المرفعين تحبو على الأرض على ركبتيها وهي (متمرعفة) تعوي وتشخر جاحظة العينين، ويرمون أمامها كومة من اللحم النيىء تأكله ـ ولكن الموجودين والموجودات يجب ان يغطوا عيونهم، وإلا فإن الذئب يهجم عليهم وهناك رجال يرقصون مع النسوة وهم لابسون ملابس النساء وفي مرة (و)زعمت احدى النساء ان دستورها انجليزي غير معروف من قبل، وتضع على رأسها برنيطة (جندباي واي ـ جندباي واي) ثم رأيناها ترتدي بدلة وتضع على رأسها برنيطة (كأنها من نواب المحافظين) ثم اخرجت زجاجة ويسكي وجعلت تشربه بالصودا (لم أكن أعرف ما هو الويسكي ولكن المتفرجين الكبار الذين كانوا معي هم الذين أوضحوا لي الأمر).

كانت قطية الزار تعكل بدخان السجاير ومع انهم كانوا يدخنون القولدفلاك فقد اضطروا في النهاية ان يشتروا جميع ما معي من سجاير ماتواسيان (أو تعاشواسيان)..

حبوبتي جملية:

في أحد الأيام جئت من السرحة بالسجاير فوضعوا الغذاء أمامي ولكن قالوا:

ـ حبوبتك ساقوها للسجن.

ثم عرفت ان محصل العوائد المحلية دخل معها في كلام وبعد ذلك طلب منها ان تذهب معهم للسجن، فذهبت.

وكان المنزل مكتوباً بإسم رجب افندي ـ وبعد وفاته غيّروا العنوان الى (أولاد رجب أفندي) وهم يحصلون في كل عام مبالغ معلومة يسمونها المربوع ـ و ـ العتب (الأخيرة بفتحتين) والمربوع حسب المساحة، والعتب بحسب عدد القطاطي.

ويظهر ان جيراننا آل العمدة عمر الخضر (الفونجاوي) رحمهم الله كانوا يتساهلون معنا، الأمر الذي أدى الى التراكم.

وجاء محصل جديد وهو الشيخ محمد الفضلي ـ وهو تعايشي وجعل يمارس التشدد.

قالت مسعولة:

ودهبت الى ود الفضلي رحمه الله في منزله، وقلت له: كيف تسجن حبوبتي، والبيت مكتوب باسم (أولاد رجب أفندي) وأنا موجود؟

قال هي قالت أولاد ما في، وأنا مسعولة، وقروش ما في ـ ولما هددتها بالسجن قالت مرحب.

على كل حال قد قبل مني الرجل نصف المبلغ، وذهب معي بنفسه الى منزل مأمور السجن في العصر ـ وأحضر منه ورقة لشاويش السجن يأمره بإخراج حبوبتي من (التمنة) وهي (الحراسة) عبارة عن عنبر منفصل عن السجن (قالت حبوبتي انها كانت وحدها، وقد توضأت وصلت، ولم يتعرض لها أحد بسوء).

أريدك يا الله:

ولما خرجت حبوبتي وشافتني قالت (جد لي) بكسر الجيم واسكان الدال وفتح اللام واسكان الياء ـ وهذه العبارة تعادل (هنيئاً لي) واضافت:

ولدي بقى راجل (بقى بكسر الباء وفتح القاف، وهي تعادل صار) ثم رددت عبارتها الملازمة لها:

أريدك يا الله الماك سر زول ـ أريدك في السودان تعادل (أحبك) وكلمة (سر) معناها عندنا (قريب) والمعنى انها تحب الله الذي هو ليس قريباً لأحد من الناس ليحابيه.

وقلت لجدتي لماذا لم ترسلي لي أحد الاخوان ليناديني كي اذهب مع الشيخ؟

وقالت: في زول برمي ولده في النار؟ (فقلت لها هذه عوارة جعليات).

ود النمير.. جعلي؟

كانت حبوبتي لا تكاد تروي احجيات إلا عن ود النمير ـ فسألتها ليلة: ود النمير هذا جنسو شنو؟.

فقالت: جعلي.

قلت لها: انت عركية أم جعلية؟

قالت: الجعليين خيلاني، والعركيين أبواتي.

ان جدتي عركية من الشرفديناب (اخوانها من أبيها هم المرحومون المليك ـ الجد ـ وشرف الدين ودفع الله، وعلي وابناء هؤلاء: بابكر المليك، وأبناء عمومته هم أبناء اخوانها).

والد المجموعة (حبوبتي واخواتها) هو الفكي عبدالله ود شرف الدين ـ الذي كان بقرية السوريبة بالجزيرة ـ وللشرفديناب سجادة قادرية هي الآن في (السيالة) بالنيل الأبيض منطقة الدويم.

وللشرفديناب علاقات عامة بالجعليين (الحريزاب والسروراب والنوفلاب شمالي أمدرمان) ـ ٢ ـ والحبوبة (شموم) والدة الشريف يوسف الهندي هي منهم و ـ ٣ ـ عائلة كبيرة من الرباطاب بواد مدني ترتبط بالشرفديناب من ناحية الأمهات، ولكن:

التراجمة و عد الغباش:

حبوبتنا فاطمة بنت عبدالله شرف الدين والدتها وجدها جعلية من التراجمة بمنطقة شندي:

الشيخ المهدي أحمد ـ شخصية محترمة جداً من أعيان أمدرمان في العشرينات ـ قالت حبوبتنا، انه خالها (رحمه الله).

كان لحبوبتنا أخ غير شقيق ـ من أمها ـ هو جدنا ابراهيم ود نويري، وكان يزورنا بسنجة في العشرينات، وكان قد اقام مع كثيرين من أهله بقرية (عد الغباش) من قرى رفاعة أب سن من (عاصمة الجزيرة

الآن) وكنا نعرف بعض أهله بالتراجمة (مثلاً العم محمد صالح كان تاجراً بدكاكين وقف الجامع بسنجة).
كنت لغرامي بالكتابة اكتب الخطابات في العشرينات الى جدنا ابراهيم ود نويري والعنوان كان: الخواجة سركيس، ومنه للحاج السماني، ومنه للوالد ابراهيم ود نويري.
رأيت الخواجة سركيس بوغريان بالقضارف بعد ان رحل اليها في الثلاثينات وكان يحترف تصليح الساعات.
أبراهام بوغريان الذي كان تاجراً بالمفازة هو ابن أخ لعم سركيس المذكور.

مديح العركيين:

وعلى كل حال كانت حبوبتنا تردد لنا أماديح أهلها العركيين ـ دفع الله المصوبن، ويوسف أب شرا، وود الطريفي...الخ.
ولا أذكر من هو جدنا العركي الذي قام بتسيير مظاهرة من الركاو (أباريق الماء المصنوعة من الجلد). سارت المظاهرة الى مشرع (الأديهم) وملأت كل ركوة نفسها ماء. وعادت الركاو المتظاهرات الى المسيد.

مناحة الشريف عبدالله:

وكانت حبوبتنا تردد مناحة الشريف عبدالله (أب قدحن سبيل للضيف) وهو صاحب ووارث قرية الشريف يعقوب التي تقع على مصب نهر الرهد شرقي النيل الأبيض.
مما اشتهر به الشريف عبدالله انه اطعم جيش احمد فضيل (في مروره الى القضارف ام في العودة منها) وذلك في أيام احتضار حكم خليفة المهدي. (فن المناحات من أعظم خصائص الفولكلور السوداني ـ ويستحق تخصيص ديوان له).

كلنا جعلتاي:

ان حبوبتي كانت معتزة بالجعليين والحقيقة انهم قبيل جدير بفخر السودانيين بصرف النظر عن الانتماء العرقي الخاص لدى مختلف القبائل.
في اريتريا حينما زرتها عام ١٩٤١ رأيت الاريتريين معجبين بالسودانيين وكانوا يسموننا جعلتاي.. كلنا جعلتاي.

الأهالي الغبش:

بالطبع يرى بعض الناس أن حشد أسماء أشخاص انتميت إليهم أو عاشرتهم أمر غير مألوف ـ ولكنني لا أقلد أحداً ولماذا لا تكون حياة الأهالي الغبش شيئاً مذكوراً.

قريبنا عاد من مكوار بالشورت والسجاير فقالوا كفر!
تربية الأرملة، هل تفسد الأبناء؟

وقف ابن جيراننا ـ من أهلنا ـ على باب بيتهم بعد أن جرى، وجعل يقول لي بصوت عال:
كان أبوك راجل تعال هنا (ثم تذكر أن أبي غير موجود) فجعل يقول:
كان أمك راجلة.. كان حبوبتك راجلة.

شجاعة حبوبتي:

وقد رأى القارىء في فصل سابق نموذجاً من شجاعة حبوبتي ـ التي ذهبت الى السجن لمجرد الفداء ـ وقد تفادت احراج الجيران والأقارب الذين كان يمكن لأحدهم أن يبادر بدفع العوائد المحلية المطلوبة.

أمي تقتل الدبيب:

اما أمي فقد رأيتها، بعد أن اشتبهوا في وجود ثعبان في الشقوق تحت شعب القطية، تأمر بنقل (الكرار) قليلاً وترى الثعبان وبسرعة تجره بعصاها المحنوفة، ثم تعالجه بضربة على رأسه، وبضربات متلاحقات على ظهره، ثم نراه يتلوى، ولا يكاد يحرك رأسه الدامي فنجره نحن معشر الصبيان الذين تجمعوا من الحي، بعد ان نضعه على قطعة خيش، ونرميه خارج القطية.

هناك قالت لنا احدى الجارات، احفروا له حفرة عميقة وادفنوه خوفاً من أن تأتي زوجته لتنتقم منكم. ونسوة أخريات تتابعن وكل واحدة تقول (كتلك) «قتلك» شريف أهلو في الريف ـ تار بابكر الصديق.

اما أمي، فان رذاذاً كان قد تطاير الى يدها قالت انها احست له لسعاً مثل لسعات النحل، فطلبت احضار ليمونة احتلبتها ومسحت بها ذراعها (فإن الاعتقاد الشعبي السائد يقول ان عصير الليمون ترياق مضاد للسموم ـ وهذه نظرية غير صحيحة).

تتصرف كالرجال:

ان أمي في الليل تصدر منها (نخامة) يظنها سامعها سعال رجل واذا سمعت حركة في القش أو في الحوش حملت عصاها وخرجت لمقابلة العدو ـ انساناً كان أو حيواناً.

أهم من ذلك:

أهم من ذلك أن أمنا حاولت ان تعلمنا الوفاء... ففي كل عيد كانت تضع الكعك واللقيمات وتوقظنا في الفجر لنذهب معها الى المقابر ـ الى قبر والدنا ـ فنترحم عليه ونوزع الطعام على من حضر من الصبيان. وقد ظلت كذلك تذكر والدنا بالخير وتعيد رواية قصصه عن التركية السابقة والمهدية ـ وعن أهله وأصدقائه ـ وبعض هذه المعلومات سيرد فيما بعد ان شاء الله.

تربية مرة:

ويبدو لي ان امهاتنا (لنا خالتان أيضاً كانتا مقيمتين معنا) كن يحاولن تفادي وصمة (تربية المره) يعني تربية المرأة لنا ـ وهذه الوصمة كثيرا ما يجابه بها بعض الرجال الأيتام الذين مات أباؤهم، ويكسرون نفوسهم

ـ أي يؤذونهم فعلاً ـ وهذا من نوع القهر الذي نهى عنه الله تعالى في الآية ٩ من سورة الضحى (فأما اليتيم فلا تقهر).

وأذكر انني لسبب ما قيل لي من أمهاتي: «أوعك تجينا باكي وتقول دقوني، البدقك دقه كبير وللاصغير».

ربما لهذا السبب انني لم ابك كثيراً في حياتي، فقط في لحظات نادرة كانت عيني تقطر دمعة او دمعتين.

تنمية روح العدوان:

هذه النصيحة تتعلق كما هو واضح بشكل الأولاد في الشوارع ـ وهذا الشكل متوفر جداً وخصوصاً في طريق العودة من المدرسة، وهي على مبعدة من بيوتنا.

كنت مسالماً، وأصدقائي الذين انتخبهم من أبناء الحي كانوا مسالمين مثلي، ومع ذلك كان الآخرون يتحرشون بنا... ولكننا كنا نتعاون وهذا التعاون قد يصد المتحرشين ـ وعلى الرغم مني تربت عندي روح عدوانية مثل الآخرين:

كان صديقي الياس ناقداً جيداً لفن الشكل، قال لي، انت تدور (تريد) الدق ولكنك بتهاب ـ ما تعلم (بكسر اللام وتشديدها) ايدك الهوبان.

ام فكو:

كان تلاميذ المدرسة عدوانيين في الغالب، في أحد الأيام تآمروا على صديقنا ب.ب. وببساطة رفع أحدهم جلابيته ليري الآخرين ان المسكين كان (أم فكو) أي انه لا يلبس سروالاً تحت الجلابية ـ ثم صفقوا جميعاً وضحكوا، وطبعاً اقتنى لنفسه سراويل فيما بعد.

وكما يعلم القراء فإن السودانيين في الشمال يخجلون من الخروج (أم فكو) لدرجة انني أعرف صديقاً قال ان الذي يمنعه من الحج هو لباس ملابس الاحرام (ام فكو) بدون سروال تحتها!

كان يوجد بالمدرسة فتيان أكبر منا كثيراً ـ بينهم الأخ محمد احمد الحلو، والأخ سليمان سليم، كانوا يهزأون بمجموعتنا المسالمة ويسموننا (أولاد الحبش) لأن احدنا أبوه عم عبدالله الحبشي الطباخ الذي كان يدير مطعماً بالسوق ـ وهو جبرتي ـ أي مسلم ـ رحمه الله.

هزائم وانتصارات:

انتصرت على قليلين في شكلاتي، وقد عمد الأخ م.ا. لما انهزم الى عض ذراعي الايمن حتى انغرزت اسنانه في لحمي، وفي البيت عالجت الجرح بملح الطعام.

حلة ١٤:

وفي إحدى الامسيات، في ساحة المولد، قلت امارس التدريب على العدوان واخترت الأخ حسين رزق الله وهو من زملائي بالمدرسة وكان يعمل معي بمحل ميشيل بخاش، حيث انه كان لطيفاً فقد ظننته جباناً، وتحرشت به وكان ان عاقبني عقاباً شديداً.

الأخ حسين ـ وقد رايته مرة أخرى في الستينات ضابطا في صف بوليس ستار ـ كان من أبناء قرية اربعطاشر من ضواحي سنجة، وهي قرية (ملكية) بمعنى انها تكونت لاسكان المسرحين من الجيش ـ الجيش المصري اورطة (١٤ جي) وتوجد قرى مشابهة عديدة بجوار المدن في جميع انحاء السودان.

الأمر الذي اريد أن اثيره كي يناقشه المؤرخون هو ان الجنود السودانيين المسرحين المشار اليهم ـ وضباطهم ـ اكثرهم جندوا بمصر (أباً عن جد منذ أيام محمد علي باشا) كذلك على الخصوص أثناء تجديد

الجيش المصري ـ بعد حل جيش عرابي في ثمانينات القرن الماضي (وكذلك) أثناء حملة كيتشنر لفتح السودان سنوات ١٨٩٦ وما بعدها.. ثم استمر هذا التجنيد لملء أماكن المتقاعدين الى قبل ثورة ١٩٢٤ مباشرة.

ابن خالنا الذي كفر:

في تلك السنوات ـ منتصف العشرينات ـ كانت أعمال التشييد قد نشطت بخزان مكوار (كان اسمه كذلك، كما سيأتي) وربما كانت انتفاضة مصر ١٩١٩/١٩٢٤ ذات دور في تنشيط بناء الخزان (وتنشيط بناء الخزان كان له دوره في بناء دائرة المهدي ـ الاقتصادي والسياسي كما سيأتي):

ذهب الفكي بشير (وهو ابن خالنا) الى مكوار للعمل ـ ولما عاد الينا بعد شهور وهو يلبس الشورت، ويدخن السجاير، قال أهلنا انه بقى نصراني (صار نصرانياً) وهم لا يعنون حرفية المسيحية، بل كانوا يقصدون انه خرج عن الملة الاسلامية.

فهل تظنون بعد كل هذا انهم يتسامحون معي وأنا أكورك في الشوارع (شاري السجار والكسفريت) كنا نصر على كلمة (كسفريت) لا الكبريت.

هل يتسامحون معي وأنا أقول انني ذقت العسلية والمريسة؟

وكيف يقبلون مني ان أتعرض للمرض في بيت الزار عن طريق الاصابة بركوب شياطين من نوع معين في رأسي، وذلك القبيل من الشياطين كانوا يسمونه (الريح الاحمر).

نواة دكان بالبيت:

وافق مجلس الأسرة على ان أبيع الجاز (غاز الاستصباح) في الشارع قلدت أصدقاء سبقوني.. اشتريت صفيحة غاز الغزالة (شل) وجئت معها بصفيحة أخرى الى صديقي (زملقا) السمكري، فقام بتوسيع فتحة الصفيحة الفارغة... وصنع لي كيزان البيع... كوز للمليمين وآخر للتعريفة ـ ولكل منهما عصا ـ وهناك كوز صغير ثالث لأن الزبون لا بد أن يقول لك عاوز زيادة او هواده ببلاش!

وكانت القاعدة ان نبيع ملء الزجاجة البيضاء بثلاثة قروش (زجاجة الويسكي) ونبيع ملء الزجاجة السوداء (زجاجة البيرة) بقرشين ونصف.

والقاعدة ان نضع النقود (كلها معدنية) في داخل الصفيحة حتى نتأكد في النهاية اننا ربحنا ولم نخسر:

وكلفت ابن خالتي (يوسف) وهو نجار بصنع (نملية) وهي صندوق له اربعة قوائم وغطاؤه سلك لكي يرى الزبائن البضاعة وهي سجاير (برضو سجاير) وحلاوة وكبريت وشمع نور وقيطان للمبات البلدية وللفوانيس المستوردة.

دكان الشارع يجمع بعض الأولاد لوجود النور ويحصل أحياناً لعب بالكوتشينه قمار على قطع الحلوى، وقد تطورت قصتي مع القمار قليلاً، ثم نجوت منه والحمد لله.

اللعب بالشارع:

لم نكن ممنوعين من اللعب بالشارع في ليالي القمر ـ فقط يتحتم الرجوع الى البيت في وقت معقول لا يزيد عن العاشرة مساء...

ولكنني مغتاظ حقيقة من منعي بكل الوسائل من التدريب على السباحة بمشروع النيل الأزرق بسنجة.

الحجازة:

انني سعيد على ان موقف كل من المسالمة (و)العدوان في شكل الأولاد بالشوارع قد تطور عندي وتوحد الى موقف (الحجازة) وقد ظللت أقوم بدور (الحجاز) حتى بعد ان تجاوزت طور المراهقة:
ـ وحتى هنا في الخرطوم وغيرها، الى سنوات قليلة سابقة.
وقد يسوغ لي ان أدعي ان تطبعي على القيام بدور (الحجاز) قد تطور مرة أخرى، فصار نصرة للمظلومين ودفاعاً عن المهضومين ـ وفي عملي الصحفي ابتداء من الثلاثينات.

المدرسة الأولية:

ولا أنسى لأمهاتنا تشجيعهن لنا في المواظبة على الذهاب الى المدرسة الأولية ـ وتضحياتهن في سبيل ذلك بالعناء والسهر.
حتى لقد اضطررت لاتخاذ موقفي برفض فرصة التعليم الاوسط ـ وحدي ـ دون أن أذكر لهن أي شيء عن العرض ولا عن الرفض.

ايقاف الحوامة بالسجاير:

لا تظنوا ان موضوع حوامتي بالسجاير وذهابي الى زقلونا، والى بيت الزار ـ وليس آخراً علقة أولاد (فريق ورا) لي لا تظنوا ان هذه المسألة وعقابيلها قد مرت بدون محاسبة.

تحمل الجوع:

ان التدريب على الرجولة لتفادي سبة (تربية النسوان) كان قد تطوع أخونا (الوصي) للقيام به، وقد ذكرت في فصل سابق آخذي معه للبلاد (المزرعة) وكيف شربنا و(نشلنا) من ماء (الطملة) العطنة.
ولكنه أيضاً ضربني ضرباً موجعاً بغير سبب معقول ـ الأمر الذي صحح عزمي على الابتعاد عنه.
وحيث ان منزلنا كان يعج بالضيوف فقد تعلمنا القدرة على تحمل الجوع وأحياناً الايثار.
وعلى قاعدة أهلنا الانصار الذين كانوا يسيرون الى ساحة الجهاد راجلين حفاة (وعلى حد قول منشور المهدي، سيروا الى الله عرج ومكاسير ولا تنظروا في الدنيا الى تمويل) وكانوا يحملون الدشيشة أو العطينة كزاد.
عرفت أيضاً الذهاب الى العمل في الصباح بعد فطور من (أ) بليله الذرة أو (ب) الدشيشة وهي حب الدخن المجروش وهو نيىء أو (ج) العطينة وهي أيضاً دخن مبلول في الماء البارد بدون نار ـ هذه الوجبات الاضطرارية كانت نادرة، لذا أحس بلذتها حتى الآن.

الجرى ما بيحل:

وكما حذرنا أهلنا من البكاء، على أثر الشكل، حذرونا أيضاً من الجري أمام من يطاردك ـ حتى في حالة دورية البوليس التي كانت تمتطي البغال وتجوب شوارع المدينة في الليل، فان وقوفك وجوابك على اسئلتهم يجعلهم يحترمونك ويودعونك بالشكر والتحية.
ومما قاله أحد أقاربنا: ان قبائل الشعب السوداني كانت معتادة على تقليد عظيم، فاذا هرب أحد الرجال من المعركة فانهم يعاقبونه سواء من قبيلتهم أو من خصومهم بعقوبة عظيمة.
ـ ما هي؟

- انهم (يتيربوا دربه) يعني، يزرعون الطريق الذي سلكه ببذور الاشجار ومن الواضح ان هذا التقليد كان قاصراً على منطقة الحزام المطري.

بداية الاطلاع؟

اخبرني خالنا الفكي السماني - من جملة العركيين وكان قد تتلمذ على جدنا ود حمدان: ان المجتمعين في آخر أيام مأتم والدنا رجب افندي كانوا قد تقاسموا الكتب التي خلفها كجاري العادة، بصفة صدقة على روحه، (قلت في نفسي: ليتهم تركوها لنا - ثم في السنوات التالية رجحت ضياع أوراق هامة تخص الوالد وأسرته، وعلاقاتهم خارج السودان).

كان الفكي السماني رحمه الله يصبغ لحيته وشاربه بالحناء، ويتعطر وبالجملة كان مظهره مرفهاً - ليس مثل خالنا الفكي نور المدينة الزاهد.

خدم من الجن يزوروننا:

وقد قال لي مرة الفكي السماني ان له خداماً (بضم الخاء وتشديد الدال) يعني ارقاء من الجن - وقال انه يرسلهم الينا أحياناً ليأتوا بأخبارنا: أؤكد للقارىء أننا لم نر هؤلاء المبعوثين.

وحيث ان الشيخ السماني لم يكن ذا ثروة محسوسة فقد طبقت عليه فيما بعد الآية (من سورة الجن) «وانه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً».

ولقد رأيت آخرين يشتغلون (بالأسماء) وتقع في ايديهم نقود كثيرة ولكنهم دائماً في حالة معاناة.

عركيون ناشفون:

وكان للفكي السماني من يعتقدون فيه البركة من اعراب البادية بمنطقة جبال سقدى ومويه.

وقد حدثنا عن وجود تماثيل لناس مسخوطين بتلك المنطقة والاشارة هنا في العادة لتماثيل وآثار متخلفة من القدماء.

والاعراب البادون بينهم عركيون - ليس في المنطقة المشار اليها وحدها - بل بعدة مواضع - سواء بنواحي (العاديك) - العادق، يعني نهر النيل الأزرق أو الأبيض أو النيل الكبير أو الروافد مثل الدندر والرهد - أو سهول بطانة الشكرية والبطاحين.

على كل حال، ان عديد القبائل مثل كنانة ورفاعة - الهوى والشرق والشكرية والبطاحين والكواهلة...الخ. بينهم الظاعنين (أي الناشفين البدويين) وبينهم المقيمين.. ولكن العركيين البادين اقلية.

جاءنا اعرابي عركي يوماً في سنجة، بعد ان جعل يسأل عنا، ولم يكن له حمار ولا جمل، ولكنه كان يحمل على عاتقه حملاً - خروفاً صغيراً وبعد ان قيل وبات عندنا وأفطر، ذهب الى السوق وتسوق عاد الى اهله (وزارنا بعد ذلك عدة مرات ولم يجدد تأشيرته وهي خروفه الصغير السابق).

وفي احدى المرات جاءنا بملء سعن - قربة صغيرة - من لبن النياق، وقد شربت منه فأصابني اسهال شديد.

الكتب التي تركوها:

على الرغم من توزيع مكتبة والدي وجدت بها (أ) مصحف القرآن الكريم و(ب) دلائل الخيرات - الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم تأليف الشيخ الجزولي، والطبعة التي تركها أبي كانت تحتوي على قصائد مديح للنبي (صلى الله عليه وسلم) وادعية وفوائد اخرى بخلاف الجزولية و(ج) كتاب قديم موضوعه (علم الوضع)

ولم أعرف هويته في تلك الفترة ولا شك انه من فنون علماء المسلمين في عصر سابق و(د) كتاب (خزينة الأسرار) وهو مطبوع على (مطبعة الحجر) بمصر في أواخر القرن الماضي.

- «الطبع بالحجر: - الليثوغراف، أقدم من الحروف التي اخترعها قوتنبـرق (١٣٩٨/١٤٦٨) ومطابـع الحجر كانت معروفة بمصر منذ عهد محمد علي باشا، بينما جاءت المطابع الحديثة مع غزوة نابليون».

- وقد خلف الحكم التركي بالسودان مطبعة حجر أمكن لسلطة المهدية تشغيلها في طبع المنشورات بل بعض الكتب (مثل كتاب سيرة المهدي الذي ألفه الشيخ الكردفاني جد آل المفتي المعروفين الآن بأمدرمان).

- الطبع بالحجر يتطلب نقش محتويات الصفحة على لوح حجر، ثم يأتي الطبع بالضغط مثل الاوفست.

- كتاب خزينة الأسرار يحتوي على فوائد دينية، وكان يشيد بآية الكرسي (٢٥٥ البقرة) ولكي احصل على آية الكرسي - ولم أكن أعرف انها بسورة البقرة فأنقلها من المصحف - نقلتها عن تفسيرها، بنفس الكتاب مثلاً (الله لا إله) أي لا معبود بحق في الوجود (إلا هو الحي) الدائم البقاء (القيوم) المبالغ في القيـام بتدبيـر خلقه... الخ.

- ولما أخبرت صديقي عبدالمجيد صالح المنشد رحمه الله.. قال لي: هون عليك، انني حافظ آية الكـرسي وأملاها علي - ولكننا راجعنا النسختين فوجدناهما متماثلتين.

- بهذا قد عاشت معي آية الكرسي حتى الآن ٦١ سنة وسميتها صديقتي.

- استفدت من المصحف ومن دلائل الخيرات على الأقل سرعة القراءة.

* * * *

طردني المهندس الانجليزي من العمل بيومية قرشين
بداية مكتبتي عشرون كتاباً بجنيه ونصف
مناقشة دينية وسياسية حول اختلاس ١٩٢٧م

أبدأ هذا الفصل بالحديث عن جيراننا الحلبة - الواحد حلبي - ويسمونهم في الأقطار العربية الأخرى الغجر أو النور (كلتا الكلمتين بفتحتين) وفي اللغات الأوروبية معروفون باسم جبسي وهذا الاسم معناه (مصري) وهو خطأ فقد اتضح ان نشأتهم كانت بالهند وتشتتوا منها. ويوجدون بأقطارنا العربية الشرقية والغربية وبتركيا واليونان وجميع أقطار البلقان والسلاف وروسيا وبولندا ورومانيا وفرنسا واسبانيا وبريطانيا...الخ. وفي أغلب الحالات يعيش الغجر كأنهم بدو ولا يهتمون بالانتماء الوطني ولا يدخلون المدارس ولا يحتلون مساكن دائمة - في أوروبا يعيشون في عربات متحركة تجرها خيول ويمارسون السرقة والتسول، وقراءة الطوالع وأحياناً يمارسون بعض المهن مثل تبييض النحاس عندنا او اصلاح السرائر...الخ.

ولكن جيراننا بسنجة كانوا يحترفون الحدادة ويتبادلون معنا المودة مثلاً عم جاد المولى ومن أبنائه الطريفي ورمضان وأمهم محجوبة واخوانها منهم المقدم ابو عاقلة وعكاشة.

لاحظ ان اسمي ابو عاقلة والطريفي من اسماء العركيين ولقب المقدم مأخوذ من حلقة الطريقة القادرية وادارة الذكر على نغمات النوبة وعكاشة من أسماء الصحابة رضوان الله عليهم.

كانت ضلالتهم (مظلتهم) لحرفة الحدادة مجاورة لبيوتنا في أول السوق وهم يصنعون الأدوات اليدوية للزراعة.. الملودات والنجامات والمناجل والسلاليك والحفارات والطوريات والفؤوس والسكاكين والسيوف واشياء هامة مثل المناقيش (زعم اخونا حسن محمد علي - وله ابن سماه (أغبش) ان أغبش الذي هو أنا جاء الى الأبيض عام ١٩٤٥ كشريك في مطبعة وجريدة كردفان وفي جزلانة يوجد (منقاش) وهذه تشنيعة لا شك فيها - والمنقاش اداة يحملها الأهالي الغبش لاستخراج الشوك من اقدامهم وأحياناً من ايديهم).

كير الحداد:

كنت أحياناً أذهب مع صديقي الطريفي (ود الحلب) الى ضلالتهم، (بضم الضاد وتشديد اللام ألف -) وقد طاب لي ان انفخ له الكير (الكور) وكير الحداد هو كيس جلد له مدخل واسع يتم قفله بعودين من الخشب مثبتين عليه - وعندما تفتحه وتقفله بيدك، يمتلىء الكيس بالهواء وعندما تعصره يذهب الهواء الى حفرة النار فينفخ اللهيب حتى يزداد اشتعالاً حيث توضع قطعة الحديد لتسخن حتى تصير بيضاء من الحرارة وتكون اطوع لتحويلها بواسطة الطرق عليها للشكل المطلوب. كل هذا الكلام انما هو تمهيد لما سيأتي للمقارنة بين كير الحداد وكير مصلحة الأشغال.

اغبش تلميذ نجار:

كنت قد صممت في اليوم الذي أخذوا حبوبتي فيه الى السجن بسبب عدم دفعنا (المربوع والعتب) يعني العوائد المحلية على أرض بيتنا وقطاطينا ان أرفض عرض المربي العظيم الراحل الشيخ الهادي الحاج الأمين بالذهاب للتعليم الاوسط في رفاعة مجاناً:

بل تخلفت عن حضور اعلان نتائج الامتحان النهائي بالمدرسة الأولية وفي ذلك اليوم نفسه سجلت نفسي

مساعد نجار بقسم الأشغال بيومية قرشين وكان عمري أقل من ١١ سنة.

ولم يكن الغرض هو الحصول على تلك الاجرة الضئيلة بل تعلم حرفة النجارة وكان لي أقارب نجارون شجعوني على سلوك هذه الخطوة.

ألحقت كمساعد لنجار قبطي شيخ هو عم جرجس ابراهيم، وقد حفظت اسماء محتويات صندوق العدة (الأدوات) منشار سراق الظهر وسراق التمساح والزوانة والفارة والرابوه وبسطوم الحرف وبسطوم النصف والزاوية والقدوم والشاكوش والكماشة والزردية والمبرد الخشابي والمبرد الحدادي والمفكات وعرفت ما هي (القمطة) وما هو المسمار البرمة (القلاووظ) وما هو المسمار الغندقلي (بوصة ونص) وما هو الخابور...الخ.

تجهيز الغراء:

وقد صرت فناناً في كيفية تجهيز الغراء لالصاق قطع الخشب.. عليك ان تحضر الكمية المطلوبة من الغراء وهو مادة مصقولة تشبه كسرات الزجاج ولونها أصفر وعرفنا من دروس الاشياء بالمدرسة الأولية ان الغراء يصنع من مسحوق قرون الحيوانات واظلافها (قبل سنوات في هذه الثمانينات كان لزميلنا الصحفي القديم عبدالعزيز حسن مصنع بالخرطوم بحري للجيلي ومنه عرفت ان الغراء من نفس المصدر) ولذلك صرت أعاف الجيلي لأن الصناع الخارجيين قد لا يتعففون عن تصنيع مخلفات الكلاب والخنازير والحمير...الخ و«العوافة مستضرة» كما قالت أمي (٢) عرفت الجيلي في سنة ١٩٤٧ عندما كان يلح في طلبه لي الأخ المرحوم احمد يوسف هاشم بمشرب الجي بي القديم ونحن لم نعرفه اذ ذاك بسنجة والقضارف لأن الثلاجات الكيروسينية نادرة والكهرباء لم تكن قد امتدت الى مدائننا (٣) ألم تسمعوا بقصة العريس القادم من الشمال بالابيض يوم كان الحلو على الغداء من الجيلي وقال لمهنئيه في العصر (اقعدوا يسووا لكم جيلي) ولم يكن يعلم ان تسوية الجيلي تحتاج لساعات، عليك ان تضع الغراء في الكفتيرة مع قليل من الماء ثم تضع الكفتيرة على الموقد ثم توقد النار بمساعدة النشارة وقطع الخشب والموقد نفسه عبارة عن طربيزة حديدية بها مكان نار وبها كير (يعني كور):

واكتشفت أن كير مصلحة الاشغال ليس كيس جلد وانما هو جزء آلي من الموقد الحديدي والكير الآلي يدار بعملية لف ليد حديدية تشبه يد فرامة اللحم - وما زلت استغرب كيف تلتقط الفتحة الحديدية الهواء بدون وجود كيس رخو.

سرقة الخشب:

كان لنا زميلان من الشباب وهما متقدمان في حرفة النجارة، وقد اخبروني ان اذهب معهم حاملين على اكتافنا شوالات الاسمنت وهي معبأة بالنشارة وقطع الخشب الصغيرة - نحملها الى منزل الباشكاتب الذي تستعمل اسرته النشارة بصفة وقود.

واكتشفت ان الزميلين يدسان وسط النشارة بعض قطع الخشب التي لا يسلمانها لأسرة الباشكاتب وجئت معهما الى السوق في العصر فرأيتهما يصنعان طرابيز صغيرة - طقطوقات - يبيعانها لمنفعتهما الشخصية.. وكانا (يقومان) السقاسة الفوقانية للطقطوقة بدائرة مفرغة تصلح لوضع (القرعة) فان الطقاطيق كانت تصنع برسم التصدير الى زقلونا (إذا لم يعرف القارىء السقاسة ما هو ذنبي - اذا كان أهله لم يعلموه التجارة؟).

طلبت من الزميلين تعليمي صنع الطقاطيق فقالا لي (أسرق نصيبك من الخشب) وبالفعل جئتهم في اليوم التالي بقطعة كبيرة من الخشب الموصكي الثمين الثخين وهي مصقولة بعناية شديدة فلما رأياها طلبا مني وهما يرتجفان اعادتها الى الورشة فورا مع الشوالات الفاضية في الصباح لأن اختفاء هذه القطعة الثمينة من شأنه

ان يؤدي الى ابلاغ البوليس واجراء عمليات تفتيش وحراسة وقضايا وسجن - فتثاءبت واعدت «المال المسروق» وتخليت عن صنع طقاطيق «اندايات المريسة».

سهرة بقرش واحد:

كانوا يأمروننا أحياناً بمواصلة العمل في الظهر بساعات أوفرتايم أو «عمل اضافي» يسمونها سهرات نصف يوم (يعني بالنسبة لي قرش واحد) ولم أكن أرفض.

بعض تلك السهرات كانت قاصرة على الطلبة بضم الطاء واسكان اللام حيث كانوا يذهبون - ونذهب معهم نحن التلاميذ الصغار الى الباخرة القادمة من كساب الدوليب (بعد بدء بناء خزان مكوار) وكنا ننقل مشحونات قسم الاشغال من الصنادل الى الرصيف، سائرين فوق سقالة خطرة وكنا نحن الصغار نحمل علب البويا وأحياناً ألواح المرائن - كل اثنين منا يحملان ربطة ألواح أو مرائن وكنا نخم تمر التجار المشتت وأحياناً نشيله من فتوق جوالات التمر. فعلى كل حال سهراتنا لم تكن خاسرة بالباخرة لاسيما ونحن نتمتع بالتفرج على صفحة النيل والبر المقابل والاشجار من فوق الدور الفوقاني للسفينة الذي نصعد اليه بكل حرية ونتشمم النسيم والهمبريب (شنو يعني الهمبريب؟) فنحن ندخل الى الباخرة وبصفة رسمية لأننا من حكام دار صباح؟.

ظهر الفساد:

كنا نحضر أحياناً القهوة للاسطوات من السوق ونسخنها لهم في الموقد سالف الذكر وكان المهندس الانجليزي المستر ولس (بكسر الواو واللام) يمنع شرب القهوة ويراقب الاسطوات في ورشتنا قدومه، فاذا رآه أحدهم هتف. «ظهر الفساد» وعلينا في هذه الحالة اخفاء جبنة القهوة والفناجين تحت النشارة وكذلك كان التدخين ممنوعاً فيخفون سجاراتهم.

الصرف:

كان الصرف في نهاية كل مدة - ١٥ يوماً - أيامك وسهراتك... وكان الباشكاتب يتولى الصرف ومعه اشخاص يساعدونه أظنهم من الاسطوات ورؤساء العمال - كان يوجد كشف باللغة الانجليزية هو الذي عليك ان توقع عليه - بينما يدفعون لك بموجب كشف آخر باللغة العربية.

كان كل عامل يبصم باصبعه او يختمون بختمه - حتى أنا كلفوني بصنع ختم فذهبت لعم عبدالعزيز رفعت الساعاتي نقشه لي ثم لما لاحظت البعض يمضون بأيديهم ذكرتهم (في الشهر التالي) انني استطيع ان أكتب.

كان عم عبدالعزيز رفعت ينقش الأسماء على أختام نحاسية صغيرة مستوردة وكل الختم بعشرة قروش وبعد اتمام الختم يختمه على دفتر مع كتابة الاسم والتاريخ كي يؤدي الشهادة اذا حدثت قضية او عند ضياع الختم.

وطردني المستر ولس:

فوجئنا في أحد الأيام نحن التلاميذ الصغار بايقافنا من العمل بأمر المهندس الانجليزي، حيث قال: الأولاد لا يفعلون شيئاً غير تجهيز القهوة للاسطوات.

وقد ذهبت بعد تجربة شهرين كانا لذيذين.

ذهبت الى السوق للعمل مع التجار ولديهم اكسب اكثر. وأجد الصحف (كما سيأتي).

ما هو الاختلاس:

في أحد الأيام سمعت ناس قسم الاشغال يقولون ان الباشكاتب راح السجن ـ فقلت لهم ماذا فعل؟ قالوا: عمل اختلاص ـ قلت لهم شنو اختلاص؟ قالوا سرق قروش الحكومة.

وفي اليوم التالي سمعنا أن والدة الباشكاتب ذهبت للحلة الفلانية للفكي فلان ـ عشان يفك ولدها من السجن.

ـ هل للفكي وظيفة الحكومة؟ (هكذا سألتهم)...

ـ لا... ولكن عندو بركة (هكذا اجاب رجل كبير)..

ـ لكن. السرقة مش حرام؟ (هذا سؤال شاب آخر)..

ـ لا... ما ها حرام سرقة الحكومة ـ لانها حكومة كفرة (هذا جواب الشيخ المسن).

ـ كلام فاضي.. السرقة كلها حرام.. وهي تضر الشعب السوداني (هذا صوت شاب).

ـ حرام تمام.. ولكن ربنا يمكن يقبل الفاتحة بعد ان يذكروه في المسيد الفكي، وحيرانه ويبركوا الليل كله، ويرحم العبد المذنب، عشان خاطر والدته العجوز (هكذا قال شيخ آخر)..

ـ لا... الفقرا ديل عندهم خدام جن (بضم الخاء) والخدام يلخموا القاضي ويخلوه يحكم بالبراءة (هكذا تكلم واحد وضحك).

وأخيراً قال أحد المواظبين على دروس الفقه بالجامع: ان هـذا كله ضلال في ضـلال ـ ويمكن يكون استدراج والعياذ بالله.

اعترف انني لم افهم هذا الحوار في حينه وقد حفظت ألفاظه بذاكرتي «الريكوردرية» الى أن بدأت اهتم بهذه الشؤون بعد نحو خمس سنوات (كانت قضية الاختلاس المشار اليها قد وقعت عام ١٩٢٧).

كان من السهل علي تخمين كيفية الاختلاس فقد رأيت بعيني ازدواج كشوفات الصرف حيث نتسلم المال بالكشف العربي ونختم ونبصم بالكشف الانجليزي وفي هذا الأخير كان يمكن زيادة أيام الاوفرتايم بل يمكن زيادة الفئات ولم يخطر ببالي اذ ذاك امكان خلق أسماء وهمية والتوقيع لها بأختام وهمية.

تجارة الريحة:

بعد أن تركت قسم الاشغال جعلت أعمل نهاراً مع التجار في السوق ثم أبيع الجاز والسجائر في شارع منزلنا في المساء.

أهم دكان عملت به في هذه الفترة هو دكان الشيخ محمد الاحيمر رحمه الله ويمتاز بأنه يبيع بضائع التشاشة والعطارة. وله زبائن من أعراب البادية (وآخرين من البقـارة الذين صاروا يعملون بـالزراعة في منطقتنا بعد انتهاء حكم خليفة المهدي).

عرفت من دكان محمد الاحيمر طريقة بيع الريحة اليابسة (و) اللينة لشيلة العرس.

الريحة اليابسة تشمل القرنفل والصندل والمحلب والضفر ـ (مثلا) يباع لك رطل الريحـة اليابسـة المخلوطة بعشرة قروش.. وعند الوزن تكون نسبة القرنفل تقريباً ٤٠٪ والصندل ٣٠٪ والمحلب ٢٠٪ الضفر ١٠٪، بينما وانت الشاري لا تعرف ان رطل القرنفل قيمته ٣ قروش والصندل ستة قروش والمحلب ٨ والضفر ١٠ ـ أربع أرطال قيمتها ٢٧ قرشاً فإذا اشتريتها كما هي يكون ثمن الرطل أقل من ٧ قروش مقابل ٢٥٪ من كل صنف ولكن اختلاف النسب في الميزان كما ذكر أعلاه يجعل الرطل المخلوط يساوي ٥٦ مليماً فالتاجر يربح ٤٤ مليم (على كل حال هذه البضاعة صاروا يبيعونها الآن بعشرات الجنيهات).

اما الريحة اللينة فهي المحلبية (اللازمة لتثبيت الحناء) والسرتية والمجمـوع (وهذان يضـافان الى

الكركار) ثم الصندلية وهي عصير أعواد الصندل قبل أن يجف وهذه لازمة للريحة المعروفة باسم (الخمرة) بضم الخاء... ثم تأتي بعد ذلك اللوبدات وهي فتائل العطور الجاهزة مثل بنت القسيس - وبنت السودان والتمر حنه، والريفدور، والروائح الأخرى المرسوم على فتائلها صور زعماء الطائفية.

حضارة السودان:

كانت جريدة حضارة السودان متوفرة جداً في تلك الأيام، وتوفرها يرجع الى نشاط واجتهاد عمنا المرحوم الشيخ مصطفى التني الذي يسافر لجميع مراكز السودان لجمع الاشتراكات وبذلك كانت تصل الى سنجة مثلاً عشرات النسخ من الجريدة وبعض التجار المشتركين أميون يعطونك إياها بدون كلفة اذا طلبتها.

بل ان البريد كان يجري توزيعه بالنداء - ويمكنك مثلاً أن تتسلم الجوابات والجرائد الواردة باسم أحد جيرانك وتوصلها اليه ثم تطلب منه ترك الجريدة لك.

كان يحرر الجريدة المرحوم حسين شريف (ابن عم السيد عبدالرحمن المهدي) وتلاه الشيخ أحمد عثمان القاضي ويشترك في التحرير كثيرون من أهل المعرفة في العشرينات والثلاثينات وكانت المقالات ليست ضعيفة من الناحية الأدبية وهناك خدمة اخبارية لمصر والخارج، في بعض الأحيان كانت راقية (وسوف تتوفر لي فرص مع ازدياد فهمي، لمناقشة صحافة تلك الأيام).

كتب من السوق:

ما رأي القارىء انني جمعت مكتبتي الأولى من باعة الكتب الفلاتة (الهوسا) بسوق سنجة وكلفتني مجموعة ٢٠ كتاباً نحو ١٥٠ قرشاً اشتريتها على دفعات.

متن الأخضري (فقه مالك) متن العشماوية (فقه) شرح واضافة ابن تركي على العشماوي - وهذا مجهود راق - متن ابن عاشر (هو منظومة فقهية) - اشار اليها الدكتور/عبدالله الطيب في قصيدته بمناسبة العيد الذهبي لمجمع اللغة العربية ٨٠ بيتاً نشرتها جريدة الصحافة ١٩٨٤/٤/١٢ زبد العقائد التوحيدية تأليف ود عدلان من الأقطار السودانية، متن الاجرومية (نحو) ديوان البرعي (مديح نبوي)، وكذلك بردة البوصيري والمولد العثماني وديوان السيد/جعفر الميرغني (والكتابان من تراث الختمية) ثم ديوان الامام علي بن ابي طالب (وهو شعر مختلف الاغراض) والعجيب: ديوان مجنون ليلى (وهو شعر غزلي) كذلك شرح الأربعين حديثاً النبوية وشرح حديث بدأ الاسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ (شارحه ابن رجب الحنبلي، الذي اعجبني اسمه بن رجب) وكتاب الرحمة في الطب والحكمة وصف أدوية قديمة قصة تودد الجارية وقصة قمر الزمان الى آخر القصص التي تبدأ بهذه العبارة: (يحكى أنه في قديم الزمان وسالف العصر والأوان...الخ).

في حلقة الجامع:

وكان بجامع سنجة حلقة يدرس فيها الفقه - وأحياناً - النحو وذهبت اليها. وكانوا يدرسون الفقه المالكي بكتاب (رسالة ابن ابي زيد القيرواني) وانقطعت بسرعة لأنني وجدت بعض المتحلقين يضيعون الزمن بأسئلة افتراضية ثقيلة.

أشياء جديدة:

وفي عام ١٩٢٨ تقريباً كان الاخوان بابكر - و - احمد ابو حاج قد افتتحا «مكتبة الفونج الكبرى» ومع انني كنت احصل على بعض المجلات المصرية مجاناً ممن اعرفهم بالسوق، إلا انني بدأت اشتري بنقودي مجلتي اللطائف المصورة وكل شيء وغيرهما.

في محل أبو العلا :

بداية عملي مع آل ابي العلا بسنجة، وهذه قصة هامة في حياتي بدأت بعمل مع فرع لهم كان يديره الأخ الفكي محمد الأمين احمد البشير - وفي الأصل دكان محمود حسنين أبوالعلا (أخو محمد وعوض ومصطفى) ولكنه انعزل عن شركتهم حسنين أبوالعلا وأولاده في تلك الأيام).

ولكن في يوليو ١٩٢٨م ذهب محمد الأمين بالاجازة وذهب ناس المحل الكبير (المرحوم عوض أبو العلا) وكانت النتيجة انني ذهبت الى السوكي لفترة قصيرة مع العم ابراهيم قوته الذي كان يدير فرع ترحيل هناك.

السوكي في تلك الايام لم يجر بناء سوقها الحالي فكنا نقيم بقرية (الافطح) وكانت مهمتنا ان نستقبل المراكب الشراعية والباخرة ونتسلم بضائع عملائنا وبالمثل الواردات بالسكة الحديد.

خط القضارف:

خط السكة الحديد - كساب القضارف كان ما زال تحت الانشاء وتمر علينا «قطارات رأس السكة» القادمة من كوستي (رئاسة الدريسة) وتتجه نحو الدندر (القويسي. على نهير الدندر. وهي أول محطة بعد السوكي في اتجاه القضارف).

كان عمال الدريسة يعطوننا مجاناً (جراية السكة الحديد) وهي خشنة ولم تكن مثل جراية الجيش المصري التي ذكرتها سابقاً.

تسالونني لماذا كساب الدوليب فأقول انه قبل خزان مكوار كانت المراكب والبواخر تصل الى الخرطوم نفسها وتعود منها وكانت السكة الحديد تنتهي في سنار التقاطع (خط الأبيض) ثم تحولت الميناء الخاص بسنجة والروصيرص الى مكوار، وبعد وضع أساس الخزان انتقلت الميناء الى كساب الدوليب (المشهورة بوجود ضريح الشيخ فرح ود تكتوك على مقربة منها).

وباختيار السوكي كميناء صرنا نستقبل بضائعنا فيها. والسكة الحديد توصلها لنا بعد مد الخط الحديدي فوق بناء الخزان الذي يتخذ شكل جسر (كوبري) وكانت كل بضائعنا تمر عن طريق سنار. لأن طريق القضارف لم يتم الا بعد سنوات (كما سيأتي).

في الافطح:

وجدت في قرية الافطح فراغاً واسعاً لأن العمل لم يكن يتطلب أكثر من ساعة أو ساعتين وأحياناً لا يوجد أي عمل ليوم أو يومين وقد انهمكت أكثر في القراءة والدراسة وسنعود لهذا فيما بعد.

محاولة لتأليف الأغاني في فترة زعماء الحقيبة..
زيارات للطرق الصوفية ـ ولمحة عن تاريخ الختمية..

وكان يمكن أن يقع أغبش في تهزئة مثل قصة (أم فكو) التي رويناها سابقاً، ذلك انه قد بلغ سن ١٣ ولم يختتن ويقولون لك: (ناس الساقل يطهرونهم وهم بالغون!) وسبب ذلك أن أخي الأصغر قد ختنوه في عامه الأول لسبب صحي، وكان أبي ينوي اقامة فرح يشملنا الاثنين لكن الباريء استدعاه ـ والوصي لم يستوص بقضية الختان.

الطهور بالسرقة:

تشاورت مع ابن خالتي وأصدقاء من أبناء الجيران في محاولة السرقة (ليس سرقة الخشب ولا التمر) إنما (سرقة طهور) فوافقوا وذهبنا الى الشريف حامد وهو حلاق السوق، متخصص في ختان الأولاد، وصارحته برغبتي فتظاهر بالقبول وحدد الزمان والمكان لكنه ذهب من وراء ظهرنا الى أبناء عمومتنا وأخطرهم ليخلي عاتقه من ـ المسؤولية فشاء هؤلاء أن يقيموا لي حفلة غبشاء بسرعة.

والطهور البلدي بطريقة (فص القصب) والموس المجلوخة ولا يوجد بنج الا أنهم يلخمونك بعشرات الأصوات التي تقول أبشر أبشر ـ وسط ضجة زغاريد النساء، ولما فرغت أعطوني حربة وقالوا لي (أزرقها واجر وراءها سبع مرات... وذلك لاستنزاف الدم وبالتالي إزالة الألم.. هكذا قالوا).

وأمي التي باعت الذهب والفضة لم تبع السوميتات اللازمة لجرتق الطهور وجرتق العرس كمان ـ وقد لبخوا رأسي بالضريرة وخضبوا يدي وقدمي بالحناء وصبوا على جسمي أنواعاً من العطور.. ووضعوا على معصمي سواراً وحريراً أحمر وأعطوني سوطاً ـ ووضعوا الى جانبي مصحفاً وسيفاً ـ وزعموا ان لي حرساً من الملائكة بخلاف الوزراء الذين انتخبتهم من أولاد الشارع...!!

وتسابق أولاد الجيران في مطاردة الدجاج ـ اشتروا وعطلوا دجاجات عديدة وذبحوها وجاءوا بها الى منزلنا الذي صار بالفعل في حالة (بوش) وكانت لدينا ذبيحة أيضاً فإن الخروف (الأملح الأقرن) بمواصفات الضحية أو العقيقة (هل يعرف القاريء الأخيرة؟) كان ثمنه ٣٠ قرشاً.

وكان جرح الطهور مؤلماً والغيار اليومي بالزيت الحار و(الكركعوب) المحروق أشد إيلاماً ولم يتم البرء إلا بعد شهر، وكنا في اليوم التالي للطهور أرسلنا (قدح الصباح) الى محل أبو العلا وجاءت المواعين راجعة مملوءة بالرز والفينو و(راسيْن سكر) ومعها عدة جنيهات (نقطوها) الزملاء المستخدمون.. أحضر هذه الهدايا صديقي النور رحمه الله حياً أو ميتاً، وهو كان تابع المحاسب الأول بمحل أبو العلا، وكان المرحوم يس السيد العوض عمدة أمدرمان فيما بعد والأخ النور المشار اليه كان من موالي آل العمدة، وكان أخبرني ـ أنهم يقيمون بقرية كرري، وقد سألت عنه عدة مرات منذ بدء ترددي على العاصمة طوال نصف قرن ولم أهتد إليه للأسف.

غناء بالكتاب:

وكان أصدقائي يغنون في ليالي فرحي، وقد أعرتهم كتب الغناء التي عندي، فجعلوا يترنمون والكتاب في يد أحدهم مثل مدائح الختمية:

عيني والمنام في معاندة

يا زهيرة الروض في الندى

أو

من جناين الشاطىء وبين قصور الروم

حي زهرة روما وأبك يا مغروم

محمود عزت المفتي:

كان الأستاذ محمود عزت المفتي قد أقام بالخرطوم، وهو كان بين المجاهدين المصريين في العشرينات الذين تخصصوا في زرع القنابل ضد الجنود والضباط والموظفين البريطانيين في القاهرة، ولكنه حينما اعتقل ابلغ عن زملائه وصار (شاهد ملك) وهذا يعني الاتفاق مع سلطة الاتهام على تبرئته شخصياً وادانة زملائه.

في الخرطوم أقام محمود عزت المفتي مكتبة، وجمع الأغاني السودانية وطبعها في سبعة أجزاء - وكانت له مبادرة او مشاركة في ملء اسطوانات الغناء السوداني في أواخر العشرينات.

عاد المفتي الى مصر في الثلاثينات وأصدر مجلة (الراديو المصري) وكانت محطات الاذاعة التجارية والرسمية اشتغلت بمصر في منتصف الثلاثينات..

مجلة الراديو المصري (و)رصيفة لها اسمها (أنا وأنت) كانتا تبيعان نفسيهما لأرباب الخصومات السياسية وأحياناً التجارية مثلاً تقاسمت المجلتان مهاترة ضارية بين المرحوم علي البرير وشركة أبو الغلا في سنة ١٩٣٧.

أصدر محمود عزت المفتي مجلة البعكوكة وهي مجلة فكاهية كانت ناجحة نسبياً في منتصف الأربعينات ثم دفنه التاريخ تحت ترابه.

الأغاني المصرية:

كنا نذهب الى المقاهي بسنجة لنسمع الفونوغراف: كان يهمنا الفونوغراف فقط لا الأغاني فماذا تعني أغنية تقول: (وحوي وحوي أياحه.. البنت الحلوه وتفاحه) واسماء منيرة المهدية وفاطمة رشدي، بل حتى محمد عبدالوهاب وأم كلثوم في عشرينات القرن، لم تكن لدينا سوى اسماء وكنا نسخر من هذه الأغاني وكانت لدينا في سنجة أغنية على لسان موظف مصري - وسودانيتها ظاهرة - وكلماتها كالآتي:

عينك البسة وخشمك لهيب النار

أنت في مصر وأنا في سنار!!

وكنا نهتف:

ود الريف شن عيبو

بصلة وبتابة في جيبه!!

البتابة هنا تشير الى البتاو وهو الخبز يخبز من دقيق الذرة - عندهم الشامي الذي نسميه عيش الريف.

صديقنا محمد الخليفة طه كان قد صنع انقلاباً بتسمية نفسه (الريفي) فبصرف النظر عن المعاجم، الريف عندنا يعني مصر، وأولاد الريف هم المصريون.

الاسطوانات:

وجاءت الاسطوانات أوديون (و)بيضافون...الخ. وعندي أن كثيراً من هذه الاسطوانات عبارة عن كواريك مثل أصوات بشير الرباطابي ومنافسه الدنقلاوي وحتى علي الشايقي..

فن خليل فرح وسرور وكرومة كان أعلى من مستوانا أما أنا فقد اعجبتني في التسجيلات المبكرة اسطوانات عبدالله الماحي وابراهيم عبدالجليل.

المبارك ابراهيم:

المفهوم أن المبارك ابراهيم رحمه الله هو صاحب ما صار يعرف باسم (حقيبة الفن) ويبدو لي انه نسي أن يضع في حقيبته الاسطوانات التي غناها بنفسه في (اسطوانات عباس) وعباس كان شاباً مصرياً مجتهداً تخصص أولاً في طبع النتائج والمفكرات والاجندات ثم تحول الى الاسطوانات..

من كلمات أغبش:

العجيب انني كنت قد حفظت أغاني كثيرة، وحاولت نظم أغنيات بالتقليد وكان تقليدي قد زاوج بين أغاني ناس ابراهيم العبادي ومدائح ناس السيد جعفر الميرغني واليكم خاتمة احدى قصائدي:

ليك سلامي بي عد كلامي
وعد غريد الطير في البشام
من متيم في السوكي منفي
راد وصالك حتى في المنام
(يعني شنو البشام؟)..

القمار:

ومتابعة الفونوغراف في المقاهي وخصوصاً بعد ظهور الاسطوانات السودانية - جعلتنا نقعد كثيراً في تلك المقاهي في الامسيات.

فضل المولى صاحب المقهى أكد لنا أن الكاكاو عبارة عن تركيبة انجليزية من البن والسمن قلنا له انه نبات قائم بذاته يزرع بغرب افريقيا، وربما تصلح زراعته في السودان - فرفض أن يسحب فكرته.

وتعلمنا لُعبة السيف ولعبة الواحد وتلاتين.. ولكننا لعبناها بالفول (القشاط) أربعة حرفاء لكل واحد ٤ قشطات والنزلة تعريفة والذي (يخرت الفول كله) يعطيه صاحب القهوة قرشاً واحداً وطلباً يعني كباية شاي أو كاكاو أو قرفة أو حلبة أو زنجبيل ولكن الليموناده في المقهى كانت بقرش..

لعبة السيف خطرة جداً وهي التي يلعبها المحترفون والمدمنون بالريالات ولما يقترب منهم البوليس يلمون قروشهم من الطربيزة ويحلفون انهم كانوا يلعبون'(البصرة)!.

وصاحب المقهى له مندوب في طربيزة القمار اسمه (الركيب) بكسر الراء وتشديد الكاف المكسورة ومهمته جمع (القانيوتا) عمولة اللعب، ثم يلعب مع اللاعبين وفي الغالب تؤول جميع قروش الطربيزة في النهاية الى جيبه:

خفت جداً من هذه المقامرة وانصرفت عنها، بل حرصت على تجنب (الكونكان) وأكثر من - ذلك حلفت الا أتعلم لعبة (الوست) لانني رأيت المثقفين يطلبون فيها المعالي ويسهرون على موائدها الليالي!

طرق أبواب الصوفية:

وجاء المولد شهر ربيع الأول فخطر لي أن أطوف على خيام جميع الطرق الصوفية لآخذ فكرة عن كل منها.

جاء أهل الطرطور:

بدأت بخيمة نوبة القادرية قبل أن يجيء أهل الطرطور - وأنا من ابناء العركيين فوجدت رجلاً وقوراً اسمه محمد سعيد (رحمه الله) جالساً على برش ومعه رجال قليلون يقرأون ما عرفت انه المولد تأليف البرزنجي، فجلست معهم حتى جاء دوري وقرأت (لوحاً) (عطر اللهم قبره الكريم، بعرف شذي من صلاة وتسليم، اللهم صل وسلم وبارك عليه).

قبل أن نكمل قراءة ألواح المولد، سمعنا دوي النوبة ثم رأينا الغبار يملأ الساحة وما لبثنا أن طرق مسامعنا ما يعد انذاراً لنا بأنه لم يعد لنا مقام حيث كانت المسيرة تهتف:

أهل الطرطور.. جو.. جو
لباسهم نور.. جو.. جو

وتحلقت حلقة أوسع جعلت برشنا في الوسط فقام شيخ محمد سعيد ووقف في الصف الرئيسي أما أنا فقد تراجعت الى الخلف ثم انسحبت تاركاً المكان لأهل الطرطور ولم تعد هناك قراءة ولا سماع.

أهل السريانية:

ومررت على الاحمدية وتركتهم يتوحوحون (أح أح) مع منشد لهم في يده (رق) يتغنى بكلمات لم تكن مفهومة عندي لأن لهجتها مصرية.

وزرت (السمانية) جماعة الشيخ التوم ود بانقا - وهؤلاء يتغنى منشدهم بنداء ممطوط ليس له كلمات عربية واضحة للمستمع - ولما سألت عن لغتهم، قال لي احدهم انها (سريانية) والعجيب أن أستاذاً جايلاً هو الشيخ عبدالله البشير يكتب عن ناظم صوفي اسمه ود نفيسة ويردد تلك الفكرة العامية القائلة أن (ترجمة هؤلاء الدراويش هي اللغة السريانية مع ان اللغة المشار اليها احدى اللغات السامية (فرع من اللغة الآرامية) - وكلماتها مرصودة في القواميس ولها نحوها وصرفها ونصوصها المأثورة، وتدرس في عصرنا الراهن في المعاهد المتخصصة - وهي باختصار كانت لغة حية في العهد الروماني، والآن تتكلمها طائفة السريان المسيحية ويستعملها آخرون في طقوسهم الكنسية منهم الموارنة والكلدان، وأدب السريانية المتوفر في العصر الحاضر اكثره ديني ومن افذاذها أديب مشهور هو أفرام السرياني.

أهل السفينة:

وفي اليوم التالي جلست مع الختمية قبل أن يجيء أهل السفينة، ولما جاء هؤلاء وهم يهتفون بثلاث شهادات:

لا إله إلا الله، لا إله إلا الله

الله الله

محمد رسول الله، الحسن ولي الله

وقبل أن يستقروا قال قائلهم:

وكل الطرائق نجوم معلق
الله الله
الا طريقتي كنجم الظهيرة

المهم أن أهل السفينة (السفينة عندهم المسيرة، أو المدائح التي تصاحبها والمنشد لدى الختمية يسمونه المسفن) اندمجوا معنا وشاركوا في طقوس قراءة المولد مثل:
مرحباً بالمصطفى يا مسهلاً وذلك عند الوصول الى كلمة (ووضعته صلى الله عليه وسلم في لوح الميلاد (تم):
قصيدة الشيخ محيى الدين بن عربي المشطرة عند الوصول الى لوح الاسراء والمعراج..الخ.
وبعد انتهاء مولد النبي صلى الله عليه وسلم بدأت أذهب مع ابن عمنا الهادي عثمان رحمه الله الى زاوية الختمية في فريق الشايقية وواليت المضي معه مرات في كل مساء أحد وخميس.. اغتبطت جداً لاتاحة الفرصة لي بانتظام في مطالعة المولد ضمن المجموعة.
ثم جاءت مناسبة الاحتفال بالمعراج وجاء المرحوم الخليفة علي أحمد نجيله (وهو الشقيق الأكبر للأديب الراحل حسن نجيلة) وعلي نجيلة كان في تلك الأيام المرشح الوحيد لقراءة قصة المعراج (تأليف السيد جعفر الميرغني) كذلك فهو أيضاً كان يقرأ مناقب المراغنة في حولياتهم بسنجة حتى الثلاثينات كانوا يحتفلون بحوليات الوفاة ـ الذكرى السنوية لكل من الختم مؤسس الطريقة وابنه السيد الحسن، نزيل كسلا وابن الأخير السيد محمد عثمان الأقرب (معاصر المهدية الذي ذهب لمصر مع نجليه السيدين علي وأحمد) ثم حولية السيد أحمد الذي توفي في أوائل الثلاثينات.. وطبعاً لن يقصر ختمية سنجة في الاحتفال بحولية السيد علي المتوفى في الستينات..
اتفقت مع شقيقي الوحيد على الدخول الى الختمية، فهي ناد منتظم حسن السمعة ويعصمنا من الجلوس بالمقاهي وشرور أخرى، ويتيح لنا فرص القراءة وهذا أمر مهم جداً عندي.
خليفة الخلفاء بسنجة كان عمنا المرحوم الخليفة خليفة ود محمد علي عيساوي الشايقي وهو رجل ذو شخصية قوية لم يكن يكتب ولا يقرأ، وكانت له علاقة مودة وثقة مع حلة خوجلي (الاسم الذي اختارته جريدة الصراحة ١٩٥٠/١٩٦١ للسيد علي الميرغني ودائرته).

صار أشبش نقيبا:

كان الخليفة (ضوى) رحمه الله هو المشرف على الحلقات هو رجل متواضع جداً وكان لا يقرأ ولا يكتب ايضاً ولكنه كان يشارك مثل خليفة الخلفاء في جميع الطقوس.
كان الخليفة ضوى يدير دكان مكوة معروف بالسوق ولذلك فان اصحاب (الداعي) يتوجهون اليه بطلباتهم أي حينما تريد إحدى الأسر اقامة (ليلية) بمنزلها بصفة (كرامة) أو ـ (سماية) أو (نذر) أو حتى (صدقة مأتم) انتهى الأمر بنا أنا وشقيقي الى أخذ الطريقة مع الهادي ابن عمومتنا..

في اليوم التالي، بارشاد الهادي فصلنا لكل منا حزاماً أخضر كتب عليه الترزي بالوشي الذهبي اللون ذي اللمسة المعدنية ويسمونه (القصب) كتب عليه (السيد محمد عثمان الميرغني). واشترينا فنيارين (مصباحين يوقدان بالشمع) وصار من حق كل منا ان يتسلم شمعة من الخليفة ضوى يوم الداعي.

ومجموعتنا أصحاب الأحزمة الخضراء اسمها (النقباء) في الصف الأمامي في مقدمة السفينة مع فنابيرهم، ولما نصل الى مكان الداعي نسارع الى اطفاء الفنانير ووضعها تحت طربيزة ـ الوسط، حيث توجد الرتائن.

في الداعي يحفظ النقباء النظام ـ منع هرجلة الأولاد ـ ويقوم احدهم بنقل المولد من قارىء لآخر، وفي حالة الذكر الصوتي القيامي يتوزعون ضمن الذاكرين (حي قيوم، حي قيوم) لضبط النغم.

وبعد انتهاء الذكر وجلوس الناس في مرحلة الاستغاثة والادعية الختامية، يشارك النقباء في نقل صحون الفتة وتوزيعها على الجالسين كل ٤ أو ٥ مع بعض ـ حسب الكمية المتوفرة ويوزعون جرادل الماء، ثم الشاي.

المهم جداً أنهم كانوا قد اختاروا لجماعتهم (ستة أو سبعة) أحسن صحنين أو ثلاثة ولكن: التزم الأخ الهادي بأن يراقب الدعوات النهائية، فإذا قال خليفة الخلفاء (المرحوم ربنا يبارك في ذريته ـ أو ما أشبه) يقول الهادي لنا هامساً (انما) وهذا يشير الى الآية (انما الصدقات للفقراء والمساكين..الخ سورة براءة وما كنا نعرف أن الصدقات في الآية هي الزكاة) اما إذا كانت الدعوة المولود ربنا يخفظه أو ما أشبه فان الهادي يقول أمين.

وظللنا نتجنب أكل صدقات الموتى، ومن العجيب اننا نشعر أن رائحة طعام الصدقات مختلفة، ورغبت في الحصول على مجموعة مجلدة من الكتب السبعة التي يستعملها الختمية في طقوسهم وهي:

المولد وديوان البراق، شعر مدائحي مشطر منسوب للختم والديوان يحتوي على قصائد أخرى له ولآخرين ـ ومجموع الاوراد، وديوان السيد عبدالله المحجوب الميرغني وهذا أقدم من تأسيس الطريقة الختمية كما سيأتي... وديوان السيد جعفر الميرغني وديوان السيد تاج السر الميرغني، ثم كتيب صغير اسمه (المنوال) وهو عبارة عن لوائح تنظيمية.

استفدنا من حديث الخليفة ضوى ـ النادر ـ عن نفسه انه عاش فترة ما بأمدرمان ولكنه لم يحدثنا عن أسرته، ولا عن قبيلته ولا نعرف حتى ولا اسم ابيه...

سألته عن اسم تاجر كتب بأمدرمان فقال انه يذكر واحداً اسمه شحاتة ـ ولعله محمد شحاتة فكتبت الى الاسم وأرسلت كبون بوسته طالباً مجموعة الكتب الختمية المجلدة، ومضى شهران ثم تلقيت خطاباً من مصر يذكر فيه مرسله شحاتة انه ترك الاقامة في السودان وأعاد الكبون وأشار على التعامل مع مكتبة (الهداية) وكان أحد أصدقاء شحاتة بأمدرمان قد أرسل اليه خطابي بمصر.

ومكتبة الهداية بأمدرمان لصاحبها أحمد جمال الدين هو نفسه زميلنا وقلت له في الخمسينات انك عجوز تتشبب مع انك سنة ١٩٢٨ على الأقل كنت تدير مكتبة الهداية فزعم ان والده ـ (أستاذنا عبدالرحمن أحمد رحمه الله فتح المكتبة وسجلها باسمه لأن الأب كان مدرساً بمدارس الحكومة).

نقش جم:

ظهر في تلك الأيام اعلان بالحضارة عن صدور كتاب ترجمة السيد محمد عثمان الميرغني تأليف الخليفة يوسف سليمان (والد أستاذنا ابراهيم يوسف سليمان من زعماء حزب الاتحاديين رحمه الله) والكتاب صغير، وكان ثمنه قرشين، وتأليفه مرتب جيداً، نسب المترجم له ونشأته وتعليمه وأخذه الطريقة على الشيخ احمد بن ادريس ثم استخلاص طريقته الختمية من خمس طرق هي:

١ ـ النقشبندية (ن)
٢ ـ القادرية (ق)
٣ ـ الشاذلية (ش)
٤ ـ الجنيدية (ج)
٥ ـ الميرغنية (م)

ويجمعها قولك (نقش جم)

والميرغنية المذكورة هي طريقة السيد عبدالله المحجوب الميرغني (جد المترجم له) وقد سلفت الاشارة الى ديوانه. ولم يقصر الخليفة الدرماني في ذكر مؤلفات محمد عثمان الميرغني وذكر اسماء ابنائه (محمد سر الختم محمد والحسن وجعفر ومحمد نزيل مصر) وأورد المؤلف قصيدة رثاء في موت الختم مطلعها:

رزء يفتت شامخ الاطواد
ويورث الاحزان في الاكباد

فوق قلوبن:

كان الخليفة ضوى زوجاً للسيدة بنت حارن وكان لآل حارن رحمهم الله قريبة تدعي (فوق قلوبن) بكسر الباء يعني فوق قلوبهن.. وما يأتي المساء الا وتكون فوق قلوبن قد وصلت الى قمتها فتصرخ بطول صوتها شاتمة الأبعدين والاقربين.

زعم الخليفة ضوى أن الختمية لا يمكن ان ينالوا ثراء المال ما لم تتم اعادة بناء ضريح السيد الحسن الميرغني بكسلا (الذي بناه عثمان، ودمره عثمان، والمتوقع ان يعيد بناءه عثمان). عثمان الباني هو محمد عثمان الاقرب، وعثمان الهادم هو الأمير عثمان دقنة وعثمان المرشح لاعادة البناء كان محمد عثمان نجل السيد احمد رحمه الله، وعليه فان البناء لم يتم حتى الآن ولكن الخُليفة ضوى ظل مقيماً بسنجة ولم يعرف شيئاً عن مليونيرات الختمية.

وقد تصادف في الأسبوع الأخير من ١٩٣٦ ان كنت مع الخليفة ضوى في قطار واحد من السوكي الى كسلا وكان ثالثنا الخليفة احمد الحاج التبيدي وقد زار ضريح السيد الحسن بقرية الختمية (التاكة) ونال الاكرام من اخي المرحوم الخليفة الطيب عبدالحفيظ.

مات الخليفة ضوى منذ سنوات بلا عقب ولا نشب ولا قراية الا الزاوية رحمه الله..

كيف تمت مقابلة أغبش الصغير للسيد عبدالرحمن عام ١٩٢٥ ، بيع الذرة المعان تحت ظل الكرباج من أغبش الصغير في الصف ، معاملة الفئات المختلفة من أنصار المهدي في أيام الحكم الثنائي ، كيف بدأت دائرة المهدي في العشرينات

كشاهد على عصري أقول ان السيد عبدالرحمن المهدي رحمه الله، قد غطى الثلاثينات - أكرر الثلاثينات - كزعيم سوداني ذي جدارة، ويكاد يكون وحده الذي أعاد للسودانيين اعتبارهم بعد مهانة لازمتهم لأكثر من ثلاثين عاماً، منذ هزيمة حكومة خليفة المهدي ١٨٩٨ - ومن قبل كان المهدي الكبير - محمد احمد المهدي - قد أوجد للسودان والسودانيين كياناً تاريخياً، اعتز به السودانيون والعرب والمسلمون والافريقيون بثورته الناجحة ١٨٨١/١٨٨٥.

كان السيد عبدالرحمن المهدي يقول انه سوداني لم يتوار عن هذه الصفة كما فعل آخرون، وكان يسارع بماله وشخصه الى الوقوف مع كل عمل وطني علني مقبول من السلطة (ولا بأس).

دعني ابدأ من محاولة تسوية قضية اضراب طلاب كلية غردون ١٩٣١ وتأسيس ورعاية معهد القرش، والمدرسة الأهلية ومدارس الاحفاد.

واكرام البعثة الاقتصادية المصرية (وردم خور الجاسر بالجزيرة أبا لتفويت مؤامرة مفتش المركز الانجليزي...الخ (١).

عودة الى بدء:

ان الحكم الثنائي قد طارد بيت المهدي على الخصوص - منذ بداية رفع العلمين - فان جهاز جاسوسيته الذي كان من اكبر المشرفين عليه النمساوي سلاطين، الذي أقام عدة سنوات في أمدرمان تحت حكم الخليفة كان الجاسوس يمارس شعائر الاسلام ويختلط بالانصار في المسجد وفي البيوت، قبل ان يهرب بخبرته الواسعة الى مصر وتحليلي للأسباب كما يلي:

زعامة بيت المهدي آلت الى الخليفة شريف وهذا هو (ولي العهد) الرسمي (٢) بعد الخليفة عبدالله ود تورشين هو اسم عائلة خليفة المهدي، أما لقب (التعايشي) فقد أصر عليه اعلام الفاتحين للسبب الهام الذي هو التالي:

١ - قبائل البقارة وخصوصاً التعايشة - كانت أفعالهم مكروهة جداً في كل مكان بالسودان.

٢ - وقد عبر كل من المهدي وخليفته عن سخطهم لافاعيل البقارة (راجع السودان عبر القرون تأليف مكي شبيكة ص ٣٥٨ وما بعدها وص ٤٢٥ وما بعدها).

٣ - ولذلك رأينا التعايشة يستسلمون للحكومة في كل مكان (باستثناء أولئك الذين كانوا مع خليفة المهدي في موقعة أم دبيكرات) ورأيناهم (التعايشة) تخصص لهم:

حكومة الحكم الثنائي أماكن اقامة جديدة خصوصاً أولئك الذين كانوا ضمن جيش أحمد فضيل بالقضارف - الذي تفتت فالتعايشة اقاموا بناحية الشوك على نهر ستيت شمالي القضارف - وسط قبائل بطبعها موالية للحكومة هم الضبانية واللحوين والشكرية ثم تراهم بجبل بان من جبال قلع النحل، وسط قبائل

البرقو الذين سحبهم الناظر موسى (معه) من جيش أحمد فضيل أيضاً.. ونرى التعايشة في عدة أماكن بين سنار والروصيرص (مثل الرماش ـ و تنقرو).

٤ ـ أبناء خليفة المهدي قد كتبت لهم السلامة ـ ونحن نهنئهم ونهنىء أنفسنا وبعضهم نالوا التعليم النظامي ومن ورائه مناصب الحكومة في الجيش والادارة ولم يظهروا أية معارضة للحكم الثنائي الا بعد نشوء الأحزاب في الاربعينات وتحركوا من خلالها بكل حذر.

مذبحة أسرة المهدي:

دعني أنقل هنا بالنص ما كتبه استاذنا مكي شبيكة رحمه الله، ص٤٢٨ من كتابه السودان عبر القرون تحت عنوان نهاية الخليفة شريف وأبناء المهدي الكبار.. وبموت الخليفة (خليفة المهدي) دانت كل البلاد بالطاعة للجيش الفاتح. وقبل أن نختم حوادث الفتح، لا بد لنا أن نروي ما حدث للخليفة شريف وابني المهدي (الفاضل والبشرى) في الشكابة:

(خرج الخليفة شريف وابناء المهدي من أمدرمان مع الخليفة عبدالله بعد الواقعة، ولكنهم بقوا في الجزيرة أبا وسلموا لقوات الحكومة في نوفمبر سنة ١٨٩٨ (هزيمة كرري كانت في سبتمبر) وأرسلوا معتقلين الى حلفا، ومن هناك أذن لهم بالاقامة في قرية الشكابة ـ بين واد مدني وسنار على النيل الأزرق ـ وفي أغسطس ١٨٩٩ ترامى الى الحكومة بواسطة جواسيسها أن الخليفة شريف عاد لقراءة الراتب، وأنه ينوي مغادرة الشكابة والالتحاق بالخليفة عبدالله في الغرب، فقام سميث بيك من سنار مع بلوك من العساكر في وابور وباغت القرية في الصباح وأحاط بهم ولم يقابلوا بعداءمن أهل القرية في أول الأمر، ولكن حينما قبض على الخليفة شريف وابني المهدي ـ حاول البعض تخليصهم بالقوة فعد هذا مظهراً عدائياً ـ فأشعل الجند النار في القرية وقتلوا عدداً من الرجال وأسروا الباقين وأعدم الخليفة شريف وابنا المهدي في الحال، رمياً بالرصاص دون ابعاثهم لسلطات عليا).

الزعامة الجديدة:

ونحن نضيف ما يلي: قام الشيخ ود شقدي بإيواء بقية أسرة المهدي بقرية جزيرة الفيل (ضاحية لمدينة واد مدني) وقد بقي من أبناء المهدي علي «و»عبدالرحمن (الأخير كان عمره ١٤ سنة في ١٨٩٩ حيث انه كان في بطن امه حين مات ابوه سنة ١٨٨٥م).

وفيما بعد: اقامت أسرة المهدي الرئيسية بأمدرمان بعد أن أرضت الحكومة باتصالات مباشرة، أو بمؤشرات ضمنية.

حركة علي ود عبدالكريم:

نسجل أن علي ود عبدالكريم انما هو من أقارب المهدي من مجموعة أشراف الدناقلة ـ أبناء (ساتي علي).

ونحن بعد أن ننقل النبذة التي كتبها البروفيسورمكي شبيكة، سوف نضيف اليها المعلومات الرائجة عن هذه الحركة:

جاء على الصفحة ٤٢٩ من (السودان عبر القرون):

(في اول سنة ١٩٠٠ ظهر فريق من الانصار من أمدرمان (جماعة علي عبدالكريم) كانوا عنصر اقلاق للأمن العام. فهم يؤمنون بأنه بعد موت الخليفة يحل زمن نبي الله عيسى، وهم لا يدرون أين يظهر ومتى وهم

على استعداد لتأييده. ويعتقدون فوق ذلك بأن أفعال الانسان كلها صادرة عن إرادة الله، فليس فيها شر وخير وليس فيها مندوب ومكروه، وأنهم الآن لا ينوون شراً بالحكومة فقد أراد الله ذلك، ولكنهم اذا ما دعاهم الوحي للثورة فهم يفعلون.

(ولهذا الاحتمال رأت الحكومة ان تقبض عليهم، وان تجمع مجلساً من العلماء وأرباب الطرق ليقضي فيهم، فحكم عليهم بالنفي لأن ما جاؤوا به بدعة دينية ولأن احتمال ثورتهم على الحكومة ينذر بخطرهم على الأمن العام).

تجاهلات هامة:

تجاهل الأستاذ شبيكة ما يلي:

١ ـ ان أسرة المهدي الرئيسية استنكرت حركة علي عبدالكريم ـ مع سائر الفئات الاسلامية.

٢ ـ ان الحركة كانت اباحية قرمطية صريحة وقد عطلت الآيات ٢٢ و٢٣ و٢٤ من سورة النساء «ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء الا ما قد سلف أنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا(٢٢) حرمت عليكم امهاتكم وبناتكم واخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت، وامهاتكم اللاتي ارضعنكم واخواتكم من الرضاعة، وامهات نسائكم وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن، فان لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم وحلائل ابنائكم الذين من اصلابكم، وان تجمعوا بين الاختين الا ما قد سلف ان الله كان غفورا رحيما(٢٣)» (وباختصار فانهم أباحوا الزنا على اطلاقه).

٣ ـ كانوا يمارسون السحر او عبادة الشيطان، قال الراوي: (جلسنا في حلقة الذكر فجاءت سبع ديوك بيضاء كبيرة الحجم وحلقت نفسها خلف حلقتنا واقفة في صمت رزين. وبعد انتهاء الذكر اخرج الزعيم بذرة بطيخ وحفر لها حفرة على الأرض امامه ودفنها وصب عليها الماء من الركوة فنبتت شجرة بطيخ وانتشرت عروقها واخضرت اوراقها وأزهرت واثمرت وتضخمت بطيخة واحدة الى حجم كبير ونضجت (أمامنا في دقائق) فقطعها الزعيم وشققها ووزعها علينا وكانت شديدة الحلاوة).

الثورات المحلية الأخرى:

١ ـ ثورة عبدالله ود حسن (الكناني) بسنجة ١٩٠٤ وقد قتل فيها المأمور المصري (أب رفاس) (٣) لم يؤيدها آل المهدي.

٢ ـ ثورة عبدالقادر امام ود حبوبة في الحلاويين بالجزيرة ١٩٠٨ (ومع ان الثائرين انصار لا شك فيهم الا ان بواعثهم كانت تتعلق بملكية الأراضي الزراعية) (٣) لم يؤيدها آل المهدي.

٣ ـ لا حاجة بنا الى الاشارة الى عدم تأييد آل المهدي (وكذلك جميع المتزعمين الطائفيين والقبليين) للسلطان علي دينار بدارفور الذي خرج الى النطاق الدولي فاتصل بالسلطنة العثمانية وصار هدفاً لبريطانيا وحلفائها مثل الخديوي عباس الثاني والامبراطور ياسو (وارث منليك الثاني بالحبشة) كل ذلك في فترة حرب ١٩١٤/١٨.

٤ ـ لم يؤيد آل المهدي حركة ابن عمهم ـ ود السيد حامد بمنطقة سنجة ١٩١٩ (٥).

٥ ـ لم يؤيد آل المهدي حركة السحيني ١٩٢١، بنيالا.

الولاء وسفر الولاء:

(أ) اشترك آل المهدي مع الزعماء الآخرين، دينيين وقبليين في سفر الولاء (بكسر السين) وهو الوثيقة التي أعدتها حكومة الخرطوم في الشهور الأولى لحرب ١٩١٤/١٨ بعد فرض الحماية على مصر وعزلها عن السلطنة العثمانية التي دخلت في الحرب ضد حلفاء الغرب ومع دولتي الوسط (المانيا والنمسا) وعزل الخديوي عباس الثاني الذي انحاز لتركيا وتعيين السلطان حسين كامل.

(ب) واشترك السيد عبدالرحمن المهدي في رحلة لندن ١٩١٩ لتهنئة ملك بريطانيا بالنصر - وهنـاك عرض (سيف والده المهدي) كهدية للملك (البريطانيون يتشاءمون من هدية السلاح - هكذا قالوا لنا) وقد أعاد الملك السيف (للسير) السيد/عبدالرحمن ليستعمله دفاعاً عن الامبراطورية (هكذا قال).

السودان للسودانيين:

وتحرك المصريون في سنة ١٩١٩ بزعامة سعد زغلول مطالبين بالاستقلال التام لمصر والسودان - وها هنا نرى آل المهدي يتزعمون حركة السودان للسودانيين - المماثلة لحركة (مصر للمصريين) التي كانت أثناء حرب ١٩١٤/١٨ قد ارتضت الحماية المصرية بقيادة (حزب الأمة) المصري الذي كان من زعمائه للعجب - سعد زغلول ومن منظرية الفيلسوف أحمد لطفي السيد وحركة مصر للمصريين كانت مناوئة (للحزب الوطني) حزب مصطفى كامل - ومحمد فريد - الذي كان يتمسك بالولاء للسلطنة العثمانية ويعتمد على شرعيتها في مقاومة الاحتلال البريطاني بينما نشأت حركة السودان للسودانيين بغرض رفض الولاء لمصر التي هي شريكة في الحكم الثنائي والتي كان البريطانيون يجادلون منافسيهم في المحافل الدولية بصدد حكم السودان على أساس أنهم يديرونه نيابة عن الشرعية المصرية.

عبر السيد حسين الخليفة شريف (ابن الخليفة الثالث الذي كان ولي عهد الحكم المهدوي) عبر عن قضية السودان للسودانيين على صفحات جريدة حضارة السودان التي كان يحررها (٦).

وحافظ آل المهدي على ابتعادهم عن حركات المثقفين المناوئة للحكم الثنائي - مثل الاتحاد السوداني (و) اللواء الأبيض وبالتالي جميع الحركات التي تجسمت في ثورة ١٩٢٤ العسكرية والمدنية.

رحلات بالحمير:

سمعت من شيوخ الانصار بسنجة أن السيد عبدالرحمن بعد أن سمحت حكومة الخرطوم لبيت المهدي بالاقامة بأمدرمان والتحق س.ع.ر. بحلقة التدريس التي كان يديرها الشيخ الورع محمد ود البدوي، أنه أي السيد ع. في شبابه كان قد سمحت له السلطة أيضاً بزيارة النيلين الأبيض والأزرق (افترض حدوث ذلك بعد كتلة ود حبوبة ١٩٠٨) وقال المشايخ ان س.ع.ر. مع (ملازميه) كانوا يركبون الحمير المعارة من قرية الى قرية في موسم الحصاد الذي نسميه (الدرت) وكانت القرى تجمع ما تستطيع من مال وحبوب للزائر الكريم.

رحلات الصالونات:

وفي سنة ١٩٢٥ وصل ركب السيد عبدالرحمن المهدي على سيارات صالون فاخرة لم نر مثلها من قبل بسنجة (ظللت أتحدث في تلك الأيام بأن السيارات توجد في ظهرياتها (ساعات) وما كنت أدري أنها ليست ساعات وإنما هي (عدادات) البنزين وفي تلك الأيام كنا نعرف أسماء فورد وجنرال موتورز ومورس وفيات وشفروليت وبويك وبونتياك من الاعلانات والصور التي تنشر بجريدة حضارة السودان).

نزل ركب س.ع.ر. بمنزل عمنا المرحوم يوسف الحاج أحمد الفلاتي (وهو أحد المنازل القليلة التي كانت مبنية بالطوب في تلك الأيام).

ذبحوا تيمنا لمقدم الزائر الكريم عدة ذبائح مشى على جثتها وهي طريحة قبل دخوله الى الدار وقد تسابق العربان الى قطع أجساد الذبائح بجلودها. ورأيناهم يحفرون الأرض تحتها لحمل التراب المصبوغ بالدم من أجل التبرك.

في عصر اليوم الثاني ساقني الخال الفكي السماني واجتاز بي الحشود الى محضر س.ع.ر. وقال له هذا (حفيد الأمير ود حمدان) وقد انحنيت مرتبكاً وما كنت أعرف ماذا أصنع فوضع السيد الكريم يده اليمنى على رأسي ودعا لي (كان عمري عشر سنوات وقد ضحك مني أحد أبناء جيراننا الضناقلة. وقال كان يجب ان تتناول يد (سيدي) وتقبلها).

مؤسسة تجارية:

اتضح فيما بعد أن زيارة س.ع.ر. لسنجة ١٩٢٥ كانت تدشيناً لمؤسسة تجارية، وقد اختاروا عم ابراهيم قوته وأولاده لادارة محل كبير يبيع البضائع المستوردة ويشتري المحاصيل المحلية ـ منافساً للمحلات الكبيرة هناك إذ ذاك:

١ ـ حسنين أبو العلا وأولاده.
٢ ـ أحمد حسن عبدالمنعم واخوانه.
٣ ـ يعقوب اصلانيان.
٤ ـ ميشيل بخاش.
٥ ـ احمد ابراهيم الشهاوي واخوانه.

ولكن فتح المحل المشار اليه باسم (الانصار) جعله (مقلة) للانصار والمتنصرين وجعل مجموعة منازل عم ابراهيم قوته وأولاده ـ مع أصهارهم ـ مضيفة كبرى ـ بل تكية جماهيرية ـ وكان العم رجلاً طيباً وكريماً فما لبث المحل خلال عام واحد أن أفلس بما يقدر بنحو عشرة آلاف جنيه (هذا مثل قولك مليون جنيه في هذه الأيام) ورأينا أبواب الدكان الرئيسي مختومة بالشمع الأحمر. ورأينا الاعلانات القضائية لأول مرة في حياتنا.

* ابراهيم عامر ضد ابراهيم قوته وضامنه محمد الخليفة شريف.
* قطان وشركاه ضد أ.ق. وضامنه م.خ.ش.
* كونتو ميخالوص وشركاه ضد أ.ق. وضامنه م.خ.ش.
* سودان ميركنتايل ضد جلاتلي هنكي...الخ.

تدمير آل قوته:

ويبدو ان محمد الخليفة شريف رحمه الله قد اضطر الى اجراء تسويات مع الدائنين بالخرطوم لكنه استصدر حكماً بمبلغ كبير ضد ابراهيم قوته وأولاده رحمهم الله. وقد رأى الناس وتألموا كيف ان الحجز القضائي قد دخل الى بيت عمنا الوقور الشيخ ابراهيم قوته وقد نقلوا منه قطع الأثاث وصواني النحاس وأواني الصيني ثم جعلوا يلاحقونه بالحجز المتكرر الى ان تطوع وفد من شيوخ الأنصار وذهبوا الى الخرطوم وقابلوا السيد عبدالرحمن الذي أمر بإيقاف الملاحقة.

رجع أبناء ابراهيم قوته الى أعمالهم السابقة فكبيرهم عثمان كان له لوري مسجل باسمه قبل هبوط بركة

م.خ.ش. عليهم فأعاد تعمير لوريه وعاد الى رحلاته اليومية الى جلقنى (وأمدرمان فلاته) على طريق سنجة الروصيرص، والأخ جيلاني قوته كانت له دكان خياطة ومخيطات يحتوي على رف كتب فأعاد فتح الدكان. ومصطفى قوته اشتغل سواق لوري بطرف آل الشهاوي.

وكيل ترحيلات:

أما عمنا ابراهيم قوته الكبير، وكان في حوالي السبعين فإنه لم يعد قادراً على التنقل بين أسواق الصعيد وشراء المحاصيل وشحنها بالمراكب كما كان يفعل سابقاً فتقدم الى التاجر السوري ميشيل بخاش وطلب منه ان (يضمنه) لدى تجار المحاصيل وتجار الواردات ليتعاملوا معه عندما يفتح مكتب ترحيل بالسوكي - بسبب وصول السكة الحديد عبرها وانتقال حركة الترانزيت اليها من سنار - وكان الخواجة بخاش يأخذ ٥٠٪ من صافي ايراد عمولات الترحيل (وقد عملت مع عم ابراهيم قوته بالسوكي في مرحلتين سوف أعود لتفاصيلهما)

استغلال الجزيرة أبا:

كما رأينا فيما مر - فان أسرة المهدي حاولت الاقامة بالجزيرة أبا - المجاورة لكوستي على النيل الأبيض - منذ سقوط أمدرمان - وقد حيل بينهم وبين ما يشتهون ولكن سمح لهم فيما بعد وكانت الجزيرة تحتوي على غابة عظيمة من أشجار السنط كان لا بد من إزالتها لأجل أعداد الأرض للزراعة.

استطاع السيد عبدالرحمن المهدي وأعوانه - وخصوصاً محمد الخليفة شريف - نشر دعاية واسعة بين قبائل الانصار (خصوصاً بكردفان) للتوافد الى الجزيرة أبا، كان على (المهاجرين) أن يقطعوا الأشجار وينظموها بشكل حطب بمواصفات معينة بحيث يتم رص قطع الحطب وتقاس بالمتر - تتسلمها الحكومة كوقود للبواخر، وفي بعض الحالات يمكن ان (تنشرها) مصلحة الغابات لأغراض البناء أو صنع أنواع معينة من الأثاثات:

كان المهاجرون متطوعين بدواعي المحبة لأسرة المهدي، وقد سمعنا في تلك الأيام من كانوا يقولون (جادين) أن قطع متر حطب يتيح لك الحصول على متر في الجنة !

تحولت الجزيرة أبا الى بساتين فاكهة وأهم من ذلك فقد زرع القطن فيها وفي امتدادات جديدة، وتكونت (دائرة المهدي) الاقتصادية التي صارت لها انتعاشات اخطبوطية بعد اكتمال خزان جبل أولياء في الثلاثينات.

الشمس قد غربت:

ونشط العمل بخزان مكوار في العشرينات وصارت مدينة مكوار صاخبة بوفرة العربات والآلات وألوان الناس الذين توافدوا اليها للعمل من سودانيين وأجانب:

نظم المادح الشيخ (حياتي) قصيدته التي مطلعها:

الشمس قد غربت والساعة اقتربت

كلا لا، كلا لا قد هاجت الدنيا بمكوارى

وقبضوا على المادح حياتي وحكموا عليه بالسجن.

م.خ.ش.:

واشتغل محمد الخليفة شريف مقاولاً بصفة (يد ثانية) في أعمال بناء الخزان وامداد المواد المحلية اللازمة للبناء ـ وأثرى محمد الخليفة شريف باسمه أو اسم ادارة المهدي.

صديقنا أحمد حسن مطر:

كان صديقنا أحمد حسن مطر (الموظف السابق بالخارجية) في العشرينات موظف بريد بالخرطوم وقد فصلوه على أثر حادث ورطة شبابية ظل يرويها بنفسه ـ وهي مسلية، وليست مسيئة ـ وذهب مطر الى مكوار واشتغل مع شركة المقاول الايطالي السندريني (يسميه العامة اسكندرينو) الذي كان يبني الخزان واكتشف مطرْ تلاعبات للمقاول، فسرق مطر وثائق التلاعب وجاء بها الى الخرطوم وعرضها على السكرتير الاداري وكانت النتيجة (بعد اجراءات) نزع المقاولة من المقاول الطلياني وتسليمها الى مقاول بريطاني ونال الأخ مطر مكافأة بشكل أو آخر، واستعمل هذا المال وهاجر أولاً الى القاهرة حيث أتهم في مقتل السردار سيرلي ستاك ـ وكانت مجرد شبهة ـ واشترك في استيراد السلاح للأمير عبدالكريم الخطابي الذي كان يحارب الفرنسيين في المغرب، ثم هاجر مطر الى البرازيل وغيرها من أقطار الامريكتين قبل أن يعود إلينا في الخمسينات مع مشارف الاستقلال.



مجاعة سنجة... والمساهمات المشكورة

لماذا استبدل اسم مكوار بسنار؟

في الحلقة الماضية من مذكرات أغبش تناول الحديث فترة الثلاثينات وشمل الحديث آل المهدي وحركة علي ود عبدالكريم بالاضافة الى أحداث أخرى.. وفي هذه الحلقة يفسر أغبش (هوامش) الحلقة السابقة:

مؤسسة وكلاء الامام:

في الفترة التي تلت ١٩٢٥ شعرنا بسنجة وفي مدن المنطقة وقراها بوجود شخص في كل ناحية يسمى «وكيل الامام» والامام المعني (بضم الياء المشددة) هو السيد عبدالرحمن المهدي، وهؤلاء من مهمتهم الظاهرة جمع الزكوات لدائرة المهدي ولا شك أنهم كانوا يقومون برصد قوائم أسماء الأنصار وتشكيلاتهم الاقتصادية والاجتماعية، وأحياناً حل مشكلاتهم ـ مثل التصالح في المنازعات.

قبل ذلك ـ وعلى التحديد قبل سنة ١٩٢٠ ـ كانت الاسترابة من جانب الحكومة تحدث من كل تجمع أنصاري حتى لقراءة الراتب (راتب المهدي ـ وهو مجموعة ادعية) ولكن النص (نص الراتب) لا يصادر وهو إذ ذاك مخطوط كان يجري تناقله على نطاق واسع، قبل أن يتم طبعه بواسطة الاستاذ سليمان داود منديل بالخرطوم حوالي ١٩٢٢. ومنديل رحمه الله في الأصل كان تاجراً مجتهداً يستورد الفوانيس من ألمانيا ـ مثلاً ـ وأنشأ مطبعة في العشرينات وطبع كتاب «طبقات ود ضيف الله» الموروث من عهد السلطنة الزرقاء، ثم أوجد (الجريدة التجارية) في أوائل الثلاثينات قبل أن يتفق مع الحكومة على أن يدمج بها (حضارة السودان) في منتصف الثلاثينات ويصدرها تحت اسم «ملتقى النهرين»:

وكان من مهام وكلاء الامام ادارة مؤسسة جديدة هي بدعة الاشتراك في المولد.

خيمة الأنصار بالمولد:

قبيل الاحتفال بمولد النبي صلى الله عليه وسلم في ربيع الأول عام ١٣٤٤ (يعادل ١٩٢٦) وصلت الى سنجة شحنة هي عبارة عن صيوان كبير للمولد من أجل «أنصار المهدي» لأول مرة. كان أصحاب الطرق الأخرى بمن فيهم الختمية ـ يستعيرون الخيم من الجيش لفترة المولد.

وقال مشايخ الانصار من أهلنا ان هذه البدعة (الاحتفال بالمولد) حرام، حرمها، المهدي عليه السلام ـ وقيل لهم ان الأمر باقامة خيمة الانصار بسنجة قد صدر من السيد عبدالرحمن المهدي، فسكتوا، وصاروا يتجمعون من القرى ليسمعوا أماديح للمهدي الكبير موروثة من الشاعر ود سعد وآخرين، وما زلت أذكر مطلع تلك المدحة:

سيد بقعة المسجد
ببكي عليك سرمد
عيشن براك أسود
يا مهدي الله...

(المرجو من القارىء أن ينطق كلمات المسجد وسرمد وأسود بفتح الحرف قبل الأخير ـ ليحافظ على الوزن والنغم).

المداح بخيمة الأنصار كانوا يمدحون جالسين وينغمون أماديحهم بالنقر على العصي.. وكان بينهم مادح عركي يزورنا وأحياناً يبيت معنا اسمه الخال احمد الشريف، رحمه الله.
كل هذا قبل قصة (حكومة كرومه وود البنا) ـ التي سوف تأتي.

السودان والمجاعات:

ان المجاعة الحقيقية الوحيدة في تاريخ السودان هي مجاعة (سنة ستة) ١٣٠٦ هجرية (تعادل ١٨٨٩ تقريباً) ـ دعنا نقرأ ملابسات هذه المجاعة على الصفحة ٣٦٣ من كتاب السودان عبر القرون للمرحوم مكي شبيكة:

«كان للخليفة بعد أن اصطفى أخاه (يعقوب الذي صار بمثابة وزير لعدة وزارات ـ او كان مثل الخليفة عبدالله في حياة المهدي) ان يسند مركزه بقبائل البقارة فأمر برحيلهم من ديارهم في أقصى الغرب الى أمدرمان، وانزلهم في مكان يحيطون بمنازله، وبنى لهم سوراً عظيماً بمثابة حصن يحميهم ويرد عنهم الهجوم.

وقامت أفواجهم من تعائشة وزريقات وهبانية وحمر (بفتحتين) ومسيرية وغيرهم ميممة وجهها شطر بقعة المهدي «امدرمان» تلبية لنداء الخليفة بنسائهم وعيالهم وما يملكون من متاع وماشية.

وكان عليهم وهم في طريقهم صوب العاصمة ان يتقوتوا بما يقدمه لهم السكان ـ ان لم يكن عن رضا واختيار فبالقوة ـ وكان هذا مما وسع الشقة بين البقارة وأهل النيل.

وما كان من الطبيعي ان يرحل هذا العدد الضخم من الناس ليتجمع في بقعة واحدة ويعيش على بيت المال، إلا ان يكون نذيراً بنفاد المقادير المخزونة من أقوات، وفوق ذلك، فقد فقدت البلاد قوتهم الانتاجية. فاستنفدوا غلة الجزيرة ـ وقد حبست عليهم ـ وتعاونت معهم الطبيعة حيث انحبس المطر.

وأهل الجزيرة أنفسهم أمر الخليفة عدداً عظيماً منهم بترحيلهم لأمدرمان، وحدثت بهذا مجاعة سنة ١٣٠٦هجرية، فحصدت من الأنفس كما يقال ما لم تحصده حروب المهدية.

في العهد الثنائي:

انه حتى بالنسبة لمجاعة ١٣٠٦هـ، لو كانت المواصلات الداخلية ذات كفاءة والاتصالات الخارجية سليمة ـ لأمكن تلافي تفاقم هلاك الناس في منطقة المجاعة (وهي ما عـرف فيما بعـد بمديـريتي الخرطوم والجزيرة). وعليه، يمكن القول انه في عهد الحكم الثنائي وبالتالي في الثلاثين سنة التي عشناها في استقلال لم تحدث مجاعة بالمعنى الحقيقي، ولكن كان يحدث شح في الأقوات ـ محدود الزمان والمكان والمدى.

كانت زراعة الذرة في منطقة سنجة غير مجزية بسبب رخص الثمن ـ فلماذا يزرع المزارع، ويكون الثمن يوم الحصاد ٢٠ قرشاً للأردب (٢٠ كيلة او ٤٠ ربعاً)... ويحدث ان ينقل المزارع محصوله الى سوق المدينة على جمال مستأجرة ويجد الثمن لا يفي لأجرة الجمال؟

والتخزين طويل المدة للذرة غير ميسور بمنطقتنا، فإن المطامير الأرضيـة تتعطن بسبب وفـرة المطر وهشاشة التربة، ولذلك كان القليلون الذين لديهم مطامير ينبشونها في (مفرق الحبتين) ـ أي منذ بدء سقوط المطر وحتى زمن الحصاد ـ ويبيع هؤلاء المخزنون ما يمكنهم بيعه من محتويات مطاميرهم ثم يضطرون الى تفريق الباقي بالتسليف لجيرانهم (الكيلة بمثلها) من المحصول القادم.

لذلك كانت زراعة الذرة بمنطقة سنجة مهزوزة، فلا هي مجزية ولا هي قابلة للادخار (وذلك قبل اكتمال خط سكة الحديد بين سنار والقضارف وبالتالي كسلا ـ بورتسودان ١٩٣٢).

فاذا أضفنا الى زهد المزارع في زراعة الذرة حدوث نقص في المطر في أحد الأعوام، أو غزو الجراد ـ فان

المنطقة قد تصاب بنقص في القوت (اذا تكررت الكارثة عامين متواليين)..

هذا ما حدث عام ١٩٢٧/٢٨ وكان من سياسة الحكومة ـ وهي رشيدة فعلاً ـ الاحتفاظ بمخـزون احتياطي من الذرة، في كل مديرية.

لماذا تسميه الغلاء:

ان السودانيين لا يسمون المجاعة باسمها، لا يقولون (مجاعة) بل يقولون (الغلاء) ويقولون عن الملهوف الذي يخطف الطعام انه (غليان) والناس في حديثهم العادي لا يقولون (مجاعة سنة ٦) بل يقولون (غلاء سنة ٦) ولذلك فان سنجة وقراها أصابتها حالة غلاء نسبي للذرة.

ان الذرة لم يكن معدوماً بل كانت (صبره) ـ جمع (صبرة) بضم الصاد واسكان الباء بيضاء عالية تراها من بعيد كما ترى الجامع وبناء المديرية اذا كنت فوق مركب على النيل.

ولكن السبابة يقولون لك ـ اذا جئت تكسر العيش بكسر السين ومعناها تشتري الذرة من السوق، ان الكيلة (ربعين) بـ (١٥ قرشاً). وكان سكان المدينة يتعايشـون مع هـذه الأسعار، لاسيمـا والدقيق الفينو الاسترالي والفرنسي يباع لك الجوال منه بما يتراوح بين ٧٥ و١٠٠ قرش ـ والأقة (كيلو وربع) من الدقيق والأرز ظل يتنافس ثمنها بين ١٩٢٨ و١٩٣٩ من ٣٠ مليماً الى ١٥ مليماً (بكل من سنجة والقضارف).

ولكن بعض سكان القرى البعيدة من النيل وجدوا انفسهم وليس لديهم ذرة ولا مال ولا حيوانات (فقد ماتت من الجفاف والمحل) وكانوا قبل يستعينون على الشظف باحضار الحطب والفحم للوقود وبعض الأعواد والعروق والقشوش الصالحة لبناء القطاطي الى المدينة ـ ولكن جمالهم وحميرهم نفقت.

تجمعت عدة مئات من هؤلاء الناس (وهم رجال ونساء وأطفال) بسنجة يعرضون انفسهم للعمل ـ أو الاحسان ـ وكانوا يجدون، ولكن:

كتب كاتب الى صحافة الخرطوم بأن في سنجة مجاعة وكانت النتيجة:

١) نقلت الحكومة بعض مخزونها من الذرة، وعرضته للبيع بسعر ١٥ مليماً للملوة (نصف ربع ـ أو ـ ربع كيلة) وكان البيع يتم في ساعات الصباح، مع وجود عسكري يرفع كرباجاً للتهديد خوف الزحام والمسابقة او المسارقة ـ أغبش الصغير ذهب مرتين أو ثلاثاً لشراء مثل هذه (الملوة) المعانة ـ وليلاحظ القارىء أن الذرة غير المعان متوفر وهو أنظف، ولكنه أغلى، وقد خفض ثمن الكيلة من سعرها التحكمي ١٥ قرشاً الى تسعيرة جبرية هي ١٢ قرشاً.

٢) تحرك السيد عبد الرحمن المهدي فكلف وكلاءه (وكلاء الامام) باخراج مخزوناتهم (وهي مخزونات محلية من الزكوات المحلية) ثم جاءت كميات اضافية من فروع دائرة المهدي بسناروكوستي...الخ ـ ووزعت هذه الحبوب بصفة صدقات على تجمعات القرويين بسنجة، وعلى القرى التي ليس بها مخزونات بالمنطقة (وكان هذا عملاً مشكوراً لولا المن والأذى فيما بعد)!

تجار سنجة وأعيانها شكلوا لجنة وجمعوا أموالاً وحبوباً للصدقات العامة ـ وجاءت مساهمات مشابهة من الخرطوم وواد مدني ـ وخرجنا من «السنة»

المن والأذى:

في خيمة الانصار بساحة المولد بسنجة جاءنا في ربيع الأول سنة ١٣٥٠هـ جاءنا مغنون يحملون الرق كان بينهم كرومه نفسه ـ وعمر ود البنا أطال الله عمره ـ وثالث اسمه (حكومه) جاءوا يغنون واقفين بطريقة (الحقيبة) للسيد عبدالرحمن المهدي:

بالعيدين نهني القطري (ينطقونها بكسر القاف) عيد ميلاد سيادتك وعيد هلال الفطري.
ولكن الأمر الذي أغاظنا أن احدى الأغنيات كانت تقول:
ومجاعة سنجة كم حيرت الباب.
والكلية غيرك كان عمارا خراب.
والأمر الذي أغاظني أنا أكثر أن هذه القصيدة عينها قد استمعت اليها بالقضارف في سنة ١٩٢٨ (بعد عشر سنوات من المجاعة المزعومة بسنجة) (سنجة في عينك ياسي حكومه)!!

ود مكوار:

في سنة ١٩٢٨ اكتمل خزان (مكوار) ولكن الشيخ ود مكوار، المسماة البلدة باسمه، طالب الحكومة بثمن مالي لاسم عائلته الذي استعارته لتسمية هذا الصرح الشامخ، فقامت حكومة الانجليز بالسودان بكل بساطة بشطب اسم مكوار، فسمت المدينة (سنار المدينة) والمحطة (سنار المدينة) وأسمت الخزان (خزان سنار)!!

أما سنار أهلنا ـ سنار السلطنة الزرقاء ـ فقد سميت (سنار التقاطع) حيث تتقاطع فيها خطوط السكك الحديدية الى الغرب والشرق (الأبيض والقضارف) والى الشمال (واد مدني والخرطوم) وأخيراً، في الخمسينات جنوباً (الى سنجة والدمازين).

الاتفاق مع مصر:

وكانت بريطانيا بعد اجبار سعد زغلول على الاستقالة ١٩٢٥ قد روضت القاهرة بعدة حكومات حاولت التفاوض معها فلم تفلح، وجاء محمد محمود باشا (صاحب اليد الحديدية) كما كان يسمى ـ وهو الذي وقع اتفاقية مياه النيل بين مصر وبريطانيا التي تصون لمصر حقوقها التقليدية في مياه النيل مع تقييد استهلاك السودان في الري.

وافتتح خزان سنار باحتفال عالمي ومثل مصر وزير الاشغال فيها، وجاء معه المرحوم محمد حسين هيكل محرر جريدة (السياسة) لسان حال الحزب الحاكم ـ حزب الأحرار الدستوريين ـ الذي جمع مقالاته في العام التالي في كتاب سماه (عشرة أيام في السودان) ـ لم يتعاطف فيه مع الشعب السوداني ولم يلق فيه نظرة على الماضي ولا على المستقبل...

هوامش الفصل السابق من المذكرات
الحرب العالمية وسياسة الانجليز في السودان ومصر

١ ـ في سنة ١٩٣٢ مع نذر الحرب في أوروبا.
(أ) بصعود نجم حزب النازي في ألمانيا.
(ب) تهديدات الفاشيين بقيادة موسوليني في ايطاليا ـ غزو البانيا وتهديد الحبشة.
(ج) نمو العسكرية اليابانية التي غزت الصين واقتطعت منشوريا.

* تحركت بريطانيا في محاولة تخفيف التوتر بمصر لمواجهة تهديدات الحرب العالمية وكان أول «طعم» تقدمه للمصريين هو السودان ـ بإتاحة فرص زراعة وتجارة ـ واختير للتقارب الاقتصادي مع السودان رجال «الجمعية الزراعية الملكية المصرية» ـ وهم من كبار ملاك الأراضي بمصر (مع) رجال الغرفتين التجاريتين بالقاهرة واسكندرية.

* وجاء وفد مصري من المؤسسات المذكورة مع شخصيات قليلة أخرى أهمها الدكتور محجوب ثابت المشهور بفكاهاته في منادمة الذوات والصحفي عبدالله حسين من الأهرام.

* أما السودان فقد مثله السيد عبدالرحمن المهدي وكونتو ميخالوص وآل أبو العلا وعبدالمنعم والبرير ـ ثم الشركات البريطانية والبنوك الممثلة في الخرطوم ـ.

* وجرت مناقشات اقتصادية شاركت فيها حكومة السكرتيرين الاداري والمالي لحكومة الحاكم العام الانجليزي بالخرطوم، وجرت زيارات زراعية لمشروع الجزيرة، والجزيرة أبا (التي كانت في حياة المهدي ـ وقيل ان مفتش المركز بكوستي وهو انجليزي قد رفض اعارة باخرة لنقل الزوار الى كوستي، فأمر السيد عبدالرحمن، المهاجرين «بدفن البحر» وكان أن نقلوا التراب ودفنوا «خور الجاسر» وأتاحوا لسيارات البعثة المرور).

* زار الزوار أسواق المحاصيل في الأبيض والقضارف وكسلا، وزاروا ميناء بورتسودان، ولم تكن هناك نتائج ملموسة لدى الأهالي الغبش لهذه الحركة، وهي على كل حال قد أدت الى:

(أ) اصدار جريدة النيل اليومية بالخرطوم ١٩٣٦، بعد تجهيز مطابع خاصة لها، واحضار رئيس تحرير مصري «الاستاذ حسن صبحي» وكانت تملكها شركة الطبع والنشر الموزعة اسهمها بين شركات متشل كوتس وكونتو ميخالوص وأبوالعلا وعبدالمنعم (وليس آخرهم السيد عبدالرحمن المهدي، ولكننا أخرناه، لانه في سنة ١٩٣٨ صفى الشركاء الآخرين وانفرد بملكية الجريدة ومطابعها).
(ب) ألف الصحفي الأهرامي عبدالله حسين كتاباً عن تاريخ السودان من ثلاثة أجزاء.
(ج) أدت ملابسات هذه الحركة الى نشوء جو ملطف بين حكومة لندن والأحزاب المصرية حيث سمح البريطانيون باعادة دستور ١٩٢٣ في سنة ١٩٢٤ على يدي حكومة توفيق نسيم الذي كان مرضياً عنه من حزب الوفد بزعامة النحاس ـ وتوج هذا «الجو الملطف» بعقد معاهدة ١٩٣٦، وهذه قضية تهمنا وسوف نعود اليها.

٢ ـ لا بد من تسجيل أن محمد أحمد المهدي لم يوص بتوريث أبنائه، ولكن اختار ٤ خلفاء ربط كل واحد منهم باسم واحد من الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم.

* عبدالله ود تورشين (أبو بكر الصديق ـ له المثل الأعلى ـ رضي الله عنه).
* الخليفة شريف ـ من أشراف الضناقلة ـ في مقابلة عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

* علي ود حلو - زعيم قبائل دغيم - في أمثولة عثمان بن عفان - رضي الله عنه.

* السنوسي زعيم برقة بليبيا في محاذاة الامام علي بن أبي طالب، كرم الله وجهه (ولم يستجب السنوسي لهذا التكريم).

٣ - تمرد الخليفة ود تورشين على وصية المهدي، ولم يسمح للخليفتين شريف (و) ود حلوبأية مكانة محسوسة في حكومته ١٨٨٥/١٨٩٨ بل اصطفى أخاه الأمير يعقوب ود تورشين - قال مكي شبيكة ص ٣٦٢ «السودان عبر القرون».. وأصبح (ليعقوب) نفس المركز الذي كان يحتله الخليفة من المهدي.. «كان يعقوب يجسد القوة التي وراء العرش، فهو المشرف على الجيش يعين قواده... ويمده بالزاد والمعدات الحربية وهو وزير الداخلية من حيث عمال الأقاليم يوفق بينهم وبين رعاياهم فيما لو اختلفوا، وهو يعنى بشؤون ما يسمى البوغازات أو محطات الحدود. وهو محافظ أمدرمان عاصمة المهدية. وهو المشرف على شؤون بيت المال عصب الادارة - فهو على وجه الاجمال رئيس الوزراء ووزير كل الوزارات، وكان يتصل بالخليفة يومياً يرفع له الامر ويقترح والخليفة يوافق ويعدل إذا رأى ذلك»...

*أشراف الضناقلة وغيرهم من سكان النيل، نالوا اضطهادات بتفاصيل معروفة في حكومة الخليفة وحتى الخليفة شريف نفسه، فانه قد سجن، وبكل رجولة خرج من السجن ليحارب الجيوش الفاتحة.

٤ - كتلة عبدالله ود الحسن الكناني بسنجة ١٩٠٤ قال مؤلف السودان عبر القرون ص٤٦٨ أنه ادعى كونه نبي الله عيسى وقطع خط التلغراف!!

ونحن - السنجاويين - نعلم أن المأمور المصري القبطي أب رفاس قد قتل في هذه الواقعة.. وكان أول ميت مسيحي يدفن بسجنه بخلاف (الأحباش) ولذلك سميت مقبرة المسيحيين هناك «جبانة أب رفاس» وهذه التفاصيل أذكرها للخطأ الذي وقع فيه استاذنا مكي شبيكة في نفس الفقرة حينما أشار الى ان (مأمور تالودي أبورفاس) كان من جملة ضحايا لحادث وقع هناك بجبال النوبة في سنة ١٩٠٦م.

٥ - ان احتجاج اصحاب الاطيان على تخطيطها أولاً وتسليمها فيما بعد للشركة الزراعية البريطانية التي ظفرت بمشروع الجزيرة - واستغلته بالطلمبات قبل الخزان - هذا الاحتجاج لم يكن قاصراً على الحلاويين، وهناك كثيرون رفضوا «كروت التعويضات» وكان يمكن توسيع المظاهرات... الاحتجاجية إلا أن حمل السلاح مع ود حبوبة كان حركة انتحارية - ومع ذلك فهم شهداء بمقتضى النصوص المأثورة.

حركة ود السيد حامد بسنجة ١٩١٩م لم أعاصرها كشاهد فعمري كان ٤ سنوات، ولكني في نفس طفولتي ظللت أسمع عن شجاعة الرجال الذين شنقوا... أما صديقنا المرحوم حسن نجيلة فهو يكبرني بسنوات وقد شهد بعض مشاهد تلك المأساة.

* انني أشكر الأخ السيد الصادق عبدالله حامد على ترشيحي (في رسالة كريمة) للكتابة عن قرية الشجاع - وقد أفعل أو - لا أفعل.

٦ - جريدة حضارة السودان كانت تملكها الحكومة ولكنها اختارت تلبيس امتيازها بشكل اسمي للسيد علي الميرغني والسيد عبدالرحمن المهدي والشريف يوسف الهندي - منذ اصدار الجريدة في سنة ١٩١٩م وثلاثتهم من أعضاء سفر الولاء (بكسر السين ١٩١٦م) وسفر الولاء (بفتحتين الى لندن ١٩١٩م).

والمحرر الأول المرحوم حسين شريف كان من أساطين أسرة المهدي وهو الذي سك عبارة «السودان للسودانيين».. والمحرر الثاني في بقية العشرينات والثلاثينات كان المرحوم الشيخ أحمد عثمان القاضي، وكان يجاهر بالمودة والثقة في البريطانيين - مع ذلك كان صديق الأمير عمر طوسون - وكان شيخاً ظريفاً يتكلم اللغة العربية الفصحى حتى في الشؤون العادية بمحل هريدي بالمحطة الوسطى بأمدرمان حينما يقول: يا غلام، هات القهوة، وجمرات النرجيلة - وكان من جلسائه.. بخلاف الشيخ محمد طاهر ازرق صاحب حزب تقدم

السودان باستمرار الادارة الانجليزية رحمهم الله جميعاً ـ ولا ننسى أن أحمد عثمان القاضي كان من مؤسسي حزب الأمة، وكان من أعضاء المجلس الاستشاري لشمال السودان ١٩٤٦م.

٧ ـ لم يخفض عم ابراهيم قوته ولاءه للمهدية وظل يجهر بتلاوة راتب المهدي بعد صلاة المغرب وبعد صلاة الفجر في كل يوم (ب) وكان زعيم خيمة الانصار بسنجة بعد النكبة (ج) في أيام عملي معه في المرحلة رقم ٢ بالسوكي ١٩٣٢ فتحت صندوق شاي عليه صورة السيد عبدالرحمن، فتحته منكساً بدون قصد ـ وكنا ننام في داخل الدكان في الشتاء فجاء عم ابراهيم في الليل ـ بعد الراتب ـ لينام، فلاحظ الصندوق (المنكس) فجعل يتعوذ ثم قام بتسميره وقلبه وفتحه من الجانب الآخر.

* الشاي الذي عليه صورة السيد عبدالرحمن المهدي استورده في أوائل الثلاثينات الخواجة يوسف ثابت الذي كان تاجراً من الشوام مكتبه في وقف عبدالمنعم مقر التأمينات الآن بشارع الجمهورية.

كان ي.ت. متخصصاً في تجارة البن الحبشي، وكان له فرع بجمبيلا ـ ولذلك عرفته من خلال صلات شقيقي المرحوم علي رجب بهذه التجارة في الأربعينات (كان ليوسف ثابت دعوى ضد آل ابو العلا في شراكة تملك اراضي بري الزراعية ـ شركة أبوالعلا قالت انه كان سمساراً، بينما قال ي.ت. أنه كان شريكاً وأراضي بري المشار اليها كانت الحكومة قد انتزعتها من أهالي بري ـ برغم رفضهم واقطعتها للشركة الزراعية (نفس شركة الجزيرة) من اجل إجراء أبحاث تجريبية عليها، ولكن الشركة باعت الأراضي... كان الأخ المرحوم أحمد يوسف هاشم وأنا في السودان الجديد ١٩٤٧/٤٨/٤٩ قد طلب مني الكتابة عن حقوق أهل بري في تلك الأراضي أكثر من أبو العلا ويوسف ثابت ـ ولم تتيسر لي فرصة دراسة القضية ـ (ان انتزاعات الحكومة للاراضي الزراعية التي تحولت فيما بعد الى مناطق سكنية، تستحق دراسة متخصصة من شاب كفء غيري).

٨ ـ المهاجرون بالجزيرة أيا كانوا يعملون بالسخرة بدون أجور ـ فقط يعطونهم دقيق الذرة والويكة وقماش الدمورية ـ ولما كتبنا في جريدة الصراحة في الخمسينات ننتقد هذه السخرة قالوا لنا ان (العمال) ـ وهذا هو الاسم الرسمي الذي كانت تستعمله دائرة المهدي بالنسبة لأولئك المتطوعين (يكلفونها) أكثر من أجور العمال المزارعين الذين يعملون في مشروعات أصحاب الزراعات الأخرى.

٩ ـ مع أن راتب المهدي لم يكن يصادر من أيدي الانصار، الا ان المنشورات التي كتبها المهدي، وهي نداءات سياسية، كانت ممنوعة يصادرون مخطوطاتها ويقومون بإجراء تفتيشات عنها، وقد علمت في طفولتي ان جارنا العم الفكي (اسماعين) ـ اسماعيل قال للبوليس (المنشورات في راسي، هاكم كسروه!).

١٠ ـ لا أريد أن أتحدث عن اضراب الكلية ولكن لأن شاعر السيد عبدالرحمن قد ربطه بمجاعة سنجة. فإنني سألت المرحوم محمد صالح الشنقيطي عما فعله س.ع.ر. بشأن الكلية فقال انه باشر الوساطات بواسطة أعوانه مع الطلبة من ناحية ومع الحكومة من الناحية الأخرى.

* وأضاف الشنقيطي: أما السيد علي المرغني (رحمه الله) فقد قال لناس الحكومة:
اقفلوا الكلية..

١١ ـ محمد حسين هيكل كان بارد العاطفة الوطنية حتى لمصر ـ وكتابه عشرة أيام في السودان يدل على ذلك ـ والأمر الذي انقذ سمعة الكاتب المذكور هو تأليف حياة محمد (صلى الله عليه وسلم) باستعمال منهج المستشرقين ثم مناقشتهم ثم بكتابة كتب أخرى في التاريخ الاسلامي ـ (ونحن كسودانيين لدينا معه قصة اخرى سبق التلميح عنها في الفصول التمهيدية، وسوف تتكرر الاشارة اليها لدى بداية نشاط أغبش الصحفي).

حاشية الحواشي:

ان عدد من ادعوا المهدية أو العيسوية في السودان يتجاوزون المائة ـ ليسوا كلهم بوزن الشيخ حمد الترابي (مهدي السلطنة الزرقاء) وليس اكثرهم بخفة انبياء الله عيسى الذين يظهرون بجامع الخرطوم الكبير بمعدل ثلاثة في كل صيف.

وليسوا كلهم من الضحالة الغيبية مثل أولئك المثقفين الذين منهم (صاحب المقام المحمود) الموعود بالآية ١٦ من سورة ن والقلم (سنسمه على الخرطوم).. ولا أولئك الذين يريدون الغيبيات بالوراثة وهم مثقفون كان جديراً بهم ان يعلموا أن أبناءنا قد تعلموا، وصاروا يعرفون اكثر البديهيات ـ ويعرفون حقائق الدين الذي قطعت جهيزته قول كل خطيب حينما حكمت بأن الوحي قد انقطع تماماً بعد خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم.

* ويعجبني على الخصوص أولئك الذين ثاروا على خليفة المهدي ود تورشين نفسه، وخصوصاً الفكي ابو جميزة بدار المساليت.. وكانت له شجرة جميز تظلله اينما سار وتظلل معه انصاره وتسمح له بتضليلهم، فاضطر الخليفة ان يرسل له جيشاً لقمعه وقد تم الانتصار عليه، وكتب القائد التعيشي المنتصر للخليفة يقول له: ان أبو جميزة وأنصاره قلبوا انفسهم حيوانات فقتلناهم، وقلبوا انفسهم ثعابين وسحالي وضباباً وفيراناً وصيرات وأرانب فسحقناهم!!

ـ راجع كتاب المهدية تأليف ثيوبولد وقد نقل التقرير من وثائق الخليفة عبدالله.

منذ أيام الاسلام الأولى:

ان دعوى المهدوية معروفة منذ أوائل العهد الاسلامي وقد حاول العباسيون تلبسها منذ البداية ـ وجميع الحركات السرية مثل القرامطة تذرعت بها.. وليس كل الأنبياء الأدعياء بشهرة مسيلمة الكذاب، ولا بشهرة الشاعر المتنبي الذي قرزم في شبابه بقوله:

إلى أي حين أنت في زي محرم

وحتى متى في شقوة والى كم

فان لا تمت تحت السيوف مكرما

تمت وتقاسي الذل غير مكرم

فثب واثقاً بالله وثبة ماجد

ترى الموت في الهيجا جني النحل في الفم..

الفاطميون والموحدون:

* ان الفاطميين كانوا أدعياء مهدية (بدأوا بتونس وحكموا مصر وسوريا) وقد حكم أولهم أبو محمد عبدالله المهدي بالله ٢٥ سنة وعدد خلفائهم ١٤ والحاكم بأمر الله سادسهم، ودام حكمهم كلهم ٢٦٢ سنة شمسية من ٩٠٩ الى ١١٧١م (وهم ذوو علاقة بالقرامطة، وبالدروز الذين نعرفهم في العصر الحاضر).

* أما الموحدون الذين تغلبوا على المرابطين بالأندلس وحكموا ١٨١ سنة شمسية من ٨٨٠ الى ١٢٦٩م) فإن أولهم ابن تومرت كان مدعياً المهدوية، وعرف عنه التضليل فقد أدخل عدداً من جنوده في خندق معروش وقال لهم اذا سألتكم:

هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً؟ فقولوا بلى: وحشد المهدي ابن تومرت الناس وهتف فوق الخندق هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً؟ وكان الجواب من تحت الأرض بلى! وشاء ابن تومرت ان يتم على جنوده تحت الأرض نعمته، فتركهم هناك ليموتوا!

هامش الهوامش:

* نعم ان جيلنا كان قد صفق لود حبوبة وود السيد حامد، والسحيني وحتى لحركات النوير وجبال النوبة ـ (صفق) نكاية في الاستعمار على قاعدة (عدوك سهره ولا منامه).. وقد أصبح الصبح!

اشتغلت مع ١٧ تاجرا في ٢٥ سنة تخللتها اجتهادات أخرى تعلمت منهم فنون التجارة وحاولت اقتباس اخلاقهم الحميدة لماذا غضب الشريف يوسف الهندي.. وطلب انزال العلم البريطاني من قمة قصره ببري الشريف؟

في الفترة بين سنة ١٩٢٣ وسنة ١٩٥٠ (سنة صدور الصراحة) اشتغلت مع ١٨ شخصاً (١٧ تاجراً، ثم استاذنا الصحفي المرحوم أحمد يوسف هاشم) ـ مع استبعاد (أ) فترة مساعد النجارة بقسم الأشغال ١٩٢٦، (ب) فترة ادارتي لدكاني الخاص والمكتبة بسنجة ١٩٣٤/٣٦، و(ج) فترة دكاني بالمفازة ١٩٣٨/٤٠، و(د) رحلتي لمصر سنة ١٩٤٠، و(هـ) عملي مع الجيش بالحبشة ١٩٤١، و(و) رحلتي لاريتريا ١٩٤١ (هذه الفترات مع تجاربها ومعاملات شخصياتها، يأتي وصف كل منها في مكانه الزماني).

* اثنان ممن عملت معهم كانا لا يدفعان لي أجرة، أولهما الوصي على ارثنا من تركة والدنا و(الثاني) صهر (أمرني) بالبقاء معه في دكانه ولم يدفع لي في أي يوم ولا مليماً واحداً،المليم اذ ذاك تشتري به عشر تمرات بركاوي!.

* ان أغلب من عملت معهم في ربع القرن الأول من حياتي في السوق ـ والحقيقة أنهم كلهم باستثناء اثنين ـ تعلمت منهم دروساً في الحياة التجارية والعملية، بل وتعلمت منهم فضائل أما الأثنان اللذان استثنيتهما، فقد هربت من (رذائل) أحدهما ـ لدى اكتشافها أثناء خدمة أيام قليلة ـ والآخر اجنبي أعجمي محسوب بين المسيحيين، وكان في غير سنجة، وكان شديد اللؤم والخساسة، وقد تركته أيضاً بعد عمل أيام معدودة.

* أكثر من عشرة من المخدمين الاولين لم تزد فترة عملي مع أي منهم عن شهر واحد أو شهرين وكان هذا في الغالب في العطلات السنوية للمدرسة، دعني على كل حال أذكرهم جميعاً بالخير، رحمهم الله: توفيق مبروك، عمر حماد، أمين نابري، الشريف الحبيب، أدم بشارة، محمد الاحيمر (وأخاه سعد أمد الله في عمره) ومحمد سالم درمة، وأحمد الحجاز ومحمد راشد أمد الله في عمره وكذلك الأخ محمد الأمين احمد البشير أبقاه الله (وهذا عملت معه بعد تركي المدرسة الأولية، وحيث انه كان مديراً لفرع محل أبو العلا، فان فرعه كان جسري للوصول الى محل أبوالعلا). كذلك الخواجة ميشيل بخاش.

أربع مدارس:

ان عملي في أربع مؤسسات يستحق الوصف بأنه دراسة وتربية كاملتين، وهي على التوالي:

١ ـ محل أبوالعلا بسنجة ١٩٢٨/١٩٣١.

٢ ـ وعملي كمساعد لعم ابراهيم قوته بالسوكي في اشغال الترحيلات ١٩٣١/١٩٣٤.

٣ ـ عملي مع السادة بشير اخوان بالقضارف ١٩٣٧/١٩٣٨ و(ب) ١٩٤٢ و(ج) ١٩٤٥/٤٦ وتكرار المعاودة يدل على عدم وجود قطيعة.

* وليسمح لي الآخرون أن اذكر شخصاً واحداً في كل مجموعة باعتباره (استاذي) فيكون أستاذي الأول عوض أبوالعلا والثاني ابراهيم قوته والثالث عوض بشير والرابع أحمد يوسف هاشم.

الزكاة:

قبل ان افصل ما تعلمته من محل أبو العلا بسنجة في الفن التجاري أسارع فأذكر أن المرحوم عوض أبوالعلا كان يشذ دون جميع التجار الذين عرفتهم بإخراج الزكاة بطريقة علنية.

* أنا لا أنفي ان الأثرياء الآخرين كانوا يخرجون زكاتهم ولكنني لا أستطيع أن أشهد لهم ولا شك ان من حقهم أن يوزعوها في الخفاء.

* ولكن عوض أبوالعلا قد اعتاد ربما في الأسبوع الأول من شهر محرم - أول العام الهجري - ان يكلفنا بتقطيع ثياب الزراق قطعتين - فراديات - وكذلك تقطيع دمورية بمقدار ٨ أذرع الى جانب نقود ريالات - ورأيت المرحوم عوض أبوالعلا يكتب في (اليومية) قيمة تلك الاقمشة (من الزكاة) وهذا اصطلاح يعني ضم المبلغ الى (الحساب المدين) حسب اصطلاحات المحاسبين وكذلك كان يرصد النقود المخصصة للتوزيع في كل يوم.

* وكانما كان الفقراء والمساكين قد نودوا بالنفير - من أطراف مدينة سنجة ومن القرى والضهاري ونحن عمال المحل نوقف النسوان في أحد الأبواب ونوزع عليهن ثياب الزراق، كما نوقف الرجال في باب أخر ونعطيهم قطع الدمورية.

* ويحتفظ عم عوض أبوالعلا رحمه الله بالنقود ليوزعها (حفنات) للمتجملين من الفقراء الذين لا يزاحمون (بل) علمت ان مقادير من النقود والزراق توزعها أم أولاده السيدة آمنة بنت أب عادل رحمها الله على زائراتها بالمنزل من المتجملات... وتقريباً في نهاية اليوم السابع نكون قد وزعنا المخصصات، ويقفل المحل يوماً أو يومين لايقاف تيار الحشود.

* ولكن لا يقتنع المتسولون بسهولة، وقد يأتي أشخاص من أماكن بعيدة في الشهور التالية ولا يبخل عليهم عم عوض رحمه الله - وحتى من الخرطوم والمديرية الشمالية يأتي فقهاء وخلفاء يطلبون -.

* سمعت تلك الأيام مفتين محليين يقولون ان التوزيع من حيث الشكل أو الموضوع لا يتفق مع الشريعة.

* كذلك أنا لا أستطيع ان أقدر كمية الأموال التي وزعت، وهل كانت مضبوطة بالنسبة لجملة الثروة أولاً - وعلى كل حال فإن جرد المحل يكون قد تم في الشهر السابق، وجرى تنسيق المخصصات مع محلهم بالعاصمة (أعتقد ان رئاستهم في أواخر العشرينات كانت بأمدرمان).

الضيافة:

وكان عم عوض أبوالعلا رحمه الله، كريماً من حيث الضيافة فمائدة الافطار بالدكان يجلس حولها على الأرض فوق مفروشات من الخيش نحو ١٥ في المتوسط، بعضهم موظفون بالمحل - ويقيمون بمنزل آل أبوالعلا - وبعضهم ضيوف من العاصمة ومدن أخرى، وهم تجار يحضرون للتسوق (الضيوف العاصميون يقيمون بمنزل أبوالعلا في فترة مأمورياتهم التي تمتد من ثلاثة أيام الى أربعة أسابيع... والضيوف من تجار أسواق المنطقة مثل دار عقيل وكركوج وأبو حجار وود النيل...الخ، هؤلاء يجيئون من أجل تدبير مصالحهم خلال ثلاثة أيام أو ما لا يزيد على اسبوع).

* والغداء أيضاً بالدكان - بنفس الطريقة السابقة - ويمكن تصور العشاء بالمنزل - بطريقة أوسع - حيث يضاف الزوار المحليون القادمون للسمر، من التجار أو الجيران أو الأهل (فرع عبدالمنعم) أو كبار موظفي الحكومة.

* وسوف يأتي في القسم التجاري من هذه القصة أنني كنت ادخل منزل آل أبوالعلا كثيراً وقد لاحظت وفرة الطعام الذي تضطر الحاجة آمنة رحمها الله الى اعداده كل يوم:

* كن ثلاث طباخات يعملن معها:

(أ) حبوبة أم ليلى.

(ب) خالتنا أرملة الخزين رمضان.

(ج) الحاجة فاطمة الفلاتية وهي امرأة مستنيرة.. كانت تعمل معنا أيضاً بالمخازن بصفة شيخة لبنات الفلاتة اللواتي كنا نستخدمهن في تنظيف الصمغ (والطباخات المذكورات غير الخدامات).

الطبقة الثانية:

لا أحتاج أن أقول انني في تلك الأيام وعمري بين ١٢ و١٥، كنت مع آخرين لا نجد مكاناً بين ١٥ في الفطور ولا الغداء.. وهذا لا يضايقنا حتى في بيوتنا، كنا نمثل (التيم الثاني)..

الغداء كنا نرسل أصغرنا الى منزل آل أبوالعلاء لاحضار نصيبنا - أقل تنويعاً ولكنه بنفس مستوى النظافة.

* أما الفطور فاذا لم تحصل معجزة تجعل الأبطال الـ ١٥ ينسون أحد الصحون، فاننا نتسلل لنأكل صحن الفول المكمل (يكلفك قرشاً). وهناك شراكة نعقدها أحياناً مع الترزية الموجودين في كل برندة - السهم تعريفة - ويتم شراء روب (منزوع الزبدة) بقرش وكسرة - (هنزة) بقرش (الهنزة هي الكسرة العسلية المذاق التي تعاس من عجين الذرة المزروع النابت) اما الملح والشطة فهي تؤخذ من الدكاكين بدون ثمن.. وهذا الباشري (الهنزة بالروب) يكفي الشركاء المساهمين الاربعة، وهم عادة يدعون العابرين بدون كشكرة ويعزمون عليهم بدون كشرة.

مافيش لكوندات:

ان ضيافة أبوالعلا بسنجة قبل أكثر من خمسين سنة لم تكن أمراً شاذاً، إلا من حيث حجمها واستمرارها وتكاليفها بسبب توفر الامكانيات، فان تشغيل ثلاث طباخات وأربع خادمات بالمنزل ليس أمراً يطيقه كل رب أسرة.

* ويجب أن يتذكر القارىء ان مجتمعنا في تلك الأيام (وبحجم أقل حتى الآن) يفرض ان تكون في كل بيت (خلوة) - أي مضيفة - ويمكن لكل طارق أن يطرقها وليس الأقارب فقط بل حتى أبناء السبيل - وحينما يكون الضيوف كثيرين على البيت الواحد، يسارع الجيران الى المساعدة - وكان هذا ينطبق حتى على عائلة أغبش اليتيم الفقير.

* ولكن التجار القادمين من الخرطوم (مثلاً) لا يمكن أن يحوموا في ديوم الأهالي الغبش لينزلوا بالخلاوي... وليست توجد لكوندات، وحتى ولا وكالات، والشخص الذي يورد على لسانه مثل هذه الكلمات يلزمه أن يفسرها... وحتى المطاعم لا توجد بشكل محترم، ونحن أولاد البلدة لا نجلس بها - وان كنا عند الاضطرار نحمل الطعام منها (مغني الربابة يقول عن ممدوحه):

ما بشرب مريسة فده.. وما بغشى المتبخ يتغدى!

* إذن التجار ينزلون عند أقاربهم أو معارفهم من تجار سنجة، كما رأينا في حالة أبوالعلا وينطبق الوصف على المرحوم سيد أحمد حسن عبدالمنعم (مثلاً) وعلى آخرين.

* بعض التجار بسنجة موسميون يأتون في شهور الدرت (الحصاد) ويرجعون الى أوطانهم في موسم الأمطار... ومن هؤلاء أبناء المتمة بعضهم استوطنوا.. ويمثل المجموعتين المرحومون العبيد التوم وعلي شعبان

وعبدالقادر أبكر (الذي صوهر من قبل أبناء أهله أبناء المتمة المعاصرين، أحمد النعيم مهيد (و)عبدالله التهامي):

ومن أقدم الجعليين المستوطنين المرحوم محمد على الحويرص.. وأقاربه آل ريس وآل العوض وهم شعديناب من الحصاحيصا بمنطقة بربر، فارقوها منذ المهدية وعلى قاعدة (السافل بلد والصعيد يربى) وهذا ينطبق على جعليين آخرين مثل آل معتوق، وآل العبد (المرحوم ابراهيم العبد وأخيه المرحوم عبدالله العبد) وعلى الرباطاب أولاد الحسين ـ وهؤلاء درمانيون أقارب النفراوي عثمان (صاحب محل التيمان) ـ والمرحوم مدني ابشر.

* ومن أقدم الجعليين المستوطنين بسنجة آل الأمين نمر ـ ويجب أن أذكر أن الأخ المرحوم الاداري كرار احمد كرار ابن احدى اخواتهم.

* وتلزم الاشارة الى اصدقائي الجعليين أبناء العم الأمير رحمه الله، وهم قدماء بسنجة.

* وكيف أنسى اصدقائي الأشراف الذين لم يبق منهم بسنجة الا الأخ حامد ـ وقد استقر الأخ طاهر وأخوه يوسف بالقضارف ـ رحم الله اسلافهم.

وهناك شايقية مستوطنون هم مجموعة الخليفة محمد ـ والد هاشم أفندي المأمور رحمه الله واخوانه وهؤلاء تجمعهم مصاهرات مع عائلات وتربطهم جميعاً فترة تجمعهم قبل المهدية برفاعة (وهذا ما جعل أهل الشرفديناب على الخصوص يعرفونهم).

* والمجموعة المشار اليها من شايقية رفاعة تشمل اقاربهم وأصهارهم: آل عيساوي وآل الحسين وآل طنبل وآل فزع وآل المبشر وآل شاويش... الخ. وبعضهم جعليون مثل آل نجيلة وآل الشوية (والأخير جعلي من البالة!).

* ثم تأتي مجموعة فداسي من الشايقية بزعامة محمد أفندي خير أول قمندان بوليس سوداني ولمديرية كمان ـ وهو والد الأستاذ احمد خير واخوانه (قال محمد ود غلام الله وهو بديري من بارا من أقارب آل نابري: انتو عارفين كيفن تعلم ود خير الكتابة؟ قلنا لا. قال كان مسافر مع الشريف يوسف الهندي، ونزلوا في الطريق، والشريف (جاتو مدحة) ونادي: يا ود خير، يا ود خير، تعال وجيب معاك ورقة وقلم، أقعد اكتب، لكن أنا بعرف اكتب يا سيدي؟ قلت ليك اكتب. فمسك ود خير القلم وكتب المدحة التي سمعها (كركركر) ولي هسع تراهو يكتب!!

* كان ود خير تلميذ الشريف يوسف الهندي ـ وهو صهره جد المرحوم حسين الهندي ـ وكان ود خير يدير خيمة بالمولد بسنجة باسم الشريف يوسف ـ يحضر فيها مداح ينشدون مدائحه ونادراً ما يتلى المولد الذي ألفه الشريف يوسف وهو يمتاز باشتماله على أمهات النبي صلى الله عليه وسلم، (جداته العواتق).

* كان الشريف يوسف الهندي قد حرم قهوة البن على نفسه وعلى جيرانه ـ فنفذ ودخير هذا التحريم على شخصه وعلى ضيفانه ـ ولكنه جعل يقدم الشاي بالمنزل وبالمكتب في (جبنات) من الطين! (في المكتب كان يصنع له القهوة ـ وبعدها الشاي في الجبنات ـ المرحوم عبدالله كروب وهو رجل مقعد من معالم سنجة القديمة).

* مجموعة شايقية فداسي تشمل آل أبوعاقلة ـ أبناء أخت ود خير ـ وهؤلاء آباؤهم عركيون من أهلنا (آل أب بعاتة).

اقطعوا السلك وأنزلوا الدلق:

* كان الشريف يوسف الهندي (يا أم عمرو) ليس أقل من سيور السودان الثلاثة ولاء (السير علي الميرغني والسير عبدالرحمن المهدي والسير علي التوم زعيم قبيلة الكبابيش) ولكن لم يصله لقب سير من ملك

انجلترا، وغضب لذلك فجعل يصرخ في كل يوم: (اقطعوا السلك، ونزلوا الدلق).. وكان يقصد سلك التلفون الذي يتحدث به مع حكام الخرطوم، أما (الدلق) ـ الدلقان ـ (خرقة القماش القذرة) فهو العلم البريطاني ـ اليونيون جاك الذي كان يرفعه عالياً فوق قصره بقرية بري الشريف!

* قيل ان الشريف يوسف الهندي كان له دور في تحريك الشريف الحسين، شريف مكة ـ جد ملك الأردن الحالي للثورة العربية ١٩١٦ ضد السلطنة العثمانية (كان شريفنا من الطلائع التي سبقت لورنس) وللشريف يوسف الهندي مذكرات ووثائق تستحق المراجعة.

وهناك الضناقلة مع ان منهم جعليين ـ آل النصري الذين هم بسنجة أنصار وبأمدرمان ختمية (والسبب راجع لانقسام الشرق والغرب أيام كتلة المتمة بقيادة عبدالله ود سعد، التي يقول شاعرها:

نحن أولاد قريش ما فينا واحدن خمله
نحن بنمشي في ضرب الرصاص والجله
نحن في يوم كتلة ود سعد عبدالله
زي فارس الأسود ما فينا واحدن ضلّه!

* ومجموعة الضناقلة تضم آل قوته، مع أن هؤلاء لهم علاقة بالجعافرة (آل وني بأمدرمان) وضناقلة آخرون مربوطون بالدواليب ـ آل نابري ـ وهذا اسم نوبي ـ وآل محمد علي (تذكرون المرحومين أمين محمد علي المهندس، وأحمد محمد علي السنجاوي) وآل مكي علي، وآل بريمة... وهذه المجموعة تتبنى الطريقة الاسماعيلية بسنجة ولهم علاقات ببارا.

وهناك الحامدية ـ صعايدة مصريون حتى في أشكالهم ولهم علاقات بجعافرة الدويم ـ (والجعافرة يوجد منهم آل أبوحاج وكلهم مستوطنون).

وعمنا المرحوم يوسف الحاج أحمد الفلاتي ـ أخبرتني ابنه صديقي محمد علي يوسف (الآن بوزارة الطاقة) أن جدهم لوالدهم فلاتي (كاي ونة) ١٠٠ في المائة قادم من نيجيريا... وتزوج دنقلاوية (رطانة) بدنقلا... وعاش عم يوسف شبابه برفاعة، وكان يعد نفسه من أهلها برغم استيطانه بسنجة وزواجه من أمدرمان ومن كنانة الكواتيل أيضاً (آل المرحوم الناظر فضل المولى الطيب).

وهناك تجار موسميون من الجبلاب ـ قدماء جداً آل عبدالكريم أبوقسم السيد وأبناء عمومتهم ـ وهناك جعليون (شواشيق) من جزيرة الفيل بمدني، ومن كساب الجعليين تحت خزان سنار.

* وهناك جعليون تجار موسميون من العويضة ومن كبوشية والتراجمة...الخ وهناك آخرون حتى من الباقير التي (طيرها عجمي) ـ هم آل عجبين رحمهم الله.

* جارنا الكريم الخليفة ابراهيم محمد علي ـ والد الدكتور الاكاديمي الأدبي الذي مات بمدينة الرياض رحمه الله ـ لقد استوطن بسنجة منذ العشرينات ـ هل هم جعليون أو بديرية من دنقلا؟

الذي دكانه مسجد:

ثم نأتي الى الشيخ الوقور الذي كان دكانه مسجداً ـ مفروشاً بالسباتات عليك ان تخلع نعليك إذا كنت قادماً للبيع أو الشراء أو الصلاة أو الاستفتاء أو النصح أو الاقتراض..

ذلك هو الحاج يوسف الفكي مدني رحمه الله، ضيوفه من أب حراز أو أم دوم أو من امدرمان أو الجبلاب (أو من أي مكان آخر).

أبوه من أم دوم (وأم دوم لم تكن ممثلة بسنجة بغيره وهذا أمر عجيب ـ مع أن أبناءها موجودون في كل

مكان وأما والدته فهي من أب حراز ولها ارتباط بالعركيين والكواهلة (إحدى خالاتي ترتبط به وترتبط بالكواهلة أيضا).. ان أم دوم ليست قبيلة ولكن أهلها مترابطون كعشيرة برغم تعدد قبائلهم الأصلية.

* سكان أم دوم لسبب ما، كانوا يسمون الثور (ود البقرة).. ويمازحهم البعض بأنهم يخافون من الثيران.. قال عم سوركتي بالمفازة رحمه الله:

أنـا مـا دومـانـي يـخـاف مـن الـتـور
ولا كـليـانـي يـاكـل العـيش
جـدي ادريس ود الأربـاب

(آل كليان قبيلة بالمفازة ـ والكليان أيضاً عصافير تعتدي على المزارع) ـ أما ادريس ود الأرباب فهو الولي صاحب قبة العيلفون وينتسب اليه المحس المقيمون هناك وفي توتي وبري...الخ.

* يوجد عركيون آخرون مستوطنون منهم آل ود حمدان (أهلي) ومنهم المرحوم الطريفي أبوعاقلة وآل النويري وآل سليمان وآل العالم الفكي العوض.

* أذكر أن خالنا الطريفي أبوعاقلة ـ وجذوره من أب حراز ـ كان يتذاكر مع خالنا نور المدينة جنديتهم المشتركة أيام المهدية، وكيف أنهم كانوا قد وصلوا الى قندار في قلب الحبشة (عاد الخال الطريفي الى منابته الأولى في أب حراز حيث مات فيها، رحمه الله).

* العجيب أن الفونج بسنجة لم يكونوا كثيرين، كان هناك عمنا العمدة عمر الخضر رحمه الله (والد خضر عمر سكرتير حزب الاشقاء الأول وأخوانه) وكان لهم أقارب قليلون بسنجة... ثم عائلة المك عدلان (وارث تسلسل السلطنة الزرقاء) وهؤلاء في الأصل يقيمون بشرق النيل الأزرق، وعاصمتهم (مينا) التي تمتد منها الآن الترعة الرئيسية التي تمد مشروع الرهد.. وقد أقام المرحوم المك حسن عدلان بسنجة في أواخر العشرينات حينما عين ناظراً أو كبيراً للنظار بموجب السياسة الجديدة التي استعيرت من مأثورات اللورد لوقارد بنيجيريا ـ اعتماد الحكم البريطاني على الزعماء المحليين في الحكم غير المباشر لتخفيض فرص الطبقة الجديدة من المتعلمين النظاميين.

* وكان لسنجة نصيبها من أشراف الدناقلة (الأخ فرح عبدالرحمن، والعم الحاج علي الشريف وأولاد الشريف عبدالله) وأقاربهم البسابير: العمين المرحومين محمد المقبول وابن اخته عبدالرحمن المقبول ـ وذراريهم.

* هناك عمنا المرحوم أبوزيد اسماعيل (سر التجار) وكانت له خيمة بالمولد لهذه الوظيفة وعمنا أبوزيد صعيدي مصري من المستوطنين بدنقلا ـ وهو من أقارب اصحاب الطريقة الادريسية وله الآن قبيلة بسنجة زعيمها صديقي بدوي أبوزيد.

* المغاربة ـ أقارب أبي، قليلون بسنجة منهم احفاد عمنا مبروك وأولاد عمنا عثمان بسيوني وأبناء الأخ سليمان ودعلي ـ رحم الله اسلافهم ـ وللمغاربة السنجاويين امتدادات قروية بالمنطقة مثل قرية (الانجفاو) وقرية (الدبكرة) ولهم قرابات بالهلالية ومدني وعصار (القضارف) وسنار التقاطع...الخ.

* أسرة الفكي ـ في الأصل تركية ـ من كبارهم الذين عاشوا بسنجة المرحومون محمد وعبدالرحمن وأيوب وعبدالعزيز ومحمود وأحمد وعباس (وذراريهم) وأظن الباقي من أخوة المذكورين عبدالرؤوف وحده وهو قد تعلم بمدرسة سنجة الأولية، (كانت مودة الأسلاف متصلة مع والدي الذي توفي ١٩١٩ كما اخبرني الأخ المرحوم اللواء عبدالرحمن والد اللواء محمود مدير قاعة الصداقة)... ولهذه الأسرة مصاهراتها مع آل عربي (عبدالرؤوف عربي واخوانه) وآل محمد أفندي الطباخ ـ (وهؤلاء من أصول مصرية).

* آل الحجاز من بربر المقيمون بسنجة كان عميدهم شيخنا محمد الحجاز امام الجامع - وهم من أقارب الشيخ مدثر الحجاز الذي كان مشهورا في المهدية وبعدها - ولنا معهم مصاهرة فان حفيد الامام، احمد عباس الأدغم - ابن خالنا - وعباس الأدغم كان التاجر (الجلابي) الوحيد الذي تماسك ببلدة أبوحجار اثناء كتلة ودالسيد حامد ١٩١٩.

* آل فضول - من سنار التقاطع - جيران أسرتنا هناك منذ التركية السابقة وهم متخصصون في حرفة الصياغة (الذهب والفضة).

القبائل الأصلية:

ان سكان سنجة الأصليين هم قبيلة كنانة العظيمة وهي أصيلة بالمنطقة منذ أيام السلطنة الزرقاء - وتحركات المهدية لم تؤثر عليها، والقبيلة متعددة الفروع ويهمني هنا كنانة السراجية بسنجة والقرى المجاورة - وبعضهم بادون، كانوا يشاركون في رفاعة الشرق (أصحاب الدندر آل العجب أبوجن) ويتاخمون الكواهلة في منطقة سنار، والشريكة في الاصقاع المحيطة بجبال العطش ومنطقة الفاو التي تحضرت الآن بفضل مشروع الرهد - أما في الغرب (الهوج - الذي يقطنه الأعراب الهوى) فانه يوجد بخلاف السراجية كنانة كواتيل ثم هناك رفاعة (الهوى) - وهؤلاء كان زعيمهم يسمى (أب روف) هل هو نفسه صاحب حي أب روف المعروف بأمدرمان؟ وهل هو نفسه المعني بتلك الدعوة والتي كان يرددها الأعراب (يجبرك جبارة أب روف الجاب الدهب بالطوف)؟

* أنا في الحقيقة تعنيني تركيبة سنجة السكانية فقط، وقد فتحنا عيوننا لنرى مع كنانة جيرانا من التعايشة (و)الجوامعة وقبائل أخرى من الغرب مثل (تاما) و(ميما) وكذلك (القرعان) ولكن قرعان سنجة ليسوا نازحين جداً من شاد مثل قرعان السكن العشوائي بالخرطوم الآن.

* قرعان سنجة سودانيون قدماء عاشوا في بقعة المهدية مثل آل حولي، والشقيقين الضيف (و) يوسف ابراهيم.

* الأخير كان شديد الذكاء وقد رأيته بالمدرسة في عام تخرج فيه قبلي، يصفع جميع تلاميذ أحد الفصول بالكف - بأمر غير حكيم من أحد المدرسين - لأنه كان الوحيد الذي انفرد بالاجابة على سؤال - ورأيته يقف على القمطر (الذي كنا نسميه التختة) ليصفع التلاميذ الطوال (بأمر المدرس أيضاً) وهذا المعلم الجاهل ضربه في الشارع بعض التلاميذ الذين أهانهم واستمروا يتحرشون به حتى تم نقله.

* وفي السنوات التالية تخصص الأخ يوسف ابراهيم في المطالعة - كان الرفاق يجتمعون اليه ليستمعوا الى قراءته السليمة لقصص (العبرات) وهي تلك القصص الفرنسية المترجمة التي كان الكاتب المصري مصطفى لطفي المنفلوطي قد أعاد صياغتها في لغة مؤثرة، والقصص نفسها مجموعة مآسي مبكية (وبددت سواقة اللواري عبقرية الأخ يوسف ابراهيم).

* وكان بجوار قبيلة كنانة عائلات من الصوادرة، ولا يمكن ان أوافق على أحتمال انتمائهم الى صواردة النوبيين بمنطقة حلفا - وربما كانوا من قبائل غرب السودان، ولونهم عربي صاف - والسنتهم طليقة - وبينهم موظفون في وقت مبكر وهذا أمر كان نادراً.

* وكان هناك أقباط قليلون: أصحاب الطاحونة، عم غبريال، وبعده عم دانيال بقطر - وعاملهم يسي - وهناك عائلات نقادية عرفناها منذ العشرينات متخصصون في بيع الفرك، يصنعها أهلهم بنقادة في جنوب مصر - أشير الى عم شنودة وشقيقه داود وأولادهم وقد نالوا الجنسية السودانية - وتحولوا من صناعة وتجارة الفرك الى تجارات أخرى (سنتحدث عن الفرك فيما بعد).

* عم عازر أبوجيمي (والد أصدقائنا فتحي وثابت وفكريَ واخوانهم ـ وهو صهر الأخ دانيال روفائيل جريس بالقضارف) وأبناء عازر خالهم يعقوب ميخائيل (وكان صديقي، وكان أديباً يحفظ تقريباً كل الشعر الموجود في كتاب جواهر الأدب) أما عم عازر نفسه فقد كان له دور في حياتي، ذلك لأنه كان مراسل جريدة حضارة السودان من سنجة.. وقد خلفته فيما بعد ـ بمراسلة صحف أخرى.

* والسوريون الذين مكثوا طويلا بسنجة كان منهم ميشيل بخاش وشفيق بولص وكلاهما من حلب الشهباء وكان لكل منهما أبناء من والدتين سودانيتين استوعبهم الاسلام، وجاءت عائلة بكر (من حلب أيضاً) وزوجت احدى بناتها لشفيق المذكور، وأخرى لأرمني سنجة الوحيد بقداصار مانقرسيان، وكان وكيل يعقوب اصلانيان (صاحب العمارة المواجهة للبرلمان بالخرطوم) وكان الأخير تاجر محاصيل له فروع في سنجة والروصيرص وسنار.

* واليونان كان أقدمهم عم يني ميلاس صاحب الفرن الذي يخرج الرغيف ذا الريحة المنعشة! وهذا كان له ابن من أم سودانية هو دوانيس.

وعرفنا أيضاً الأخ بنايوتي استرامبيلس، وأمه سودانية، أما أبوه واسيلي فقد كان عامل بناء، وفهمت من بنايوتي ان أباه عمل فترة في تشييد خزان جبل أولياء ـ وهذا الخزان بني في أوائل الثلاثينات ـ ولكننا عرفنا بنايوتي منذ العشرينات وسط التجار ـ فكيف كان ذلك؟

* كان هناك أيضاً التجار اليونانيون الكبار الذين يبيعون الخمور والبقالات الراقية ـ أهمهم اخوان بتسلادس وهؤلاء انتقلوا الى الخرطوم، وكانت لهم علاقة بكسلا.

انني لا أكتب كل هذه التفاصيل من أجل احياء أية نعرة قبلية (بل بالعكس) ولكن لكي يتأمل ابناؤنا الفروق في تطور المجتمع خلال نصف قرن مثلاً ـ ولكي نلاحظ ان سنجة كلها كانت تشبه العائلة الواحدة.

* والحشد في هذا الفصل بوجه خاص مراد به أن أوضح ان كل زائر لسنجة في العشرينات والثلاثينات وربما حتى الآن.. لا بد أن يجد أقارب بعيدين أو قريبين يستضيفونه، بل تتاح له الاستضافة حتى مع عدم القرابة.

* كذلك يمكن ان أذكر أنه كان من تقاليد الحكم الثنائي اقامة (استراحة) في كل مدينة أو قرية كبيرة يمكن أن ينزل بها الحكام أو مبعوثو التفتيش، وهؤلاء ينفقون على أنفسهم في استراحات المدن الكبيرة، حيث يوجد طباخون وفراشون أما في القرى فإن ناظر القبيلة أو العمدة أو شيخ الحلة قد يتكفلون بتقديم الطعام والشاي والقهوة وتدبير ماء الشرب والغسل...الخ.

كذلك كان بسنجة موظفون من غير أهلها وهؤلاء قد يتضيف عليهم أقاربهم ومعارفهم...الخ.

☆ ☆ ☆ ☆ ☆ ☆

أغبش مع عصابة الهمباته الصغار بالليل والنهار
ضاعت على أغبش فرصة تكوين رأسمال البلصات
الضرب ينفع أغبش...

لا أريد أن أزكي نفسي - بأن أزعم مثلاً بأنني نشأت نشأة مبرأة من العيوب ففي الحقيقة أنني تعثرت ومررت بلحظات أو فترات ضعف واجتزت حالات بخل أو جبن وحالات جزع وحالات كذب أو عدم أمانة وحالات تحسر.

* لقد كنت أنموذجاً لنتاج المجتمع - ولكنني كنت محظوظاً بحيث أنني والحمد لله قد نجوت في النهاية - ومع ذلك فإنني لن أكشف ما ستره الله من عيوبي وذنوبي (ففضح النفس منهي عنه، ذلك انه يدل على المباهاة بالنقائص) وما زلت أسأل الله العصمة والستر والغفران.

الهمباته الصغار:

كان أولاد الحي في ليالي الحصاد يغيرون على البلدات - المزارع المطرية - حيث يسرقون العنكوليب، وقد اشتركت معهم في غارة واحدة، والعجيب أنهم في تلك الليلة قد أغاروا على (بلاد) ابن عمى - التي زرعتها معه مرة واحدة منذ سنوات - وقد وجدنا بخلاف العنكوليب كمية من «التبش» - العجور المطري وهو الذ بدرجة تقرب من «الخيار» ولا أعرف ما هو «الفقوس» كذلك جمعنا كمية من الحميض من البور.. وهذا من عائلة التبش ولكنه أصغر حجما كذلك فهو «بروس» يعني انه ينبت بدون زراعة.

و«الهمباته» الصغار كانوا يقطعون أحياناً بعض «القنقر» - أي قناديل الذرة (المصريون يسمونها الكيزان) - والقنقر الذي يحضرونه قبل النضج يسمى «الفريك» كنا نشويه بالنار في الشارع ونأكله.

الجنائن:

وعلى الأقل أمثالنا لم يتعودوا الاغارة على الجنائن (البساتين) فان هذه لابد أن تكون محروسة... فالسواقي تدار ليلاً من أجل الري، وعمالها (الترابلة) لا يبالون في اصطياد المعتدين بما في أيديهم من سلاح.. ولكننا كنا نزورها نهاراً وأصحابها يعرفوننا ويعطوننا من الفواكه الناضجة ان وجدت (مثل الموز والجوافة والليمون والليمون الحالي - أما المنقه فلم تكن قد غرست في منطقتنا إلا في الأربعينات).

* في إحدى المرات لم يجد صاحب الساقية المرحوم سليمان ود علي - وهو قريبي - إلا أن يأمر لي بحوض بصل أخضر وقد حمله لي على حمار الى بيتنا فقالوا يكفينا منه القليل، وذهبنا بالباقي وبعناه بقرشين ونصف - حمل حمار كامل - للمتسببين بسوق الخضار (١٩٢٦).

ومرسى السفن:

وكنا نعود من المدرسة ونغشى في طريقنا مرسى السفن - بخارية او شراعية - فإذا رأينا بضاعة تحت التفريغ، ننظر اذا كان من ضمنها تمر، فنجمع المشتت، وأحياناً نمد أيدينا لنأخذ انصبتنا من فوق الشوالات (والحق والله، أننا لم نكن نعتدي على البضائع الأخرى حتى ولو وجدناها سائبة).

والدخولية:

وفي عودتنا من المدرسة نغشى الدخولية اذا كانت عامرة ـ وفي الشهور ما بين اكتوبر وفبراير ـ ونمد أيدينا الى أوعية المزارعين ـ أو التجار ـ حيث نجدها مفتوحة من أجل العرض للبيع ـ أو التخييط ـ ونغترف أنصبتنا من السمسم (كي نأكله في الطريق) وأحياناً نجد صمغ الهشاب (وهو لذيذ جداً في حالة ليونته).

* لماذا لا أروي لكم شيئاً عن مجاعة الخرطوم لما حاصرها ود النجومي ١٨٨٤/١٨٨٥ ان غردون نفسه كان من الذين تغذوا بمخزون الصمغ بمخازن الاسكلة بالمقرن ـ وكان ناشفاً ـ وليس ليناً مثل صمغنا . الذي كنا نأكله بدخولية سنجة بعد أربعين سنة من هلاك الحاكم البريطاني.

* ان المزارعين ـ وأصحاب الصمغ ـ كانوا يتسامحون معنا. وأحياناً نشحذ السمسم والصمغ من أصحابه أو من العتالين فيعطوننا ما نطلب.

الغلبي تمر السوق:

إلى يومنا هذا ترى أولاداً وأحياناً رجالاً كباراً (يدنقر) أحدهم لأخذ حبات فول أو بذور بطيخ من بائعة التسالي. وهو في طريقه، وكانت مثل هذه العادة منتشرة عندنا بالنسبة لتمر السوق كانت العادة ان توضع الفراشة (بتشديد الراء) ـ فراشة التمر في العراء خارج الدكان ومعها المكاييل... وأي غلام غابر كان يمكنه التقاط تمرة باستثناء أغبش كما يأتي!.

كف عنيف من أجل تمرة:

كنت أعمل مع المرحوم محمد الاحيمر. ودكان العم صالح الشوية رحمه الله ـ كان معنا في نفس مربوع أبوالعلا (المبنى بشكل مثلث) ويفصلنا عنه دكان العم المرحوم خلف الله الساري (من أهل رفاعة).

* ربما كانت المرة الأولى في حياتي التي (دنقرت) فيها والتقطت تمرة واحدة من فراشة عم صالح الشبوية ـ فما أشعر إلا وانقض علي المدعو «الامام» ولطشني بالكف بعنف على خدي الأسيل حتى تتعتعت، كان الامام طويلاً عريضا في نحو الثلاثين وهو جعلي من البالة ربما من «العوضية»، وكنت طفلاً في التاسعة.

* وهب رجل لا أعرفه فسدد الى الامام «بونية» ضربة بقبضة اليد على صدره وهب أيضاً الأخ عبدالباسط وهو يحمل «مقص سنجر»... وصرخ كثيرون في الامام حتى جعلوه يرتجف...

* أما أنا فقد سقطت التمرة من يدي، وكان الدرس مفيداً لي ـ هل تظنوني مددت يدي مرة أخرى الى تمرة أو جمرة؟!

* ان تقاليد السوق في تلك الأيام كانت تسمح لي باخراج مليم واحد وأنادي «الامام» فيأتي مسرعاً ويعد لي عشر تمرات... وما لبث أن توفي عم صالح الشوية لرحمة الله ورأيت الأخ الامام يحمل جبنة صفيح كبيرة يحوم بها ويبيع فنجان قهوة البن بمليم واحد.

نزعة الشر لدى المراهقين:

ويبدو لي أن «نزعة الشر» توجد بشكل غريزة لدى المراهقين. أذكر أنني في أوائل طاشرات عمري كنت أترك العمل في المغرب، وفي طريقي الى المنزل أمر بشارع مهجور من السوق ـ وفي احدى البرندات كانت توجد سيارة ركوبة «مفرشة»، وكنت التقط حجراً من الزلط الصلب ناوياً ان أحطم لمبة العربة... ولما اقترب منها أتردد ولا أنفذ العملية الشريرة وألقي بالحجر وبعد فترة اكتشفت ان احجاري اليومية صارت كومة محسوسة فضحكت على نفسي وتخليت عن فكرتي الشيطانية.

وفي احدى المرات نفذت عملاً شريراً يضر بأحد الضيوف بمحل أبوالعلا ولا يفيدني على الاطلاق وشاهد هذا بالفعل الأخ محمد عمر عبدالمحسن (شاب في مثل سني من رفاعة كان قريب القاضي الشرعي الشيخ يوسف قوي رحمه الله، وقد انضم لنا بمحل أبوالعلا لكي يستنير في التجارة) وقد عاتبني الأخ م.ع. عتاباً مريراً: ويسرني أن أقول انني استفدت من ذلك العتاب.

بيرق الخياطين:

انني لم أتعلم على ماكينة الخياطة ـ وهذا عجيب والسبب انني جلست عليها يوماً. وبدل تحريكها بقدمي، حاولت أن أفهم لماذا تكون خياطة ماكينة سينجربخيطين ـ واحد من تحت علبة الماكوك والآخر من فوق ـ من الابرة ـ وفي هذه المحاولة التي قمت بها حصلت (شربكة) لاحدى الأدوات (أظن اسمها الترمسة) وجاء صاحب الماكينة ـ الأخ عبدالباسط رحمه الله ـ وهو صاحب المقص المشار اليه في قصة التمرة ـ وقد عانى كثيراً في اصلاح ماكينته ولكنه لم يتعرض لي بمخاشنة، مع انه شديد الغضب كالعادة وقد حدث في يوم من الأيام انه طعن حماراً سارحاً بنفس المقص، لأن الحمار بعد الضرب باليد عدة مرات لم يخرج من البرندة.

لم ألعب قط بعد ذلك على ماكينة خياطة الا اذا اخرجت السير لايقاف تحرك جهاز الخياطة.

ان الخياطين أشخاص محترمون ـ ولكن «التعلمجية» يسرقون قماش الزبون ويوفرون «البيرق» من كل قطعة... وقد رأيت واحداً منهم يقطع البوارق من ثياب الزراق التي يكلف بخياطتها وأصحابها واقفون.. قلت له هذا «ضر» ـ أعني انه عمل شرير غير مفيد حتى لك فقال لي: من قال لك؟ إنني أقطع ذراعاً من كل ثوب زراق ولما اجمع أربع أصنع منها «عراقي» أبيعه للنسوان في سوقهن ـ او لبائع الفحم ـ أو لواحد من العتالين.!!

لجنة العشور:

وأنا في محل أبوالعلا، جاءني أحد المعارف وسألني عن ماهيتي فقلت له ١٥٠ قرشاً في الشهر.. فقال لي يمكنك ان تذهب الى «اللجنة» ينطقونها بضم اللام ـ وتكسب ٥٠ جنيهاً في شهرين وتعمل لك دكاناً مثل محل أبوالعلا؟ وكيف ذلك؟

تشتري لك حمار «دبلاوي» بـ ١٥ ريال وتذهب الى العمدة فلان.. يأخذونك كاتباً في اللجنة «لجنة تقدير العشور ـ يعني ضريبة المحصول» وتكون يوميتك ١٠ قروش ويومية حمارك عشر قروش ثم تمرون على عشرات القرى، وفي كل (بلاد) يعطونك «بلصة» كما يعطون بلصات لأعضاء اللجنة.. واذا قدر الأعضاء محصول البلاد بـ ٥٠ أردب ـ أنت تكتب ٤٠ ـ وفي النهاية تعود أنت سمين من أكل لحم الدجاج والنعاج كما يرجع حمارك (يقرب) بتشديد الراء المكسورة؟ ومعناها أن الحمار يجري بالرجلين الاماميتين مع بعضهما. وذلك بفضل الشبع والصحة نبيعه بأضعاف ثمنه. وذلك بفضل قوته وصحته، مع حالة الرواج في فترة (الدرت) أيام الحصاد والتسويق..

* ولم يحدث عندي أي اغراء بهذه البلصات التي كانت حرية أن تضعني في الطريق الى الثراء.

لصوص بسوق المحصول:

أما أشد غضبي فقد كان من نصيب السماسرة بسوق المحصول.

* السمسم والصمغ بسنجة (في أواخر العشرينات وأوائل الثلاثينات) كان يجرى وزنهما في ميزان رسمي ويعطى صاحب الشحنة ورقة بالوزن ـ وبموجب هذه الورقة يتفاهم مع واحد من السماسرة (وكلاء التجار) على السعر بالمساومة ثم يحاسب السمسار المزارع ويدفع له الثمن ـ وها هنا لاحظنا أن أي سمسار لا يتعفف عن الغش والمغالطة في الحساب.. وقد سمعتهم مرة يضحكون على ما فعله فلان وهو واحد منهم حينما

حاسب المزارع ودفع له فلوسه، ووضعها في ثوبه ـ فجاءت طائرة تطير في الجو... واقتربت للهبوط بالنيل (فهي طائرة مائية) وجعل الجميع يتفرجون عليها، فاذا بالسمسار كان قد سرق عدة جنيهات من ثوب المزارع ـ وهذا أكثر من نصف نقوده ثم ساعده على صر الباقي؟

* أما الذرة فقد كان يتم شراؤه بالكيل... ورأيت الكيالين كيف يكتالون من المزارعين عند الشراء بطريقة تجعل الكيلة كيلة وربع كيلة ـ بينما يكيلون نفس البضاعة عند التسليم للتجار فتزداد جملة الكيل أكثر من الربع.

* ورأيت السماسرة في بعض الحالات يضيفون التراب الى الذرة أو السمسم (قبل اعادة الوزن لتسليم التاجر) كذلك يضاف (الجوجاو) وهو أوساخ السمسم اليه. مع انهم يبعدونها قبل الوزن من المزارعين.

* حزنت لأفاعيل السماسرة ولو كنت استطيع تجنيد شهود معي لما قصرت في مقاضاتهم وكان عمري ١٤ سنة!

«التجار» كانوا أمناء في الغالب:

اقول «كانوا» أمناء في الغالب (قبل نهاية هذه الحلقة سوف القي نظرة على اخلاقيات السوق قبل سنة ١٩٣٩ ـ الحرب العالمية الثانية ـ ثم فترة الحرب وبعدها ابتداء من عام ١٩٤٠ الى هذه السنة ١٩٨٤).

فن الوزن:

تعلمت بدكاكين التشاشة والعطارة وزن الكميات القليلة (ثم) كيل الزيت ـ وكل التجار الذين عملت معهم كانوا أمناء في الموازين والمكاييل، وفي المحاسبة على الثمن المتفق عليه وفي حفظ الودائع والأمانات التي يتركها أصحابها بإرادتهم أو في حالات النسيان.. وكانوا أمناء ايضاً في المقاييس ـ قياس الأقمشة بالذراع أو الياردة (المتر لم يكن يستعمل لدينا بسنجة في العشرينات والثلاثينات).

* سمعت عن أفراد ينقصون وزن صنج موازينهم ومقاييس قماشهم...الخ.

* وكان يوجد اشخاص يخلطون الشاي الهندي بشاي آسيوي آخر أرخص منه، ويخلطون البن الحبشي بالبن البرازيلي والأخير ثمنه أقل..

* العجيب ان شركة شل كانت تبيع «زيوت ريحة» مستخلصة من البترول، وفي سوق سنجة كان يوجد بعض التجار يخلط (المحلبية) بزيت اخضر، و(السرتية) بزيت أحمر والمجموع بزيت أسود ـ ويطلب من الخرطوم مادة (البوتاس) من أجل اللعبات الكيماوية المتعلقة بخلط العطور!!..

وزن الكميات الكبيرة:

في محل ميشيل بخاش، ثم في محل أبوالعلا، تعلمت وزن الكميات الكبيرة ابتداء من «التمنة» فما فوق (التمنة ١٢ رطل ونصف الرطل وهي وحدة اصطلاحية لبيع البن مثلاً لصغار التجار، والملح للدباغين...الخ).

* لكن الميزان «القباني» هو الذي كان مثار اهتمامي.. يوجد بالسوق ميزان (الطبلية) الذي يمكن قفله ويحمله العتال على ظهره أو الحماري على ظهره... هذا النوع انجليزي ماركة (هاو) وقد شغلتني منذ العشرينات وحتى الآن ماهية النظرية التي تجعل «الرطل الواحد» يساوي ١٠٠ رطل حينما تضعه على عمود معين الى يسارك ويسار اللوحة المكتوبة عليه أرقام الأرطال أو الكيلوات...

* قمت بتجارب على هذا الميزان وأنا وحيد بالمخازن التي كانت تجرى بها عملية تنظيف الصمغ.. وزنت جوالاً ٢٢٥ رطل صمغ، وافرغته على الخيش، وقسمت الكمية على كميات صغيرة، ٥ أرطال و١٠ و٢٠ و٣٠ و٤٠ و٢٥ و٥٠.. وكان مضبوطاً جداً بعد اضافة الجوال الفارغ.

* وفككت أرضية الميزان لأعرف باطنه وهذه عملية نقوم بها كل يوم لتنظيف الميزان وتزييته، وليس يوجد بباطنه أي شيء غير ٤ بلالي في الأركان.

* وميزان (أفيري) الكبير الذي يستعمل بالدخولية أو بالسكة الحديد وكذلك (الطونولاتة) التي تمر عليها العربات التي يبلغ وزن احداها عشرات الأطنان.. كل هذه الموازين على نظرية لا أفهمها.. هل أجد من يفهمني اياها؟.

عيوب تجار الحرب:

سبقت الاشارة الى التجار الغشاشين في أيامنا المطففين في الوزن والكيل أو الخلاطين لبعض البضائع.. وفي تلك الأيام (قبل ١٩٤٠) لا أحد يتعرض لك إذا أخفيت البضاعة لأنك سمعت بارتفاع أسعارها (فقط السكر مستثنى لأنه ابتداء من أوائل العشرينات احتكرت الحكومة استيراده وصارت اسعاره محددة)، وقد يحدث أن يتأخر وصول الراتب الشهري الى سنجة مثلاً فيعمد التجار الى بيعه بالزيادة بعد اخفائه (في تلك الأيام ذقنا شرب الشاي بالحلاوة أو بالتمر أو بعسل النحل).

* وفي سنة ١٩٤٠ وما بعدها نقصت حصص السكر ونقصت المعروضات من بضائع أخرى وفرضت التسعيرات على قائمة طويلة من السلع بل فرضت اجراءات تموينية.. وقد رأينا التجار كلهم تقريباً يتورطون في المخالفات والذي ينجو من الانكشاف أو المحاكمة إنما مرجع ذلك الى حسن حظه وليس مطلقاً الى أمانته. (وسترد تفصيلات حينما نصل بالفعل لفترة الحرب ١٩٣٩/ ٤٥ وما بعدها).

وزن الذهب:

كان عم عوض أبوالعلا - يشتري الذهب والفضة من المزارعين الذين يعرضونها للبيع في بداية الخريف وكنت أذهب بالقطع المعدنية الثمينة الى سوق الصاغة: العم خليفة فضول رحمه الله كان يقوم (بتجمير) قطع الذهب لي للتأكد من عدم خلطه بمعدن خسيس، ثم يزنها لي وكنت أكتب وزن كل قطعة على ورقة وأطويها فيها...

وتعلمت أن أوقية الذهب تساوي ٤ قسم (جمع قسمة) أو ٣٢٠ حبة (لعلها قمحات)... وريال الفضة (بالمفهوم البلدي) كان يعادل ٨ دراهم (في القضارف وكسلا يتعاملون بالقوشلي وهو الريال النمساوي الموروث من عهد الامبراطورة ماريا تريزا التي ماتت عام ١٧٨٠ ووزنه ٩ دراهم).

* كان الذهب في الخريف لا يكاد يتجاوز ثمنه ٤ جنيهات للأوقية والفضة الريال ٥ قروش (قارنوا هذه الاسعار مع اسعار اليوم).

وزن الريحة:

وكنت متخصصاً في وزن الروائح للعطارين - اللينة واليابسة - وكانت روائح محل أبو العلا كلها جيدة (نمرة واحد) فالمحلبية والسرتية والمجموع كلها كانت تصل من الهند في قوازين نحاس كبيرة (بعد تفريغها يجري قطع روسيتها ثم يجري تبييضها وتستعمل في حالات ولائم الحوليات والموالد - وفي حالات غلي الماء للاغراض الأخرى).. وكنت أشفط الريحة من أوعيتها بشفاطة صفيحية يصنعها لنا السمكرية..

* المحلبية كانت تسبب لي الصداع - وما تزال وهي التي تثبت بها البنات الحناء..

حواشي

خزان سنار:

في «الحليقة» المنشورة من مذكرات أغبش بعدد الصحافة السبت ١٩٨٤/٦/٩ حدثت الاشارة الى اكتمال خزان سنار١٩٢٨ وافتتاحه فيما بعد.. لم أحدد تاريخاً ولكنني جعلت المناسبة تتواقت مع اتفاقية مياه النيل ١٩٢٩ بين محمد محمود باشا كرئيس وزراء لمصر (وبريطانيا).

* الصديق القديم احمد خوجلي (من اساطين حلفاية الملوك) أفاد بأنه معاصر لافتتاح الخزان سنة ١٩٢٦.

* في الحقيقة ان أرقامي اكثرها غير دقيق - وأنا أعتمد على الذاكرة - ولم أرجع الى أي مستند فيما عدا كتاب «السودان عبر القرون» تأليف المرحوم مكي شبيكة لتحقيق معلومات معينة عن المهدية وما اتصل بها.

* وسوف أعود واحقق أرقامي ما أمكن ولن أتكبر على أي تصحيح ان شاء الله.

بالقدال في شغل:

في حلقة سابقة أيضاً نسبت كثيرين من الأصدقاء والمعارف والجيران - وهذا طبيعي، فـان الحصر مستحيل.

* من أقارب شايقية رفاعة بسنجة سقطت في النقل الاشارة الى أبناء أيوب القدال - وهم أسرة أكن لها مودة - ثم انهم أحفاد الخليفة محمد (أبو هاشم الخليفة).

* نرى أكثر القداديل بمدينة كسلا - وليسوا هم من الحلنقة ولا من قبائل البجة الأخرى - وعميدهم كان مولانا المرحوم القدال سعيد القدال - المربي الكبير الذي خدم التعليم في السودان وحضـرموت، وفي حضرموت لقبوه بلقب القدال باشا (من قبل السلطان القعيطي - الأخ الدكتور سيد أحمد نقدالله، عمل معه، علم منه، وعنه الكثير)...

* لماذا لا نتذاكر مع القارىء لامية الطغرائي: أصالة الرأي صانتني عن الخطأ وحلية الفضل زانتني لدى العطل.. فيم الاقامة بالزوراء.. لاسكني فيها.. ولا ناقتي فيها.. ولا جملي...

حسب السلامة يثني هم صاحبها
عن المعالي ويغري المرء بالكسل
يرضي الذليل بخفض العيش مسكنة
والعز عند رسيم الأينق الذلل ....

أهبت بالحظ لو ناديت مستمعاً
والحظ عني بالجهال في شغل

وقال مولانا الشيخ عبدالله محمد عمر البنا.. امد الله في عمره وهو زميل وخليل وقريع للشيخ القدال في التعليم وفي الشعر فالقدال رحمه الله شاعراً أيضاً:

أهبت بالحظ لو ناديت مستمعاً
والحظ عني (بالقدال) في شغل!

جدكم عوج الطويل كان يشوي السمك بقرص الشمس
كتاب سعد ميخائيل ذهب بكرعينه الى بيت آل أغبش

* ذكرت من قبل لمحة عن الكتب الصغيرة التي اقتنيتها بسنجة نفسها وكان أكثرها من الكتب الدينية والفقهية البسيطة. ولاحظت أن اكثر هذه الكتب كان ناشرها محمود علي صبيح وأولاده بالصنادقية ميدان الأزهر القاهرة، وفي آخر كل كتاب اعلان عن أسماء كتب أخرى مع عبارة (ترسل قائمة المكتبة لمن يطلبها) وكان قد طلبت منهم القائمة وانتخبت أسماء كتب قيمتها نحو ٣ جنيهات وحرصت على تجنب المجلدات الكبيرة ذات الأجزاء المتعددة.. فان الميزانية محدودة.

* ومن أحسن الكتب التي حصلت عليها في هذه الطلبية الأولى (جواهر الأدب) وهو معروف وكتاب (نهج البلاغة) من خطب ورسائل الامام علي كرم الله وجهه. جمعها الشريف الرضي الشاعر الرقيق المرموق في العصر العباسي - والنسخة التي اقتنيتها كانت مجلداً واحداً بشرح وجيز وما كان يمكنني ان احصل على شرح ابن أبي الحديد الذي يؤرخ للفتنة كلها في عدة مجلدات.

* وحصلت على سيرة سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه للامام عبدالرحمن بن الجوزي وهو كتاب نفيس حتى ليظن قارئه ان كاتبه مؤرخ معاصر - وكذلك وصلني كتاب الدنيا والدين للماوردي - وكتب قيمة أخرى لم استفد منها حيث استولى عليها مع عشرات الكتب المقتناة فيما بعد، خلان خونة!. منها (الشعر والشعراء) ومنها (المستطرف) وكتب ابن المقفع (الأدب الكبير والأدب الصغير وكليلة ودمنة) وبعض كتب الجاحظ واضرابه (وكن من الاحجام الصغيرة).

* ومن أحسن الكتب التي استفدت منها في هذه الفترة - قبل ١٩٣٠ - كتاب الاسلام والنصرانية مع العلم والمدنية تأليف الامام محمد عبده، وهو مناقشة مع مفكرين أوروبيين مثل كرومر (و) رينان (و)هانوتو تجعل المسلم يرفع رأسه إزاء النهضة الأوروبية حيث يعرف أنه كانت لدينا مثلها ويمكن ان تستعاد. (فيما بعد اعجبت بكتاب سلامة موسى (حرية الفكر وابطالها في التاريخ) ثم اتضح لي ان كتاب محمد عبده قد قدم نفس الموضوع من قبل).

اهتمامات مبكرة:

كنت أريد أن أتعلم فن الانشاء (و)السياسة (و)التاريخ.

حضر تلري:

كان من ضمن طلبيتي الأولى كتاب في (فن الانشاء والمكاتيب) ووجدت الكتاب يفيدك كيف تكتب رسالة الى الخديوي او رئيس الوزراء...الخ.

وكانت نماذج الرسائل حاشدة بالاصطلاحات التركية: دولتلو، سعادتلو، عزتلو، فضيلتلو، سماحتلو، حضرتلري.

ثم لغة الخطاب بعد العنوان سطور متلاحقة من التملقات المسجوعة ولم استفد من هذا الكتاب الا لقضاء ليلة ضاحكة، ثم نبذته.

عوج بن عنق:

ومن الكتب التي وصلتني كتاب (بدائع الزهور في وقائع الدهور) لابن اياس المصري (أعني كتابه الصغير)، أما كتابه الكبير فلم أره، واسمه (بديع الزهور) وهذا بدائع الزهور.

يحتوي هذا الكتاب على خرافات عجيبة (مثلاً) اسلافكم يا أيها البشر - المدعو عوج بن عنق، كان طويل القامة بحيث ينحني فيلتقط سمكة من قعر المحيط ويقف ثم يمد يده ليشوي السمك بقرص الشمس!!

وقال ابن اياس في كتابه: ان النيل ينبع من الجنة، وقد سار أحد أبناء العيص بن يعقوب (من اسلاف الاسرائيليين) الى منبع النيل ووجد طعم مائه في المنبع مثل العسل.. ثم افادنا المؤلف ان عذوبة مياه النيل العادية التي نتمتع بها الآن انما ترجع الى اختلاطه بماء البحر المالح حيث فقد مذاقه العسلي!!

* هذه الكيفية في كتابة التاريخ خوفتني من الانكباب على كتب - التراث في ذلك الوقت المبكر - بل لقد وجدت خرافات مشابهة في كتب مستعارة، مثل تاريخ المسعودي المحترم نفسه.. كذلك فان اطلاعي على آراء علماء محدثين (مثل محمد عبده وتلميذه رشيد رضا) قد زاد خوفي من الاسرائيليات والمدسوسات الأخرى في تفسير القرآن والحديث والتاريخ.

* وعليه يصح قولي ان ولعي بالتاريخ لم ينخفض ولكنه اتجه بي الى متابعة تحقيقات المعاصرين وكانت المجلات تقدم نماذج (وطبعاً في الثلاثينات رأينا محاولات دارسي العصر تتقدم واستفدنا من كامل كيلاني - نعم كامل كيلاني - ليس في قصص الأطفال، بل في مثل (مصارع الخلفاء) و(مصارع الاعيان) وشرح رسالة الغفران للمعري مع اضافة هوامش تاريخية عظيمة... وذلك قبل محمد حسين هيكل وطه حسين والعقاد).

* ومن أقدم دارسي التاريخ المعاصرين الذين استفدت منهم منذ أواخر العشرينات حبيب جاماتي الذي ظل طوال خمسين سنة يكتب في تاريخ كل مكان بالعالم بطريقة موسوعية - ثم يأتي مؤرخون مصريون وآخرون مثل محمد عبدالله عنان (و)عبدالرحمن الرافعي - كل في ميدانه.

* تاريخ السودان مبحث قائم بذاته، يأتي فيما بعد...

علم السياسة:

حصلت من مكتبة محمود علي صبيح على كتاب اسمه (علم السياسة) وهو يحتوي على نظريات افلاطون... وأظن انه كان يشتمل أيضاً على بعض التطبيقات الاسلامية في الخلافة... ولا أذكر ما اذا كان يحتوي على الفلسفة الأوروبية الحديثة في نظريات الحكم والسياسة (على كل حال كان الكتاب من مقتنياتي التثقيفية السابقة لأوانها، وكنت أحمله معي على عينك يا تاجر في غدوي ورواحي الى ومن متجر أبوالعلا بسنجة ليراه الناس، فان نزعة التظاهر بالسياسة قديمة في نشأة صديقكم أغبش)!.

لقطة ثمينة جداً:

قرأت منذ شهور مقالاً للاخ الأستاذ أبو شرف قال فيه انه استعار كتاب (صالون العقاد) من الأخ سعد مصطفى أبوالعلا - وأفادنا ان الأخير قارىء ذواقه - ولكن أين كان سعد في سنة ١٩٢٧م؟

* والمرحوم عبدالسلام مصطفى أبوالعلا كان يأتي الى سنجة في زيارة موسمية ولكن لا يمكن أن تكون معه المجموعة التي هي موضوع هذه الفقرة (لا شك ان المرحوم كان قارئاً، وربما في الانجليزية أيضاً، كسائر أولئك الذين اهتم بهم - نيوبولد (و)روبرتسون: مكي عباس، نصر الحاج علي، مكاوي سليمان أكرت، عبدالماجد احمد ابراهيم احمد، محمد احمد محجوب، داود عبداللطيف، بشير محمد سعيد، احمد مكي عبده، محمد صالح الشنقيطي، عبدالرحمن علي طه... الخ رحم الله السابقين وزاد نفعنا بالباقين.

والعم مصطفى أبوالعلا رحمه الله، كان يأتي مرة في العام ونسمع منه التعبيرات الحضارية، من مثل (ح أسافر أوروبا في شهر ٧) ولما رحث لفريق الغبش وقلت (ح امشي السوق) و(ح امشي البوستة) قال لي أولاد الفريق (تفلهمت) فتركت (حاء المستقبل) الى ان تفلهمت تماماً بالاقامة في الخرطوم!

* والعم الحاج محمد أبوالعلا كان يضحك موظفي المحل ويطمئنهم في نفس الوقت بأن الرفت لن يقع عليهم لأنهم (دباليس) حيث يقول (نحنا ما نشغل إلا ناس دباليس ـ لما يفتحو (نكرسم).

والمرحوم قرشي محمد أبوالعلا كان في تلك الأيام يهتم بالاناقة، ويربط في كل يوم كرافتة مختلفة.

* وعم عوض أبوالعلا نفسه ـ في نظري أديب ـ يدل على ذلك اقتداره في اختصار البرقيات، وكذلك صياغة خطاباته التجارية، ولكنه لا يجد وقتاً للقراءة ولذلك فانني كنت اجمع الصحف والمجلات من مكتبه وأذهب بها الى بيت آل اغبش.

* والمأسوف على شبابه الشاعر حسن عوض أبوالعلا كان قارئاً ولكنه في سنة ١٩٢٧ كان طفلاً ـ وأخوه سيد أصغر منه (وهو الذي تخرج من جامعة كاليفورنيا متخصصا في الزراعة المتكنكة ١٩٤٨).

* ان مجموعة الكتب التي وجدتها على أحد الرفوف بمحل أبو العلا بسنجة سنة ١٩٢٧ تدل على ان صاحبها ذو نزعة أدبية ـ ومتابع للمطبعة العربية لآخر لحظة.

* هل صاحبها محمود حسنين أبو العلا؟ هذا كان بسنجة وتركها ولم أره.

* أما المحاسبون والموظفون فلم أر لهم اهتمامات أدبية.. يدلك على ذلك انهم في كل يوم يرون الكتب بيدي ـ كتب الرف وغيرها، والطرود التي تصل باسمي، ولم يحدث لأحدهم مجرد اغراء بتقليب أحد الكتب، فيما يلي اسماء مجموعة كتب اللقطة الثمينة.

ألف ليلة وليلة:

هذه الموسوعة الخيالية الواسعة الشهرة ـ في العالم كله ـ كانت ضمن اللقطة وقد قرأت اكثرها، ولكنني قرأتها بوصفها ـ خرافات سخيفة ـ انني بالأسف عاملت الأدب القصصي كله هذه المعاملة الجاهلة، وسوف تتضح معالم هذه القضية في الفصول التالية.

مقامات الهمذاني:

هذا الكتاب كان ضمن اللقطة الثمينة «مقامات بديع الزمان الهمذاني» ويبدو لي ان المؤلف هو مخترع هذا الفن «المقامات» التي هي قصص عربية مصوغة بنثر فني مع اضافة نظمية ـ وهي محاولات قصصية مسلية ـ وقد قلدها فيما بعد الحريري وغيره.

* كان المرحوم الشيخ ابراهيم عبدالله كليب في السنة الرابعة من المدرسة الأولية قد اختار لنا ضمن دروس الاملاء في أحد الأيام، احدى مقامات بديع الزمان.. على التحديد.. تلك المقامة التي تنتهي بالمنظومة القائلة:

أفاطم لو شهدت ببطن خبت
وقد لاقى الهزبر أخاك بشرا
إذن لرأيت ليثا لاقى ليثا

(مع تحياتي للأخ صلاح)!!

لقد طالعت ـ ما وسعني ـ في كتاب الهمذاني، ولكنني كنت قد عمقت في نفسي الضيق الشديد بالألفاظ التي تحتاج الى شرح او مراجعة قاموسية ـ بدون جدارة ـ ولذلك وضعت الهمذاني في مكانه من رف بمحل أبوالعلا!

حديث الاربعاء:

مما يدلك على معاصرة صاحب المجموعة للمطابع المصرية وجود المجلد الكبير (حديث الأربعاء) بين مجموعته.. والكتاب تأليف طه حسين، وهو في الحقيقة سلسلة مقالات نشرت في جريدة (السياسة) القاهرية في العشرينات، والجريدة كانت لسان حال حزب الأحرار الدستوريين بزعامة محمد محمود باشا.

* ان المقالات كانت عبارة عن تقييمات لأشعار شعراء جاهليين ومخضرمين واسلاميين وأمويين وعباسيين.

* قرات كثيراً في هذا الكتاب ـ في الحقيقة ان قراءتي كانت قبل أوانها ـ ولو كانت في يدي النصوص الشعرية الكاملة للشعراء الذين درسهم طه حسين في كتابه لكانت فائدتي أكبر.

* على كل حال ان تحيزي ضد دراسة الألفاظ المهجورة قد تحكم في موقفي المبكر من (حديث الأربعاء) وفي مواقفي التالية إزاء نصوص الأدب التراثي، كله وخصوصاً الجاهلي (مع تحياتي لأستاذنا عبدالله الطيب).

حديث عيسى بن هشام:

تأليف محمد المويلحي ـ أديب مصري ـ ١٨٦٨/ ١٩٣٠، والكتاب مكتوب بطريقة المقامات لكن بلغة عصرية تقريباً، ويحتوي (اذا لم تخن الذاكرة) على نقد للمجتمع المصري في عصر الكاتب. (وصف «المنجد» الكتاب بأن المؤلف جمع فيه بين أسلوب المقامات ونسق الروايات الأوروبية).. وعلى كل حال، اعتقد انني استسغت «حديث عيسى بن هشام» اكثر من (مقامات بديع الزمان الهمذاني).

نصوص شوقي وحافظ:

وكان بين المجموعة المهجورة كتاب مفيد (لي) نسيت اسمه، وهو يحتوي على نصوص من شوقي وحافظ، شعرية (و)نثرية (نعم! ونثرية) والنثرية لم تكن ذات اهمية ولكن الشعرية كان بينها قصيدة حافظ في وداع (كرومر).

ما لي لا أرى الهرمين يا مصر ميدا
وفرعون من واديك مرتحل غدا

ومن نصوص شوقي ـ قصيدة خلع السلطان عبدالحميد:

سل يلدزا ذات القصور
هل جاءها نبأ البدور
لو تستطيع اجابة
لبكتك بالدمع الغزير
عبدالحميد حساب مثلك
عند ذي الملك القدير

* وكذلك الشوقية التي مجدت مصطفى كامل:

الله اكبر كم في الفتح من عجب
يا خالد الترك جدد خالد العرب

* ولعلني كنت قد استظهرت جميع النصوص الشعرية، دون ان أخرج بالكتاب من الدكان ـ ولكن...!

كتاب متسيب:

كان يوجد بين المجموعة كتاب متسيب شاء ان يذهب معي الى بيتنا ويرفض أن يعود الى ان استولى عليه من عشرات الكتب أحد الخلان الخونة!.

* هذا الكتاب هو «شعراء السودان» الذي جمعه موظف قبطي أديب كان بالبريد السوداني هو الأستاذ سعد ميخائيل الذي توفي بالقاهرة منذ سنوات قليلة (ونجله فارس سعد، أحد الضباط الاداريين بالمطبعة الحكومية بالخرطوم، افادني انه ينوي اعادة طبعة).

* عرفت من الكتاب الشعراء فرح ود تكتوك (يا واقفاً عند أبواب السلاطين) والبنا الكبير ـ الحقيقة الأكبر، محمد عمر البنا، شاعر المهدية وصاحب قصيدة «الحرب صبر واللقاء ثبات» ـ ونجله عبدالله محمد عمر البنا والكتاب قد اشتمل على قصيدته المشهورة «يا ذا الهلال عن الدنيا او الدين» التي أثارت الشريف يوسف الهندي وجعلته يتهم الشاعر بالتعريض به وقيل انه رفع ضده قضية. وعرفت من الشعراء محمد سعيد العباسي، وعبدالله عبدالرحمن، وأحمد محمد صالح، ومدثر البوشي، والشيخ أبوالقاسم هاشم، والدكتور علي أرباب وصالح عبدالقادر، وعبدالله حسن كردي، (وهناك شاعر قبطي سوداني مذكور بالكتاب هو شفيق فهمي مينا، وكان مترجماً بالمديرية بسنجة وربما لم أذكر جميع الشعراء الذين اشتمل عليهم كتاب شعراء السودان، ومن أين كان لي أن أعرف كل هذه الأسماء في ذلك الوقت المبكر لولا ذلك الكتاب المتسيب الذي رفض الاقامة بالرف بمتجر أبوالعلا، شاء ان يقيم في صندوق شاي فارغ بقطية آل أغبش بسنجة!!

درس الانجليزية بالشارع:

كان جيراننا آل قوته الذين بدأوا إدارة فرع القسم التجاري لدائرة المهدي بسنجة، في النصف الثاني من العشرينات قد شرع شبابهم في تعلم اللغة الانجليزية، وكان يدرسهم الأخ الاستاذ بشرى عبدالرحمن المقبول.

* وفي الشارع بجوار الركن الذي كنت أبيع فيه الجاز والسجاير، جئت بكرتونة بيضاء للأخ اسماعيل ابراهيم قوته وطلبت منه ان يكتب لي الحروف الانجليزية الكبيرة ففعل، وتحت كل حرف كتبت بيدي مقابله العربي ـ مثلا (أي) يقابله (ألف) و(بي) يقابله (باء)...الخ.

* بهذه الطريقة تقريباً توصلت الى تعلم الهجاء واسترشدت فيما بعد بالمتعلمين لمعرفة فوارق الابجدية في مثل حرف (سي) و(جي) و(جيى) والازدواجية الموجودة في مثل «سي ـ و ـ كيى ـ و ـ كيو»...الخ.

* واصلت التمرن بمفردي على قراءة عناوين البضائع وإعادة كتابتها في مثل حالات السجاير والكبريت والحلويات والأقمشة ـ وظروف الخطابات...الخ.

مدرسة المراسلات:

في المرحلة التالية اتصلت بمدرسة المراسلات المصرية التي كان (وربما ما يزال) يديرها الاستاذ محمد فائق الجوهري، وحصلت على منهج ابتدائي في اللغة الانجليزية وضعني على الطريق الصحيح (وهنا أؤجل تفصيل مسيرتي مع تعليم الانجليزية الى فصل تال) ولكن:

تجربة بدنية:

أخذت من الأستاذ الجوهري تربية بدنية،، (حيث كان معهد التربية البدنية أحد اجتهاداته).. وقد أفادني هذا المنهج سنوات طويلة في المحافظة على «لياقة بدنية» من خلال

مجموعة تمرينات جمناستيكية كنت أؤديها في المنزل، وأحياناً بمخازن آل أبوالعلا أو منزلهم ثم فيما بعد بدكاني بالسوق ـ قدام الدكان في المساء ـ وصرت مشهوراً بهذه التمارين، حتى لقد راجت عني نكات متداولة.

فقوسية:

* بعد احتراق قطاطينا ١٩٣٥ رحلنا الى منطقة المعاصر.. في أحد الأيام مر (بالزقاق العم حامد الشهاوي رحمه الله، ولمحني من فوق الصريف اتمرن ـ وأحد التمارين عبارة عن رقاد على الأرض، أحياناً على ظهرك وطوراً على بطنك.. ووقف دقيقتين ولم يكلمني، ولم اقطع تمريناتي لأنه لم يجيء من الباب.

* وذهب عم حامد للسوق، وقال لأصحابه، أنتو عارفين المطر ما بيجي البلد دي من شنو؟! أغبش بعمل (فقوسية) شفتو بعيني! (يقول العوام ان بعض الشريرين من عبدة الشيطان ـ من وافدي غرب أفريقيا ـ يعملون «فقوسية»)، وفق طقوس معينة وتكون النتيجة عدم هطول المطر!!.. ولكن قبل أن أذهب الى السوق في ذلك اليوم كانت الأمطار قد انهمرت بغزارة وقد أبلغني ممثلو وكالة توزيع النكات والاشاعات بسوق سنجة بتشنيعة عم حامد الشهاوي فبحثت عنه حتى عثرت عليه وجعلته يعترف بأن فقوسيتي المزعومة لم تحبس المطر عن سنجة والحمد لله.

* احتفظ بنكات أخرى الى ان يأتي الحديث عن مجلة الرياضة البدنية.

دكاني المنزلي:

ان ماهيتي الشهرية بمحل أبوالعلا بدات بمائة قرش، والى ان تركتهم لم تزد عن جنيهين، ولكنني أنفق على الكتب والصحف ومدارس المراسلات ومعيشة الأسرة ما يقرب من عشرة جنيهات.

* فمن أين لك هذا؟

* لقد تطور دكاني المنزلي فلم يعد فقط صفيحة جاز ونملية سجاير وحلاوة بل صار لدينا (تشاشة) تحتوي على السكر واللبن والشاي أيضاً، وكنت أترك الشارع في الثامنة وفي داخل البيت كان يطرقنا زبائن في الليل أو الصباح.. ويزداد رواجنا حينما يتهطل المطر.

* وحتى في دكان أبوالعلا بالنهار كان لي زبائن في السجاير منهم عم عوض نفسه الذي يفضل السجاير المصري الشعبي ماتوسيان ـ ويستهلك منه مع ضيوفه ـ نحو مائة سيجارة في اليوم، ولا يشتري سيجارة بالجملة بل يأخذ مني صناديق العشرينات واحد بعد واحد، و«عدادي يرمي» حيث أربح في كل علبة ٦ ملاليم!!

* كان يغايرني شقيقي علي رجب أحياناً في دكان الشارع عندما تكون عندي (حصص دراسية) هامة... وكنت قد شجعت أخي على الالتحاق بالابتدائي (المدارس الوسطى كما سميت فيما بعد) ولم يجد فرصة.. وفي منافسة لتدريب معلمي الأولية وصل الى مرحلة المعاينة (انترفيو) ونال التفضيل منافسه الذي كان من جيراننا وعشرائنا.

* وعليه، فإذا نظرت الى إيرادي في تلك الأيام أجد أنه كان أحسن من إيراد موظف متوسط من طبقة نظار المدارس الأولية.



لماذا كثر اسم يونس بين مواليد التجار في العشرينات؟

مصادفة كسوف الشمس يوم وفاة الشيخ الصابونابي الكبير وكيف فسرت؟

زار أغبش (بيان) السيد الحسن أب جلابية

كنا حينما يخف ضغط العمل نلتفت الى ما يدور في حلقة (الونسة) المحيطة بمكتب عم عوض أبو العلا. في أحد الأيام ذكر أحد الموجودين زيارة السيد يونس أحمد عبدالعال (رحمه الله) لسنجة، قبل سنوات... صادف ان أحد السماسرة أخذ من محل أبو العلا ١٠ جنيهات، وبدل ان يذهب للدخولية (سوق المحصول) دخل الى البلد وبدد رأس المال ورفض مدير المحل الذي كان موجوداً اعتماد المبلغ المسدد سلفة تدفع بالتقسيط.

* انتهز السماسرة فرصة زيارة يونس فكتبوا له عريضة استرحام ولصقوا عليها ورقة بنكنوت قيمتها جنيه (بصفة دمغة) وكانت النتيجة أن الزائر نفحهم بمبلغ من المال من جيبه دفعوا منه المبلغ المبدد وتقاسموا الباقي.

من هو يونس؟

كان يونس أحمد عبدالعال أحد الشركاء في الشركة التي كانت مشهورة في العشرينات والثلاثينات (يونس أحمد (و)عبدالمنعم محمد، وشركاه) وكان آل ابوالعلا مساهمين فيها مع أقاربهم آل عبدالمنعم، والشركة المذكورة قد اقتحمت ميادين في التجارة الخارجية كانت تحتكرها الشركات الأجنبية (مثل تصدير الصمغ العربي، الذي كانت تتخصص فيه شركات معينة مثل شركة جيمس لينج وكانت انجليزية).

* واشتهر يونس كشخص بالحظ الحسن (و)البراعة في الفن التجاري (مواليد التجار في العاصمة وشرقي كردفان يكثر بينهم اسم يونس).

* توفي يونس احمد ـ ربما في أوائل الثلاثينات ـ وكان له ابن واحد اسمه عامر (تيمناً باسم الثري الأصواني ابراهيم عامر باشا) ـ صاحب الزراق أبي جبنة ـ (جبنة القهوة) وكانت للمرحوم يونس ابنة واحدة على الأقل، وكان يونس قد استوصى شريكه وصفيه عبدالمنعم محمد عبدالمنعم رحمه الله على ورثته، ولذلك استمرت الشركة باسم «يونس احمد وعبدالمنعم محمد وشركاهم» الى ان توفي الشاب عامر يونس في منتصف الثلاثينات... (في سنجة زرنا عم عوض أبو العلا معزين، فقال لنا ان البرقية التي وردت من أخيه مصطفى، نصها «اليوم مات يونس»).

* واتضح لنا معنى البرقية حينما جرى سحب ثروة يونس من الشركة لمصلحة والده الشيخ احمد عبدالعال وابنائه ـ وقاموا بتكوين مؤسسة تجارية ضموا اليها عبداللطيف ابورجيلة مديراً ـ ولم تعش هذه المؤسسة طويلاً.

* وواصل المرحوم عبدالمنعم محمد العمل ـ مع شركاء أو بدونهم ـ وقد أغدق اموالاً وفيرة على الأعمال الخيرية وعاشت مؤسسته حتى الآن تحت إدارة بعض أبناء عمومته وابناء أخته (أولاد سيد أحمد حسن عبدالمنعم).

طمع اليهود:

سمعنا من عم عوض أبوالعلا انه في تلك السنة كان بالقاهرة، وقد آلت اليه إدارة مكتبهم هناك، وكانت هناك صفقة سمسم بيعت لتاجر يهودي معين، وقد زاره المشتري بالمكتب وطلب منه تأجيل دفع القيمة لليوم التالي فقط ـ وكان بالمكتب أحد اصدقائه المقيمين بمصر، فجعل يشير عليه بيده ان يرفض التماس اليهودي، ولكن عم عوض وافق ـ تحت الالحاح ـ وذهب الخواجه راضياً وبعد دقائق أرسل اليه شيكاً بالقيمة المطلوبة مع فاتورة موضح بها خصم فايظ لمدة يوم واحد ـ حسب السعر الجاري للفوائد ـ وذلك على اعتبار ان موعد الدفع (غداً)... وشرب عم عوض المقلب!

* وكان زوارنا يوم الجمعة بينهم القاضي الشرعي والمأمور ووكيل البوسته وطبيب المستشفى وكان من السوريين ـ فالسودانيون خريجو مدرسة كتشنر لم يبدأ تخريجهم إلا في تلك الأيام من أواخر العشرينات ـ وكان بين الزوار باشكاتب المديرية وكان مصرياً مسلماً بدليل انه لم يصم رمضان وقال انه ينوي الفدية (يتضح ان الموظفين المصريين الذين أبعدوا لمصر بعد حوادث ١٩٢٤ كانوا أولاً الضباط العسكريين ـ وطبقة المأمير كانت منهم ـ ثم «ذوي النشاط السياسي» من الموظفين المدنيين... وقد لوحظ أن الأقباط المسيحيين لم يتعرضوا لعملية الابعاد، وكانت اعدادهم وفيرة في البريد والسكة الحديد والمخازن والمالية ـ الحسابات ـ).

* هذه التشكيلة من زوار يوم الجمعة كانت ترفع مستوى الونسة ـ وتنمي معلومات صديقكم أغبش.

علانيون

* كانت تقيم بكركوج قبلي سنجة بالشرق مجموعة من آل أبوالعلا أشهرهم عم الحاج محمد أبوالعلا رحمه الله ـ ولكن كان هناك «حسن أبوالعلا واخوانه» وهؤلاء بخلاف عائلة حسنين ابوالعلا التي ينتمي اليها محمد وعوض ومصطفى.

* وكان يقيم بكركوج أحمد أبوالعلا ويسمونه «الكاسح» وشقيقه ابراهيم أبـوالعلا (والد صـديقنا عبدالحميد أبوالعلا ـ رحمهم الله جميعاً).

* العجيب انه كان يوجد شيخ وقور اسمه عبدالحليم أبوالعلا من أقاربهم ـ يقيم في قرية شرقي سنجة لعلها (حلة يوسف) كان يدير بها زراعة أو تجارة بسيطة... سمعت على لسانه انهم في شبابهم بصعيد مصر (بلدة اسنا) كانـوا يتعايشـون مع الاقبـاط. وفي عيد الفصـح وشم النسيم كانـوا يلونون بيض الدجـاج ويتطاقشون به ويكسبون، وكانوا يغشونهم بنجر خشبة بشكل البيضة (تكسر ولا تنكسر).

رحلة الصيد:

* كان عم عوض ابوالعلا يذهب عصر كل يوم جمعة في رحلة صيد ـ غالباً ما يكون معه زميل، مثل المرحومين الشيخ يوسف قوي القاضي الشرعي، أو وكيل البريد مبشر عبدالرحيم (رحمهم الله جميعاً).

* كانوا يذهبون على سيارته الخاصة ـ وفي أحد الأيام ذهبت معهم لمتعتي الشخصية، فلا حاجة بهم إلي حيث معهم سائق السيارة ومساعد له... وفي العودة كان نصيبي دجاجتين (من دجاج الوادي الذي يطير).

* أحسن ما يصاد بمنطقة سنجة خلاف الغزلان والأرانب ودجاج الوادي ـ الطائر ذو الحجم الكبير المسمى (الحبارى) بفتح الراء، ولحمه لذيذ ورخص برغم كبر حجمه وليس متخشباً مثل لحم الديوك الرومية الكريهة المذاق أيضاً.

* كنت قد اعتدت في عصر الجمعة اتفسح على عجلة بسكليت استأجرها لمدة ساعة بخمسة قروش كاملة.

كسوف الشمس:

في أحد السنوات في أواخر العشرينات حدث كسوف للشمس وقد استقبلت سنجة الحدث بنقر طشوت الصفيح ـ كجاري العادة ـ وذهب البعض للمسجد لأداء صلاة مسنونة، وسمعنا من يقول ان الكسوف قد حدث لوفاة الشيخ احمد الصابونابي وقد وجدنا من رد عليه بحديث الرسول صلى الله عليه وسلم ـ حينما كسفت الشمس يوم وفاة ابنه الصغير ابراهيم، حيث قال: ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله (وما معناه: انهما لا يتغيران لموت أحد من الناس أو حياته).. (يمكن التوصل لتأريخ وفاة الشيخ الصابونابي بالرجوع في مجموعة حضارة السودان لتاريخ الكسوف في أواخر العشرينات).

* وفي يوم أخير من رمضان اتفق مستخدمو محل أبوالعلا ـ مع آخرين على جمع ريالات بصفة اشتراك برحلة على ظهر لوري يوم العيد تمر على قرية الصابونابي، ثم تذهب الى كركوج من اجل مشهد هام كان جذاباً للناس في تلك الأيام.

* في قرية الصابونابي تلنا إكراماً عظيماً بالمسجد، وأتيحت لنا مقابلة، كل منا منفرداً، مع الشيخ الصابونابي (زعيم السجادة الحالي، الذي اشتهر في الثلاثينات بتأليف أماديح للنبي صلى الله عليه وسلم بروي وألحان أغاني الحقيبة) استقبلنا في محرابه (راكوبة) وكان يجلس على سجادة على الأرض.

* سألني الشيخ عن اسمي وعائلتي وتعرف على اسم والدي الذي كان سبق موته قبل عشر سنوات ـ وقد دعا لي بخير.

* الشيخ الصابونابي هذا كان قد سافر الى الحجاز بنية «الجوار» ولكن السلطات السعودية لم تسمح له مع حاشيته بالبقاء لأنهم كانوا يمارسون طقوس طريقتهم «السمانية».

* عرفت من أصدقاء آل الصابونابي انهم قوم كرماء مهذبون وليس لديهم (شطوحات) بل قال الأخضر معتوق بسنجة ان الشيخ الصابونابي سأله زائر عن «كراماته» فقال له «نسأل الله الاستقامة التي هي خير من الف كرامة».

بيان السيد الحسن:

كانت محطتنا التالية هي مشروع المعدية المؤدية لكركوج بالبر الشرقي ـ أما البر الغربي فقد احتوى على «بيان» كان الخليفة محمد عبدالمنعم، خليفة خلفاء الختمية بكركوج ـ رحمه الله ـ قد أذاع في الناس ان السيد الحسن الميرغني (نزيل كسلا) قد أعلمه في رؤيا منامية ـ انه «تبين» على شاطىء النيل الأزرق.

* والمعنى المفهوم للبيان عندنا بالسودان ان صاحبه قد ترك قبره القديم ورقد في قبر جديد.

* تقاطر الناس بالآلاف من منطقتنا وخارجها لزيارة «البيان» وقد سمعت واحداً من الخلفاء الختمية يحلف بأنه رأى شارب السيد الحسن في البيان ولمسه بيده ـ وقد قيل له ـ هل هذا من الأدب؟

* يبدو لي ان بيانات السيد الحسن الميرغني بالذات متكررة في جهات متعددة.

شم النسيم:

وفي مرة واحدة ذهبت ضمن مستخدمي محل أبوالعلا بسنجة وأصدقائهم في رحلة يوم شم النسيم الذي قضيناه بالبر الشرقي على شاطىء النيل الأزرق وكان معنا خروف ذبحناه وشويناه ـ وتكررت لي مثل هذه الرحلة فيما بعد ـ وهي معقولة جداً بمنطقتنا التي تهطل فيها بواكير الامطار في فترة الفصح (ابريل ومايو) ولكن هنا في الخرطوم لا يكاد يوجد شم نسيم الا تحت التكييف اذا لم تنقطع الكهرباء!

رواج اللواري:

في منتصف العشرينات السنوات التالية راجت موضة اقتناء لواري النقل وكان الحصول عليها سهلاً فما عليك إلا ان تدفع مبلغاً معيناً كعربون ثم يسلمونك اللوري بالتقسيط وقد تورط في هذه الموضة كثيرون من الأهالي الغبش.

* ومع ان تكاليف البنزين والاسبيرات واللساتك لم تكن فادحة قبل سنة ١٩٤٠ فان مفاجأة انفجار لستك من شأنها أن تجنن أصحاب اللواري.

* ضرب لستك وراني من اللوري في طرف إحدى القرى.. وذهب الركاب وصاحب العربة الى فراش بكاء رأوه من بعيد ـ فهناك يقدمون لك موية الآبري او الغباشة (اللبن الرائب المجفف بالماء).. ثم يأتي طعام الفطور او الغداء او العشاء ـ قبل موعده للزائرين من بعيد.

* أراد صاحب اللوري ان يشاطر القرية في مصابها، فقال لمن كانوا قريبين منه: قلتوا المرحوم ضرب متين؟ (كانت هذه إحدى النوادر التي سمعناها في حلقة ونسة المرحوم عوض أبوالعلا).

تخصصاتي:

عاصرني تقريباً في فترة عملي بمحل أبوالعلا بسنجة الاخوان محمد خير حامد ومحمد المؤمن ومحمد العلام ـ وكانوا أعلى من مستواي الوظيفي ولذلك فإنني في فترة ما ظللت انفرد بإحضار المفاتيح من منزل عم عوض وافتح المحل وأتولى كنسه، وأعيد ترتيب البضائع ونفضها، وافتح الطرود والصناديق ويشاركني آخرون في عملية الرص، وأذهب الى البريد (ومصلحتي الخاصة انه كان لي بريد خاص، قال وكيل البوسته بشاي نخلة لعم عوض «بوصطته اد بصطتكم»!) وكنت اذهب بالتلغرافات للشباك.. وكنت أقوم بتمريك الجوالات قبل تعبئتها ـ بحبر نصفه من التفته الخضراء المضاف اليها صمغ الطلح.

* وكانت تتاح لي أحياناً فرص الذهاب الى الدخولية لتسليم محاصيل ـ وزنها بالقباني أو مراقبة الكيل في حالة الذرة ـ كذلك كنت أراقب تنظيف الصمغ بواسطة الفتيات في المخازن، وإعادة تعبئته بوزن موحد بواسطة العتالين على الميزان القباني.

ما هي الكوبيا؟

* لما أشرت الى «الكوبيا» في أحاديثي في بداية هذه السلسلة ظنوا اني أعني ذلك القلم الملبس في عيدان الخشب... والحقيقة كنت أعني الطريقة العتيقة التي كان التجار يصورون بها مستنداتهم بشرط ان تكون مكتوبة بحبر جيد ـ كان لدينا (مثلاً ككل التجار الكبار) دفتر من ورق أبيض خفيف.. وكان علينا ان نغمس خرقة قماش بحجم أوراق الدفتر في الماء، ونعصرها ثم نضع الخطاب المراد تصويره على احدى الورقات الدفترية ثم نضع الخرقة المبللة على وجهها الآخر ـ بعد ذلك نضع الدفتر كله على «الآلة» ـ وهي آلة ضاغطة يزداد ضغطها باجراء لف قلاووظي على يديها (لست أذكر اسم هذه الآلة ومثلها موجود بقسم التجليد في المطابع).

* على ذلك الدفتر قرأت نصوص عديد من الخطابات التي كتبها المرحوم عوض أبوالعلا وتعلمت منها الاصطلاحات التجارية التي كانت سائدة في تلك الأيام وعندي أن القدرة على الصياغة الوجيزة هي أساس متين للأدب وقد لاحظت أيضا قدرة عم عوض أبوالعلا على اختصار البرقيات ـ وتعلمت منه ذلك بين أشياء عديدة أخرى ـ رحمه الله وأحسن اليه.

خزان جبل أولياء:

* في حلقة سابقة أشرت الى خزان جبل أولياء ـ وقلت انه شيد في أوائل الثلاثينات ـ فقال لي الأخ الشيخ أحمد خوجلي بحلفاية الملوك ـ نقلاً عن صديق له: ان خزان جبل أولياء كان قد شرع في اشغال بنائه عام ١٩٢٠ ـ ثم اوقف ـ الى ان استؤنف في الثلاثينات (وكانت روايتي في الحقيقة تشتمل على تساؤل يجيب عنه هذا الاستيضاح) وهذا الايضاح معقول بسبب ظروف ثورة ١٩١٩ وتوتر العلاقات بين بريطانيا ومصر، ومن الواضح ان اتفاقية مياه النيل ١٩٢٩ كان لها فضل تمهيد السبيل لبناء هذا الخزان.

شعراء السودان:

* في حلقة أغبش سابقة اسم الشاعر القبطي السوداني «شفيق فهمي مينا وليس زكي و.م.
* هل كان يجوز لي ان أنسى الشيخ مجذوب جلال الدين ـ بين شعراء السودان؟ يكفي انه والد المجذوب الذي ما يرقأ دمعنا عليه.
* كذلك فقد أنسيت الشيخ الطيب السراج رحمه الله ولم ينسه سعد ميخائيل في كتابه الريادي.



أغبش حاول المعيشة على العدس

نشرت مجلة الدنيا المصورة بمصر ١٩٢٩ رسالة من أغبش احتج عليها مأمور مركز سنجة

العقلانية.. حرمت أغبش من الخيال وربطته بأدب المعري

وثمة اجتهاد ثالث من اجتهادات الأستاذ محمد فائق الجوهري المحامي صاحب معهد التربية البدنية ومدارس المراسلات المصرية (هو مجلة الرياضة البدنية) التي استفدت منها أكثر مما كان ينتظر صاحبها.. فاشتركت فيها وكان اشتراكها زهيداً.. ومن ابتكارات صاحب المجلة انه كان يبيع فائضها بالمخزن بشكل مجلدات سنوية بثمن رخيص وقد استوردت ثلاثة مجلدات، وكانت النتيجة انني استوعبت المعلومات التي كانت تلقيها لقرائها في كل اسبوع.

١ ـ نماذج التمارين البدنية، ومعلومات عن الجسم والأعضاء والتغذية والتنفس السليم، والعلاج الطبيعي، والشخصيات الرياضية البارزة في العالم مع معلومات عن الألعاب مثل كرة القدم وكرة السلة (وأصناف ألعاب الكور المختلفة) والسباحة والمصارعة والملاكمة والعدو (الجري) والألعاب العتيقة مثل رمي القرص وبالتالي الألعاب الأولمبية...الخ.

٢ ـ تلقين الحقائق الجنسية: العلاقات السوية وأنواع الشذوذ.

٣ ـ تحديد النسل: حتى لقد كرهت قراءة هذا الموضوع ذلك لأنني شبعت منها تماما قبل سنة ١٩٣٠ وعرفت الفتاوى الاسلامية (عن العزل) والمسيحية (عن الاجهاض) وقرأت كل أفكار الطبيبة الانجليزية الدكتورة ماري ستوبس التي كانت تتولى الترويج لسلعة معينة ربما كانت ذات مصلحة فيها وهي (كيس تضعه المرأة على قبة الرحم) مع نبذ الكيس الآخر الرائج المفترض أن يلبسه الرجل والمعروف باسم (الجلد الفرنساوي)... وهذه الدعاية قد انهارت طبعاً بعد اكتشاف حبوب منع الحمل.

٤ ـ العري والحمامات الشمسية: ظلت المجلة تقوم بالترويج للحمامات الشمسية.. تعرية الجسم وتعريضه لأشعة شمس الصباح... وكانت مجلة الرياضة البدنية تنشر صورة العراة وخصوصاً صور مستعمرات العري التي انتشرت في أوروبا وأمريكا.

* كان بعض الأصدقاء في سنجة يستعيرون مني المجلة، وقد وجدت بعد فترة أن تشنيعة أخرى قد انتشرت عن المسكين أغبش، بعد تلك التشنيعة المزيفة التي رويتها في فصل سابق.

* قالت التشنيعة الجديدة أن أغبش يمارس الحمام الشمسي: (يتعرى لأشعة الشمس) وهذه رواية زائفة أيضاً.. ولكن العجيب أن الأخ المرحوم مكي فزع قد أخبرني بالسوكي في سنة ١٩٣٢: أن أغبش وعمره ٤ سنوات كان يجلس عارياً خارج القطية، فقالت له حبوبته: قم يا ولد وادرع لك قميص فقال لها: سيبي أنا بأعمل حمام شمسي (بسينين حسب نطق الأطفال)... تصوروا!..

القصص الواقعي:

هذا موضوع لا يكاد يدخل في نطاق تخصصات مجلة الرياضة البدنية.. ومع ذلك ظلت المجلة تدعو الى نشر قصص حقيقية بدعوى أن الحقيقة أحياناً أمتع من الخيال. وكانت تقدم نماذج قصصية لا يستطيع القارىء أن يشك في واقعيتها، ولكن كتاب مجلة الرياضة البدنية كانوا يصوغون قصصهم بأساليب الأدباء

القصاصين.

الحقيقة أن قصصاً كثيرة من مختلف العصور يصح القول انها غير بعيدة عن الواقع...

ان القصص الطويلة التي قرأتها ليست عديدة ولكن يصح القول أنني قرأت مئات القصص القصيرة وعليه أقول أن قصص انطون تشيكوف (الروسي قبل البلشفية) وهي قصص اجتماعية في الغالب ـ وقصص جي دي موباسان الفرنسي وهي غرامية رقيقة ـ كلها يمكن تصور حدوثها الواقعي.

وحتى قصص احسان عبدالقدوس (التي أقرأها وحتى الآن أفعل ـ وشرطي عدم تجميعها في كتب بل تنجيمها في الصحف) كلها يدعو الى تجويز وقوعها الحقيقي، وأضرب المثل بالقصة التي عنونها إحسان (كلنا لصوص).

العقلانية:

إذن فإنني رفضت القصص الخيالية الخرافية مثل الف ليلة وليلة، والقصص الأوروبية السالكة لنفس السبيل مثل (أليس في بلاد العجائب) وقصص الحيوانات، والقصص الرمزية الأخرى (حتى بعض قصص نجيب محفوظ في السنوات الأخيرة.. أكرر انني أقرأ القصص المنجمة إذ اعجبتني ومن هذا الكاتب اعجبتني (المرايا) قبل سنوات كما اعجبني نموذج قصته (الجهاز السري) أو ما يشبه ذلك منذ شهور قليلة.

* أريد أن أقول ان نزعة (العقلانية) قد طغت مبكرة على تفكيري.

فلسفة المعري:

قرأت كتاب الدكتور طه حسين (ذكرى أبي العلاء) في وقت مبكر... وأحببت (رهين المحبسين) الى درجة أنني حاولت بالفعل أن أعيش معيشة نباتية ـ وقد جربتها لمدة ثلاثة أيام فقط ـ ثم تخليت عنها، فقد شربت الشاي بدون لبن، وأكلت الفول بالزيت وليس السمن، وتغديت بالسلطة، وتعشيت بالعدس وتجنبت الجبن مع الحلف للأسرة بأنني مريض، وبعد ذلك اقتنعت بأنني أفقد مؤهلات الأعمى العبقري، ليس فقط في مواهبه الفكرية بل حتى في استقلاله الذاتي.

وقبل أن أصحح قواعد (الايمان بالغيب) وجميع المسلمات المنزلة في عقيدتي كنت قد تورطت في حفظ نماذج من شعر المعري ـ وهي نماذج عقلانية لا شك فيها:

قلتم لنا صانع قديم
قلنا صدقتم كذا نقول
وزعمتموه بلا مكان ولا
زمان، الا فقولوا:
هذا كلام له خبيء
معناه ليست لنا عقول.

و

فلا تأكلن ما أخرج الماء ظالما
ولا تبغ قوتاً من غريض الذبائح
ولا تفجعن الطير وهي غوافل

بما وضعت فالظلم شر القبائح
ودع ضرب النحل الذي بكرت له
كواسب من أزهار نبت فوائح
فما أحرزته كي يكون لغيرها
ولا جمعته للندى والمنائح
سحبت يدي من كل هذا وليتني
أبهت لشأني قبل شيب المسائح

و

تسريح كفك برغوثاً ظفرت به
أبر من درهم تعطيه محتاجاً
كلاهما يتقي، والحياة له
عزيزة، ويمني النفس مهتاجاً

و

يا رب أخرجني الى دار الرضا
عجلاً فهذا عالم منكوس
ظلوا كدائرة تحول بعضها
من بعضها، فجميعها معكوس
وأرى ملوكاً لا تحوط رعية
فعلام تؤخذ جزية ومكوس

و

مل المقام فكم أعاشر أمة
أمرت بغير صلاحها امراؤها
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها
وعدوا مصالحها وهم أجراؤها

و

يسود الناس زيد ثم عمرو
كذا تقلب الدولات دولة
ورب شهادة وردت بزور
أقام لنصها القاضي عدوله
ومن الشر البرية رب ملك
يريد رعية أن يسجدوا له

لم أرض رأي ولاة لقبوا
ملكا بمقتدر وآخر قاهرا
هذي صفات الله جل جلاله
فالحق بمن هجر الغواة مظاهرا
كم قائم بعظاته متفقهٍ
في الدين يوجد ـ حين يكشف ـ عاهرا

إشارتي الى الإيمان بالغيب.. تحتاج الى وصف مطول ـ وهي تنصب في هذا السياق على الأبيات المتعلقة بالصانع القديم ـ والموضوع، وسوف ترد تفاصيله في مواضعها الزمانية والمكانية ـ ويجب أن أسارع فأوضح أن أبيات المعري الاجتماعية والسياسية (أعلاه وغيرها) لن تنفك تحتفظ بقيمتها.

رسالة الغفران:

قرأت في وقت مبكر رسالة الغفران للمعري بشرح الأديب المصري الشيخ الراحل كامل كيلاني في العشرينات وقد استفدت من تراجم الشارح لحيوات الشعراء والمفكرين الذين وزعهم أبوالعلاء المعري بين الجنة والنار (ومن أين كان لي أن أعرف في ذلك الوقت زمرة أئمة الزنادقة مثل ابن الراوندي؟).

ولم اقتن ديوان المعري (اللزوميات) ولا ديوانه الآخر (سقط الزند) ولا كتابه النثري (الفصول والغايات) الذي كرهته بسبب شبهة تقليد القرآن الكريم ـ برغم قصوره.

والحقيقة قد ظللت أحب المعري ولكن عدم تفرغي لدراسة أدبه دراسة كاملة هو حواجزه اللغوية.. أكرر القول، انني ظللت أرفض حشو دماغي بألفاظ مهجورة من اللغة، ولعل موقفي اللغوي كان جاهلاً وخاطئا ـ مثل موقفي إزاء الخيال القصصي.

هذه المواقف لن أصبها كلها في فصل واحد ـ فهذا الكتاب مكتوب في الأساس للأهالي الغبش.

المنطق:

العقلانية ساقتني الى تلمس مبادىء المنطق وهذه مسألة سوف تتكرر فيما بعد.

المعاجم العربية:

كنت قد رأيت قاموس مختار الصحاح بالمدرسة الأولية. ولكنني لما طلبته وصلتني طبعة تقليدية على قاعدة المعاجم العربية القديمة: (ترتيب الألفاظ باعتبار الحرف الأخير من (الفعل) هو الأساس والحرف الأول هو (الفرع) ثم سعيت الى أن عرفت ان طبعة وزارة المعارف المصرية من مختار الصحاح قد أعيد ترتيبها على أساس حروف الكلمة ابتداء من حرفها الأول.

مادة د ك ن:

العجيب أنني كنت أقف في حلقة مع الأخ المهندس عثمان الحويرص ١٩٢٨ وكان طالبا فسمعته يقول لمحدثه انك إذا أردت استخراج كلمة (دكان) من المعجم يلزمك أن تبحث عنها في مادة (دكن) وهذه الفكرة

كانت غائبة عن أغبش على الرغم من علمه ان مختار الصحاح الذي في حوزته موضح في مقدمته أنه قاصر على (الافعال الثلاثية).

واقتنيت أيضاً معجم (المصباح المنير) - أذكر القراء أنني في تلك السنوات المبكرة قد حرمت على نفسي اقتناء أي كتاب يزيد ثمنه على ٢٥ قرشاً.

وفي السنوات التالية لما انكسرت القاعدة المالية وحصلت على (القاموس المحيط) تأليف الفيروز أبادي - أربعة مجلدات - لم استفد بدرجة كافية من معاجم اللغة العربية، والسبب هو اضطرارك لقراءة كلام كثير قبل أن تعثر على كلمة بسيطة.

لذلك اكتفيت في فهم الكلمات العادية على (سليقتي) الموروثة ومعيشتي في بيئتي التي هي عربية لا شك فيها... كذلك فإن السياق كثيراً ما يفيدك... وفي حالة الشعر والنصوص الأخرى تفيدك الشروح... (وقد افادني قاموس المنجد تأليف لويس شيخو اليسوعي). الذي اعتمد عليه منذ أواخر الثلاثينات وسوف أتحدث عنه فيما بعد إن شاء الله.

العجيب: ان القواميس الانجليزية لها فضل في تقوية لغتي العربية، وهذا أمر سوف أشرحه في مكانه بعد وقت قصير إن شاء الله.

التعامل مع المكتبات:

ظللت أطلب الكتب من مكتبة محمود علي صبيح وأولاده بميدان الأزهر بالقاهرة وكانت عادتي أن أرسل لهم إذن بريد بمبلغ ٥٠ قرشاً بصفة عربون مع أسماء الكتب التي أريدها - وفي خلال ثلاثة أسابيع يصلني بالبريد طرد (محول عليه) بباقي القيمة، ويحتوي على الكتب التي طلبتها.

طلبت منهم أربع طلبات خلال سنتين لعل قيمتها كلها لم تتجاوز ١٢ جنيهاً - ولكنهم في الطلبية الأخيرة (صهينوا) ولاحقتهم بثلاثة خطابات فلم يردوا، فأرسلت خطابي الأخير الى جهة أخرى بالقاهرة.

يا شيخ عبد المنطلول:

في أحد الأيام جاء مأمور مركز سنجة المرحوم حسن أحمد خليفة - وهو من نفس الأسرة ذات الزعامة على قبيلة العبابدة ببربر، والتي كان عميدها في آخر الحكم التركي (باشا) - وكان مديراً للمديرية.

كان المأمور كعادته ينادي بطول حلقومه وهو رجل ضخم وجهير، وهو على ظهر جواده (يا شيخ عبدالمنطلول) وكان يقصد شيخ السوق عمنا الشيخ عبدالمطلب منصور (رحمه الله) فجاء يهرول، ووصل المأمور الى محل أبو العلا فصرخ في عم عوض: الود بتاعكم دا المسمى فلان مش جايبها على البر...!!

ثم أخرج المأمور من طيات سرج الحصان مجلة الدنيا المصورة، التي كانت تصدر عن دار الهلال بمصر - وشكل المجلة مثل شكل مجلة آخر ساعة الحالية.

وسارعت (وأنا أضحك في كمي) فقدمت له كرسياً فجلس وجعل يقرأ وهو يلهث:

(شكوى من السودان بشأن إحدى المكتبات المصرية...

جاءنا بإمضاء عبدالله رجب من سنجة بالسودان ما يلي:

محرر مجلة الدنيا المصورة...

بتاريخ ١٥ مارس ١٩٢٩ أرسلت إذن بريد رقم... بمبلغ ٥٠ قرشا الى مكتبة محمود علي صبيح وأولاده بشارع الصنادقية بميدان الأزهر بالقاهرة. مع كشف بأسماء كتب وكان المبلغ المرسل بصفة عربون وطلبت منهم مطالبتي بباقي القيمة تحت نظام الطرود المحول عليها بالبريد - وطلبي هذا هو الرابع فقد سبق تعاملهم

معي بدون خلل ـ ولما لم يصلني الطرد بعد شهر كتبت لهم. فلم يردوا، و[illegible]هم بعد أربعين يوماً ولا حياة لمن تنادي ـ ثم بعد شهرين وبلغ السيل الزبى (استعرت هذا المثل من كتب الأد[illegible]) استنجد بكم فقد لاحظت ان مجلتكم في هذا [illegible] تغث الملهوفين وتنصر المظلومين (احم احم)!!!.

(تعليق): أرسلت المجلة مندوبها الى مدير المكتبة فقال ان كشف الزبون قد ضاع وسط الأوراق ووجدوه أمس وجمعوا له الكتب وسوف يرسلونها له غداً.

وصرخ عم المأمور مرة أخرى... كيف يتجرأ الود الجربوع دا ويكتب هذا الكلام السياسي ويرسله كمان لمصر..؟

من فضلك ـ وهو يخاطب عم عوض أبوالعلا تنذر هذا الولد بالطرد من العمل إذا استمر في اللعب بالنار (وضحك عم عوض وقال له ـ حاضر) وفي الحقيقة لم يسألني عم عوض أبوالعلا عن هذه القضية ـ وقد وصل الطرد فعلاً وراه.

الكتب المدرسية:

لاحظت في مجلات دار الهلال اعلانات عن (الكتب المدرسية) بمكتبة الهلال لأصحابها (ابراهيم زيدان وأولاده) بشارع الفجالة، ميدان باب الحديد بالقاهرة، وقد طلبت منهم قائمة مكتبتهم فوصلت.

طلبت من مكتبة الهلال بنفس طريقة تعاملي مع المكتبة الصبيحية سابقا، تقريبا جميع الكتب المقررة للمدارس (الابتدائية).

كتب المطالعة الانجليزية اجيبشيان ريدرز وكتب القرامر ـ وقواميس الياس انطوان الياس الصغرى (قاموس الجيب والقاموس المدرسي).

وكتب الحساب والهندسة والتاريخ والجغرافيا ـ وأهم من ذلك النحو العربي ـ وكتب مطالعة عربية ومحفوظات أدبية ـ وكتب ديانة اسلامية.

طلبت كتاب التربية الوطنية (والذي كان مقرراً).

طرائف:

تقريباً درست كل هذه الكتب بدون صعوبات، فهي لم تبعد كثيراً عن مستواي.

من كتاب الهندسة اكتفيت بدراسة الدائرة والزوايا (القائمة والحادة والمنفرجة وكيفية قياسها بالمنقلة) ودرست المثلثات، وبسائط أخرى مثل الخط المستقيم (وكما هو واضح، فإنني لم أكن قد رأيت من قبل أدوات الهندسة، ولما تردد ذكرها جمعت أسماءها (البرجل والمنقلة والزاوية والمثلث...الخ) وطلبتها من مكتبة الهلال بالفجالة ـ فهي لم تكن توجد في سوق سنجة بسبب عدم الحاجة اليها. لعدم وجود مدارس أعلى من الأولية).

التاريخ: لم يعجبني تاريخ الفراعين لأسباب دينية (ما زلت أنفر من الكلام الكثير عنهم مع أنني كنت أحب سلامة موسى والدكتور التيجاني الماحي ـ رحمهما الله ـ وأحب الأستاذة نعمات أحمد فؤاد ـ وأنيس منصور):

أحب كل ما كتبه هؤلاء مع استبعاد فرعونياتهم! حيث أن (التربية الوطنية) كما في الكتاب الذي وصلني هي وصف للأجهزة الحكومية والدستورية في مصر ـ فإنني توسعت في دراسة أنظمة الحكم على نطاق العالم ـ مع تجميع المعلومات عن كل قطر (وهذه عملية لم تنقض في فترة قصيرة بل هي في الحقيقة ما زالت مستمرة). وبالطبع فإن هذه الدراسة كانت متمشية مع دراسات التاريخ والجغرافيا بل والفلسفة والاقتصاد ليس في قفزة واحدة بل في مسيرة طويلة مثل مسيرة ماوتسي تونغ لعشرات السنين!!

وفي قائمة المكتبة قرأت اسم كتاب معروض للبيع هو منهج وزارة المعارف للتعليم الثانوي (يتجدد كل سنة) وقد طلبته، ولكن محاولة دراستي الثانوية سوف تأتي فيما بعد.

أما النحو فقد حصلت على مجموعتي (الأولى) الدروس النحوية للمدارس الابتدائية في أربعة أجزاء تأليف أستاذ جيله حفني ناصف وآخرين منهم الشيخ حمزة فتح الله (الذي سترد اشارة خاصة به فيما بعد).

درست باتقان الأجزاء الثلاثة الأولى وأهملت الرابع وا أسفاه مع انه يحتوي على مبادىء (الصرف) الذي ما أزال افتقر اليه.. (أما المجموعة الثانية) فهي أحدث وأقل دسامة ومع ذلك فقد استفدت منها (مؤلفها أستاذ قبطي) العجيب أنني لم أعرف (أن المضمرة) الا من هذا المؤلف وهي تنصب المضارع بدون حرف (أن) في مثل الحديث النبوي (نحن قوم لا نأكل حتى نجوع) فكلمة (حتى) هنا تمثل أن (مضمرة) وبالتالي فان كلمة (نجوع) منصوبة.

وكنت بالطبع احتاج الى تطبيق النحو بالاعراب وبالقراءة السليمة (وتقريبا) بالفطرة اهتديت لمتابعة الشكل (الحركات والسكنات) في القرآن ونصوص الشعر والنثر في الكتب القديمة... وكذلك في كتاب (قادة الفكر) لطه حسين وقد طبعوه مشكولاً لسبب ما (ومزيته انه يحتوي على الكلمات الأجنبية الأغريقية الأصل، وهذه أيضا يلزمك أن تعرف كيف تعاملها بموجب النحو العربي... وفيما بعد اطلعت على مقالة بمجلة الرسالة في الثلاثينات ينصح فيها الأديب ابراهيم عبدالقادر المازني القراء بالتدر ب على تطبيق النحو من خلال قراءة النصوص المشكولة، ثم القفز منها لقراءة الصحف العادية ـ وكأنها مشكولة، وبدون وقوف على السكون ـ وهكذا ظللت أفعل طوال خمسين سنة حتى ليلاحظ الآخرون (أن قراءتي بطيئة) واضطر زملائي في التلاوة المشتركة للقرآن أن ينبهوني الى أن الوقوف مستحب أن يكون (على السكون) في مواضعه.

الانشاء:

وعدت الى محاولات التدرّ ب الفردي على الانشاء وأشار كتاب (جواهر الأدب) الى (حل الشعر) بمعنى أن نختار مقطوعات شعرية ونحاول التعبير عن فكرة كل منها بالنثر، وقد مارست هذه التجربة فعلاً، ولكنني وجدت ان من الاجرام أن أتناول نصوصا جميلة وأحولها الى خرمجة ركيكة ـ فتركت ذلك ـ ولكنني وجدت بديلاً في قراءة مقالات من الكتب أو الصحف (ثم) محاولة إعادة كتابتها من الذاكرة على قدر الامكان ووجدت هذه الطريقة ممتعة ومجزية.

حفظ الشعر:

أظنني حفظت جميع نصوص شعر كتاب جواهر الأدب قبل سنة ١٩٣٠ والآن نسيتها كلها ـ والشعراء كان منهم السموأل بن عاديا (يهودي متعرب) وعنترة والامام علي بن أبي طالب وصفي الدين الحلي والامام الشافعي.

وكان من مقتنياتي ديوان الحماسة لأبي تمام وهو مختارات شعرية حفظت بعضها حتى النصوص الجاهلية كانت سائغة عندي.

ومن المعلقات قرأت معلقات زهير بن أبي سلمى ـ وعمرو بن كلثوم وعنترة (وتجنبت المعلقات الأخرى لحواجزها اللغوية).

تصورت إذ ذاك لو دخلت في متاهة دراسة الألفاظ المهجورة فان مستقبلي الأدبي يكون محصوراً بعيداً عن الأهالي الغبش ـ مثل الشيخ الطيب السراج بالسودان والشيخ حمزة فتح الله بمصر (رحمهما الله).. مع تحياتي لأستاذنا الدكتور عبدالله الطيب رد الله غربته.

حلٌّ وارتحالُ

شعر: المثقّب العبدي

فألقيتُ الزِّمامَ لها فنامتْ
لعادتِها من السَّدفِ المُبينِ
كأنَّ مُناخَها مُلقَى لجامٍ
على مَعْزائِها وعلى الوَجينِ
كأنَّ الكُورَ والأنْساعَ مِنْها
على قَرْواءَ ماهِرةٍ دَهينِ
يَشقُّ الماءُ جُؤجُؤَها ويَعْلو
غواربَ كلِّ ذي حَدَبٍ بَطِينِ
غَدَتْ قَوْداءُ مُنْشَقًّا نَسَاها
تَجاسَرُ بالنُّخاعِ .وبالوَتِينِ
تَقولُ اذا دَرأْتُ لها وَضِيني:
أهذا دِينُهُ أبدًا ودِيني؟
أكُلَّ الدَّهْرِ حَلٌّ وارْتِحالٌ؟
أما يُبْقي عليَّ وما يَقِيني
فأبْقَى باطِلِي والجدُّ مِنْها
كَدُكَّانِ الدَّرابِنَةِ المَطِينِ
ثَنَيْتُ زِمامَها، ووَضَعْتُ رَحْلي
ونُمْرُقَةً رَفدتُ بِها يَميني

البحث عن بيت شعر

إقرا حرفا واهمل ما بعده تحصل على صدر البيت المأخوذ من القصيدة المنشورة اعلاه والباقي من الحروف المهملة هو عجزه.

إ ت ذ ا ا و م ه ا ق هـ م ة ت ا ا ل
ز ر ح ج ل ل هـ ا ا ل ب ح ل ز ي ي ل ل ن

١ ـ البيت موضوع الامتحان هو:

إذا ما قمت أرحلها بزملٍ تأوه آهة الرجل الحزين

أما الكلمات التي كان يلزمني أن أحشد لها المعاجم فهي: السدف. المعزاء. الوجين. الكور. الانساع. قرواء. دهين. جؤجؤ. قوداء. نساها (بفتح النون) ـ الوضين. الدرابنة. المطين. (وفي النفس أشياء حتى من كلمات مألوفة مثل الدكان).

مع ذلك ليتني تدربت على فهم هذا الشعر وعلى الغناء في دراسته ـ فهذه المقطوعة بالذات تدل على نبل فالشاعر يعطف على ناقته كأنها أخته.

مقطوعة الشاعر المثقب العبدي نقلناها عن جريدة الشرق الاوسط ١٩٨٤/٥/٢٨.

آراء أغبش عن بعض الأدباء والمفكرين

عاصر أغبش عشرين من المعارك الفكرية ربع قرن ١٩٢٧-١٩٥٢

على الرغم من أنني لم أحصل بعد على (رتبة) أديب من (الرهبانيات) المختصة بالديار السودانية ـ فإنني قد ظللت طوال ٥٥ عاماً أزعم لنفسي ـ ولقلة من الناس ـ (أنا الأديب الأدباني).

كما كانت تفعل طائفة (الأدباتية) المصريين في مقاهي القاهرة والاسكندرية منذ أيام ذلك الأدباني الثائر، خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر ـ فترة الثورة العرابية وما تلاها.

* وصفة الأدباني سمحت لي بالتمتع بالشاي والكيك ـ حيث ظلت الدعوات تصلني لكل (حفلة شاي) وأذهب مستعداً بخطبتي مكتوبة مشتملة على الأسف لوداع سيادة أستاذنا المنقول الذي كان محل الاعجاب منذ أن حل (بين ظهرانينا) وأستعير له بيت المتنبي:

سر حل حيث تحله النوار

وأراد فيك مرادك المقدار

* وطبعاً ما كان يمكنني أن أنسى (خير خلف لخير سلف) من تقديم بواكير الترحيب ـ والمودة له وتمنيات حسن الاقامة وطيب العيش والسعادة (بين ظهرانينا!).

ليس كل أدبنا في العشرينات وما تلاها من التراث فقط أو مستورداً من مصر فقط وقد سلفت لمذكرات أغبش أن اشارت الى طبقات ود ضيف الله (و)راتب المهدي (و)منشوراته (والى) أدب الأغاني (و)شعراء السودان (و)الأدب الصوفي والأماديح جزئياً (حديثي هنا عن العشرينات).

* واذا كنا في مرحلة تالية ستتاح لنا مراجعة صحافة بداية القرن (جريدة السودان ١٩٠٣) وجريدة (رائد السودان) قبل ١٩١٦ ـ فان الحضارة (حضارة السودان) التي ظهرت ١٩١٩ قرأتها بنفسي في أواخر العشرينات (ثم) الى أن قبرت في الثلاثينات، وهي جريدة سياسية واخبارية وأدبية (أظنها كانت تصف نفسها بهذا الوصف).

وقد يتضح أن الأدباء المبكرين الممثلين في (شعراء السودان وغيرهم...) قد ظهروا على صفحات (الحضارة) بشكل أو بآخر... ومحرروها أنفسهم كانوا أدباء، بالمكان الأول المرحومون حسين الخليفة شريف ـ وأحمد عثمان القاضي وعبدالرحمن أحمد ثم المحرر المناوب أطال الله عمره الأستاذ عبدالفتاح المغربي، عضو أول مجلس سيادة للسودان ١٩٥٦، من كبار رجال التربية، ومن أوائل المبعوثين للخارج ـ وأدبه كان وما زال يشمل اللغتين العربية والانجليزية ـ وأول سوداني تجاسر فتزوج من امرأة انجليزية ـ وهو صاحب فكرة (ملجأ القرش) للأيتام بأمدرمان، عبر عن تلك الفكرة على صفحات الحضارة ـ وهذه المؤسسة صارت معهداً فنياً يعتد به.

مقالة كراع الأفندي:

* لم أعاصر حسين شريف، ولكنني أذكر مقالة عنوانها (كراع الأفندي) كتبها المرحوم الشيخ أحمد عثمان القاضي على صفحات الحضارة ـ وكانت المقالة تحتل جزءاً كبيراً من الصفحة الأولى والبقية بالصفحات الأخرى (مثل مقالات المرحوم حسن محجوب مصطفى محرر جريدة الأمة في أواخر الأربعينات وأوائل

الخمسينات).. ذكرت مقالة (كراع الافندي) للأخ المرحوم ـ محمد أحمد محجوب بالقضارف ١٩٤٤ فقال (انها قطعة ادبية رائعة)..

* كان الشيخ أحمد عثمان القاضي يمتطي الترام من الخرطوم الى أمدرمان وقد تضايق من كراع أحد الافندية الذي لم يكن مهذباً ـ ولا أذكر التفاصيل جيداً، ولعل الأفندي كان قد واجه وجه الشيخ بحذاء قماش متسخ.

حمزة الملك طنبل:

طنبل بالنون ـ وليس بالميم ـ فهو هكذا كان يكتبها صاحبها ـ وارث كرسي ملك الضناقلة وكان صديقاً لجريدة (الصراحة) في الخمسينات والستينات (رحمه الله).

* لست أذكر كيفية حصولي على أحد كتب حمزة الملك طنبل قبل سنة ١٩٢٠ والكتاب كان يحتوي على نصوص شعرية (لطنبل) ومراجعات نثرية ومناقشات ومجادلات مع أدباء سودانيين (ويبدو لي أن تلك النصوص كلها قد سلف نشرها في جريدة الحضارة، ومناقشات خصومه يبدو أنها كانت منشورة أيضاً بنفس الجريدة).

* المناقشة كانت تتعلق بالتجديد في الأدب وكان حمزة الملك طنبل يرفع راية التجديد في العشرينات (أنا بالطبع غير مؤهل بمستواي إذ ذاك في مناقشة الموضوع ـ وسوف أعود له في فصولي التي تتعلق بالأربعينات).

* من قصائد طنبل التجديدية في العشرينات واحدة كان عنوانها (شيخوخة شجرة).

معركة مستمرة:

لا شك ان العراك بين التقليد والتجديد كان مستعراً، ليس في السودان فقط، بل بمصر وبالأقطار الأخرى ـ وحتى في هذه الأيام نجد نفس القضية مثارة، حتى وان تغيرت الأسماء: التراث والمعاصرة، الأصالة والحداثة...الخ.

ما هي الرومانسية:

ما هي الرومانسية؟ وما هي الكلاسيكية؟ ـ هذه أشياء كانت تشغل الأدباء قبل الحرب العالمية الثانية ١٩٤٥/٣٩ (وسنعود للقضية في ترتيبها الزمني).

* واستجد تساؤل عن (الواقعية) ـ ليس كما اعتنقها أغبش، ووصف بها قصص قضايا المحاكم (وما أشبه على صفحات مجلة الرياضة البدنية المصرية قبل ١٩٣٠) بل وصف بها القصص القصيرة التي قرأها لأدباء عالميين مثل انطون تشيكوف (و)جي دي موباسان، وقصص (بعض قصص) الأديبين، إحسان عبدالقدوس ونجيب محفوظ.

* الواقعية ـ موضع التساؤل في الأربعينات هي (الواقعية الاشتراكية) كما عرفناها في أدب الأديب الروسي ماكسيم جوركي (وأضرابه).

معارك مصرية:

ونحن بالطبع كنا نحس بالمعارك الفكرية المصرية، ومن نماذجها قبل واثناء العشرينات والثلاثينات.

* قضية تحرير المرأة وقد تزعمها قاسم أمين (١٨٦٥ـ١٩١٨) وهو أزهري من تلاميذ محمد عبده (و) جمال الدين الأفغاني.. القضية ظلت مُثارة بالصحف ووصلتنا حتى هنا في السودان (كما نجدها في أغنيات خليل فرح، مثل (يا الكبرتوك) وغيرها، وقد اقتنيت كتابي قاسم أمين تحرير المرأة (و)المرأة الجديدة، في أوائل

الثلاثينات، والقضية تتفرع الى قضايا السفور والتعليم والاختلاط والعمل...الخ.

* معممون ومطربشون... هذه قضية بين المشايخ (و)الأفندية ـ بين التعليم الديني التقليدي ـ والنظام الأوروبي المستورد في التعليم والفكر (والشاهد لنصف قرن يرى تقارباً ـ وأحياناً اندماجاً) آخر الصيحات لا بد أن تأتي حينما نصل الى رصد أحوال أيامنا الراهنة (الطربوش في مصر حتى ثورة يوليو ١٩٥٢ كان غطاء الرأس الشائع وخصوصاً لدى المتعلمين والموظفين).

* انجلوفون (و)فرانكوفون، صراع بين المتعلمين الذين يتخذون اللغة الانجليزية كنافذة للاطلاع و(خصومهم) دارسي الفرنسية... اتخذ الصراع مراقيه العليا في موقف العقاد واصدقائه ابراهيم المازني، والشاعر عبدالرحمن شكري والأديب السوداني المختضر في شبابه معاوية نور و(فكريا) يعد منهم سلامة موسى.. (من ناحية) وطه حسين ورصفاؤه مثل توفيق الحكيم وزكي مبارك واحمد الصاوي محمد (الذي كان يسمي باريس (وطنه الفكري)...). ومن الأشياء العجيبة عن هذا الأديب حينما كان يحرر نفس الباب (ما قل ودل) إذ ذاك في الأهرام والآن بجريدة الأخبار.. كتب يوماً يطالب المسلمين بتطوير كيفية أداء الصلاة بحيث يجلسون على الكراسي، مثل رواد الكنائس، وان لا يدخلوا الى المساجد حفاة! ـ (ان باب الصاوي الآن عبارة عن نبذة دينية يكتبها قراؤه!)...

* وقد نتحدث عن (مدرسة الديوان) التي كان يتزعمها العقاد ـ في عالم الأدب في مصر فيما بعد.

* عاصرنا معركة كتاب (الاسلام وأصول الحكم) الذي ألفه الشيخ علي عبدالرازق (شقيق مصطفى عبدالرازق، الذي كان قاضي قضاة شرعيين بالسودان) ـ الأمر الذي قربه من (قصر الدبارة) ـ وهذا ما يفسر ما قيل من أن الكتاب كان خطة انجليزية لمنع الملك فؤاد من ادعاء الخلافة الاسلامية بعد إلغاء مصطفى كمال لهذه المؤسسة في تركيا، وبالطبع كان من شأن تحويل القاهرة الى عاصمة للخلافة أن تجد دعماً ضد الاحتلال البريطاني من العالم الاسلامي كله حتى من الهند التي كانت امبراطورية بريطانية.

* وعاصرنا معركة (الشعر الجاهلي) وهو كتاب ألفه طه حسين وقيل انه زعم فيه ان شعر الجاهلية كان كله منحولاً (بل) انه جعل قصة سيدنا ابراهيم (وبالتالي اسماعيل وهاجر والكعبة...الخ) اسطورة عربية غير مؤسسة برغم نصوص القرآن والحديث...

وقد حوسب من الأزهر ـ وخاض قضية في المحاكم ـ وتراجع عن تلك الدعاوى، وقد صودر كتابه بشكله الأول ثم عدله ونشره باسم جديد (لعله في الأدب الجاهلي) وقد اقتنيته في أوائل الثلاثينات ولم أقرأه (الأديب التقليدي المتمكن محمد محمود شاكر يتهم طه حسين بأنه في القضية موضوع هذه الفقرة قد اختلس أفكار المستعرب البريطاني مارقوليوث دون أن يشير اليه، وتذهب الشبهة الى درجة اتهام طه حسين بالتواطؤ مع آله بتوجيه فكر صليبي وصهيوني (وهذه قضية الخمسينات وقد نعود اليها).

* كلمة (العروبة) عريقة ولكنها استجدت بترويج احمد زكي باشا في العشرينات والثلاثينات، ولكن الأيدلوجية البعثية والناصرية المشتركة كانت قد اختارت في الخمسينات تعبير (القومية العربية).

* اختار عبدالله رجب عام ١٩٧٠ كلمة (عروبيين) بدل (القوميين العرب) ـ وقد راج ـ هذا التعبير جزئياً في الأقطار الأخرى.

عثمانيون واستقلاليون:

الحزب الوطني المصري ـ حزب مصطفى كامل باشا ومحمد بك فريد ـ كان حزباً (عثمانياً) ظل يتمسك بالجامعة الاسلامية، وبالتالي السيادة العثمانية (التبعية للسلطنة التركية) وذلك كسلاح ضد الاحتلال البريطاني لمصر سنة ١٨٨٢.

* الحزب المذكور كان يعتبر الحركة العرابية خيانة.. وعلى كل حال نحن نجد أن مؤيدي عرابي بعد هزيمة تمردهم العسكري ١٨٨٢،على يد الغزاة البريطانيين، صاروا ينادون بشعار مصر للمصريين.. فإن السيادة العثمانية لم تفلح لا بالدبلوماسية ولا بالحرب في انتزاع مصر من الاحتلال البريطاني.

* الامام محمد عبده ـ خليل جمال الدين الأفغاني ـ وقد توفي الأول سنة ١٩٠٥، كان أستاذ جماعة مصر للمصريين بمن فيهم أحمد لطفي السيد باشا (و)سعد زغلول باشا (وسترد معلومات عن الأخير في الفصل التالي).

* ماتت الدعوة العثمانية (الحزب الوطني) موتاً طبيعياً بعد إلغاء الخلافة على يدي مصطفى كمال (١٩٢٤) وفي الحقيقة ان الحزب الوطني قد ظل خلال ثورة ١٩١٩ ومفاوضات باشوات أحزاب الوفد وخصومه، يمثل التطرف ـ مثلاً ـ:

(أ) المطالبة بالسودان وملحقاته مصوع (أريتريا) وهرر (الأقادين الصومالية المضمومة للحبشة) وزيلع (و)بربرة (الصومالات) وكانت أعلام الخديوي اسماعيل قد ارتفعت في الثلث الأخير من القرن الماضي على هذه العواصم الأفريقية الشرقية كجزء من سوداننا!!

(ب) و(ج) لا مفاوضات (مع بريطانيا) إلا بعد الجلاء ولا اشتراك في الحكم ما دام الاحتلال البريطاني موجوداً...(إلخ) ـ وهذا التطرف الذي شهدنا آخر المتحمسين من دعاته ـ عبدالحميد سعيد ـ في العشرينات والثلاثينات قد تخلى عنه آخر رئيس للحزب الوطني حافظ رمضان باشا الذي حالف أحزاب المعتدلين المعادين للوفد واشترك معهم في الحكم (أذكر القراء أن المرحوم فكري أباظه (و)المحامي الشيخ الموجود فتحي رضوان كانا ينتميان للحزب الوطني).

أتراك وفلاحون:

الطبقة الحاكمة في مصر كانت تتكبر على الفلاح المصري، وتتباهى بالإنتماء التركي (حتى بمجرد الانتحال) ويتملقون بعضهم بكلمات يا باشا (و)يا بيه، ويسمون بناتهم ميرفت (و)ناريمان؟..

* على كل حال، هذه مظاهر زائلة.

الاتجاه إلى أوروبا:

كان الخديوي اسماعيل باشا ـ في الثلث الأخير من القرن ١٩ ـ في فترة افتتاح قناة السويس (و)بناء دار الأوبرا بالقاهرة... قد أعلن انه يريد جعل مصر قطعة من أوروبا.

* كثيرون أيدوا هذا الاتجاه وعبروا عنه في أدبهم... ولكننا عاصرنا سلامة موسى (الأديب المفكر منذ أواخر العشرينات الى منتصف الخمسينات).. كان ينادي مع مصطفى كمال في تركيا بالاتجاه الى أوروبا ولبس القبعة ـ بدل الطربوش وتشكيلة الأغطية الأخرى للرؤوس ـ واتخاذ جميع قواعد السلوك الأوروبي، ونبذ الموروثات الشرقية والعربية جميعاً.

مصريون وهكسوس:

قرأت في أواخر العشرينات على صفحات مجلات دار الهلال، حملة مهاترة ضد سلامة موسى (الذي كان قبل هذه الحملة يعمل محرراً بصفته موظفاً في الدور الصحفية التي كانت موجودة في تلك الأيام):

* دار الهلال أسسها واستمر يملكها جرجي زيدان وأولاده وهم لبنانيون.

* الأهرام ـ آل تكلا وهم لبنانيون.

* المقتطف الشهرية و(المقطم) اليومية، كان يملكها آل صروف (و)نمر (و)مكاريوس وهم لبنانيون (منهم مثلاً كريم ثابت نمر، الذي ظل مستشاراً للملك فاروق حتى قيام ثورة يوليو ١٩٥٢).

* اللطائف المصورة (و)العروسة كان يملكها اسكندر مكاريوس (من إحدى الأسر المتملكة لدار المقتطف والمقطم).

* نشرت سلسلة المهاترة التي كانت مشبوبة بصحف دار الهلال وثيقة بالزنكوغراف (هذه أول مرة نسمع فيها كلمة زنكوغراف) والوثيقة بخط سلامة موسى تتحدث عن (خطة) للتخلص من اسكندر مكاريوس وغيره من (الهكسوس).

* الهكسوس أو الرعاة قوم مخربون غزوا مصر في إحدى فترات العهد الفرعوني ـ وكانوا قد جاءوا من آسيا (أو من الأقطار العربية قبل تبلور العنصر العربي).

* منذ مبادرة السادات قبل سنوات وقعت مهاترات ضد الفراعنة (مصر) من ناحية وضد الهكسوس (العرب) من ناحية أخرى (ويبدو أن ناس أنيس منصور قد نسوا كلمة هكسوس!).

الأدب للأدب:

من المناقشات التي كانت مألوفة شعارات مثل (الأدب للأدب) والأدب للحياة والشعار الأخير وجد أكثر دعاته حماساً في وسط دعاة الاشتراكية ـ وهذا على الخصوص أثناء حرب ١٩٣٩/١٩٤٥ وما بعدها حيث توفر نشر الأدب الماركسي والشيوعي السوفييتي والصيني.

فاشيون وديمقراطيون:

في النصف الثاني من الثلاثينات انتشرت الدعاية الفاشية ـ ايطاليا كانت محكومة بالفاشية منذ أواخر العشرينات ـ أما ألمانيا فقد اشتهر هتلر قبل استيلائه على الحكم ١٩٣٤ ـ والفاشية الثالثة هي حكم فرانكو لاسبانيا في النصف الثاني من الثلاثينات.

* راج الاعجاب بالفاشية كوسيلة تنظيمية للشباب ـ وبالتالي الوصول للسلطة ـ وقد رأينا منظمة (مصر الفتاة) بزعامة احمد حسين وفتحي رضوان في الثلاثينات وكلمة الفتاة مستعارة من منظمة (تركيا الفتاة) التي كانت تضم الضباط الشبان ضد السلطان (مصطفى كمال ورفاقه).

* بعد معاهدة ١٩٣٦ اختارت مصر الفتاة (القمصان الخضر) وكان علي ماهر باشا يرعى تلك المنظمة... فسارع حزب الوفد بزعامة مصطفى النحاس باشا الى تكوين جماعات القمصان الزرق.

* الاخوان المسلمون ظهروا في أواخر الثلاثينات وبدت لهم تجمعات كبيرة قبل وبعد ١٩٤٥ ـ أما الشيوعيون بمصر فقد كانوا ثمرة من ثمار الحرب وقد قووا بالفعل بعد تبادل التمثيل الدبلوماسي بين القاهرة وموسكو قبيل نهاية الحرب.

وحتى في السودان:

عرفنا منظمتي شباب الأنصار (و)شباب الختمية عام ١٩٣٩ وما بعدها ـ وهذه قصة تتحتم العودة اليها في موعدها.

عودة الى عالم الكتب:

* يوافقني القارىء على أن هذه التشكيلة الواسعة المشوشة من الدعوات والادعاءات لا يمكن أن تشتمل عليها الكتب ـ حتى ولا الموسوعات ـ ولكنها كلها وغيرها قد تناولتها صحافة مصر بين ١٩٢٧-١٩٥٢

والصحافة المصرية (برغم الرقابة المفروضة عليها منذ سنة ١٩٣٨ - وحتى هذه الأيام)، ظلت تتمتع بحرية عريضة منذ أن شاء لها ذلك كرومر الذي ظل يتحكم في القطر المصري بين عام ١٨٨٢ وسنة ١٩٠٧، وقال قولته الذائعة (ان الضغط يولد الانفجار) فصارت الصحافة متنفس الشعب المصري.

التماس الأدب:

وحصرت في سنة ١٩٣٠ أسماء الأدباء الذين ينبغي أن أحصل على كتبهم كي أستنير.

مصطفى الرافعي:

كان الأديب - موظف المحكمة - نصف الاصم، مصطفى صادق الرافعي مشهوراً بالبلاغة.. ولم أقرأ له مقالات في الصحف التي كانت تصل الينا... وتورطت في استجلاب كتابيه (أوراق الورد) و(حديث القمر) فوجدتهما (بلا معنى) أعني مجرد انشاء وألفاظ في نظري إذ ذاك - أو في نظر مزاجي حتى الآن.

* ولكن بصدور مجلة الرسالة ١٩٣٣ ومساهمته بكتابة مقالة اسبوعية، فان مزاجي قد تقبله خصوصاً لدى قراءة السير التي كان كتبها عن شخصيات لامعة في تاريخ الاسلام.

العريان والوعاء اللفظي:

كان الأديب المصري محمد سعيد العريان متشيعاً للرافعي - وأسلوبهما متسايران - وفي النصف الثاني من الخمسينات جاء الأخير كمفتش تعليم للمدارس المصرية بالسودان - وقرأنا عن محاضرة يلقيها بنادي الخرطوم بحري للخريجين - وذكرت ذلك للدكتور محمد النويهي رحمه الله - وكان أستاذ أدب عربي بجامعة الخرطوم - فجاءني وأخذني بسيارته - وفي نهاية المحاضرة طلبت من المحاضر إعارتنا نص المحاضرة المكتوب لنشره بجريدة (الصراحة) - فتكرم بذلك... ولكنني في اليوم التالي كتبت أقول ان النص طويل، وإذا لخصناه فإن المحاضرة تفقد قيمتها بعد تحطيم وعائها اللفظي (هكذا كتبت في الاعتذار عن عدم النشر فهل هذه وقاحة أم صراحة؟)..

الزيات:

لا شك أن أحمد حسن الزيات من أئمة الوعاء اللفظي (الذين سلف منهم... صاحب المرآة) ومصطفى لطفي المنفلوطي صاحب النظرات والعبرات، وهو لم يكن مترجم قصص العبرات ولكنه (مصيغها) - فالزيات ترجم آلام فارتر، قصة قوته الألماني، ترجمها عن ترجمة فرنسية وقد أزعج أغبش غلافها اللفظي، برغم رقته ألم يقولوا (ان ريح الورد مؤذ بالجعل)؟.. وبالله لماذا يصب عطر الورد بمثل هذا الطوفان؟ وأغبش برغم تحيزه ضد القصص غير الواقعية كان قد استطاب قصة (فاوست) ترجمة محمد عوض محمد عن نفس الأديب الألماني، ولكنه لم يواصل قراءة آلام فارتر..

وقد ذكرت ذلك بدار روز اليوسف لصديقي الأستاذ حسن فؤاد، وقلت له لعلني خففت على شبابي من الانتحار فقد قالوا ان الشباب المنتحرين بأوروبا كان عددهم قد تزايد بعد قراءتهم لقصة آلام فارتر، وذكر أستاذنا السهران دعواي للأستاذ أحمد بهاء الدين فاستمد منها الأخير موضوع مقاله التالي بمجلة (صباح الخير) يناير أو فبراير ١٩٥٦.

مع ذلك استطعت أن اقرأ افتتاحيات الزيات بمجلة الرسالة بمعدل مرة واحدة في الأسبوع بلا زيادة خوفاً من الآثار الجانبية لذلك الدواء المحلي بكمية غير معقولة من السكرين تجعل المرء يسعل وينتفض.. (في

مجلة الرواية) شقيقة (الرسالة) تضايقت أيضاً من الترجمة الزياتية لقصة مسلسل لعل اسمها (هليوليز الجديدة) وما أظنني استفدت منها.

تاريخ الأدب العربي:

ولكن بكل أمانة، استفدت من تاريخ الأدب العربي تأليف الأستاذ أحمد حسن الزيات رحمه الله، وما زلت آمل أن أقتني نسخة منه مرة أخرى...

فقد حدد لي مراحل الأدب العربي منذ العصر الجاهلي، والحقب الاسلامية المتمايزة حتى عصرنا الراهن، وعرفت أسماء وشعراء وأدباء ما كان يمكن أن أعرفهم بسبب اقتصادي في الدراسة الأدبية واللغوية واكتفائي بالعناصر الضرورية.

البقية تأتي:

في فصل آخر سوف اتحدث عن طه حسين والعقاد والمازني وتوفيق الحكيم، وكامل كيلاني ومحمد عوض محمد وسلامة موسى ومحمد عبدالله عنان وعبدالرحمن الرافعي ومحمد السباعي ومحمد صبيح ـ والسوربوني ـ وزكي مبارك وأحمد أمين ونقولا الحداد...

* سوف يلتقي الأدب بالسياسة وبالتاريخ وبالعلوم وبالشعر... وسوف يتضح أن الصحافة أثرت في اغبش اكثر من الكتب (أرجوكم بسرعة رفع مصحف القرآن وكتب السنة ومأثورات أخرى، من كومة المطبوعات).

* * * * *

أغبش طرد مرتين من الكبانية وظل شجرة الحلواني
عندما حملت صندوقي وتسكعت بشارع كرري

كان لا بد من قطع حديث الكتب لأن بدء تقييمها في الأسبوع الماضي كان سابقاً لأوانه ـ ومن الضروري ان أتحدث عنه:

* ومحاولة هربي لمصر للدراسة بالجامع الأزهر.
* عملي ليوم واحد في كبانية التليفون.
* وترشيحي للعمل ككمساري في ترام أب روف.
* وثلاث سنوات مثمرة بالسوكي ـ تعلمت فيها كثيرا في مجالات التجارة والدراسة.
* كيف حاولت أن أمارس أعمال النشر للكتب وكيف ربحت ١٥ جلدة قبل محاكم العدالة الناجزة بـ ٢٥ سنة
* وكيف صرت كاتباً للعتالين (عمال حمل الأثقال).
* وكيف اصدرت جريدة محلية سميتها (الحق الصراح) عام ١٩٣٢ صدرت منها أربعة أعداد على ورق فولسكاب بالكربون.
* وكيف سمحنا لأنفسنا ان نبيت الفنان سرور (القوي) وهو في ضيافتنا بسبب جهل احد الأطراف ـ أغبش أو صديقه ود الأحمر.

طردي بلطف:

بعد أن قرأ عم عوض أبوالعلا (رحمه الله) البوسته في صباح أحد الأيام سأل المحاسب عن عدد طاقات الدبلان الماركة الفلانية ـ الموجودة عندنا ـ فقال محاسبنا، انه يحتفظ بحسابات الدبلان كلها (في حاصل صنف واحد) ولا يستطيع ان يحدد عدد الطاقات لكل ماركة وحدها، فغضب عم عوض وقام لاجراء عملية فرز للدبلان ثم احصاء الصنف الذي ذكره، وهببت لمساعدته:/

عثر عوض في وسط الرصة على مظروف مكتوب عليه (الدرس الأول) مع اسمي. فقال لي: درس ايه؟ فلسفة؟ فلم أجبه، ولكنه ترك عملية الاحصاء غاضباً، فواصلت أنا الفرز واخبرته أولاً، بعدد طاقات الماركة التي طلبها، ثم فتحت كشفاً وأحصيت جميع الماركات الأخرى وكتبت أرقامها بالكشف، الذي بيضته بالكربون، وقدمته له فظهر عليه السرور وشكرني (في الحقيقة انه كان لطيفاً معنا على الدوام ـ فانه مثلاً لما يطلب منك شيئاً يقول لك (بالله اعمل كذا) وهذه صيغة مألوفة في الرجاء ـ ولا ينسى أن يشكرك).

دائماً القراءة:

كلفني عم عوض في أحد الأيام أن أراقب عملية بناء في داخل منزلهم وجاء بالصدفة في الظهر فوجدني أضع أمامي عديد المجلات وأطالع بتركيز شديد، فحدجني بنظرة، ولكنه لم يكلمني بل انه لم يمنعني من مواصلة المراقبة في الأيام التالية، حتى اكتمل البناء.

* وفي الأسبوع التالي كنت مكلفاً بمراقبة البنات اللواتي يقمن بتنظيف الصمغ في مخزن واسع، وكان العتالون يعبئون البضاعة في الجوالات ويمررون كل جوال على الميزان القباني المربوط على ١٠١ كيلوجرام

ويكملون الجوال حتى تتم الوزنة فالعمل لا يتطلب التركيز من جانبي لا على التنظيف ولا على التعبئة ولذلك لم يكن عجيباً أن أمارس تركيزي على القراءة وضبطني عم عوض أيضاً - فحدجني بنفس النظرة ثم جعل يتكلم ضد اسرافي في القراءة في كل مناسبة ولكنني لم أقلع عن هذه العادة.

كبانية التليفون:

كانت توجد بسنجة شبكة تليفونات محلية لمصالح الحكومة فقط ولا توجد تليفونات خارج المكاتب الرسمية الا في منازل المدير ونائبه والمفتش ونائبه والمأمور وقمندان البوليس وغيرهم.

* ثم، في سنة ١٩٣٠ (أم ١٩٣١؟) قامت مصلحة البريد بمد خطوط تليفونات الى المحطات سنار، السوكي، كركوج، الروصيرص، أبوحجار، دار عقيل، سنجة.. وجاءوا بجهاز (كبانية) لسنجة، وكان مع عملية (التنمية الجديدة) مهندس انجليزي هو الذي يتزعمها ومساعدون فنيون سودانيون، ومفتش اداري من مصلحة البريد... الخ.

وصار أعضاء بعثة التليفونات يترددون على محل أبوالعلا - وكانوا يجدون الاكرام - وفي المرحلة النهائية قالوا انهم سوف يعينون مستخدماً محلياً وسيدربونه على العمل قبل رحيلهم.

* رشحني عم عوض أبوالعلا رحمه الله للوظيفة المقترحة، وقال لهم هو شاب رياضي ويجيد القراءة بالعربية والانجليزية وقال انه يرغب في مساعدتي، وكانت ماهيتي بمحل أبوالعلا جنيهين في الشهر، والوظيفة الجديدة تبدأ بـ ٣ جنيهات.

(الحقيقة ان عم عوض كان غاضباً من حادثة لعلها هي القشة التي قصمت ظهر البعير كما أفادنا المثل العربي)...

أصيب عم عوض بحمى الملاريا وهاجمته بشكلها الميسمي (أم برد) في منتصف النهار، وطلب قفل الدكان قبل الأوان، وكنت أنا في العادة أقفل الأبواب بالتدرج في ساعة معينة في آخر اليوم.. فقمت بقفل بابين - من الداخل بطريقة وضع عراضة، مرينة خشب فوق (دستورين) على البابين، وخرجت الى البرنده، من أجل قفل الباب الثالث، ورددت الضلفتين، وقبل أن أتمكن من الدخول لوضع العراضة في داخل الدكان، كان عم عوض قد خرج، وسيارته غير موجودة، فطلبوا مني أن أذهب لمحل بتسلادس لاحضار عربة له، وفعلاً أحضرت سيارة لوري، ووجدتهم قد أكملوا قفل الباب الأخير - الرابع - ولم يفحصوا الباب الثالث الذي لم يمهلوني كي ادخل وأضع العراضة عليه).

* وأنا نسيت ما كان يجب أن أعمله في الباب الثالث...

يا... واحيد:

كان سوق سنجة في تلك الأيام يحرسه خفراء تسمعهم بعد التاسعة مساء يتنادون (يا واحيد) ويرد عليه (الواحيد) ثم ينادي الثالث، فالرابع...الخ.

* وكان خفير كل نقطة يمر على الدكاكين ليتأكد من قفلها ولما جاء لمحل أبوالعلا، وجذب (الرزة) (في الباب الثالث بتاعي) انفتح في يده... وسرعان ما ذهبت السلطة كلها لعم عوض - أبوالعلا في البيت وجاءوا به، رغم مرضه، ليقفل الباب:

* وحدثت الادانة التي اشترك فيها جميع الموظفين - ضد أغبش - هو الجاني، لأنه في كل يوم يقفل الأبواب، وفي ذلك اليوم بالذات هو الذي قفل الباب الثالث.

* مع ذلك... لم تحدث عقوبة ولا حتى أي توبيخ - ولكن فيما يبدو، صدر القرار الهادىء بدحرجتي الى كبانية التليفونات!

ولكن:

ذهبت إلى مكتب البريد، وقابلت الوكيل بشاي نخلة، وطلب مني الذهاب في الساعة السابعة صباح اليوم التالي الى الكبانية القديمة الموجودة حيث كلف المستخدم الذي يديرها بتدريبي عليها كمرحلة سابقة لتدريبي على ادارة الكبانية الجديدة.

* وجلست في مكتب التلغراف مع صديقي المرحوم أحمد محمد الفكي، الذي هنأني، ووعدني بتدريبي، ليس فقط على كبانية التليفونات.

بل قال انه سيمرنني على جميع أشغال البوستـه والتلغراف بمـا في ذلك جهاز (مـورس) ـ لارسال واستقبال البرقيات ـ فقط المطلوب مني أن أكون تلميذاً مطيعاً وأساعدهم في أشغالهم المملة، مثل قراءة عناوين الجوابات الواردة وتسليمها للجمهور (فوعدته بذلك!).

أين الكبانية؟..

كانت الكبانية المحلية القديمة مقامة بديوان المديرية، والعامل الذي يديرها كـان من قوة الفـراشين ـ المراسلات ـ وكان راتبه الشهري ٧٥ قرشاً وهو الأخ مصطفى بنداس (زميلنا بالمدرسة الأولية سابقاً، وهو من أبناء حلة ١٤ التي يسكنها الرديف).

استقبلني الأخ مصطفى وأفهمني كيف أرد على الجرس الذي ينادي الكبانية، وكيف أضع (الغماز) في النمرة التي يطلبها ـ وكيف يمكنني أن أتلصص على محادثات المتحادثين باحكام قبضة أصابعي على مكان معين بالسماعة ـ !

وسألني الأخ بنداس عن عدد البلكات في الكبانية الجديدة ـ وهذه أمور كانت أعلى من مستـواي ـ وأحضر لي الأخ مصطفى كباية شاي وجلس معي الى أن اطمأن على امكان أدائي العمل في حدود بسيطة، واستأذن ليذهب الى مشوار.

* بعد ساعتين ضرب لي وكيل البوسته تليفوناً ليقول لي (تعال عندنا) فلما ذهبت، أخبرني بأن مصطفى بنداس اشتكى لدى نائب مدير المديرية... فاتصل نائب المدير بالمهندس الانجليزي وطلب تعيين عامل الكبانية القديمة في الكبانية الجديدة!

رحلة الأزهر:

ذهبت الى عم عوض أبوالعلا وأبلغته تأدباً بما حدث، وقلت له انني منذ مدة معروضة على شخصي وظيفة بالسوكي وسوف أسافر اليها إن شاء الله.

* ولكنني عبأت رحلة للخرطوم... أوقفت دكان البيت (الغاز والسجاير والسكر والشاي)، وصنعت لنفسي صندوق سفر من الخشب بواسطة أحد النجارين، وانتخبت بعض الكتب والملابس ونقلت هذه الأمتعة بالتدريج الى السوق، وسافرت لسنار باللواري بدون اخطار أهلي (لم أحمل معي إلا اقل المال، وتركت مبلغاً كبيراً ـ بمقاييسنا ـ بطرف والدتي).

* ومن سنار الى لوري آخر، وصلنا الى واد مدني ـ ومع أن عاصمة الجزيرة لي بها قبيلتـان ـ من الأقارب، لم أذهب اليهم، وقضيت ليلتي بالوكالة (يعطونك عنقريباً غير مفروش مقابل خمسة قروش ولكنهم يحفظون لك شنطتك) وفي الفجر أحسست بشيخ من النزلاء يتلمس جيوبي، وكانت نقودي مجونـة في تكة سروالي التي هي مجوفة ـ وقد صرخت في الشيخ، فقام حاملاً إبريق الماء ليتوضأ...!

أغبش في الخرطوم:

وباللوري وصلت الى الخرطوم في العصر ـ وتقليداً لركاب كانوا باللوري ـ ذهبت معهم الى محطة الترماي، المحطة الوسطى القديمة، حاملاً مثلهم صندوقي على كتفي، وركبت الى البقعة مع الصندوق بقرشين، ووصلت الى أمدرمان الوسطى:

* سألت عن محل أبوالعلا (برضه) وكنت أعرف انه بالمحطة الوسطى فأرشدوني اليه، وكان مقفولاً، فالدنيا مغرب ـ وكان يدير المحل المرحوم حاج الشيخ أبوه (لم أكن أعرف الرجل ولكنني كنت أعرف شاباً يعمل معه... كان رحمه الله رجلاً ودوداً، هو الأخ عثمان آدم من قرية (أب قرع) شرق النيل الأزرق قصاد الرماش، شمالي سنجة):

* وبدون إدراك لمحنتي جلست في سوق المويه القديم (وليس ذاك الموجود قصاد البوسته) وقد أطعمت نفسي بأطعمة حضارية هي كيك وبقلاوة وجعلت استمع للاسطوانات من ميكروفونات الفونغراف الى التاسعة ثم حاولت اقناع صاحب المقهى بحفظ الصندوق لي حتى الصباح فرفض.

* سألت عن (وكالة) فقالوا لا توجد بأمدرمان... بل تفلهمت وسألت عن (لكوندة) فقالوا اللكوندات والوكالات بالخرطوم!

شارع كرري:

ومع انني لم أؤد الصلوات، لم أنس صديقتي آية الكرسي، واعتسفت طريقي نحو شمال المدينة حاملاً صندوقي، ووجدتني في الشارع العريض الذي عرفت فيما بعد ان اسمه (شارع كرري) ـ في اتجاه حي ود نوباوي.

* كانت هناك سيرة عرس.. والعريس على ظهر حصان ـ بردعته مفروشة بثوب القرمصيص المتزلج الصارخ الألوان ـ وكانت السيرة تسير على نغمات الدلوكة، وانية، ومع العريس خلانه وهم راجلون ومن ورائهم الفتيات، متقنعات وكاشفات، ثم النسوة المتجالات.

* وأغبش يسير خلف السيرة كأنه جزء منها بلا قصد ـ كأنما كانت أنغام الغناء قد خففت عنه ما كان يجد من عناء..

* في نهاية الشارع انفصل عن السيرة أربع من النسوة المتجالات، وقالت احداهن للفتى أغبش مالك يا ولدي تاعب نفسك؟ ما أخير ليك توصل شيلتك وترجع للعرس؟

ـ أنا غريب، ما لقيت الناس البعرفهم.. وهسع ماشي (عليك يا الله).

ـ جيت من وين يا ولدي؟

ـ جيت من سنجة..

ـ دحين يا ولدي بتعرف فضل الله البقولوا ليه بانشيو؟

ـ بلحيل بعرفو.. ما سايغ؟

ـ كتلتو يا ولدي، دحين شفتو قريب دا؟

ـ والله يا والدة بشوفو كل يوم، دربي يومي يمر على سوق السياغ...

ـ كتر خيرك يا ولدي... عليكن الله يا بنات تسوقوه ينوم مع ناس فلان في الديوان (كانت احداهن من قبل قد نصحتني أن أعرج من الشارع التالي لأنام بجامع السيد عبدالرحمن المهدي).

* سمعت همساً بين النسوة، ولكن أخيراً رجحت نزعة الخير فقلن لي بصوت واحد يلا يا ولد الناس إن شاء الله يكون قدمك قدم خير.

* في الديوان وجدت رجلاً كهلاً يقرأ القرآن ـ وهذا شجعني أتوضأ وأصلي جميع الفوائت ـ ودخل الرجل الى داخل منزلهم ثم عاد، وبعد قليل جاء ثلاثة شبان من أهله يحملون صينية يتوسطها صحن باشري وسلطانية، وتعشيت معهم كسرة بملاح أم رقيقة ساخن ـ وكان من الواضح انهم تعشوا من قبل وكانـوا يجاملونني ـ ثم جاءوا بالشاي، وسألوا عن معارفهم بسنجة فعرفت بعضهم وأشاروا لي على سرير مفروش بمرتبة وملاءة نظيفة ـ وأخرجت فردتي وتغطيت ونمت...

* في الصباح الباكر قمت مع مضيفي فصليت معه... وسمعنا زغاريد فذهب للتعرف عليها، ثم عاد متهللاً وهو يقول إحدى أخواتنا انحلت، وجابت ولد، فقلت له: مبروك يتربى في عزكم ـ والحمد لله على سلامة والدته.

* وجاءت صواني الشاي واللقيمات والكعك من عدة جهات في داخل الحوش.

* ثم جاء (قدح صباح) كبير ـ عصيدة بوخها يلوي، وملاح ام دقوقة، وصينية أخرى بها ـ م.. ع باشري آخر يحتوي على قراصة قمح مسقاة بالسمن والعسل.

* وقال لي والد المولود (الخير على قدوم الواردين).

* مع ضوء الصباح اتضح لي أن الديوان كان يستعمـل جانبـاً بصفة ورشـة صرمـاتية ـ لصنـع المراكيب ـ بدليل وجود (القرم) ـ جمع قرمة بضم القاف وسكون الراء، وهي عبارة عن جذع شجرة كبيرة ـ يستعمل كمنضدة.

* في حوالي الساعة التاسعة قلت لمضيفي انني سأخرج في طريق السوق كي أصل الى معارفي فقال لي يمكنك أن تستحم وتبدل ملابسك، وسأذهب معك لأوصلك الى حاج الشيخ أبوه، فأنا أعرفه.

* ولما وصلنا الى المرحوم الحاج الشيخ، قال لي ان الأخ عثمان آدم ذهب الى الخرطوم ولن يعود اليوم ـ وبدون صعوبة، وافق الرجل على استيداع الصندوق بدكانه، فكأنما انزاح كابوس من عاتقي.

* انطلقت وانا أصفر مغنياً وامتطيت الترماي الى الخرطوم، وفي نفس المحطة الوسطى... بالخرطوم كانت توجد مكتبة محمود عزت المفتي تلعلع منها الاسطوانات فاشتريت مجلات وكتاب المضحكات، وكتاباً آخر، وكلاهما من تأليف م.. ع المفتي ينقل فيهما قصصاً من أدباء مصر مثل محمد امام العبد الذي كان أسود اللون والذي سألوه: لماذا لم تتزوج فقال:

أنـا ليل وكل حسـنـاء شمس فـاجتمـاعي بهـا من المسـتحـيل

القيامة قامت:

وفي مقهى المحطة الوسطى الذي كان يديره يونانيون هو نفس المقهى الضروري الذي ـ دمرناه بعد الاستقلال ـ جلست ومسحت جزمتي المكشوفة بتعريفة (انهم يلحون عليك ويقولون لك تمسح يافندي ـ وان لم تفعل، لن ترتاح ـ وكانت هذه أول مرة في حياتي أخسر فيها تعريفة في هذه المهمة السخيفة).

* وأكلت مرة أخرى أطعمة الحضارة، كيك وبقلاوة (وحاجة ثالثة كانوا يسمونها سرندبلو) ولعله اسم إغريقي وشربت (التمر هندي) ولم أكن أعرف انه ذاته هو العرديب وارد (دندرنا).

* وما لبثت أن رأيت أمراً عجيباً الترامويات تتابع من أمدرمان وهي (معنكشة) بالناس رجالاً ونساء وهم يبكون، وكذلك اللواري، وكل الأمواج البشرية تتجه الى كوبري الخرطوم بحري.

* سألت عن السبب فأفادوني ان الخليفة حسب الرسول قد انتقل الى رحمة الله.

* كنت أعرف أن الخليفة حسب الرسول هو خليفة الشيخ العبيد ود بدر ود ريا والاسرة تدير مسيداً كبيراً لتعليم القرآن ببلدة أم ضبان.

* كان ود بدر قد أيد المهدي وحارب معه ضد حكومة الأتراك التي يمثلها غردون باشا الانجليزي الذي كان محاصراً بالخرطوم.

الخليفة حسب الرسول:

والخليفة حسب الرسول قد اشتهر بكرم الضيافة للزائرين الى جانب السخاء بالمال.

* قالوا: انه في حالة غلاء وكرب في إحدى السنين المسنتة، وصلت الى بورتسودان سفينة تحمل غلالاً باسم الخليفة حسب الرسول، وقد نقلوا الشحنات بالقطارات الى الخرطوم بحري ثم باللواري الى ام ضبان ولم يعرف أعوان الخليفة حسب الرسول من أين جاءت النجدة.

قسيس كبير:

وكان ما يسمى (السوق الأفرنجي) في تلك الأيام قبل ٥٢ عاماً ـ سوقاً افرنجياً بحق وحقيق نادراً ما ترى فيه الأهالي الغبش ـ وقد سألني شاب، اغريقي أو أرمني ـ اشان ايه البكا والكواريك؟ فقلت له متفلهماً: واحد قسيس سوداني كبير مات!

طردوني من بار اللورد بايرون:

ومررت على مقهى كل الجالسين عليه كانوا خواجات أو أفندية يضعون على رؤوسهم الطرابيش ولاحظت أن المقهى كانت لافتته بالانجليزية وحدها، بما معناه (بار اللورد بايرون) (اللورد بايرون هو الشاعر الانجليزي الشاب، عاشق شقيقته، الذي حارب مع اليونانيين حرب استقلالهم ضد الأتراك العثمانيين).

* وقفت تحت إحدى شجيرات المقهى الذي كان يسميه الشعب (الحلواني) فجاء أحد الجرسونات وطردني ـ وهذا الجرسون نفسه صار يخدمني لما أقمت بالخرطوم عام ١٩٤٧ وما بعدها وصارت الفلهمة مقبولة من مثلي.

ثابت عثمان:

ولم تخذلني أية الكرسي فلما عدت الى المحطة الوسطى لقيني صديقي عثمان أدم ورحب بي وذهبت في صحبته الى أمدرمان.

* أفهمني انه كان بمكتب المعارف حيث قدم طلباً للالتحاق بقسم العرفاء كي يتدرب للعمل كمدرس بالمدارس الأولية.

هوامش

١ ـ الصابوناب: في حلقة سابقة تم حذفها وردت اشارات الى أسرة الشيخ الصابونابي من المتصوفين المقيمين بالقرية المسماة الصابونابي على البر الغربي، قبلي سنجة.

(أ) ان الشيخ الصابونابي المتوفى في أواخر العشرينات (قبل أكثر من ٥٥ سنة) هو عميدهم الشيخ أحمد رحمه الله وليس محمد ـ فمحمد هو ابنه الشيخ الحالي للسجادة، وهو مؤلف مدائح النبي صلى الله عليه وسلم، بألحان الاغاني وله شقيق آخر هو الشيخ الهادي ـ أبقاهما الله.

(ب) ان آل الصابونابي قوم كرام متواضعون يحسنون عشرة جيرانهم وحيرانهم.

(ج) ولكن آل الصابونابي ينتسبون الى الامام الحسين بن علي ـ حفيد الرسول صلى الله عليه وسلم، وجدهم الصابونابي الذي جاء الى سنار في عهد السلطنة الزرقاء كان قد قدم من بلده دراو بصعيد مصر من قبيلة (العامراب) المنحدرة من أسرة الشيخين عامر ـ وعمران اللذين لهما مقام بدراو.

(د) كان الأخ الأستاذ مصطفى محمد أبو ادريس (ليسانس قانون ـ فاس، المغرب) قد كتب لي ذاكراً انه سمع من جده (خالنا) المرحوم محمد أبو عاقلة (أب بعاتة) ان آل الصابونابي ينتمون الى قبيلة الصادقاب (شرقي النيل الازرق على امتداد حوض الرهد).

لمحات عن حياة المراكبية والعتالين ومستخدمي السكة الحديد

عمل أغبش محاسبا لعمدة العتالين، لماذا ترك هذا العمل؟

وامتطينا الترماي الى أمدرمان عثمان وأنا ـ بعد ان تغدينا في الخرطوم غدوة حضارية ببوفيه المحطة الوسطى: بوغاشه بالجبن ـ و ـ بوغاشه بالسكر ـ مع ـ لبن زبادي ـ أنا لم اسمع بكلمة (ساندوتش) الا بمصر في سنة ١٩٤٠.

نزلنا قصاد جامع الخليفة كي نتفرج على كرة القدم باقتراح عثمان، (قبة المهدي ما زالت مهدمة منذ سبتمبر ١٨٩٨ وقد أعيد بناؤها في الأربعينات). لم تكن البلدية موجودة ومركز أمدرمان أمامه (السبيل) مشرب الماء للسابلة، المقام تذكاراً للجاسوس النمساوي سلاطين.

قبة الشيخ دفع الله بدت لي شامخة في تلك الأيام، فلم تكن إذ ذاك توجد سينمات ولا عمارات ـ مثل تلك التي تخفي القبة في أيامنا الراهنة ـ وقد طمأنني اسم دفع الله فأنا من أولاد العركيات.. ودفع الله الدرماني ليس هو دفع الله الذي سخط التمساح صخرة ببلدة ـ أب حراز ـ والذي تنسك بجبل بيلا، في بداية أصقاع جبال العطش وحوض الرهد والبطانة ـ والأخير هو نفسه صاحب انشودة:

ساقية دفع الله
حرانها أهل الله

* هل دفع الله الدرماني من العركيين، لا شك ان الشيخ حمد النيل ـ صاحب القبة والمقبرة في امتداد الموردة عركي، فان أعقابه موجودون ـ ولكنني اتساءل عن دفع الله الدرماني.

* هناك أسماء مشتركة بين العركيين وغيره ـ فاننا نجد دفع الله وحمد النيل بين الجعليين بالمتمة ومنطقة شندي.

* ومدرسة أمدرمان الأميرية بساعتها الكبيرة في الحائط ـ ودقات اجراسها الداوية ـ بدت لي تلك المدرسة في سنة ١٩٣١ شديدة الفخامة ـ وهي ليست كذلك الآن!

* وحرص عثمان على أن نتعشى بالسوق (سلكيمة) وهي تركيبة الطباخين بالسوق قيل لي انها مؤلفة من الكشنه وعصير الطماطم ومسحوق القرقوش، وبدت لي عسلية المذاق، فلما سألت هل تحتوي السلكيمة على شوربة او مرقة؟ أدرك عثمان أن أغذية الحضارة لم تجعلني انسى البروتين فطلب راس نيفة.. كلفنا عشاؤنا مع الشاي عشرة قروش.

* وذهبنا الى ناد للمذاكرة كان يضم الأخ صالح ابراهيم العبد (الفنان عازف العود، ثم الصيرفي المرموق، رحمه الله ـ وهو من سنجة) وعثمان كان يذاكر معهم دروساً في الحساب استعداداً لامتحان القبول بالعرفاء ـ معهد معلمي المدارس الأولية.

* وفي السهرة حللت مسائل حسابية معينة ـ بدون استعمال القواعد ـ فاستغربوا!

* ذهبنا الى منزل الشيخ ابراهيم عبدالله رحمه الله ـ وهو ناظر مدرسة أولية كان قد أوى صديقي عثمان بمنزله بسنجة أثناء دراسته ثم ها هو يؤويه بأمدرمان وقد كبر وصار مستخدماً بالسوق، وفوق ذلك يشجعه على الالتحاق بالعرفاء. (لم أعاشر مولانا المذكور حينما كان بسنجة لأنني كنت قد غادرت المدرسة قبل أيامه، ولكن شقيقي علي رجب رحمه الله كان من تلاميذه) في الصباح رحب بي رب الدار وشرب معنا الشاي قبل أن يذهب الى مدرسته ـ رحمه الله ـ من أقارب آل أبوقصيصة ـ وقد تذاكرت سيرته من قبل مع أستاذنا التجاني عامر المؤرخ، وهو قريبه وجاره).

كمساري بالتراامويات:

ذهبنا الى السوق حيث بدلت ملابسي بمحل المرحوم حاج الشيخ ـ وحملت الملابس المتسخة الى محل الغسيل.

* وأفهمت عثمان ان خطتي قد تشمل الرحيل الى مصر للدراسة بالأزهر أو غيره ولكنني أريد عملاً بأمدرمان أو الخرطوم، ثم اجمع المعلومات بالتدريج عن السفر والدراسة.. وأفادني الأخ عثمان أن له معارف يمكن ان يساعدوني في الحصول بسهولة على وظيفة كمساري بالتراامويات التابعة لشركة النور وفعلاً اتصل بهم بسرعة ووجد منهم وعوداً.

ظللت طوال ثلاثة أيام اتجول بأمدرمان والخرطوم وقد لقيت معارف كثيرين وقبلت دعوات للطعام، وصرت أعود في المساء فقط لمكان صندوقي بدكان حاج الشيخ ـ كي آخذ منه ما أريد ـ ثم أذهب مع عثمان للعشاء، وبعد ذلك الى نادي الذاكرة وننتهي الى النوم بمنزل الشيخ ابراهيم عبدالله الذي نلقاه في الصباح مع الشاي فيعاتبنا بشدة على عدم الحضور في مواعيد الطعام وكنت اعتذر له بأنني قروي من سنجة التي هي ليست قرية ولا بندر (هذا وصف توفيق صالح جبريل للدامر فيما بعد).

ملاحقة من سنجة:

في اليوم الرابع بالخرطوم لقيني احد جيراننا بسنجة وقال لي ان والدتك وشقيقك الآن بواد مدني ـ في بعثة ملاحقة لك ـ فان لم تذهب لهم هناك، فانهم سوف يتعرضون لمشقات كبيرة إذا جاءوا الى هنا، فليس من السهل ان يهتدوا الى مكان اقامتك الحالية.

* وقد ندمت ندماً شديداً على تصرفي، وبلادة تصوري الذي لم يدرك امكان وقوع هذه الملاحقة، والحقيقة ان خطة سفري الى مصر لم تكن اكثر من حلم.. فانني لم اضمر مطلقاً التخلي عن اعاشة أسرتي ـ وكل محاولاتي للدراسة كانت دائماً مربوطة بمحاولات الكسب.

* كنت أتصور ان أجد عملاً بالخرطوم أو أمدرمان ـ وفي نفس الوقت أدرس بالليل وأقوم بتنظيم تجارة صغيرة في الكتب والخردوات و(الطواقي) مع شقيقي بسنجة وأصدقاء آخرين بالسوكي.

* وحتى إذا ذهبت الى مصر كنت أتوقع النجاح في تجارة الكتب ـ التي سبق لي بالفعل أن جربتها.

* الآن أقنعت نفسي بالعودة مروراً بواد مدني ناوياً أن أعود مرة أخرى بعد اقناع أسرتي بسلامة تفكيري.

* ودعت مولانا الشيخ ابراهيم عبدالله ـ والأخ عثمان آدم (رحمهما الله) في صباح اليوم التالي، وركبت الترام الى الخرطوم، ثم اللوري الى واد مدني.

* في واد مدني وجدت والدتي وشقيقي ـ رحمهما الله ـ في ضيافة احدى القبيلتين ووجدت عيني الوالدة متقرحتين من البكاء، ولكنها لما رأتني استبشرت وكان عتابها رقيقاً جداً، وقالت لي بطبيعتها السمحة انها تعتبرني رجلاً ولا تستنكر سفري ـ ولا جهادي ـ فهذا موروث (من أبوي ـ و ـ أبوك) فقط لا (تدس) علينا (أي يجب عدم اخفاء نواياي).

* وقد استمتعنا بإكرامات و(كرامات) أهلنا بواد مدني ثم عدنا الى سنجة.

السوكي عمرت:

وفي سنجة بعد استجمام أيام عاودت اتصالي بالعم ابراهيم قوته بالسوكي كنت قد عملت معه شهوراً في سنة ١٩٢٨م.

* سافرت الى السوكي هذه المرة عن طريق سنار، ذهب اللوري من سنجة الى سنار ثم عبر الخزان وسار بالبر الشرقي حتى وصل السوكي، فان رحلته الكاملة كانت الى الروصيرص ـ وأبعد منها ـ بالبر الشرقي.

* تركت السوكي في سنة ١٩٢٨ وكان مكتبنا بمنزلنا بحلة (الافطح) ولكن الآن وجدت السوق قد تم بناؤه ـ ولعم ابراهيم دكان ملك وبه بضاعته ـ (ما لبثنا ان تركنا أشغال البيع لأن عملنا الأساسي ترحيلات وأكثر اوقاتنا نقضيها بمحطة البحر (ميناء النهر)، وبجوارها يوجد مخزن البضائع الخاص بالسكة الحديد).

* كذلك من الأشياء المستجدة بالسوكي (الغربال) جهاز يشبه الطواحين كانت تملكه شركة كونتو ميخالوص.. التي تعرضت لعدة تطورات بدخولها في شراكات متعددة واسماء متعاقبة كوتس ـ و ـ دارك ـ و ـ في النهاية خرج كونتو ميخالوص واستقر متشل كوتس.

* كانت الغرابيل في البداية تابعة للسكة الحديد في مقرن الخرطوم وبورتسودان ـ ولما أعطي الاحتكار للشركات المذكورة ـ رأينا غرابيلهم في كل من السوكي والحصاحيصا والقضارف وبورتسودان.

* كنا نغربل بطرفهم السمسم ـ و ـ الذرة ويعطونك شهادة يلصقونها على بوليصة السكة الحديد ـ مضمونها انهم نظفوا البضاعة المشتملة عليها (الرسالة) وهي لما غادرت مؤسستهم لم تكن تحتوي على أوساخ تزيد على ٣ في المائة (في الخمسينات نشرت بالصراحة رسالة من الأخ بشير الشيخ محيمد بالسوكي ـ رحمه الله ـ قال فيها ان احتكار الغرابيل لم يعد مقبولاً. حيث انها ماكينات بسيطة ليست أعقد من الطواحين يمكن للتجار إدارتها بأنفسهم.

في اليوم التالي مباشرة لنشر هذه الرسالة أرسلت شركة متشل كوتس حسابنا نقداً بدل شيك، وأوقفوا نشر اعلاناتهم عندنا. وكانت تدر علينا ٥٠ جنيهاً في الشهر!

المراكب الشراعية:

كانت صادرات وواردات المنطقة قبلي السوكي تنقل كلها بالمراكب الشراعية، فالسفن البخارية لا يسمح لها النهر بالملاحة إلا في شهور الفيضان.. والنقل الموطري (باللواري) غالي التكاليف (بالنسبة لذلك الزمن) ولا يشحن التجار بواسطته إلا البضائع النفيسة.

* ان المراكب الشراعية الآن تكاد تكون معدومة على النيل الأزرق، مع انها كانت بالمئات يعمل فيها مئات الريسين وآلاف النوتية (العجيب كان الكثير منهم من بلدة ودراوة المجاورة لرفاعة، وهؤلاء بالوقت الحاضر كثيرون منهم تجار بالخرطوم وغيرها).

* النوتية بالمراكب الشراعية تقضي عليهم التقاليد بنقل البضاعة من الرصيف الى داخل سفنهم.. ولكن التفريغ ليس عليهم، حيث يؤديه العتالون على حساب التاجر.

كان من مهمتنا ان نشرف على تفريغ البضاعة الواردة وعلى شحن البضاعة الصادرة.

أم العول:

في كل مركب شراعية في الغالب تعمل خادمة يسمونها (أم العول) وهذه تصنع الطعام للبحارة.

* في مصر يضربون المثل بعزومة المراكبية ويعنون بها الكشكرة غير الجادة ـ ولكننا في أيام السوكي كنا نجد الاكرام بالغداء مرتين في الاسبوع على ظهر سفينة عمنا الريس عبيد الطيب رحمه الله (صهر الخليفة خليفة ود عيساوي بسنجة) وكان يحضر معه حملاً ـ خروفاً صغيراً ـ ليذبحه متى وصل الى السوكي وكانت شحناته على الدوام تخص أصلانيان ـ ونحن وكلاؤه ـ.

* وطعام أم العول، كان لذيذاً جداً.

كاسحة - أم منجرة:

ان المراكب الشراعية حينما تكون متجهة مع التيار تسمى (كاسحة) وفي الرجوع ضده تدعى (منجرة) - بضم الميم وتشديد الراء - وهم يجرونها بالفعل - يسحبونها بالحبال - وخصوصاً في الدميرة (شهور الفيضان) أما في الشتاء فان الريح تهب - ويسمونها (الهواء المصري) ولذلك ينصبون الشراع على كل سفينة.

* وتحتاج المراكب الى استعمال (المجاذيف) حينما يكون التيار ضعيفاً - أو يكون الهواء ساكناً.

التعامل مع السكة الحديد:

كنت أعرف التعامل مع السكة الحديد منذ ١٩٢٨ بالسوكي - أو حتى بسنجة فان البواخر تدار كجزء من مصلحة السكة الحديد وبنفس الطريقة.

* للمصلحة فورمات، مثلاً: الكشف، تكتب عليه بيانات شحنتك والعنوان الذي تريده واذا كانت صغيرة تنقلها الى مكان ميزان المحطة حيث يتولون وزنها وتسجيل الوزن على الكشف - وبالمكتب يخرجون لك (البوليصة) حيث يقدرون (النولون) حسب وزن الشحنة، ومن قواعدهم وجود (حد أدنى) ثم التصاعد حسب الوزن (كل عشرة كيلو) بفئة بالمليم والكسور، بين كل محطة ومحطة - وهذه البيانات ينقلونها من(جداول منظمة) اذا لاحظت وجود خطأ في التقدير فهم لا يصححونه بعد إخراج البوليصة - ولكنهم قد يخطرون قسم المراجعة بعطبرة - وهذا القسم لا يكاد يفوت عليه شيء وكان في تلك الأيام سريعاً جداً، بحيث يردون لك أي فرق أو يطالبوتك بالفرق اذا كان يخصهم، بعد أيام قليلة جداً.

* في حالة الشحنات الكبيرة قد يعملون (ششنة) يعني يقدرون الوزن الكلي بوزن بعض الجوالات مثلاً.. ثم توزن العربات بالطونولاته وأنت تلاحظ ان كل عربة مكتوب عليها وزنها الفارغ - يخصم من (الوزن القائم) والباقي هو البضاعة (الوزن الصافي) فالطونولاته جزء من القضبان أمام غرفة بها الميزان تزن كل عربة تقف عليها بعشرات الأطنان - ويرسل الوزن الحقيقي للمراجعة التي تعيد احتساب النولون حسب وزن البضاعة الصحيح.

* عملية الوزن قد يقوم بها موظف صغير يسمونه (عدادتلي) أو مساعد عداد و(العداد) قد يساعد كاتب البضاعة أو (أمين المخزن) في استخراج البوالص.. كانت السكة الحديد تجند صغار موظفيها في تلك الأيام من خريجي الكتاتيب أو الوسطى ولا شك انهم يتقدمون من خلال التجارب والعمل الشاق - وكثيرون من نظار المحطات بل مفتشي الادارة، قد تدرجوا في وظائف السكة الحديد بهذه الطريقة.

* والقسم المشار اليه بالمصلحة يسمونه (قسم البضاعة) ولديهم (قسم الحركة) حيث يعينون (المحولجي) الذي يقلب المفاتيح التي تخرج القطار من خط الى أخر.. ويفتح السمافور الذي يعرف منه سائق القطار القادم ان الطريق مفتوح أمامه.. كذلك يوجد (القطرجي) الذي يربط العربات مع بعضها أو يحلها.

* وهناك (التليفونجي) وهذا ليست مهمته فقط إبلاغ الاشارات بالتليفون، بل لديه مهمة اسمها (التابلت) لها جهاز خاص - وعليه ان يستقبل القطار القادم ليأخذ منه أداة معينة.. ويعطيه غيرها وهذا التنظيم يضمن عدم وجود قطارين في الخط الواحد.

* كل هذه الوظائف لها مدارس تدريبية بعطبرة..

* وهناك قسم الهندسة.. هؤلاء نسميهم الدريسة، ومسؤوليتهم تتعلق بصيانة الخطوط وفي منطقتنا يعد هذا القسم هاماً، فالمطر والسيول والاتربة تعطل الخطوط.

أغبش كاتب عتالين:

ونحن في مهمتنا تسليم وتسلم بضائعنا ومراقبة حبوبنا بالغربال وحفظ مخزوناتنا - ولنا خفير بمحطة

البحر ـ ونحاسب السكة الحديد والعتالين ونستخرج ايصالات لأصحاب المراكب.. ونرسل فواتير بالمصروفات لأصحاب البضائع.. نضيف اليها عمولاتنا. وهي في المتوسط قرش واحد عن كل جوال أو صندوق أو طرد ـ لأصحاب المعاملات الكبيرة ـ واكثر قليلاً لصغار التجار.

* كل هذه الأشغال كان يؤديها أغبش نيابة عن عم ابراهيم قوته الذي يبذل مشورته أو توجيهاته في بعض الأحيان.

* وكان راتب أغبش الشهري ٣ جنيهات بخلاف الاقامة والطعام ـ وكذلك غسيل الملابس. بالاضافة الى ذلك حرص أغبش على زيادة دخله وقد تيسرت له متاجرات صغيرة (مثلاً يوجد صرماتية محليون يصنعون المراكيب ويعرضونها على التجار في السوق ـ كان أغبش يشتري كمية منها ويخزنها ـ فيأتي وقت تتضاعف فيه اثمانها ١٠٠ في المائة، أيام (الدرت) الحصاد ـ أو العيدين.. كذلك كان أبوالغبش يستورد بعض الكتب الرخيصة والمفكرات والنتائج السنوية (من مصر) والطواقي من سوق النسوان بسنجة، أو من تلاميذ التزية).

* والعتالون بالسوكي كانوا نحو ٦٠ لهم (عمدة) أو شيخ مشايخ ـ ثم كل ١٥ لهم (شيخ ربع) وأثناء العمل يتغنى العتالون بعبارة:

قام من نومو

داير كومو

والكوم هو قسمة العتال من عمله، فإذا اشترك عمال الربع رقم واحد في تفريغ مركب وكان عددهم كاملاً ١٥ فإن التقسيم يكون على ١٧ ـ كوم للشيخ وكوم للعمدة وللعتالين الفعليين كل واحد له كوم.

* ثم طلبت السكة الحديد من العتالين بالسوكي التعاقد معها على القيام بمهامها التي تحتاج الى عتالة، والمحاسبة تكون بمعدل الطن كذا قرشاً ـ وتتم المحاسبة مرتين في الشهر من يوم ١ الى يوم ١٥ ومن يوم ١٦ الى اليوم الأخير.

* واحتاج العتالون الى كاتب يحتفظ لهم بمذكرات عن تقديرات كمية العمل كل يوم ويسجل أسماء الحاضرين، وإستبعاد الغائبين، واضافة المشايخ وعمدتهم ـ كل يوم وحده ـ ثم يجمع استحقاقات كل واحد ورصدها في كشف ـ بعد التأكد من صحة المجموع النهائي، ثم تسليم الكشف، وأحياناً يتولى مهمة الصرف.

* كانت مكافأة أغبش الشهرية ٣ جنيهات وكان العتالون راضين جداً عن حفظه لحساباتهم وهم كلهم يعرفونه، وأحياناً يشتغل معهم، يشترك في رفع الجوالات على ظهورهم (الجوال عادة يرفعه أربعة أشخاص) والحقيقة انه كان في حالات نادرة يحمل معهم الجوالات على ظهره مثلهم (زنة ١٠٠ كيلو الصمغ أو الملح ـ ٢٢٥ رطلاً ـ والسمسم زنة ١٧٥ رطلاً في المتوسط والسكر الراس ١٤٠ رطلاً... الخ ولكن أغبش لم يحاول حمل بالة الدمورية ٢٠٠ رطل وهذه أيضاً يحملها الرجل من العتالين على ظهره).

* اشتغل أغبش مع العتالين في حساباتهم نحو ستة شهور وكان سعيداً بذلك ـ ثم توقف عن العمل لأن عمدة العتالين طلب منه في احد الشهور خصم ١٥ ريالاً ـ قال انها (ثمن مريسة) شربها رجالة الوردية الفلانية.. وقد كره أغبش المساعدة على هذا التصرف فان المريسة كانت كريهة عنده.. وإذا كان الشيوخ قد أحضروها حقيقة فلا يمكن أن يكون كل العمال قد شربوها، فان بعضهم لا يشربون.

* في الحقيقة ان أغبش قبل ذلك وبعده ظل شديد الغيرة ضد أكل (عرق الكادحين) ولم استطع بعد التوصل الى جذور هذه النزعة.

وظيفة عسكري بوليس:

في أحد الأيام كان أغبش بمحطة البحر يمارس جوالات شحنة ما، فرفع رأسه ليجد خواجه انجليزياً، أشيب يتفرج عليه..

فقال له هاللو ـ ولم يظهر الخواجه عنجهية الموظفين البريطانيين في تلك الأيام الذين كانوا ينتظرون من كل سوداني الوقوف لهم ورفع يده بالتحية العسكرية.

* فقال الخواجه: أنا آيز أكلم ماك.. أنا كومندان بوليس السكة الحديد (وكان معه ضابط صف ـ شايقي مشلخ برتبة صول) أنت تاجر؟

ـ لا.. أنا اشتغل مع التجار.

ـ كم الماهية؟

ـ ٣ جنيه في الشهر (زائداً) المعيشة.

ـ شوف، أنا آيز اشغلك أشكري، تسافر توالي ببابور البحر، ويكون لك بدل سفرية أشان فرق ماهيتك.. ومش آيز تلبس بردلوبة.. بس تكون بجلابيتك.. تراقب البابـور.. راكب بدون تسكـرة.. بداعـة ناولون.. ممنوعات من الحكومة.. وترسل تكارير لي المكتب بتائي في اتبره أو للـ دي.سي. (مفتش المركز-الانجليزي) في الرسيرس أو سنجة أو سنار. (يعني بوليس سري).

* وأضاف: أنا متأكد أنت تتركا زابت في مدة قريبة.

* قال لي: فكر في الكلام دا، وتعال عندي في الصالون بالمحطة الساعة ٥ مساء.

* في الحقيقة أنا لم أتحمس للفكرة، وحكيتها لأصدقائي ـ مجرد ونسة ـ فقالوا لي أن عملية التجسس تجعل البحارة ساخطين عليك، ومن السهل عليهم أن يقذفوا بك أثناء سير الباخرة في الليل الى مياه الفيضان (وذهبت الى الصالون فوجدت الصول منتظراً والخواجه في الحمام، فقلت للصول أن والدي لم يقبل فكرة العمل بالبوليس).

ـ وكانوا قد ـ وعدوني بارسالي الى عطبرة من أجل فترة تدريب قصيرة (وأذكر القارىء بأن بوليس السكة الحديد كان يدير أعمال الشرطة لمدينة عطبرة برمتها كأنها محطة ترنكتات).

* كانت فترة السوكي مفيدة لي جداً وفيها خرجت من طور المراهقة الى مسؤولية الرجال البالغين.



لماذا حطم الفنان سرور بسنجة اسطوانة

(عزه في هواك) بصوت الخليل

الجلابة... كيف كانوا يأكلون طعامهم؟

كنا ثلاث مجموعات (دكاكين) تقريباً ستة أشخاص ـ بخلاف الضيف أو الضيوف الذين يطرأون علينا ـ وكنا متعاقدين مع احدى الجارات ـ متوسطة العمر، يدفع لها مدير الميز في الصباح تكاليف الطعام مع تفاصيله ـ للغداء والعشاء ـ فالفطور خارج تعاقدنا مع بعضنا وتعاقدنا معها.

* أحد شركائنا في الميز لاحظ في احدى الليالي اننا نفضنا أيدينا من صينية العشاء مع أنه ما زالت هناك بقايا كسرة، والأعجب من ذلك بقايا طبيخ ولحم.

صرخ فينا الشريك: انتو دايرين تضيعونا؟ الناس زي حالاتنا ما بيخلوا فضلة ولا فضلة عبدالعزيز لسراريه. وهو يعني ان ارجاع فضلات للسيدة (أم الغول) سوف يغريها بانقاص كميات الطعام التي تصلنا في الأيام التالية.

وفي الحقيقة. أننا في العادة لم نكن نترك فضلات. وخصوصاً حينما يكون معنا ضيوف.. وبعدما ينضب الملاح نجمع بقايا الكسرة في صحن ويقول شيخنا (طهروا قلوبكم بلقمة بالماء).

أتدرون لماذا يقول الآكلون (بسم الله) ولا يكملونها؟ (بسم الله الرحمن الرحيم) قال مفتي مائدتنا: ان العلماء قالوا: السبب لأنك لا تريد أن ترحم الطعام. ولا يجوز للصغار أن يشبعوا ويقوموا قبل الكبار ـ بل عليهم أن يحسنوا (بضم الياء وإسكان الحاء) يحسنوا الماعون ـ بمعنى تنظيفه من بقايا الطعام ـ بخرطها بالأصابع ولحسها وليس بغسلها ـ أما سمعتم الحكاية المروية من سنة ٠٦؟

كان الرجل يأكل طعاماً قليلاً في قصعة (قدح) مصنوعة من الخشب وقبع في جواره رجل غريب يحنك (بضم الياء وتشديد النون) ـ بمعنى يرمق الطعام ويتلمظ فلما استنفد صاحب الطعام طعامه، قال له الرجل الآخر: أديني الصحن ألحسه وأخليه ليك تقول مغسول! فرد صاحب القدح قائلاً: اني براي ألحسه وأخليه تقول منجور! (لا تنسوا أن القصعة منجورة من الخشب).

* وكان الطعام لا يكلفنا أكثر من معدل قرشين في اليوم للفرد ـ مع أن وجبه العشاء تحتوي على لحم وفير ـ وهي ليست مضيوفة مثل وجبة الغداء.

* مرة في غيبة الميز اشتريت وقة كبدة بقر (كيلو وربع) بقرشين ونصف.

أيها البياطرة. ما معنى وجود الحصا وسط مضغات الكبدة؟

* وراتبنا من اللبن كان يكلف ستة قروش في الشهر القمري وبذلك على كثرته اننا كنا نكب عليه أوراق الشاي بدون اضافة ماء. وحيث أننا اثنان فقط في الغالب. كنت استأثر بالباقي حيث أفت به القرقوش ـ ثم تفلهمت وصرت أصنع الكاكاو وأشربه وحدي أو مع عم ابراهيم قوته.

* أما الافطار فكان بمحطة البحر. وفي الغالب (واينا) اللقمات النيجيرية المخبوزة من دقيق الدخن وأحياناً تقبل عزومة المراكبية ـ هي ليست كشكرة. فان المراكب تكون راسية وليست جارية ـ وكثيراً ما نقبل مشاركة مستخدمي السكة الحديد افطارهم الذي يأتي من بيوتهم. فهم مجموعة والأواني أمامهم متعددة. وهم لا يقصرون في الحلف بالطلاق.

* وكان يوجد بطرف حلة الافطح دكان بشكل راكوبة يقلي صاحبه السمك بمستوى راق (مستوى مطعم خباز «السنترال بار» بالمحطة الوسطى بالخرطوم) في السمك الفرايد في الليل مع التسخين المضبوط والشطة والليمون.. ولكن اذا شئت الأكل بجوار الراكوبة: فان تجلس على الأرض وتحت الشمس مع سمكك وكسرتك. وهذا قبل ٥٢ سنة وهو ما انحطت اليه مطاعم الخرطوم الشعبية في الثمانينات.

* أدت اقامة خزان سنار الى حجز بحيرة من المياه خلفه ولما يفتح الخزان في شهور التحاريق وتنسحب المياه تبقى مساحة شاسعة من الأراضي المروية فصار أهالي المنطقة يزرعونها بالبطيخ والشمام - ومع ان السوكي تبعد عشرات الكيلومترات عن حوض الخزان. فهي سوق لتلك الفواكه يشتريها التجار ليرسلوها الى القضارف وغيرها: كما يشتري المسافرون العابرون كمية منها. والفائض يباع لسكان السوكي - في احدى المرات اشتريت خمس بطيخات بقرش واحد. وفي يوم آخر ابتعت عشر شمامات من حجم كبير بشلن، وقد أصابني اسهال.

الموليتا والانسولين:

اتعرفون الموليتا؟ انها نبتة لاصقة بالأرض كنا نقتلعها وفي البيت بعد غسلها نلتمس حفنات من السمسم نقليه، ثم نخلطه معها - انها صلطة مرة ولكنها لذيذة - وقد رأيت جارنا الاغريقي يستأجر الصبيان ليجمعوها له من الأراضي البور - ومنه علمنا انها معروفة في بلادهم.

* الا ترى ان كلمة موليتا نفسها لها رنة ايطالية.

ان صديقي علي الحويرص الذي كان من خبراء الزراعة وصار من أهل الباطن اخبرني (في طوره رقم ٢) انهم في بقعة معينة لاحظوا قلة المصابين بمرض السكر، ثم اتضح لهم - بواسطة باحث انجليزي - ان لنبتة الموليتا فائدة في زيادة الانسولين بأجسام المتغذين بها.. كاتب هذه السطور لا علاقة له بمرض السكري.

* التمليكة لا أذكر أنني أكلتها ولكنني رأيتها ضمن الخضروات البرية التي يجمعها الأهالي الغبش من الأراضي البور.. ومنها الخدرة (الملوخية) والويكة (البامية البرية).. هل تصدقون انني كان لي في سنة ١٩٤٠ مائة جوال من الويكة مخزونة بالقضارف - الجوال يحتوي على ١٤ ربع - وبعت الجوال بخمسة قروش (بالخسارة المضاعفة بدل الربح) والآن وجدت في سوق الخرطوم الربع يساوي ٢٠ جنيهاً بالبطاقة الموضوعة حسب أوامر الطوارىء!!

* كان رئيس ميزنا لفترة ما عم الشريف سليمان حسين رحمه الله - وهو نازح حجازي (تزوج من المغاربة بقرية ود السيد - ريفي رفاعة - أصهاره آل عبدالناصر - أقارب أبي) كان العم يحن لطعام قومه. فيطبخ لنا اللحم مع الأرز في بعض الليالي.

ما هي العائلة الكبيرة؟

وفي فترة أخرى كان رئيس الميز العم قسم السيد كزام رحمه الله (من الجبلاب - الدرمانيين) وكان يجيد طبخ أي شيء.

* في أيام مشغولية شديدة. كنت أذهب من الصباح الى محطة البحر. وأقضي النهار بطوله، وآتي في المساء - فلا أجد عشاء - ولم أتكلم في المرة الأولى ولما تكرر الأمر في الليلة الثانية: قلت لهم يا إخواني انتم تعرفون ان هذه البلدة لا يمكن لأحد ان يجد فيها طعاماً في مثل هذه الساعة فبالله اتركوا لي شيئاً صغيراً اتبلغ به.

* فلما جئت في الليلة الثالثة ولم أجد شيئاً. ذهبت بغيظي.. ولكنني بكرت في الصباح لأقول لعم قسم

السيد سأحضر الليلة ـ واذا لم أجد طعاماً سوف أحاسبكم في اليوم التالي. وأدبر طعامي بمفردي إلى أن يعود عم ابراهيم قوته.

* قبل ان يرد عم كزام. تصدى لي شريك في الميز هو الأخ قسم الله وقال لي: انت باين عليك مش من عايلة كبيرة.

* قلت له: يعني ايه؟ قال لي: اذا كنت من عايلة كبيرة ما كنت تتكلم في حاجة بياكلوها ويشربوها!

(أحسب ان القراء عرفوا حتى الآن من مذكرات أغبش ماهية عائلتي. فإذا كان الكبر هو العدد ـ فلنا العديد الأكبر ـ وإذا كان المقصود بكبرها هو المال فإن عائلتنا ما زالت صغيرة ـ أما السماحة ـ فقد كانت وما زالت متوفرة والحمد لله فان تقاسم الفقراء للنبقة عادة مألوفة لدينا) ولكن:

* أحسب أنني قلت من قبل ـ انني استفيد في الغالب من كثير من النصح والوعظ ـ الذي اكشفه أو أسمعه ـ وأكرر القول: ان الشعار الذي يرفعه البعض عن عدم جدوى وعظ الوعاظ. انما هو شعار زائف.. ولولا ذلك لما استطاع تلميذ أن يتعلم علماً ولا فناً. ولا استطاع داعية ان ينشر ديناً ولا مذهباً...

* فكيف استفدت من موعظة الأخ قسم الله؟

كنت أقيم وحدي بالسوكي في أعماق الخريف. وعلمت أن أولاد سنجة بمدارس العاصمة سوف يأتون غداً ببابور البحر، يمتطون القطار الذي يأتي من سنار ويرجع في الصباح الباكر من اليوم التالي.

فكرت في استضافة الطلبة الذين كان كبارهم زملائي بالمدرسة الأولية بسنجة ومعهم الدفعات التالية، فذهبت الى الأخ محمد خير وهو طباخ ـ ورجل مستنير من قبيلة الكنوز ـ وكان يعمل كطباخ خصوصي لجارنا الاغريقي ديمتري بتسلادس ـ ولكنه كان ينتفع من كشك الخواجة في طبخ حلة أو حلتين يبيع محتوياتهما لزبائن قليلين.

* اتفقت مع الأخ محمد خير، وذهبنا معاً فجمعنا البطاطس والبامية والطماطم والجرجير والسمن واللحم والبصل والبهارات...الخ. ورتبنا الميزانية على طعام عشرة أشخاص ووضعنا اعتمادنا في الاحتياطي ـ إذا زاد العدد على البيض والجبنة والسردين والطحنية.

* وذهبت الى الفرن وجمعت ما وجدت من رغيف ـ وأرسلت عشرة قروش لبائعة الكسرة، وكان هذا مبلغاً كبيراً.

* وفي المغرب. تركت للأخ محمد سليمان احمد مهمة استقبال الاصدقاء بالباخرة. واحضارهم الى مجموعة برندات دكاكيننا حيث جمعت كل ما يمكن من كراسي وعناقريب مفروشة وكرويتات ـ وملأت الأزيار بل نفضت القربة وغسلتها وملأتها وعلقتها من اجل التبريد ـ وأوقدت الرتينة.

* وبدا المطر يهطل فوضعت شوالاً فارغاً فوق رأسي وكتفي. وجريت للأخ محمد خير. وقلت له: هيا ننقل الطعام.

* قال لي: ان الطعام أخذه الشيخ محمد ود الأحمر.

ـ كيف؟ ولماذا؟

ـ قال ود الأحمر: انه تلقى اشارة تليفونية من سنار لاستقبال ضيوف مهمين. ويريد الطعام ـ وقلت له: ان هذا الطعام يخص اغبش، بل هو الذي أحضر المواد. وليس لي أنا الا المصنعية.. فقال لي: انت كذاب ثم أحضر خفراء، وشالوا الحلل والصحون والصواني: (أدركت ان الاخ محمد خير قد خاف من الاخ ود الأحمر ـ شيخ السوق ـ فهو يعمل في الأصل طباخاً خصوصياً وليس لديه رخصة مطعم عمومي.

فرجعت الى السوق وأخذت معي اثنين من العتالين وذهبنا الى منزل ود الأحمر ولم يرد أحد على نقر الباب ـ ودخلت إذ لم يكن مقفولاً، ووجدت طعامنا على مائدة، فقلت للعتالين شيلوه قدامي الى الدكان وجلست

فتوضأت وصليت وانتظرت متمنياً رجوع ود الأحمر!

* لما لم يجيء سحبت من جيبي دفتر الورق وقلم الكوبيا (دائماً معي هذه الأشياء) وجلست على نفس المائدة.

* وتجسم لي الأخ قسم الله انت باين عليك مش من عايلة كبيرة ـ اذا كنت من عايلات كبيرة ما كنت تكورك في حاجة بياكلوها ويشربوها!.

* كتبت خطاباً الى الأخ محمد الأحمر رحمه الله، وقلت له: أنا كنت عازمك ولم أجدك. والطعام الذي كان بطرف محمد خير ـ هو طعامك وطعامنا ـ ولكننا عازمين اخوانك من سنجة فلان وفلان ـ وآخرين ـ أرجوك الحضور مع ضيوفك عندنا ـ فمكاننا هناك أوسع.

* وذهبت، وكان المطر مستمراً (مثلما تقول قصيدة خليفة خوجلي: والمطر يصب علينا).

* مع ذلك وصل القطار ـ بعد تأخير ساعة واحدة ـ حيث جاء إذن (بلنجة كوستي) التي درست التقارير ولم تجد ضرورة لحبس قطار الباخرة حتى الصباح (البلنجة هي أداة حديدية صغيرة تستعمل في ربط القضبان، وهندسة السكة الحديد اتخذتها شعاراً لها ـ وكذلك فهي عنوانها التلغرافي ـ ومحطاتنا كانت تتبع قسم كوستي من ناحية هندسة الخطوط، وكانت تتبع ورشة سنار التقاطع من حيث الجانب الميكانيكي، وتتبع ركاب مدني ـ ركاب هو اصطلاح قسم الادارة المختصة بنقل البضائع والركاب).

* جاء ضيوفنا.. ولما لم يصل الأخ محمد الأحمر ولا ضيوفه، أرسلنا اليهم واحداً منا فعاد ليقول ـ أن ود الأحمر قد ألح على الضيف الذي كان واحداً فقط كي يذهب معه للعشاء فحلف الضيف انه تعشى بالاسطناطوار (عربة المطعم بالقطار ولا أدري لماذا يسمونها كذلك).

* وقد تأسفنا وتعشينا دون أن ندري أننا شربنا مقلباً كبيراً.

فضيحة لها جلاجل:

جاءنا الأخ ود الأحمر في الصباح وهو يضحك ويقول انكم ارتكبتم فضيحة لها جلاجل ـ وكيف كان ذلك؟

ـ ان ضيفي البارحة كان فنان السودان الأول... الحاج سرور.

* فقلنا له (اخس عليك) لماذا لم تقل ذلك؟

ـ وقلنا له انه كان بوسعنا ان نذهب نحن وضيوفنا.. برغم ضيق قطيتك.

قصة من السلطنة الزرقاء:

ان الأخ ود الأحمر رحمه الله ينتمي الى عائلة الملك عدلان ـ سليل مكوك السلطنة الزرقاء ـ وبعد أن انتهى تهريجنا الى مباسطة رويت للأخوان القصة الآتية:

* في أواخر أيام السلطنة الزرقاء بسنار قبل سنة ١٨٢١ ذهب أحد الرعية الى قصر الملك، وقال له: ان معي الفكي فلان احضرته عشان يعمل (البرهان) ـ لي شنو؟ ـ عندي نعجة أكلوها ـ والبرهان كيف؟ ـ النعجة تكورك في بطن الذي أكلها من بين الحاضرين (وكان الحاضرون حاشية الملك وهم رجال كثيرون). فعمل الفكي (البرهان) وكانت النتيجة سماع أصوات عشرات بعبعة الضان ومأمأة الأغنام في بطن الملك نفسه!

* قال الملك لصاحب النعجة: ورينا نعجتك ياتي في المدرسيب دا ـ ياود أم هموسة !

* رحم الله الأخ ود الأحمر فقد كان ودوداً ـ وصبوراً في تلقي الممازحات...

لماذا حطم الأسطوانة؟

ولم ير أغبش الفنان سرور في تلك المناسبة التي بدا فيها انه كان مسافر قبلي السوكي الى أين ـ لست ادري ـ حيث لم يلب دعوتنا ولم نذهب للتسليم عليه لأن المطر كان يصب علينا بمستوى قصيدة خليفة خوجلي. ولكن في سنة ١٩٣٥ (ام ١٩٣٦) كان أغبش يدير مكتبة، ودكاناً بسنجة ـ وكان الدكان قريب من موقف اللواري ـ فسمع من يقول أن سروراً اليوم بالبلد وهو الآن جالس بطرف قهوة ابراهيم أحمد حسن فخفق قلبي وجريت، ورحبت به، مع أصدقاء آخرين، وطلبنا الليموناده والشايات والقهوات ـ وأرسلت لدكاني بني سكتلي وأحضرت بسكويتاً انجليزياً راقياً معبأ في صناديق الصفيح المستطيلة (ماركة هنتلي ـ و ـ بالمرز) وأظن أن سروراً قال لنا أنه لا يستطيع أن يتخلف من رحلته الى الروصيرص او كرمك (ولا أذكر).

كان المقهى به فونغراف كبير وحاول الجرسون أن يتظرف وأوقف الأسطوانة الدائرة. وفتش عن اسطوانة لسرور ووجدها مكسورة. وفتش اسطوانة (ليالي العودة نعيم وسرور ـ الحج مبرور ومقبول يا سرور فلم يجدها. فماذا صنع؟).

* قام الجرسون بتركيب اسطوانة خليل فرح (عزه في هواك) فماذا هناك؟

راينا سروراً يتجهم وجهه. ويقف بقامته المديدة. ويهرول نحو الفونوغراف. ويخطف السماعة بشدة. ويقتلع الأسطوانة.

* وكأنما كان سرور واقفاً على مسرح، رفع الأسطوانة وكسرها قطعتين بين يديه، ثم ألقى بها على الطربيزة!

* وجمنا جميعاً. وما كان يمكن لأحدنا أن يخاشنه ـ ولكنه اذا عاد لنا فلا بد ان نطلب منه تنويرنا أو تركيبنا لنفهم اللغز وموقفه من الاسطوانة ومن خليل فرح (رحمهما الله معاً).

* ها هنا جاء الأخ ابراهيم احمد حسن (رحمه الله) وكان غائباً ـ وهو صاحب المقهى ـ وأصله من أمدرمان ومن جيران آل بدري وكاشف (وخليل فرح) بشارع السيد علي الميرغني..

ورحب بالضيف ترحيباً شديداً. ولم يسمح لأحد بالسؤال عن الاسطوانة.. وأشار الأخ ابراهيم بعدم تحصيل ثمن المشروبات... (وفاتت على أغبش بوجه خاص فرصة السؤال والاعتذار عن ليلة السوكي ١٩٣٢).

* ألا يوجد من يفسر لنا موقف المرحوم سرور من اسطوانة (عزه في هواك؟).

هل كان أغبش جباناً؟

ان أغبش حتى هذه اللحظة في سنة ١٩٨٤ نادم سادم (على حد تعبير المعري) من معاملته من سنة ١٩٣٢ للفكي نور الدين الذي علمه حروف الهجاء وبعض سور القرآن الكريم عام ١٩٢١ ـ ما زلت أذكر الرجل، وأترحم عليه وأقرأ بعض القرآن موهوباً لروحه ـ فلماذا ياسي أغبش؟

* في صباح أحد الأيام من سنة ١٩٣٢ بالسوكي رأى أغبش شيخه الفكي نورالدين رحمه الله ـ ملفلفاً، ومع ذلك تملأ البثور وجهه ويديه وكل ما انكشف من جسمه ـ وكان معه تابع، وكان الرجلان يجلسان في ظل برندة مواجهة لدكان عم ابراهيم قوته.

* لم يقصر أغبش في التسليم على الضيفين واحضار الماء لهما للشرب والوضوء والشاي والقهوة من المقهى ـ وعلم منهما انهما جاءا من سنجة ويريدان السفر لحلة الشيخ طلحة.

* ما كان يصعب على أغبش ـ بل كان يسره ـ ان يستضيف شيخه، ويكرمه بكل وسيلة ـ ولكن برز مانع خطير.

* ان البثور التي تملأ وجه الرجل وجسمه قد تكون الجدري الصادق أو الكاذب، وهو الآن هارب مخافة ايداعه بالكورنتينة ـ فإذا استضافه أغبش قد يتعرض للآتي:

١ ـ نفور مجموعة الميز والجيران.

٢ ـ قيام متطوع ما بإبلاغ البوليس والشفخانة وتكون النتيجة حرق امتعتنا، وأخذنا انفسنا الى الكورنتينة، ربما بسنجة أو سنار. والتحقيق مع الفكي نورالدين وجيرانه بسنجة (هذه الاجراءات كانت مألوفة عندنا بالنسبة للأوبئة والأمراض المعدية خصوصاً الجدري والحمى الراجعة: والالتهاب السحائي).

* قد قصر أغبش في استضافة شيخه.. والعجيب انه وجد بعض المتحذلقين يقولون له: ان الواجب عليك كان يقتضي تسليم الشيخ للسلطة من اجل حصر الوباء. (اتضح لي في تجربة خاصة منذ سنوات قليلة. ان التمييز غير ممكن حتى للمتخصصين بين الجدري الصادق والجدري الكاذب «البرجم»).



أغبش ناشر كتب ١٩٣٢م

البريقادير بلاكي حكم على أغبش بـ ١٥ جلدة

لماذا كان يدار خط سكة حديد شرق السودان بواسطة شركة بريطانية خاصة ـ وربما كانت هي التي أنشأته؟ ـ ان هذه الشركة الغامضة كان يشار إليها في ميزانية السكة الحديد السودانية في كل سنة. الى بداية الحكم الذاتي وقد يكون بعد ذلك.

إنني لن أقوم بأي بحث الآن ما دمت أتحدث عن سنوات الثلاثينات، فأنا إذ ذاك كنت شاباً صغيراً قليل التجربة، «أغبش» وحياتي كانت وسط الأهالي الغبش (ولكنني أعد من يتساءلون عن أحداث مشابهة، بما ذلك الاستثمارات ـ البريطانية في السودان، والأزمة الاقتصادية العالمية ـ الخ ـ أعدهم بأعداد ملاحق تضاف الى هذا الكتاب في الوقت المناسب).

* لماذا بدأت هذه الحلقة بهذه القضية؟

احتفال أغبش:

في أسبوع ما في سنة ١٩٣٢ (تقريباً) كنا قد علمنا بالسوكي ان قطاراً خاصاً سوف يمر من الخرطوم الى القضارف ـ وأبعد ـ مروراً بخزان سنار (احتفالاً باكتمال الخط الحديدي) وكان جدول مواعيد القطار الخاص قد نص على التوقف ـ ساعة أو أقل بمحطة السوكي، وقد فكر عم ابراهيم قوته في إكرام المدعوين راكبي القطار ـ وهم من الحكام ورجال الأعمال ـ وقد جمعنا مبالغ صغيرة من تجار السوق وجهزنا الليمونادات والشرباتات (في تلك السنين لم نعرف وباء الكولات). واحضرنا الحلويات والكيك.. وصففنا كراسي وصيواناً ولما وصل القطار (قبل التاسعة صباحاً) جعلنا نطرق عربات النوم.. وقد استجاب لدعوتنا قليلون من التجار الذين كانوا ينتمون الى غرب السودان وغير بريطانيا (سوريون ويونانيون وأرمن).

* هل لم يكن يوجد سودانيون من التجار بالقطار ـ لا نعلم!

* أما البريطانيون فلا شك انهم كانوا موجودين، ولعلهم مروا بمحطتنا نائمين ـ بعد سهرة جامدة ولم يشأ أحدهم ان ينزل بملابس النوم، فالانجليز في بلادنا كانوا يحرصون على الظهور بالملابس الرسمية في مثل هذه المناسبات..

* ولاحظنا عدم وجود تمثيل (للسيدين) ـ علي الميرغني ـ وعبدالرحمن المهدي ـ ففي ذلك الوقت المبكر من حياة الحكم الثنائي كان تقليد (تمثيلهما) لم يتوطد بعد.. أو ربما حرص المنظمون السياسيون على استبعاد أسرة المهدي، منعاً للتجمعات المائجة من الأنصار (كما ظهر في مناسبات سابقة أشرنا إليها من قبل في السلسلة).

وخطب أغبش:

وكان أغبش قد أعد خطبة وافق عم ابراهيم قوته وبقية التجار على القائها ـ وقد صفق له من كان يفهم اللغة العربية من الضيوف ـ.

* وكان أغبش بالسوكي قد خطب عدة مرات في حفلات وداع واستقبال بعض نظار المحطة ـ وكلاء البوستة، ونال نصيبه من التصفيق!

رجال الباطن:

ان أغبش لم يشاهد في حياته إلا خوارق قليلة:

* ظهر رجل بسنجة أو السوكي يتلقف من الهواء أكياساً فيها مال وهو يقول انه شريف قادم من بلاد الشناقيط (موريتانيا) وكان يرتدي جلابية من الدمور الثخين، وملامحه ـ تشبه ملامح بقارة السودان ـ ولم يكن يعطي ماله الى احد!...

أهل الحظوة:

ظهر بسنجة والسوكي وسنار رجل أسود اللون ـ ليس سواداً نيلياً ـ وهو يبدو أشعث أغبر، وكان يتحدث معنا بنفس لغتنا ولكنه يتحدث مع الأغاريق بلغتهم، ويتذاكر معهم مدنهم مثل أثينا عاصمة اليونان أو نيقوسيا عاصمة قبرص ـ وقالوا انه يتكلم أيضاً اللغة الانجليزية ومما زعمره انه في سنار أودعوه بالسجن، ولكنهم لم يجدوه في اليوم التالي (سمعت هنا وفي حياتي الحالية في الخرطوم عن اشخاص يستضيفهم بعض أهل الفضل بينما هم يسوحون الأرض، وحينما تعد المائدة لهم لديهم طريقة يستدعون بها في نفس اللحظة رفاقاً لهم غائبين في العراق أو الهند...الخ).

* في السوكي وسنجة أيضاً ظهر رجل في ثلاثينات عمره ـ في الثلاثينات ـ اسمه العوض، ولونه اسمر (أصفر) وكان يلبس قميصاً ويحمل في يده على الدوام ابريق ماء وكان كلما قابل أحد يقول له: السلام عليكم يا سيدي أعف عني يا سيدي، أنا عاف عنك لله والرسول، ومرحب بأهل الله، والصلاة والسلام على رسول الله.

* زعموا انه يسير على ماء النهر ولكن الشيء الذي شهدته بنفسي انه (العوض) كان يشرب معنا شاي الصباح التفت لعم ابراهيم قوته وقال له (الفقير في ـ الجرادة ـ بيته جنب البير) وقد ضحك العم، وأخبرني فيما بعد، ان العوض لا شك انه رجل صالح، فقد كشف ما يجري في سريرته وهو التفكير في السفر الى بلدة (الجرادة) أظنها غربي كوستي أو شرقي كردفان ـ حيث كان يقيم المرحوم اخوه علي قوته الذي توفي في تلك الأيام.. (وهكذا يتضح ان العوض بخلاف كشفه، او قراءة أفكار الناس، كان ينتقل على نطاق واسع بدون استعمال وسائل الانتقال).

هذا الأخ رأيته بعد سنوات وقد سمن وترهل وصار يسف السعوط ـ وربما اكثر من ذلك ـ حيث جعل يلبس ملابس مبتذلة، ويقيم بالانادايات ـ مشارب المسكرات ـ بالسوكي، (وقالوا انه في الحالة الأخيرة كان مغضوباً عليه من «أهل الله» ويعنون الأولياء ورجال الطرق الصوفية).

ود الشريف الخاتم:

في تلك الفترة من أوائل الثلاثينات أقام بالسوكي أحد أبناء الشريف الخاتم وكان يقيم اذكار «النوبة» القادرية مرتين في الأسبوع، وقد ذهبت اكثر من مرة الى مكان اقامته ولم أفعل شيئاً سوى التفرج ـ ولكن الأخ العيدروس وكان شاباً يحترف التجارة ذهب معي في إحدى الليالي ـ ونزل بحلقة الذكر.

* كان ود الشريف الخاتم ينزل الى الحلقة ـ لما تشتد سخونة الذكر ـ وكان يرقص، بشكل يجعل الناظر اليه يرى جميع أجزاء جسمه في حالة تحرك ـ أو تقصع سريع بطريقة عجيبة.

* لما سكتت النوبة، لم يستطع أخونا العيدروس ان يسكت عن ترديد (حي قيوم) وهو يلهث. والعرق يغسل جسمه كله ويبلل ملابسه ولم يهدأ إلا بعد أن أجلسناه وأرقدناه على ظهره.

* في السنوات الأخيرة ارتفع اسم آل الشريف الخاتم، ومنذ الأربعينات رأينا «محمد عبدالله السماني بالقضارف يعمل باسمهم ـ والآن ينتمي اليهم الفكي البشير بشمبات (إحدى ضواحي الخرطوم بحري).

شطوحات الشيخ هجو:

في السوكي ١٩٣١ تقريباً وجدت بطرف صديقي المرحوم أحمد وقيع الله «قصيدة شطحية» بلغة عربية سليمة. قيل ان الشيخ هجو الماصع قد أملاها في النوم لشاب من اتباعه.

الشيخ هجو الماصع هو خليفة الشيخ التوم ود بانقا ـ والأسرة تشرف علي مسيد ينتمي الى السمانية ـ وهم من قبيلة اليعقوباب ... وأسلوبهم في الذكر انهم يرتكزون على حناكيل ـ عصي طويلة ـ ومنشدهم تصدر منه أصوات غير مفهومة اللغة.

أغبش ناشر كتب:

نسخت قصيدة الشيخ هجو، وكتبت لها مقدمة، وصممت لها غلافاً وأرسلتها الى مطبعة محمد علي صبيح وأولاده ـ بميدان الأزهر بالقاهرة ـ وارسلت لهم ١٥٠ قرشاً وطلبت أن يطبعوه الى ٥٠٠ نسخة (كل نسخة ٤ صفحات متوسطة الحجم والأخيرة خالية من الكتابة).

* وصل المطبوع، فأرسلت نحو ٢٥٠ نسخة الى خليفة الشيخ هجو.. بقرية العمارة، ريفي سنار..

انتهازية وطمع:

كنت انتظر ـ بكل طمع وانتهازية ان يرسلوا لي مبلغاً كبيراً، ولكن لم يصلني شيء.. وبكل صبيانية جعلت اكتب لهم خطابات مطالبة، ما لبثت ان فقدت فضيلة الأدب.

* وفي سنة ١٩٣٢ ربما بعد ٦ أشهر من ارسالي المطبوع الى الخليفة يعقوب رحمه الله نفد صبره ازاء وقاحة لهجتي فكتب الى الملك حسن عدلان ـ ناظر الفونج ـ وكان يرأس الادارة الأهلية بسنجة.

شاء الملك حسن رحمه الله، أن يجعل الحادثة قضية كبيرة، فكلفوا عمدة السوكي ان يرسلني (مخفوراً) الى سنجة، وقد تبعني بالفعل أحد خفراء السوق ـ وكنت قد استأجرت حماراً ـ وذهب أيضاً عم ابراهيم قوته على حماره وكان أسرع، ووصل قبلي...

* في العصر وصلنا الى منزل الملك.. وكان الناس الذين تجمعوا كثيرين ـ بدافع العطف على أغبش ـ وقال الملك لعم ابراهيم قوته، خذه يبيت بمنزله ويحضر غداً في المحكمة.

ماذا قال الشيخ نصر؟..

كان الشيخ نصر رجلاً ناسكاً يبني لنفسه كوخاً على قيف مشرع النيل الأزرق بسنجة.. وقد بكر عم ابراهيم قوته واخذني معه الى «الفكي نصر» وسأله عن «موضوع ولدنا دا»، وبدون شرح القضية، قال الشيخ نصر رحمه الله: «هبوب ساكت»!

ـ وكانت هذه طريقة الفكي نصر حينما يلجأ اليه الناس، يقول لهم مثل هذا الكلام ويذهبون ويفسرونه...

* مجمل القول انه كان رجلاً زاهداً ولا أحد يعلم عنه أكثر من ذلك.

* في اليوم التالي، ذهبنا الى المحكمة، وطلب الملك الافراج عني بضمانة لمدة ١٥ يوماً ـ الى ان يحضر المفتش الانجليزي الذي كان قد ذهب في مامورية الى الكرمك.

* العجيب ان الملك حسن عدلان رحمه الله كان قد رفض ان يوضح سبب استدعائي ولذلك انتشرت اشاعات عجيبة.

* كان شقيقي علي رجب رحمه الله قد استقبل ركبنا في مدخل سنجة.

كانت مظاهرة المأمور حسن احمد خليفة في موضوع كتابي لمجلة الدنيا المصورة ـ بمصر ـ معروفة لدى المك ولدى سكان سنجة.. كذلك كنت في تلك الأيام قد ارسلت رسالة الى المرحوم الشيخ احمد عثمان القاضي رئيس تحرير جريدة حضارة السودان، انتقدت فيها محتويات الجريدة والنقائض التي رأيت انها تقصر بها عن مستويات الصحف المصرية، وقد تضايق المرحوم شيخ القاضي من تلك الرسالة وأبلغ عن ضيقه كبار الموظفين بسنجة).

استدعاء أغبش:

وصلت الى سنجة بعد فترة الـ ١٥ يوماً وكان يوم خميس فقالوا يجب ان أحضر بمكتب المفتش الأول المستر بلاكلي في تمام التاسعة صباح الأحد (المذكور صار مدير مديرية كسلا)...

وفي سنة ١٩٤٠ تطوع في الخدمة العسكرية لبلاده والحق بقوة دفاع السودان وحارب بجبهة كسلا ـ كرن ـ اسمرا وترقى الى رتبة بريقادير ـ اميرلاي ـ ولما وصل الى أديس أبابا، صار ضابط اتصال سياسي مع الامبراطور هيلاسيلاسي الذي عاد الى عرش أثيوبيا. وحاول بلاكلي ان يأخذ معه الأخ المرحوم ميخائيل بخيت، ولكنه اعتذر قائلاً انه لا يستطيع ان يذهب الى اثيوبيا في ركاب قوة اجنبية غازية، (هكذا قال لي ميخائيل، رحمه الله).

أهل الدقون الدائرة:

دعيت في اليوم التالي (الجمعة) للغداء في منزل العم المرحوم الحاج يوسف الحاج احمد الفلاتي، فذهبت فلم اجد من سني سوى أبناء رب الدار، وأصهاره (محمد احمد ومحمد الحسن ومحمد علي والجاك عبدالمطلب وابراهيم الهامي واحمد محمد ابراهيم).

* ثم رأيت منظراً عجباً، نحو الخمسين من اهل الذقون الدائرة والوجوه النائرة ـ هذا منظر لا يمكن ان ينسى، لا يمكن ان تشاهد مثله في أي حفل بأي مكان، لسبب بسيط هو أن الشبان لا بد أن يكونوا موجودين ولكنهم كانوا هناك مفقودين. كان هناك تجمع الأعمام الحاج يوسف الفلاتي صاحب الدار ثم الحاج يوسف الفكي مدني، محمد افندي خير، مكي علي، ابراهيم قوته، الجاك النصري، ابراهيم النصري، أمين نابري، علي افندي محمد علي، بابكر بريمة، الشيخ عبدالله ود علي، العمدة عمر الخضر، المك حسن عدلان، عثمان عبدالله النجومي، المأمور محمد الحاج الأمين، عبدالقادر بابكر، العبيد التوم، الشيخ شوقي الأسد، ناظر المدرسة الصافي علي، مصطفى حامد ستيب، محمد رمضان (اربد) قسم السيد الكنين، علي شعبان، عوض أبوالعلا، عوض ماهل، محمد علي ابوفلقة، محمد الأمين أبوالحسن، عبدالقادر ود احمد، خالد الحسين الربا طابي محمد الأمين شاشوق، محمد ود العوض، محمد ود ريس، احمد كوكو، عبدالمطلب منصور، مصطفى ابوحاج، قسم السيد الجبلابي، علي ابراهيم سعدالله، خليفة فضول، عباس خير الله، الحاج فضل الله، صديق ابو زيد، محمد أفندي أبوعاقلة، الطريفي أبو عاقلة، الخال نور المدينة ود ـ ود ـ حمدان، الكفي السماني، الشيخ ادريس، الفكي السماني الشيخ الطيب، الخليفة خليفة ود علي بشير طمبل، سعيد الحسين، الحاج علي الشريف، احمد المكي، محمد شاويش، عبدالرحمن المقبول، محمد الاحيمر، الأمير محميد، الفكي محمد ود عجبين، ابراهيم الأقرع، محمد معتوق، ابراهيم معتوق، الفكي محمد ود الحجاز، الهادي افندي العوض، احمد عثمان بسيوني، توفيق مبروك، عمر حماد، الشريف الحبيب، عبدالمجيد حسن، الحسن الصديق، حمد الصديق، احمد الحويرص، الفكي احمد الحلونجي (وغيرهم.. رحم الله الذاهبين والباقين).

ولم يكن هذا الاحتفال العجيب مخصصاً للشاب المدعو أغبش وانما كان للشيخ المليك عبدالله شرف

الدين، (والد الشيخ بابكر المليك رحمهما الله) وكان قد زار سنجة حيث توجد اخته (جدتي أم والدتي) وكان عم يوسف الفلاتي رحمه الله صديق المليك الكبير، ورفيق شبابه برفاعة فأقام هذه الوليمة الكبيرة.

* والصدفة جعلت المناسبة قبل ٢٤ ساعة من محاكمة أغبش ولذلك رأى عم يوسف بحكمته أن يدعوه.

* افترض أغبش ان الشيوخ الأجلاء قد ناقشوا الأمر مع الملك حسن عدلان ـ ثم اتفقوا.

استجواب بالطريقة السقراطية:

استدعي أغبش المسكين أمام الشيوخ وجعلوا يسألونه:

(س) انت. هل استأذنت خليفة الشيخ هجو في القصيدة؟

(ج) لا..

(س) هل طلب منك الخليفة ارسال البضاعة اليه؟

(ج) لا..

(س) انت ارسلتها له من تلقاء نفسك، فهل هو تاجر؟

(ج) لا..

(س) إذن، أنت غلطان؟

(ج)........

(س) أنت غلطان، أنت غلطان، أنت غلطان..

(ج) نعم...

(ثم أخرجوا أغبش المسكين تحت حراسة صديقه محمد علي يوسف الى صفرة الغداء ضمن الشباب القليلين).

* وتداول الشيوخ وهم يقرعون فناجين القهوة، ثم استدعوا أغبش مرة أخرى وقالوا له، ان وفدا منهم ـ يشمل مندوب حلة الشيخ هجو ـ سوف يقابل المفتش الانجليزي في اليوم التالي ـ قبلك).

* في اليوم التالي قالوا لأغبش انهم اخبروا المفتش بأن الولد ولدهم وقد اعترف بأنه غلطان، واتفقوا معه على جلدك ١٠ جلدات!

★ ★ ★ ★ ★ ★

مقابلة بلاكلي:

قال بلاكلي لأغبش «ليه وانت انسان متعلم، والدليل هـو «المكدمـه» التي كتبتها للقصيـدة ـ وكمان الجوابات الكثيرة دي ـ ليه تكتب كلام (كليل أدب) للشيخ هجو؟

(انا كنت مساعد مفتش في سنار قبل ١٠ سنين ـ وكنت اكبر منك شويه ـ وكان الشيخ هجو «زي أبوي).

ـ انت قلتان.

ـ انت قلتان، الشيخ هجو مش تاجر، وأنت ما أخذت منه إذن.. (وتعالت اصوات وفد الشيوخ «غلطان، غلطان، فاضطررت أن أقول: غلطان».

* قال المفتش: انا حكمت عليك بـ ١٥ جلدة.

* أرقدوني على كرسيين خيزران بنفس مكتب المفتش، وكانوا كلهم واقفين بمن فيهم المفتش ـ الذي أمر الشاويش مركز ـ بضم الميم ـ ان يجلدني وكان الجلد بكرباج عنج طويل (ولمنفعة القراء المصـريين كـان الكرباج من النوع الذي يستعمله عساكر الهجانة السودانيين في مصر).

ـ لا لم أصرخ، ولا أنكر اني تململت... ولما وقفت كان سروالي قد اصطبغ بالدم.

تعهد مكتوب:

وبأمر من الملك (رحمه الله) أخذوني الى محكمته، وهناك قال لكاتبه أكتب على لسانه تعهداً بعدم الكتابة الى مصر «في مسألة سياسية» ـ وهذا التزام لم تكن لي فيه أية سابقة ـ.

فقال لي الأخ المرحوم أحمد محمد علي السنجاوي، وكان واقفاً معي «لا توقع على هذا التعهد» ـ ولكنني رأيت من المشرف لي التوقيع على الوثيقة التي تنسبني الى صفة اتطلع إليها!

علاقة عائلية:

كنت أجهل ان اليعقوباب (عائلة الشيخ التوم ود بانقا وخلفائه) انما هم أهلنا، وبعض أبنائهم من أبنائنا بفضل علاقاتهم مع (الشاطراب) بسنار القديمة، وهؤلاء هم أبناء ابراهيم الأمين (أبناء اختنا الكبيرة من أبينا) وقد صاروا قبيلة كبيرة (والشاطراب فرع من الشايقية وبعضهم انصار).

تشبه بأبن حنبل:

لما رجعت الى السوكي، قلت لأصدقائي:

جلدت كما جلد الامام أحمد بن حنبل! ـ وصارت هذه الجملة عنواناً للقصة التي سلف نشرها عدة مرات منذ سنة ١٩٤٦.



لماذا طرد المفتش الانجليزي الفكي البشير من سنجة؟

لقد سمعت قراءة راتب المهدي في بيتنا ـ مرات عديدة من حناجر أخوالي وقلبت المخطوط ـ ثم رأيته مطبوعاً (في النصف الأول من العشرينات، طبعه المرحوم سليمان داوود منديل بالخرطوم) وهذا المطبوع، كلفني الأخ المرحوم آدم بشارة بسنجة ـ وأنا تلميذ كتاب ـ أن أقرأه معه حتى يقيم لسانه عليه، وكانت قدرته على القراءة ضعيفة.

* بعد ذلك سمعت نص راتب المهدي ـ بدون مبالغة ـ آلاف المرات، حيث ظل عم ابراهيم قوته يتلوه بصوت عال كل صباح ومساء.

* ان راتب المهدي مجموعة أدعية قرآنية ونبوية ـ ومأثورات أخرى متنسكة جداً في التوجه الى الله سبحانه وتعالى ـ ورفض الدنيا.

أوراد الختمية:

للختمية أورادهم (١) الأساس الصغير ـ وهكذا كنت استظهره ـ وبعد المقدمة المأثورة (اللهم أنت السلام...الخ) يحتوي على أذكار (و)هز رأس ـ وضاع مني (٢) الأساس الكبير، جربته لمجرد الاطلاع (٣) الراتب المسمى الأنوار المتراكمة ـ ويمكن مقارنته براتب المهدي ورواتب أخرى (٤) صلاة على النبي وآله وصحبه ـ تشبه دلائل الخيرات (٥) استغاثة بأسماء الله الحسنى، اسماً بعد اسم في قصيدة منعشة حينما ينشدونها في جماعة (يأتي بعد ذلك المولد، الذي يقرأ مرتين في الأسبوع في جماعة ـ وهو يلخص حياة الرسول صلوات الله عليه) ومدائح عديدة للنبي، وتفاخرات الفها بعض أسلاف المراغنة، وتوجد أماديح من بعض خلفائهم مثل ود الترابي (و)ود المتعارض.

أهل النوبات:

* الاسماعيلية في سنجة (وهي طريقة محتكرة للدواليب والبديرية الدهامشة) لم تكن لهم (نوبة) ولكن لهم مولد على نفس غرار المولد العثماني (الشيخ اسماعيل الولي الكردفاني كان خليفة للمراغنة وقد أذنوا له بالاستقلال الذاتي، حيث أنشأ الطريقة الاسماعيلية) وهم بأمدرمان لهم (نوبة)... السيد البكري زعيم الاسماعيلية في المهدية (اختاره الخليفة ود تورشين لدفن الآخرين) الى جواره (والآخرون هؤلاء أكثرهم من الختمية ـ بينما مقبرة أحمد شرفي، صارت مدفن أبناء الأنصار).

* القادرية بسنجة لم أر لهم قراءة كثيرة في العشرينات أيام شيخهم (ود الشرقاوي) وقد أشرت من قبل الى قراءتهم مولد البرزنجي في فترة المولد النبوي.

ولكن في القضارف (١٩٣٧) وجدت الشيخ مصطفى العجوة رحمه الله (بديم بكر) يحتفل بحولية الشيخ عبدالقادر الجيلاني ـ وقد دعينا وذهبت مع الأخ الخليفة أحمد الجاك رحمه الله، والأخ الخليفة يوسف البشير، حفظه الله.

كان كراع كركب كاع:

غاب عن الحولية فقيه معين كانوا يكلفونه بقراءة المناقب، فرشحوا أغبش للقراءة بدلاً عنه، وأجلسوه على كرسي كبير من النوع البلدي المنسوج بالحبال، لكنه كانت مرصوصة عليه المساند مع ملاءة من القرمصيص... وكانت الرتائن على جانبيه مع مئات حشرات الليل، ولكن البخور من اللبان والصندل والدنكل

و(الند) هذا البخور كان عاكلاً ـ بحيث أنه طرد الحشرات تقريباً.

سلموا الفكي أغبش كتاباً مطبوعاً هو عبارة عن ترجمة حياة الشيخ عبدالقادر الجيلاني، وقالوا له: ان الكتاب طويل والمطلوب منك ان تنتخب بعض فصوله وتقرأها على نية البركة:

* اخترت مولد الشيخ ونشأته وتعليمه وتدرجه الصوفي.

* ثم جاء فصل به ٩٩ اسماً قالوا انها أسماء الشيخ عبدالقادر الجيلاني ولكنها لم تكن كلها بالعربية، بل بعضها باللغتين الفارسية و(التركية).

* كان يقف خلف أغبش درويش طويل عريض يلبس الملابس المرقعة ـ بالألوان المختلفة ـ ويضع على رأسه طرطوراً زاهياً، ويحمل في يده سيفاً (سيف خشب).

* لما صار أغبش يقرأ أسماء الجيلاني الأعجمية ـ ولنفترض انها كوف، طرطوف، شراتيك..الخ.

* ما كان من الدرويش (الحرس) إلا أن ترجم ولنفترض انه هتف (كان كراع كركب كاع) وجعل يغرض بسيفه.

* ضحك أغبش وضحك المستمعون في الجلسة الوقورة، وأكملت القراءة، وحضرنا مع الدراويش ـ ذكرهم وأكلنا معهم عشاءهم البالغ الدسامة ـ رحمهم الله.

علمت أن القادرية مثلاً في أب حراز وطيبة (العركيين) وفي الشكينيبة (المكاشفي) ـ وأم ضبان (البدراب) وفي كدباس (الشيخ الجعلي)...الخ. يلقنون دراويشهم أذكاراً بأعداد كبيرة ـ بالآلاف ـ ولذلك ترى بعضهم يحملون الجوالات، فالمسبحة الالفية تحتاج الى جوال لنقلها، وهي مؤلفة من حبات كبيرة هي نواة اللالوب.

ويوجد قادرية يقرأون أوراداً من كتب مطبوعة منسوبة الى الشيخ عبدالقادر الجيلاني (في حوزتي كتاب الغنية من تأليفه، ويصح وصفه بأنه كتاب فقه عام).

* الختمية أذكارهم مطبوعة كلها تقريباً ـ لا أدري إذا كانت لديهم تلقينات خصوصية لبعض تلاميذهم ـ ولكن يبدو لي ان انتاج مشائخهم الآخرين لم يطبع مثلاً لا توجد أي نصوص مطبوعة منسوبة للسيد حسن أب جلابية وأعقابه (محمد عثمان الأقرب، وابنيه أحمد، وعلي، وأحفاده محمد عثمان ـ شمبات ـ والحسن ـ كسلا ـ ومحمد عثمان ـ وأحمد ـ حلة خوجلي)... كذلك فان مجموعات (المناقب) التي تقرأ في (الحوليات) وهي أكثر من عشر كتيبات، ما زالت تتناقل بشكل مخطوطات.

انصراف عن الطرق:

في السوكي لم أفتش عن حلقات الختمية، وهم على كل حال في تلك السنين من أوائل الثلاثينات لم يكن وجودهم هناك صاخباً، وقد حافظت فقط على تقليب كتبهم للتقليد الأدبي قلدت أماديح السيد جعفر الميرغني، كما قلدت المولد العثماني.

(اطلع صديقي الاستاذ صديق مكي من رجال التعليم حينما زارني بالسوكي في سنة ١٩٣٢ على ذلك التقليد الفكاهي للمولد، فقال لي ان هذا عبث فعليك ان تنصرف الى مواضيع جادة ونافعة، وشفع الأخ صديق نصيحته بالعمل السريع وأهداني كتاب (خطرات نفس) تأليف الأستاذ المرحوم الدكتور منصور فهمي ـ المتخصص في الفلسفة ـ والكتاب عبارة عن مقالات ونشرات في الأهرام في فترة العشرينات وقد أشار الأستاذ توفيق الحكيم في الأسابيع الأخيرة إلى اشتراكه مع منصور فهمي في كتابة مقالات، ولما طلب الزميلان من الأستاذ داود بركات محرر الجريدة اعطاءهما مكافآت مالية، قال لهما ان مجهودكما الأدبي لا يقدر بمال، ولذلك فانه لا يوصي بدفع فلوس لكما، وكما يعلم القراء فإن توفيق الحكيم قد شهروا ببخله، ومنصور فهمي نفسه قد وصفه تلميذه أنيس منصور بأنه كان أيضاً شديد البخل!

تركت الحلف:

الحقيقة منذ أواخر العشرينات قد قاومت ذلك الحلف (وحاة سيدي الحسن)... وليس ذلك غريباً فإن المدرسة الأولية لم تقصر في تلقيننا (من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت) ان مقاومة مثل هذه العادة تحتاج الى مجهود (واع) بالاضافة الى (ايحاء) وقبل أن أعرف (الايحاء الذاتي) يمكنني أن أقول ان بعض القراءات - التي سوف أوضحها - وكذلك المناقشات كلها أتاحت لي الخدمة الايحائية بشكليها الواعي والباطني.

حلقات الفقهاء:

كان جامع سنجة تقريباً على الدوام به حلقة مسائية لتلقين الفقه المالكي، بكتب معينة هي (١) حاشية الصفتي، علي بن تركي، علي العشماوية - أو (٢) رسالة بن أبي زيد القيرواني بشرح الشرنوبي - أو (٣) متن العزية للجماعة الأزهرية.

* كل هذه الكتب كانت عندي بفترة ما... وقد غشيت تلك الحلقات مرات قليلة، وطريقتهم كانت أن يطالع أحد التلاميذ، فقرات بصوت مسموع، فيعقبه الأستاذ بالشرح - ولكن الانضباط مفقود فتتصاعد الاستفسارات من المستمعين، ويا ليتهم يستفسرون في حدود الموضوع بل تجد احدهم وهو متسول اليه تعالى بالمدينة يسأل عن احكام زكاة البقر (وبنت لبون وبنت مخاض).

بينما الدرس يتعلق بسجود السهو ونحن في أشد الحاجة لمعرفة ما يقضي علينا الفقه فيه بالسجود القبلي او السجود البعدي.

* هذا ما جعلني لا أزور تلك الحلقات إلا لماماً، قبل أن أقرأ انتقادات العم الحاج أحمد حسون في صفحات جريدة السودان للفقه الذي يضيع وقتاً نفيساً في جزئيات ثانوية.

* في السوكي جلست مرات في حلقة الشيخ أبو هارون - وهو رباطابي ختمي بجلابيته ذات اللياقة - وقد أفادنا أن اسرته تحتفظ بقائمة نسب ينتهي بها الى الخليفة العباسي أبي عبد الله المشهور باسم السفاح (لوفرة ما سفك من دماء المسلمين في سبيل الملك).

* في سنجة ظل منذ أواخر العشرينات يجلس على رأس الحلقة شيخ ورع هو الشيخ احمد - البشير، وكان صريحاً في انتقاد (البدع) وبينها بدع بعض أصحاب الطرق، وهو نفسه متنسك بصورة ما - كانوا يسمونه متصوفاً، يتجنب أكل الأطعمة الحيوانية (بأسلوب - المعري) ولعل مثاله العملي هو الذي كان قد شجعني على الدخول في تلك التجربة القصيرة في هذا الاتجاه، (والتي رويت قصتها من قبل على أثر قراءة كتاب ذكرى أبي العلاء تأليف طه حسين).

* هذا الشيخ طرد من سنجة بطريقة عجيبة في سنة ١٩٣٦ حيث دعينا لافطار رمضان بمنزل العم الحاج عبدالقادر أبكر بمبادرة من أصهاره أولاد النعيم مهيد.. وكان الشيخ احمد البشير بين المدعوين.. وجاءت جريدة حضارة السودان فقلبناها، وكانت تحتوي على هدية - هي ورقة صقيلة بها صورة كبيرة لولي عهد بريطانيا، البرنس أوف ويلز، حيث زار الخرطوم - هو نفسه الملك ادوارد الثامن الذي أزيح عن العرش بسبب زواجه من امرأة أمريكية عزباء.

* كانت صورة ولي عهد بريطانيا تشمله مع أعيان السودان الرسميين (السيرين - علي الميرغني وعبدالرحمن المهدي، والشريف يوسف الهندي، ثم حملة النياشين البريطانية الأخرى من كبار الضباط وكبار الموظفين وبعض المشايخ).

* كان الأعيان بعضهم - على صدورهم الاوسمة البريطانية، وهي (صلبان).

* سأل أحدنا الشيخ احمد البشير عن رأيه في لباس زعمائنا للصلبان فقال: انه حرام.

* صرخ أحد الموجودين من الضيوف وهو أنصاري وجرى الى مأمور المركز ـ بدون استشارة احد وأبلغه أن الشيخ فلان، في منزل آل فلان، قد انتقد لباس السيد علي والسيد عبد الرحمن لنياشين ملك بريطانيا.

* في خلال ساعة واحدة جاء البوليس ومعه أمر من مفتش المركز الانجليزي بأن يغادر الشيخ احمد البشير المدينة في نفس الليلة ـ وحاول المضيفون أن يضمنوه لثلاثة أيام، أو يوم واحد كي يودع تلاميذه ويعرف ما له وما عليه، والزموه أن يرابط بموقف اللواري حتى تأتي عربة مسافرة الى سنار!

* وقد ودعنا الشيخ وكنا قلقين، وأبدينا الأسف على ضياع جوهرتنا الثمينة (أستاذنا) من أيدينا بسبب تفاهة واحد منا، فقال شيخنا:

* سئلت فأجبت، بمقتضى حديث الرسول صلى الله عليه وسلم (من سئل عن مسألة فكتمها، ألجمه الله تعالى يوم القيامة بلجام من نار).



كيف درب أغبش نفسه على مقاومة الخوف من البعاعيت والتماسيح؟

أوليات فلسفية عن كيفية رسم هدف في الحياة...

كان المظروف المكتوب عليه (الدرس الأول) وتساءل عنه المرحوم عوض أبوالعلا: درس ايه؟ فلسفة؟ انما هو في التحليل النهائي فلسفة، فهو من دروس (التربية العقلية) ـ من اجتهادات محمد فائق الجوهري ـ المحامي المصري الذي ورد ذكره من قبل.

في هذه الدروس يريد منك الأستاذ (الفائق) أن تتخلى عن جميع اعتقاداتك القديمة إذ يقول لك انهم في قاعات البحث في الجامعات، يطلبون منك عدم حمل الاعتقادات ـ المسبقة معك.

* وبدون مقدمات يقفز بنا الى دراسة عن نشأة الكون ـ السدم والمجرات ـ وكيف ان المجرة الواحدة تحتوي على ملايين النجوم، وشمسنا عبارة عن نجمة واحدة، وأرضنا كوكب تابع للنظام الشمسي، وقمر الأرض له نظائر وأشباه لدى بعض الكواكب الشقيقة التي تدور معنا حول شمسنا ـ (مثلاً) أقمار المشتري وعددها ٦.

* كذلك ايضاً قد حاضرنا أستاذنا الجوهري عن نشأة الحياة على الأرض. حيث وجدت أولاً ـ (الأميبا) أو الخلية المفردة من (البروتوبلازم) ـ وهذه أشياء كنت قد قرأتها بشكلها النظري، دون أن تتاح لي فرصة استعمال تلسكوب لمتابعة الافلاك. ولا مكرسكوب لتمعن الأحياء الدقيقة ـ فقد قرأت مجلة المقتطف الشهرية المعنية بدراسة العلوم. كما قرأت بعض كتبهم بقلم رئيس تحريرها فؤاد صروف ـ وغيره.

* ولكيلا يجعلك فائق الجوهري تتوهم انه خارج بك من الاسلام، ينقل لك من القرآن: (من كان يظن أن لن ينصره الله في الدنيا والآخرة، فليمدد بسبب الى السماء ثم ليقطع، فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ) ـ ١٥ سورة «الحج».

الايحاء الذاتي:

ولقننا معهد التربية العقلية المصري أحد أساليب الايحاء الذاتي.. والطريقة التي اختارها لغرس هذا التكتيك هي أن تردد لنفسك قبل النوم (أن أفكاري هي أساس ما أنا عليه، وما يمكن أن أكون عليه في المستقبل) وشرح لنا الأمر بنظرية (المثل) الافلاطونية، مبسطة ان كل شيء في العالم قد وجد أولاً بشكل صورة أو فكرة أو مثال ـ قبل وجوده المادي ـ (وها هنا في هذه الفقرة يكون أغبش أفندي قد لخص لكم بؤرة الصراع بين الفلاسفة الماركسيين وخصومهم!).

رسم الهدف:

انني تقريباً في وقت واحد مع حصولي على أوراق معهد التربية العقلية ١٩٣٠ قد اقتنيت كتاب (الأخلاق) للأستاذ أحمد أمين (العلامة المصري، صاحب موسوعة الفكر الاسلامي: فجر الاسلام، ضحى الاسلام، عصر الاسلام ـ ومؤلفات أخرى).

وكتاب أحمد أمين يلفت نظري للمرة الأولى الى أننا في استعمال كلمة أخلاق نخلط بين أشياء كان يجب أن تكون لها تمييزاتها مثلاً:

١) الأخلاق عندنا بمعنى (فضائل) ـ مورالز (و) فيرتيوز.

٢) الأخلاق بمعنى (طباع) كاراكترز ـ وهي هنا قد تكون ممدوحة أو مذمومة.
٣) ولما نصل الى الأخلاق بمعنى (اثيكز) نجد أنفسنا أمام المبادىء التي تنبع منها الأخلاق وهل هي دين أو فلسفة أو تقاليد وطنية أو تقاليد صناعية أو تجارية أو أكاديمية أو قانونية أو موضوعات دولية (أو في حالتنا، قد تكون قبلية!).

يخشى أغبش أن يكون قد وسع هذه اللوحة لا اعتماداً على أحمد أمين وانما بناء على تطورات تفكيره الخاص ـ وعلى كل حال ـ فإنني على ثقة من أن أبناءنا يحسنون صنعاً بمحاولة التفكير في الكلمات الواردة في البنود الثلاثة أعلاه، ومراجعة معانيها في قواميس اللغة وكتب الدين والفلسفة والأدب وعلم النفس ـ انها محاولة جديرة بالتنفيذ من قبل كل شاب وشابة في مقتبل العمر..

* بعد هذا أفادنا أحمد أمين بضرورة رسم (هدف) لحياتك ـ رسم (مثل أعلى) تريد لنفسك بلوغه، بحيث يمكن أن يكون كله من اختيارك، أو ان شئت اختر لنفسك (قدوة) أو ـ (أسوة) مثل النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه والمجاهدين والعلماء والشعراء والأدباء والباحثين الفكريين والقواد والحكام والمخترعين والمستكشفين ـ وحتى إذا شئت فليكن قدوتك أحد المزارعين أو الصناع أو التجار..

* وعبر فائق الجوهري عن فكرة رسم الهدف كما فعل أحمد أمين.

هدف الصحافة والوطنية:

وأنا كنت قد اخترت لنفسي فكرة هدف الصحافة والوطنية. وفي تلك الأيام اقتنيت كتاباً عن الفن الصحفي، تأليف صحفي عربي من الحجاز (المملكة السعودية لم تعرف باسمها الحالي في العشرينات).. وفي فترة السوكي ٣٢/١٩٢٤ أصدرت جريدة (الحق الصراح) وكانت عبارة عن مقالات ركيكة ضد حكم الانجليز، وضد وكلائهم في الادارة الأهلية، مع محاولات تنتقد المغالاة في محبة مشايخ الطرق الصوفية وتعتبر ذلك عبادة وشركاً.

* جريدة (الحق الصراح) كانت تصدر في أربع صفحات هي عبارة عن (دبل فولسكاب مسطر) اكتبها بيدي بالكربون، وقد أصدرت منها أربعة أعداد، وكان قد أفادني الأخ المرحوم أحمد محمد علي السنجاوي في الخمسينات انه يحتفظ بها، وقد ذكرت هذه الشهادة على لسانه في إشارتي لهذا الموضوع في فترة نشر سابق لبعض هذه المذكرات (وكتاب الصحفي الحجازي نفسه كان قد أخذه مني الأخ المرحوم سنجاوي).

عالجت الخوف:

انني حتى في طفولتي الباكرة لم أسمع في داخل بيتنا كلمات التخويف مثل (ود أم بعلو) لأن والدتنا رحمها الله كانت شجاعة، وإذا سمعت صوتاً في الليل تخرج وهي حاملة (العصا).

ولكننا سمعنا قصة (البعاتي) بحسبانه حقيقة واقعة.. يقولون لك أن فلان وهو من قبائل غرب أفريقيا، قام من قبره، بعد موته ودفنه ـ وصار يزور بيته في الليل...

والذئاب لم نسمع عنها فقط، بل كنا نسمع أصواتها، ونراها بأجسامها ـ تخطف أغنامنا أو تلتهم مؤخرة حمارنا ـ أو تقبض عليها مصيدتنا التي نسميها (الكجامة).

* والتماسيح رأيناها جثثاً هامدة على شاطىء النيل ـ بعد اصطيادها ـ وسمعنا عن اخراج الحلي الذهبية والفضية من أجوافها، كدليل على التهام فتيات أو صبيان (الفتيات يتحلين بالحجول والأسورة والاقراط)، والصبيان بعضهم يلبسون (جبيرة) أو (حفيظة) أو (فدوة) في الأذن.

قالوا لنا ان التمساح يخطف الانسان من طرف مجرى النيل ـ يخطفه بذنبه ـ والمخطوف الواعي عليه ان يطبز التمساح في عينه ـ وحبذا لو كانت بيدك سكين ـ فيغتاظ تمساحك ويقذف بك الى البر!

* ولكنهم قالوا لنا ان بعض التماسيح هم (ناس سحرة)... ومع أن المرفعين نادراً ما يعتدي على الانسان، فانه أحياناً يكون أيضاً (إنساناً ساحراً) وهو خطر على أطفال البشر، وكذلك التماسيح من النوع الذي بشر ساحر.

* ولا شك ان هذه خرافات، على الرغم من أنني أتعاطف مع أقاصيص الأخ الأستاذ مصطفى سند بجريدة الأيام (اليوميات)... وتلك الحكايات لم أسمعها في بيتنا، بل سمعتها من مجالس الكبار ـ خصوصاً بالسوكي.

مقابر بالسوكي:

ان السكة الحديد قد قامت بعمليات حفر كبيرة بمقابر السوكي، لكي تمد خطها من المحطة العمومية الى محطة البحر ـ فقد أتلفت مئات القبور، وكنا نرى العظام البشرية على جوانب الخط الحديدي.

في فترة ١٩٢٩/٢٨ كنا نقيم بقرية الافطح، وفي مرة واحدة جاءنا ضيف بعد صلاة العشاء وطعام العشاء، وكلفت بركوب الحمار الى السوق ـ عبر امتداد كيلومتر كامل من المقابر ـ لاحضار الطعام.

* كان عمري ١٢ / ١٤ وكنت خائفاً من البعاعيت... ويبدو أن حماري أيضاً كان قد شم ريحة مرفعين ـ بدليل ارتجافه واندفاعه، بحيث لم يكبحه اللجام ولذلك وصل العمود فارغاً من (المرقة) ولكن بقيت قطع اللحم والدباء، وعلى كل حال فان الضيف قد تعشى والحمد لله.

* والطريق بين محطة البحر والسوق، صار من واجبي أن أعبره كل يوم صباحاً ومساء في فترة ١٩٣٤/٣٢، وكان يمر على المقابر، وفي الشهور الأولى كنت أخاف إذا كنت وحدي، وأتخيل كل جذع شجرة (بعاتيا) وتوجد أشجار هجليج كثيرة، وكنت أتضايق من هذا الخوف ومع تلاوتي التلقائية المستمرة لآية الكرسي، لجأت الى استعمال طريقة الايحاء الذاتي، من أجل طرد أو (عقلنة) غريزة الخوف، فصرت أردد هذه الجملة (انني لم أعد صغيراً انني رجل قوي وشجاع وكفء لمقابلة أي خطر)... ويبدو أنني نجحت، خصوصاً بعد أن استعملت المنهج المذكور في الفقرة التالية.

جلسة تلباثي:

وبالرجوع الى منهج التربية العقلية، فقد أخبرني الأستاذ محمد فائق الجوهري انه في الساعة (٩) مساء كل يوم يجلس بطريقة معينة، ويرجو مني أن أجلس هادئاً فترة دقائق بعد التاسعة، وأن أوجه خواطري نحوه (نحو الأستاذ الجوهري!) وفهمت ان هذه محاولة صوفية لاشعال العقل الانساني بحيث يتولد منه (اتصال عن بعد) ـ أو التلباثي الذي نسمع عنه كثيراً ضمن محاولات (الباراسيكولوجي) في هذه الأيام.

* لم يحدث لي أي اتصال عن بعد مع أستاذي الجوهري ـ حيث يبدو أن أحدنا، أو كلينا يفقد الشفافية ـ ولكنني استفدت من الفكرة.

* من أهم وسائل العلاج النفسي الارادي ـ أعني الذي تقوم به بنفسك، وأنت بوعيك ـ وسيلة (التحدي).

* أنت تخاف من (البعاتي) ومن التمساح ـ إذن عليك أن تذهب لملاقاتهما!

* كنت أقيم وحدي فترة ما، فتعودت أن أنهض في الرابعة صباحاً وأذهب الى مشروع المعدية مروراً بجزء من المقابر، وفي الشاطىء أخلع ملابسي وأجلس الى الماء تحت إحدى المراكب المهجورة، واستحم، وأتوضأ، وأصلي ـ ثم أصعد على ظهر المركب وأجلس على ركن يجعلني أطل على النهر من الجانب الداخلي، وأرى انعكاس القمر والنجوم على صفحة الماء ـ وفي غير شهور الفيضان أشهد حركات صغار السمك.

* وأسمع من وسط النهر صوت سقوط حيوان كبير ـ قد يكون تمساحاً ـ ولكن الصيادين قالوا لي انه في الغالب سمكة كبيرة أو (قرنتية).

في هذه الجلسة الهادئة كنت اكمل تسبيحاتي، وأحياناً كنت أراجع حفظي للشعر ـ أو أشياء أخرى بما في ذلك تهجئة الكلمات الانجليزية.

* وأحياناً كنت أتذكر الأهل والأصدقاء ـ وقد تخطر لي فكرة كتابة خطاب لأحد الأعزاء البعيدين مكانياً.

* حتى الآن ألجأ الى ممارسة هذه الجلسة الهادئة ـ خصوصاً إذا أحاطت بي مشاكل وأجد بعدها راحة أو فرجاً...

كيف تكونت شخصية السوداني:

* لأصور القضية ببساطة: ان سوداننا الحالي شبيه بسودان السلطنة الزرقاء من حيث بروز دور الطرق الصوفية ومشايخها في المجتمع.

* هل خلا سودان السلطنة الزرقاء من وجود القاضي دشين الذي يقول للولي ـ صاحب السر الباتع، أفسخ عقد الزوجة الجديدة فانها لا تحل لك؟

* ويقول الولي: قلت ليك ما بفسخها ـ يفسخ جلدك!

* وينفسخ جلد القاضي دشين ـ ومع ذلك يصر على فتواه؟!

تطور المتصوفة:

ان جميع الصوفيين الذين نعرفهم ـ وخصوصاً في السودان ـ يؤكدون التزامهم بالشريعة الاسلامية، ويديرون خلاوي القرآن، بل وبعضهم فتحوا (معاهد الفقه) فهل تراهم يستبعدون مذهب ابن حنبل ـ وشروح ابن تيمية واجتهادات محمد بن عبدالوهاب ـ حتى ولو وصفوها بالمغالاة؟.

* ولماذا يرفض الصوفيون لومهم على قعودهم عن الجهاد؟ الأمر الذي اتفق فيه محمد أحمد المهدي، مع جمال الدين الافغاني، بدون لقاء، وفي الحقيقة سبق بهذا اللوم فقهاء أجلاء منذ فترة العدوان الصليبي!!

* ان الختمية صار من تقاليدهم المرعية في عهد السيد علي الميرغني رحمه الله، منع قصائد الشطوحات، ومنها قصيدة الخليفة ود المتعارض الذي رثى السيد الحسن أب جلابية بتهديده باحيائه ـ لأنه سمح لنفسه أن يموت في غيابه:

تغيبني وتفعل مثل هذا؟

أما والله اذ ما شئت تنشر

مؤسسة الحج:

لماذا لا يتاح لاغبش أن يوضح أن الحجاج السودانيين قبل سنة ١٩٣٠ كانوا (آحاداً لعدم الأمن في تلك السنين بالحجاز)....

ولما استولى عبدالعزيز بن سعود على مكة المكرمة والمدينة المنورة سنة ١٩٢٦ ـ تزايد عدد حجاجنا الى العشرات فالمئات فالألوف؟

* ولماذا لا يشار تاريخياً الى تحطيم المقامات بالحجاز على أيدي الوهابيين ـ اعتماداً على تفسير حديث نبوي صحيح يحرم اقامة المساجد على المقابر ـ بحيث نرى الآن مقبرة سيد الشهداء حمزة وبقية شهداء غزوة أحد خارج المدينة المنورة عارية الا من سور واطىء... ونرى البقيع المشهور وليس فيه أي بناء الا السور الخارجي؟

لم يحطم الوهابيون البناء المقام فوق روضة الرسول صلى الله عليه وسلم وصاحبيه، رضـوان الله عليهما ـ لأن البناء معزول عن المسجد ـ ولكن مقابر البقيع مثلاً لا يتاح فيها هذا بسبب وفرتها (وقد رأينا مقابر أسلاف عظام في العراق ومصر ـ مثلاً وهي مقامة عليها أبنية منعزلة، ويصح القول انها معزولة عن كل مسجد بحيث للمصلين أن يصلوا بعيدين عنها، ولكن يوجد من يصرون على الصلاة والتمسح بها).

* لا يمكن عزل الحجاز والسعودية عن الاشعاع الفكري علينا في الماضي والحاضر والمستقبل.

* أذكر القراء ان الطريقتين السمانية والختمية ـ قد جاءتا إلينا من الحجاز ـ والأحمدية (بشقيها) جاءتنا من مصر ومعها الشاذلية، والقادرية جاءتنا من العراق (تاج الدين البهاري) والادريسية جاءتنا من ليبيا... والتيجانية هاجرت الينا من الجزائر!

* فلماذا يستكثر على مصر أن تشع علينا أفكار أنصار السنة والمنار ومحمد عبده وجمال الدين الافغاني ـ وابن تيمية ـ وعبدالمتعال الصعيدي (وحتى سودان السلطنة الزرقاء كان يدار باسمه (الرواق السناري) ضمن الجامعة الزهرية).

* ولماذا لا نتلقى أفكار الوهابيين ـ ونحن نراهم يطورونهـا، فقد اختفت تشـدداتهم التي كانت في الثلاثينات.. والادارة السعودية نراها من الحصافة، بحيث نتوقع منها، من خلال منظمة المؤتمر الاسلامي بمكة والطائف، ان تلتقي مع اجماع المسلمين في الاقطار الاخرى.

* لا تنسوا أن الصوفيين عندنا حتى ورثة أولياء السلطنة الزرقاء نراهم يتطورون.

* ان علاقاتنا بجيراننا خصوصاً مصر والسعودية والحبشة، تحتوي على مبادلات ثقافية وتجارية لا يمكن أن تهملها مذكرات أغبش.

* ألفت نظركم في هذه العجالة الى أن نفط السعودية هو (الثروة العربية الأولى التي خلقت ثورة).

فان كلاً من ايران والعراق والبحرين قد سبقت السعودية في استغلال البترول، ولكن ابن سعود جاء بمبدأ الـ ٥٠/٥٠ مع الأمريكيين، وهذا المبدأ قد استفادت منه الكويت واقطار الخليج الأخرى ـ ولم تظفر به ايران والعراق والبحرين، إلا بعد صراعات متأخرة زمانياً!

* هذه الثروة النفطية قد أكسبت السودان منافع اقتصادية وثقافية عبر البحر الأحمر ـ والخليج...

* * * * *

الصينيون الماويون بالسودان كرموا أول موتاهم بإقامة قبة على ضريحه مثل الأولياء

تعريف بالحاج حسون.. وبرئيس نادي المريخ الأسبق

نظرية يوسف بدري ودور المسيد في التنمية الشاملة

لماذا بنى الصينيون (قبة) في المدخل الشرقي بجسر واد مدني على النيل الأزرق؟

ـ أجاب محدثي: لقد لاحظوا أن بناء القباب هي الطريقة السودانية لتكريم الأسلاف فلما مات العامل الصيني الملحد، بنوا له تلك القبة!!

قلت له: أليس من المحتمل أن يختلط الأمر على الاخلاف في المستقبل، بحيث يظنون أن قبة جسر حنتوب تحتها شيخ من الأسلاف اسمه الشيخ (منو من وين) الجاي من الصين؟!

قال: هذا وارد جداً.. وها هنا اشترك ثالثنا في الحديث، فقال: أنا لا أريد أن اتحدث عن (أبي جنزير) بالخرطوم، فقد ادعى أكثر من (خلف) بأنه خير (سلف) لأسرته.. ولكن توجد قباب في شارع البلدية موروثة أيضاً من عهود ما قبل الحكم الثنائي ولم يتم بعد تأليف رواية (الشيوخ الذين هم تحتها).

كان محدثي الأول هو ابننا عبدالرحمن سعيد مصطفى ـ عركي من الرضمة بالجزيرة ـ وهو خريج مدرسة وسطى عمل مع الصينيين في مسيرتهم الطويلة في بناء الطريق الممهد بين واد مدني ـ البر الشرقي ـ والقضارف، في السبعينات.

نظرية يوسف بدري:

شرح لنا الدكتور مالك بابكر بدري نظرية أخيه الاستاذ يوسف ب. بدري عميد مدارس الاحفاد عن (دور المسيد) وعرض علينا بالفانوس السحري صورة القبة وفي ظلها الحيران يقرأون القرآن ثم يذهبون لزراعة (البلاد) والجروف والساقية أيضاً ـ فالمسيد وحدة انتاجية وتعليمية.

كانت المحاضرة باركويت (عثمان دقنة) في إحدى استراحات المؤتمر الدراسي في الستينات وقد ذهلت لما علمت ان النظرية البدرية تريد أن يكون دور المسيد بالوصف المتقدم (خطة تنموية).

قلت لهم: أين التصدير، وأين التصنيع، وأين التعليم الفني، وأين التعليم العالي، وأين الوسائل الميكانيكية للنقل والعمل ـ وأين التكنولوجيا ـ وأين عصر الفضاء؟

وقلت للبدريين: ان نظريتكم قد تصلح لتفسير الماضي، ولكنها لا تصلح لتخطيط المستقبل!

وملحمة عبدالله البشير:

أجل... ان المسيد الذي قام بتنظير دوره الاستاذ الجليل يوسف بدري ـ والذي ألف له شاعرنا الكبير عبدالله البشير (ملحمة شعرية) انما هو مفخرة من مفاخر الماضي ولكنه لا يمكن أن يكون تجمعاً تنموياً للمستقبل في القرنين العشرين والحادي والعشرين.

وليس معنى هذا الكلام التخلي عن الدين، فان الدين وخصوصاً الإسلام ـ حياة للدنيا والآخرة، يجلب للناس راحتهم الروحية في المعمل والمزرعة والمختبر العلمي، وفي الجو وعلى الارض، وفي الفضاء وعلى أرضيات

الكواكب الأخرى.. ولن تكون بالأجيال الجديدة حاجة الى تراب الأضرحة بصفة (زوارة) ولا محاية يكتبها شيخ، ولا حجاب يعلقه أحدهم على عنقه، ولا حاجة بهم الى قباب يتمسحون بها.

التساؤلات:

ان أغبش قبل أن يعرف الأدب المستورد سواء من أنصار السنة بمصر ـ أو من الوهابيين بالجزيرة العربية ـ كان يسمع المناقشات المتعلقة بهذا الموضوع.

قال الاعرابي: وهو واقف إزاء القبر المغروسة حوله البوارق البيضاء ـ (يا أبـوي الشيخ محمـود، تحجاني من الموت!).

فقال له صاحبه: أبوك الشيخ محمود إذا كان بيحجي من الموت، عاجباه ها الانشتاحة؟!

وأنصار المهدي حتى العشرينات كانوا قد ورثوا من الاعتقادات ما يباعد بينهم ومشـايخ ـ الطرق وقبابهم وطرائق الذكر التي يمارسونها (كما نقلنا خلاصة تعاليم المهدي من كتاب السودان عبر القرون، تأليف الدكتور مكي شبيكة).

والفقهاء الذين كانوا يعقدون لنا حلقات الفقه بالمساجد، كانوا يلقوننا في الأمسيات بسائط المعلومات المتعلقة بالصلاة والصيام والزكاة ـ ولكنهم كانوا يعقدون بعد صلاة الظهر مباشرة، حلقات لقلة من التلاميذ يشرحون فيها التوحيد، والحديث النبوي، وقواعد النحو وأحياناً يقرأون نماذ ج من تفسير القرآن الكريم.

وحلقات القلة هذه، كانت تؤكد لنا العبادة والدعاء لله وحده، وكذلك النذور والاستغاثة والحلف ـ وتصل تلك الحلقات الى المسألة الشائكة التي هي مسألة (الشفاعة والتوسل) والمسألة الأخرى المتعلقة باقامة مباني التقديس فوق القبور.

القرآن:

والحقيقة ان القرآن يكفي، وكان أغبش يقرأ في المصحف منذ أن كان عمره ٩ سنوات وقد وجد في السنوات التالية بعض التفسير بالقراءة أو السماع.

والآيات التي تحتم التوحيد لله تعالى ـ وبالتالي العبادة والدعاء والحلف والنذر ـ والاستغاثة ـ كما تفيد (الشفاعة) انما هي بالعشرات، ننقل بعضها:

الشفاعة:

من ذا الذي يشفع عنده إلا باذنه (٢٥٥ البقرة).

ما من شفيع إلا من بعد إذنه (٣ يونس).

وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم انهم فيكم شركاء (٩٤ الانعام).

لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء (٢٦ النجم).

ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق (٨٦ الزخرف).

العبادة:

قال اني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله (٥٦ الأنعام).. ونفس الصيغة (٦٦ غافر).

قل انما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به (٣٦ الرعد).

قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون (٦٤ الزمر).

ألا تعبدوا إلا الله انني لكم منه نذير وبشير (٢ هود ـ ومكررة ٢٦ هود).

ان الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه (٤٠ يوسف).
قل أتعبدون من دون الله من لا يملك لكم ضراً ولا نفعاً (٧٦ المائدة).
انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون (٩٨ الأنبياء).
ان الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا (١٧ العنكبوت).
تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله (٦٤ آل عمران).
الا لله الدين الخالص ـ والذين اتخذوا من دونه أولياء، ما نعبدهم إلا ليقربونا الى الله زلفى، ان الله يحكم بينهم في ما هم فيه مختلفون (٣ الزمر).
وما أمروا الا ليعبدوا إلها واحدا (٣١ التوبة).
ويعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطانا (٧١ الحج).

الدعاء:

... فلما اثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين (١٨٩) فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما فتعالى الله عما يشركون (١٩٠) أيشركون ما لا يخلق شيئا وهم يخلقون (١٩١) ولا يستطيعون لهم نصرا ولا أنفسهم ينصرون؟ (١٩٢ الأعراف).
ويوم يقول نادوا شركائي الذين زعمتم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم (٥٢ الكهف).
قل انما ادعوا ربي ولا أشرك به أحدا (٢٠ الجن).
ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك (١٠٦ يونس).
فلا تدع مع الله إلها آخر فتكون من المعذبين (٢١٣ الشعراء).
وان المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا (١٨ الجن).
ان الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم (١٩٤ الأعراف).
ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له (٧٣ الحج).
هل يسمعونكم إذ تدعون؟ (٧٢ الشعراء).
والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير (١٣ فاطر).
قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله، أروني ماذا خلقوا من الأرض؟ (٤٠ فاطر).
ومن يدع مع الله إلها آخر لا برهان له به فانما حسابه عند ربه (١١٧ المؤمنون).
ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له الى يوم القيامة؟ (٥ الأحقاف).
ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله، فيسبوا الله عدوا بغير علم (١٠٨ الأنعام).
(لبيك يا رب.. إذن سوف لا نسبهم، بل نسألك يا رب أن تهديهم)!
والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء الا كباسط كفيه الى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه، وما دعاء الكافرين إلا في ضلال (١٤ الرعد).
وأن ما يدعون من دونه هو الباطل (٦٢ الحج).
ذلك بأن الله هو الحق وانما يدعون من دونه الباطل (٣٠ لقمان).
والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء (٢٠ غافر).
قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون أفلا تنظرون (١٩٥).
وإذا سألك عبادي عني، فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان (١٨٦ البقرة).

الشرك:

وكيف أخاف مما أشركتم، ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا، فأي الفريقين أحق بالأمن ان كنتم تعلمون؟ (٨١ الأنعام).

هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده؟ قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده، فأنى تؤفكون (٣٤ يونس).

التوحيد:

وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة، وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون (٤٥ الزمر).

أأرباب متفرقون خير؟ أم الله الواحد القهار (٣٩ يوسف).

قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي، انما الهكم إله واحد (٦ فصلت).

قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار (١٦ الرعد).

ان إلهكم لواحد، رب السموات والأرض وما بينهما ورب المشارق (٤ الصافات).

قل أغير الله أبغي ربا، وهو رب كل شيء (١٦٤ الأنعام).

قل من رب السموات والأرض؟ قل الله، قل افاتخذتم من دونه أولياء، لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا، قل هل يستوي الأعمى والبصير؟ ام هل تستوي الظلمات والنور؟ أم جعلوا لله شركاء ـ خلقوا كخلقه، فتشابه الخلق عليهم ـ قل الله خالق كل شيء، وهو الواحد القهار (١٦ الرعد).

اتبعوا ما أنزل اليكم من ربكم، ولا تتبعوا من دونه أولياء، قليلا ما تذكرون (٣ الأعراف).

الذكر:

والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا انفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ـ ومن يغفر الذنوب إلا الله؟ ـ ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون (١٣٥) أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، ونعم أجر العاملين (١٣٦ الأعراف) واذكر ربك في نفسك تضرعا وخيفة ـ ودون الجهر من القول ـ بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين (٢٠٥ الأعراف).

ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه، قل ان الله يضل من يشاء، ويهدي اليه من أناب (٢٧) الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله، ألا بذكر الله تطمئن القلوب (٢٨ الرعد) ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين (٣٦ الزخرف).

ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم بذكر الله وما نزل من الحق، ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم، وكثير منهم فاسقون (١٦ الحديد) استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله، أولئك حزب الشيطان، ألا ان حزب الشيطان هم الخاسرون (١٩ المجادلة).

ومن أعرض عن ذكري فان له معيشة ضنكا، ونحشره يوم القيامة أعمى (١٢٤) قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا (١٢٥) قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها، وكذلك اليوم تنسى (١٢٦) وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى (١٢٧ طه).

اطلاعي الخاص:

بمحل أبو العلا بسنجة كان يتردد علينا العم المرحوم الشيخ سعيد وهو من رديف الجيش كان يقيم بحلة ١٤ ويدير دكاناً صغيراً... وجاء يحمل في أحد الأيام بعض اعداد مجلة (التقوى) التي كانت تصدر بمصر، وزعها على الموجودين مجاناً... واستفسرته فأفادني أن المجلة ينشرها قوم كرماء، فإذا أرسلت اليهم في كل

شهر عشرة قروش ـ حتى ولو بطوابع بريد سودانية ـ فإنهم يرسلون إليك بضعة أعداد (فلم يتوان أغبش في تنفيذ هذه الخطة، ولكنه جعل يحاول بيع الأعداد الفائضة ولم يجد شارياً، فوزعها مجاناً بالاضطرار الذي ربما خفض حقه في الأجر!).

كانت المجلة تحتوي على تفسير وحديث وفوائد دينية أخرى (١٩٣٠).

اطلع أغبش على كتاب ترجمة لحياة جمال الدين الأفغاني وعلى كتاب الاسلام والنصرانية مع العلم والمدنية ـ تأليف محمد عبده ـ ثم بعض كتب الشيخ مصطفى الغلاييني، وهو سوري ذو دعاية اسـلامية ممتازة.

لم يقتن أغبش تفسير (المنار) بالأسف، وهو حينما اكتمل زاد عن عشرة مجلدات، نواته تفسير محمد عبده، أضاف اليها وأكملها المرحوم الشيخ محمد رشيد رضا وهو فقيه سوري متمصر مع زملائه جمـاعة (أنصار السنة) بمصر، وكانوا يصدرون مجلة المنار، التي اطلع أغبش على بعض أعدادها.

تابع أغبش مقالات الأستاذ عبد المتعال الصعيدي ـ وهو أزهري مصري ـ على صفحات مجلة الرسالة (صدرت ١٩٣٣) وللمذكور كتاب هام هو (المجددون في الاسلام) مبني على أساس الحديث النبوي الذي ينص على أن مولانا سبحانه وتعالى يقيض للملة الاسلامية على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها ـ وقد رصد الكاتب كرام التابعين وتابعي التابعين، واستبعد الزنادقة من المفكرين، ولم يطرد المتفلسفين من نادي المجددين الاسلاميين ـ ولكنه أضعف دور المتصوفة وخصوصاً الغزالي ومحيى الدين بن عربي، وأنكر فكرة المهدية والمتمهدين وهم كثر، ويمكن القول بانه احترم أهل المذاهب الأربعة وخصوصاً أحمد بن حنبل ولا تنتظروا منه طبعاً أن يتخلى عن أحمد بن تيمية، ولا عن محمد بن عبدالوهاب (بل هو قد وضع صورة الملك عبدالعزيز بن سعود على صدر نادي المجددين في الاسلام).

عم حسون:

كان احمد أفندي حسون موظف بوستة وتلغراف في العشرينات، كان من ذوي الاجتهادات الأدبية التي كانت شائعة في تلك المصلحة وشملت عمنا الشاعر صالح عبدالقادر، ونبي الله خاطر.

راجع عم حسون رحمه الله ديوان مدائح ود أب شريعة ـ وظل يشيد بالديوان وقصائده حتى بعد أن اعتنق الوهابية (سمعته يتأنق في وصف بلاغة بيت معين من شعر ود أب شريعة في مدح النبي صلى الله عليه وسلم، حيث يقول (المخصوص بالزعامة) ـ وغير ذلك).

سمعت من عم حسون رحمه الله انه كان متصوفاً متطرفاً، باحدى الطرق الدرويشية، التي لم أثبت عنها.

ثم أتيح لعم حسون تجويد القرآن الكريم وحفظ قسط منه ربما قبل الحجة التي أتيحت له فيما يبدو في أوائل الثلاثينات (ألم أقل لكم ان فوضى الأمن في عهد أشراف مكة قد انتهت باستيلاء عبدالعزيز بن سعود على الحجاز، في سنة ١٩٢٦، وبالتالي تزايدت أعداد الحجاج السودانيين بالتدريج من الآحاد، الى العشرات، الى المئات الى الألوف؟).

كان عم الحاج حسون رحمه الله يتلو القرآن بصوت مسموع للمصلين في المساجد وللمجتمعين في المناسبات، وفي منتصف الثلاثينات بدأ يقدم بعض المواعظ، التي تعبر عن أفكار توحيدية ناهية عن الاغراق في (تقديس الأشخاص) ـ ولا حاجة الى القول ان عم حسون قد تشرب العقيدة الوهابية، وقرأ كتبهم، وتكرر الحج لعم حسون وصار يقيم مواعظه في الحرمين ومنى.

في أمدرمان ومدن سودانية أخرى كان عم حسون يتلقى الضرب من بعض المستمعين، ولكنه لم يكن يفقد بعض التلاميذ الذين يحمونه.

أعجب أغبش بمقالات عم حسون الدينية على صفحات جريدة السودان (التي كان يحررها شيخنا المرحوم عبدالرحمن احمد بالخرطوم) في النصف الثاني من الثلاثينات.

تعرفت الى عمي الكريم الحاج احمد حسون رحمه الله بالقضارف، وكان وكيل البوستة في الأربعينات، وصرنا صديقين، ولم أتلق منه جديداً، ولكنه كان محدثاً ظريفاً، ومشيراً مخلصاً في كل موضوع، وكريماً بالطعام والكلام والمال أيضاً.

كان عم حسون يخشى تجمعات أنصار المهدية وعبرت له عن رأيي بأنهم يشكلون (طائفة) وان المهدي مع انه حرم الطرق، فإن أعقابه قد جعلوا تراثه (طريقة).

- قال لي انه يجد أسلوب تأدية أنصار المهدي للصلوات الخمس متمشياً مع السنة المطهرة.

- وعن المهدي نفسه إزاء سؤالي عن تكرار إشارته الى لقاء (سيد الوجود - يعني النبي صلى الله عليه وسلم - وتوجيهاته له)، أجاب عم حسون بأنه قد أخذ هذا الكلام على اعتبار ان المهدي كان يتحدث عن رؤى منامية!

بعد أن تقاعد عم الحاج حسون في أوائل الخمسينات أتيح له الجوار بمكة والمدينة لعدة سنوات مع وظيفة بالبريد السعودي، تحولت فيما بعد الى وظيفة وعظية دينية، ثم عاد لبلاده مقيماً بأمدرمان ممارساً مكرماته الى أن توفي في السبعينات، رحمه الله وأحسن إليه.

أصدقاء

في السوكي وسنجة لم أجد دعاة سنيين، ولكنني كنت أنا ذلك (الداعية الرفيق)، وكان اصدقائي من الختمية يستمعون لي ويضحكون، وجرى الأمر على هذا المنوال بالقضارف حيث عاشرت وصاهرت الختمية، ومنهم آل عبدالحفيظ، وآل الخليفة طه، وآل الحاج عثمان (ألم يحدثكم الأخ الريفي انني كنت رفيقاً في طرح أفكاري المضادة لأفكار الآخرين).

شيخ الزبير:

ربما كان (السني) الوحيد الذي عرفته بالقضارف خلاف عم حسون - بمعنى انه يقوم بالدعوة - هو المرحوم الشيخ الزبير عبدالمحمود، ولكنه كان رفيقاً، وهو (بطحاني) من مواليد شندي، وانتماؤه البدوي جعله يقيم بين قبيلة (اللحويين) الرحل - بمنطقة المقطع بجوار خشم القربة، عاصمة الشكرية إذ ذاك - وقد ألف كتاباً مبسطاً في قواعد الصلاة والصيام لمنفعة البدو.

والشيخ الزبير عبدالمحمود الذي أقام فيما بعد ٣٠ سنة بالخرطوم كانت نزعته الوهابية معروفة، ولكن ذلك لم يمنعه من تولي وظيفة إمام جامع عبدالمنعم، وذلك لرفقه العظيم رحمه الله.

كان يدير أيضاً مكتبة عامرة ضمن أسوار جامع الخرطوم الكبير، وهي ما زالت موجودة تدار بواسطة ورثته، (أرجوك لا تزعل يا حاج أحمد محجوب فقد حصل استدراك).

جماعة أمدرمان:

جماعة أنصار السنة بأمدرمان لن أتحدث إلا عن أحدهم الذي هو الأخ الأستاذ يوسف عمر أغا - أبقاه الله - الذي كان موظفاً وتقاعد - واترك أسماء الآخرين في هذه المناسبة بسبب قضية شخص واحد منهم، وهو نفسه مع الأخ يوسف أتيحت لي المودة معهما.

لم اجتمع كثيراً مع الجماعة وأعضائها ولكن التعاطف قد ظهر بيني وبينهم منذ سنة ١٩٤٧ وكنت أعمل بجريدة (السودان الجديد) واتصل مع جريدتي (الصراحة) طوال الخمسينات.

كنت أناقش قضية الطائفية مع أخ عزيز، وهو مثقف كبير في أواخر الأربعينات وكان معروفاً بدوائر الخريجين والنادي والمؤتمر، فقال لي:

انت عاوز توجد فراغ في المكانة التي يملأها السيدان (الميرغني والمهدي)؟

وتريد أن تملأ الفراغ بواحد رئيس نادي كورة؟!

كان الأخ الأستاذ يوسف عمر آغا (حفظه الله) رئيس نادي المريخ ـ وهو سوف يتقبل النكتة، وربما يظن أن محدثي المشار اليه كان من الهلالاب!!

خروج على السنة:

الشخص الذي لم اذكره من جماعة أمدرمان قيل لي انه قد تبنى تلك الدعوة المارقة التي تنادي ببطلان الصلوات الخمس، يزعم أن الصلاة فقط صلاتان حسب القرآن.

١ ـ يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت ايمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر، وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة، ومن بعد صلاة العشاء... (٥٨ سورة النور).

٢ ـ (أقم الصلاة لدلوك الشمس الى غسق الليل وقرآن الفجر ان قرآن الفجر كان مشهودا (٧٨) ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا) (٧٩ الاسراء).

٣ ـ (واقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل، ان الحسنات يذهبن السيئات، ذلك ذكرى للذاكرين) (١١٤ هود).

٤ ـ حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين (٢٣٨ البقرة).

ان هذه الآيات الكريمة لا تنص بصراحة على خمس صلوات في اليوم، وان كانت آية ١١٤ هود التي وضعناها بالمكان الثالث يمكن الافتراض إزاءها ان طرفي النهار هما الظهر والعصر ـ وزلف الليل تشمل المغرب والعشاء والفجر.

ان ادعياء تلك الدعوة المارقة يرفضون تأويل القرآن ـ وبما في ذلك الآيتان اللتان اختارهما ابن عباس (رضي الله عنهما) وهما ١٧ـ١٨ الروم وسنذكر قصتهما في الفقرة التي نختم بها هذه القضية.

ان هؤلاء الأدعياء ينكرون السنة وتواتر العمل الجماعي للمسلمين ـ فقط يتشدقون بالتمسك بالقرآن ـ وفي هذه القضية بالذات ينكرون حديث المعراج وخصوصاً المراجعة بين الرسول ورب العزة حول الخمسين صلاة حتى انتهت الى خمس بمشورة نبي الله موسى واذا اقتصر الأمر على انكار حديث المعراج وحده لهان.

سئل ابن عباس رضي الله عنهما (كيف تجد ذكر الصلوات الخمس في القرآن فقال: (فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون (١٧) وله الحمد في السموات والأرض عشيا وحين تظهرون) (١٨ الروم).

(حاشية) عرضت هذا الحديث على الأستاذ الشاب أبو قناية (تمييزاً له عن شيوخ الأسرة الصالحين) فقال ان الآيتين تشيران الى (تسبيح وحمد) وليس الى صلوات. د. أبو قناية هو صاحب مقالة التشكيك في قصة المعراج التي نشرت بالصحافة وعورضت منذ سنوات).

أرجو ملاحظة أن (انصار السنة) و(الوهابيين) لا علاقة لهم بهذه الدعوة المارقة وهي دعوة قديمة قد نجد أصلها في كتاب (الملل والنحل) للشهرستاني.

وهابيو الخرطوم:

عرفت الأخ حسن ابراهيم الفضل رحمه الله في الثلاثينات بالقضارف وقلع النحل، وفي ١٩٤١ بالخرطوم ثم بكسلا وأسمرا ـ وبالأبيض ١٩٤٥ وكنا على صداقة حميمة وكان حسن سائق لوري متديناً ويحسن الاطلاع والمناقشة (ولكنه لم يتمذهب بالمذهب الوهابي في تلك الفترة).

في سنة ١٩٤٧ بالخرطوم وجدت الأخ حسن (متوهباً) (وأنا كنت أقدم منه ـ ولكن على خفيف).

عن طريق الأخ حسن ابراهيم الفضل، رحمه الله عرفت وهابيين كثيرين كان يقيم لهم الولائم في منزله بديم التعايشة، بعضهم حرفيون، وبعضهم أئمة مساجد وبعضهم مستخدمو سكة حديد...الخ. ولكن كان بينهم أيضاً الشيخ الهدية.

الشيخ الهدية:

الشيخ الهدية حتى أوائل الخمسينات كان موظف بريد ـ رأيته بقسم الطرود ببوستة أمدرمان. ولكنه الآن امام كبير في المذهب الوهابي وصارت له اتصالات مع أئمة المذهب بالمملكة السعودية.

وهابيو القضارف:

يبدو لي أن الأخ أحمد محجوب قد اعتنق الوهابية قبل أن يأتي عم حسون الى القضارف في الأربعينات.

في عام (١٩٨٣) رأيت لديه تفسير المنار بمجلداته الكبيرة والكثيرة فغبطته (يعني بغرت منه ـ مش حسدته!).

الأخ أحمد محجوب شديد التعصب فهو يرفض تبادل الفاتحة في العزاء (مثلاً) بحسبانها بدعة ـ وكل بدعة ضلالة.

يبدو لي أن الأخ عثمان الشريف الأمين الذي كان موظف بريد ـ قد دخل المذهب اقتداء بالعم حسون، الذي كان صديقه.

ان جماعة أنصار السنة قد تكاثروا بالقضارف وصار لهم مسجد كبير ـ عامر بالمصلين ـ من كل المذاهب.

معلوماتي قديمة:

ان انصار السنة كثيرون في جميع مدن السودان وصارت لهم مساجد كثيرة وحلقات تعليم للقرآن والفقه.

واذا جازت المقارنة فان قوتهم تتعادل، وقد ترجح، مع تشكيلات الطرق الصوفية!

* * * * *

درّب أغبش نفسه على أشغال الزراعة المطرية

الهمباتي الوحيد في حياتي نهبني عنوة بمكتب البوستة

استوردت من كسلا للسوكي طرد مرتجعات مجلات بالسكة حديد

كان من الطبيعي حينما أصدرت (الصراحة) في أول يناير ١٩٥٠ أن أرسل نسخة اكرامية لأستاذي الحاج احمد حسون، وكان بالقضارف فأرسل لي حوالة بخمسة جنيهات وكان اشتراكنا جنيهاً واحداً وقال ان المبلغ عبارة عن نقطة سماية لجريدة الصراحة! وقال انه كوكيل بوستة لا يشترك في الصحف حسب المثل (ان طباخ السم يذوقه) بمعنى أن موظفي البريد يقرأون الصحف مجاناً (وهذا القول ليس صحيحاً على اطلاقه - فنحن هنا نراهم يشترون الجرائد والمجلات).

الاسبرانتو:

* أنني طوال ستين سنة - لم يمر علي أسبوع حتى ولا في السجن - إلا وأكون قد تعاملت مع مكاتب البريد السودانية... وتعاملت مع مئات موظفيها وعاشرتهم وصادقت كثيرين منهم وليس عندي سوى شكوى واحدة، من موظف بريد واحد كانت شديدة الإيلام، وهي تشكل حالة القهر الوحيدة في حياتي التي لم انتصف فيها لنفسي.

* قرأت عن تصنيف لغة اصطناعية مبسطة سموها (الاسبرانتو) تصلح كلغة عالمية.

* ثم ما لبثت أن اطلعت على اعـلان في الصحف المصرية ((١٩٣٣) عن معهد لتعليم الاسبرانتو بالمراسلة، وما عليك إلا أن ترسل ١٠٠ قرش ليرسلوا لك الدروس الأولية - ومعها قاموس - ففعلت.

* كان بريد السوكي يديره موظف واحد - ومعه ساع واحد فقط - وحينما وقفت في الشباك أفـرغ صديقي الساعي (موسى) كيس البريد على تربيزة أمامي وأنا أنظر ورفع طرداً صغيراً وقال لي ان هذا مكتوب عليه اسمك وقرأ اسمي بالفعل، كما قرأت اسم المرسل منه (معهد الاسبرانتو) وكان الوكيل في الفطور، في منزله القريب، ولما جاء بدأ أولاً بتحريك مفاتيح التلغراف، ثم جاء الى الشباك، وقلب الجوابات، وأبعد طرد الاسبرانتو الى الناحية الأخرى من التربيزة.

وعلى طريقة تلك الأيام قرأ عناوين الجوابات على الناس الواقفين بالشباك، وأعطى الموجودين جواباتهم، وأنا منهم، ولما تفرق الناس، قلت له (الطرد داك حقي).

قال: ... مش حقك.

- حقي.

- قلت ليك مش حقك (وقفل).

* وتجننت، فجريت في طريق البوليس، تعثرت فوقعت على الأرض فلزمت الجابرة وكانت تظللني شجرة وقلت لنفسي يا ولد هسع البوليس بيقبل منك قضية؟

وهل الأنباشي يجي يعمل تفتيش؟

وهل العمدة يوافقه على تفتيش مصلحة حكومية، بناء على اتهام هايف من واحد أغبش؟

وهل مفتش المركز الانجليزي نفسه يستطيع أن ينتزع اعترافاً من وكيل البوستة، والطرد صغير ويمكن

حرق عناويني بالداخل أو الخارج.

* والراجح ان الطرد مرسل بوثيقة تسجيل عادية، يكون مطلوب من الوكيل أن يستخرج بناء عليها (ورقة اشعار) حمراء... وكان من السهل عليه أن يستخرجها ويوقعها حتى ولو بخط يده ويدعي - إذا أمكن أن يحدث تحقيق معه - انه سلم الطرد لشخص ادعى انه أغبش.

* وصفقت يدي متأسفاً على تفاهة هذا الوكيل المسمى بإسم من حرفين، وارد في القرآن، وكان من المناسب له تماماً ان يتفق معي على دراسة تلك اللغة مع بعض - والمؤكد انني كنت حرياً أن أرحب بذلك لأنه متعلم تعليماً نظامياً وربما استفدت منه في اللغتين العربية والانجليزية - والمشاركة تنفعه هو أيضاً.

* هذا الوكيل كنا قد استقبلناه بحفل شاي كان أساساً من أجل وداع الرجل النبيل محمد فهمي (شاب طويل ذو شلوخ طويلة ويتحدث بلهجة مصرية)... وكنت قد زعمت في خطبتي ان صاحبنا بتاع الطرد (خير خلف لخير سلف)!!

* ابتلعت ضغينة هذا القهر القاسي من وكيل البريد الشاب وأكرر القول انني لم أذق، قبل تلك الحادثة ولا بعدها نفس مستوى الاذلال.

* مع ذلك ودعنا الوكيل، بتاع الطرد بنفس طريقة حفلة الشاي، وخطبت، وغالبت رغبتي في كشف السر - وكان صاحبنا متوجساً بالفعل، ظل يرمقني وهو بادي القلق - ولم يبتسم الا بعد أن قلت أنه أقام بين ظهرانينا محبوباً بسبب ظرفه ولطفه، وكان يتميز (بخفة اليد) في ارسال البرقيات (وحفظ الطرود) ولم يكن التعريض مفهوماً الا لأقراني الشبان الذين ضحكوا - بل ان احدهم قال لي (خانك التعبير) فان الوصف بخفة اليد ذم وليس مدحاً فضحكت!

لم أطلب الاسبرانتو مرة أخرى، وفاتت علي فرصة تمثيل السودان في المؤتمرات الدولية لتلك اللغة مع صديقي الدكتور عبدالقادر مشعال (كما فعل خلال العشرين سنة الأخيرة) كان يسعني لو تعلمت الاسبرانتو أن احتفظ بمذكرات أغبش بتلك اللغة التي لا يعرفها إلا الاقلون، وكان هذا يشجعني طبعاً على تسجيل الأسرار.

وا أسفاه...!

دراسة الانجليزية:

ركزت في السوكي على دراسة الانجليزية، وكانت عندي مجموعة من كتب المطالعة، والقرامر (قواعد النحو) ولقيت مساعدة في اتقان النطق من الاخ عبدالرحمن مصطفى - موظف سكة حديد، رحمه الله حياً أو ميتاً - وكذلك من صديقي حسن عثمان رمضان - وهو خريج مدرسة وسطى، من مواطني سنجة، وكان يعمل مع فرع بتسلادس الاغريقي بجوارنا... وأهداني ال (هوم دكشنري) وهو أول قاموس انجليزي، صرف استعمله.

* والأخ حسن، دخل البوليس كجندي عادي، وفي تلك الأيام كان الجنود يعينون (أميين) ثم انه قد تدرج في وظائف الشرطة الى أن وصل الى رتبة عالية، وتوفي رحمه الله.

* وكنت قد أوقفت الاتصال بمدارس المراسلات المصرية (الأستاذ الجوهري) لأسباب لا أذكرها.

* أقنعت نفسي بأنني لم أعد في حاجة الى دراسة المرحلة الابتدائية، بعد أن راجعت بمفردي الكتب المقررة للمدارس العصرية.

* ومن أجل الدراسة الثانوية استجلبت (منهج التعليم الثانوي) وهو كتاب سنوي كانت تصدره وزارة المعارف المصرية، والمنهج كان يحتوي على (المقررات) في كل علم، ولا يذكر أسماء الكتب، فقد كانت عادتهم أن يختاروا في كل سنة مؤلفات الأساتذة التي تعرض على لجان المناهج (وهذا هو السبب الذي يجعلك تجد، بقوائم

المكتبات التجارية، عدة كتب في العلم الواحد ـ والمقرر الواحد ـ لعدة مؤلفين)، وهذه الكتب بعضها كان مقرراً في سنة ١٩٣٠ وبعضها لعام ١٩٣١ وبعضها لسنة ١٩٣٢.

* وكانت المقررات الثانوية المصرية في تلك الأيام مقسومة على مرحلتين، احداهما تسمى (الكفاءة) والثانية (البكالوريا).

* أفتيت نفسي باستبعاد الرياضيات المتقدمة والعلوم التي تحتاج الى (معادلات) أو الى (معامل) واستجلبت مجموعة كتب في الجغرافيا والتاريخ والنحو والبلاغة والنصوص الأدبية والمنطق والتاريخ الطبيعي (كان هذا اسم علم الأحياء، إذ ذاك وهو مقسوم الى (علم النبات) و(علم الحيوان) والتربية الوطنية)، وكراريس خط انجليزي، وعدة أطالس لقارات العالم (وجعلت أقرأ وأقرأ، قبل أن أتساءل عن امكانات الحصول على شهادات).

* في تلك السنوات (النصف الأول من الثلاثينات) كانت كلية غردون (السلف السابق لجامعة الخرطوم الموقرة) عبارة عن (مدرسة ثانوية غير مكتملة) يسمونها (التجهيزي) وهي تخرج موظفين متخصصين بصفة مترجمين (كتبة) ومحاسبين ومدرّسين ومهندسين، واستحدثت مدرسة كتشنر الطبية ربما في أوائل الثلاثينات (والعهدة على الأخ المرحوم الدكتور أحمد علي زكي الذي أفادني بالقضارف في سنة ١٩٤٣، وكنا أعضاء بلجنة مؤتمر الخريجين، ان خريجي مدرسة كتشنر حكماء) ـ سير جنز ـ وليسوا أطباء (مؤهلين لحمل لقب دكتور) الا بعد ذهاب كل واحد منهم الى بريطانيا والحصول على (زمالة)، وهذا بالطبع قبل ارتفاع جامعة الخرطوم الى مستواها الاكاديمي الكامل في منتصف الخمسينات.

* من أين لي أن أعرف ـ أنا أغبش ـ ـ وأنا بالسوكي ـ ان كانت مدارس الأقباط بالخرطوم بها امتحانات ثانوية إذ ذاك من منازلهم للأهالي الغبش ـ والأرجح ان ذلك لم يكن موجوداً بقدر محسوس، بدليل تلقي المصريين ذوي الاقامة الطويلة او القصيرة دراساتهم بكلية غردون، سواء أكانوا مسلمين (مثل محمد نجيب رحمه الله) أو أقباطاً (مثل المرحوم وديع حبشي): هذا قبل نشوء ثانوية فاروق، والتوسع في التعليم المصري بالسودان بناء على معاهدة ١٩٣٦.

الماترك؟

وسمعت عن شهادة ربما انجليزية، اسمها (الماتريكوليشن) وسمعت عن شبان سودانيين مجتهدين، نالوا هذه الشهادة بمجهودهم، ثم سمعت عن شهادات منسوبة الى الجامعات البريطانية مثل أكسفورد ـ و ـ كامبريدج ولندن... وتلقيت معلومات مبتورة عن المساعدة التي يمكن للمرء ان يجدها لدى مدارس التبشير (مثل الكمبوني، وكان هذا عندنا مثل الكفر!).

مدرسة أمريكية:

كتبت الى مدارس المراسلات الدولية (الامريكية) موضحاً رغبتي في الحصول على (تعليم ثانوي) فأشار مديرهم بالقاهرة ان ارفع مستوى معرفتي للغة الانجليزية ـ أولاً ـ، واقترح لي منهجاً عندهم يسمى (قود انقليش) قبل الاتفاق على الخطوة التالية، وقد قبلت اقتراحه ودرست اكثر دروس المنهج المذكور ـ واستفدت منها ـ وكانوا قد أمدوني بقاموسهم (ونستون المبسط) وهذا القاموس عاشرني طويلاً منذ ١٩٣٣ واستهلكت منه عدة طبعات منقحة، وسوف أخصص له فقرة طويلة حينما اتحدث عن القواميس فيما بعد.

أقف هنا ٣٢/١٩٣٤ بالسوكي وسوف أكمل قصة الدراسة المدرسية حينما أقيم بسنجة ٣٤/١٩٣٦.

أحمل شنطة:

يعرفني ناس الخرطوم ـ طوال ٤٠ سنة ـ كما لاحظ الأستاذ الأخ المربي الدبلوماسي محمد سليمان، جريدة الصحافة، الاستراحة ١٦/٩/١٩٨٤ بحملي رزمة الصحف ليلاً ونهاراً ولكنني في السوكي ١٩٣٣ كنت أحمل شنطة مدرسية، بها أوراق الشغل (أعمال الترحيل) نيابة عن مخدمي... والأقلام، والكتب المخصصة للدرس في ذلك اليوم، والقاموس، وكراس التمرين ـ ثم جرائد أو مجلات للاطلاع.

* أحمل هذه الأشياء معي لمحطة البحر، وبعد انجاز واجباتي التجارية، والافطار تكون أمامي في كل يوم ٣ ساعات انتظار، لتفريغ المراكب، أو لاستخراج بوالص السكة الحديد، أو لانهاء الغربال من بضاعة تخصنا.

* هذه الساعات الثلاث أصرف أكثرها وحدي في ركن معين، يعرفه المتعاملون معي ـ خفيرنا أو العتالون، أو مخدمي ـ وهناك أقرأ وأدرس.

* وفي المساء أيضاً، بعد صلاة العشاء ووجبة العشاء أجلس على عنقريبي في داخل الناموسية المنصوبة فوقه، ويكون فانوسي معلقاً على جانب الناموسية من الخارج وتكون مغطاة كلها بالحشرات... وبينها (الفساية) أو الزرناخة التي تصب على جلد الانسان حمضاً فعالاً كنا ونحن أطفال نتعمد صبه على معاصمنا كي تنبت البثور ونتباهي بالشجاعة، التي نسميها الشطارة وهذه الفساية طردت المرحوم عباس محمود العقاد من الخرطوم خوفاً منها في سنة ١٩٤١، وكان قد لجأ الى عاصمة بلادنا هرباً من وصول الجنرال روميل الى القاهرة ـ الأمر الذي لم يحدث بفضل معركة العلمين التي هزمت المانيا ـ وكان العقاد محقاً في الخوف من وصول الألمان، لأنه كان قد كتب كتاباً ضد هتلر وزعه الحلفاء في جميع انحاء العالم العربي، وبينها الأندية السودانية في سنوات الحرب التي انتهت عام ١٩٤٥.

كان لي ثلاثة مكاتب:

كان مكتبي بمحطة البحر عبارة عن جوال خيش أو فرشة لأجلس عليه لأقرأ أو أكتب.

* أما مكتبي بالسوق فكان يحتوي على كرسي وطرابيزة صغيرة، للعمل التجاري، ولدراستي الخاصة وذلك في الدكان الذي كنا نسكن به وقد تركنا البيع، وكنت استعمل الرفوف لحفظ دفاتر العمل ولحفظ كتب وكراريس الدراسة ومجلات الاطلاع ايضاً.

* وكان لي مكتب ثالث عبارة عن جوال خيش أيضاً حيث كنت أجلس الى جوار عم ابراهيم قوته بعد طلوع الشمس نشرب الشاي، ونتناقش في خطط الشغل وهو في تلك الساعة يكون مستمراً في قراءة راتب المهدي، بصوت عال وهو جالس على الفروة.

حدوث حريقة:

كان دكاننا يحتوي في داخله على عدة رصات عالية من الجوالات المعبأة بالصمغ الهشاب تصل (للسقف) ثم توجد رصة من رزم الجوالات الفارغة، كل رزمة تتألف من ٢٥ جوالاً جديداً وزن رطلين وربع، ويوجد ممر صغير، وفي المساء (بينما كان عم ابراهيم قوته منهمكاً في العراء يقرأ الراتب) دخلت الى الدكان وأشعلت عود كبريت وأنا أبحث عن الفانوس، فإذا النار تمتد الى احدى رزم الجوالات، ويمتد اللهيب الى وبر الخيش.

* ألهمني الله الثبات والصبر، وجعلت أنزل الرزم واحدة واحدة بهدوء ـ ثم أبدأ في عرك النار من كل رزمة مشتعلة، الى أن أطفأتها كلها ـ.

* لم أصرخ ولم أهرب ولم أشعر الآخرين ـ بل لو انني أضعت دقيقة واحدة في الارتباك لاحترق الصمغ

كله، والجوالات كلها، ولامتد الحريق الى الدكاكين الأخرى فالسقوف جميعها من ألواح الحديد المضلعة (التي تسميها الزنك) وهي مسمرة على الأخشاب.

* لحسن الحظ أننا كنا ننام في البرندة في الفصل الذي حدث به الحريق... وفي الصباح فرزت وحدي جميع الجوالات التي تحرقت من النار، واستدعيت عتالاً لإصلاحها، ودفعت تكاليف الاصلاح من جيبي، وكانت الأكياس المتأثرة أكثر من ٥٠ لا يمكن أن تباع فنقلتها الى محطة البحر، حيث استعملناها في استبدال جوالات السمسم أو الذرة التي تصل ممزقة ـ وقيدنا ـ قيمتها الكاملة على أصحاب المحاصيل، وكان الجوال الجديد من الجوت الهندي رطلين وربع يكلفنا في تلك الأيام ٢٣ مليماً.

* لم أخبر عم ابراهيم قوته بهذا الحادث، ولم أخبر الجيران، حتى ولا فيما بعد، فقد كانوا أحرياء أن يلوموني، مع أن تصرفي قد انقذنا جميعاً ـ والله خير حافظاً.

حسن نجيلة عابراً:

كان سكان المحطات يجدون متعة في مقابلة القطارات، حيث يلتقون بالأصدقاء، ويتلقون الأنباء.

في أحد الأيام وقفت على الرصيف والأخ حسن نجيلة رحمه الله، كان (منجعصاً) في قمرة الدرجة الثانية (التي كانت للموظفين السودانيين إذ ذاك) أما الأولى والنوم فللإنجليز والقلة التي تتدانى الى مراكزهم.. استأنست مع أبي الانجال من الشباك، وقال انه سمع عن محاولاتي الأدبية وأشار علي بقراءة مجلة (أبوللو) المتخصصة في الشعر، ومجلة (الجامعة) الشهرية التي كان يصدرها الاسلامبولي وأهم من ذلك (الرسالة) التي اصدرها احمد حسن الزيات، في ذلك العام (١٩٣٣) مرتين في الشهر، في البداية، ثم أسبوعية فيما بعد.

صداقة حميمة:

وفد الى السوكي سنة ١٩٣٢ الأخ المرحوم الطيب عبدالحفيظ من القضارف ممثلاً لشركة ـ جيمس لينج المتخصصة في تصدير الصمغ، وتعارفنا وتوثقت علاقاتنا ـ ونقلت مكتبي بمحطة البحر الى مقر شونته الذي يحتوي على مظلة لعشرات الفتيات العاملات في تنظيف الصموغ.

وكانت مؤانساتنا نادرة المثال في تلك البلدة حيث كنا نتحدث حتى في الأدب والسياسة والتاريخ والدين والصوفية، والتجارة بسنجة والقضارف...الخ.

* الطيب عبدالحفيظ هو (الأصدقاء) الذين قلت لهم (جلدت كما جلد الامام أحمد بن حنبل) راجع فصلاً سابقاً يحتوي على القصة.

* وتعرفت الى الشاعر المتنبي من ـ صديقي الطيب ـ بل استوليت على الديوان منه، وعلى كتابي النظرات والعبرات للمنفلوطي ـ واعطيته كتاب (نهج البلاغة) المشتمل على خطب ورسائل الامام علي (رضي الله عنه) وجمعها الشريف الرضي ـ كما اعطيته كتباً تراثية أخرى.

* كانت مكتبة الفونج الكبرى يديرها آل أبوحاج بسنجة قد أغلقت في سنة ١٩٣٣ (أذكر انني في العام السابق بسنجة اشتريت منهم الأهرام وقرأت على الصفحة الأولى قصيدة رثاء شوقي لحافظ):

قد كنت أوثر أن تقول رثائي ... يا منصف الموتى من الأحياء
ما حطموك وانما بك حطموا ... من ذا يحطم رفرف الجوزاء؟

طرد صحف ومجلات:

كان الأخ الطيب عبدالحفيظ في أواخر ١٩٣٣ قد انتقل الى كسلا وكيلاً للتاجر الأرمني فيليب كلباكيان وزامن فترة رواج عدوان ايطاليا على الحبشة ١٩٣٧/٣٤.

ان علاقتي بالأخ الطيب عبدالحفيظ سوف تجعلني أكرر ذكره مرات عديدة طوال السنوات التي بقيت

من المذكرات، ويكفي أن أقول انني تعلمت الانشاء على رأسه (ولم يكن يتيماً) حيث ظللنا نتبادل رسائل أسبوعية من عدة صفحات عدة سنوات.

ولما توقفت مكتبة الفونج بسنجة كتبت الى الطيب عبدالحفيظ ليرسل لي الصحف والمجلات من كسلا ـ وفي البداية ذكرت ضرورة إرسال أعداد سابقة ـ ويبدو ان المرتجعات كانت كبيرة بالمكتبة الميرغنية التي كان يديرها الأخ المرحوم الطيب الدويح، فوصلني من الأخ الطيب عبدالحفيظ طرد مشحون بالسكة الحديد يحتوي على عشرات المجلات: المصور، واللطائف، وكل شيء، والفكاهة، ومصر الحديثة المصورة، والكشكول، والبلاغ الاسبوعي، والسياسة الأسبوعية، والرسالة نفسها، والهلال، والمقتطف، وأبوللو، ومجلة الاسلامبولي، والمجلة الجديدة، وسلامة موسى، (والأهرام والوادي اليوميتين).

وانهمكت في قراءة هذه المجلات عدة شهور، وخرجت منها بمشروعي الجديد الذي سوف أفصل أمره في الحلقة القادمة.

زراعة بالسوكي والدندر:

استأجرت بلاد (مزرعة مطرية بطريقة دق ن دي) من صاحبها الذي لم يكن ينوي زراعتها في تلك السنة، بعشرة قروش فقط (تصور)، ومساحتها صغيرة، وأنا كنت أعرف انني لن أربح منها مالاً وفيراً، وكنت أريد زيادة تجربتي في العمليات الزراعية اليدوية، مع عمال الاجرة (بالضحويات)، وقد شاركت في (التيراب) وفي الحش في (الكديب)، التقاط الحشائش القليلة من وسط الزرع، وفي (رش) السمسم، فالسمسم يزرع عندنا بمجرد شتاته على التربة الجافة...

وكنت قد زرعت بعض الذرة وبعض السمسم وبعض اللوبياء البيضاء.

* السمسم سرقوه بعد أن قطعناه وتكلناه ليجف، فجاء زائر ليل وأفرغه في جوالاته وذهب به، والراجح انه كان معه جمل!

* الذرة سكبناه علفاً لحمارنا وبغلنا (كنا نسحب به عربة كارو) فإننا انتظرنا مطراً في العوا ـ و ـ السماك، شهر سبتمبر ولم يأت.

* أما اللوبياء فقد ملأنا منها جوالاً أرسلته للمنزل بسنجة، وكانت الخسارة عدة جنيهات.

العيش برطج:

وكنت شاركت أحد القرويين فمولت له رحلة للزراعة بأرض (ماحلة) بناحية خور العطشان التابعة للدندر... وقد جاءني مرتين أو ثلاثاً في أغسطس وسبتمبر فزودته للذهاب الى الزراعة، وكان يطمئنني، ولكنه في المرة الأخيرة عاد من الخلاء وقال لي أنه وجد (العيش برطج) (بفتح الباء واسكان الراء وفتح الطاء واسكان الجيم ـ والمقصود فعل ماض باللهجة السودانية).

* تصوروا... لم أعلق بشيء... تركته يذهب، ثم ذهبت الى دكان الجيران حيث كان يتجمع عدد من المزارعين، فسألتهم (ما هو معنى قولك العيش برطج؟):

ـ أجابوني، بأن القصب طالت قامته ولم يحمل القناديل ـ بسبب قلة المطر ـ وتعلمت كلمة (برطج) بكمشة جنيهات.

* وهكذا، فان صديقكم كان دائماً يتعلم بتكاليف غالية!!

تفلهم أغبش فصار له بالطو صوف رصاصي اللون
كيف تغلب المرحوم العجب على مرارة القهر؟..

للمرء ان يتخيل بلدة السوكي الحالية في أواخر العشرينات، قبل اتمام خزان سنار، وقبل مد خط السكة الحديد، مجموعة قرى منسية (بين سنجة والبر الشرقي - أو - مينا، حلة الملك) وبين كساب التي كانت تستمد شهرتها من مدفن فيلسوف السلطنة الزرقاء، الشيخ فرح ود تكتوك. ولكن بناء الخزان، أوقف النقل النهري، الذي كان متصلاً بين الروصيرص وسنجة وسنار، وود الحداد والحاج عبدالله وواد مدني والمسلمية ورفاعة والكاملين وود راوة والعيلفون وأم دوم وحتى الخرطوم عموم. فصارت السوكي ميناء.

وجاءت السكة الحديد، ومعها الغربال في أوائل الثلاثينات فصارت السوكي ليس ميناء فقط للمنطقة من قيسان على أبواب الحبشة والى كساب نفسها بل صارت سوق محصول يتلقى انتاج بعض حوض النيل الأزرق وبعض حوض نهر الدندر.

مملكية ود أب جن:

ان الدندر منطقة واسعة تتاخم الروصيرص من ناحية وحتى المنابع في الحبشة وتلاصق جبال قلع النحل من ناحية وندابي السوكي.. انها مملكة حجمها أكبر من الامارات العربية المتحدة (كلها معاً) وكان يحكمها آل أبو جن - عاصرنا في طفولتنا قبيل العشرينات والدهم الشيخ العجب أبوجن. وكان العجب ود أب جن مثالاً لقوة الإرادة كان بين الحجام ففصده على كتفه وكان سارحاً. فاختلج جلد ساعده، فغضب على نفسه، وقال بصوت مسموع لكتفه:

(رجفت؟ دحين جيب قطرة دم!).

وبالفعل تصلب جلده، ولم تقطر منه ولا نقطة دم واحدة، فقال للحجام ما في فايدة الليلة من الحجامة، ونفحه بقبضة مال وانصرف. سمعنا ان الشيخ العجب ود اب جن قبضت عليه حكومة الانجليز في السودان في مسألة سياسية في فترة حرب ١٤/١٩١٨ وسئل معه المرحوم محمد أفندي الفكي (أخ أكبر للواء عبدالرحمن وللشاعر محمود واخوانهما، رحمهم الله جميعاً) ولا نعرف تفاصيل القصة (هذا موضوع بحث للاكاديميين) فان فترة الحرب العالمية الأولى لا تقتصر على قضية علي دينار بدارفور، ولا على «سفر الولاء» ولا على قضية «عينيك يا بخيتة، مثل قنابل المانيا»، للشاعر الغنائي جقود فهنالك أحداث في عديد الأماكن.

تضايق الرجل من كثرة صلوات زوجته فقال لها (كفاك) والله انتي لا تشوفي الجنة ولا النار، فبكت المرأة وفسر لها زوجها الأمر بقوله اذا ذهبت للنار، ووجدت ناس اب سن وناس اب جن بتدخلي فوقهم؟

- برى!

- واذا رحت للجنة ووجدت ناس الشيخ دفع الله وناس الشيخ فرح بتشقيهم؟

- برى!

محاصيل الدندر:

ان منطقة الدندر بها محصول وفير من السمسم، ولكنه كثيراً ما يكون «مشروب».

- هل تعرفون معنى ذلك؟

- توجد حشرات اسمها العنتد (بفتحة فسكون ففتحة فسكون) هذه الحشرات تطير بأرجال كبيرة فوق حقول السمسم ليلاً وتجذب الزيت الى باطن أجسامها بدون ان تهبط فوق شجيرات النبات (هل تصدقون هذا؟).

اننا نعرك الحشرة بين أيدينا ونجدها بالفعل مشبعة بالزيت.. كيف يفسر لنا هذا علماء الحشرات؟ وهذا السمسم المشروب يكون خفيف الوزن، وهو عبارة عن قشر لا يصلح الا للعلف، ولكن المتسببين يخلطونه مع غيره مع انه يتطاير في الغربال ضمن الأوساخ.

الذرة:

وفي الدندر محصول ذرة وفير، وهم يفضلون هناك زراعة «ود عكر» أو «بهانا» الأحمر اللون بدعوى ان هذين النوعين من الحبوب يحتويان على مرارة تنفر العصافير.

والعصافير كثيرة بالدندر بسبب وجود النهير والمستنقعات والأشجار وزراعات الدندر معرضة لآفات أخرى هي الحيوانات الوحشية قطعان الغزلان والزراف والجاموس البري والافيال.

قال سكان (ود النيل) على النيل الأزرق (هم تعايشة من أعقاب الناجين من مجاهدي حملة أحمد فضيل التي ارتدت من القضارف وتشتتت سنة ١٨٩٨) قالوا (أنهم قتلوا أحد الأفيال وسط زراعاتهم ولما شقوا بطنه أخرجوا منها كمية من الذرة بلغت (أربعة أرادب، ما انبلت)! أي انها لم تصل اليها العصارة الهضمية من معدة الفيل.

والحيوانات الوحشية وفيرة في منطقة الدندر، ألا ترى انهم أقاموا هناك حديقة خلوية محجوزة للوحوش، الصيد فيها ممنوع (أعني حظيرة الدندر القومية).

في سنة ٣٩/ ١٩٤٠ شارك أغبش أحد مواطني المفازة في زراعة بمنطقة الرقيق «بالتصغير» وهي تابعة للدندر وقرب موسم الحصاد طلب شريكي جمع خرق من مخلفات ملابس الانسان، وروائح عطرية، لتوزيعها في أطراف المزرعة بغرض تنفير الحيوانات الوحشية - أكلة النبات - لأنها تخاف من الناس، وتتوجس من روائح أجسامهم.

يوسف العجب أب جن:

عاصرت في السوكي وسنجة في النصف الأول من الثلاثينات اعتقال المرحوم يوسف العجب اب جن.. لا أعرف القضية، وقد تكون غيرة من مفتش المركز إذ قيل ان الشيخ يوسف فرش طريق الحاكم العام بالبروش الزاهية الألوان على امتداد طويل من محطة السكة الحديد الى استراحة الضيافة، الى جانب مظاهر أخرى، وفي هذه الحالات من السهل تلقي شكايات من الجمهور عن استيلاءات ومصادرات... الخ.

الصايم ديمه:

هل تتصورون ان الشيخ يوسف العجب الذي حددت اقامته بسنجة، جعل يصوم أيام السنة كلها، باستثناء يومي العيدين طوال عدة سنوات وكنت أزوره ومجلسه كان مجلسا سياسيا.

كانت هذه هي طريقة المرحوم يوسف العجب في التغلب على مرارة القهر وكانت نظارة الدندر قد اعطيت لابن واحد من ابناء عمومته (بشير محمد بشير) وقد اجتاز يوسف العجب محنته وعاد الى النظارة... وفي الجمعية التشريعية ثم في البرلمان، والجمعية التأسيسية كان العجب يمثل الدندر وأتيحت له الوزارة وكان من مؤسسي الحزب الجمهوري الاشتراكي (الرامي الى الاستقلال بتزكية البيت الميرغني، بدل البيت المهدوي).

ان آل أبي جن يمثلون (الحمدة) بفتحات وهم مثل السناب (آل أبي سن) فكما ان الأخيرين يترأسون على قبيلة الشكرية والقبائل المرتبطة معها فان (الجناب) يتحكمون في قبائل رفاعة الشرق (بخلاف رفاعة الغرب) ان هذه القبائل لها قطعان وبادية كما لهم قرى وزراعات وغاباتهم بخلاف صيد الوحوش للطعام وسن الفيل والجلود النفيسة يوجد بها أيضاً العرديب (التمرهندي) ويوجد النحل حيث ينتجون العسل والشمع.

دفن المرحوم يوسف العجب اب جن - بناء على وصيته - في حوش المجلس الريفي فهو يريد مقابلة منكر ونكير في مقام الحكام وليس بين العوام (أفادني بقصة الدفن الأخ حسن يوسف ايوب الفكي الذي ذهب من الخرطوم وحضر الجنازة بالقويسي منذ سنوات).

القطن:

يبدو لي ان خزان جبل أولياء هو الذي أدى الى التوسع في زراعة القطن، وغيره من المحاصيل بالطلمبات على ضفاف النيل الأبيض بدءاً باستثمار حكومة الانجليز لمال التعويضات، المأخوذ من الحكومة المصرية إزاء الأراضي التي غمرتها مياه الخزان بمنطقة القطينة والكوة...الخ، استثمارها في «مشاريع المعيشة» مشروع عبدالماجد - ثم انطلق آل المهدي وآل هباني وآخرون للحصول على رخص الزراعة بالطلمبات على النيل الأبيض بالدويم وكوستي...الخ.

وزحف تماسيح مشاريع الطلمبات من النيل الأبيض الى النيل الأزرق بداية من الأربعينات وصارت منطقة السوكي كساب ذات انتاج منظم.

أهم مشروع كان مشروع أبو العلا (نفس أصدقاء أغبش المعروفين بسنجة والخرطوم) وكان هذا المشروع يحاذي محطة حمدنا الله (بين السوكي وكساب) سمعت من عم الحاج محمد أبو العلا رحمه الله، شفاهة انهم اختاروا له مديراً انجليزياً للاستفادة من بقايا هيبة الانجليز (قبل تأميم المشروع) صار العلائيون يزرعونه بطيخاً من النوع الاسطواني الذي سماه (السبابة) (الروثمان) وكانت بذرته مستوردة من هولندا أفادني السيد زكي المتخصص في استيراد البذور انه هو الذي استورد بذرة البطيخ الهولندي لشركة أبي العلاء.

وجاء مشروع كساب باسم السيد علي الميرغني رحمه الله هل تصدقون ان جريدة «الصراحة» كان لها دور في مسار هذا المشروع؟

كانت تجرى مفاوضات بين دائرة الميرغني وشركة كونتوميخالوص وأولاده حول اقامة المشروع وتمويله وإدارته وتناولت المفاوضات موضوع (الفايظ) واتفق الطرفان.

ونشرت الصراحة القصة على أساس إنتقاد التعامل بالربا، بين طرفين احدهما السيد علي الميرغني.

كانت النتيجة ايقاف المفاوضات مع كونتو ميخالوص والاتفاق مع آل أبي العلاء على قاعدة (العمولات) بدل الفايظ!.

الفحم ومنير:

منطقتنا منطقة غابات.. وكان لنا انتاج وفير من الحطب والأخشاب والفحم النباتي في أوائل الحرب العالمية الثانية خشيت حكومة السودان من انقطاع الواردات ومنها الفحم الحجري، أو فحم الكوك، لوقود تسيير قطارات السكة الحديد وجاءوا بخبراء أو أدعياء لاجراء تجارب على الفحم البلدي بالسوكي وجعلوا يسحقونه ثم يعجنونه في قوالب مثل الطوب.

كرروا هذه العملية بمحطة الشواك - بين القضارف وكسلا - وكانت للأخ الشاعر منير صالح عبدالقادر وظيفة في هذا المعسكر الصناعي بالشواك وجعلوا له إمارة على عمال من (يهود اليمن) وقد استفاد منهم الأخ منير فنون طبخ الطعام واعتقد انه ما زال قادراً على ممارسة هذه الفنون، وما دام يحن للعودة فالمرجع عندي فإنه سوف يؤسس مطعماً كبيراً ويجلس على بابه لتسلم النقود مثل المرحوم الفوال!

قصة الشواك لمنع المغالطة استشهد فيها بالأخ الشاعر عباس الأمين بشمبات.

معارفي بالسوكي:

انني لا بد ان أتذكر من عاشرتهم بالسوكي فهم مع امثالهم في أماكن أخرى ساعدوا على تكوين شخصيتي ومعرفتي بالحياة والوطن والدين.

أستاذي ابراهيم قوته:

رجل طويل ملتح يلبس صيفاً وشتاءً جبة دمورية، وزن ١٤ (تيل ثقيل) والجبة (سد) لها جيب ساعة من امام ومن خلف.. في سني الأولى ١٩٢٨ ركبت خلفه على الحمار (رديفاً) وسرقت (طرادة) من جيب الساعة الذي صادف وجوده بالخلف!. كان يلف عمامته مثل الانصار ويترك لها ذيلاً طويلاً خلفه.

في أحد الأيام كنا بمحطة البحر وكان عم ابراهيم قوته قد صعد على رصة جوالات السمسم وكنت بعيداً عنه أراقب تفريغ إحدى المراكب فسألني (الريس) أين الشيخ ابراهيم قوته؟ فقلت له شايف النجمة ام ضنب ديك (وكان ضنب عمامة عم ابراهيم يتلاعب به الهواء) هذه القصة قد ظل يذكرها الأخ الطيب الطيب عبدالحفيظ الى ان توفي رحمهم الله جميعاً.

كان عم ابراهيم يمشي سريع الخطى ويقول للناس الذين يمر عليهم (السلام عليكم ورحمة الله وبركاته) ولا يتوقف ليسمع ردودهم فيضحكون. كان عم ابراهيم كريما مضيافاً لذا كنا على الدوام مضيوفين.. واذا جاء للبلدة محصل جريدة او ملتمس تبرعات ونحو ذلك فان عم قوته هو مقصدهم الأول وكان عم قوته هو صاحب فكرة الترحيب بضيوف احتفال تدشين خط السكة الحديد، وهو الذي ظل يتبنى حفلات (بين ظهرانينا) لوداع واستقبال نظار المحطة، ووكلاء البريد (بمن فيهم بتاع قاموس الاسبرانتو).

كان عم ابراهيم قوته قد حاول تعليمي الاناة، مع انه نفسه رجل «سريع المشي» ولذلك لم استفد من نصحه وظللت عجولاً متسرعاً.

تحمل عم قوته عدة تصرفات خاطئة من جانبي وكان يقول لي (معليش يا بني) بينما كان شديد الثقة بي، وظل يشجعني بالثناء حتى في غيابي أمام الآخرين الذين يبلغوني بذلك فيسعدني وازداد حباً له.

وقد حدثتكم من قبل عن وقفته معي في قضية قصيدة الشيخ هجو وقد حاول تشجيعي على الزواج (١٩٣٤).

لم اسمع عم ابراهيم قوته يغتاب احداً ولم ترد على لسانه كلمة جارحة أبداً ضد المرحوم محمد الخليفة شريف (بل كان لا يذكره لا بالخير ولا بالشر) وكان شديد الولاء للمهدي وأسرته وبرغم كل شيء ظل يترأس لجنة صيوان الانصار بساحة المولد بسنجة.

بالاضافة الى كل ذلك كان عم ابراهيم قوته قوي الدين واليقين لطيفاً مع الناس امينا في معاملاته.

أخر مقابلة لي مع عم ابراهيم قوته في أواخر ١٩٤٩ وقد لقيته بميدان البوستة بأمدرمان وأجلسته (بسوق المويه) فقال لي، سمعت انك عاوز تعمل جريدة زي جريدتك بالسوكي الكنت بتكتبها بالكربون.

ولكن هذه جريدة زي الحضارة نطبعها بالمطبعة وفيها صور كمان، شن سميتها؟

ـ سميتها الصراحة.

امشي بالراحة (كان عم قوته يصوغ عبارات مسجوعة لطيفة بطريقة عفوية) ونصحني عم ابراهيم قوته بتجنب تناول الحكام والصالحين، فقلت له: ولكن اكتب شنوا يا عم ابراهيم؟!

لما بلغني نبأ موت عم ابراهيم قوته رحمه الله بكيته فهو جدير، وقد كان يرعى صداقته لوالدي وكنا جيراناً بسنجة، ونشأت مع أبنائه، وعاصرت بعضهم في المدرسة وفي السوكي وعمل معنا صغارهم الثلاث فترات قصيرة وهم الأخوة عبدالعزيز واسماعيل وسليمان ولما تقاعد عم ابراهيم قوته بعد تركي للعمل معه خلفه بالسوكي أحد كبار أبنائه الثلاثة الآخرين وهو الأخ جيلاني رحمه الله.

أهل الشمباته:

كان بجوارنا بسوق السوكي المرحوم الحاج فضل الله احمد من اهل الشمباته (قرية بمنطقة سنار كان زعيمهم الخليفة احمد الشمباتي، وفاتني ان استقصي علاقتهم بسكان شمبات الخرطوم بحري) وكان يعمل مع الحاج فضل الله ابن اخته احمد وقيع الله رحمه الله وولي امر الأسرة الآن الحاج مكي عبدالقادر (صهر عم الحاج فضل الله) كان محلهم على الدوام في حالة ضيافة لأهل الشمباتة الذين هم جلابة بالدندر.

هؤلاء القوم كرام ووجدت لديهم المودة وكانوا يجاوروننا أيضاً بسنجة وقد تعرفت بالأخ الطيب عبدالحفيظ رحمه الله لتوصوله الى السوكي حيث نزل في ضيافتهم.

وقد عرفت بطرفهم صديقي ابراهيم خوجلي (من بربر) الذي انقطعت اخباره عني بالأسف.

جنينة حجار:

بسنجة كنا نلعب بالشاطيء في ساقية مهجورة يسمونها (جنينة حجار) وذكرت هذا سنة ١٩٦٠ للسيد حجار صاحب المزارع والمصانع المشهورة فقال لي ان (حجار بتاع سنجة هو والده) (التقيت به في اقطاعيته الكبيرة بمنطقة ياي على مشارف مرتفعات كينيا) ربما كانت للمذكور ريادة البساتين بسنجة مع الحامدية وآل الحويرص وغيرهم.

ساقية همزة:

كانت حكومة السودان تشجع البعض على اقامة الجنائن لتوفير الخضر وبعض الفواكه من اجل الموظفين بالمدن وكانت الحكومة تمنح المجتهدين سلفيات. وفي القضارف أيام حرب ١٩١٨/١٤ اخذ المرحوم حمزة صديق سلفية الجنينة وحفر البئر واستجلب أدوات الساقية ولكنه كرر الذهاب الى المركز لأخذ المزيد من السلفيات حتى بلغت مديونيته عشرات الجنيهات (وهذه مسألة خطيرة بمقاييس تلك الأيام) ومع ذلك ظلت الساقية قائمة بدون انتاج.

سكان السوكي:

ان قرى شرقي النيل الأزرق أغلبهم فلاتة مستعربون ويوجد بينهم جعليون وكنانة ورفاعيون وشتيت من القبائل الأخرى، وكان عمدة السوكي ابراهيم محمود يسمونه «جانقوة» وهو شديد الفخر والادعاء وكان يقول: البلد بلدي والبحر بحري والسماء سماي!

وعاشرت بالسوكي العم شريف سليمان حسين وهو حجازي نازح، سترد سيرته مرة أخرى لدى ذكر أحوال الحجاز قبل ابن سعود، والعم المذكور مصاهر المغاربة بحلة ود السيد بجوار الجنيد.

صديقاي بابكر وأحمد أبوحاج بعد قفل مكتبة الفونج الكبرى بسنجة جعلا يتاجران بقرية الشلال بالبر الغربي من السوكي ولكنهما رحلا الى السوكي فيما بعد.

رصاصي:

كان الأخ المرحوم الحاج بدوي عبدالقادر النور (الكردي إخوان) في سنة ١٩٢٤ شاباً يأتي الى السوكي لعرض بضائع بالجملة، وتعرفت إليه وكنا نجلس كثيراً مع بعض وفي كل مرة كان يودعني بعبارة (أي خدمة) فقلت له باستحياء (أريد قماش بالطو) وجاءني بقطعة صوف ورفض أخذ الثمن وسألته عن لونها فقال (رصاصي).

ذهبت بالقطعة الى الأخ عثمان النجومي رحمه الله وكان يدير محل خياطة إفرنجية ومعه شقيقه شريف (وهما نجلا البطل الأمير عبدالرحمن ود النجومي فاتح الخرطوم والذي ضحى به الخليفة ود تورشين في غزوة انتحارية لمصر بدون عتاد ولا مؤونة).

خاطو لي بالطو وصنعوا له بطانة واكتملت الفلهمة والقرضمة! وصرت أقول للغسال انت لم تحضر لي البالطو الرصاصي، وأنا ماشي لحفلة (بين ظهرانينا!!).

سعد وحسبك من ثلاثة أحرف

أشرت من قبل الى أنني في سنة ١٩٢٤ بسنجة سمعت ضابطاً ـ وهو على ظهر جواد (يكورك)! فلم نكن نعرف كلمة (يهتف) (يعيش رأس سعد زغلول باشا) وكان هذا اثناء مسيرة (زفة) موكب تقليدي عسكري وشعبي لا أدري على التحديد (موكب مولد النبي صلى الله عليه وسلم) أو موكب بداية شهر رمضان وكانت المناسبتان تجرى لهما (زفة)، رمضان لاستقباله والمولد لوداعه.

والضابط الذي هتف الهتاف المذكور كان سودانياً ـ ولم يردده معه أحد لأنه فيما يبدو كان خائفاً. وقد شاء ان ينعزل عن الزفة ويلهب ظهر حصانه بالسوط في الاتجاه المضاد ويردد هتافه وسط جماهير الشعب وليس بين صفوف الجنود الذين كانوا يسيرون في المقدمة وراء فرقتهم الموسيقية.

ومات سعد:

وفي سنة ١٩٢٧ مات سعد، وأذكر انني بعد وفاته بعدة أيام جئت بالبريد من مكتب البريد في العصر، وكانت جريدة (حضارة السودان) تحتوي على خبر الوفاة (في تلك الأيام لم يعرف الراديو بمنطقتنا) فهو قد مضت عليه سنوات قليلة في أوروبا وامريكا وان كانت نشرة رويتر اليومية ينقل خلاصتها كل مكتب تلغراف في كل صباح بالسودان، ومعنى ذلك ان الخبر كان معروفاً عند مُفتش المركز والمأمور وضباط الجيش وموظفي البريد، على الأقل قبلنا نحن ـ الشعب الذين انتظرنا وصول جريدة حضارة السودان بالبريد الذي يصل في شهور المطر مرة واحدة في الاسبوع، وفي الشتاء والصيف مرتين.

زغلولية لحماً ودماً:

ظل صديقي أبوبكر أبوحاج يردد سنة ١٩٢٧ وبعدها وقبلها ما داقع به سعد زغلول أثناء فترة حكمه القصيرة مع توزيع مناصب الدولة على انصاره، حيث قال: (وددت لو جعلت حكومتي زغلولية لحماً ودماً) واغبش (وكان عمره ١٢ سنة) ما كان يستطيع ان يحكم بخطل المحسوبية ولعله كان يعتبرها إذ ذاك فضيلة من قبيل (صلة الرحم) التي حبذها مولانا جل وعلا في آخر سورة الأنفال (وأولو الارحام بعضهم أولى ببعض).
نطالب الأستاذ مصطفى أمين بتفسير في هذه القضية بباب (فكرة) على الصفحة الأخيرة من الأخبار أو أخبار اليوم، فان آراءه لن تزال محترمة.

كتاب العقاد:

من سوء حظي مع أدب عباس محمود العقاد، انني عرفته أول ما عرفته من خلال كتب ثانوية الأهمية مثل (ساعات بين الكتب) وكتابه عن سعد زغلول بعد وفاته.. فهذا ـ الكتاب وصلني مشوهاً حيث تكررت ملزمتان ونقصت ملزمتان ـ بفعل اهمال قسم التجليد في الدار التي نشرته.
ولكن الكتاب نفسه حتى الوفديين لم يكونوا راضين عنه ـ ربما بسبب تفصيله لحياة سعد قبل ١٩١٩ حينما كان وزيراً في أيام الحماية البريطانية وكان وزيراً للمعارف (التعليم) يتقبل املاءات المستشار البريطاني دنلوب الذي كان له فصل تنحيف وترشيق التعليم المصري (بل سننقل وثيقة تدل على صداقة سعد مع كرومر).

مدرسة الأفغاني:

كان سعد من مدرسة جمال الدين الافغاني وحينما كان الشيخ الثائر يجلس مع تلاميذه بقهوة (متاتيا) بميدان العتبة الخضراء المطل على حديقة الازبكية بالقاهرة ـ وكان بين التلاميذ الشيخ محمد عبده ـ كان سعد زغلول شاباً حدثاً. وقيل انه في تلك الأيام قد كتب مقالاً بعنوان (الحرية) أعجب به الأفغاني وقال ان مفهوم الحرية أمر جديد في هذه البلاد، لذا نرى الجيل الجديد يحسن التعبير عنه.

ومع ان محمد عبده قد رحل مع الأفغاني الى أوروبا وهناك أصدر جريدة العروة الوثقى التي كانت تدعو الى الثورة في العالم الاسلامي ـ ومن هذا المنطلق أيدت الجريدة ثورة المهدي بالسودان ١٨٨١/ ١٨٨٥.

فان ثورة عرابي ١٨٨٢ التي قمعها البريطانيون تخلى عن فكرتها في السنوات التالية كل مؤيديها وبينهم احمد عرابي باشا نفسه ومحمد عبده والشاعر البارودي وسعد زغلول وغيرهم.

ومن بين ساسة مصر كان قد رفض الحماية البريطانية، رجال (الحزب الوطني) وزعيمهم مصطفى كامل باشا كان يتمسك بالسيادة العثمانية على الأقل كوسيلة ضد الاحتلال البريطاني وقد حاول اللعب على حبل التناقض بين فرنسا وبريطانيا.. وحينما تلاه الزعيم رقم ٢ للحزب الوطني محمد فريد بك ـ نراه قد وحد كفاحه مع الخديوي المخلوع عباس حلمي الثاني وسافر معه الى تركيا وأوروبا في فترة الحرب العالمية الأولى ١٤/ ١٩١٩.

ولكن الساسة الآخرين كان اكثرهم واقعيين يتعاملون مع الاحتلال مثل لطفي السيد باشا استاذ الجيل ومترجم ارسطو طاليس، وسعد زغلول.

هناك من هم أكثر إمعاناً في الولاء للانجليز مثل مصطفى فهمي باشا (والد صفية زغلول أم المصريين) وجد الصحفي العبقري مصطفى أمين لأمه ـ ويمكن ان يضاف ان أمين بك يوسف والده بنفس مستوى الولاء وقد حدثني الأخ المرحوم محمد احمد محجوب ان أمين بك يوسف كان أديباً بالانجليزية بمثل لمعان كبار الأدباء من أبنائها، وأفادني زعيمنا المطلع انه قرأ كتاباً من تأليفه بتلك اللغة، عن القضية المصرية يتميز بنفاسة خاصة. ونحن للأسف لا نرى أستاذنا مصطفى أمين وهو ليس من المقلين ـ يحدثنا عن أسرته الصغرى والأمر لم يعد سبة بعد مرور الاجيال وتقلب الاحوال.

الكرومريون:

لم يعد الأمر يحتوي على سبة، فان فترة بقاء بارنغ ـ كرومر بمصر ١٨٨٣ ـ ١٩٠٧ كما قلنا من قبل قد تميزت بترويض جميع المؤسسات المصرية ـ الوطنية والسياسية والعسكرية والادارية والدينية والتعليمية.

١ ـ ان فتحي زغلول باشا (شقيق سعد) الذي عرفناه مترجماً للأدب العقلاني الفرنسي النادر (كتب قوستاف لوبون) هذا المحامي المدره هو ممثل النيابة الذي تلقف المطالب البريطانية وطالب بإعدام الفلاحين المصريين المساكين في قضية دنشواي التي اصطاد فيها الجنود البريطانيون بعض الأهالي بدل الحمام البري.

٢ ـ ومحمود سليمان باشا الاقطاعي المصري الصعيدي (والد محمد محمود) كان شديد الاعتراف بجميل كرومر الذي هو تحت ستار الدعوى الزائفة (بحماية اصحاب الجلاليب الزرقاء) الفلاحين، سمح بإنعاش طبقة اقطاعية مصرية صغيرة الحجم، تتطاول قمتها قليلاً مع الطبقة الاقطاعية التركية (من أسرة محمد علي باشا واقربائها).

فإن أسرة يكن باشا (ومعنى يكن ابن الاخت) تمثل الاقطاعية التركية التي لم تقصر في التزلف الى (قصر الدبارة) مقر المعتمد البريطاني، بعد الفصم الذي جرى بين قصر عابدين وقصور يلدز (السلطنة العثمانية).

نثر شوقي:

أشرت من قبل الى اطلاعي على نصوص نثرية، نعم نثرية، للشاعر شوقي، ونثره لا قيمة له، ولكنني أذكر تشبيهاً له لزعماء الثورة بالصخور التي يدفعها السيل امامه.

معنى هذا ان سعد زغلول وزميليه عبدالعزيز فهمي ـ و ـ علي شعراوي الذين قابلوا السير ريجنالد ونجت الذي كان ممثل الحماية بمصر ـ على أثر اعلان هدنة حرب ١٤/١٩١٨ انما كانوا ثلاثة صخور من جملة الصخور المروضة في عهد كرومر وقد جرفتها سيول ثورة ١٩١٩ أمامها وقد تتضح لنا معالم ذلك فيما بعد.

كفاح الوفد:

لقد تعرض سعد زغلول وزملاؤه في الأعوام التالية الى سجن ونفي (بجزيرة مالطا وجزر سيشل) ويمكن القول انه صمد وقد حدث تسلل من صفوف اعضاء الوفد شمل زعماء أحزاب الأقليات المبكرة (عدلي يكن باشا ومحمد محمود باشا واسماعيل صدقي) اما المنشقون التالون في عهد النحاس باشا فهؤلاء في حقيقتهم كانوا من الجيل الأشب (الذي أتى بعد ترويضات كرومر) وأعني مكرم عبيد (الزعيم القبطي) واحمد ماهر باشا ـ و ـ محمود فهمي النقراشي باشا (وسوف ترد بعض تفصيلات هذا الأمر فيما بعد).

ثورة ١٩١٩:

قد قرأنا في أواخر العشرينات وأوائل الثلاثينات الكثير، علـى صفحات الصحف والمجلات (والكتب أيضاً) عن ثورة ١٩١٩ وما أ. دت اليه، وقد شارك اصدقاء الوفد وخصومه في تنويرنا، وانني لكي أنصف قراء مذكرات أغبش رأيت أن أنقل لهم مقالة المجاهد المصري المسن فتحي رضوان ـ مجلة الهلال الشهرية أغسطس ١٩٨٤ ـ وعنوان المقالة (ماذا بقي من ثورة ١٩١٩ وزعيمها).

بين الحماية والهدنة:

في الذكرى الثالثة والخمسين لوفاة سعد زغلول زعيم ثورة ١٩١٩ العظيمة في ٢٢ من اغسطس سنة ١٩٢٧ يحق لهذه الثورة ولزعيمها ان نقف حاسري الرأس، ونبعث لروح الزعيم ولشهداء الثورة بأعظم تحيات الاكبار والاعزاز.

ثورة ١٩١٩ كانت بين حركات التحرر في العالم الثالث الذي كان يرسف في غلال القيود يعاني من أهوال الرق والاستعباد، انتفاضة جليلة وتمرداً فذاً.

ذلك ان موقع مصر بين القارات وعلى طريق الغرب الى الشرق وعند التقاء البحرين العظيمين الأبيض (و) الأحمر ـ ولقربهما الشديد من ميدان القتال الأعظم اهمية ـ وهو أوروبا وآسيا الصغرى والشرق العربي.. موقع مصر، بهذه الخصائص والمزايا، اقتضى ان تكون مركزاً من مراكز قيادة الحرب، ومكاناً لحشد أكبر قدر من الجنود والضباط والأسلحة والعتاد ومقراً للمخابرات وواضعي الخطط ومحللي الأنباء ومحرري التقارير.

وكان الحلفاء وعلى رأسهم بريطانيا قد خرجوا من المجزرة البشرية الأولى في تاريخ الانسانية منتصرين في قتال رهيب، عرفت فيه لأول مرة اسلحة لم يسمع بها الانسان من قبل وقوة نيران لم تكابدها الجيوش ولا الجنود منذ بدء الخليقة. ولذلك كان الظن أن تكون الثورة أبعد ما تكون من خاطر الشعب المصري الذي كبل بأثقل السلاسل والقيود خلال الحرب العالمية الأولى لمدة كادت تتم الخمس سنوات بدأت في أغسطس سنة ١٩١٤ (فرض الحماية البريطانية) وانتهت في مطلع سنة ١٩١٩ بعد أن تمت الهدنة في الساعة ١١ من الشهر ١١ سنة ١٩١٨.

سعد محافظ جرفه السيل:

عرف الشعب المصري في فترة هذه الحرب بظلامها ـ تعطل الأعمال وتبطل العمال وكساد الأسواق وقلة الأرزاق، والزج بالأبرياء الى السجون والمعتقلات بلا ذنب ولا جريرة وبلا محاكمة ولا تحقيق وتفشي الجاسوسية وكثرة الارصاد والعيون وزهق الانفاس والهمسات مما جعل كل الناس في خشية من أقرب أهليهم اليهم يتلفتون حولهم اذا تكلموا ويسرقون الخطى اذا ساروا.

لذلك كان انفجار القضية المصرية في اوائل سنة ١٩١٩ وبالذات في التاسع من شهر مارس، أشبه بالمعجزة وقد ادهشت كل المراقبين ورجال السياسة في العالم قاطبة كما فاجأت زعيم هذه الثورة، نفسها وقد سيق الى المنفى في جزيرة مالطا. في التاسع من مارس ذلك اليوم المشهود.

فقد جلس في منفاه لأول عهدهم بهذا المنفى كما يروي عباس العقاد في كتابه عن سعد يتحدث الى زملائه في الاعتقال والغربة وهم: محمد محمود باشا، واسماعيل صدقي باشا. وحمد الباسل باشا. فتساءل الزملاء الأربعة وهم ثلاثة من الشبان وشيخ تجاوز الستين فتنبأ الشبان بأن الثورة قائمة، واستبعد الشيخ المحنك احتمال وقوعها، لأن القاهرة مكتظة بعشرات الألوف من قوات الحلفاء الذين عقد النصر لجيوشهم، ولكن المستحيل تحقق وبدأت الثورة بانفجار مدو، وبدأت القاهرة العاصمة التي لم تحفل بحشود الجنود ولا صفوف الدبابات ولا بفوهات البنادق المصوبة الى الصدور والقلوب وكان رأي الشيخ أدنى الى الصواب ولكن في فترات من حياة الأمم، لا تنفع المقاييس المألوفة.

قامت الثورة وأفرج بعد شهر من الاعتقال عن سعد وصحبه الثلاثة فمضوا الى باريس حيث كان مؤتمر السلام الدولي منعقداً في متاجر فرساي لتسوية المشكلات التي تخلفت عن الحرب، ولوضع نظام دولي يمنع من قيام حرب أخرى بين الدول والشعوب، ولارساء قواعد سلام دائم أساسه أربعة عشر شرطاً كتبها رئيس الولايات المتحدة آنذاك الدكتور وودرو ولسون لتكون انجيل السلام للبشرية بعد الكتب المقدسة، وجاء في مقدمة هذه الشروط.. التي انبثق لها نور أمل عظيم في نفوس الملايين من البشر: حق تقرير المصير لكل أمة وشعب.

وقد كان مطلب زعماء مصر بعد ان وضعت الحرب أوزارها ان يسمح لوفد من ممثلي البلاد بالسفر الى أوروبا ليعرضوا قضية مصر على المؤتمر الدولي فأبت السلطة العسكرية. فلما أصر سعد وزملاؤه على مطلبهم العادل أنذرتهم بأن يخلدوا الى السكينة ولا يضعوا العقبات والعراقيل في طريق الوزارة التي وقع عليها اختيار السلطة العسكرية فرفض سعد وزملاؤه هذا الانذار وقال انه باق في مكانه غير حافل بتهديد القوة، ولتفعل هذه القوة ما تشاء، فكان هذا التحدي المليء بالشجاعة والثبات الطلقة الأولى في معركة الحرية، التي دارت رحاها بين الشعب المصري الاعزل، وبين القوة المدججة بالسلاح، واتبع سعد هذه الخطوة العظيمة بمحاضرة في الجمعية الجغرافية المصرية شرح فيها أن الحماية التي فرضتها بريطانيا على مصر في ١٨ من ديسمبر سنة ١٩١٤ عند بدء الحرب لم تكن عقداً أبرم بين مصر والانجليز كما يقتضي القانون الدولي بل كان فرضاً من الامبراطورية البريطانية على مصر فجاءت باطلة.

وأخيراً وجه سعد خطاباً الى السلطان احمد فؤاد، سلطان مصر في تلك الأيام قبل أن يخلع عليه الانجليز لقب ملك في سنة ١٩٢٢ وكان الخطاب تقريعاً لهذا السلطان إذ قبل استقالة رئيس الوزراء حسين رشدي باشا احتجاجاً على منع السلطة البريطانية سفر الوفد المصري الى فرساي (الضاحية الباريسية التي عقد في قصرها البوربوني مؤتمر السلم الذي أثمر معاهدة فرساي المشهورة).

ولكنه أغلظ المحاسبة للسلطان والتنديد بموقفه، فكان هذا الخطاب وقوداً ألقي في نار الثورة فاشتعلت واشتد لهيبها وكان الخطاب في ذاته وثيقة من وثائق الحرية، حفظه الناس يومذاك لا لبلاغته فحسب بل

لشجاعته أيضاً.

وبهذه المواقف الثلاثة التي توجها النفي والاعتقال كملت زعامة سعد زغلول عند الناس ولذلك كان القبض عليه وعلى زملائه ونفيهم الى مالطا بمثابة الشرارة التي انطلقت في هشيم الحكم العسكري فأتت على هيبته ونزعت الخوف منه ومن قلوب الناس، فلما غاب الزعماء عن وطنهم انطلق الشعب في كل مكان من مصر، بلا قائد ولا موجه يفعل فتحاً مبيناً، فالمرأة المصرية في ذلك الحين لم تخرج من بيت أبيها أو زوجها الا وهي معها رجل، من ذويها وكانت تضع على وجهها نقاباً، يجعل سيرها في الطريق متعثراً فإذا بها تخرج الى الميادين وتواجه رصاص الانجليز المسدد فعلاً لا مجازاً الى صدرها فلا تجفل ولا تتراجع بل تصمد وتقف غير عابئة.

وبهذه الخصائص العجيبة كانت ثورة سنة ١٩١٩ جديرة من كل دعاة الحرية وخصوم الاستعمار والعبودية بأن يحنوا لها الهامات.

كرومر أستاذ لسعد:

وكان زعيم هذه الثورة بدوره فلتة من فلتات العظمة البشرية فقد كان شيخاً تجاوز الستين وكان في الثلاثين سنة التي سبقت ثورة سنة ١٩١٩ رجلاً أخلد الى الراحة في قصره بحي الانشاء بالقاهرة. ففي سنة ١٨٩٢ عين نائب قاض بمحاكم الاستئناف الاهلية وقد استمر يرقى في مناصب القضاء حتى وصل الى وظيفة المستشار ثم اختير سنة ١٩٠٦ وزيراً للمعارف وكانت علاقته بمندوب الاحتلال البريطاني قد توثقت عن طريق صهر سعد زغلول أي والد زوجته مصطفى فهمي باشا الذي استمر في رياسة الوزارة ثلاثة عشر عاما، ويحدثنا سعد عن صلته الوثيقة باللورد كرومر على وجه يدل على أن الصلة استحالت صداقة ووداً، فقد قال في مذكراته (الكراسة ٢٨ ص ١٥١٦ ان اللورد كرومر كان يجلس معي الساعة والساعتين يحدثني في مسائل شتى كي اتنور منها في حياتي السياسية).

ولذا كان طبيعياً أن يشتد حزن سعد عندما يصل اليه نبأ عزل اللورد كرومر من منصبه في مصر في أثر الحملات التي قام بها مصطفى كامل على اللورد لتورطه في مذبحة قرية دنشواي.

وروى انه ذهب في اليوم التالي لزيارة اللورد (كرومر) بعد أن ثبت نبأ عزل اللورد فهال اللورد ما بدا على سعد من آيات الحزن والانهيار فسأل: ما الخبر يا باشا فقال سعد انه حزين لما وصل الى علمه، فطمأنه اللورد قائلاً انه سيوصي عليه أي على سعد اللورد ونجت فقال سعد انه حزين لبلده لا لشخصه فطمأنه اللورد ان الاحتلال البريطاني باق.

وفي هذه الفترة كان سعد يضيق بخصوم كرومر وخصوم الاحتلال ولذلك كان يصف مصطفى كامل بأنه (مجنون) ونصاب وخداع ومنافق كذاب وليس بشيء كما جاء في مذكراته المودعة بدار الوثائق (الكراسة ٧ ص ٣٤٤).

ونحن لا نورد هذه المقتبسات للغض من سعد ولنبين مدى التباين بين مواقفه وآرائه قبل الثورة وبعدها، ولكن غايتنا أن تكون هذه الوثائق الثابتة والتي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها!... تحت نظرنا ونحن نقوّم شخصية سعد ونحكم عليها، والجوانب التي تكشف عنها هذه المواقف بلا شك تلقي أضواء على هذه النفوس الكبيرة، المليئة بالقوى، التي قد تتضارب بعض الأحيان حتى يبدو أشبه شيء بمن يعاني ازدواج الشخصية، وليس في الأمر ازدواج للشخصية ولا انفصام، الا ان سعداً كان في فترة سابقة على الثورة، وهي المعاصرة لخروجه من الوزارة وذهاب كرومر، ومجيء كتشنر، وانفضاض الناس من حوله، لظروف الحرب ولمعاداة الخديوي له ولركود الحياة العامة، حتى اضطر للبحث عن وظيفة تناسبه، مستعيناً بمحمد محمود باشا كوسيط بينه وبين اللورد كتشنر، في هذه الفترة القاتمة الكئيبة الفارغة كان من الصعب على ذي شخصية مليئة بالحيوية، لا تطيق الفراغ ولا الركود، ولا العزلة أن يشعر بالمرارة الى أقصى الحد، وتذهب به المرارة مذاهب الرفض والاحتجاج لكل شيء ولكل شخص، وكان مصطفى كامل يمثل امامه كل النقائض بالنسبة له، فقد كان يمثل الحركة والشهرة واجتماع الناس حوله وحبهم له.

السياسة في ونسة العشرينات والثلاثينات بأقاليم السودان

هل يعرف الجيل الحالي الملكة آمنة وخوجلي ود الحسن؟

أشرت من قبل الى السياسة في أحاديثي مع الطيب عبدالحفيظ، وفي ندوة يوسف العجب (رحمهما الله) ـ فما هي تلك السياسة؟

انها في الحقيقة تلك الدردشة التي تتناول الأحوال الواقعة وخلفياتها التاريخية في السودان والخارج ـ في جميع مجالس الشيوخ والشباب، وخصوصاً من الطبقة المستنيرة:

* الطيب عبدالحفيظ (مثلاً) كان يتقن اللغة الأمهرية بالنسق الأعلى حيث كان وكيل اعمال عم أبيه ـ الحاج عثمان عميد الشايقية القضارفيين ـ بالقلابات أو (متمة) الجبشية على حدودنا (ولعلها استمدت اسمها من متمة الجعليين، حينما لجأ اليها ألمك نمر بعد قتل اسماعيل نجل محمد علي باشا، وحوالي سنة ١٨٢٢).

* كنا في تلك السنوات الأولى من الثلاثينات نتحدث عن صعود (الرأس تفري) الوصي على عرش الحبشة، وقد أخبرني الطيب انه ابن اخت «زوديتو» الامبراطورة المريضة، ابنة الامبراطور منليك الثاني.

* وأفهمني الطيب ان زوديتو كان لها ابن سبق له الجلوس على العرش وهو مسلم اسمه ياسو، ونظراً لاسلامه، ثم لاتصاله بالباب العالي (السلطان العثماني باستانبول) في فترة حرب ١٩١٨/١٤ تآمر عليه كبار (الرؤوس) في دولته مع دول الحلفاء وقتلوه بالسم، وقد آل العرش اسمياً الى والدته زوديتو الى أن ماتت فأعلن الرأس تفري نفسه امبراطوراً باسم هيلاسيلاسي في سنة ١٩٣٣م ـ (النقطة الأخيرة جاءت زمانياً في فترة تالية لحادثاتي مع الطيب عبدالحفيظ بالسوكي سنة ١٩٣٢م).

* وحدثت الطيب عما علمته من حدودنا الأخرى منطقة بني شنقول التي تخلى عنها خليفة المهدي للأحباش، وسكانها زنوج مسلمون ووثنيون وفونج وجعليون، ويتكوّن منهم الخليط الذي نسميه «الوطاويط» ولا يكادون يفترقون عن أقاربهم المقيمين في داخل حدود السودان بمنطقة كرمك وقيسان ـ ومجموعة القبائل التي تشكل «الدثار الزنجي للحبشة» من القلابات بناحية القضارف. ـ مروراً بمراكز الروصيرص وكرمك بمديرية النيل الأزرق، الى الناصر ـ و ـ بوما بمديرية أعالي النيل الى مثلث اللنبي بالمديرية الاستوائية.. هذا الدثار الزنجي حينما يتاخم الحبشة فهو سوداني، فان سحنة الناس سودانية، وحتى طبيعة الأرض بجفافها سودانية ولكن حتى مع انقسام القبائل مثل «التبوسا» مع كينيا في مثلث اللنبي، ومثل قبائل أخرى مع يوغندا او الكونغو أو زائير أو أفريقيا الوسطى، فالطبيعة الزنجية المتداخلة تبرر عدم الاعتراض ـ ولكن زنوجنا مع الحبشة لا يجدون فرص التقدم المتاحة لأقاربهم بالسودان ـ ومع وفرة مشاكل أديس أبابا، فان مشكلة الدثار الزنجي كمين كامن للمستقبل، ونحن ملجمون عن التدخل بميثاق منظمة الوحدة الأفريقية الذي جمد الحدود القائمة ١٩٦٠م.

والمنطقة المتاخمة من الحبشة لمديرية النيل الأزرق (بنى شنقول) كان يحكمها أمراء بالوراثة أصلهم سوداني..

١ ـ خوجلي ود الحسن (هل هو جعلي الأصل؟ وعلى التخصيص هل هو من قبيلة الشعديناب. أهل الحصايا؟ لقد ذهب إليه العم محمد ريس (من سنجة) وأقام معه عدة سنوات)..

٢ ـ الملكة آمنة، برغم تبعيتها للحبشة اعتقلتها حكومة السودان ـ ربما باقتحامها حدودنا، أو اقتحام الجنود السودانيين لحدود الحبشة ـ في أواخر العشرينات وقد نقلت الى الخرطوم وسجنت لفترة ما ـ بصورة

ما ـ وهي زوجة خوجلي ود الحسن، واعتقالها كان سببه تجارة الرقيق التي تخصص لها فقرة طويلة أدناه.

٣ ـ حمدان ود أب شوك وهو أيضاً أمير اقطاعي سوداني فونجاوي ـ وقد عزله الأحباش، وجاء الى سنجة حيث احتفل به الملك حسن عدلان (ناظر الفونج) بحسبانه عميد أسرة سلاطين السلطنة الزرقاء، وأقام الرجل سنوات بسنجة وغيرها كمواطن يقدم للمشاركة الوجدانية لجيرانه، ثم عاد الى الحبشة في فترة الغزو الايطالي متلمساً للفرص السياسية.

تحرشات إيطاليا ضد الحبشة:

كنا نصفق لجيراننا الحبش الذين هزموا الايطاليين في معركة (عدوة) ـ ١٨٩٥ ـ في نفس فترة بروز سودان المهدية الذي فتح الخرطوم ١٨٨٥م وكان قبل ذلك قد سيطر على السودان الشمالي وساحل البحر الأحمر بعد ابادة (جردة هيكس باشا) بغابة شيكان ١٨٨٣م.

ولكن الايطاليين لم ينسوا عار هزيمة معركة عدوة، لاسيما وهم منذ سنة ١٩٢٢م يحكمهم (الدوتشي) ـ موسوليني ـ زاعماً أنه يريد اعادة مجد الامبراطورية الرومانية.

تاريخ الرق:

ان مذكرات أغبش لا بد أن تحتوي على تلخيص لتاريخ الرق، لأن كاتب هذه السطور قد عني بالقضية مدفوعاً بتجارب عائلية، ولفن أن الاسلام (الذي شرع للعتق ـ ولم يشرع للرق) قد آذاه حكامه الأسلفون منذ العهد الأموي، حيث لم ينفذوا السياسة النبوية التدريجية الحكيمة والوصول بها الى غايتها المنطقية وهي تحريم الرق.

في هذه العجالة أشير الى ان الأوروبيين ـ وعلى رأسهم بريطانيا ـ هم أكابر المجرمين في سبة الاسترقاق، دعني أنقل الآتي عن كتاب (تاريخ قومي لانجلترا، تأليف أ.ل. مورتون، طبعة لورنس ـ و ـ ويشارت ـ لندن ـ طبعة ثالثة منقحة مايو ١٩٥١).

(في سنة ١٥٦٢م نقل هوكنز أولى شحناته من الرقيق الى سان دومينجو، بادئاً بذلك رابطة نشطة ورابحة بين المستوطنين الاسبانيين ـ والتجار الانجليز فقد تواطأ الفريقان على الهرب عن طريق سفن الأسطول البريطاني، ومفتشي الجمارك وقد ظلت تجارة الرقيق تجرى في نطاق ضيق الى ما بعد منتصف القرن السابع عشر ـ وقد وطدت انجلترا مقامها في التجارة الاسترقاقية حوالي سنة ١٦٢٠ ـ فحينئذٍ بدأ العمال الزنوج المسترقون يشكلون أساس الثروات التي بنيت بواسطة زراعات السكر والتبغ.

(وقد ظل امتياز جلب الأرقاء الى المستعمرات الاسبانية بأمريكا، على الدوام من الأغراض المفضلة لدى التجار الانجليز، وقد ظلت التجارة مع مستعمرات اسبانيا لبعض الوقت أكثر أهمية من الاستعمار الاستيطاني المستقل (هذا وقد تغير فيما بعد وسوف نرى ان بريطانيا قد حاربت اسبانيا للاحتفاظ لتجارها بتصدير الرقيق الى مستعمراتها. كما حاربت الصين في وقت ما لاجبارها على شراء الأفيون الذي يصدره اليها تجار بريطانيون من الهند).

من هو هوكنز؟

من هو هوكنز هذا؟..

ـ تفيدنا سيكلوبيديا انجليزية مختصرة (نتال): أنه السير جون هوكنز ملاح انجليزي برتبة أميرال،

وكان (رير أميرال) في إحدى المناوشات الاسطولية البريطانية التي ساهمت في القضاء ـ في معركة حاسمة ـ على (الارمادا) الاسبانية.

واضاف كاتب الموسوعة البريطانية: ان هوكنز يتميز بميزة أخرى (غير محسودة) وهي كونه أول رجل انجليزي يباشر النخاسة. حيث كان ينقل الزنوج المسترقين من أفريقيا للبيع في جزر الهند الغربية (١٥٣٢ ـ ١٥٩٥).

حسنات لمحو السيئات:

على الرغم من التقارير التي أفادتنا بأن بريطانيا أبطلت تجارة الرقيق في أوائل القرن التاسع عشر، بسبب وضوح المصلحة في إبقاء الزنوج ببلدانهم واستغلالهم في زراعة القطن والكاكاو وزيت النخيل وغير ذلك بغرب أفريقيا... فإننا نعترف لبريطانيا بمبادرتها بتحريم الاسترقاق بالجزر البريطانية (أولاً) ويوجد أشخاص عاديون لهم فضل سوف نذكرهم لدى نشر البحث الموسع...

و(ثانياً) لبريطانيا فضل في منع (النقل البحري للرقيق) وقد ضغطت على الدول الأخرى حتى توصلوا الى شبه ميثاق دولي لتحريم هذا الجانب من مؤسسة الاسترقاق (أعني التجارة التصديرية للرقيق).

وقد ظل النقل البحري للرقيق مرعي التحريم مثل تحريم (القرصنة البحرية) منذ النصف الأول من القرن التاسع عشر.

بعد ذلك بقي (الاسترقاق الداخلي) مباحاً في أقطار عديدة، وقد احتاج انهاؤه في الولايات المتحدة الى الحرب الأهلية بزعامة ابراهام لنكولن ١٨٦٣.

وتوصلت الدول الكبرى الى اتفاقات مع السلطنة العثمانية ـ ومع الخديوي اسماعيل بالنسبة لمصر والسودان ـ على تحريم (نقل الرقيق)... ومع ان الدول الاستعمارية الرئيسية (بريطانيا وفرنسا وايطاليا وبلجيكا واسبانيا والبرتغال وهولندا) كانت قد تقاسمت الاقطار المستضعفة في آسيا وأفريقيا من أجل (الاستغلال المحلي) للسكان الأصليين ـ أو نقلهم كأرقاء ـ نعم كان يوجد آسيويون مسترقون نقلتهم هولندا الى جنوب أفريقيا المعهودة لدينا في الوقت الراهن.

هذه الدول الاستعمارية صار لها دور جديد تداري به أغراضها، وهو انهاء الاسترقاق.

اسماعيل باشا:

انخدع الخديوي اسماعيل بدعاوى الأوروبيين ولذلك فهو يبوء عندنا بإثم زراعة التبشير المسيحي الأوروبي الذي تمركز منذ أيام اسماعيل التي انتهت سنة ١٨٧٩ بجنوب البلاد وبجبال النوبة.

وعرفنا منذ تلك الأيام ارسالية (أباء فيرونا) التي منها الأب كومبوني، وفيرونا هي المدينة الايطالية التي اشتهرت بابنيها العاشقين روميو ـ وجولييت اللذين خلدهما شكسبير وكانت في القرن الماضي قبل توحيد ايطاليا تابعة لامبراطورية النمسا والمجر، وهذا سر وجود قنصل نمساوي بالخرطوم الى قبيل سقوطها في أيدي القوات المهدوية ١٨٨٥م.

وتحت نفس ستار الرق جاء الخديوي اسماعيل بجواسيس للاستعمار بصفة مستكشفين لمنابع النيل، بل بصفة (حكام) نيابة عنه، مثل غردون الانجليزي وسلاطين النمساوي ـ و ـ جيسي الايطالي كلهم يضعون على رؤوسهم الطرابيش باعتبارهم ممثلين لخديوي مصر!!

قلم الرقيق:

وبموجب نفس الالتزام بالموروث منذ عهد الخديوي اسماعيل فـان الجيش المصري بقيـادة كتشنر ١٨٩٨/٩٦ كان يشتمل على وحدة خاصة تسمى (قلم الرقيق) كانت مهمتها جمع المعلومات واعداد المداهمات والاتهامات في كل اشتباه يتعلق بالاسترقاق.. وقد انتهى الاسترقاق لأن الشعب السوداني كان مهيأ لذلك. وبذلك سرحت وحدة (قلم الرقيق) سنة ١٩١٢.

ولكن الحبشة:

أما الحبشة، فقد ظلت واحدة من الأقطار التي كان من المباح فيها الاسترقاق الداخلي.

في سنة ١٩٢٩ بدأت عصبة أمم جنيف في بحث مشروع ميثاق عالمي ضد استرقاق البشر.

تبنت ايطاليا الفاشية في تلك الأيام دعوى اتهام الحبشة امام العصبة بجريمة استبـاحة استـرقاق الانسان.

ورأينا الرأس تفري (فيما بعد هيلاسيلاسي) يذهب من أديس أبابا الى جنيف - وكان إذ ذاك (١٩٢٩) شاباً متخرجاً من فرنسا - وقد دافع عن بلاده بمغالطات.

واتضـح من مناقشـات العصبة ان الرق من الصعب اجتثـاث جذوره من الحبشـة بسبب (الحكم الاقطاعي) حيث يوجد (رؤوس) كثيرون يحكمون (مقاطعات) بتحكمات فردية، وبدون قوانين مفروضة مركزياً ويلزمهم فقط ان يدفعوا الى الامبراطور (جزية سنوية).



الآثار السياسية لبداية الحرب العالمية الأولى في المنطقة العربية

اللورد كرومر والحبشة :

كان اللورد كرومر ـ الذي عرفناه باسمه الأصلي بارنغ قبل لقب اللوردية وجاء في سنة ١٨٨٣ بعد هزيمة عرابي، وصار يمثل الوجه السياسي للاحتلال البريطاني لمصر الى أن سحب لبلاده عام ١٩٠٧ ـ وقد ظلت حكومة لندن تعترف له بفضل ترويض المؤسسات المصرية ـ الوطنية والسياسية والعسكرية والادارية والدينية والتعليمية الى جانب صياغة نظام الحكم الثنائي للسودان.

كان كرومر (هذا) بين أعضاء وفد بريطانيا الخاص بمؤتمر اجازة الميثاق الدولي لتحريم الاسترقاق البشري بعصبة الأمم بجنيف ١٩٢٩.

قرروا ارسال بعثة للاصلاح الاداري والسياسي بالحبشة وعينوا كرومر رئيساً لهذه البعثة.

كان أول اقتراح من كرومر ايجاد جهاز بيروقراطي حبشي له كوادر ورواتب ثابتة ـ وبالتالي اعداد ميزانية تشمل جميع أقاليم الحبشة لها ايرادات ومتصرفات مقننة علمياً ومعنى هذا كان إلغاء النظام الاقطاعي بالحبشة، وهذا أمر لم يتم، فقد تصاعد التحرش الايطالي على ذلك القطر ووصل الى درجة الغزو والاحتلال الكامل وهذه قضية أخرى سوف تأتي في سياقها.

علي دينار

وقضية ياسو، الامبراطور الحبشي المسلم، الذي فقد حياته وعرشه بسبب التفاوض مع الآستانة في فترة حرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨ تثير لدينا قضايا أخرى، منها:

١ ـ قضية علي دينار.

٢ ـ ليبيا.

٣ ـ الخديوي عباس حلمي الثاني.

٤ ـ اشراف مكة.

علي دينار:

ان السلطان علي دينار كان يحكم دارفور في عهد الحكم الثنائي بطريقة اقطاعية تتمتع بالحكم الذاتي ـ لأنه لم يحوج الجيش الفاتح بقيادة كيتشنر في سنة ١٨٩٨ ـ ١٨٩٩ الى الوصول الى ذلك الاقليم ولكنه في فترة حرب ١٩١٨/١٤ اتهم بالاتصال بالعثمانيين بوساطة السنوسيين بليبيا (التي كان يحتلها الايطاليون) ولذلك قررت حكومة الخرطوم الاستيلاء على دارفور ١٩١٦ بوحدات سودانية أساساً (فكلمة الجيش المصري كانت مقيدة قبل الحماية ـ التي ستأتي قصتها ـ بوضعية (السيادة العثمانية) على مصر وهذه السيادة العثمانية استبعدتها عن السودان اتفاقية الحكم الثنائي ١٨٩٩).

قد نتوسع في سياق آخر من هذا الكتاب بالحديث عن دارفور، ولكن كان السلطان علي دينار رجلاً قاسياً.

قالوا، ان أحد الصاغة بسوق الفاشر قد استعمل النار والدواشات (الكيماويات) في اذابة بعض قطع الفضة..

وقال لجلسائه: كم اتمنى لو أصب هذا المحلول في منخري السلطان علي دينار.

أبلغت القصة الى السلطان فدعا الصائغ الى القصر (الذي تغدينا به في سنة ١٩٥٩ مع المدير السيد

احمد مكي عبده) واحضر له أعوان السلطان كمية من الذهب والفضة وطلبوا منه البدء بإذابة رطلين من الفضة، ولما فعل نقلوه أمام السلطان وقاموا بصب المحلول المغلي بمنخريه وكان يصرخ ويرتجف ولم يفسروا له هذا العمل بأي كلام!!

مأساة ليبيا:

قبل الفاشية، اعتـدت ايطاليا على ليبيا ـ ولم تستطع (السيادة العثمانية) ان تحميها (بنفس القدر الذي عجزت فيه سيادة آل عثمان عن درء احتلال بريطانيا لمصر سنة ١٨٨٢).

كان العدوان الايطالي على ليبيا قد جرى سنة ١٩١١ وقد دافع عنها اهلها العـرب، وقاسـوا قسوة الايطاليين الذين استعملوا الطائرات في هذه الحرب لأول مرة في تاريخ الطيران ـ وقصة الشهيد المسن عمر المختار، معروفة فقد اسقطوه من طائرة في الجو ليموت بهذا الشكل وهذا الشيخ كان في شبابه قد زار السودان وتعرف على حركة المهدية.

شارك من المصريين في الدفاع عن ليبيا الضابط عزيز المصري (أستاذ أنور السادات، وعبدالرحمن عزام الذي صار أول سكرتير للجامعة العربية ١٩٤٥).

الحماية على مصر:

ما زلت أذكر اننا في سنة ١٩٢٤ نفسها عرف لنا أستاذ الجغرافيا بالسنة الرابعة الأولية (مصر) بأنها بلد مستقل ولكن تحت الحماية البريطانية» ولم يكن في يدنا كتاب وكان المدرس يلتقط معلوماته من كراسة في يده، وكان يتحدث عن أقطار أفريقيا، وأمامنا على الجدار خريطة للقارة السوداء ـ كان أكثر أقطارها ملوناً بصبغة حمراء والصبغة الحمراء في اصطلاحهم كانت علامة الامبراطورية البريطانية وفي تلك الأيام كانوا يذكرون اسماء اقطار أفريقية متعددة بحسبانها مستعمرات بـريطانيـة في أفريقيـا الجنوبيـة مثل الكـاب والاورانج والترانسفال وهذه الاقطار تشكل وحدات من (اتحاد جنوب افريقيا) الدولة العنصرية التي نراها الآن.

وحماية بريطانيا لمصر كانت قد فرضت خلال حرب ١٩١٤/١٩١٨ والمفروض انها انتهت بإعلان ٢٨ فبراير ١٩٢٢ الذي اعلنته بريطانيا منفردة بالاعتراف باستقلال مصر.

أما كيف فرضت الحماية على مصر خلال الحرب فان القطر المصري كان خاضعاً لسيادة السلطنة العثمانية (اسميا) وان كان منذ أيام الوالي محمد علي باشا قد ظل يدار باستقلال ذاتي، ونال اعقاب محمد علي امتياز توارث الولاية ـ واشترى حفيده اسماعيل باشا لقب الخديوي من سلطان تركيا وهو نوع من الامارة ـ واسماعيل خلعته الدول الأوروبية وخصوصاً بريطانيا وفرنسا، من خلال الضغط على الآستانة، بعد ان كبلوه بالديون وسلبوا مصر حتى من نصيبها من شركة قناة السويس التي اشتراها رئيس الوزراء اليهودي دزرائيلي لبريطانيا.

وحينما تنازل اسماعيل في سنة ١٨٧٩ عن عرش الخديوية ترك مصر خاضعة لتحكم سياسي واقتصادي من صندوق الدين ـ والدول الأوروبية التي وراءه ـ كانت تستنزف موارد خزانة مصر لسداد ديونها الملفقة (من ذلك انهم كانوا يحتلون الجمارك اذا رأوا ضرورة ذلك لضمان دفع أقساط الديون ـ كذلك فانهم كانوا يحرمون على مصر زراعة التبغ ويحرمـون دخول التبـغ السوداني الى القـطر المصري لمصلحـة الأدخنة المستوردة من أوروبا وغيرها التي يسهل حصرها في الجمارك واستيفاء الضريبة منها).

وكان لهم مستشارون في كل وزارة للتحكم في المالية والتعليم ـ مثلاً ـ وفي الزراعة والري وفي الصناعة

والتجارة لتخريبهما ـ وحتى في مصلحة الآثار ليسرقوا ما يريدون...!!

وفي عهد توفيق باشا نشبت الثورة العرابية فافتعل البريطانيون تحركات مما يسمى الآن بالأعمال القذرة حيث دبروا بواسطة الجواسيس فتنة بالاسكندرية بين الوطنيين والاجانب، فقصفوا الميناء، بقنابل اسطولهم ثم دخلوا في معارك مع الجيش المصري بقيادة عرابي ـ كان ضرب الاسكندرية قد غطوه بحماية الاجانب (وقصة حماية الاجانب سوف تأتي منفصلة) وأما سحق جيش مصر فقد غطوه بأنهم يحمون حقوق الحاكم الشرعي الذي هو الوالي توفيق باشا.

واحتلوا مصر، ودام احتلالهم من ١٨٨٢ الى ١٩٥٦ وجاءوا بالسير ايفلن بارنغ (الذي صار فيما بعد اللورد كرومر) بصفة (قنصل عام) ـ في تلك الأيام لم تكن مصر مستقلة بل تخضع للسيادة العثمانية وكان لا يجوز تبادل التمثيل الدبلوماسي معها.

هذا (القنصل الجنرال) صار يتحكم في حكومة مصر وثورة محمد احمد المهدي التي نشبت بالسودان سنة ١٨٨١ صار من مهام بارنغ ان يملي مشورات لندن بصددها على حكومة القاهرة، وكان اعداد جردة هيكس باشا ١٨٨٣ سابقاً لوصول القنصل ولكن أنفه قد اندس في كل الاشياء التي حدثت بعد ابادة الجردة بمعركة شيكان مثل اعادة غردون للخرطوم ١٨٨٤ وقرار سحب القوات المصرية من السودان ثم محاولات انقاذ غردون ابان حصار الخرطوم في نفس السنة، واعادة بناء جيش جديد لمصر بعد تصفية فلول جيش عرابي ومواجهة معركة توشكي المؤسية التي استشهد فيها على حدود القطر المصري، القائد عبدالرحمن النجومي مع الآلاف بدون سبب سوى (غيرة الخليفة ود تورشين إزاء القيادات الحكيمة الشجاعة والبلاء الحسن) ومما صنعه اللورد كرومر (سابقاً القنصل بارنغ) وصار لقبه الرسمي المعتمد البريطاني، انه اشترك مع لندن في تدبير حملة استعادة السودان ١٨٩٦ ـ ١٨٩٨ وهو الذي صاغ اتفاقية الحكم الثنائي ١٨٩٩.

كل هذا جرى بمصر الخاضعة للسيادة العثمانية دون ان تفعل الآستانة شيئاً سوى المراجعات التحريرية ـ وكان المستعمرون يسمون تركيا العثمانية في تلك الأيام (الرجل المريض).. وكان هناك ما يسمى (المسألة الشرقية) وقد اقتنيت في أوائل الثلاثينات كتاباً بهذا العنوان ووجدته يتحدث عن كيفية التصرف في أملاك السلطنة بتقسيمها بين دول الغرب، وكانت هذه الاقتراحات معدة من القرن الماضي!!

ومع ذلك ظلت بريطانيا وفرنسا تطمعان في انضمام تركيا اليهما في حرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨ أو على الأقل تقف على الحياد ـ ولكنهم لما رأوا الآستانة تعزز محالفتها (لدولتي الوسط) امبراطورية المانيا وامبراطورية النمسا والمجر ـ واكثر من ذلك: لما رأوا خديوي مصر عباس حلمي الثاني يتوجه الى الآستانة ويحاول ان يضع مصر تحت تصرفها ـ برغم الاحتلال البريطاني ـ سارعت لندن الى اعلان حمايتها على مصر، وبالاتفاق مع أسرة محمد علي خلعوا عباس حلمي الثاني غيابياً وعينوا بدلاً عنه الأمير حسين كامل بلقب (سلطان).

وفي فترة الحماية (وقبلها) كان يتعاون مع البريطانيين سعد زغلول نفسه وغيره من زعماء (حزب الأمة) وبينهم استاذ الجيل لطفي السيد باشا مترجم فلسفة ارسطوطاليس.

السياسة المصرية:

سوف يتضح ان السياسة المصرية ـ بعد ثورة ١٩١٩ بمصر وثورة ١٩٢٤ بالسودان كانت اكثر مواضيع مناقشات أغبش واصدقائه بالسوكي وسنجة في الثلاثينات ـ وسوف يأتي ضمن الحلقات التالية موضوع الثورة العربية أو الثورة التي بدأها اشراف مكة، وأشرنا اليها أعلاه بين نماذج تحركات المنطقة في فترة حرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨.

أغبش صاحب دكان لبيع الشطة والصحف

في عام ١٩٣٤ وأنا بالسوكي قررت أن أفتح دكان (تشاشة) بسنجة، تضاف إليه (مكتبة الثقافة العصرية) لتوزيع الصحف والمجلات - المصرية - أساسا خلفا لمكتبة الفونج الكبرى التي أغلقها أصحابها.

حصلت أولاً على الرخصة التجارية وهي تعطى مقابل جنيه واحد في السنة في تلك الأيام، وتشكل الضريبة الأساسية للتاجر - ويدفع المزيد إذا زادت أرباحه السنوية عن الحد الأدنى (سواء بناء على حساباته إذا كانت منتظمة أو بحسب تقدير اللجنة التحكيمية التي يعينها مفتش المركز).

قدمت طلب ترخيص بفتح المكتبة الى مفتش المركز بواسطة المأمور وكان الأخير لحسن الحظ المرحوم محمد الحاج الأمين، والد صديقنا فيما بعد الشاعر عبدالمجيد وكان رجلاً مستنيراً سبق له العمل كضابط إداري بكلية غردون وهو شقيق استاذي المرحوم الشيخ الهادي الحاج الأمين، ناظر مدرسة سنجة الأولية في النصف الأول من العشرينات.

لم يتلكأ المأمور بل ذهب وأنا واقف الى المفتش الانجليزي (بلاكلي نفسه بتاع ال ١٥ جلدة) وجاءني بالتصديق، وقد كتب الخواجة على طلبي اشتراطا بعدم (مباشرة طبع مطبوعات) بسبب السابقة التي سلف ذكرها - فقط يجوز لي بيع - المطبوعات، (يبدو لي من هذه السرعة التي تصرفوا بها، ان تحركاتي كانت مرصودة لدى السلطة بل كانوا قد رتبوا قرارهم متوقعين وصولي إليهم).

عثرت على اعلان من (مكتبة الوفد) لصاحبها محمد محمود بشارع الفلكي بباب اللوق بالقاهرة عن امداد المتعهدين الصغار بالصحف والمجلات، فكتبت اليهم مع حوالة عدة جنيهات بصفة تأمين طالبا صحفا ومجلات كالآتي: ٥ الأهرام، ٥ كوكب الشرق، ٥ الجهاد، ٥ الوادي، ١٠ المصور، ١٠ كل شيء، ١٠ اللطائف المصورة، ٥ الرسالة، ٥ الهلال، ٢ المقتطف، ٣ المجلة الجديدة.

اتضح لي بعد مدة ان جريدة كوكب الشرق اليومية - وهي وفدية - قد ظلت ترسل لنا وتصادرها سلطة حكومة السودان - وهذا مقلب من صديقي خضر معتوق حيث كان يلح في طلب (كوكب الشرغ) (بالغين) وليس بالقاف وهو (وفدي) كما سوف يتضح فيما بعد (قرار المصادرة في تلك الأيام كان يطبق اذا احتوت المطبوعة على مادة مثيرة ضد حكومة السودان)، ويستمرون يصادرونها الى أن يذهب أصحابها الى (وكيل حكومة السودان) وهو انجليزي له مكتب مشهور هو (الوكالة) بشارع توفيق باشا بالقاهرة ويثبتون له تصحيح سلوكهم. وعلى هذا الأساس ظلت روزاليوسف المجلة ممنوعة من الوصول الى السودان أكثر من ١٠ سنوات.

كانت مكتبة الوفد تعاملني على أساس سعر المائة ٨٥ قرشا عن المجلات التي ثمنها قرش واحد، وهي من المصور الى الرسالة في القائمة أعلاه - والصحف اليومية ٤٥ قرشا الخ، (كانت القاعدة دفع مليم واحد عن الجريدة أو المجلة للبريد بصرف النظر عن وزنها والحقيقة ان هذا الرسم المخفض كان قاصراً على الناشرين. ولكن كان يحدث التغاضي أو الاهمال، فيستغل المتعهدون نفس القاعدة).

توقفت معاملتي مع مكتبة الوفد، حيث أوقفت طلباتي فجأة - واتضح ان حوالتي كانت بالبريد - ثم (صهينوا) عن الرد على مطالباتي.

تحولت الى التعامل مع الفهلوي وهو متعهد توزيع كبير، وتكرر نفس الايقاف بنفس الظروف (وقد ذهبت الى مكتب المذكور بنفسي حينما كنت في القاهرة سنة ١٩٤٠ وطالبته بعدة جنيهات فزعم لي ان اسم فهلوي مكرر وصاحب أمانتي هو ابن عمه الذي أفلس أيام تعاملي معهم سنة ١٩٣٥، وقد آل المحل الى محدثي بعد تسوية ديون الدائنين، وعليه فهو ليس مسؤولاً عن حقوقي).

حكيت هذه القصة في وقتها هناك لصديقي عابدين اسماعيل المحامي، وكان طالب حقوق فقال لي ان

الدين الذي أطالب به يسمى في المصطلح القانوني (ديناً طبيعياً) فهل هذا الاصطلاح مضبوط يا أيها الفقيه المدره بعد أن نلت وقار شياخة العلم ولا أريد أن أذكر شيخوخة السن!؟

فيما بعد تعاملت مع ادارات الصحف مباشرة، فكانت دار الهلال تحاسبني بسعر ٧٨ قرشا للمائة عن مجلاتها ذات القرش، والرسالة ٨٠ وكانت الصحف اليومية تصلني بسعر ٣٥ للمائة، فوجدت أنني بطريقة الاشتراك استطيع أن أحصل عليها بنحو ٣٢ قرشا، وذلك لأن اشتراك الصحيفة السنوي ١٢٠ وتصلك ٣٦٥ يوماً وربع يوم، حيث لا توجد عطلات وكانت طلباتي محدودة مثلاً: ٣ أهرام، ٣ المصري، ٣ روز اليوسف اليومية (وهذه هي صحف ١٩٣٦).

النادي الأغبش:

صنعت ختم كاوتش لمكتبة الثقافة العصرية لصاحبها عبدالله رجب، وصار دكاني منتدى الطبقة المستنيرة من الموظفين والتجار حيث تتحول صناديق الصابون والشاي الفارغة أو المملوءة الى مقاعد وكذلك صفائح الغاز التي تغطى بالخيش لمنع توسيخ أناقة الأفندية!!

ملح بمليم واحد:

وكان دكاني يتعامل بالمليم في بيع البن والسكر والشاي والملح والصابون والزيت والغاز والسجائر والكبريت...الخ.

في أحد الأيام وصلت البوسته نهاراً وكنت اختم المجلات والمشتركون واقفون وجاءت خالتنا أم الأمين ود بشير طالبة شراء ملح بمليم، فقلت لها بالله اذهبي اشتريه من دكان جارنا احمد حسين.

* ليه... ال جد شنو؟
- أنا مشغول.
* الملح ما شغل؟
- ملح بمليم ما في.
* نان الملح ببيعوه بالخزنات؟

(واضطررت أن أبيع لها الملح بمليم، ربع رطل وأعطيها فكة تعريفة أربعة ملاليم حمر كبيرة الحجم مسكوكة من البرونز).

ميوز الأفندية:

وكان دكاني في الشارع الخارجي للسوق ولذا فهو يفتح من الصباح الى ساعة متأخرة من الليل.. وقد صار لي زبائن من الأفندية أصحاب النوت.

أرباحي نظريا من الدكان والمكتبة كانت كبيرة نحو ٤٠ جنيها شهريا، وهذا مبلغ كبير بمقاييس تلك الأيام، ولكن الديون التي لم أستطع تحصيلها قد انهكتني.

موسم الدرت:

كان أكثر السوق يعتمد على رواج فترة (الدرت) بفتح الدال والراء وهو الاسم الذي نستعمله لموسم الحصاد.

ويوجد اصحاب دكاكين معينة يركزون على معاملات الموظفين او العساكر أو الخفراء...الخ.

كان التاجر جارنا الذي تعامل مع العساكر بأصنافهم بضمانة قياداتهم يبيع لهم مثلاً السكر بالدين،

الراس بسعر ٧٢ مليماً (التسعيرة الرسمية) ويبيعونه له بسعر ٥٥ مليم كي يقبضوا الكاش لشراء لوازم أخرى.

لا يحمدون الله:

انني عاشرت التجار طوال ٦٠ سنة، وكلما تسألهم عن حالة السوق يقولون لك (انها واقفة)... والفوائد ما في.. ونحن نأكل من راس مالنا.. هذا الكلام ما زالوا يقولونه حتى بعد أن صاروا أصحاب الملايين!!

تجربة شخصية:

كانت شركة كونتوميخالوص قد كوّنت شركة جانبية باسم (شركة السودان التجارية) في أوائل الثلاثينات وكانوا يطرحون بضائع كثيرة بالدين بكمبيالات لمدة ٦٠ أو ٩٠ يوماً.

رأيت بعض التجار يأخذون منهم الخيش والدمورية والبن والشاي والدقيق والصابون وغاز الكيروسين...الخ، بالكمبيالات ويبيعون هذه البضائع بأثمان أقل من أسعارها الأصلية ويحولون المال الى رأسمال يتاجرون به في المحاصيل أو أشياء أخرى بعضهم أثروا وبعضهم أفلسوا!

ولكنني أتعامل معهم حسب طاقة دكاني... جاء شهر رمضان وتذكرت أن الناس في نهايتو يصنعون الكعك، فذهبت الى الشركة واشتريت ١٠ جوالات دقيق فرنساوي بسعر الجوال ٦٥ قرشاً بميعاد ٣ شهور (١٥٠ رطلاً = ٥٤ أوقة ولاحظت ان السوق يبيع الأوقة بقرشين فأحضرت كرتونات وكتبت عليها الدقيق هنا ٦ أوقات بريال = ١٠ قروش وانكببت على الجوالات ووزنتها بالأقة ملفوفة بورقة وكانت النتيجة انني بعت كل الكمية في يومين، وقبضت نحو ٩ جنيهات ربحت منها ٢٥٠ قرشا ربحاً صافياً واحتفظت بالنقود ٣ شهور قبل أن أدفعها الى وكيل كونتوميخالوص.

أغبش مستورد:

أحس بي صديقي الحاج بدوي الكردي (صاحب البالطو الرصاصي) وأرسل لي بضاعة... تصوروا أن صفيحة الحلاوة الطحينية صناعة مصرية ثمنها ٢٥ قرشا ١٠ كيلو صافي ـ والحلاوة البلجيكية شوكولاته كاكاو بلون بنت السودان الصندوق ٢٠٠ قطعة ٦٥ مليماً.

لا شك أن هذه الأسعار الواطية سببها الكساد والأزمة الاقتصادية العالمية.

(ذهب عم حمد الصديق رحمه الله الى محل أبوالعلا، وأثناء الدردشة قال أغبش صار يستورد بضاعة من الخارج ـ فقال عم عوض أبوالعلا (قولوا لينا قوموا) ـ والحقيقة ان الكردي اخوان هم الذين كانت لهم استيرادات خارجية وفي تلك الأيام كانت المسألة بسيطة، وكيل شركة أجنبية يبيع لك أي كمية وفي المصنع يطبعون اسمك على البضاعة وتصل باسمك الى بورتسودان، فليست توجد إذ ذاك قيود استيراد ولا قيود عملة، فان الجنيه الاسترليني يحسب من الناحيتين بسعر ٩٧,٥ قرشاً والنظام الاقتصادي العالمي السائد كان متعدد الجوانب (ملتي ليترال) يسمح بتصدير أو استيراد أية بضاعة الى أو من أي قطر في العالم وتتحول العملة المحلية الى عملة خارجية تلقائيا كل هذا قبل (بريتون وودز ١٩٤٥).

الأسعار:

الأسعار في فترة عملي بالتشاشة والتجارة بين ١٩٣٤ ـ ١٩٤٠ كانت في المتوسط كالآتي: رطل السكر قرشان، البن البرازيلي أو الحبشي ٢٠/٢٥ مليماً، الشاي أنواع الأقة (رطلان وثلاثة أرباع بين ١٥ و٢٥ قرشا)، الدقيق الفينو فرنساوي أو استرالي والأرز من ٦ الى ٧ أقات بريال (عشرة قروش) الصابون ما يعادل

القطعة الحالية للغسيل تعريفة (نصف قرش) الحمام(كاربوليك أو معطر) ما يعادل الحجم الكبير الحالي أو أكبر ما يتراوح بين قرش وقرشين للقطعة، السجائر الانجليزية قولد فليك أو بحاري او ارداث ٢٥ مليماً للعشر سيجارات (وللتشجيع يعطونك كبريتة صغيرة ظريفة سويدية الصنع ثمنها منفصلة مليم واحد). والكبريت في حد ذاته مليمان للعلبة الأكبر، وباكو العشر علب ١٥ مليما (أبو مفتاح، صناعة سويدية راقية صاحبها كروجر ملك الكبريت الذي أفلس في الثلاثينات)، أمواس الحلاقة عشرة بقرش.

الدمورية اليابانية دراقون سي الطاقة ٣٠ ياردة بالواحدة ٢٤ قرشاً والذراع ٨ مليمات، الدبلان أحسن نوع لا يزيد عن ١٥ مليماً الذراع. خياطة الجلابية لا تزيد عن ٥ قروش (القاعدة المرعية محاسبة الخياط على الملابس التفصيل الذراع ٥ مليمات) الحلاقة ٥ مليمات للأولاد ١٥ مليما للكبار.

الذرة (الكسر) لأهالي المدن (سنجة أو القضارف أو واد مدني) الكيلة ٢ ربعان بين ٢٠ و٤٠ مليماً ـ الأصناف العادية (ودعكر أو فيتريته) أما الذرة البيضاء مثل الحجيري أو القصابي والشلشلي والمقد الأبيض والكرقى قد يرتفع ثمن الكيلة الى ٥ قروش (الماريق) يصل الى مدني وأمدرمان من النيل الأبيض وشرق كردفان ـ وكانت توجد أصناف جنوبية تصل من أعالي النيل (الرنك وملكال).

السمسم من المزارعين بالقنطار ظل يتراوح في الموسم بين ٣٠ و٥٠ قرشاً ـ ورطل زيت السمسم ١٢/١٥ مليماً.. مع ذلك، كنا نستعمل في طعامنا أحياناً الزيت الرخيص زيت الدملوج (الذي هو لوزة نواة اللالوب) والسمن المحلي الزكي زجاجة الوسكي ٣٠ مليماً (رطل وربع) وزجاجة البيرة ٢٥ مليماً (رطل بالضبط) السمن المستورد من كردفان ما يسمى (الغربي) غير جيد ولا مقبول في منطقتنا، ولكن ما يسمى (دار الريح) فهو يعادل (البلدي) عندنا، كذلك سمن شندي مقبول.. صفيحة الجبنة وارد شندي أو الدويم ٥٠ قرشاً ـ (ملانة) صفيحة ٤ جوالين ويضاف اليها ماء قليل (كانت سنجة يصنع بها متخصص أغريقي الجبنة في بعض شهور السنة حينما يخيم أعراب (النفيدية) بجوار المدينة). وعلى كل حال أقة الجبنة أو الحلاوة الطحينية يتراوح بين ٥ أو ٦ قروش، علبة الساردين الصغيرة ١٥ مليما والفروطة (الأناناس) ٢٠ مليماً وارد سنغافورة أما الكريز والخوخ والعنب فان ثمن العلبة قد يصل الى ٣ قروش.

الصمغ الهشاب تدهور عندنا من ١٠٠ قرش الى ٢٥ قرشاً للقنطار في فترة الأزمة العالمية وقد ربح التجار الذين أتيحت لهم فرص البيع المسبق وأفلس الذين اشتروه حينما كان غالياً وخزنوه في انتظار الصعود. والتجار عادة يكونون مدينين بأثمان بضائع بل بعضهم أعني (العاصميين) يخزنون بضاعتهم بواسطة البنوك ويستدينون عليها أموالاً بالنقد وكثيراً ما جلبت هذه المراباة كوارث.

تاريخ السكر:

كان السكر يصل الى السودان قبل ١٩٢٠ في صناديق من الخشب عبوة (٥٠) راس، والراس هو شكل مخروطي من السكر قطعة واحدة وهذا الشكل لا يكاد يكون رآه أولاد البغيتة (المولودون بعد سنة ١٩٤٠) وفي العشرينات والثلاثينات كان يصلنا السكر في جوالات عبوة ٤٠ راس، الراس وزنه بين ٣ أرطال وثلاثة ونصف والتشاشي مثلي حينما يفتح جوال السكر ـ اذا كان محظوظاً تكون الرؤوس المكسورة قليلة ويسارع بوزن كل راس ويكتب عليه وزنه (٣ أرطال وأوقتين) و(ثلاثة أرطال وربع) أما إذا وصل أحد الرؤوس ثلاثة ونصف أو اكثر فانه يكسره في الطشت بسرعة ليبيعه بالقرش والتعريفة.

والرؤوس الناقصة الوزن نبيعها لمن يشتري (رأساً كاملاً) وأحياناً يكون الزبون واعياً فيطالبنا أن (نتاقل) له الرؤوس، فتراجحها له والذي يظفر منهم براس وزنه ثلاثة وربع يكون قد ظفر براس كليب!!

واذا طلبت مني نصف رأس فانني أثاقل لك أحد الرؤوس الخفيفة مع السكر المكسور ثم اقسم الكمية الاخيرة على الكفتين وأخيرك في اختيار احد الكومتين، البعض يفضلون قعر الرأس (وبعضهم يفضلون المدخنة)!

دقة السكر يأتي من يطلب شراءها وعادة تباع بثمن أقل وكم هو الثمن؟ البعض يطلبون منك سكراً بمليمين وشايا بمليم وأوقية بن بثلاث مليمات وكبريتة بمليم وصابونة بتعريفة وظهرة بمليم ودقيقا من أجل قلي السمك بمليمين ونصف ورطل زيت بستة ملاليم وأرزاً بمليمين للدمعة (لا تغالطني حسابك ٢٣ مليما)!

السكر الماكينة ـ وهو القطع المكعبة كانت تصل منه للمدينة كمية صغيرة (صندوقان أو ثلاثة) وكنا نشتريه من البقال الاغريقي اذا كانت عندنا حفلة شاي (بين ظهرانينا).

غاز الكروسين الصفيحة ٤ جوالين بالواحدة لا تزيد عن ٣٠ قرشا والزجاجة ١٥/ ٢٠ مليما.

اللحم الضاني ثلاثة قروش للأقة ـ في شهور ابتعاد أعراب البوادي ـ ولحم البقر لا يزيد عن قرشين (والجزارة كلها تكورك بعد الظهر للبيع بالتخفيض فان الثلاجات في تلك الأيام لا نكاد نكون سمعنا بها)... أما (النقاش) وهو خليط المصارين والكرشة والفشفاش فان الكومة منه بتعريفة أو قرش.

ثمن الخروف ظل يتراوح بين ٣٠ و٧٠ قرشا طوال الثلاثينات ولم يصل الى جنيه كامل إلا في أيام معركة العلمين في حرب ٣٩/ ١٩٤٥.

* * * *

أصدقائي بسنجة كانوا وفديين ثم صاروا نازيين

كنت بالسوكي ١٩٣٢/٣١ حينما تقاسم أصدقائي الحميمون بسنجة أسماء زعماء الوفد. فكان أحمد محمد علي السنجاوي هو مصطفى النحاس باشا وكان حسن الجاك النصري هو مكرم عبيد وكان خضر معتوق هو ويصا واصف (زعيم قبطي ثان كان رئيساً لمجلس النواب بأغلبيته الوفدية ١٩٢٤).. وكان بين أصدقائي السنجاويين أحمد ماهر والنقراشي وعلي الشمسي والغرابلي...الخ، فؤاد سراج الدين جاء متأخراً في زعامة الوفد وأنا أتحدث عن أوائل الثلاثينات.

لم يتكرم وفديو سنجة المتعصبون بأن يخلعوا على أغبش المسكين اسم أية شخصية وفدية. وخلعوا عليه لقب جبران خليل جبران. الكاتب الرسام اللبناني المتأمرك.. ولم يرضوا أن يغيروه له حتى ولا باسم صحفي أو كاتب وفدي مثل عباس العقاد أو عبدالقادر حمزة أو توفيق دياب.

والعجيب أن نفس أصدقائي في سنة ١٩٣٤ قد تحولوا من حزب الوفد المصري - الى حزب النازي الألماني -وتقاسموا الشخصيات القيادية مثل هتلر وقورنق وهيس وروبيروب وفون بابن (ومرة اخرى. بخلوا على أغبش حتى باسم قوبلز وزير الدعاية).

كانوا في أيام الوفد يرددون بعض الجمل من خطب مصطفى النحاس ومكرم عبيد.. ثم في أيام النازي لم يصعب عليهم الحصول على شعارات هتلر... لقد كانت صور النازيين تملأ المحلات المصرية.. وصارت التحية النازية برفع اليد معروفة عندنا. مع هتاف هايل هتلر!

والحقيقة ان جريدة حضارة السودان نفسها، التي كانت تمولها حكومة السودان وتشرف على تحريرها، قد ظلت تنقل خلال ١٩٣٦/٣٤ نصوصاً طويلة من خطب هتلر واردة بواسطة وكالة رويتر.

ومع اشتراكي في اجتماعات الوفديين والنازيين والسنجاويين. فإنني في الحقيقة كنت من أكثر الرفاق اطلاعا على الصحف. والكتب السياسية.

فقد درست قضية مصر - وانعكاسها على مستقبل السودان -ومن أقدم الكتب السياسية التي كانت في حوزتي «السودان المصري ومرامي السياسة البريطانية» تأليف داود بركات محرر جريدة الأهرام إذ ذاك.

كتاب داود بركات المشار اليه انتزعه مني عمي عمر حماد رحمه الله وذهب به الى ندوة الناظر يوسف العجب أب جن في معتقله المنزلي -وقد لحقت به هناك ووجدت أصحاب الدقون الدائرة والوجوه النائرة يقرأون كتابي لبعضهم فجلست استمع لقراءتهم ولتعليقاتهم - وقلت لعم عمر حماد «دفعتو ليك» وهذا تعبير سوداني أغبش يعني الاهداء...!

الاوليجاركية:

وذهبت مع الاخ خضر معتوق في أحد أيام سنة ١٩٣٥ الى منزل العم محمد أفندي خير (الكومندان) رحمه الله، للعزاء في وفاة المرحوم سرور أفندي وهو مأمور سجن سنجة - سوداني متمصر وكانت له مصاهرة مع آل خير.

في الباب قيل لنا ان الشيخ الكبير معتكف. فتقدمنا ورفعنا الفاتحة مع نديدنا يوسف خير - رحمه الله - ولكنا انفجرنا ضاحكين. فان ثلاثتنا كانوا «صبياناً متوسط اعمارنا ٢١ - (الصبيان عند السودانيين هم الشبان ذوو العنفوان).

وجمدت الضحكة الداوية منا.

تاوقنا في غرفة أخرى ورأينا شاباً (مشلخ شايقي كنت أراه لأول مرة. فاشار يوسف أن نشيل معه

الفاتحة ففعلنا.. وجلسنا معه.. كان معه ورق فولسكاب مسطر يكتب عليه باللغة العربية. وقد رأيت ما هو أشبه بمقالة.

على رأسها عنوان من كلمة واحدة، وهي «الأوليجاركية» ولم تقصر ذاكرة أغبش في حفظ تلك الكلمة منذ ذلك اليوم وحتى الآن (٤٩ سنة).

ذكر المرحوم يوسف خير لشقيقه الأستاذ احمد خير اسم أغبش واسم صديقه خضر معتوق ـ وجلسنا نتحدث ـ عن المرحوم وعن صحة الوالد الكومندان. وابن أخوهم الثالث (الدكتور علي خير رحمه الله) وتطرق بنا الأستاذ أحمد خير الى الحركة الاجتماعيه بسنجة. واتضح له، أننا ناس السوق. كنا معزولين عن نادي الموظفين لا يذهب منا إليه إلا آحاد (وهذا قبل وصول الراديو. الذي أدى بالفعل الى ثورة اجتماعية) وفي تلك الأيام كانت الأندية في الغالب مجالس للعب الورق والطاولة والضومنة...الخ.

لدى عودتي الى دكاني رجعت الى القاموس الانجليزي. وعرفت ان كلمة (اوليجاركية) تعني حكومة يصرف شؤونها ناس قليلون (حكومة أقلية) فهي بالضبط ضد «الديمقراطية» التي تعني حكم الأغلبية والحكم العام. وحكم العوام. والأهالي الغبش ـ سواء بالتمثل الانتخابي أو الادارة الشعبية المباشرة.

وشغلني الأمر فراجعت الارستقراطية ـ و ـ الاوتوقراطية ـ و ـ الثيوقراطية ـ وكانت هذه المصطلحات مطروحة امامنا على صفحات المجلات.

وفي حماسي مع هذه الدراسة السياسية الفطيرة كررت زيارة احمد خير قبل رفع الفراش (المأتم) وأفرغت حصيلة مراجعتي ـ وقد وجدت من الأستاذ أحمد خير اغتباطاً بشكل محسوس لحماستي.

بعد رفع الفراش تلقيت أنا والأخ خضر معتوق ـ ومجموعة الحزب النازي ـ دعوة لشاي العصر من الأستاذ احمد خير فذهبنا اليه وقد اقترح علينا تكوين جمعية أدبية يكون لها نشاط ويحاول الانضمام الى النادي ويجذب معنا بعض الموظفين ونهتم بالرياضة وتنظيم المحاضرات وتعنى بالخدمة الاجتماعية مثل تنظيم مساعدة المنكوبين في الحرائق ـ بل نحاول ارغام السلطة على ايجاد جهاز اطفائي رسمي نضيف اليه جهودنا التطوعية ـ ففي ذلك الزمن كانت الحرائق مشكلة كبرى في اقليمنا والاقاليم الأخرى «ام بناين قش» وسيرد وصف بعض حوادث الحرائق في الفصول التالية.

لقد حاولنا بالفعل تكوين الجمعية ولكننا لم نفلح لأن شبان السوق كان آباؤهم محافظين حذروهم من هذه «الحركات السياسية».

سوف أتحدث في فصل تالٍ عن نشاط أولاد سنجة من طلاب الكلية الذين نظموا حركة تمثيلية ناجحة في ذلك النصف الأول من الثلاثينات... كما أن نفس مجموعة اصدقائي النازيين قد كونوا «تيم» الصعيد لكرة القدم ومن اساطينه الرئيس خضر معتوق والسكرتير أحمد محمد علي السنجاوي الذي صار عضواً مرموقاً بنادي الهلال الدرماني في الأربعينات (وحتى أغبش كانت له عضوية غبشاء بنادي الصعيد).

نرجسية أغبش:

حتى أغبش تفلهم فأقام حفلة شاي بمنزلهم الذي أقصته الحريقة الى حي المعاصر على مدخل الغابة ـ وحضر الحفلة احمد خير مع مجموعة الأصدقاء النازيين وآخرين ـ وبدل الترحيب بالزعيم أحمد خير ـ كان عنوان الحفلة عيد ميلاد أغبش ٢١ يوليو (هانت الزلابية ـ والحقيقة مش زلابية بس ـ بل كيك أصفر محشو بالزبيب).

وخطب أغبش مفصلاً تاريخ حياته.. نواة نفس هذه المذكرات التي تكرر عرضها وأخيرا هي الآن في مرحلة تجديد.

وخطب أحمد خير ووصف أغبش بأنه يشبه صولون وسقراط وافلاطون وأرسطو (كان أحمد خير مشغولاً بالفلسفة اليونانية). وقصة الاوليجاركية التي أشرنا اليها أعلاه. إنما هي جزء من مناقشات أثينا في فلسفة الحكم والحكومات.

رفقة حميمة:

اللقاءات المذكورة أعلاه كانت في فترة اجازة أسبوع جاءت بالأستاذ أحمد خير من مقر عمله في واد مدني لمناسبة مأتم المرحوم سرور أفندي.

وما لبث أن جاء أحمد خير في اجازته السنوية وفي هذه المرة كان يقضي ساعات مع أغبش بدكانه الذي يحتوي على مكتبة الثقافة العصرية.

كان أبو الغبش حريصاً على التساؤلات وإثارة المناقشات للاستفادة من استاذية أبي المؤتمر ـ وكانت الصحف والمجلات والكتب موجودة بحيث تلهم المعطي والمتلقي الأسئلة والأجوبة.

وأثار أغبش مشكلات محاولاته الدراسية الانفرادية وتلقى مشورة أحمد خير. وهذه المسألة لم تختتمها في الفصول السابقة. ولا بد أن نعود إليها ـ وفي الحقيقة انها لم تنته حتى الآن. فإن أبا الغبش يأخذ حكاية طلب العلم من المهد الى اللحد «مسألة جد ١٠٠ في المائة». وعليكم أيها الأصدقاء أن ترفعوا المجلدات من فوق صدره وجوانب سريره يوم تكبير عيونه!

مكاتبات:

كان أغبش يكتب للأستاذ أحمد خير بواد مدني ثم بكسلا ـ والخرطوم ويتلقى ردوده ـ والقضايا العامة ظلت مثارة في تلك الرسائل.

امتداداً لصداقتي بالأخ المرحوم الطيب عبدالحفيظ وشايقية القضارف نشأت صداقة لي مع الأخ المرحوم خليفة محجوب بالمكاتبات قبل أن أراه. ثم جاء الى سنجة كاتباً للمستشفى (١٩٣٦).. وجعلنا نلتقي كثيراً.

ولتوضيح اهتماماته قرأت في تلك الأيام كتاباً من مكتبته عن حياة نابليون (وهو كتاب ضخم أظنه كان في مجلدين كبيرين. ويحتوي على تفاصيل الثورة الفرنسية وخلفياتها وتركاتها) وقبل هذا الكتاب كانت مكتبتي قد اشتملت على كتاب المؤرخ المصري محمد صبري السوربوني في نفس الموضوع ولكنه رشيق الحجم.

وحتى الآن يعد في نظري مرجعاً كافياً في تاريخ الثورة الفرنسية بالنظر لوفرة الاهتمامات التي تشغل مثلي.

ووجدت عند خليفة محجوب رسالة الغفران للمعري مع شروحات كامل كيلاني ـ وهذا الكتاب كنت قد قرأته من قبل واستفدت منه.

نواب المأمير:

ما لبث خليفة محجوب أن قبل في مدرسة نواب المأمير.. ومن سنجة قبل معه الأخ عبدالله السعيد (الذي صار فيما بعد مفتش إدارة بالسكة الحديد) كان (مأمور كل قسم من أقسامها انجليزيا) بينما المفتشون سودانيون. فالمأمور في مصلحة الحديد والنار كان أهم من المفتش.

وحتي خليفة محجوب لما تخرج.. عينوه نائب مأمور بوليس وهذه أول مرة عرف منها تداخل الادارات المختلفة (حي ادارة ناس حسن ابشر الطيب) مع ضباطه البوليس.

ودفعة ناس خليفة في النصف الثاني من الثلاثينات اشتملت في التخريج على الأستاذ مكاوي وسليمان اكرت ـ وهذا كان مراجع حسابات.

ان الاداريين وضباط البوليس لم يؤخذوا من المدارس الثانوية مباشرة أو من المدارس العليا إلا في الأربعينات ومن هؤلاء ناس داوود عبداللطيف والمرحوم كرار أحمد كرار ـ الاخير سنجاوي.

حلم:

في العشرينات والثلاثينات كان التجنيد لمدرسة الادارة ثم في صفوف الموظفين وقد عرفت أحد مدرسي المدارس الأولية ظل يحلم بهذه الفرصة وقد اقترف حتى آثام الوشايا في تزلفاته لمفتش المركز كي يوصي عليه من أجل الالتحاق بمدرسة الادارة. ومن رحمة الله ان جميع مساعيه قد خابت وبقي له ثواب التعليم.

لوحة كرونولوجية للحرب العالمية الأولى

سئلت أكثر من مرة من الذي هداك أو ضللك للاتجاه للصحافة والسياسة وأنت في السوق.. وكنت حرياً أن تنال ثراء المال؟.

أذكر أن أستاذنا المرحوم الشيخ ابراهيم عبدالله كليب ونحن بالسنة الرابعة بمدرسة سنجة الأولية. وكان اليوم يوم ١١/١١/١٩٢٤ أنه اخرج ساعته من جيبه (في تلك الأيام كانت ساعات اليد لا تتناسب مع الوقار). وقال لنا انه لما تصل الساعة الى ١١ والدقيقة١١. سوف يقف ويجب علينا أن نقف أيضاً صامتين لمدة دقيقة. وعندما تنتهي الدقيقة فإنه سيقعد ويأذن لنا بالجلوس. وقال ان هذا احتفال بذكرى «الهدنة» بعد الدقيقة رفع أغبش اصبعه: فندي فندي ـ أها يا أغبش: ـ الهدنة يعني شنو؟

قال: في سنة ١٩١٤ قامت حرب كبيرة بين دول كثيرة وماتت آلاف الناس والخريطة التي قدامكم دي بقيت قديمة والهدنة يعني الاتفاق على ايقاف الحرب وتوقيع وثيقة أولية يوم ١١/١١/١٩١٨ (الساعة ١١ والدقيقة ١١).

وقد سمعنا أغنية «عينيك يا بخيتة.. مثل قنابل المانية!!» تأليف الشاعر جقود « علمت بحلفاية الملوك ان السيدة بخيتة موجودة فيها».. ـ حتى هذا اليوم من سنة ١٤٠٥هجرية ١٩٨٤ رومانية ـ.

سنة الدقيق:

أنا مثلاً في سنة الدقيق ـ أو سنة عيش الهند ـ وهي سنة ١٩١٥ (سوف نعود في هذا الكتاب الى نقل لمحات عن ظروف السودان قبل وبعد تلك الحرب). وكانوا يسمونها (الحرب الكبرى) أو «الحرب الأوروبية» أو الحرب الكونية أو «الحرب العالمية» ومن الطبيعي عدم اضافة نعت «الأولى» الا بعد انتشار حرب ٣٩/١٩٤٥ فسميت حرب ١٤/١٩١٨ (الأولى) والحرب الأخيرة سميت (الحرب العالمية الثانية).

ومن الطبيعي أن تصوراتي لتلك الحرب كانت كابية ولم تتضح إلا بعد الاطلاع الوفير عام ١٩٢٧ وما بعدها ومن أبرع الكتب التي قرأتها أكثر من مرة كتاب «النتائج السياسية للحرب العالمية الأولى» ترجمة محمد بدران ناظر مدرسة بمباقادن الثانوية بمصر ـ وهو عندي أحسن مترجم سياسي وأعتبره أستاذي. (الكتاب أهديته للأخ محيى الدين محمد بالقضارف ١٩٣٦ وأهداني ديوان جميل صدقي الزهاوي ـ الشاعر العراقي ـ القائل: «أليت اقتحم الجحيم.. على جواد من ذنوني.. أليت لكني ارعويت؟.. وهكذا فعل أغبش أيضاً!).

لوحة:

ما رأيكم في أن أقدم لكم لوحة كرونولوجية للحرب العالمية الأولى؟ انني ضمين بأن تنعش هذه اللوحة ذواكركم وتمدكم بأفكار وتقييمات تاريخية ذات بال.

١٩١٤:

٢٨/٦/١٩١٤ اغتيال الارشيدوق فرانز فرديناند. ولي عهد امبراطورية النمسا والمجر. بمدينة سيراجيفو التابعة لدولة صربيا (الآن يوغسلافيا).

٧/٢٣ بدء الحرب العالمية. بإعلان النمسا الحرب على صربيا. ٨/١ المانيا تعلن الحرب على روسيا ٨/٣ فرنسا تعلنها على المانيا. ٨/٤ انجلترا تعلن الحرب على المانيا. ٨/٥ النمسا تعلنها على روسيا.

شوفوا:

١١/٦ بريطانيا تعلن الحرب ضد تركيا (السلطنة العثمانية التي كانت تشمل قانونياً مصر). وفعلياً سوريا والعراق وفلسطين والجزيرة العربية...الخ).

حذفنا زحوف وتحركات الميادين لأنها غير حاسمة.

المستعمرات الألمانية:

انتزع الحلفاء في عام ١٩١٤ توقولاند ـ واستسلمت ساموا للجنود النيوزيلانديين وانتزع الاستراليون غينيا الجديدة وقد تم غزو ناجح لمستعمرات جنوب غرب أفريقيا الألماني (الآن ناميبيا) التي أعطيت لجنوب أفريقيا بالانتداب في العشرينات ولم تشأ أن تتركها طوال هذه السبعين سنة..

حرب الغواصات:

تميز هذا العام بحرب الغواصات حيث غرقت الباخرة البريطانية لوزيتانيا بطوربيد من غواصة ألمانية (هي باخرة ركاب تابعة لخطوط كونراد وقد هلك فيها ١١٩٨ من الركاب ـ رجالاً ونساء وأطفالاً وكانت السفينة مقلعة من ايرلندا ٧ مايو ١٩١٥).

دول الوسط اخترقت الخطوط الروسية غرب قاليسيا من ريجا الى البحر الأسود ٩/١٠ استولى الألمان على بلغراد (عاصمة صربيا ـ الآن يوغسلافيا) انضمت بلغاريا الى دول الوسط ٩/١٠ واكتسحت صربيا ١٠/١١.

حرب الأساطيل ١٩١٦:

جرت معركة جوتلاند البحرية الكبرى بين الأساطيل البريطانية والألمانية على مياه الدنمارك حيث انتصر البريطانيون ١٩١٦/٥/٣١ دخلت رومانيا الحرب في صف حلفاء الغرب ١١/١١. ولكنها هزمت واستولى النمساويون على العاصمة بوخارست ١٩١٦/١٢/٦! تمرد خطير بإيرلندا طبعاً ضد بريطانيا وبالتالي ضد الحلفاء بين ٤/٢٤ الى ١٩١٦/٥/١..

حرب الدبابات ١٩١٦:

استعملت بريطانيا الدبابات لأول مرة في التاريخ بجبهة كومبلز ضد ألمانيا ـ ١٩١٦/٩/١٤ صار لويد جورج رئيس وزراء ١٩١٦/١٢/٥ (هو من الأحرار ـ ولكن الحكومة ائتلافية كسابقتها وزارة اسكويث بسبب الحرب ووزارة لويد جورج وهي الوزارة المسؤولة عن وعد بلفور الذي كان وزير خارجيتها).

احتلال عواصم العرب ١٩١٧:

أعلنت ألمانيا ان حربها الحربية بالغواصات سوف لا تتقيد بأي قيد (١٩١٧/٢/١١) احتلت بريطانيا بغداد ١٩١٧/٣/١١ أعلنت الولايات المتحدة الحرب على ألمانيا ٤/٦ ووصل جنودها الى فرنسا ١٩١٧/٦/٢٦.

استولى الحلفاء على شرقي أفريقيا الألمانية (تنجانيقا ـ و ـ يورندي وبروندي).

هام: استولى البريطانيون على مدينة القدس ١٩١٧/١٢/١٠..

١٩١٨ عام السلام:

اعلان النقاط الـ ١٤ التي تتضمن حق تقرير المصير للشعوب بعد الحرب - والتي الفها الرئيس الامريكي وودرو ويلسون (يوم ٨/١/١٩١٨).

فلسطين وسوريا:

٢١/٢/١٩١٨ تقدم الحلفاء في فلسطين والعراق وسوريا ولبنان - استولوا على: أريحا (الفلسطينية) صور - و - صيدا (لبنان) ودمشق وحلب (سوريا) ٩/٣/١٩١٨ نقلت عاصمة روسيا (القيصرية) من بطروغراد الى موسكو.

وقعت تركيا (السلطنة العثمانية) الهدنة يوم ١/١١/١٩١٨. امبراطورية النمسا والمجر استسلمت للايطاليين ٤/١١. قيصر المانيا غليوم الثاني - تنازل عن عرش اسرة هوهنزولرن التي ظلت تتوارث العرش الألماني منذ سنة ١٤١٥ (خمسة قرون) تنازل يوم ٩/١١/١٩١٨.

وقعت ألمانيا الهدنة ١١/١١/١٩١٨. تم انسحاب الألمان من فرنسا عبر نهر الراين ١٥/١١/١٩١٨ استمرت الزحوف والاحتلالات من بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة بالأراضي الألمانية حتى ١٦/١٢/١٩١٨ - وقعت المانيا معاهدة الصلح بضاحية فرساي بباريس في سنة ١٩١٩ ووقعت معها الولايات المتحدة معاهدة منفصلة في سنة ١٩٢١.

عقابيل حرب ١٤/١٩١٨:

بسرعة يمكن للدارس الحربي أن يلاحظ أثر تلك الحرب في تطور المعدات خصوصاً الغواصات - و - الدبابات سوف نلقي نظرة على تأثير الطائرات في الحرب الأولى فيما بعد.

وفي اللوحة أعلاه حذفنا تفاصيل المعارك الميدانية أو معارك الخنادق وعلى الرغم من نقص مؤهلاتي العسكرية فسوف أنقل لمحات.

ما يهمنا أكثر:

قد أدى حرب ١٤/١٩١٨ عندنا الى إنهاء سلطنة دارفور - والى تطويع أسرة المهدي الرئيسية في التعاون مع الحكم البريطاني بالسودان ونحن لا نلوم السودانيين الذين تعاونوا في الماضي مع البريطانيين فان رصفاءهم بمصر كانوا قد سبقوهم وقد شمل التعاون جميع الساسة المصريين وقد لا نستثني إلا مصطفى كامل - و - محمد فريد وتلاميذهما في الحزب الوطني الذين استعملوا «الشرعية» التركية كوسيلة للتحرر مع محاولة اللعب على التناقض بين باريس ولندن.

وحرب ١٤/١٩١٨ هي التي فرضت الحماية البريطانية على مصر وخلع الخديوي عباس حلمي الثاني: بالتالي أثمرت ثورة مصر ١٩١٩ ونقاط ويلسون الـ ١٤ وعصبة الأمم (أنظر اللوحة الكرونولوجية أعلاه): ثورة السودان ٢١/١٩٢٤ كانت نتيجة للحرب الأولى وللثورة المصرية.

حرب ١٤/١٩١٨ نقلت الاقطار العربية من تبعيتها الاسلامية (بالسلطنة العثمانية) الى احتلالات بريطانية وفرنسية - ثم انتدابات - لكل من فلسطين وسوريا والعراق أضرت بها كثيراً بل وصلت الى درجة قاتلة في حالة حرب فلسطين.

حرب ١٤/١٩١٨ افرخت الاتحاد السوفييتي وبالتالي تحول الثورة الشيوعية الى قوة دولية.

حرب ١٤/١٩١٨ أنهت السلطنة العثمانية واوجدت التيار الكمالي الذي هو علماني مؤمن بالمدنية المسيحية الأوروبية الامريكية.

أنهت الحرب امبراطورية هبسرج وأثمرت دولا جديدة النمسا ـ و ـ المجر ـ و ـ تشيكوسلوفاكيا ـ ويوغوسلافيا مع أن غاندي قد ظهر نشاطه السياسي لأول مرة بجنوب أفريقيا ضد التفرقة العنصرية. منذ أوائل القرن فإن حرب ١٤/١٩١٨ قد انتقلت به الى الهند ورأيناه يطبق في بلاده نفس أساليب المقاومة السلبية (الساتيا قراها) التي طبقها بجنوب أفريقيا سنة ١٩٠٧ وقد اعتقل لأول مرة سنة ١٩٢٢.

واطلعنا في أواخر العشرينات وأوائل الثلاثينات على صور آلاف الهنود الذين كانوا يزحفون بزعامته لتعدين الملح ـ وكان احتكاراً حكومياً ـ وكان يتولى مع القرويين غزل ونسج القطن بمعداتهم اليدوية ـ محاربة للواردات البريطانية ورأينا المهاتما يسافر مع (غنمايته) لمؤتمرات لندن.

مصر والسودان والعالم حولنا:

الحرب وثورة مصر والسودان ونذر الحرب التالية أتاحت لجيل أغبش قراءة أدب كثير في مواقف الدولتين بريطانيا ومصر ـ الى جانب تحركات السودانيين.. وفي المرحلة الحالية من مذكرات أغبش لا بد لنا من مراجعة مستندات.

١/لجنة ميلنر ٢٠/١٩٢١ والمفاوضات المتعددة واتفاقية مياه النيل ومقتل السردار وتحكمات اللنبي ضد سعد زغلول ـ وتقلبات مصر نفسها ثم معاهدة ١٩٣٦.

٢/حكم عبدالعزيز آل سعود وحرب السعوديين ضد اليمن وتحرك الوساطة العربية وبالتالي وضع لبنة في أساس الجامعة العربية.

٣/الأزمة العالمية (١٩٢٩ والسنوات التالية ـ وإحساسنا لأول مرة بتأثير الولايات المتحدة علينا برغم بعدها). الاعتراف بشرعية كفاح الشعب الايرلندي وتأسيس جمهورية ايرلندا الحرة في سنة ١٩٢٢.

الامتيازات الاجنبية بمصر حرب ايطاليا ضد الحبشة حكومات العمال ببريطانيا ـ و ـ حكومات الاشتراكيين بفرنسا وخصوصاً وزارة ليون بلوم (وزارة الجبهة المتحدة).

الانتدابات بفلسطين وسوريا ولبنان والعراق ومدى جهلنا بالصهيونية ـ تضخم المارك الألماني ووصول أوراقه الى بلادنا ـ مسعى الرئيس الامريكي هوفر لاعفاء ألمانيا من دفع تعويضات الحرب. عصابات الاجرام بأمريكا وخصوصاً بسبب تهريب الخمور في الثلاثينات. اعجابنا باليابان في نهضتها وانخداعنا حتى بسعيها الى استعمار الصين.

فرانكلين ديلانو روزفلت كرئيس للولايات المتحدة وكيف أدى الـ (نيوديل) الى انعاش اقتصادي في أنحاء العالم.

استيلاء الفاشست على ايطاليا ١٩٢٢ وتولي موسوليني رئاسة الوزارة. صعود هتلر ١٩٣٣/١٩٣٤. فرانكو بأسبانيا والحرب الأهلية وحلول الدكتاتورية محل الجمهورية الديمقراطية الاشتراكية المتطرفة.

وهنا في السودان:

ترفيع الادارة الأهلية لتخفيض طموح المثقفين.

اضراب كلية غردون ١٩٣١ ضد اجراءات التقشف الممل من كساد الأزمة الاقتصادية المتموجة دولياً.

البعثة الاقتصادية من مصر ـ من وسائل الوصول الى تسوية ١٩٣٦.

درب الطير يمثل رواسب المسيحية النوبية

الا يلاحظ أصدقاء أغبش وجود أثر (درب الطير) على خده الأيسر؟

- ان هذا (شلخ) بشكل صليب جرى فصده به بموسى مستعارة من الجيران في نفس الدقائق التي تصايح فيها الناس باكين (عم رجب) وقالوا ان تعلق الابن بأبيه يجعله يلحق به بسرعة الى دار البقاء - وهذا الصليب يمنع ذلك -.

ورأيناهم يرسمونه أيضاً بالسكن (بالنحوي: سخام القدر) على جبهة المريض... وسمعنا الدارسين يقولون ان الاعتقاد في الصليب من موروثات المسيحية التي انتهت في السودان الاوسط بقيام السلطنة الزرقاء حوالي سنة ١٥١٥ على أنقاض المملكة المسيحية السوداء بمنطقة سوبا.

* وتقليد آخر قد طبق على أغبش الصغير وهو تسميته (عبدالله العبد) - وكان في طفولته لا يعرف إلا باسم «العبد» - وسر التسمية ان شقيقه الأسبق وكان اسمه نورالدين قد اختضر في طفولته ويعتقدون ان الاسم الشاذ، ويسمونه (اسم الفقر) يمنع موت الصبيان...

(صديقي «عبد» وهو يعرف نفسه - قد أصر لما كبر، وتوظف، ان يسمي نفسه «عبيداً» - ما هو الفرق؟).

أذكر ذلك اليوم تماماً الذي مات فيه أبي سنة ١٩١٩ - وكان عمري أربع سنوات رأيت الناس في ساعات الصباح في ظلال صرفاننا الطويلة - وكان حوشنا واسعاً، رجالاً ونساء، وكان هناك رجال يدخلون ويخرجون من القطية التي ظل أبي يرقد فيها خلال أيامه الأخيرة، وهو مريض.

* حاولت الدخول معهم فمنعوني، وقلت اني أريد من أبي تعريفة - أشتري بها عجورة - وقد اعطتني التعريفة حبوبة الحاجة الحرم ام الجيلاني (رحمها الله) فذهبت الى سوق الخضار ولم يكن بعيداً، وأحضرت العجورة، وقد وجدناها مرة. ان بعض ثمار العجور تعتريه المرارة كما نصادف ذلك أحياناً فهل يرجع ذلك الى اختلاف البذرة؟؟ -.

مؤامرة صبيانية:

في حوالي سنة ١٩٢١ (بالاستنتاج) اقترح أغبش الصغير (ذو الست سنوات) على أحد أبناء الجيران أن يقوما بجمع بعر البقر - الجاف - وبعض الورق ويشعلا النار تحت صريفهم كي تقوم حريقة وتقضي على قطاطينا لأنها صارت (وسخانة) من فوق بسبب القدم (وبعد ذلك) يبني أهلنا في بيتنا وبيوت الجيران قطاطي جديدة (مغسلة) - يعني مغسولة - (معنى ذلك ان تكون القطاطي بيضاء بفضل القش الجديد الأبيض الذي تبنى به) وتكون مثل بيوت الشريف ود أب جناح، وهو وافد جديد كان قد بنى قطاطي كبيرة ظاهرة الفخامة في الشارع المواجه لبيوتنا.

* وقد جمع الصغيران الوقود بالفعل وجاء أحدهما بجمرة من تحت الدوكة التي (تعاس) فيها الكسرة - وجعلا ينفخان في الجمرة فوق الوقود - وفي هذه اللحظة تم ضبطهما، وقد عوقبا عقاباً شديداً. (بعد سنوات قليلة حاول المستر بيسل مفتش المركز الانجليزي احراق بيت ناس أغبش لأن الصريف لم يكن منتظماً، وقد سبقت رواية هذه الواقعة).

التكافل:

راى أغبش في طفولته، انه حينما تنشب حريقة في بلدة سنجة، يتنادى النـاس (حريقـة ـ حريقـة) ويتسابقون الى مكانها ـ مهما كانت بعيدة ـ ولما نضج أغبش صار يتسابق في هذه المنـاسبات مثـل جميع الرجال.

* كانت مهمتنا نقل الامتعة، ونبعد الأطفال اولاً عن المنازل المجاورة خصوصاً تلك التي يهب الريح في اتجاهها.

ان قطاطينا من فوق كانت في الغالب مبنية من القش المعروف باسم (النال) وهو قش خفيف سريع الاشتعال، وكنا نعتقد أن له قابلية جذب لسان النار حينما يكون بقطية قريبة.

* توجد تعليلات عديدة لانتشار الحريق بسرعة وسط القطاطي:

١ ـ الشرار المتطاير، ومساعدة الريح.

٢ ـ توجد قوارير زجاج يجعلها البعض في قمم قـطاطيهم للزينة ـ أظن انهـا تستقطب الحـرارة وبالتـالي الاشتعال ـ ان الزجاجة يمكنها تحويل حرارة الشمس نفسها الى لهيب، وكنا نجرب ذلك ونحن صغار.

٣ ـ القطط أو الحمام أو الدجاج أي من هذه الحيوانات، قد يلتقط لهب النار ويجري به أو يطير الى البيوت الأخرى فيشعلها.

وأسباب الحريق نفسها هي في الغالب تطاير الشرار من مواقد الطبخ ـ ولكن الحريقة قد تقوم في الليل ـ ولم تكن عندنا أسلاك كهربائية، ولا مخازن نريد تغطية سرقتها ـ في هذه الحالة كثيراً ما ينسبون الحريق الى (الشياطين) وقد يزعمون لك ان الحريقة بدأت من رأس القطية.

أثناء الحريق يحاول الرجال حصرها بتقويض القطية المشتعلة، وتنظيف الأرض من القش، وتهديم الصرفان، واذا كانت هناك قطية قريبة مهددة يصعدون اليها ويرفعون برشاً كبيراً لتلقي الشرار المتطاير ثم ينفضونه بعيداً.

* وسنجة حتى في الثلاثينات والاربعينات والخمسينات لم تكن بها مياه جاريـة بالانـابيب وكانـوا يعتمدون على السقائين الذين ينقلون الماء من النهر بالاخراج (جمع خرج) على ظهور الحمير.

* هؤلاء السقاؤون تؤخذ منهم المياه لاطفاء الحريق بدون ثمن ـ هذا في النهار ان وجدوا ـ ولكن لا يمكن تحريكهم في الليل ولذلك يتم افراغ أزيار جميع البيوت.. وكذلك فان التراب كان من وسـائل اطفـاء الحرائق.

* ان الحرائق كانت تكلف بلدة سنجة في كل عام عشرات الألوف من الجنيهات، باحتراق القطاطي والصرفان، وأحياناً محاصيل، وقد يموت بعض الناس في حوادث نادرة وما يجري على سنجة كان ينطبق على مدن أخرى مثل سنار وكوستي وتندلتي وأم روابة والرهد...الخ.

احتراق منازلنا:

وفي سنة ١٩٣٥ جاءنا الحريق بعد ان اكتسح قطاطي الجيران ـ ومسح مساحة واسعة ـ وقد فقدنا قطاطينا، وكانت واحدة منها جديدة (مغسولة).

* كان من تقاليد الصياح بأذان الصلاة وقد فعل ذلك عم ابراهيم قوته رحمه الله ـ لم نفقد شيئاً من أمتعتنا، وقد (تضاير) لنا جيراننا الضناقلة الذين سلموا من الحريق، وبإعارتنا قطيتين، مكثنا فيهما شهراً الى ان تم تجهيز مأوى جديد.

* قالت السلطة ان حيّنا القديم ـ وهو متاخم للسوق ـ قد اعتبر (درجة أولى) وسوف توزع قطع السكن بالحكر لمن يستطيعون البناء بالطوب الأحمر وهذا يشملنا ان كنا نستطيع ان نفعل ذلك، وكانت النتيجة انهم اعطونا قطعة في مكان رديء وسط المعاصر، على أبواب الغابة، وعلى مقربة من (مشرع السراجية) على شاطىء النهر.

* ان تلك البقعة كانت تتميز بالباعوض وحشرات أخرى، ومعاصر الزيت تدار بالجمال، والجمال بعد ان تشبع (تقصع الجرة) بكسر الجيم وتشديد الراء، وهذه الجرة كريهة الرائحة بحيث تمنعك النوم في الساعات الأولى من الليل.

* سألت أحد الأفندية، هـل يعرف (الجـرة) ـ فقال لا ـ واتضـح لي ان من بين من يكتبـون كلمة (الاجترار) لا يعرفون معناها الأصلي.

* ان من خصائص بهائم الأنعام المباحة لنا اكلها ـ وهي الغنم والبقر والابل ـ هذا الاجترار، فهي تأكل العلف وتبلعه بدون مضغ كامل، ولما تمتلىء معدة الحيوان (يجتر) الطعام الى حنكه مرة اخرى ليمضغه جيداً ثم يبتلعه مرة اخرى للهضم النهائي (هذا وصف سريع وليس دقيق ـ ولذلك يجوز للقارىء ان يقول ان أغبش يجتر تفاصيل حياته قبل ٦٠ سنة)!

الغرق بعد الحرق:

كان النهر في منطقة مشرع السراجية يخرج منه (سقاي) وهو خور صغير، تم حفره لري إحدى الجنائن فيما يبدو، وكان فيضان سنة ١٩٣٦ عالياً جداً فتسربت المياه من ذلك السقاي بوفرة وغمرت مقبـرة (أب رفاس) المخصصة للموتى المسيحيين. ثم زحفت المياه واكتسحت الغابة وحاصرت الطاحونة وهددت المعاصر (منطقتنا في النصف الثاني من ١٩٣٦) وكنا نراقب زحف المياه ليلاً ونهاراً.

* وفي ليلة ـ بعد ان نمنا ـ صحونا لنجد احذيتنا تحت العناقريب مغمورة بالماء فهببنا مذعورين، وكانت أمتعتنا معدة من قبل للنقل فجاء جيراننا وساعدونا حتى خرجنا بها الى الشارع ـ ولم نفقد شيئاً ذا بال، وهل كانت عند ناس أغبش أشياء ذات بال؟ (صناديق الكتب كنت قد نقلتها الى الدكان بالسوق).

* في ذلك الليل البهيم جاءنا عم حامد الشهاوي رحمه الله بمفاتيح بيت في الجوار مؤلف من ثلاث قطاطي (هذا العم هو صاحب تشنيعة الفقوسية التي سلف ايرادها).

وبعد شهر أقنع عم محمد الفضلي ـ وهو الشيخ التعيشي المشرف على سكن الأهالي بإعطائنا قطعة أرض في فريق القرعان، وكانت مياه الفيضانات انحسرت فبدأنا استنقاذ ما أمكن انقـاذه مثل الشعب (عيـدان الحطب التي تشبه حرف واي) وكذلك الهياكل الفوقانية للقطاطي ـ شعلنا بعضها ـ وكان يوجد هيكل قطية سليم حمله أغبش مع عشرة شبان متطوعين من الجيران.

مروءة الاقليميين :

كان أغبش يضع الوقاية على كتفه وهو يحمل نصيبه من الهيكل الثقيل المستدير ـ كان يرزح، أو يتألم من الثقل ـ ولكنه لم يستطع أن يشكو ومعه عشرة شبان متطوعين بلا ثمن.. وكانت المسيرة أكثر من نصف كيلومتر، ولكن الناس الذين يلاقوننا في الشارع كانوا يدخلون معنا تحت الحمل، حتى لقد صار بالفعل خفيفاً لما وصلنا ـ ووجدنا هناك مفاجأة من أمهاتنا، قدح لقمة حارة بملاح روب عليه سمن!

علي ابراهيم سعدالله:

رحم الله هذا الرجل الكريم... انه كان شخصية بارزة في سنجة سنوات العشرينات والثلاثينات..

* كان فقيراً يتعيش بصنعة (صرماتي) يصنع الأحذية البلدية الرخيصة جداً من النوع الذي سمي (كلودو) ومع ذلك كان عفيفاً متجملاً وذا مروءة واذا ذهبت لمقبرة سنجة مع أية جنازة كنت تجد عم علي ابراهيم سعدالله هناك ـ يتولى الحفر وفي الحقيقة ان هذه المهمة الانسانية كان يؤديها كثيرون ولكن عمنا المذكور كان يتميز بالمثابرة، كذلك فانه كان في المقدمة في كل مناسبة تستدعي المروءة (اذكر اخراجه لجثة صديقي المرحوم سيد ود حسن الصديق الذي غرق في النهر بمنطقة اعتدت ان استحم فيها يومياً في الثلاثينات).

كان العم ابراهيم سعدالله من مشايخ القادرية وكان يحسن انشاد قصيدة (ساقية دفع الله). رحمه الله تعالى وأحسن اليه وبارك في ذريته.

مساهمتنا:

بالأسف فإن أغبش لم يحسن حفر القبور ولكنه كان في شبابه شارك في حمل النعوش أما الآن فانه لا يستطيع ملاحقة خطوات الحاملين الآخرين ـ وقد برع أغبش في عجن الطين وصنع الطوب الطيني غير المنتظم الذي يستعمل في قفل اللحود ـ وكان يسابق في نقل هذا الطوب ـ مقابر العاصمة الآن يوجد بها طوب جاهز بمبادرات من المحسنين.

* ان السودان لم يعرف بعد وظيفة (الحانوتي) ولا حملة القماقم ولا الندابات ـ وهذه التخصصات الثلاثة معروفة بمصر وحتى في العاصمة المثلثة تجد أشخاصاً كرماء يتولون خدمة دفن الموتى ـ وبعضهم يقدمون المعدات ـ وأنا هنا أشير الى المسلمين طبعاً، ولكن ما رأيكم؟ ان صديقي القبطي الارثوذكسي (برسوم) يتطوع في عمليات تجهيز موتى المسيحيين بالخرطوم!

النفير:

التكافل الاقليمي لم يكن قاصراً على النكبات، ولكنهم كانوا يتساعدون في أشياء أخرى منها (النفير).. في الصباح كنا نسمع صوت قرن بنغمة معروفة نفهمها بأنها (نفير زراعي) حيث يذهب الجيران مع واحد منهم للأداء الجماعي لعملية الحش لبلاده (يعني مزرعته المطرية). وبعد الضحوة ـ حوالي الساعة ١١ ـ يعودون الى منزل صاحب النفير حيث يجدون الطعام، وفي بعض الحالات توجد مريسة.. ان أغبش بالأسف لم يشارك قط في مثل هذا النفير ـ لأنه لم يحترف الزراعة المنتظمة ومع ذلك فانه لو دعي لما امكنه ان يتخلف.

بخت الرضا:

في هذه الأيام في سنة ١٩٨٤ يحتفلون بالذكرى الخمسين لاقامة معهد بخت الرضا وأغبش كاتب هذه السطور لم يدرس بالأسف بهذا المعهد، ولا تعلم بواسطة اي مدرس من خريجيه.

* لكنني عرفت عشرات المدرسين خريجي بخت الرضا، ويهمني في هذا السياق مجهود المعهد المشار اليه في التدريب على الأعمال اليدوية والزراعية والممارسات التي تتطلبها المروءة مثل مساعدة المرضى والغرقى ـ وحالات الحرق والموت ـ واخشى ان يتخرج ابناؤنا من المدارس ناعمين متنعمين ينطبق عليهم قول شاعر الدوباي:

تب الصبي الكطع المرووه خلاس   وتب الشايب البعد الكبر بلاس

اكتشاف جهل السودانيين بعالم الأزهار

اتيحت لي في أوائل العشرينات زيارات قصيرة لقرى أقاربي، بعضهم على شاطيء النيل الأزرق بقرية ابوكداية، وآخرون بالضهارى اي في قرى بعيدة من النهر أهمها قرية تيقو التي كانت عاصمة قبيلة كنانة الكواتيل.

رأيت بلداتهم (جمع بلاد هي المزرعة المطرية) ورأيت الجروف وهي المزارع الضيقة المساحة في الأرض التي ينحسر عنها النهر - هذا في حالة أبوكدايه..

الجبروكة

ولكنني كطفل صغير بمدينة هي سنجة اهتممت بما يسمونه الجبروكة وهي مساحة صغيرة جداً من الزراعة في داخل زريبة البيت أو خلف كل قطية، ويزرعون فيها أشياء متميزة مثل الطماطم - و - التبش (العجور المطري الذي يتساوى في اللذاذة مع الخيار، ويضرب العجور المستطيل المعووج على عينه، وقد تجد في الجبروكة العنكوليب، وهو القصب السكري البلدي وجدنا مثله في صين ماو ١٩٥٥) كذلك ربما وجدت الجباريك على لوبياء أو فول سوداني أو دباء أو بطيخ.

قلد أغبش الصغير فكرة الجبروكة بسنجة ولكنه دخل بها في متاهة تجارب خيالية حيث زرع الحلبة والشطة والكزبراء - وقد نبتت هذه النباتات دون أن يتاح لها الوصول الى مرحلة الاثمار.

دق ن ي د مرة أخرى:

وفي فترة دكان أغبش بسنجة ١٩٣٦/٣٤ خطرت له فكرة الزراعة مرة أخرى كما فعل من قبل بالسوكي - واستأجر لموسم واحد سنة ١٩٣٥ بلاداً على طريقة الدقندي، والايجار عشرة قروش فقد اخذها عبدالقادر محمد الزين وذهب أغبش معه وعرف حدود البلاد.

وفي طريق العودة، قابلت صديقي حامد الشريف - أطال الله عمره - وفهم مني استئجار بلاد أولاد محمد ود الزين التي كانت قريبة من منزل أولاد الشريف بفريق ورا، وافهمته انني أريد اجراء تجارب واتفقنا على أن يساعدني في هذا العمل الزراعي.

في اليوم التالي جئت ومعى ملودات الحش وانت واقف - ونجامات وسائط حش تستعملها وأنت قاعد.

كانوا يخيفوننا ونحن أطفال من الحش الجلوسي بسبب الدويبة المسماة الملجة وهي بحجم السحلية أو الحية الصغيرة.

افهمت الأخ حامد اننا يجب ان ننظف مساحة صغيرة من الحشائش ونقسمها أحواضاً مثل أحواض الخضروات بالحقول المروية بالسواقي، ثم نزرع فيها أشياء غير مألوفة عندنا منها الهبهان - والمحلب - و - الفلفل الأسود، ثم أشياء أخرى سودانية ولكنها غير معروفة بمنطقتنا منها الكركدي والفول المصري والحلبة و(الكمبة).

لاحظ لي الأخ حامد ملاحظة هامة وهي أن هذه البذور على فرض انها نبتت فان سيقانها ستكون ضائعة وسط عشرات الحشائش التي نراها والتي لا نعرف اسماءها ولا نستطيع ان نصنفها إلا بأشكالها الخارجية وهذا التصنيف نفسه يحتاج الى وقت طويل بعد استئصالها من التربة.

مع ذلك أصر أغبش على فكرته وبعد أسبوعين وجدنا المكان الذي حششناه من قبل مزدحماً بالحشائش ولكن بكثافة أقل ولم نستطع ان نعرف مصير البذور الهندية الأصل، ولكننا استطعنا بالاستنتاج (والخريطة المرسومة من قبل) أن نعرف نباتات الحلبة والكركدي والفول المصري وبعد اسبوع تال دودت هذه النباتات وكان بعضها فريسة للحشرات.

منافسة الهند:

ان الفلفل الأسود والمحلب والهبهان والقرفة كانت في الثلاثينات تباع بالقروش (يتراوح ثمن الرطل من ٣ قروش الى خمسة للقرفة والفلفل ومن ١٠ الى ١٥ للمحلب ومن ١٥ الى ٢٠ للهبهان) (الآن كل هذه السلع بالجنيهات) فلماذا لا يستطيع السودان ان ينافس في زراعتها.

(في سنة ١٩٤١ اكتشفنا وجود الزنجبيل جذوراً تحت الأرض ـ بروس يعني نباتاً طبيعياً بدون زراعته، على طريق الروصيرص قيسان).

الجمال البري:

إذا خرجت الى الخلاء في الخريف بهرتك الأبسطة الخضراء في كل اتجاه وفي الأراضي المبورة تجذبك الأزهار البرية المتعددة الأشكال والزاهية الألوان ـ ولكنها غير عطرة ـ وليست لدينا أسماء لها.

ان أغبش خرج من سنجة في الثلاثينات وهو لم يشم من الزهر إلا الفل الأبيض وزهرة أخرى قالوا انها الياسمين (وهو ليس واثقاً من ذلك) وزهرة ثالثة كانوا يسمونها (ورد الحمير) وهذه المجموعة من الأزهار كانت مزروعة في (جنينة الحكومة) بسنجة، هذه الجنينة التي كان الانجليز وقلة من الموظفين السودانيين ـ يلعبون فيها التنس ويذهب بعض الأولاد ليلقفوهم الكور، حيث يعطونهم في النهاية كورة مستعملة تصلح للعب بالشارع.

عرفت أيضاً تلك الزهرة الحمراء غير العطرة ـ وهي على كل حال جميلة، ويسمونها الجهنمية.

أما الورد وشقائق النعمان فقد عرفناهما من الشعر ـ ثم عرفنا أزهاراً أخرى عديدة بأسماء عربية وأخرى باسماء أجنبية (منها الاوركيد ـ و ـ التوليب) لتوي الآن سمعت المغني في الراديو يغني لزهرة السوسن وبتوارد الخواطر تذكرت زهرة الزنبق؟ اعتقد ان معرفة الأزهار في السودان قاصرة حتى في كلية الزراعة.

هل يغضب الأخ بشير محمد سعيد ان له حديقة في منزله، وعندما توفي محمد صالح الشنقيطي كرر الأستاذ بشير الثناء على اهتمام القاضي الفاضل رحمه الله بالورد لم يجد اسماء أزهار أخرى يذكرها مع التكرار، إلا الورود.

ان الانجليز معنيون بالحدائق والأزهار، وقد أورثونا معرضاً سنوياً للأزهار ظل يقام بحدائق وزارة الزراعة بالخرطوم.

كنا تذهب اليه للتمتع بمشاهدة الأزهار العطرة اليانعة المتحركة أما أزهار الشجيرات فإننا لم نتلق المعرفة بها.

أعرف أن ذوقنا ناقص، لسنا نحن الأهالي الغبش فقط، فنحن لا قيمة لنا كلما ابتعدنا عن صفات الأسلاف الأجلاف ـ ولكن حتى خريجينا لم يعرفوا ثقافة زهرية كافية ولذلك فإن ذوقهم ناقص.

للأخ حسن عبدالرحمن ـ وهو خبير زراعي متقاعد ـ مشتل لشجيرات الأزهار بالخرطوم، واعتقد انه لا يجد رواجاً كافياً واصحاب الحدائق في المنازل الجديدة الغالية لا يعطون وقتاً كافياً لتنسيق حدائقهم لانهم لم يتوارثوا مثل هذه المتعة.

ان مصر أحسن منا طبعاً في هذه الناحية، ومع أن أصحاب الحدائق المنزلية بمصر ليسوا كثيرين فإن محلات بيع الأزهار متوفرة وتنسيق باقات الزهر فن يوجد لديهم من تخصصوا فيه.

في مطار روما رأيت إعلاناً بعدة لغات وقرأت النص الانجليزي الذي عنوانه (عبر عن عواطفك بالأزهار) ثم فهمت من الاعلان انه يمكنك ان تدفع مالاً لفرع شركة معينة بذلك المطار وهي تبرق لفرعها بلندن أو باريس او نيويورك مثلاً. فيسلم طاقة ازهار محددة لصديقتك، فهناك زهرة خاصة للتعبير عن كل عاطفة بشكل متميز مثل الحب أو الشوق أو المؤاساة أو الشكر وهذا هو الشعر الذي ليس لدينا رقبة تليق به كي يتدلى عليها كما يقول مثلنا النسوي!

وفي سنة ١٩٥٣ شاهد كاتب هذه السطور معرض أزهار بالمصيف الانجليزي، ساوث بورت عشرات أنواع الأزهار ـ والأزهار المتحركة ـ وخلايا النحل، والرجل المتخصص في تربية النحل الذي يحجز نفسه في غرفة كبيرة جدرانها من نسيج شفاف، ويقف الرجل بداخل صندوق على منصة صغيرة وحواليه ملايين من النحل وهو يغرف النحل بيده ويصبه على رأسه الاصلع المكشوف وينزع قميصه.

مع ذلك يوجد الجمال:

ان الخلاء في أقاليمنا الممطرة عبارة عن مجموعة لوحات جميلة وفي الخريف (موسم امطارنا) نشم في العصير رائحة الدعاش المنعشة (كلمة الدعاش اسمعها في بعض الأغاني الخرطومية فهل يعرفها السامعون؟).

والجمال يوجد في الغابة بل يوجد حتى في الصحراء بعد انتهاء الزراعات والحصاد ويوجد في الجبال والتلال وفي متاهات القشوش الشاسعة التي ترعاها قطعان الغزلان. كذلك تجد الجمال في العصافير، وفي الخريف تظهر طيور وافدة منها عصفورة حمراء نسميها الحوخة وهي لا توجد بمجموعات كبيرة.

المجموعات الكبيرة من الطيور اهمها السنبرية ـ و ـ بلو بلو (الطائر الأبيض الذي يسمونه طائر البقر) هذان الطائران يتعايشان مع أن أحدهما أسود والآخر أبيض. ويأتيان الى منطقتنا في كل خريف ـ فهما من معالم قدوم الخريف ـ والعجيب ان مجاميعهما تتوزع على المدن والقرى (كأنما هي تبحث عن الاستئناس بالناس) والناس يتضايقون من الطائر الأبيض ـ على الخصوص لأنه يلوث الشجرة الموجودة في البيت.

بعض العصافير نصطادها للأكل، نصنع لها الشباك من الخيوط ـ كما نصنع أشراكاً من سبيب ذنب الحمار (سبيب ذنب البغل احسن) الشرك يصطاد طيرة واحدة ولكن الشبكة قد تصطاد ١٠ عصافير في وقت واحد (قطع سبيب البغل خطر لأنه اذا ضربك جوز يؤذيك أذى قد يكون قاتلاً).

في بيتنا كانت لنا (مثلة) وهي اننا نكب حب العيش تحت الشجرة باستمرار حتى تعتاد العصافير (فتتل على شجرتنا، اي تتخذها محطة فننصب الاشراك تحتها) كنا نأكل هذه العصافير محمرة (لم لا؟) أليست هي بروتين؟.

أما طائر الحوخة فاننا نصطادها للزينة ـ مع أنواع أخرى ـ وكثيرون يصنعون أقفاصاً لحبس هذه الطيور.

ولا أعرف الكروان ولا العندليب ولا البلبل ـ وهذه الأسماء عرفناها من الأدب، ومن ألقاب المغنين ومع ذلك سمعت أصوات طيور كثيرة تنادي. ولكنها تتحدث بكلام اعجمي مثل طيور الباقير..

عرفت الحيوانات البرية (أ) آلاف الغزلان في قطعان، و(ب) مجموعات من القرود والحمير الوحشية المخططة، والنعام والزراف والثعالب، و(ج) رأيت لبوة واحدة ـ أنثى الأسد ـ مع أشبالها في الغابة بمنطقة قلع النحل.

ومن الطيور التي تأتي بمجاميع (القمرى) وهو حمام بري، نصطاده ونأكله وهو مقبول.. ولكنني لا أكاد أعرف القطا.

أعشاب الدواء:

في منطقة ضهارى سنجة رأيت عشبة ذات فعالية شديدة كشربه في استئصال ديدان الامعاء ـ الشريطية ـ رأيت ذلك بعيني (توجد أشياء أخرى تحتاج للدراسة مثل «عرق العقرب»)..

خيرات ببلاش:

اننا في منتصف الخريف كنا نجمع من الأراضي البور «الحميض» وهو عجور بلدي صغير الحجم مثل الخيار ونجد أحياناً «السينات» وهي قرون تحتوي على حبوب زيتية دسمة، ونقتلع جذور الستيب، وهي من اقارب البامبي الذي يسميه المصريون البطاطا، ولكن الستيب به شيء من المرارة يمكن أن يشوى او يغلى مع الماء مثل البامبي.

وكنا نجمع من البور أيضاً خضروات نابتة (بروس) اهمها الملوخية والويكة والتمليكة والمولينا.

وفي الغابة ـ واحياناً خارج الغابات ـ نأخذ من شجرة الهجليج الظليلة ثمرة اللالوب اللذيذة (لو أكثر المرء من مصها يصاب بالاسهال والقليل منها «ملين» جيد).

أحب أغبش هذه الشجرة كثيراً وفي الثلاثينات تفلسف وزعم ان اسم (الهجليج) ربما كان تحريفاً لكلمة (الاهليلج) وهي اسم الشكل البيضاوي لأن اللالوبة شكلها بيضاوي وأغبش مش عايز تشنيعه تقول انه يحب اللالوب لأنه بدأ حياته درويشاً يتغنى بسبحة اللالوب.

ومن شجرة السدر نأخذ «النبق» وهو ثمر لذيذ معدود في علم النبات من عائلة العنب!

ونتسلق شجرة السنط حيث نجد بها كعكول صمغ واحد منفرداً ونحمل منها القرض الى منزلنا ـ والقرض عندنا دواء كل مرض.. وبعض نساء السودان حينما يضعنه في المبخر يقلن «القرض شفاء المرض».. بخر به النبي ناقته وقامت قبال رفاقته. ومن شجرة السنط أيضاً يؤخذ ورقها ويستعمل بشكل (لبخه لعلاج الأورام التي نسميها «الدبس» وخصوصاً في الوجه).

ويحفر الأولاد بسنجة جذور شجرة السنط ويأخذون ام كمبش، ناس الغرب يسمونها الدمبو ـ ويأكلونها، أغبش لم يذقها.

مرة كلفني الشيخ محمد الأمين أحمد البشير ـ من محل أبو العلا بسنجة ـ ان اذهب الى الغابة التي بجوار بيتنا، وان أحفر جذور شجر السنط وأحضر له «الترتوس» وهو مادة تشبه في شكلها قندول الذرة الشامي المكدود، سمراء اللون (أظن بعد ذلك سحقناها وبللناها في الماء) ومن محلولها طلينا ركوة جديدة وهي ابريق للماء يصنع من الجلد، ولما جفت كانت حمراء اللون. وقد تسددت فتحات الخياطة التي جاءت بها من صانعها (الجلاد) ولكن لكي تكتسب الركوة اللون الأسود الجذاب ذهبنا الى العطار واشترينا منه «حرته» بكسر الحاء ـ وهي مادة بيضاء ولكن لما صببنا عليها الماء صارت سوداء (للعجب) فطلينا بها الركوة مرة أخرى.

قلت للفكي محمد الأمين ان ابريق الصفيح التوتيا الثقيل ـ يكلفك ثلاثة قروش وابريق الفخار ثمنه قرش واحد، وهذه الركوة العجيبة كلفت ٥٠ قرشاً بخلاف مجهودك ومجهودي.. (ان الركوة دلالة وجاهة، وكان جدنا المليك يسير وراءه غلام يحمل ركوة يشق معه سوق رفاعة الى ان يصلا الى الجامع وبعد الصلاة يعودان الى البيت).

القرض هو انتاج السنط الرئيسي وهو سلعة تصديرية تستعمل في دبغ الجلود وحطب السنط يستعمل في البناء وفي فلنكات السكة الحديد، ويستعمل وقوداً كحطب أو كفحم (ولكنه يعتبر خطراً في دنيانا «أم بناين قش» لأن الشرار يتطاير منه.

على شاطىء النيل بسنجة كانت توجد شجرات دليب ثمرتها كرة حمراء كبيرة وجذابة تؤكل ولكنها تحتوي على بعض المرارة وشجرة الدليب طويلة سامقة وفروعها تتجمع ككومة صغيرة فوق ولذلك يقولون عن الرجل المشهور انه مثل شجرة الدليب «ظله يرمي بعيداً» هذا مثل سوداني.

وفي قرية العزازة من ضواحي سنجة كانت توجد شجرة واحدة على الأقل من شجر التبلدي كنا نأخذ منها القنقليس.. وهو علبة طبيعية بيضاوية تحتوي على لب أبيض حامض كنا نستطيبه والآن يباع اللب في سوق الخرطوم (الذي ما فيه شيء معدوم) بالكيل بسعر الربع ١٢ جنيهاً وفي أيامنا كانت تباع العلبة بمليم وهو يوصف كعلاج للاسهال.

شجرة التبلدي السمينة الجذع، يخزنون بها ماء الأمطار في غرب السودان وفي جنينة أولاد فرج أب زيد بقرية العزازة رأيت في سنة ١٩٣٥م رأيت تلك التبلدية وقد حفروها بطريقة جعلت تجويفها غرفة مربعة جعلوا منها مكتباً لادارة الجنينة، ثم حولوها الى اصطبل للحصان.

أما الدوم فقد كدناه كثيراً، وهو لم يكن يوجد بغابتنا ولكن يحضرونه من غابات اخرى بنفس الاقليم.

وأهل القرى يقومون بتصنيع بعض هذه الثمار، فمن اللالوب يصنعون منه مربه اسمها «السرنو» يضاف فيها الى عجينة اللالوب نواتها الدهنية التي نسميها «الدملوج» فتصير وصفة جيدة ضد الامساك (وهي تحتوي على مرارة خفيفة). والدملوج نفسه يعصر في العصارة مثل السمسم ويستخرج منه زيت يصلح للأكل ولكنه اصلح لصناعة الصابون ولغش العطور الهندية.

نعال العشر:

في منتصف العشرينات كنت مع إحدى نساء أهلنا القرويات تغسل ملابسها على شاطىء النهر (كانت بدل الصابون تستعمل أولاً الطين ـ نعم الطين ـ ثم بعد ذلك لحم اللالوب).

ولما انتهينا وقمنا من ظل الشجرة توجع أغبش من الرمضاء ـ وكنت حافياً فصنعت لي «نعال عشر» شجيرات العشر أوراقها عبارة عن طرقات عريضة، ربطتها لي بعروق الشجر، ثم صنعت لي ثلاث شباشب من هذا النوع لأنها كانت تتقطع أثناء المسيرة، ولذلك فإنني افهم المثل القائل (عمرن... يكمل نعل العشر)!

صاعقة:

في أواخر العشرينات، أثناء مطرة ظهرية دوى صوت الرعد، ثم سمعنا صياح الجيران «الصاقعة وقعت».

ورأينا ناراً مشتعلة في الشارع الآخر فجرينا نحوها وهناك علمنا ان امرأة قد ماتت ـ وقالوا انها لم تصب بأي خدش أو حرق ولكنها توفيت من مجرد (هواء الصاقعة) و.. وقد اشتعلت النار في القطية، وبدا لي لون اللهب غريباً، ولم تنتشر النار الى القطاطي أو الصرفان الأخرى، ربما بسبب المطر.

وكانت المرحومة والدة أبناء عم نصار وهم حلب يحترفون الحدادة.

عضت على العناب بالبرد:

أغبش شاف لكم هذا «البرد» بفتحتين الذي كان هذا الشاعر يتغنى به في هذا البيت الذي نشره فقهاء البلاغة كأنموذج للجناس.. ان البرد هو قطع ثلج صغيرة تسقط أحياناً مع ماء المطر وكنا نتلقاها ونبرد بها الماء في فرص نادرة... وكنا قبل أن نرى الثلج يقولون لنا مثل «البرد» ولكن بألواح كبيرة وندعي اننا فهمنا... والثلج رآه أغبش لأول مرة في أواخر العشرينات حينما احضره الانصار من سنار يوم الليلة الأخيرة من مولد النبي صلى الله عليه وسلم.

الزبالعة:

سمعت من أقاربي القرويين انه توجد في المنطقة فئة من الناس تسمى (الزبالعة):

* قالوا ان أحد الزبالعة، اذا فاجأته المطرة أثناء السفر، يتوقف، ويقوم برسم دائرة واسعة على الأرض تكفي لوقوف حماره ولجلوسه على فروته تحته ـ وماء المطر لا يسقط في تلك الدائرة.
* وقالوا ان للزبالعة «طينة عليها طلاسم يعالجون بها الأمراض ويحققون بها مختلف الأغراض».
* وقالوا ان الزبالعة تأتيهم الشياطين في شكل كلاب سوداء وتختلي بهم!

(الزبالعة فئة مشهورة بمنطقتنا منذ أيام السلطنة الزرقاء، وقد دخلوا مع الشيخ فرح ود تكتوك في جدال ـ أشار الى هذه القصة وحيد زمانه الطيب محمد الطيب في كتابه عن ود تكتوك).

الحمار وينو؟

ان أغبش لم تتوفر له مكونات الذوق من الجماليات الحضارية ـ حضارة الأثرياء ـ ولكنه ظل يتمتع بالجمال في القراءة وخصوصاً قراءة القرآن وسماعه، وفي اخلاق بعض الناس وفي الاستماع الى أغان وأحاديث «رجعها مثل قطع الرياض كُسِينَ زهرا» وفي حسن البداوة غير المجلوب بالتطرية.



تلخيص تاريخ السينما برمته من أواخر القرن التاسع عشر أغبش وزير في أواخر العشرينات

حسنا ان زواج صديقي الهادي بعد أربعة أيام والليلة أنا مدعو مع آخرين لكتابة خطابات الدعوات ـ لم نعرف التعامل مع المطابع بالخرطوم في سنة ١٩٢٨.

عثمان سليمان بسيوني وأولاده يتشرفون بدعوة حضرتكم في الساعة السادسة يوم كذا، بمنزلهم الكائن بسنجة، لتناول العشاء بمناسبة قران الابن والأخ الهادي، والعاقبة عندكم في المسرات.

في صباح اليوم التالي تقاسمنا الخطابات وعددها ٣٠٠ ونحن ثلاثة، كل واحد منا ذهب في اتجاه، هذا للسوق ومكاتب الحكومة.. وهذا لفريق ورا، وهذا لفريق قدام.

ذهب البعض واتفقوا مع الحبوبات الثلاث المتخصصات في فن الطبخ للولائم، وهن من مواليد التركية السابقة، حبوبة ستيتة وبنات الكاشف وقد عمر بيت (البوش) بنسوة كثيرات توزعن لأداء واجبات معينة (١) قلع الرقاق ـ كما يأتي (٢) رش الكنافة (٣) فتل الشيرية والسكسكانية (هذا من اختصاص أهل العروس) و(٤) دق الريحة (السودان متخصص في عطور معينة تصل من الهند بشكل خامات جافة تخلط مع روائح هندية سائلة وعطور أوروبية غالبا فرنسية وعندنا مزيج عطري يسمى (خمرة) بضم الخاء، لا أستطيع وصف طريقة مزجه ولا عناصرها.

وهناك عذابات كانت تقاسيها العروس ـ اعتقد انها انقرضت في المدن ـ مثل (دق الشلوفة).. أما ثقب الاذنين للأقراط والأنف للزمام فانه ما زال يمارس.

في يوم العازومة تحتشد النساء للمساعدة في الطبخ، مع المتخصصات.. الضلع يرسل الى الفرن لانضاجه، (وفي بعض البيوت توجد أفران صغيرة).

الصفرة:

تجمع المدعوون وحملت أنا إبريقا وطشتا وفوطة مع صديق أكبر مني، وبناء على اشارته غسلت لعشرة من كبار السن.

والصفرة عبارة عن طربيزة حولها ١٠ كراسي خيزران، وعلى كل كرسي توجد فوطة صغيرة، وقد جلس العشرة الكرام، ووضع كل منهم الفوطة على حكره، والصينية التي أمامهم كان بها سلطانية شوربة وملاعق وصلطات ـ ونصف رغيفة أمام كل منهم ـ وشربوا الشوربة، والمحظوظون وجدوا أمامهم صحن الصلطة المصنوعة من البصل والفول السوداني لانها تعتبر شهية كغموس.

ك ر ض ل:

قال لي أحد الأعمام (كرضل) بفتح الكاف واسكان الراء وكسر الضاد واسكان اللام:

ـ قلت له: قلت شنو يا عم؟

ـ قلت ليك: كرضل.

فتطوع عم آخر وقال لي: يعني شيل كورة الشوربة وجيب الضلع (ففعلت).

أما أهم صحن أكل فيه الجماعة حتى عرقوا فهو طنجرة الرقاق (الرقاق خبز يصنع من الفينو وهو رهيف أو تخين مثل الكابيدا، ولكنه غير ناضج، وينضج فعلاً بتسقيته بمرق ساخن جداً) وقدمنا لهم صحونا صغيرة بها محاشي وكمونية.

كو .. رفع:

ثم وضعنا أمامهم صينية الكنافة المستديرة - كنافة البيوت زمان مش زي كنافة السوق - كنافتنا التي نسميها (كو .. رفع) بضم الكاف وضم الراء... وضم الفاء (مثل تهجئة الخلوة) هذه الكنافة تنز بالسمن البلدي الزكي - الذي أوصانا الشيخ العبيد ود.. ريه.. بشربه حتى ولو للبحث عن الحمار الضال في الغابة.

وكنافتنا مع سكر الرأس الناصع البياض (مش بغيتة) كانت محشوة بالفول المرورو:

الأعمام لم يتخاطفوا الكنافة كما فعل الشبان في الصفرة الأخرى.. ولكنهم أكلوها بسرعة وتلمظوا وأحضرنا لهم الحلو الأبيض الذي كنا نسميه البالوظة، استنتج أغبش ان هذه الكلمة تحريف لكلمة (الفالوذج) التي قرأناها في وصف مائدة هارون الرشيد.

كذلك أحضرنا لهم الخشاف (بعد تغيير الملاعق).

كانت مياه الشرب مبردة في الأزيار والقرب (بدون ثلج فنحن في سنة ١٩٢٨ لم نعرف الثلاجات، ومعامل الثلج لم توجد بسنجة الى الآن).

وذهب الاعمام للغسيل وشرب الشاي - وبعضهم يسف السعوط، وبعضهم يدخن السجاير.

النقطة:

وجلس العريس للحنة، وخلفه النساء والبنات يغنين (الليلة العديل والزين)... ونادوا أغبش لكتابة كشف النقطة.. الأرقام صغيرة أقلها عشرة قروش وأكبرها ١٠٠ قرش - وكلها ريالات - يتم اسقاطها في صحن باشري كبير به ماء - كانت الحصيلة ٣٠ جنيها -.

وكانت أم العريس لديها عازومة اخرى للنسوان ولديها نقطة خاصة بها.

واختار بعض الأهل والأصدقاء أن يعطوا العريس مساعداتهم في يده وكانت هذه تشمل جنيهات.

وزير عام ١٩٢٨:

تصوروا أغبش وزيراً عام ١٩٢٨.. فقط تحنن جزئياً مع العريس، وربط حريرة على معصمه أما العريس فقد لبس ثوب (السرتي) ولطخوا رأسه بالضريرة - وأما الحنة فقد شملت يديه ورجليه - وكان من مهام الوزير حمل سيف وكرباج عنج (كان الأهالي الغبش بسنجة قد تحضروا وتركوا البطان بالسوط أمام الفتيات - ولكن أغبش شاهد مباراة المباطنة حيث (يركز) الشاب وهو راكع وظهره عار ليضربه منافسه بالكرباج عدة مرات كما يشاء، ويجب على المضروب الا يتأوه ولا يتزحزح ثم يجيء دوره في ضرب خصمه نفس عدد السياط التي سبق له تلقيها وفي العادة يخرج المتباطنان وظهر كل منهما يقطر دما...).

وحفلات الرقص:

في تلك السنوات من العشرينات كان يقيم بسنجة الفنان المشهور الأمين برهان وهو من طبقة سرور وكرومه - وأغبش لم يره ولم نعرف سبب وجوده ببلدتنا، ومن أجل حفلات العرس سألنا عنه صديقه الأخ خضر (النديم) وهو من أقارب آل الشهاوي فأفادنا بانه (سافر الى أمدر!).

وجاء الطنابرة المحليون وجرى الرقص المعهود، وكانت في كل ليلة تحصل شكلة بسبب (الشبال وتتفرتك اللعبة) وكانت دورية البوليس التي تركب البغال تحضر حوالي الساعة ١١ وتتولى فرتكة اللعبة، ان لم يسبق ارفضاضها بسبب الشكل.

وكان من مهام أغبش كوزير ان يرشح للعريس أسماء المدعوين في اليوم التالي لقدح الصباح ـ وهو الافطار ـ لقمة بملاح تقلية (أم دقوقة) ـ واللقمة تعني العصيدة (جير) بيضاء ناصعة وشديدة النعومة، لأن العيش (الذرة) من نوع يسمى (شلشلي) أو (القصابي) وهو (مفندك) يعني (منخول) وتضاف الى قدح الصباح فطائر وشعيرية وسكسكانية (الفرق يأتي من السمن!).

بعض الأعراس كان شبابها يشربون خموراً خفيفة مثل (العسلية) ـ ولكن العرس الذي كانت به وزارتي كان خاليا من ذلك.

يوم القيد:

استمر قدح الصباح والغداء أيضاً كان يحضره مدعوون أما العشاء فانه يكون منظماً ولكنه بدون مدعوين إذ يحضره الزوار القادمون من بعيد، ويصادفه بعض المتفرجين والأصدقاء مع المغنين.

واستمرت الوجبات والرقصات خمسة أيام وست ليالٍ وقالوا اليوم (يوم القيد) وجاءت امرأة من جوقة الدلوكة تحمل صينية بها قناني وعطور وبها صحن م.ع. باشري كبير مغطى، ولما فتحه (أحد الفضوليين) ليسارق لقمة يأكلها، وجد به مسابح نسائية طويلة مثل الثعابين.

جلست المرأة على السباتة تغني غناء الفروسية، فنزل العريس وأصدقاء آخرون ووضعت المرأة سبحة على رقبة كل واحد منهم ـ على اعتبار انهم مقيدون بالاغلال ـ فافتدى كل واحد نفسه بما استطاع من مال (العريس ٥ جنيهات والآخرون كل منهم جنيه وجنيهان).

١٠٠ جنيه:

أفادني الهادي أن زواجه كلف ١٠٠ جنيه ومجموع المساعدات بلغ ٢٠٠، ولكنه صرف نصفها (فهل ربح أم خسر؟ وهو على كل حال واجه مصروفات البيت اليومية بعد سيرة (القيلة) في اليوم السابع ـ وقد ظل في الأيام الأولى يدفع مبلغ ٥ جنيهات كل جمعة ـ وهو كثير ـ ثم صار (يحاسب على الملاليم)!!!

السينما الصامتة:

حيث ان هذا الفصل قد بدأ بالأفراح، دعنا نرصد ترفيهات ناس أغبش في العشرينات وبعدها:

أول سينما رأيناها كانت من نوع السينما المتنقلة، قالوا لنا في المدرسة: احضروا انتم وأهلكم بعد غروب الشمس.

فجئنا وجعلونا نتتفن على التراب، وعرضوا علينا مناظر، كان يشرحها لنا باللغة العربية رجل أبيض اللون وهو واقف أمامنا مثل المدرس يحمل مؤشراً، وأظن بين المناظر بعض شوارع لندن ومدن كبيرة أخرى، وموكب ملك انجلترا، ومناظر مزارع بها دجاج وبيض وسواسيو (كتاكيت) وبقر، وكداريك (خنازير) وخواجات وبنات سمحات، وكورة (كرة قدم) ولعب تنس زي الانجليز ـ الشفناهم يلعبوا في جنينة الحكومة ـ وكنا نضحك على كل شيء ـ.

أخونا وجارنا المرحوم عثمان ابراهيم قوته الذي توفي في هذه السنة ١٩٨٤، احضر في أوائل الثلاثينات جهاز سينما يدار ببطارية اللوري وعرض لنا به أفلاماً صامتة ـ لم يفهم أغبش شيئا ـ ولكنه شاهد رجلاً يقبل فتاة قدام الناس بدون أي حياء ـ وعرفنا شخصية شارلي شابلن نفسه، وكان مسكوكا يجري من شارع الى آخر.

في المجلات المصرية كنا نقرأ كلاماً عن السينما واظنهم في أيام السينما الصامتة أخرجوا بعض الأفلام التي عرضت بالخرطوم ولم يرها ناس أغبش وناس قريعتي راحت لعل منها شريط (الوردة البيضاء).

السينما الناطقة:

اقرأوا معي ملخص تاريخها من موسوعة انجليزية مختصـرة (نتال) قـالت تحت عنوان (السينمـا توغراف): انها تعديل للفانوس السحري القديم اخترعه اديسون (الأمريكي) واستعمل في البداية لعرض الصور المتحركة بصفة تسلية، وقد راجت السينما في انجلترا في أخر القرن التاسع عشر قبل (١٩٠٠) هدد انتشار دور السينما في جميع أنحاء البلاد رواج المسارح وصالات الموسيقى.

وفي سنة ١٩٢٨ ظهرت الأفلام الناطقة التي تقرن بين الصوت والحركة، فانتعشت صناعة السينما، وصارت مدينة هوليود من ولاية كاليفورنيا (الولايات المتحدة) مركزاً لهذه الصناعة وكانت انجلترا في سنة ١٩٢٧ قد سنت قانونا يلزم دور السينمات بعرض أفلام انجليزية بنسبة معينة حماية لها وفي صناعة السينما الانجليزية برز النجوم المشهورون، شارلي شابلن، ودوقلاس فيربانكس وماري بيكفورد، وبفضلهم صارت الصناعة عالمية.

إذن فإن أغبش لم يكن متخلفا لأنه بعد عشر سنوات فقط من اختراع السينما الناطقة قد شاهدها حيث جاء الى الخرطوم في سنة ١٩٣٨ ونزل مع صديقه المرحوم خليفة محجوب مأمور البوليس، وقد تحدث بالتلفون مع سينما كوليزيوم وحجزوا لنا (لوج) وجلس أغبش بجلابيته وسط صفوف الخواجات والموظفين والضباط، (الجلابية في تلك الأيام كانت ممنوعة رسمياً في سينما النيل الأزرق بكل الدرجات ـ وغير مألوفة في كوليزيوم من الباب الأمامي الذي يدخل منه ركاب الدرجات العالية)!!..

كان الفيلم الذي شاهده أغبش في المناسبة المشار اليها (جاري كوبر في نيويورك) وهو ناطق بـاللغة العربية بطريقة (الدوبلاج) التي نفذت بمصر.

لا يذكر أغبش فحوى قصة الفيلم، إذ كان قد فهمها، ولكنه يتذكر كلمة (استانقالينا) التي تكررت في الفيلم، وصار الشبان السودانيون يقول احدهم للآخر: ياخي أنت استانقالينا!

أما السينما في سنجة نفسها لم تفتح لها دار إلا في الخمسينات (وكذلك القضارف).

حاوي هندي:

جاءنا بسنجة في أواخر العشرينات حاو هندي ورأينا اللعبات المألوفة مثل اخراج بيضة من أنف ابنه، أو اخراج سلسلة مناديل من فمه، أو اخراج حمامة تطير من تحت عمامته وكنا نضحك كما لا احتاج أن اقول.

نشاط أولاد الكلية:

عرض أولاد سنجة الذين كانوا بكليـة غردون ـ وقـد عاونهم شبـاب المدرسـين والموظفـين بسنجة مسرحيات في أواخر العشرينات وأوائل الثلاثينات ـ وهي روايات مترجمة لا أذكر عنها شيئاً سوى عمليات المكياج، وقد ظهر صديقي محمد علي يوسف الفلاتي بلحية كبيرة.

وجاءت نفس المجموعة من الطلبة السودانيين بالفنان المرحوم ابراهيم عبدالجليل في أوائل الثلاثينات، وأذكر أنه في اثناء احدى الأغنيات، قام بتغيير عبارة (اسمي.. اسمي.. سيد عبدالعزيز) بقـوله (اسمي.. اسمي أحمد عبدالنبي!) ـ وكانت هذه مجاملة للباشكاتب احمد عبد النبي بالمديرية (وهو الضابط فيما بعد، ثم مدير مصلحة الصيد ـ والآن أديب متقاعد، أبقاه الله ـ أما المجاملة فسببها انتماؤه للموردة وكذلك ابراهيم عبدالجليل وأخوه التوم، وناس الموردة يتعصبون لها ولاسماكها!).

فرقة راقصات:

في أواخر العشرينات جاءت الى سنجة فرقة راقصات مصريات (ولكنهن بنات مسكينات) ولست أدري كيف سمح لهن الانجليز بالحضور وعرض رقصهن في عديد المدن حتى وصلن الى سنجة.

اتفق معهن الأخ فضل المولى، رحمه الله، وهو قهوجي مجتهد واستأجر حوش المرحوم عمر حماد في بيته المهجور المجاور للجزارة، وأسكن الراقصات فيه، وعمل اعلانات بالكواريك وادخل المتفرجين بالتذكرة بقرشين، وصار يبيع الشاي والقهوة والليموناده بضعف الثمن.

كانت الفتيات وهن ثلاث يرقصن بطريقة هز البطن وربط الحزام، وحمل العصي ويغنين الحنة.. الحنة يا عطر الندا أنا شفت حبيبي... حبيبي مؤلع في الهوى أنا وحبيبي في جنينه والورد مخيم علينا وكاس المدامة في أيدينا يا ربي تستر علينا!

تحمل احداهن في نهاية الوصلة صينية شاي وتمر على المتفرجين فيرمون لها الريالات، والشلنات والفرينيات، وكان أغبش يفعل ذلك أيضاً فقد كان مراهقا جداً جداً والبقية تأتي.

أغبش يبكي:

بعد كتابة ما سلف، سمعت نعي أخي سيد أحمد نقد الله فبكيت، ثم تماسكت وقرأت له القرآن، وقد كتب اغبش قائمة تحتوي على أسماء عشرات الأصدقاء الذين علموا أغبش مباشرة أو بوجه غير مباشر - ثم ماتوا قبله - وكلهم كانت أسماؤهم مخططة لترد في هذا الكتاب - اذا عشنا، فالأمر لا يمكن فيه الجزم كما يرى القارىء.

الأخيرون جداً من الأصدقاء الذين سبقوا سيد أحمد نقد الله (وسبقوا أغبش) هم عبدالعزيز محمد داود ومحمد جبارة العوض، ان خسارة أغبش فادحة وخسارة الوطن أفدح.

رحمهم الله...

الأعراس في السودان مدرسة فنية واجتماعية واقتصادية وسياسية
مهرجان زواج (نعم) ولكن هل كان يقام مهرجان طلاق؟

ان الحديث عن الزواج ما كان يمكن أن يبدأ وينتهي بما رآه القراء في الفصل السابق.. لذا فكرت ساعتين في «مؤسسة الزواج» مدخلاً الى جميع الجماليات الفطرية والحضارية، ووجدتها تجسيداً للحياة الاجتماعية بل كانت وسيلة سياسية كما سيأتي..

المهر والشيلة:

كان المهر في اقليم سنجة والفونج في العشرينات والثلاثينات يتراوح بين خمسة (و) خمسين جنيهاً. حسب مستوى الأسرتين المتصاهرتين.

وكان ينقسم الى نوعين:

(١) مهر مصحوب بشيلة

(٢) أو متكفي..

والشيلة قد تكون بسيطة تكلفك عشرين جنيهاً وهي عبارة عن ثياب قليلة للعروس، وكمية عطور «ناشفة - و - لينة (يعني سائلة) وعطور «لاونده» - لاافندر أي من النوع الذي يسميه المصريون العصريون «برافانات»..

ومواد طعام مثل السكر والدقيق والتمر (للشربوت) والفرق يأتي في الكميات وفي أنواع الملابس والعطور - وها هنا قد تتراوح تكاليف (الشيلة) بين خمسين - و - ١٠٠ جنيه في أوساط الطبقة الوسطى.. بينما قد ترتفع تكاليف زواج احد الأغنياء الى ١٠٠٠ جنيه أو أكثر فالملابس عندهم حرائر راقية، والعطور باريسية من النوع التي لا تباع بسوق سنجة.

الكورة:

نطق الكورة بمعنى (السلطانية) وهي مشتقة من (الكوار) بمعنى الشراء بالجملة بأسعار اعتباطية.

ألم أحدثكم من قبل عن صعود السيد/ عبدالرحمن المهدي وامتداد نفوذه في العشرينات والثلاثينات؟

لقد ابتكر السيد عبدالرحمن المهدي.(الكورة) وصارت تنعقد لها حفلات بأمدرمان قبل اعادة بناء قبة المهدي وبعدها - في مساء ٢٧ رجب من كل عام..

قالوا لنا في سنجة ان المهر الذي حدده المهدي الكبير في القرن الماضي كان يساوي ربع دينار (وقد قدروا هذه الفئة في أواخر العشرينات بمبلغ ١٢٥ مليماً بالعملة المصرية، التي كانت سارية عندنا).

على كل حال كان الأنصار عندنا قد تعارفوا على مبلغ جنيهين للمهر - وكانت الزيجات الجماعية يجريها أنصار المهدي بسنجة، بغير انتظام، وبدون حماس شديد - فلماذا؟

كانت النسوان عندنا قد نشرن تشنيعات ضد الكورة.

تقول احداهن.. بري، بري انا ما عندي بنات يتعرسن في الكورة!

مهرجان طلاق:

أما في أمدرمان فقد كانت ليلة ٢٧ رجب عامرة في أيام السيد عبدالرحمن المهدي رحمه الله - وكان يستمع في الحفل الى أشعار وأماديح وخطب من أدباء وسياسيين وفقهاء ثم تعقد عشرات الزيجات، بمهور

اسمية قليلة، ويذهب الأغنياء الى بيوتهم لينفقوا المئات والآلاف.

كانت حفلة ٢٧ رجب يسمونها «مهرجان الزواج» ويذكر كاتب هذه السطور انه كان يحضر حفل عقد زواج في مثل تلك الليلة في أوائل الخمسينات بمنزل المرحوم الشيخ أبي بكر المليك...

جاء مولانا الجليل المرحوم الشيخ بابكر بدري متأخراً، وجعل يعتذر بأنه كان في «مهرجان الزواج بقبة المهدي» خوفاً من زعل السيد عبدالرحمن.

ثم التفت مولانا بابكر بدري للمرحوم محمد الفكي (الشاعر) وقال له: ما شفتك في «مهرجان الزواج».

فرد عليه محمود الفكي: كان عندنا «مهرجان طلاق» في أب روف ـ وطلق ناسنا اكثر من ناسكم!!

(محمود الفكي ختمي وبابكر بدري انصاري)...

ملابس زمان:

شفت توب شيخ العرب؟ (مثل آل أبي سن وأولاد العجب أب جن) انه ثوب ناعم، ولكن الأعراب العاديين يلبسونه من قماش خشن (دمور بلدي أو دمورية).

الثوب المثالي هو «العشاري» ٢٠ ذراع ويخاط طولياً فيكون طوله مطبوقاً عشرة أذرع ـ والمجد في البوادي الشمالية «التوب عشاري والجمل بشاري» يعني من جمال قبيلة البشاريين وهي من القومية البجاوية ـ أراد لها الانجليز بعد ١٨٩٩ ان تكون مع «العبابدة» تحت الادارة المصرية، وهذي احدى علل مشكلة حلايب على ساحل البحر الأحمر.

هذا الثوب الذي هو عبارة عن «ملاءة» هو اللباس الطبيعي لأي سوداني في السودان الأوسط، سواء كان في البادية او القرية.

أغبش في طفولته لبس الثوب ـ وهو ببساطة غطاؤه عند النوم ـ وكان يحتاج الى لبسه يوم الجمعة بسبب غسيل هدوم المدرسة (وكان ثوب أغبش على الدوام فردة دمور بلدي).

تحت التوب، لا بد من سروال اما «العراقي» فهو ترف غير ضروري!

العريس يلزمه في فترة «الملائكة» وهي في الغالب سبعة أيام، ان يلبس توب من الوصف أعلاه. والمستحب ان يكون (توب سرتي) بضم السين وتشديد الراء المفتوح وهو من قماش متزلج وعلى امتداد طوله يكون به زيق (القماش المتزلج للعروس أما العريس فيكون ثوبه خشناً من نوع «الولايه» ولكنه يحتوي على الزيق).

يلزم الرجل طقم ملابس للخروج بها بعد انصراف الملائكة.. وكانت توجد «السكروته» وهي قماش أصفر ناعم ـ العجيب انه يعيش عشرين سنة ـ يمكن للعريس ان يصنع منه قفطاناً وهي تلك الجلابية (المسروت) مثل الفرجية، ولها قيطان تربط به القفطان حول كرش سعادتك ـ أغبش لم يلبس أي قفطان في حياته..

وكان يوجد قماش يسمونه «الشاهية» وآخر يسمى «الالاجة» وهي أقمشة مخططة متزلجة تصلح لتفصيل القفاطين.. وبعض العرسان يفصلون بالطوات مثل بالطو أغبش الرصاصي المشهور.

أبسط ثوب نسائي بالسودان كان هو «الزراق» وهو أساس ثروات ابراهيم باشا عامر (الاصواني) وخليل قطان السوري بأمدرمان ـ واضرابهما مثل فارس عجم (سوري آخر) وكانت تجارته بمدينة الابيض.

الزراق قماش من نوع (الولايه) وهي قماش أسمر أخف من (الدمورية وزن عشرة) وكانت الولايه تصبغ بمادة (النيلة) وتقطع (الطاقة) على أربعة ثياب زراق ـ وثوب الزراق يسمى (جوز) يعني (زوج) فان (الفتقين) يخاطان طولياً كالوصف السابق وهذا يكون (ثوب زراق) أما (الطرقة) بكسر الطاء واسكان الراء فهي فتقة مفردة وتخاط أيضاً وينخفض حجمها الى نصفه في الطول، وضعفه في العرض ثم تستعمل بصفة قرباب.

هذا الزراق أيضاً قد انقرض تقريباً، ولكن المصابغ القديمة ما زالت موجودة وتحولت الى انتاج ألوان أخرى (وقد دخل في هذه الصناعة سودانيون منهم صديقنا الأمين الصافي بأمدرمان ـ رحمه الله.

الحلاقة:

كنا نحلق في طفولتنا (جبنه) بثلاث فتحات ـ وهي الحلاقة الصلعاء مثل حلاقة الممثل السينمائي الغجري برينر (تحياتي للأخ يحيى محمد عبدالقادر محرر مجلة السينما السودانية)...

لم يدفع أغبش أكثر من تعريفة في الحلاقة لغاية سنة ١٩٢٧ ثم صعد الى ١٠ و١٥ مليماً و٢٠ مليماً قبل ١٩٤٠ و٥٠ مليماً بعدها.

في سنة ١٩٣٣ حكى لنا الأخ بنايوتي استرامبلس وهو من أغاريق سنجة ـ انه اضطر في الخرطوم ان يدفع للحلاق (ريال اب عشرين) لأن المرحوم عبدالمنعم محمد سبقه وفعل ذلك ـ واستهولنا هذا الاسراف.

وعلى كل حال، كانت الحلاقة بمصر في الأربعينات محددة بلافتة وهي تتراوح حسب أوضاع المحلات، بين قرشين ـ وعشرة قروش.

المشاط:

كانت المراة الماشطة محظوظة فهي تجد وجبات دسمة مع الونسة ـ ويجهزون لها الشاي والقهوة، والسجاير (سجاير ماتوسيان كانوا يسمونه سجاير المشاطات) وتفرغ الماشطة بعد ثلاث جلسات وتقبض نقداً ما بين ٢٠ الى ٥٠ قرشاً، حسب وضع العائلة وفي حالة مشاط العروس تنال جنيهات (لا تصدقوا الأخ ابن البادية الذي زعم دفع المائة جنيه للمشاطة!).

تسألوني عن المشاط نفسه؟ حسناً أرجو الاحتفاظ بصور عديدة (للمساير) لأنها تكاد تنقرض مع الكافرين او الكوافير!

الكجرة ـ واللكيب:

في حالة سنجة والقضارف وأشباههما ـ قبل ٥٠ سنة ـ لا بد للعريس من بناء قطية ـ سواء في منزل أسرته أو أسرة العروس، حسب الاتفاق.

القطية الجديدة يجري (لياسها) يعني طلي حائطها الدائري الداخلي بمادة «الزبالة» ثم تدهن بالجير ـ او حتى بالرماد.

في سنجة تتجمع فتيات الحي فيقمن بلياس قطية العروس (في القضارف يوجد اجراء متخصصون لعملية اللياس).

الكجرة:

رايت في القرى (حوالي سنجة وحوالي القضارف ايضاً) قطية العريس وبها (كجرة) بضم الكاف واسكان الجيم، وهي ستارة لها مدخل ومصنوعة من البروش المصبوغة (الحصر السودانية المصنوعة من السعف ـ سعف النخيل والدوم ـ وقشوش اخرى لطيفة يسمى واحد منها «انزورة») وتصبغ بالألوان المستوردة والمعروفة باسم «تفتة» بكسر التاء واسكان الفاء، وهي تشمل الزيلقون ـ اللون الأصفر ـ واللونين الأحمر والأخضر.. صانعات البروش عندنا يعرفن كيمياء التلوين بحيث ينتمجن اللون الأسود ـ مثلاً ـ من مزج ألوان أخرى، هل يحل القارىء هذه المسألة؟

عرفت من أبناء الشمالية (الشايقية مثلاً) ان الكجرة عندهم تسمى (اللكيبة بفتح اللام الثاني والمقطع الأخير «كيب» ينطق كما ينطق السودانيون كلمة (بيت) بدون اسكان) (التورية مصادفة).
لا أعرف شكل لكيب الشمالية، وهل هو مثل كجرة صعيدنا ـ أم لا ـ.

المزيقة والدلوكة:

في سنجة كانت توجد فرقة موسيقى المديرية، وهي تعار مقابل رسوم معينة لحضور حفلات الزواج.. وأدوار هذه الموسيقى انجليزية واسكتلندية (قرب) وسودانية (السودانية مستعارة من الأغاني الشائعة).
الدلوكة تدعى للسيرة ـ الزفة ـ ثم للتطريب أيضاً، وأغانيها قبلية فروسية موروثة، وتطورها كان محدوداً، ونقراتها مثيرة تجعل «الغبش» يهوشون و(يعرضون) وأحياناً يلعبون (الصقرية) قدام الدلوكة والمتفرجين (وعادة البطان كانت موجودة بالقرى حتى الثلاثينات ـ ومن يدري ربما لا زالت موجودة).
مغنية الدلوكة يضع لها المتفرجون الريالات على جبهتها (أحياناً جنيهات) حتى (أغبش) هاش مرة ووضع لها خمسة ريالات على جبينها!.. (في الاربعينات شهدت احدى الشبان يفرش طريق احدى الراقصات بورق البنكنوت وهي رزيلة نادرة).
والسيرة في الغالب من بيت العريس الى بيت العروس.. ولكن هناك زورة للبحر (النيل) وفي حالة القضارف ذهبنا لمزار الشيخ مكي الشابك ـ الولي الوحيد المدفون في حدود البلدية.

تعظيم النسيبة:

بالأسف كثيرون بدأوا يقلدون اخواننا المصريين بدون تبصر، فالمصريون (يهزئون) (الحماة) التي هي أم العروس أو أم العريس ـ فهذا التهريج لا يوجد بالسودان. فالحماة التي هي (النسيبة) محترمة جداً ـ والسودانيون يبرون القسم بها حتى غيابياً.
يبدو لي ان المسرحيات المذاعة أكثرها مسروقة او (مقتبسة) خصوصاً حينما تضع النسيبات في مواضع زراية ـ مستحيلة بالسودان ـ.
ومزاعم المغالاة في عادات الدفع والمساومة في حالات (قطع الرحط) هذه المزاعم مبالغ فيها في الغالب، وقد تتسبب فيها نسوان (متشبرات) من الجارات.

تكاليف العوازيم:

من تقديرات الثلاثينات، ان عازومة العرس لـ ٣٠٠ مدعو حسب وصف الفصل السابق لم تكن تزيد تكاليفها على ١٥ جنيهاً.

غرفة النوم الغبشاء:

في سنجة والقضارف، في الاربعينات وقبلها، كان طرف العروس لا بد ان يؤثث (غرفة النوم)...
عنقريبان مخرطة احدهما كبير والآخر أصغر، ومرتبات، وأربع مخدات، وملاءتان وسحارة ـ السحارة صندوق من الخشب عرضه اكثر من متر وارتفاعه ٧٥ سنتيمتراً وله قوائم، وواجهته صفيح مزركش كان موجوداً في أسواق البنادر).
وطربيزة متوسطة الحجم وطقاطيق وبنابر (الكراسي المنسوجة الصغيرة الحجم) وزير ماء جديد فوق (الحمالة) مصنوعة من أسياخ الحديد ـ المربوطة بها بالات جوالات الجوت المستورد من الهند ـ وهذه

الاسياخ نسميها (بال) وواحدتها بالة. وسباته حمراء على الأرض وبروش بحجم السرير مزركشة ـ أكثر من واحد ـ وبرش صغير أحمر له رأس لوضع الرأس في الصلاة (أو تبروقة، وهي البرش المستدير الحجم).

ومشعليب (كابدلو) شبكة حبال سعف لتعليق الاطعمة (الفلاتة يسمونها دواء كلب).

معدات شاي: كفتيرة مصنوعة من معدن ثقيل وبراد صيني كبير وآخر صغير ـ وجك صيني من أجل اللبن، وسكرية وملاعق وكبايات زجاج صغيرة الحجم عليها زركشة حمراء من الخارج (وهذه الكبايات انقرضت بالسودان ولكنها ما زالت توجد بمقهى الفيشاوي بالقاهرة بميدان سيدنا الحسين) ومصفى مصنوع من الصفيح وكبايات زجاج كبيرة للشربات وصواني مصنوعة من النيكل الفضي المزركش. ومعدات قهوة فندك وقلاي وجبنة طين وشرغرغ وصينية صغيرة وفناجين صيني صغيرة من نوع لم نعد نراه (وقد أضرب كاتب هذه السطور عن وصف هذه الأدوات).

وتحتوي الطربيزة على طقم صحون صيني مختلفة ومعها واحد م.ع باشري كبير وسلطانية للملاح ومكمامة وسحلية وصينية نحاس كبيرة ينقشون عليها اسم العريس وطباقة غطاء (جمع طبق) متعددة مصنوعة من السعف ومزركشة، وكيزان صفيح وطلس وألمونيوم لشرب الماء..

في حالات تجهيزات بيوت الأهالي الغبش بالقرى، تجد التركيز أكبر على المنتجات اليدوية المحلية القداحة من الحطب (صحون الطعام) والسلاطين من القرع أيضاً والصواني طباعة مصنوعة من السعف وكذلك اغطيتها، والبروش والسباتات اكثر كذلك يوجد اناء يسمى (الماندولة) وهو مصنوع من السعف ويمكن ان يحتوي على قدح طعام ويقفل عليه من الذباب.. كذلك توجد (الكبوتة) وهي اصغر من الماندولة وتستعمل لحفظ جبنة القهوة لكيلا تبرد (بدل الصبارة المعروفة باسم التيرمس).

ديكور الجدران:

ان العريس حينما يستقر بمنزله يصير من واجبه ان يزيد المعدات دولاب وطرابيز وحمار للهدوم وحلل وصواني وصحون وبراريد وكبايات...الخ.

كذلك عليه ان يزيد ملابس زوجته والحقيقة انه قبل اكمال اربعين يوماً عليه ان يكسو نسيبته بما يناسب سنها، ويكسو حمواته الأخريات والأولاد والبنات الذين تضمهم العائلة.

ومن المحتمل ان يحضر كراسي جلوس وطقاطيق زيادة واذا كان متفلهماً يشتري فونوغرافاً ومجموعة اسطوانات!

وحسب ذوقه.. يقوم بتزيين الجدار الدائري للقطية بلوحات مصورة مطبوعة بمصر، صورة أبي زيد الهلالي والزير سالم والزناتي خليفة وعنترة بن شداد وسيف بن ذي يزن (وأحياناً صورة متخيلة للامام علي كرم الله وجهه)...

اقتراب من الفنون:

في بيت العرس السوداني رأينا الواناً من الرقص النسوي، والعروض الرجالية (في أيامنا لم يظهر التم تم ـ السامبا ـ والرومبا...الخ).

وكان عندنا رقص الرقبة.

رأينا في القرى (صفقة البنات) وهي مؤسسة يديرها البقارة، في الأعراس ويديرونها في كل ليلة وغناؤهن يحتوي على مدح بعض الشباب باسمائهم، وأحياناً ذم البعض، فردياً أو جماعياً، فقد سمعت في العشرينات من حناجر الفتيات البقاريات مقطعاً يقول:

الجلابة عردوا......خلوا الحسووة!

والجلابة هم التجار من أبناء وسط شمال السودان، وعردوا (هربوا خائفين) والحسووة مريسة عسلية المذاق لم يكتمل اختمارها، وتعطى للأطفال مجففة وهي لذيذة تتعادل مع العجوة.

وفي الاعراس وغيرها اهتم اغبش (بجلسات المجادعة) وهي مناشدة مشتركة لأشعار الدوباي استمتع بها اغبش كثيراً.

واستمعنا الى (الحكامات) وهن نساء بقاريات عجائز لهن فصاحة شديدة في المدح والذم ونفس الوظيفة يؤدي مثلها رجال البقارة ويقال لأحدهم (البوشابي) أو (الهداي) ورأينا (توزة الجنوبيين) ورقصة البقارة التي تشبه مسيرة البقر ورقصات جبال النوبة «مش الكمبالا بس» واستمعنا الى الربابة ـ يقول المغني:

امه خليني امه خليني
خير النور يناديني
كان فركة بكسيني... كان فرخة بنتيني
الفركة بالشريط.. الفرخة بالمعيط
(هذا هو رد الأم لحماية ابنتها من الغواية)..

تركت للقارىء ان يتذكر (حليل موسى) بمعرفته ان كان ود بلد.

واستمعت الى الربابة مع غناء الهدندوة ومع غناء أحباش وافدين واستمعت الى (الكايتا) وهي الآلات النيجيرية الموسيقية التي تنتفخ الخدود أثناء النفخ بها.

وحتى التشكيل:

وعليه فان أغبش في مؤسسة الزواج قد اقترب من الفنون بما فيها فن العمارة نفسه والفن التشكيلي ـ وسوف نرى مدى تعامله مع فنون الحضارة الوافدة.

* * * *

السراج وعبدالله الطيب من الافذاذ

انني عادة أبدأ لدى تناول اي كتاب بقراءة المقدمات والتمهيدات، سواء كتبها المؤلف أو أصدقاؤه أو ناقدوه.

كتب المرحوم الياس انطون الياس في مقدمة (القاموس العصري، انجليزي - عربي) امامي الطبعة ١١ في شهر جمادى الثانية ١٣٧٠هـ الموافق ١٩٥١م (وحتى وضع التاريخ الهجري من لباقة استاذنا المذكور - وهو قبطي) قال:

(قال الصاحب بن عباد: لو أدركت عبدالرحمن بن عيسى الهمذاني، مصنف كتاب الالفاظ الكتابية، لأمرت بقطع يده، فلما سئل عن السبب، قال: لأنه جمع شذور العربية الجزلة في أوراق يسيرة، فأضاعها في أفواه صبيان المكاتب، ورفع عن المتأدبين تعب الدرس والحفظ الكثير).

وعلق المرحوم الياس: انما ذلك كان رأياً عتيقاً للقدامى في الاستئثار بأسرار العلوم خشية ان تبتذل متى عرفتها العامة، وتداولتها وهي لا تحيط بدقائقها فتسيء فهمها ولا تحسن استعمالها... أما الآن فقد تغيرت الأمور وأصبح العلم ملكاً مشاعاً يستوي جميع الناس في حق التمتع به، وقضت أسباب العمران أن يسهل طريقه على الطالبين بتقريبه الى الأفهام بكل الوسائل.

(وهذا يكفي الآن).

ان أغبش لم تعجبه الفاظ الهمذاني في (مقاماته) وقد عانى من مقامة (أفاطم لو شهدت ببيت خبت... وقد لاقى الهزبر أخاك بشراً).. هذه المقامة التي تكرم أستاذنا المرحوم ابراهيم عبدالله كليب - عام ١٩٢٤ تقريباً - بتذويقنا إياها ضمن دروس الاملاء... (وفي ذلك اليوم امتلأت كراريس اكثر الزملاء بعبارة (كرر) وهذه طريقة تجمع بين العقوبة والتدريب بتكرار الكلمات التي يكتبها التلميذ خطأ - والخطأ موفور جداً في حالات الاملاء).

عف أغبش عن سرقة كتاب المقامات المشار اليه في سنة ١٩٢٨، وكان من مجموعة كتب مهجورة في رف الدكان الذي كان يشتغل به، ولذا لم يكن غريباً أن يتجاهل أغبش في أواخر العشرينات وأوائل الثلاثينات اقتناء كتاب (الألفاظ الكتابية)... مع أن أول مطامحي كان احتراف الكتابة، ولكنني لم اطمح مطلقاً الى عضوية نادي أولئك الكتّاب القدماء (الذين بدأوا بعبدالحميد وانتهوا بابن العميد) - ويكاد اهتمامي بالكتّاب المحترفين القدماء يقتصر على ابن المقفع والجاحظ وابن خلدون.

أما الكتّاب الذين طمحت لعضوية ناديهم فهم كتّاب العصر. وكانوا سودانيين ومصريين وعرباً آخرين (بل وأوروبيين وآسيويين وأمريكيين) سوف أحرص على ذكر كل واحد منهم، سائلاً المولى تجنيبي كل نسيان.

دراسة اللغة

الغرض من مقال اليوم عرض تجاربي اللغوية - عربية وانجليزية - ومن وقت مبكر اخترت الصحف والمجلات والكتب العصرية لتلقين نفسي العلوم والتاريخ واللغة والآداب والفنون.

سمحت لنفسي رفض العناء في البحث عن ألفاظ الشعر الجاهلي المهجورة، كما رفضت دراسة الآداب المتكلفة (موروثة أو معاصرة) لانني لم أطمح مطلقاً للانضمام الى مدرسة كان قد مثلها بمصر المرحوم الشيخ حمزة فتح الله (١٨٤٩ــ ١٩١٨) ومثلها في السودان المرحوم الشيخ الطيب السراج (المتوفى قتيلاً عام ١٩٦٣) ويمثلها الآن البروفسور عبدالله الطيب، وأنا احترم هؤلاء الأفذاذ لأنهم (أفذاذ).

ولكن كيف يكون أغبش (فذاً)؟ (وعبارة الأهالي الغبش) معناها سواد الناس!

دراسة الألفاظ المعاصرة

انني في وقت مبكر، قل من أوائل الثلاثينات قد انتهجت دراسة الألفاظ المعاصرة...

لقد كنت أقرأ الخبر أو المقال في الجريدة أو المجلة وأضع خطأ تحت أية كلمة لم أفهم معناها، وتجربتي المبكرة مع المعاجم العربية ثبطتني.

قاموس مختار الصحاح، قاصر على الألفاظ الثلاثية (طبعة وزارة المعارف المصرية أوجدت تحسيناً بتغييرها طريقة ترتيب الكلمات الأبجدية، ولكن القاموس ظل قاصراً عن التطور مع العصر).

قاموس المصباح المنير ـ بنفس مستوى الضيق ـ وترتيب الكلمات هو الموروث، كلمة د ك ن ـ من باب النون فصل الدال ـ والوصول الى (دكان) عملية شاقة.

القاموس المحيط للفيروز أبادي ـ ٤ مجلدات ـ بالترتيب الهجائي الموروث (حتى في حالة كلمة قديمة تلاقيها في الشعر الجاهلي تكابد المشقة التي عاناها تأبط شراً عندما سكب العسل على الصخر المنحدر، وانزلق عليه ليسقط في الجانب الآخر من الجبل، على مبعدة يومين من أعدائه الذين رمقوه على القمة وهم على السفح، وأعدوا له السهام بدل الاكرام!).

قاموس المنجد

قاموس المنجد الذي افترعه الأب لويس معلوف اليسوعي ـ وظلت المطبعة الكاثوليكية ببيروت توالي تنقيحه واعادة طباعته ـ هذا القاموس عرفته منذ أوائل الثلاثينات واستفدت منه.

لم أجرب مطبوعات مجمع اللغة العربية في مصر ـ والحقيقة انني أعارض ـ برغم جهلي ـ المنهج الذي ساروا عليه إزاء تعريب ألفاظ العلوم الحديثة.

طريقة الياس انطون:

ان المرحوم الياس انطون الياس في قواميسه (العصري وغيره) قد استعمل اصطلاحات مفيدة، استفدت منها في أوائل الثلاثينات حينما كنت محتاجاً إليها.

فهو يضع لك نجمة بجانب الكلمة إذا أراد أن يؤكد لك انها عربية فصيحة، من أمثلة ذلك: مجحف، إدراك، حيف، قسيس.

ويضع لك علامة مربع صغير إزاء أية كلمة مصرية دارجة مثل بمبي (لون) ـ و ـ مخطرف (مهووس) ـ و ـ بلاص (جرة) ـ و ـ مفرفش (مرح).

أما الكلمات المعربة حديثاً من لغات أجنبية، فإنه يضع بجانب كل منها دائرة صغيرة. ومن أمثلة هذه الألفاظ: اتومبيل، كرنفال، كربونات، تياترو (مسرح).

درس مزدوج:

لقد وجدت من المسلي ـ والمفيد ـ أن أتوصل من القاموس العربي (عربي انجليزي) الى المقابل الانجليزي لكلمة عربية ما، ثم اراجع اللفظة الانجليزية في القاموس الانجليزي الصرف ومن خلال هذه السياحة استفيد معرفة مزدوجة، في الموضوع، في اللغتين في وقت واحد وهذا العناء يساعد أيضاً على الحفظ!

وتعريف القواميس الانجليزية لمعاني الألفاظ يحتوي على وصف الفعل أو الشيء (النبات أو الشجرة أو الزهرة أو الاداة أو الجهاز...الخ) وكثيراً ما يكون الوصف مصحوباً بصورة... ويورد القاموس الألفاظ

المرادفة ـ وأحياناً المضادة ـ وفي حالات معينة يورد (الاسم العلمي).

مثلاً: مادة (هويت).

أصل اللكنة انجلوساكسونية، ومأخوذة من البياض ربما بسبب بياض الخبز. معانيها كإسم:

١ ـ أي نوع من عدة أنواع من (القش) أو (الحشائش) المزروعة (الاسم العلمي تريتكوم ساتيفوم) وهو (الهويت) أهم أنواع الحبوب، بذوره تحملها سنبلة نهائية، وهو غني بالنشاء ـ و ـ القلوتين، ومن المحتمل ان وطنه الأصلي كان آسيا. ولكنه يزرع على نطاق واسع في العالم بحسبانه محصولاً غذائياً أساسياً.

٢ ـ المعنى الثاني: بذور هذا القش تستعمل في صنع الدقيق وغير ذلك من المستخرجات الحبوبية (ثم تأتي كلمتان احداهما (هويت ربيعي) والأخرى هويت شتوي).

فلولا الصورة الموجودة الى جانب هذا الوصف لاشتد مساس الحاجة الى القاموس العصري، الذي وضع لنا إزاء كلمة هويت الانجليزية ثلاثة أسماء مترادفة هي (حنطة. قمح، بر...) ولم يتورط في الحديث عن (أصل الكلمة) ولا عن (وطن النبات الأصلي) ولا عن السنابل ولا عن الدقيق ولا عن النشاء ولا عن القلوتين واحتاج أغبش ان يراجع كلمة (قلوتين)، فوضع إزاءها المرحوم الياس كلمة (غلوتين) معها دائرة بمعنى انها اجنبية معربة، ووصفها أيضاً بعبارة (المادة الغروية المغذية في الحبوب)... وها هنا تلفت نظري كلمة (غروية) وأتذكر ان (الغراء) الذي عرفته بقسم الاشغال بسنجة في سنة ١٩٢٥ اسمه الانجليزي (قلو)... ولكنني إذ ذاك لم أعرف (الجلي) ـ الحلو المثلج ـ الذي عرفته لأول مرة في سنة ١٩٤٧ بمقصف الـ جي بي بالخرطوم حيث أكرمني المرحوم احمد يوسف هاشم.

ثم علمت من شرح القاموس لأول مرة ان الحبوب الغذائية تحتوي على (مادة غروية) (والنسبة واضحة الى الغراء، الذي كان مدرس مادة الأشياء في المدرسة الأولية قد أفادنا ان مواده الخام هي الحوافر والأظلاف والقرون!..

شوفوا كل هذه السياحة مع كلمة قمح:

يجب ان أعترف انني لا أجد دائماً الوقت الكافي لمتابعة الألفاظ بهذا التوسع الازدواجي، ففي حالة العجلة اكتفي بجواب سريع من الكتب أو من الناس ـ ولكنني حتى هذه اللحظة أجد متعة عظيمة في الاستئناس مع إحدى الكلمات عبر القواميس وأحياناً الموسوعات والمؤلفات الأخرى، فإن بعض التعبيرات التي تستوقفني تكون أحياناً دينية أو فلسفية او تاريخية او علمية.

وهذه المراجعة كانت وما زالت تشمل اللغتين العربية والانجليزية (لم ادرس غيرهما ولكنني اقتنيت قاموساً (لاتينيا ـ انجليزيا) وآخر (فرنسيا ـ انجليزيا) حيث أن بعض الكتّاب يضعون لك أحيانا عبارات من هاتين اللغتين بدون شرح، وبالتجربة صرت أميز بين اللغات الثلاث متى رأيت العبارة مطبوعة ـ نعم مطبوعة ـ لوجود اختلاف في أشكال الحروب أحيانا).

اضافات بالقواميس:

ان القواميس الانجليزية والامريكية تحتوي أحياناً على ملاحق مفيدة (مثلاً) قاموس الامريكي (ونستون، المبسط) كان يحتوي على ملحق للاصطلاحات التجارية و(ب) ملحق للميثولوجيات فرعونية ويونانية ورومانية وغير ذلك (ج) ملحق لتعبيرات فنية من لغات أخرى وخصوصاً اللاتينية والفرنسية و(د) ملحق هو عبارة عن اعلام (بوارق) الدول المستقلة و(هـ) ملحق عن الشخصيات والأماكن ـ يحتوي أسماء شخصيات بارزة مع تخصصاتهم وسنة ميلاد كل منهم وموته (كذلك) اسماء أقطار وعواصمها ومساحاتها وعدد سكان كل منها ـ كذلك توجد معلومات عن المقاييس والموازين والمكاييل.

ويحتوي القاموس في صفحات متنه الأصلي على لوحات هامة للنظام الشمسي وفصول السنـة ـ وما أشبه.

هذا القاموس شجع عندي الاهتمام بكل هذه الأبواب من المعلومات، ثم اقتناء الموسـوعات والكتب المتخصصة في الموضوعات المختلفة.

عندي أيضاً قاموس اكسفورد المصور. وهذا يحتوي بين أشياء أخرى، على اسماء العناصر الكيماوية الموجودة على كوكب الأرض وعددها ٩٢ مع رقم كل منها الذري، ورموزها والوزن الذري لكل منها (وكذلك) تضاف عشرة عناصر اخرى هي المسماة (ترانسيورانيك) مع البيانات الخاصة بها ايضاً.

في سنة ١٩٢٩ اقتنيت كتاب لغة الجرايد لليازجي ـ طلبته من مصر لمجرد اغراء الاسم ـ وكان كتاباً صغيراً، ثمنه خمسة قروش.

اليازجي هنا هو الشيخ ابراهيم اليازجي ١٨٤٧ ـ ١٩٠٦م وهو ابن الشيخ ناصيف اليازجي ١٨٠٠ ـ ١٨٧١م الذي هولبناني تخصص في الدراسات العربية، وكذلك أبناؤه (ابراهيم الذي يعنينا يتميز بأنه صنع بيده (أمهات) الحروف العربية للمطابع لأول مرة، وكانت مطابع الأقطار العربية قبله مستمرة في الطباعة بالحجر).

كتاب لغة الجرايد يرصد أخطاء المحررين في زمانه ـ أذكر منها، ١ ـ جمع زهرة عـلى زهور خـطأ، الصحيح أزهار وأزاهير ٢ ـ احتار كفعل ماض، خطأ، صحته حار ٣ ـ استلم خطأ، والصحيح تسلم، ولكن الاستلام هو التقبيل!..

نقاد

اذكروا ان الاهرام مثلاً في الثلاثينات قبل اعلان حرب ١٩٤٥/٣٩ كانت مؤلفة يومياً من ٢٠ صفحة، مخصص منها جزء كبير للأدب والتاريخ والعلوم والأبحاث السياسية...الخ، (وكنت أجد مراجعات لغوية في الأهرام والبلاغ اليومية) حفظت من لغويي تلك الأيام اسم الشيخ علي الجندي، رحمه الله، وكان من أساتذة دار العلوم (معهد عال للغة العربية وآدابها بالقاهرة، وكان مستقلاً، والآن يدار ككلية تابعة لجامعة القاهرة).

هؤلاء علموني والبقية تأتي

ان الذين علموني انما هم مئات أو آلاف ـ أكثرهم غبش ـ وما أقل الذين لقنوني أي علم أو أي حكمة ـ بطريقة احترافية مباشرة انني قد أرصد اليوم ـ أو فيما بعد ـ اسماء عشرات أو مئات كنت التقي بهم في حياتي اليومية. وأستفيد منهم عن طريق الحوار أو الاقتداء ـ والفئة التي اعنيها اعتبر كل افرادها «مستنيرين» أو «متفتحين» مع ان اكثرهم من ذوي التعليم القليل أو ممن فاتهم اي تعليم:

* هذه الاستنارة ـ او التفتح ـ كنت افترض وجودهما في أي مواطن «اقتنع بكروية الأرض، وكوكبية النظام الشمسي» ـ وهذا أولا قبل ان تتاح لنا جميعاً فرصة الاقتناع برحابة الكون.

* وكنت أولي ثقتي لكل مواطن يكلف نفسه مشقة الالتزام بقراءة الصحف ـ وبالتالي المناقشة في المواضيع العامة والسياسة.

فالاطلاع اليومي المتصل من خلال الصحف انما هو دليل وأي دليل على الاستنارة والتفتح.

* الشخصيات التي ابدأ بذكرها لا ينطبق عليهم ما سلف. بل هم متعلمون وعلماء ومعلمون.

جاء الخريف:

ان كتاب المطالعة للمدارس الأولية في أيامنا كان اسمه (التحف السودانية) ثلاثة اجزاء متدرجة ـ وقد اشترك في تأليف الكتاب أربعة مشايخ اجلاء رحمهم الله. ولكنني لا أكاد أذكر من كل الأجزاء الثلاثة وعشرات المواضيع، الا ثلاثة مواضيع:

١ ـ لوحة الجزء الأول أعدها مولانا الشيخ بابكر بدري ـ رحمه الله ـ كانت عبارة عن اسماء عشرات قبائل السودان (مع انتماءاتها العنصرية).. وقد قامت سلطة المدرسة باسترداد الكتاب منا بعد توزيعه (١٩٢٢) ثم انتزعوا لوحة القبائل السودانية.. وهذه الواقعة جعلتني أفكر مراراً وتكراراً في دلالاتها ومسبباتها..

٢ ـ قصيدة نظمها مولانا الشيخ بابكر بدري تتحدث عن زراعتنا التقليدية:

جاء الخريف وصبت الأمطار   والناس جمعاً للزراعة ساروا

هذا بمفرده وذاك بابنه   والكل في الحش السريع تباروا

بين البادية والحضر:

٣ ـ قصيدة حوارية بين احد الحضريين (و) أحد أعراب البادية أذكر منها:

يا أعرابي عيشكم جديب   يزوركم في كل ليل ذيب

* والقصيدة من نظم شيخ شعراء السودان عبدالله محمد عمر البنا ـ أمتعنا الله مزيداً من بركة وجوده ـ ولعل أكثر القراء لا يعرفون ان الشاعر الشيخ كان يقيم بالبادية ـ وكنت اتساءل، أهذا اختيار أم رفض، ـ أم وراثة و... وكنت ألاحظ ان زعماء عديدين ينتمون الى قبائل بدوية مثل الشكرية والبطاحين يقيمون بالمدن... وتساءلت هل شيخنا البنا ينحدر مباشرة من آباء بدويين؟

* سهرة لطيفة من اذاعة أمدرمان مع شباب بنائين ـ وبينهم منشدون ومغنون يسمى احدهم (الفرجوني) هذه السهرة في (شهر ربيع الأول ١٤٠٥هـ، ديسمبر ١٩٨٤م) قد أفادتني ان آل البناء لهم اقامة

ومصالح (اضافية) ببادية البطانة ـ وبعضهم موظفون كبار ـ وقد استمتع كاتب هذه السطور بدوباي بدوي «معاصر» على السنة الشباب الفنانين ـ به نكهة موروثة من عصر الحاردلو.

أبو الريش:

لا أكاد أذكر انني اطلعت على أي عدد من مجلة النهضة السودانية التي كان يحررها رائدنا المرحوم محمد عباس ابو الريش قبل اكثر من خمسين سنة (وأنوي أن استدرك):

ـ ولكن هل يمكن الا أكون تأثرت بحياة أبي الريش؟

* يبدو لي انه أول سوداني غامر في هذا الميدان، فان جريدة السودان ١٩٠٣ كانت تابعة لمؤسسة المقطم والمقتطف بالقاهرة وكان اصحابها لبنانيين مجندين لخدمة الاحتلال البريطاني و٢ ـ مجلة الرائد كان يحررها مدرس سوري هو الاستاذ قليلات و٣ ـ حضارة السودان أداة اعلامية رسمية، ووضع أسماء الزعماء الطائفيين الثلاثة عليها. كان يشبه وضع صورهم على فتايل الريحة!

* وحتى مغامرة محمد عباس ابو الريش في الطباعة التجارية (و) تجارة الكتب كانت رائدة (أغبش كان طموحه ثلاثيا بنفس الشكل وحاول كل المحاولات الثلاث، وحلم المكتبة بقي حتى الستينات ثم شاخ وتلاشى).

حضارة السودان:

لا يجوز لأي صحفي الا يعرف حسين محمد شريف ـ من أسرة المهدي وكان والده المرشح الرسمي لخلافة المهدي ـ بعد الخليفة الوحيد عبدالله ود تورشين، ولذلك حكم عليه الفاتحون بالقتل فالخلافة المهدوية لم يشأ صاحبها أن يجعلها وراثية ـ مع انه ترك ابناء راشدين ـ وأعطى الأولوية لود تورشين ـ للتعايش يتلوه ابن عمه محمد شريف، ويتلوه ود حلو الدغيمي، والرابع سنوسي من بنغازي عاصمة برقة بليبيا.

* لا أذكر أي نص للمرحوم حسين شريف، وسوف استدرك، ولكن عبارة «السودان للسودانيين» أثرت عنه، وليس مهماً كونها ابنة نفس حفرة «مصر للمصريين» التي روجها حزب الأمة المصري بزعامة باشوات السياسة المصرية قبل ١٩١٩ وهم ايضاً كانوا يتعاونون مع بريطانيا.

* على كل حال، كلمة «السودان للسودانيين» باقية سواء أكانت كلمة حق أريد بها باطل ـ أو غير ذلك.

علي عبداللطيف:

ان علي عبداللطيف «صحفي» وان كان جندياً ـ وقد سجن لمقال لم ينشر عام ١٩٢٣ ـ إذن فهو امام لنا في الصحافة الوطنية والسياسة .

* يعجبني بوجه خاص: أن المقالة الموؤودة كانت تتضمن «طالب عملية».

أحمد عثمان القاضي:

لقد قرأت حضارة السودان في عهد تحرير المرحوم الشيخ أحمد عثمان القاضي لها والشيخ يستحق قراءة وتحليلاً جديداً، وانا لا أذكر الا عنوان مقالته المستفيضة «كراع الأفندي»... ولكنني رأيت عم شيخ القاضي شخصياً.

* في المجلس الاستشاري لشمال السودان ١٩٤٨ كان المترجم هو المرحوم القاضي أبو رنات... وقد ترجم كلمة (تريد يونيونز) بكلمة (اتحادات تجارية).

وقد خرق كاتب هذه السطور النظام وقال من شرفة الصحافة (اتحادات مهنية) ـ وبسرعة خاطر قال شيخ أحمد عثمان القاضي (اتحادات حرفية) بتحريك الكلمة الأخيرة (وكان الصحيح نقابات والمراد نقابات

عمالية) ـ وكان هذا الكلام من طلائع التشريعات النقابية التي أعقبت انتفاضة عمال السكة الحديد ـ التي تزامنت مع حكومة آتلي العمالية ببريطانيا التي شجعت الحركة النقابية في الامبراطورية.

* كان الشيخ القاضي يحسن الحديث بالفصحى ارتجالاً ـ ويتحدث بها في حياته اليومية حتى مع الشحاذين بدكان هريدي بالمحطة الوسطى بأمدرمان حيث كان يدخن الشيشة ـ وكان من جلسائه عم المرحوم محمد طاهر أزرق مؤسس حزب تقدم السودان ـ الذي كان يطالب بتأخير الجلاء ـ وكان كلا الرجلين من مؤسسي حزب الأمة قبل ذلك. وعلى كل حال كانت أفكارهما متطابقة في الاعجاب بالانجليز ـ والعجيب ان عم شيخ القاضي كان صديقاً حميماً للأمير عمر طوسون باشا (من أسرة محمد علي)، ولكنه كان يولي السودان والسودانيين عناية خاصة وهو الذي تبنى مهمة البعثات الدراسية المبكرة لشخصيات سودانية مشهورة.

س.د. منديل:

عم المرحوم سليمان داود منديل ـ أعجبتني اجتهاداته في العشرينات والثلاثينات:

* ظللت أقرأ اسمه بصفته مستورداً على فوانيس الاضاءة بالكيروسين المصنوعة في ألمانيا (أوائل العشرينات).

* ثم قرأت اسمه في منتصف العشرينات على أول طبعة لراتب المهدي وكنا قبل ذلك نعلم ان مخطوطات الراتب ومنشورات المهدي ـ التي كان الانصار يحتفظون بها، كانت تصادر ويسجن حائزوها.

* ثم نشر عم سليمان داود منديل رحمه الله كتاب طبقات ود ضيف الله (لعل ذلك قبل ولادة صديقنا واستاذنا البروفيسور يوسف فضل)... الذي حقق مختلف المخطوطات وأخرج لنا طبعة منقحة ومشروحة لها ذيول.

* واصدر شيخنا سليمان داود منديل «الجريدة التجارية»، وبعد فترة ادمجت في حضارة السودان وسميت (ملتقى النهرين) ويبدو لي ان هذا الادماج قد حدث حينما استنفدت الحضارة أغراضها وصارت طريقة تحريرها «الرسمية» غير ملائمة ـ في الثلاثينات ـ.

* ان أغبش رغم اغرامه بالدوباي لا يكاد يحفظ منه الا مقطوعتين نشرتا بملتقى النهرين: (أولاهما) قبلية جعلية:

نحن أولاد قريش ما فينا واحدن خمله	نحن بنمشي في ضرب الرصاص والجله
نحن في يوم كتلة ود سعد عبدالله	زي فارس الاسود ما فينا واحدن ضله

(والثانية) نواسية سودانية عصرية:

يومن بالجراب والله ما معدوده	ويومن نعدم التعريفه دى المقدودة
يومن نشرب الكنياك مع البرموده	ويومن في ورد تام زينو ناخذ نوده!!

* أخبرني أحد أبناء العم سليمان منديل ان الحكومة اقنعته بعملية ادماج الجريدة التجارية في حضارة السودان واصدار (ملتقى النهرين) باغراء الاعلانات الحكومية التي لم تنلها في ذلك الوقت صحف الأفراد (النهضة، الفجر، السودان، النيل).

الفجر:

مجلة الفجر حركة فكرية ـ سياسية وأدبية ـ وقد عاصرتها واذا ساغ لي ألا اعتمد على ذاكرتي في الحديث عن الشعر والرومانسية فإنني لا أنسى أشياء معينة:

ـ مجادلة مع المصريين حول مستقبل السودان.

- مهاترة مع «مخالي القصير» وهده ترجمة كلمة كونتو مخالوص.
- مقالات احمد يوسف هاشم عن الطائفية.
- ظاهرة نشر مقال باللغة الانجليزية. وهو ترجمة للمقال الافتتاحي في جميع اعدادها.
- لا بد لي أن أعود لعرفات ولأحمد يوسف هاشم ولمحمد أحمد محجوب وآخرين.

كتابة العمود:

لفت نظري «العمود» وهو التعليق الذي يكتبه كاتب ما بانتظام في جريدة ما - أول ما لفتني في عمري هو عمود الاستاذ المغربي - الذي كان مدرساً بكلية غردون وكان يشارك في تحرير حضارة السودان ويتولى رئاسة تحريرها في حالات غياب المحرر المسؤول.

قد استعرض مواضيع أعمدة عبدالفتاح المغربي فيما بعد ولكنني اكتفي الآن بالاشارة الى عموده الذي اقترح فيه جمع القروش، قرشاً قرشاً، من الشعب من اجل اقامة ملجأ للأيتام يدربهم على الحرف والفنون والنتيجة كانت هذه المؤسسة التي نراها سامقة «معهد القرش بأمدرمان» ووجدنا فيه نواة لحرف كانت مهملة بالمدارس الصناعية الرسمية (التي قدمت خدمتها المشكورة في حرف النجارة والبناء والحدادة والبرادة والنقش - طلاء البويات والسباكة ولكنها اهملت حرفاً متقدمة مثل النسيج والصباغة وطباعة الأقمشة) ويمكن أن نسجل لمعهد القرش سابقات في الفن التجاري (الديكور) بل والموسيقى (مالك ومال الموسيقى يا سي أغبش؟).

ان الأستاذ المغربي زادنا الله من بركة بقائه بيننا كان قد اقتبس فكرة مؤسسة القرش من مشروع مماثل دعا له بمصر الزعيم السياسي فيما بعد - أحمد حسين رحمه الله - وقد أثمر مشروع قرش مصر «مصنع طرابيش» والطرابيش هي تلك الطاقية الحمراء البليدة التي انقرضت الآن بمصر. وكان من أواخر الناس الذين ظلوا يلبسونها بالسودان المرحوم خلف الله بك خالد والمرحوم محمد نورالدين، وكانت الطرابيش - التي هي زي تركي في الأساس - تستورد لمصر من النمسا.

عبدالفتاح المغربي - الذي تزوج من انجليزية - عوكست في الوسط الانجليزي بالخرطوم لريادتها في الزواج من سوداني - كتب بجريدة السودان استار بالخرطوم مقالة بالانجليزي في سنة ١٩٤٨م معلقاً على اختيار وزراء المجلس التنفيذي مع الجمعية التشريعية وهم المرحومون عبدالله خليل، وعبدالرحمن علي طه والدكتور علي بدري - زادنا الله من عطائه وبقائه - وجعل الاستاذ المغربي يتحدث عن انتصاراته الاكاديمية والرياضية في مدارس السودان وجامعة بيروت ومعهد ما ببريطانيا - وقال ان سجله يرشحه لكي يكون ملكاً وليس مجرد وزير!

(ترجم كاتب هذه السطور هذا المقال بجريدة السودان الجديد ومنذ تلك الأيام ظللنا نتعارف ونتبادل الحفاوة، وقد ظل استاذنا المغربي يقيم بقرية بري اللاماب حيث يدير مزرعة خاصة، ولكنني كنت التقي به احياناً في مبنى البريد الرئيسي بالخرطوم حيث لكلينا صندوق بريد خاص).

لا يخفى على القراء ان السيد/ عبدالفتاح المغربي كان أحد أعضاء مجلس السيادة الأول في مطلع الاستقلال.

عبدالرحمن أحمد:

كان مولانا المرحوم عبدالرحمن أحمد من رجال التعليم ثم انه كان يقوم بعمل اضافي في جريدة حضارة السودان، الى ان تركها واصدر جريدة (السودان) مرتين في الاسبوع أيضاً مثل الحضارة.

قد أرجع فيما بعد لاستشفاف التيار الذي كان يسري في مقالات عمنا المرحوم عبد الرحمن احمد، ولكن جريدته كان لها فضل في اثارة قضية «المراكز المقفولة» وهي الاقاليم التي كان الانجليز يقيدون فيها زيارات السودانيين الشماليين واقامتهم وتصرفاتهم (التجارة وتلقين الدين الاسلامي) ويبدو لي ان مقالات جريدة السودان كان لها دور في تأسيس جامع جوبا، وكان لهذه الحركة أصداء وتجاوبات في مصر، ربما بأقطار أخرى (احمد جمال الدين - مع غرابة وضع اسمه - وهو نجل شيخنا عبد الرحمن احمد وتلميذه الأول، وهو ينشر مذكراته ونستفيد منها ان شاء الله).

من هو طوبجي؟

اشتملت جريدة السودان التي ظهرت عام ١٩٣٤ على عمود تحت الكليشيه «في الهدف» بتوقيع «طوبجي» وترى ان العنوان والتوقيع كلاهما مبتكران، وكانت موضوعات العمود أيضاً مبتكرة وجريئة وأسلوبه شاب متساوق مع العصر...

ظل أغبش طوال أسابيع بعد صدور جريدة السودان، يسأل كل قادم من العاصمة: (من هو طوبجي؟)... استمر الأمر كذلك الى ان أجابني الأخ عبد القادر يس نابري المهندس (زادنا الله من بركة وجوده) بأن الطوبجي هو خضر حمد.

ظل خضر حمد مجرد اسم عندي الى ان ظهر اسمه بين اعضاء اللجنة الستينية لمؤتمر الخريجين، وحيث انني صرت سكرتير لجنة المؤتمر بالقضارف ٤٧/١٩٤٢، فقد تعرفت بالمرحوم خضر حمد ورشحني لمقابلته أستاذنا المرحوم ابراهيم يوسف سليمان - فهما من مؤسسي ندوة قراءة أبي روف السياسية - وقد أكرمني الأستاذ الخضر بحفل شاي بمنزله، وظلت المودة متجاوبة واعترف أن انتقاده الشفهي لي في سنة ١٩٤٥ حفزني لترك شراكة مؤسسة كردفان الصحفية والطباعية، ثم انتقد طغيان نفوذ الشيوعيين بجريدتي - الصراحة - في الخمسينات.

تولى خضر حمد الوزارة وكان له دور في توحيد الحزب الوطني الاتحادي وفي سنواته الأخيرة كان عضو مجلس السيادة - وقد ترك مذكرات سياسية هي أوسع مثيلاتها من مخلفات الزعماء السياسيين السودانيين (رحمه الله).

حيدر موسى:

لفت نظري بجريدة السودان في منتصف الثلاثينات عمود المرحوم حيدر موسى - رحمه الله - وكان شاباً متفتحاً من أبناء مدينة الخرطوم (عموم) وقد ارجع فيما بعد لالقاء نظرة على مواضيع عواميده مع عواميد غيره، ولكن عمود حيدر كان له دور في شهرة كاتب هذه السطور ككاتب اقليمي منذ سنة ١٩٣٥م.

قرات بمجلة الهلال الشهرية القاهرية اذ ذاك مقالة بقلم الأستاذ محمد حسين هيكل، محرر جريدة السياسة الناطقة بلسان حزب الأحرار الدستوريين.

كان المقال عبارة عن اجترار لذكريات الكاتب عندما زار السودان - بمناسبة افتتاح خزان سنار في أواخر العشرينات - زاره مع وزير الاشغال المصري في وزارة «اليد الحديدية» وزارة محمد محمود باشا الذي وقع مع بريطانيا اتفاقية مياه النيل ١٩٢٩. مما ذكره هيكل ان الباخرة بمنطقة حلفا مرت على قرية كان بعض سكانها من «عبيد تلك المنطقة» يستحمون عرايا في النهر (تقريباً).

واختار اغبش ان يرسل مقالة لعمود حيدر بجريدة السودان. وقد نشره وعلق عليه. (وفيما بعد ذكرت الجريدة انها تلقت تعليقات كثيرة في الموضوع واختارت قفل الباب).

مجموعة ثانية من هؤلاء علموني

يبدو لي أن الكتب التي ألفها سودانيون - أو نشرت بالسودان - كانت قليلة جداً قبل حرب ١٩٤٥/٣٩.

* كتاب أعراس ومآتم. سمعت عنه ولم أره.

* فرحت بسرقتي - وعمري ١٣ سنة - لكتاب شعراء السودان الذي جمعه الأستاذ سعد ميخائيل.

* اقتنيت كتاب طبقات ود ضيف الله (من التراث).

* راتب المهدي - أثر اسلامي لا تطغى عليه الصفة المحلية - وهذا ينطبق على دواوين وكتب الختمية وبعضها قد صنف بالسودان - وتوجد كتب صوفيين آخرين مثل المجاذيب. وسمانية أم مرح. وطابت. لم أطلع عليها.

* ترجمة السيد محمد عثمان الميرغني، تأليف الخليفة يوسف سليمان (والد أستاذنا ابراهيم) كتاب جيد من حيث الترتيب والتنسيق في موضوعه (اطلعت عليه عام ١٩٢٩).

* كتب محمود عزت المفتي - المصري اللاجيء بالسودان في أوائل الثلاثينات هي مثل أمثالها من مؤلفات المصريين (كتابة المضحكات. مثلاً) ولكن الدواوين التي جمع فيها الأغاني السودانية التي تعرف الآن باسم أغاني الحقيبة - كانت مجهوداً عظيماً وهي ٧ أجزاء. أين هي الآن؟

* كتاب (نفثات اليراع) للمؤرخ محمد عبدالرحيم - لم أره - ويقول الناقدون ان مؤلفه الحقيقي كان الشاعر التجاني يوسف بشير، وقد نحله برضاه للاستاذ محمد عبدالرحيم، إبان صدور مجلة (أم درمان) المتخصصة في التاريخ وكان يملكها الشيخ (رحم الله الشيخ المؤرخ وسكرتيره الشاعر الفذ)... في منتصف الخمسينات اكرمني العم محمد عبدالرحيم بزيارات في جريدة الصراحة. وعدة مقالات. وكان أسلوبه غير متعثر. وهو شديد الولاء للمهدي محمد أحمد - وقد كتب ذكرياته عن عهد المهدية وعن عشرات السنين التي عاشها تحت الحكم الثنائي.

* ذكرت من قبل كتاب المطالعة - التحفة السودانية - بأجزائه الثلاثة. وأغبش في المدرسة الأولية لم ير أي كتاب مدرسي سوى كتاب الدين (من جزئين) وكان مؤلفه أحمد أمين (وقد رجحت انه الأستاذ أحمد أمين العلامة المصري. كاتب الفلسفة. وعلم الأخلاق. وفجر الاسلام وضحاه وظهره. ومحرر مجلة الثقافة...الخ).

* اطلعت في أواخر العشرينات على أحد كتيبات الأديب المناضل حمزة الملك طنبل (صديقي فيما بعد). وقد نشرت له بجريدة الصراحة في منتصف الخمسينات عديد المقالات - وجالسته كثيراً وأهداني مؤلفاته بأحجامها الصغيرة. ويقرب عددها من عشرة كتيبات. وكان يجب أن أراجعها وأكتب عنها ولم أفعل - وهذا العقوق في أيام اللهو يؤذي شيخوختي الآن - رحمه الله.

* كتاب ضاحك اسمه (نكتوت) مكتوب بلهجة سودانية - ومؤلفه مصري - رأيت الرفاق (١٩٢٦) يقرأونه ويضحكون - وأظن أن صديقي الطيب محمد الطيب قد أشار الى الكتاب المذكور في أحد فصوله بجريدة الأيام في السنوات الأخيرة.

أسفار محمد عثمان ميرغني:

لا بد أن أتحدث عن هذا الكتاب الذي ألفه أستاذنا المرحوم محمد عثمان ميرغني شكاك - وقد حصلت عليه عام ١٩٣٢ تقريباً - تحدث فيه عن رحلته الى نيجيريا - مروراً ببريطانيا - وكان قد ذهب للتدريس هناك (وزامله شيخنا المرحوم البشير الريح)...

امتاز أسلوب الأستاذ شكاك في الكتاب المذكور ببساطة شديدة أغرتني بترجمته الى الانجليزية (ليس

للنشر بالطبع. وانما لمجرد التدريب في دراستي لتلك اللغة).

وقد أحببت الأستاذ شكاك، الذي تولى رئاسة تحرير جريدة المؤتمر الاسبوعية التي كان يصدرها مؤتمر الخريجين بأمدرمان - وكنت رأيت هذه الجريدة عام ١٩٤٢ بعد ان نجحت مبادرتي في تكوين لجنة المؤتمر بالقضارف.

* وكان الأستاذ محمد عثمان ميرغني شكاك مدرساً وقد تخصص - ربما بعد عودته من رحلاته الخارجية - بتدريس (المواد التجارية) والعجيب ان هذا الموضوع من المواضيع التي كان مضنوناً بها من الانجليز على السودانيين!

* لذا كان محمد عثمان ميرغني شكاك رائداً في كتابة المواضيع الاقتصادية بالصحف - كما أنه كان من المسؤولين عن الدراسات الاقتصادية في المركز العام لمؤتمر الخريجين بأمدرمان - ويذكر القراء أن المؤتمر كان قد تبنى (نهضة اقتصادية) تجسمت في تكوين شركة السينما السودانية المساهمة. التي اشترى أسهمها (ناس غبش) مع التجار - وجمع الأخيرون أسهم الغبش!

* للقارىء أن يتعجب اذ أنه في تلك الأيام (١٩٤٢ أو العامين التاليين) كتب عبدالله رجب مقالاً يدعو فيه الى اقامة (بنك السودان) اقتداء ببنك مصر. وطلعت حرب باشا - وبالتالي تجميع المدخرات السودانية والتصنيع.. وقد علق أستاذنا المرحوم محمد عثمان ميرغني شكاك على هذا الاقتراح على صفحات جريدة المؤتمر.

* ذهب أستاذنا المرحوم لعضوية حزب الأمة - وصار أمياً - رحمه الله.

دخول العرب للسودان:

في سنة ١٩٣٣ ترجم منصور علي حسيب الطالب بكلية الطب إذ ذاك - محاضرة كان قد ألقاها السير هارولد ماكمايكل - السكرتير الاداري لحكومة السودان - وموضوعها (دخول العرب الى السودان) ونشر الطالب منصور علي حسيب نص الترجمة في كتيب. وبناء على خبر بالصحف طلبت منه الكتيب - وقد أرسلت القيمة بالبريد - ووصلتني المحاضرة. واستفدت منها. وما لبث أن جاءنا الدكتور منصور طبيباً بمستشفى سنجة في سنة ١٩٣٥. وتذاكرنا قصة ترجمته للمحاضرة وكتابتي له وكنت قد تسلمت منه خطاباً طويلاً - وليس مجرد ايصال عن بيع الكتاب - واتصل الود بيني وبين البروفسور منصور علي حسيب العميد الأسبق لكلية طب جامعة الخرطوم رحمه الله. لأكثر من ثلاثين سنة.

• (فيما بعد اطلعت على نص انجليزي لدراسة ماكمايكل عن السودانيين القدماء - وترجمته - كما أن كتاب هذا الرجل الاستعماري عن (السودان الانجليزي المصري) سوف تأتي سيرته في هذه المذكرات. ولا يخفى أن ماكمايكل هو مؤسس سياسة حكومة السودان بعد انتفاضات مصر والسودان ١٩/ ١٩٢٥.

علم الفلك الحديث:

اهتممت منذ أوائل الثلاثينات بعلم الفلك الحديث ابتداء من خلاصة نظريات .(أ) كوبرنيكوس و(ب) كبلر - و - (ج) قاليلو و(د) نيوتن (وأخيراً نتائج أعمال اينشتاين والفلكيين التالين) وقد استفدت على الخصوص في فترة الثلاثينات من مجلة المقتطف الشهرية التي كانت تصدر بمصر. وبعض الكتب التي أصدرتها إدارة المجلة.

* اهتممت بالفلكي السوداني المرحوم الريح العيدروس - وكان يكتب في الموضوع بصحف الثلاثينات بأسلوب غير معقد.

نجم نهاراً بالخرطوم!

اذكر أن المرحوم الريح العيدروس قد كتب عن نجم ذي ذنب ظهر في سماء الخرطوم نهاراً في أحد أيام الثلاثينات. وعلى حد تعبيره (كان كأنه بالون مسير) وسوف أراجع هذه القصة فيما بعد.

* حاولت أن أدرس علم الفلك الحديث عن طريق مؤسسة كانت تعلن عن نفسها باسم (جمعية علماء الفلك) بمدينة المنصورة بمصر... وفكرت في اقتناء تلسكوب! ـ وهذه القصة سوف تأتي أيضاً.

* اطلعت على التقويم السنوي الذي أصدره الأستاذ الريح العيدروس ـ رحمه الله ـ وكان عملاً راقياً ولكنني لم أر سوى طبعة عام مفرد، فهل كانت هي الوحيدة؟

* أظن أن أستاذنا الريح العيدروس قد ترك بعده أعمالاً لم تنشر. فحبذا لو اهتم بالأمر القسم المختص بجامعة الخرطوم.

مرآة السودان:

انني مهتم بوجه خاص (بالصحفيين والأدباء الجلابة) وأذكر منهم المرحوم محمد السيد السواكني (شريك المرحوم عبد الرحمن أحمد في ادارة جريدة السودان) والمرحوم سليمان سليمان كشه (مكرر اسم والده لوفاته قبل ولادته) والمرحوم محمد أحمد السلمابي والمرحوم ابراهيم العبادي والأصدقاء الكردفانيين عبدالرحمن أحمد سعد والفاتح أحمد النور والمرحوم محمد عوض الكريم القرشي (وسيأتي ذكر آخرين لدى مراجعة صحف الثلاثينات والأربعينات والخمسينات ان شاء الله).

* يهمني الآن الأخ سليمان كشه الذي أصدر في الثلاثينات مجلة أدبية ـ والمذكور كانت له علاقة بتحركات ١٩٢٤.

* عرفت الأخ سليمان كشه على مستوى شخصي لعلاقتنا المشتركة بالقضارف. وفي الثلاثينات جاء بفناني الحقيبة الى القضارف لاقامة ليال غنائية (عمر محمد البنا والمرحوم كرومة وآخرين).

* حاول في الأربعينات ـ بسبب ظروف الحرب ـ الاثراء من صناعة الصابون بالقضارف وكذلك فعل كاتب هذه السطور بالشراكة مع المرحوم السلمابي ـ ولم ينجحوا!..

* عمل سليمان كشه بجريدة النيل. وقد هنأني على عملي بجريدة السودان الجديد ١٩٤٧ وأثنى على صديقي وأستاذي المرحوم أحمد يوسف هاشم ووصفه بكلمة (ود بلد).

* وقدم المرحوم سليمان كشه في آخر حياته خدمة عظيمة للتاريخ الأدبي بإعادة نشر نصوص من الأدب المنسي، وخصوصاً شعر المقلين المبكرين.

* هل يتصور القارىء أن صديقنا دفع الله عبدالرؤوف ـ الذي أفنى عمره في قسم المطبوعات بمصلحة المخازن والأسلحة ـ التي كانت مسؤولة عن الصحافة هل تتصورون ان هذا البيروقراطي المتقاعد كان شاعراً؟ (معليش يا ابن الخال ـ دفع الله أفندي).

* قد احتوت نصوص سليمان كشه المعادة على قصيدة رقيقة للأستاذ دفع الله عبدالرؤوف.

مخبر الدرجة الرابعة!

في النصف الأول من الثلاثينات ظللت أقرأ في جريدة البلاغ القاهرية ـ وهي يومية كانت وفدية ولها عدد أسبوعي أدبي ـ رسائل من مدينة شندي بامضاء يحيى محمد عبدالقادر (نفسه. قريب برينر ـ ومحرر مجلة السينما).

وقد هوجم يحيى محمد عبدالقادر في مجلة الفجر ـ مجلة الانتليجنسيا ـ إزاء رسائله الى جريدة البلاغ

وقالوا عنه انه يجمع أخباره من ركاب الدرجة الرابعة بقطار السكة الحديد عند مروره على محطة شندي (يمكن للأستاذ يحيى تفصيل القصة).

* عرفت يحيى فيما بعد محرراً بجريدة النيل. ومراسلاً لجريدة الأهرام. وصاحب امتياز المستقبل والأنباء ومحرر (السوداني) التي أخذ امتيازها شاب غامض من أبناء التجار بواد مدني.

* لا تصدقوا من قال ان يحيى كان بائع رغيف ـ فهو قد ظل متعهداً فقط بإمداد الخبـز الى منزله بالخرطوم بحري.

* لماذا كنا نرى يحيى ممتطياً التاكسي كل يوم؟ انه كان يهرب فقط من عصابات الضـرب لحساب الجهات السياسية (والبقية تأتي).

المبارك ابراهيم:

من أقدم أدباء أمدرمان ـ وقيل انه بدأ حياته مستخدماً بمكتبة كانت توزع الكتب المسيحية وهي تابعة لاحدى جماعات التبشير الأجنبي (وفي تلك الأيام كان يجالسه عبقري السودان المرحوم التجـاني يوسف بشير).

* عرفت المبارك ابراهيم في الثلاثينات وأوائل الأربعينات بالنيل ثم بدار الاذاعة كان يعـرف الأدب السوداني كله ـ بالفصحى والعامية ـ وعلمه وفير بالأدب العربي على وجه العموم. وكانت له دراسة لغوية. وقد شارك أحد الأكاديميين العرب في مراجعة الدوباي الموروث (الحاردلو ود ابوسن وود الفراش) وكان قد سجل اسطوانات غنائية بصوته غير الحنون في أواخر العشرينات. أيام ناس بشير الرباطابي.. ويذكر له فضل في حفظ تسجيلات الحقيبة بالاذاعة.

* لم يكن المبارك ابراهيم من الخائضين في المعارك السياسية.. وما أظنه انتقد شيئاً سوى الترام. الذي أطلق عليه لقب (المركب الصعب)... خلفه في انتقاد المواصلات (فقط لا غير) صديقي وتلميذي الشاعر ابراهيم عوض بشير!

أديب صحفي:

عمل بالنيل في أوائل الأربعينات المرحوم الهادي العمرابي ـ وكان شاعراً وأديباً ـ وقد نزح الى مصر في منتصف الأربعينات فلم يوفق، وعاد مريضاً. ومات في الخمسينات رحمه الله.

الصحفيون الوافدون:

انني لا أريد هنا أن أرصد الصحفيين الوافدين الشوام في أوائل القرن (ولا النوبيين اليساريين في منتصفه).

ولكنني أريد للقراء أن يتعجبوا من أن أحمد يوسف هاشم (رحمه الله) كان تقريباً أول الصحفيين الوافدين في الأربعينات ـ كيف كان ذلك؟!.

المكاتبات الاخوانية مدرسة جذابة

سمعنا اذاعة لندن ١٩٣٣ بواد مدني

اقتضت استراتيجية هذا الكتاب أن أقوم بحركة التفاف واسعة قبل ان أصل الى «أبي الصحف» الأخ المرحوم أحمد يوسف هاشم والقضية المستهدفة هي فن الانشاء. ونصيبي منه على ضوء تفوقات المتفوقين:

اكتب خطاباً لوالدك:

لم يقصر أستاذنا المرحوم/ ابراهيم عبدالله كليب أستاذ «العربي» بالسنة الرابعة من مدرسة سنجة الأولية ١٩٢٥م في تدريبنا على كتابة الخطابات العادية وتلقينا العناوين مثل والدي العزيز. وصديقي الكريم. والاستاذ المحترم «والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

والسؤال عن صحتكم الغالية التي هي غاية المراد من رب العباد.

وكما ذكرت من قبل انني طلبت من القاهرة كتاباً يدربك على كتابة الخطابات بالأسلوب الذي كان سائداً بالقطر المصري في القرن الماضي هكذا كان شأن الكتاب الذي وصلني وما كنت أظنه كذلك:

ما حاجة أغبش أفندي الصغير الى القاب الأعيان بالأسلوب التركي، مثل دولتلو ـ لرئيس الوزراء ـ ومعاليك. للوزير وسعادتلو للسفير، وفضيلتلو للفقيه أو القاضي ونيافتلو للمطران مع اضافة «حضرتلري» مثلاً أيها القارىء أنت فخامتو حضرتو..

وأفادني كتاب «جواهر الأدب» أن المعاني ملقاة على قارعة الطريق ويلزمك فقط ان تلقن نفسك الألفاظ ثم أرشدني الى أن «حل الشعر» هو أحسن تدريب على فن انشاء النثر (ليس «حل شعر السيدات» فالمقصود الشعر بكسر الشين).

وجربت حل الشعر، فكدت أذهب الى البوليس كي اسجل بلاغاً ضد اغبش لأنه ارتكب جريمة اختيار أبيات من الشعر الغربي الرقيق ثم حولها الى كلام ركيك ـ غير موزون ولا مقفى وأؤكد ان نتاج جريمتي كان اكثر تفاهة ورداءة من نماذج نظم حديث غير منظوم ولا منتظم تنشره الصحف (حتى هنا بالسودان) بدعوى أنه من الشعر الذي سبق تلقيننا إزاءه ان من البيان لسحر، وان من الشعر لحكمه!..

على انني برغم ارتكاب جريمة الركاكة لا استطيع الا أن أحمد فكرة امكان تعلم الانشاء النثري من خلال الترجمة أنت هنا لا تبحث فقط عن الألفاظ بل أيضاً عن «المعاني» التي من الخطل القول بأنها ملقاة على قارعة الطريق؟

بدوح ٨٦٤٢:

حرص أغبش في بداية حياته على مكاتبة الأهل، وهاكم عنوان جدنا أخي جدتنا من ناحية أمها وهم جعليون من التراجمة بمنطقة شندي ولكنهم قبل ٥٠/ ٦٠ سنة كان عنوانهم كالآتي: (رفاعة، المحترم الخواجة سركيس، ومن فضله للحاج السماني ومن فضله الى جدنا ابراهيم ود نويرى بحلة عد الغباش ٩ بدوح ٨٦٤٢)!

وكنت أكتب الى أسرة والدي بسنار التقاطع حسن ابراهيم الأمين واخوانه (و) أحمد ابراهيم عرابي (حفيد الثائر أحمد عرابي باشا ـ ووالده المباشر ابراهيم بك عرابي الذي كان بالسودان.. وتزوج ابنة عمنا) والمذكور وردت الاشارة اليه في مذكرات الرئيس المصري الراحل محمد نجيب التي نشرها في ١٩٨٤م بعد وفاته الصحفي عادل حمودة بالقاهرة.

وكانت خطاباتي لسنار تسجيل سلامي لاخواتنا فاطمة وخديجة وأبنائنا أحمد والعطا وبناتنا أمنة وست أبوها وضوة وعمتنا أم السعد وابنها سيد بسيوني.

يا أغبش... يا قمر:

ولكن خالي المرحوم الشيخ يوسف دفع الله شرف الدين من قدماء رجال التعليم الأولى بـواد مدني والمناقل فقد رد على أحد خطاباتي بتسجيل بيت شعر مأثور: لما رأيت من الهلال نموه. أيقنت انه سيكون بدراً كاملاً.

لذا فان أغبش سنة ١٩٢٨ يعتقد أنه قمر شكلاً وموضوعاً وهل يخفي القمر؟!

يامه القمر عالباب... ولع أناديلو... يامه افتحي لو الباب.. ولا أناديلو يامه.

أغبش أنصاري:

وكتب أغبش الى الخال أبي بكر المليك ولا أذكر نقطة شاذة الا ان ابنه الدكتور صلاح الدين كان بعطبره وقد نشرت له جريدة النيل في مناسبة ما خطبة حفاوة بالسيد عبدالرحمن المهدي رحمه الله فانتهز أغبش الفرصة وكتب لصلاح متحمساً في الاشادة بالمهدي باشا وجاء الرد ولكن بعد معاركة (الصراحة) قال صلاح لكاتب هذه السطور انك كنت انصارياً.

لمَ لا؟ اننا كلنا إزاء يوم ٢٦ يناير ١٨٨٥م (أساساً) ولكنني على الاقل لم اكن من انصار حزب الأمة.

بروتين من الفيران:

أخي المرحوم عبدالقادر احمد دفع الله (لا أجد مثيلاً له في نفسي ولا بين كافة الأهل والأصدقاء في مودته وإحساسه بواجب صلة الأرحام ـ رحمه الله).

قد لا أكون بدأته بالكتابة فهو الأحرى بالمبادأة من كل وجه، وعلى كل حال ظللنا نتكاتب ومن اقدم معلوماتي عن الجنوب الذي لم ننفك نعطف عليه برغم عقوق بعض المتاجرين باسمه معلومة «مرض النوم» هذا المرض الذي أفادتنا دروس الصحة العامة بالمدرسة أنه وباء قاتل تنقله ذبابة (التسي تسي) وهذا قبل ان أرى منطقة الزاندي (١٩٥٣) ونرى هذا القبيل العظيم الذي تشكل (حقيقة الموت) أسلوب حياته والموت (من خلال مرض النوم) قد قام في الماضي بعملية الانتخاب الطبيعي لقوميـة الزاندي ثم انقـرضت جميع الحيـوانات المتوحشة والمستأنسة بالمنطقة.

في مثل هذه الظروف يؤكل أي بروتين ولكن عبدالقادر أحمد دفع الله (ضابط الصحة بإحدى محطات الجنوب في الثلاثينات) كان قد أذهلته المفاجأة حينما اشترى له الطباخ زوج فيران بدل زوج أرانب وقد تغذى فعلاً ولم يحس بالكارثة الا في النهاية ولذلك تقيأ ومن هنا ندرك ان القيء له أسبابه الايحائية قبل الكيمائية.

هذا مضمون أحد خطابات الأخ عبدالقادر رحمه الله.

سمعنا الاذاعة في الثلاثينات:

وعبدالقادر كتب لي في ١٩٢٣ بانه يستمتع بسماع الموسيقى في كل مساء من جهاز راديو بواد مدني وكان هذا خبراً غريباً عندي فاننا قد سمعنا (عن الراديو) ولكننا لم نره ولم نسمعه.

كان عبدالقادر يذهب الى سوق واد مدني ويجلس على الأرض أمام بناية جلاتلي هنكي وكانت من طابقين ومدير الشركة وهو انجليزي كان يسكن بالدور الأعلى ويستمع الى محطة لندن في المساء وقد أتيح لي ان أحضر الى واد مدني في تلك الأيام حيث شاركت الأخ عبدالقادر في الاستماع الى موسيقى ثم الى كلام باللغة الانجليزية

واخذ أغبش فكرة عن الاذاعة إذاعة القاهرة دشنت ١٩٣٤م أما اذاعة أمدرمان فقد صارت مسموعة في سنة ١٩٤٠م وسنتابع قصة الاذاعات فيما بعد.

أثمن صداقاتي:

ان اثمن صداقة أتيحت لاغبش أفندي إنما هي صداقته بالأخ المرحوم الخليفة الطيب عبدالحفيظ (شايقي شلخ طويل عريض أصفر اللون لقبته رئيسة فتيات تنظيف الصمغ بالسوكي في سنة ١٩٣٢ شاي العصر!) كان عمره حوالي ٤٠ سنة بينما كان سن أغبش ١٧ وقد استضيف حينما أتى الى السوكي لأول مرة بمحل العم المرحوم الحاج فضل الله احمد زعيم الجلابة الناوحين من قرية الشمباته بمنطقة سنار (وكان المذكور جارنا وابانا)..

وقد تعرف أغبش بالخليفة الشايقي الذي يقرأ راتب الأنوار المتراكمة وصلاة فتح الرسول وكلاهما من مأثورات الختم محمد عثمان الميرغني مؤسس الطريقة الختمية (لمنفعة الشباب السيد علي وأخوه السيد أحمد هما حفيدأ الحسن أب جلابيه نزيل كسلا والأخير ابن الختم الذي نشأ بمكة واشتهر بالسودان).

كان الأخ الطيب رحمه الله على مودة شخصية بالسيدين محمد عثمان والحسن نجلي السيد أحمد أخي السيد علي والسيد احمد مدفون بكسلا.

اتصل الاجتماع اليومي والنقاش بالسوكي بين الطيب واغبش (وكان الطيب قد جاء وكيلاً لشركة جيمس لينق التي كانت متخصصة في تصدير الصمغ) وكان من مهام الوكيل الاشراف على اشغال تنظيف الصمغ بواسطة الفتيات وكان أغبش يحسن تقديم العون في هذه الشؤون.

لما عاد الطيب الى القضارف جرت المكاتبات بينه وبين أغبش وبخلاف تبادل الأنباء التجارية والاجتماعية (والقطيعة) الخفيفة كانت الخطابات المتبادلة تواصل المناقشات السياسية والدينية والأدبية.

وبفضل الطيب تعرف أغبش الى السادة عوض بشير واخوانه وأولادهم والى المشائخ آل أبي سن مجموعة القضارف وخليفة محجوب منذ ان كان كاتباً بيروقراطياً فيما صار زعيماً إدارياً واقتصادياً وانقلب من تأييد الختمية المنفتحين شمالاً الى تأييد زعماء حزب الأمة المنكفئين.

وتعرف أغبش بالأستاذ الريفي وإخوانه وبالسادة آل كشه والسواكني والمرحوم احمد حامد موسى من مشايخه المتمة.

كل المشار اليهم جرت بينهم وبين أغبش بفضل الطيب مكاتبات ومودات وقبل المشاهدة والخطاب كما يقول المثل السائر انما هو نصف المشاهدة.

وتعرف اغبش الى أربعة اجيال من آل عبدالحفيظ وصار أغبش نفسه واحداً منهم وهذا ينطبق على آل الحاج عثمان وآل الخليفة طه اسرة الريفي.

لا حاجة الى القول بأن العلاقات المشار اليها قد أثمرت مصالح وتجارب ومعارف لا بد ان تأتي لمسات عنها في الحلقات التالية.

وعلاقة اغبش بالسادة بشير اخوان قد أوجدت له مصالح تجارية بل جعلت محاولاته الصحفية ممكنة في الأربعينات.

رسائل اغبش مع الطيب قد ساعدت كاتب هذه السطور على التعرف على الحرب الايطالية ضد الحبشة في منتصف الثلاثينات ومعلوماتي عن اريتريا في تلك الفترة كانت كلها مستمدة من الأخ الطيب عبدالحفيظ.

والطيب كان متخصصاً في المنطقة الحبشية قوندار قلابات المتاخمة للسودان من ناحية القضارف حيث أقام بها كتاجر سنوات طويلة ثم انتقل الى كسلا وعاصر العدوان الايطالي.

وبفضل الطيب عرف أغبش تجار القلابات وقدامى موظفي الجمارك مثل الشيخ عمر حمزة مرشح الوطن الاتحادي ببحري وهل يخفى القمر.

ومودة الطيب كانت تتيح لي التعارف بأنماط من الناس وربطني بهم مثل المرحوم عثمان ابراهيم الزاكي والمرحوم محمد علي الملك الأخير هو والد البروفيسور علي الملك وكان من رجال الشريعة.

السنجاويون:

بالنسبة للأخوة السنجاويين أتيحت لي مكاتبات أهمها مع الأخ الأستاذ احمد خير المحامي الآن وكان في الثلاثينات موظفاً وباحثاً سياسياً وكان صاحب فكرة مؤتمر الخريجين ١٩٣٨م ودخل في الاربعينات مدرسة الحقوق التي كانت مستحدثة وحينما تخرج اشتغل بالسياسة اكثر وذهب مع وفد السودان ١٩٤٦م الى مصر والتحق بصحيفة وفدية يومية هي صوت الأمة حيث عاشر الكاتب المصري الراحل محمد مندور وكان ناقداً أدبياً ومفكراً سياسياً أقرب لليسار ومكاتباتي مع أحمد خير توقفت في الأربعينات ولكنني تعلمت منها كثيراً كما لا احتاج ان اقول مكاتباتي مع كل من الأخ حسن نجيلة والأخ احمد محمد علي السنجاوي كانت قليلة ولكنني تعلمت منها أشياء كثيرة في اللقاءات.

سنجاوي عرفني بجمهرة من رواد نادي الخريجين بأمدرمان وأذكر أنه كتب لي في سنة ١٩٤١ عن مجيء عباس محمود العقاد الى بلادنا وصلني الخطاب في داخل اريتريا بواسطة الأخ الريفي وكان معنوناً في الأصل الى القضارف وكنت في تلك الأيام مفلساً فرددت عليه بقولي ان العقاد يشبه شيكاً قيمته مليون جنيه لا تكفي الاموال الموجودة بأحد بنوككم بأمدرمان لصرفه.

هل يمكنك ان تقترح أسخف من هذا الكلام؟!

أما حسن نجيلة فقد كان مستشاري الذي اطلعته على العديد من مقالاتي المبكرة قبل ارسالها الى صحافة الخرطوم وقد أفادني مرة عن التصنيف النحوي لكلمة أفاطم في مثل بيت الهمداني المشهور أفاطم لو شهدت ببطن خبت افادني انه يسمى الترخيم وكنت خالي ذهن عن ذلك.

وقرأت عليه صفحات كثيرة من كتاب هامش السيرة لطه حسين كي يحكي على طريقتي في المطالعة أو الإلقاء.

أما صديقي محمد علي يوسف الفلاتي فقد كانت علاقاتي به اوثق وقد بقي في سنجة شهوراً عديدة في انتظار فرصة عمل وكان يكرمني بالبقاء معي في الدكان جملة ساعات في كل يوم واستفدت منه على الخصوص في دراستي الانجليزية وبالنسبة للعربية دهش الفلاتي الشاب من انكبابي على قراءة الأدب العلمي فلك واستكشافات جغرافية وكيميائية ...الخ.

ورأيت عند الفلاتي ديوان شعر علي محمود طه المهندس وكان متحمساً له جداً في تلك الأيام من عام ١٩٣٦/٣٥م حيث اشهر واشتهرت أغنية الجندول فلماذا لا أرى لك شعراً الآن يا صديقي محمد علي؟!.

وقد أدركت تخلف منهج التاريخ بالكلية لاحتفال الأخ محمد علي بكتاب معين يرتفع الى السماء بالملك الانجليزي ريكاردو قلب الأسد بدون اي ذكر لصلاح الدين ولحسن الحظ فان كتاب التاريخ بالصحف المصرية كانوا يكملون لنا مثل هذا النقص.

لم ينته بعد:

ان الكلام عن اصدقائي السنجاويين لم يكتمل بعد وسيأتي الكلام عن الكردفانيين وستأتي مفاجآت أخرى.

أحمد يوسف هاشم بالبزة العسكرية
كيف فهم أغبش نظرية الري بالجاذبية؟
ماذا تعرف عن صالون الفول، وأهل المواقف ودرج السفاسف؟؟

في أواخر العشرينات قرأت حكاية تقول ان رجلاً انجليزياً ظل يوالي ارسال الرسائل الى جريدة التايمز طوال عدة سنوات، دون أن تنشر له أية رسالة. ولما نشروا له واحدة فقط، توقف عن مكاتبة تلك الجريدة واعتبر نفسه قد نال مؤهلات التحرير الصحفي. وجعل يوزع رسائله على الصحف يميناً ويساراً وظل يظفر بالقبول.

أول رسالة نشرت للمدعو أغبش كانت عام ١٩٢٩ بمجلة الدنيا المصورة التي تصدر عن دار الهلال بالقاهرة وكانت الرسالة عبارة عن شكوى ضد إحدى المكتبات، وقد سبق إيرادها في فصل مبكر من هذا الكتاب.

ويبدو ان أغبش قد مارس طريقة ذلك الانجليزي الصبور (مع التايمز) مارسها أغبشكم مع حضارة السودان في عهد محررها المرحوم الشيخ أحمد عثمان القاضي.

الاداري الحازم:

كان عمنا المرحوم عازر ويصا أبو جيمي (والد فتحي وثابت وفكري) يبعث برسائله من سنجة الى جريدة حضارة السودان. وكانت رسائله في الغالب تتحدث عن تحركات الإداري الحازم (المفتش أو المأمور) والنطاس البارع (الطبيب الشامي).

وكنت أقابل عم عازر باحترام، وأنهض واقفا إذا زار المحل الذي كنت أعمل فيه لفترة ما.. (الاشارة هنا الى محل المرحوم ميشيل بخاش وهو تاجر سوري من حلب وكان يعمل به صديقنا المرحوم يعقوب ميخائيل، وهو صهر عم عازر والأخ يعقوب كان أديبا، ويجد متعة في اسماعي قصائد كتاب جواهر الأدب قصائد عنترة والسموأل وصفي الدين الحلي، والامام الشافعي، وقصيدة (ودعته وبودي لو يودعني ـ صفو الحياة واني لا أودعه) وغير ذلك من الأدب المأثور.

قلدت عم عازر حبي في أخبار تحركات الاداري الحازم والنطاس البارع، إلا أنني كنت أشير الى الحرائق ووجوب تنظيم السلطة لمهمة المطافىء ـ لذلك لم ينشروا لي ولا رسالة واحدة!!

مشروع الجزيرة:

ألم تقرأوا في قصة حياة المرحوم طه حسين أنه لما أبعدوه عن العمل بالجامعة المصرية، أدخل نفسه في مغامرة تمويل جريدة يومية هي جريدة الوادي؟.

جريدة الوادي كانت تصل الى سنجة. وقد أتيح لي في سنة ١٩٣٢ شراء أعداد أسبوع كامل من مكتبة الفونج الكبرى (بابكر ـ و ـ أحمد أبوحاج) وجدت في الجريدة سلسلة مقالات مترجمة عن إحدى صحف لندن ـ في مجملها عبارة عن تقرير يصف تدهور مشروع الجزيرة بالسودان.

كتبت الى محرر حضارة السودان انتقد عدم ترجمتهم لهذا التقرير الذي يهم هذا البلد. وسخرت من ملء جريدتهم بالاعلانات (في الخمسينات صرت أتمنى ملء جريدتي بالاعلانات!!).

بعد أسبوعين عاد من الاجازة مولانا الشيخ محمد شبيكة مفتش تعليم مديرية الفونـج ـ وأخبرني

بمحضر عم عازر أن الشيخ احمد عثمان القاضي كان ينوي تسليم رسائلك الى المخابرات ـ ولكنني توسلت إليه الا يفعل (وكبار آل شبيكة ومنهم واحد كان بسوق سنجة كانوا يعرفون جدتي الشروزينية من رفاعة منذ الأيام التالية مباشرة لنهاية المهدية).

ماذا أعرف عن الغيط؟

كنت في أوائل الثلاثينات قد رأيت خزان سنار (بمكوار أو سنار المدينة) ولم أفهم عملية (الري بالجاذبية).

وعشت أياما بسنار التقاطع مع أقاربي هناك ورأيت الترعة الكبيرة الممتدة من الخزان شمالاً في اتجاه واد مدني ـ استحممت في ترعة سنار وعبرتها بواسطة معدية مربوطة بسلك على الجانبين وتتحرك المعدية بتحريك السلك، يؤدي هذه المهمة عامل تابع لسلطات الري السوداني.

وفي سنار التقاطع كنا نرى مجرى النيل الأزرق الأصلي على مسافة من الترعة (هذه البلدة مرت بها في الستينات ترعة أخرى خاصة بمشروع المناقل) وكل التغيرات التنموية التي مرت (بسنارنا) قد جعلت أهلنا هناك يتعرضون للترحيلات والتعويضات. ولكنهم في (سنارهم) لم ينالوا زراعات ولا حواشات اللهم الا القليل بعد ايجاد مشروع سكر سنار ـ أخيراً في عهد مايو.

زرت أم سنط:

في تلك الأيام من أوائل الثلاثينات عبأت رحلة الى واد مدني ورأيت اللوري الذي يملكه العم المرحوم محمد أحمد درار (من الكراكسة) بالموقف. فوضعت شنطتي به. فقال لي: نحن سوف نغشي أم سنط عشان الفراش «مأتم» ـ فلم اتراجع ـ وفي قرية أم سنط عشت يومين مع صواني الشاي والقهوة من الجيران في الصباح ـ وقداحة الفطور وصواني الغداء والعشاء ـ وسمعت حكاياتهم عن الغيط والمفتش الانجليزي والحواشات والدورة الزراعية وحرق سيقان القطن واللوبية (العفن) والبلهارسيا والصرفيات والجداول (أب ستة) و(أب عشرين)....الخ.

ولأول مرة عرفت أن مشروع الجزيرة يروى (بالجاذبية) ـ أي بدون آلات (طلمبات) بمعنى أن مياه الري تمر من الخزان بالترعة الرئيسية التي رأيناها في سنار التقاطع. وتؤخذ للحواشات في كل قرية من (الجزيرة المروية) بواسطة الجداول المشار اليها (أب ستة ـ وأب عشرين) ولا أعرف التفاصيل.

وكانت قرية أم سنط التي أقمت فيها ليلتين أحسن مكان لفهم الموضوع ـ لأني رأيت على شاطىء النهر (لفافات طويلة) يبدو أنها تشكل الأنابيب التي كانت توزع مياه الطلمبات للري.

فإن (الشركة الزراعية للسودان) كانت قبل اتمام خزان سنار قد زرعت بعض المساحات بالطلمبات (هذه الشركة كان اسمها سودان بلانتيشنز كمباني) ـ وترجمتها شركة الزراعات السودانية ـ وكان المصريون يترجمونها (شركة زراع السودان)... وكانت تعمل باعتياز أو احتكار لمولين بريطانيين وقد اضطرت الحكومة بضغط الرأي العام السوداني لتأميمها قبل انهاء موعد احتكارها حيث صار اسمها (سودان جزيرة بورد) أو (مجلس الجزيرة للسودان).

من أين الضغط:

سوف يتضح أن الضغط المتعلق بمشروع الجزيرة قد قام به أستاذنا المرحوم أحمد يوسف هاشم ـ على صفحات جريدة النيل في الأربعينات ـ وكان الأستاذ أحمد خير ـ وأعضاء آخرون في لجنة المؤتمر الفرعية

بواد مدني والجمعية الأدبية بنادي الموظفين (الخريجين فيما بعد) بعاصمة الجزيرة. كان لهم فضل مساعدة أحمد يوسف هاشم في تجميع المعلومات عن مشروع الجزيرة.

سيتاح لنا الرجوع الى هذه المقالات ـ ولكنني كما نوهت من قبل، أريد أن أعبر عن فكرة أخرى.

صحفي وافد:

لقد عرفت الصحافة السودانية صحفيين وافدين منذ بداية وجودها مثل شوام المقطم والمقتطف ـ وحتى اسكندر مكاريوس صاحب مجلة اللطائف المصورة قد أقام بالخرطوم في أوائل القرن.

والنيل كان رئيس تحريرها الأول صحفيا مصريا محترفا هو الأستاذ حسن صبحي (١٩٣٦).

ولكن صحافة الخرطوم ظلت تحررها طبقة جلوسية بمن فيهم الوافدون من الشوام والمصريين.

أما أحمد يوسف هاشم حينما جاء الى تحرير جريدة النيل كان (صحفيا وافدا) ذلك انه قد جاء من مصر بعد فترة عمل في جريدة يومية قاهرية زامل فيها من الأسماء اللامعة الأستاذ/عباس محمود العقاد ومحمود عزمي، وروز اليوسف (والجريدة هي روز اليوسف اليومية التي صدرت مع انشقاق (السبعة ونصف) من كتلة الوفد النحاسي ١٩٣٦).

كان احمد يوسف هاشم قبل رحيله الى مصر وعمله بروز اليوسف موظفا اداريا بالمحاكم الشرعية (وهو من خريجي المعهد العلمي الديني بأمدرمان) وقد عرفناه في تلك الفترة كاتبا أدبيا على صفحات مجلة الفجر ـ وقد سلفت الاشارة الى سلسلة مقالاته عن الطائفية بالسودان ـ أو لعلها الطرق الصوفية.

وفي رأيي أن أحمد يوسف هاشم قد جاء من مصر بفن (التحرير المتحرك) الذي رأيناه يتمثل في سلسلته الناجحة عن مشروع الجزيرة.

أغبش وصحافة الخرطوم:

ان جريدة السودان لمنشئها شيخنا عبدالرحمن أحمد هي التي بدأت نشر رسائلي ومقالاتي ١٩٣٧/٣٦/٣٥م.

اما جريدة النيل التي أصدرتها (شركة الطبع والنشر) بالخرطوم ١٩٣٦م ـ فقد كانت أقدم (خطوة تكاملية مع مصر) ـ وقد صدرت على أثر زيارة بعثة اقتصادية مصرية للسودان ـ وكانت الشركة المشار اليها قد ساهمت فيها بيوت مالية محلية وخارجية (أبوالعلا وعبدالمنعم ودائرة المهدي ومتشل كوتس وكونتو ميخالوص) وفي سنة ١٩٣٩ تقريبا اشترت دائرة المهدي مساهمات الآخرين كلها.

كتب أغبش لجريدة النيل مقالات كثيرة أعوام ١٩٣٨ الى ١٩٤٤ وفي البداية لم تكن الجريدة (واعية) بدورها الطائفي ـ فان مقالاتي حتى في تلك السنوات المبكرة كانت مضادة للطائفية.

قهوة الزيبق:

ان حديثي عن الصحفيين المصريين سوف يأتي بوفرة ـ ولكنني أريد اليوم أن أشير الى اهتمامي بأصحاب (العمود القصير).

١) كان (الصحافي العجوز) واسمه توفيق حبيب يكتب (على الهامش) بجريدة الأهرام... وكان هذا الكاتب يوقع بلقب (صحافي عجوز) ويكتب على الجانب الأيمن من سطر التوقيع، ما يدل على مكان الكتابة أحيانا (دار الأهرام) وأحيانا (بار اللواء) وفي بعض الأحيان يكتب (قهوة متاتيا) وهي قهوة كبيرة بميدان العتبة. عرفناها لما زرنا مصر. ومن تاريخها ان من جلاسها في الماضي جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده والشاعر

البارودي وعبدالله النديم.

٢) من أصحاب العمود في العشرينات أيضا عرفت أحمد الصاوي محمد صاحب (ما قل ودل) وكان في تلك الأيام ينشر عموده بجريدة الأهرام أيضا.. (هو الآن يكتب بجريدة الأخبار).

* في سنة ١٩٤١ جاء أغبش الى الخرطوم وكتب مقالات نشرت بجريدة النيل ومع التوقيع عبارة (قهوة الزيبق) ـ وهذا حقيقي ـ فقد كنت أجلس فيها وأكتب ما أريد ـ ومنها اتحرك الى مكتبة النهضة او الجامع محل الاخ عبدالله التهامي الذي كان بالسوق العربي.

علق أحمد يوسف هاشم مثنيا على أسلوبي وقال انه سمع عني من بعض الأصدقاء ومنهم الدكتور أنيس... وقد شجعتني هذه السطور على مقابلته ومن ثم اتصال المودة والتعامل.

في نفس تلك الفترة من سنة ١٩٤١ فوجئنا في القضارف بزيارة الاستاذين المرحومين احمد يوسف هاشم (النيل) ومحمد عشري الصديق (صوت السودان) وكانا يرتديان بزة عسكرية ـ فقد كانا في طريقهما الى ميدان الحرب بأريتريا بعد موقعة كرن التي أبلت فيها قوة دفاع السودان ـ ونظم عنها مولانا المرحوم أحمد محمد صالح:

عبقري الروح والبدن عانق العلياء في كرن

صوت السودان:

لما آلت جريدة النيل بكليتها لدائرة المهدي ـ فكر مفكرون من الختمية في التساوي معها ـ ولا أعرف التفاصيل الداخلية ـ فأنشأوا شركة مطبعة السلام وجريدة صوت السودان ـ ويبدو أن محررها الأول كان المرحوم محمد عشري الصديق. وهو أديب مرموق يصح القول بأنه رومانسي (شقيقه الموهوب الآخر عبدالله عشري الصديق كان أكثر واقعية منه) وقد ظل محمد عشري بجريدة صوت السودان يساهم بمقالات أدبية وأذكر واحدة عنوانها (فلسفة الملابس)... وقد رأيته كما قلت باللباس العسكري.. بالقضارف في طريقه الى الميدان الحربي بأريتريا ١٩٤١. ويبدو ان الملابس العسكرية قد راقته (والد العشرين كان ضابطاً أيضاً) فقد رأينا محمد عشري الصديق يلتحق بقوة دفاع السودان بصفة (ضابط مهندس). ضمن جملة مثقفين تطوعوا للاشتراك في الحرب أذكر منهم السيدين عبدالقادر يوسف هاشم وأحمد عبدالنبي والمرحوم يوسف مصطفى التني.

الكتيبة:

كان أستاذنا حسن عثمان بدري ضمن محرري صوت السودان داخلياً ـ ولما غادرها محمد عشري صار حسن بدري المحرر المسؤول.

وحسن بدري شاعر قديم عرفناه ينظم الشعر منذ ١٩١٦ كما أفادتنا وثائق سليمان كشه فقد اشترك في ذلك العام قبل ٦٩ سنة في مباراة تشطير قصيدة (أدرمين) وأدرمين هي الطائرة التي حصلت عليها الامبراطورية العثمانية لأول مرة.. وكان من بين الشعراء المتبارين أستاذنا أحمد محمد صالح (فإذا تذكرنا ان تغزل هؤلاء الشعراء بتسليح العثمانيين إبان الحرب العالمية الأولى ـ أدركنا وجود الشجاعة والأخوة الاسلامية لدينا من قديم برغم حكم الانجليز الذين حاربوا تركيا العثمانية).

عرفنا حسن عثمان بدري كثيراً على صفحات الصحف في الستينات بين (شعراء الكتيبة) الذين كان عميدهم المرحوم حسن ازهري (هري) وأعقبه المرحوم النور ابراهيم ـ ويبقى منهم الآن ح.ع. بدري والشاعر الكبير المجيد المقل محمد عبدالقادر كرف (وكانت قصائد شعراء الكتيبة هي في الغالب هجائيات فيما بينهم).

أهل المواقف:

يهمني ان أذكر أن حسن أزهري رحمه الله كان من (أهل المواقف) الذين سوف تعنى بهم مذكرات أغبش كثيراً - ومنهم غيره المرحوم توفيق صالح جبريل رحمه الله وقفوا ضد الانجليز بصورة ما وعوقبوا بمعاكسات ووقف الترقيات. ولعل منهم الشاعر المهندس علي نور - وأستاذنا مأمور المركز حمزة الملك طنبل.

عثمان زياد - رحمه الله - من أعيان وتجار واد مدني كان له موقف يشبه موقف الشيخ قريب الله أبي صالح بأمدرمان (الذي أقام صلاة المغرب بالسراي قبل انفضاض حفل دعا اليه الحاكم العام البريطاني - وما كان لهم أن يصنعوا له شيئاً).

لكن عثمان زياد التاجر بواد مدني قد عوقب ومن ضمن عقوباتهم حرمانه من تعهد توزيع السكر بالجملة.

إذن فان أغبش لا بد أن يدرس مواقف أهل المواقف في كل مكان في السودان ان شاء الله.

صالون الفول:

آل تحرير جريدة صوت السودان الى أستاذنا اسماعيل العتباني (قبل انشائه لجريدة الرأي العام ١٩٤٥) وقد عرف مكتب عتباني بالصوت باسم (صالون الفول) الذي كان من أبطاله احمد خير، وأحمد مختار، ومحمد عامر بشير فوراي (رحمه الله) وابراهيم عثمان اسحق وعلي حامد.. وسنرى كيف كان يتحول فول المرحوم الفوال النعسان المنعس الى اثارة منعشة في سنوات مؤتمر الخريجين المبكرة الله أكبر ولله الحمد - عاش السودان وعاش المؤتمر - هكذا كان يختتم فوراوي مقالاته.

* * * *

أغبش في رحلة زراعة الحريق.. ركوب الجمل يومية

تدهور دكاني بسنجة ١٩٣٦م بسبب «الزمامات» وهذا اللفظ هو الاصطلاح الذي نعبر به معاشر الجلابة عن الديون ـ وخصوصاً تلك الديون التي يستعصى تحصيلها.

وكانت ديوني على الناس سببها المكتبة. فقد كنت أبيع الصحف على الحساب، ويكون التحصيل من الزبائن ـ وهم في الغالب موظفون ـ يوم «الماهية» وكثيراً ما يتهربون.

كان الأخ مصطفى سعيد رئيس الحسابات بسنجة. وكنت كلما أطالبه يضحك معي ويروي إحدى النكات. ولم أوقف الاشتراك عنه الى أن تم اختياره للدراسة بمدرسة ضباط السجون. فجئته قبل سفره وقلت له حسابك ٢٠٠ قرش أعطني ١٠٠ «وكفى الله المؤمنين القتال» ـ فضحك وروى النكتة المعهودة ولكنه دفع الجنيه. وصرت كلما أقابله حتى بعد مضي ٣٠ سنة حيث صار مدير مصلحة السجون. يضحك ويقولي «كفى الله المؤمنين شر القتال»!

وكما هو واضح فان كلمة «شر» غير واردة في النص القرآني.

والصحف والمجلات لو بارت عندك يمكنك أن تبيعها بالدين ـ فأنا أطلبها من مصر ـ على قاعدة كون المرتجعات على حسابي.

كان الأخ النور عثمان تاجراً في كركوج فكنت أرسل إليه في كل أسبوع رزمة من الصحف (ثم) صارت فواتيري «حزمة» ولم يحدثني عنها ولا بكلمة»!

ومصيبة أخرى أن زبائن الصحف يحاولون استدانة بضائع أخرى «ناهية» مثل السكر والسجاير ـ ولا يدفعون.

لقد تضررت كثيراً من زمامات دكان سنجة وبعده دكان المفازة والآن فإنني أختار العفو عن حقوقي لدى أولئك الزبائن الذين غمطوني ـ رحمهم الله جميعاً.

زراعة الحريق:

الزراعة التي أجريتها بسنجة في سنة ١٩٣٥ كانت عبارة عن تجارب خيالية ـ حاولت عن طريقها إلغاء دور الهند ـ و ـ السند في تصدير البهارات «الافاوية» يعني شو الأفاوية؟

في سنة ١٩٣٦ فكرت في شيء عملي.

ـ هل يعرف القارىء زراعة الحريق؟

كانت توجد أصقاع واسعة في الفيافي لم يكن يزرعها أحد بشكل مستمر وكانت تتغطى بمساحات شاسعة من حشيشة ـ تعرف باسم «الغباش» لما تجف بعد وقوف الأمطار تصير بيضاء.

ابتكر السودانيون في منطقة الفونج ـ وفي مركز القضارف. وربما في جهات أخرى أيضا ـ أن يعمدوا الى اطلاق النار على حشيشة الغباش. وهذا يجري عادة في شهر أغسطس بعد أن تكون الأرض قد رويت ـ ونبتت حشائش خضراء جديدة مزاحمة للحشائش القديمة ـ وهنا يتحقق المثل «تأتي النار على الأخضر واليابس».

ويتحول رماد الحشائش الى سماد. وتخلص الأرض نظيفة ليس فقط من النباتات السابقة ـ بل تكون خالية أيضا تقريبا من بذور أية نباتات طفيلية أخرى.

هذه التربة المثالية يزرعها الزارعون ـ غالبا بالذرة ـ واذا كان المطر جيداً ـ وسلمت من الآفات مثل الجراد ـ فإن محصولها يكون وفيراً.

فكر أغبش في زراعة الحريق ١٩٣٦ بمنطقة الدالي والمزموم ـ التي تشكل الآن قسماً من مناطق الزراعة الآلية في الفيافي الواقعة على مثلث «سنار ـ الدمازين ـ سنجة».

استأجر أغبش جملاً وامتطاه مع صاحبه على مرحلتين الى الدالي حيث باتوا في الطريق بقرية «تيقو» ووصلوا في اليوم التالي.

وفي ضيافة أحد أقاربنا ـ المرحوم علي قندول ـ تدارس الفكرة مع المزارعين ـ وعلم أن الأراضي التي تم فيها اجراء الحريق قد وزعت بواسطة الادارة الأهلية ـ ومع ذلك يمكن الحصول على «بلاد» ـ يعني مزرعة ـ بثمن عال نسبيا وذكروا رقما لم يكن مع أغبش ـ فعاد على ظهر نفس الجمل ليجد ان جلد رجليه ـ من باطن الساق ـ قد تسلخ. من أثر الاحتكاك «بالوبر» ـ الشعر الذي يغطي جسم الجمل ـ ولست أدري لماذا كان الأغبش المزعوم (دلكاتو) بهذا القدر حتى اضطر لمعالجة قروح رجليه بمرهم «الزمبوك» الذي كانوا يعلنون عنه بجريدة «حضارة السودان». وهذا المرهم لم يكن فعالاً مثل مشتقات البنسلين والمضادات الأخرى التي عرفناها بعد حرب ٣٩/١٩٤٥ وكنا قد عرفنا «السلفا» قبل ١٩٤٠ وكانوا يسمونها «ثري ناين ثري» يعني ٣٩٣ ـ وكانت هذه الأرقام بالانجليزية شائعة لدى الشبان ـ حتى من غير المتعلمين.

وستأتي في مرحلة دكان المفازة ٣٨/١٩٤٠ معلومات عن زراعة الحريق بمنطقة القضارف.

أخاك.. أخاك

قال الشاعر:

أخاك أخاك فمن لا أخا له

كساع الى الهيجا بغير سلاح..

كان لأغبش شقيق واحد هو المرحوم علي رجب ـ وهو طريدي أي أنني أكبره بنحو عامين (لنا شقيقة واحدة ـ فاطمة رحمها الله وهي من مواليد المهدية ـ فإن والدنا كان معمراً).

خرج علي رجب من المدرسة الأولية ١٩٢٧ وكان من زملائه المرحوم صالح ابراهيم العبد «الفنان الصيرفي» وعلي الحويرص (خبير زراعي في وقت كانت علوم الزراعة الأكاديمية محرمة على السودانيين) وكذلك اللواء الطاهر عبدالرحمن المقبول (وآخرين طبعا).

لما فاتتني فرصة التعليم فوق الأولى شجعت شقيقي على ربط طموحه به ـ مع تعهدي بمساعدته من عملي بالسوق ـ فلم يجد فرصة بدون مصاريف (رسوم مدرسية) فاشتغل مثلي في السوق وكان يناوبني في إدارة دكان الشارع (بيع غاز الاستصباح والسجاير). ثم ظهرت فرصة قبول بمعهد «العرفاء» تدريب المدرسين للأوليات ـ في سنة ١٩٣١.

كانوا يختارون واحداً من كل مركز من بين جملة متقدمين ولست أدري لماذا كانوا يفضلون أولئك الذين انخرطوا في سلك الحياة العملية!

مثلاً... أخذوا المرحوم حسن نجيلة من محل أصلانيان حيث كان يدير فرع البيع الاجمالي للسجاير ماتوسيان (أو عاشوا سيان... حسب القصة المصرية حينما ضبطوا الشركة المذكورة تخلط التبغ بنشارة الخشب في سنوات حرب ١٤/١٩١٨).

والمربي الكبير الآخر ميرغني مكي أخذوه من السوق بعد أن أكمل تدريبه على الخراطة بماكينات سنجر.. وأخذوا شقيقه الأخ صديق مكي بعد أن خلف حسن نجيلة في وظيفة العاشوسيان...الخ.

تنافس علي رجب مع الأخ المرحوم خليفة ياسين نايري ـ واختير الأخير ـ فلم نأسف فقد كان أخانا وجارنا ومن أهلنا.

أكثر غبوشية:

كان علي رجب أكثر غبوشية ـ فلما عرض عليه العم التاجر المرحوم عبدالرحمن ابنعوف، الذهاب معه الى بلدة «جعبات» رضي وسافر (أما أغبش فانه قد يفضل أضواء المدن ـ مش ضروري الكهرباء ـ ولكن الضروري هو وجود مكتب البريد وبالتالي وصول الصحف والكتب ودروس المراسلة).

ظل علي رجب يقرأ كتباً قليلة وصحفاً قليلة (أؤكد لكم أن التركيز على القليل أكبر فائدة ـ اذا أحسنت الاختيار ـ وقد قال أحد أسلافنا من الفقهاء «أخاف من صاحب الكتاب الواحد» لأنه يفهمه بالتكرار والتأمل ويستطيع اتقان المجادلة بأفكاره).

ومثلي تعلم علي رجب الكتابة التجارية وكانت خطاباته رصينة وموجزة ـ وجيدة النحو واللغة ـ وحيث أنه قد اشتغل بالسياسة. فقد عبر لي منذ الستينات عن حلم له في تأليف كتاب!

التجارة الحبشية:

ذهب علي رجب الى الكرمك. وظل في أوائل الثلاثينات يعمل مع شركة اغريقية (آل بابا خاجي) وكانوا يعاملونه بمودة واحترام وثقة ـ حتى بعد أن استقل عنهم.

ومن كرمك ـ كانت لعلي رجب تجارة داخل الحبشة (أصوصة ـ من بني شنقول) وقد عرف المرحوم تجارة البن الحبشي والواردات الحبشية الأخرى ومنها بمنطقتنا عسل النحل وشمعه... وتوجد تجارة في العملة هي الريال «القشلي» وهو ريال يسك من الفضة على غرار عملة النمسا على عهد الامبراطورة ماريا تريزا ـ وهذه الريالات كانت وما زالت تسكها مسابك تجارية في أوروبا. فالريالات المشار اليها كانت تروج في الحبشة وامارات اليمن والخليج ـ لعدم ثقة أهالي تلك البلدان في العملات الورقية. وخصوصاً مع عدم الاستقرار في تلك الأزمان ـ بل هو يخيم على الحبشة حتى الآن!

وبمنطقة كرمك كانت وما تزال توجد تجارة في معدن الذهب... حيث يغربل الأهالي «التبر» ـ تراب الذهب الخبران ـ ويأخذون حبيبات المعدن الى الصاغة الذين ينقونه ويسكبونه.. والصاغة سودانيون نازحون من أمدرمان وغيرها ـ والتجار يتعاونون معهم بأن يجلبوا لهم «الدواشات» ـ وهي الكيماويات اللازمة لصهر المعدن ـ ويشترون منهم الذهب الصافي لاعادة بيعه في حواضر السودان.

أصدقاء:

عرفت أصدقاء علي رجب ومنهم عائلة كروم ـ ومن أعيان العمراب أقارب المرحومين خلف الله خالد ـ والدرديري محمد عثمان ـ ومعاوية نور ـ والضابط الشهيد علي حامد والدكتور حداد عمر كروم ـ كان الشيخ حامد كروم رحمه الله رجلاً طاغي الوقار ـ وقد أدخل علي رجب في الطريقة الختمية (مرة أخرى) واستحضر له «خلافة»! وقد عرفت أبناءه رحم الله الماضين والموجودين.

وعرفت من تجار كرمك الشيخ دفع الله حمزة والأخ الأمين سليمان والأخ تاتاي والأخ حامد بله عصب ـ وعرفت المرحومين ابراهيم سليمان ومحجوب الفاضل.

وحيث انه كانت لعلي رجب امتدادات تجارية لفترة ما في جمبيلا (و)قوري الحبشة (من ناحية نهر السوباط بأعالي النيل) عرفت أصدقاءه آل عوض ـ المرحوم بله عوض. وشقيقه الحاج حسين عوض. امتعنا الله ببركة وجوده... وعرفت آل ثابت وهم الشوام الذين كانوا متخصصين في تجارة البن الحبشي.

وبفضل علي رجب زادت مودتي مع المرحوم صالح ابراهيم العبد. والأخ السر عباس (أبقاه الله).

وجرت مودة بين المرحوم والسيد مكاوي سليمان أكرت (حينما عمل إداريا بكرمك).. وفي السنوات الأخيرة زامل علي رجب المرحوم حماد توفيق في الزراعة الآلية بالفونج.

وكانت لأغبش الكبير عقد مع المرحوم حسن عدلان ـ لم يعبأ بها علي رجب وعاشر الناظر المذكور بمودة واحترام.

يد عليا:

انما هو أقل القليل حينما أقول ان شقيقي علي رجب كانت له اليد العليا على شخصي وأسرتي ـ وجريدتي «الصراحة» ـ وحينما كتب الأخ جعفر حامد البشير يوميات «الريفي» بإحدى الصحف منذ أعوام يذكر تضحيات علي رجب في جريدة «الصراحة» ـ كتب المرحوم لافتا الى «أن الشعب السوداني هو الذي حمى الصراحة» ولكنهم لم ينشروا رسالته وقد ظل عاتبا عليهم.

في الميدان السياسي:

انتخب علي رجب نائبا في برلمان ١٩٥٤ ـ الذي صوت لاستقلال السودان في ديسمبر ١٩٥٥م قبيل أول يناير ١٩٥٦م ـ وكان قد رشح نفسه بدائرة الكرمك باسم الحزب الوطني الاتحادي. ثم ترشح وفاز ١٩٥٦ بعضوية الهيئة التأسيسية التي أطاح بها انقلاب ١٧ نوفمبر ١٩٥٨ ـ ثم أعيد انتخابه بعد ثورة أكتوبر.

المأتم:

مرض شقيقي سنوات متعددة ورحل في إحدى مراحل العلاج الى لندن ونال رعاية وفية جداً من صديقه المرحوم حسين الهندي.

لما توفي شقيقي في فبراير ١٩٨٣ كان رجال الوطني الاتحادي بواد مدني قد تغلبوا علينا نحن أعضاء الأسرة وأقاربها.

فليرحم الله الباقين منا والماضين.

حواشي:

في هذه الحلقة من المذكرات كان طبيعيا أن أنسى أكثرية أصدقاء شقيقي المرحوم علي رجب ولم يكن من الطبيعي نسيان المرحوم عبدالمجيد محمد علي وعذري بكل صراحة هو ارتباك ذاكرتي في استذكار بعض الأسماء... وجاءني ابنه عزالدين عبدالمجيد الذي أعرفه منذ أن كان ضابطا ـ حيا ـ بياء واحدة.. وحييا ـ بياءين ـ ولا تناقض، ولم يفعل شيئا سوى أن ذكرني بحضوره قبل كلامه بعلاقة المرحومين «عبدالمجيد ـ وعلي» التي لم تكن حميمة فقط ـ بل كانت شراكة روحية متكاملة.

يجب أن أذكر من أصدقاء علي رجب أيضا المرحوم الشيخ ابراهيم منصور الذي كان تاجرا بقيسان.

أما.. أحمد عبدالنبي ليبارك الله لنا وجوده... فإن علاقتي به كانت أقدم من علاقة أخي ولكن اجتماعهما كان أوفر.

من الاسكله وحلا.. قام من البلد وللا

لا يجوز أن اقصر في رصد اعجابي بالمناظر الوصفية التي تقدمها الاذاعة (١٩٨٤/ ١٩٨٥م) لدكان ود البصير.

فقط ألاحظ ان ود البصير أو الأمير محمد ود البصير انما هو زعيم الحلاوين المشهور من العشرة الكرام من أصحاب المهدي.

ود البصير هو الذي ضايق بزعامته الأنصارية أصحاب الزعامة التقليدية ورثة الأمويين الذين يمثلهم الحاردلو ود أب سن.

أريد أن أقول ان دكان ود البصير يشبه دكان أغبش بسنجة ١٩٣٦/٣٤.

قد كان أغبش في يوم الجمعة ندوة واسعة تجتمع فيها الطبقة المستنيرة نهاراً وخصوصا الموظفين من أبناء سنجة القادمين من إجازاتهم من العمل بالعاصمة ومدن أخرى بالاضافة الى أوساط المستخدمين المحليين. الأوساط هنا تستبعد الصف الأول من الموظفين السودانيين الذي يشمل مأمور المركز وقومندان الحامية العسكرية والقاضي الشرعي وباشكاتب المديرية والطبيب الشامي وطبعا المفتش الانجليزي وأكثر من ذلك مدير المديرية. العجيب ان الموظفين السودانيين من الصف الأول كانوا في كل مكان يفضلون التجمع بدكان التاجر الاغريقي وهو في الغالب صاحب رخصة الخمور المستوردة وكثيراً ما يجعل هذا من منزله منتدى للعب القمار ـ الكونكان والبوكر والبكاراه ـ وهذه كلها لم يدرسها أغبش حتى هذه اللحظة.

وفي كل مساء تقريباً يتحلق نادي دكان أغبش وكان رواده يجلسون على البنابر وعددها لا يكفي فيجلس الباقون على صناديق الصابون فارغة أو ملآنة وعلى صناديق الشاي وعلى الغاز الفارغة ويفضل بعضهم سباتة الصلاة حيث يصلون العشاء.

رواد النهار كان أغبش يطلب لهم القهوة الجبنة (بثلاث فتحات) بمليمين حيث تحتوي على ملء فنجانين صغيرين والسكر من طشت الدكان المخصص للبيع أما الليموناده كنا نعرف تلك المعروفة باسم الليموناده البيضاء أو الجنجهيرة زنجبيل فقد كان ثمن الزجاجة بسنجة قرشا كاملاً وهذا كثير بالنسبة لزوار دكان أغبش إلا اذا كانوا قادمين من مدن أخرى أو كانوا من نوع الصف الأول المشار اليه أعلاه.

كان رواد دكان أغبش يقرأون لبعضهم أحياناً بصوت عال ويتناقشون ويتجادلون وتشمل احاديثهم السياسية والتاريخ والدين والأدب والغناء ويتجادع بعضهم بالوباي وآخرون يتبارون في انشاد الشعر العربي.

وفي فترة ما قام أغبش بتأجير جزء من الدكان مع الباب الشرقي من الباطن للأخ بدوي أبوزيد اسماعيل الآن شيخ السوق وهو مع اخوانه أبناء سر تجار سنجة وهذا لقب من بقايا العهد التركي كان صاحبه يجد احترام السلطة واحترام رعيته من التجار المحليين أو الزائرين ولكن...

الضيافات والمظاهرات والمشغولية في غير التجارة أشياء ترهقه ماليا، عمنا أبو زيد رحمه الله كان قد تدهور موقفه المالي في شيخوخته واستمر يدير صيوانا بساحة المولد يجلس به التجار للمؤانسة أو اسماع المدائح.

قام الأخ بدوي بتحويل نصف دكان أغبش الى مقهى وكان مقهى بائسا لا يكاد يبيع سوى كبايات شاي قليلة ولكنه جذب هواة الطاولة نهاراً وكان أغبش بالأسف واحداً منهم.

كل هذه الهيصه بالبرندتين من دكان أغبش قد خفضت عدد الزبائن وخصوصا من الفتيات وأخص من

ذلك، حينما يسألونك عن عديد أصناف البقالة وتقول ما عندنا، ودكاكين الاغاريق لم تكن بعيدة...

أسوأ من ذلك تعلم أغبش عادات شبابية جديدة أدت به الى سهر الليالي في غير طلب المعالي. من رحمة الله بالمدعو أغبش ان ضميره لا يصبر طويلاً فيتمرد عليها ويسارع الى تغيير مكان اقامته وزملاء سهره.

الحرب الحبشية:

ان وضع سنجة الجغرافي لم يتح لها فرص الاستفادة التجارية من ظروف الحرب الايطالية الحبشية ٣٤/١٩٣٧م الاشارة الى الفترة التي تشمل الاستعداد للحرب ومدة نشوبها الفعلي والمدة التي تليها مباشرة، كذلك لم تستفد سنجة من فترة الحرب العالمية الثانية ٣٩/١٩٤٥م. فإن المصالح التجارية: فرص النقل أو الايجار كانت تدار من واد مدني وسنار وتنصب في الروصيرص وقيسان وكرمك وبقية نقاط الحدود.

وعليه فان دكان أغبش لم يربح شيئاً من الحرب الحبشية (تجار السودان في الغالب لم يناقشوا فكرة عدم الارتياح الضميري للاتجار مع أريتريا والحدود الأخرى مع الحبشة في فترة الحرب العدوانية) فان التجارة هناك وان كانت تقليدية إلا أنها بدون شك قد ساعدت العدو الايطالي المعتدي.

كانت مناقشات عصبة أمم جنيف في تلك الأيام تجنح الى فرض عقوبات بعضها اقتصادية ضد ايطاليا المعتدية وتلك المناقشات لم تكن جادة.

وحكومة السودان (الادارة البريطانية) لم تفرض قيوداً محسوسة على التعامل مع أريتريا والحبشة فان ضميرها العالمي لم يكن شديد الاحساس.

القندرانات:

يوجد بكسلا والقضارف وغيرهما اشخاص في الوسط التجاري عرفوا بأنهم ممن زادت ثرواتهم بسبب الحرب الحبشية أو الحرب العالمية.

كانت حكومة السودان قبل ١٩٤٥ تحرم استعمال النافته الذي يعرف باسم الجازولين في تحريك الناقلات الموطرية وذلك لمنع منافسة سكك حديد السودان التي كانت تحتاج الى حماية بحيث تنال اكبر فرص النقل كي تعمل وتربح لاسيما وان سكة حديد كسلا كانت تدار لحساب شركة رأسمالية بريطانية.

وكانت المفاجأة ان السودانيين شاهدوا في أريتريا لأول مرة القندرانات وهي الناقلات الجبارة التي تدار بالجازولين وتسحب معها تريلات.

أمكن لبعض السودانيين اقتناء قندرانات وتشغيلها في داخل أريتريا بواسطة سواقين طليان أو أحباش وكان ممنوعا دخول تلك القندرانات الى السودان وكنا نعتقد هذا السبب أن شركة فيات الايطالية أبرع من موريس وفورد وجنرال موتورز لأنها استطاعت صنع القندرانات التي تجر التريلات بينما عجزت الشركات الانجليزية والأمريكية عن صنع هذه الناقلات الجبارة. كنا نعتبرها جبارة قبل أن نرى ناقلات أضخم منها.

وفي فترة الحرب العالمية الثانية استغنت سكك حديد السودان عن الحماية فسمحت حكومة ميدان كتشنر باستيراد الموطريات الجازولينية.

المكاتبات الاخوانية:

من أثمن العادات التي حافظ عليها أغبش في الثلاثينات عادة المكاتبة الاخوانية فان مكاتباته مع شخصيات مثل الأستاذ احمد خير حفظت عليه مطامحه الوطنية والثقافية.

ومكاتباته مع أصدقاء أخرين حافظت على روابطه الاجتماعية وأدت الى غزو عوالم جديدة وأحسن من يمثل هؤلاء الأصدقاء هو الأخ المرحوم الطيب عبدالحفيظ علي. تكررت الاشارة اليه.

كان للأخ الطيب فضل تعريفي بأصدقاء آخرين يهمني منهم في هذا السياق الأخ المرحوم عوض بشير العوض.

كان الأخ الطيب يتلقى معلومات عن ظروف دكان أغبش ورغبته في تغيير البيئة وقد تدارس الأخ الطيب مع الأخ عوض بشير فكرة شراكة في ادارة فرع تجاري لشركة عوض وعلي بشير بالقضارف التي سميت فيما بعد بشير اخوان ببلدة القلابات.

القلابات بلدة سودانية على حدودنا الشرقية مع الحبشة وسيرتها واردة في قصة حروب خليفة المهدي ضد النقس النجاشي يوحنا والقلابات يفصلها خور عن بلدة متمة التي يقال ان الملك نمر سماها بذلك الاسم تخليدا لاسم عاصمة الجعليين المتمة وذلك حينما هاجر مع أسرته الى الحبشة بعد أن أحرق في مدينة شندي الغازي الارناؤوطي الشاب اسماعيل بن محمد علي باشا ١٨٢١ بلدة متمة في الجانب الحبشي من الحدود.

ظن أغبش أن في العرض فرصة اثراء سريع فيصير غني حرب عنده قرش وكرش!

تصفية دكان أغبش:

قام أغبش بتصفية دكان سنجة في النصف الثاني من عام ١٩٣٦م، ولم يستطع تحصيل الكثير من (الزمامات) ديون الزبائن ومع ذلك سدد جميع حقوق التجار الكبار على الدكان ما عدا حالتين حساب السادة الكردي اخوان بواد مدني لفرط الثقة وحسن نية المستقبل وكمبيالات كونتو ميخالوص وكان أغبش قد كتب قبل فكرة القضارف للزعيم اليوناني المسن بالخرطوم باللغة الانجليزية بخط يده يقول له ان الدكان في حالة تصفية وديون الزبائن متعذرة التحصيل وحساب فرعكم بسنجة ٣٢ جنيها يمكن سداده اذا استطعتم تشغيلي وقد تفضل الشيخ الاغريقي فكتب الى فرعه بسنجة طالبا استخدامي وقد عرض وكيل الفرع على أغبش وظيفة مندوب يسافر الى كرمك ويقيم هناك لتسليم تعهدات كبيرة من الواردات الى سلطة الاحتلال الطلياني الجديد وقد كره أغبشكم لأسباب ضميرية هذه الفرصة على الرغم من اغراءاتها المالية لاسيما وقد ورد عرض الأخ المرحوم الحاج عوض بشير وقد سلف ان ذكرت تفضيلي للمدن المنتظمة البريد. سيارات الديزل الأولى مستعملة نازحة من أريتريا سواقوها طليان أو أحباش متطلينون ثم تزايد السواقون السودانيون للديزل وصارت لهم نقابة زعيمها الأخ عبجي المنحدر من أصل شامي.

العجيب أن أوائل القندرانات التي رآها سكان العاصمة المثلثة جاءت بها مستعملة أيضا شركة النور والقوة الكهربائية كانت لواري عادية صنعت لها مقاعد من حطب أشجار السنط وطبعت لها تذاكر وسيرتها الى جانب خطوط الترام وهذه أول مرة عرف فيها الخرطوميون كلمة (البصات) ١٩٤٥م. في مصر يسمون هذه الحافلات أوتوبيسات.

مقابلة عوض بشير:

في أثناء شهر رمضان ١٣٥٥ تعادل ١٩٣٦ تلقى أغبش اخطاراً من القضارف يفيد مرور الحاج عوض بشير على قطار المشترك يوم كذا ويمكن مقابلته بالسوكي.

وفد للمقابلة:

اتفق معي اصدقائي النازيون على الذهاب معي فأخذنا سيارة الأخ الريح محمد آدم الرباطابي وكانت الرحلة برئاسة الزعيم خضر معتوق ومن اعضائها بدوي أبوزيد وعبدالله يسن نابري والموحومان حسن الجاك النصري وأحمد محمد علي السنجاوي.

ركاب الدرجة:

على الرغم من إقامة أغبش السابقة بالسوكي وسفره المتكرر بالسكة الحديد إلا أنه كان قد ظل من ركاب الدرجة الرابعة وفي إحدى المرات سافر مع الكمساري على العربة الأخيرة التي يسمونها الفرملة. لم يتح لأغبش مجرد الدخول الا الى الدرجة الثالثة وركابها كانوا عادة من التلاميذ أو العمال والجنود ثم الدرجة الثانية وركابها في الغالب من أوساط الموظفين.

اما الدرجة الأولى فهي مقسومة نصفها للبريطانيين خصوصاً قمرات النوم والنصف الآخر لتجار غالبا من الاجانب وفي أحيان قليلة موظفون سودانيون مآمير أو قضاة أو دكاترة الذين بدأ ظهورهم في أوائل الثلاثينات.

امتيازات التجار:

في القضارف عرفت ١٩٢٧م أن مصلحة السكة الحديد تخصم نصف أجرة السفر للتجار اذا اثبتوا دفع نولونات أجور نقل لا تقل عن ٥٠٠ جنيه في ظرف عام لكل شخص وكان محل بشير اخوان مثلاً يرسل قائمة بأرقام النولونات مع نمر البوالص وكان للمحل امتياز شخصين وأحيانا ثلاثة وأتيح للمدعو أغبش أن يسافر بنصف الأجرة على حساب امتياز بشير اخوان ١٩٢٨م وينجعص بالدرجة الثانية لأول مرة في حياته مثل ناس حسن نجيلة في تلك الأيام!!

سلم أغبش الدكان لخلفائه المرحومين عبدالرحيم معتوق وآدم عثمان حيث تعهدوا بالايجار لصاحب الملك وتكرم أغبش فترك لهم... كراكيب كثيرة ببلاش.

ولكن أهم شيء انما هو إلتزام الخلفاء الجدد بإدارة المكتبة لحساب أغبش وتحصيل ما يمكن تحصيله من زماماتها والتزموا بدفع مصروفات منزلنا بسنجة على الحساب وكان في تلك الأيام لا يزيد على ٣٠٠ قرش شهريا وإيراد المكتبة لا يقل عن ١٠ جنيهات نصفها للخليفتين اللذين ورثا المحل (هذا بخلاف تحصيل الزمامات الذي هو رابع المستحيلات كما يقول الجلابة):

ال من البلد ولا
ومن الاسكله (بالسوكي) حللا
ال من البلد ولا
دمعي للسياب بللا

أغبش ساخط على قلة أدبه الشخصي: فقد عجز في كسلا عن وصف الجبل والقاش وأسراب الفراش!

مع أن أغبش قد دخل في الطريقة الختمية ١٩٣١/٢٤ وانتظم بها نقيبا له حزام أخضر مقصب وقرأ جميع كتبها المتداولة فإنه لم ير أي واحد من الأسرة الميرغنية إلا في يناير ١٩٣٧م.

في منتصف الثلاثينات توفي السيد/أحمد الميرغني (راجل كسلا) وهو أخو السيد/علي الميرغني ـ صاحب النفوذ الأكبر ـ وهما نجلا السيد/«محمد عثمان الاقرب». نجل السيد الحسن أب جلابية الذي هو ابن مؤسس الطريقة الختمية الشيخ محمد عثمان الميرغني (الناشيء بمكة المكرمة).

السيدان علي وأحمد الميرغني كلاهما كانا قد وقعا «سفر الولاء» عام ١٩١٦م بشجب دخول تركيا العثمانية الحرب في صف دولتي الوسط (ألمانيا والنمسا) وضمنيا شجب انحياز الخديوي عباس حلمي الثاني للأتراك ـ وكانت النتيجة خلع البريطانيين له، وتنصيب حسن كامل «سلطانا» وهو أيضا من أسرة محمد علي (ومن قبل) كانت الحماية البريطانية قد فرضت على مصر، وبالتالي قد زاد اللون البريطاني في الحكم الثنائي بالسودان.

توقيع «سفر الولاء» اشترك فيه الزعماء الآخرون المرحومان عبدالرحمن المهدي ويوسف الهندي، وزعماء قبليون من شمال ووسط وغرب وشرق السودان.

لما توفي السيد/أحمد الميرغني سافرت للعزاء ضمن وفود من سنجة (مثل سائر المدن الأخرى) ورأينا الختمية بسنجة ينهمكون، فترة ليال عديدة، في نوع من الذكر (على روح المرحوم).

رحلة أغبش:

واغبش بعد أن ترك النيل الأزرق وراءه، كانت رحلته بالقطار متجهاً الى كسلا، فإن صديقه الطيب عبدالحفيظ كان يقيم هناك في تلك الأيام، والرحلة كانت خلال أيام عيد الفطر ١٣٥٥هـ (الذي يعادل ١٩٣٦م).

العجيب أن أغبش وجد معه بالدرجة الرابعة بالقطار زميليه القديمين في زاوية الختمية ـ الخليفة ضوي والخليفة أحمد الحاج التبيدي ـ فاحتللنا ركنا نتحارس فيه أمكنتنا وأمتعتنا، ونتشارك فيه أكل زوادتنا. فإن أغبش كان حريصاً على النزول بكل محطة.

الدندر، الحصيرة، الحواتة، جبل قرين، النحل، المتنة، ود الحورى، (وطبعا القضارف)!

بشكير بريال:

ما كان أغبش يتوقع مستقبلين، وحيث أن القطار الذي وصل في المغرب يبقى ساعتين بمحطة القضارف، قرر أن يذهب الى السوق وشراء سجاير (آفة تعلمها وأنهكته ٣٨ سنة من ١٩٣٥/١٩٧٣). وما كاد ينزل حتى سمع منادياً باسمه، فذهب اليه وعرفه بنفسه فهو صديقنا الحاج يوسف بشير (الأخ الأصغر من آل بشير اخوان، وعميد أسرتهم الآن، زادنا الله من بركة وجوده).

أكد لي الأخ يوسف أن الوقت كاف للعشاء بمنزلهم، وبالفعل طعمنا وجبة ساخنة، طبعا كانت أحسن من «الزاد الذي كان من الدجاج المحمر في الليلة السابقة، وعلى كل حال كنا في الشتاء».

في طريق العودة الى السكة الحديد عرجنا على دكان الاغريقي نيكولا واشتريت علبة سجاير بحاري

(صفيح) ٥٠ سيجارة بـ١٢,٥ قرش واشتريت بشكيراً كبيراً قوي النسيج بعشرة قروش (أغبش كالعهد به شديد التبذير والبعزقة).

محطة الشوك:

أمكننا أن ننام بمكاننا المحتكر من الدرجة الرابعة... وقد اكتشف أغبش أن المرء يمكنه أن ينام على (الرف) بغرفة الدرجة الرابعة وهو ضيق العرض ولكنه طويل وكان قد اعتمد على نظرية أوردتها احدى المجلات، فحواها أن «العقل الباطن» يحرس الشخص النائم.

في محطة الشوك صحونا على نداء الباعة من بنات الفلاتة، ومن أولاد البقارة، وهم يعرضون السمك المقلي، والشاي المغلي ـ وكان برد يناير مشجعا لنا على الأكل والشرب.

وبالأسف لم ينهض أغبش بمحطة ـ المقطع ـ عاصمة قبيلة اللحويين، (ولست أدري لماذا يسمون بلدهم مقطعا) ـ بتشديد الطاء المفتوحة ـ كما لم ينزل بخشم القربة التي كانت في تلك الأيام عاصمة الشيخ عوض الكريم أبو سن (نفسه) زعيم الشكرية.

غرب القاش:

ومحطة كسلا تقع غرب نهر القاش، والقاش خور متهور، معتاد أن يبتلع في كل سنة قرابين من الناس والبقر والجمال واللواري... ولكي يصل المرء الى كسلا، يلزمه عبور الخور (وهو على كل حال كان فارغا في يناير). أما في أسابيع الفيضان، في تلك الأيام حيث لم يكن قد بني الجسر، فان حمالين من أبناء الهوسا يحملون الركاب الذين يجلسون على عناقريب، فالحمال الهوساوي قدماه مدربتان على المشي فوق الحصيات الصخرية المتحركة بمجرى النهر (أما الجسر فقد بناه الاحتلال الايطالي لأول مرة عام ١٩٤٠، ثم جددته حكومة السودان ـ الادارة البريطانية ـ في السنوات التالية).

استقبلني بالمحطة الأخ الطيب عبدالحفيظ رحمه الله، وحل معي زميلا الرحلة ـ اللذان فضلا، بعد الوصول الى كسلا ـ أن يذهبا الى حلة الختمية للزيارة التي كانت هدفهما.

المزار:

والمزار بالختمية هو مسجد السيد الحسن أب جلابية..

ويقول الختمية ان المسجد بناه عثمان (الميرغني الأقرب) وهدمه عثمان (دقنه) وسوف يعيد تشييده عثمان (أمر لم يتم بعد).

وكان الخليفة ضوى قد قال لي انه لا أحد من الختمية يمكن أن يغتني، ما لم تتم اعادة بناء مسجد السيد الحسن أب جلابية (وكما هو واضح، فان مليونيرات الختمية الآن بالكوم!).

وقد أخذني الأخ الطيب عبد الحفيظ (في اليوم التالي) الى حلة الختمية حيث رأينا المسجد ـ والأضرحة ـ وكان هناك زوار كثيرون، وخصوصا من النساء، فاليوم من أيام العيد.

وزرنا السيد الحسن نجل السيد أحمد الميرغني بحلة الختمية.

وفي نفس حلة الختمية زرنا شيخا كبيراً هو «السيد الحسن الغرقان» من نفس الأسرة الميرغنية ـ وكنا في الباب، ضمن كثيرين، دفعنا «الزوارة» ريالات الى الخليفة فساقنا الى البرنده التي كان يرقد فيها السيد الغرقان، على عنقريب، وقد صاح فينا بعصبية.. قبلكم (يعني مكانكم ـ بفتح القاف والباء وسكون اللام) ثم قال «الفاتحة» ـ ورفع يديه بالدعاء ـ ثم انصرفنا.

الكارة:

وذهبنا الى «الكارة» ـ وهي حي في داخل مدينة كسلا، بقرب مكاتب الحكومة.. وهناك استقبلنا السيد محمد عثمان (ابن أحمد الميرغني) رحمه الله وكان قد اشتهر بنزعة التحرر (عرفناه في الميدان السياسي والصحفي في الخمسينات، وكان بالفعل أقل افتعالاً للتوقر.. وكانت الصحف تذيل اسمه بكلمة «شمبات» بين قوسين، لأنه أقام في هذه الضاحية العاصمية، وذلك لتمييزه عن ابن عمه السيد محمد عثمان نجل السيد علي، الذي بدأ تدشينه، وحاول الخطابة على الجماهير مع المرحوم صديق المهدي بميدان كتشنر يوم أول يناير ١٩٥٦).

وكان حديث كل من السيدين (محمد عثمان والحسن) بكسلا ـ في محضري ـ مع صديقي المرحوم الطيب عبدالحفيظ، قد انصب (أكثره) على المعاملات التجارية مع أريتريا، التي كان جو حرب العدوان على الحبشة يخيم عليها.

وردت كلمة «البولسيتات» عشرات المرات في حديث كل من السيدين والبولسيتات يعني الترخيصات التجارية باللغة الايطالية.

باختصار كان كل من السيدين يدير تجارة خاصة به مع أريتريا، والطيب بطبعه تاجر، وكان في تلك الأيام وكيلاً للتاجر الأرمني الكبير فيليب كالباكيان.

مراغنة كسلا:

الفرع الميرغني المقيم بأريتريا هو من سلالة السيد جعفر ـ نجل الشيخ محمد عثمان الكبير مؤسس الطريقة ـ وجعفر له ديوان مدائح، وهو أيضاً مؤلف «قصة المعراج النبوي» التي يطالعها الختمية في مساء يوم ٢٦ رجب من كل عام (ومن تقاليدهم بسنجة انهم كانوا يأكلون معها فطيرة الفينو المسقاة باللبن والسكر).

تعاون مع الطليان:

وكان يقيم ببلدة أغردات ـ حتى الأربعينات ـ السيد جعفر حفيد جعفر المذكور في الفقرة السابقة وهو نجل بكري وكان للمذكور أخ يقيم في كرن، وكانت لهما أخت اسمها «علوية» علمت أن السيدة عاوية كانت لها رتبة عسكرية، سمعتها ولا أذكرها، وهي كلمة طويلة مؤلفة من عدة مقاطع لاتينية ـ بحسبانها ضابطة في الجيش الايطالي.

السيدة مريم التي كانت تقيم بسنكات ـ وهي سيدة محترمة ـ هي أخت علوية المذكورة، ويذكر القراء انه في أوائل أيام الاستقلال أن بعض مراغنة أريتريا قد حاولوا زراعة أنفسهم في المجتمع السوداني، فلم يفلحوا بسبب قانون علم الفيزيولوجيا.

في فصل تال سوف تأتي لمحات عن فترة الاحتلال الايطالي لمدينة كسلا ـ وقضية عبدالمجيد سلطان الذي اتهمه البريطانيون بالخيانة العظمى بدعوى معاونته للغزاة الايطاليين ـ ودافع عنه استاذنا الدرديري احمد اسماعيل المحامي وبكى على المنصة حين سمع الحكم بإعدامه ١٩٤١ (في تلك الأيام كان البريطانيون قد حاولوا توجيه تهمة مماثلة للسيد/ محمد عثمان ـ شمبات ـ وتهيبوا)، ولكن العجيب أن جاكسون باشا ـ بتاع مروى ـ في كتيبه عن بلاد السودانيين في الولاء للامبراطورية قد زعم للسيدين الشابين بكسلا تعاونا مع حكومة الخرطوم أثناء فترة الاحتلال الايطالي القصير ـ وسنرى ذلك فيما بعد.

عبيدك بالباب:

كان الأخ الطيب قد عرفني منذ ١٩٣٣ بالأخ محمد الخليفة طه (في تلك الأيام لم يكن قد صار ود ريف - وليس في جيبه بصل ولا بتاو) وقد بدأنا المكاتبات والمهاترات قبل ان نتشاوف.

وجدت محمد الخليفة طه بكسلا - وسعدت جداً - ومنذ يومه الأول وجدني مستمعاً للشعر الذي ينظمه او ينتحله.

انني اعجب لكون القضارف لها عدد من الشعراء منهم (محمد الخليفة طه، وخليل عجب الدور وهاشم الياس وابراهيم عوض بشير) ولا أكاد أذكر شاعراً من سنجة سوى المرحوم حسن نجيلة وهو شديد الاقلال.

كان محمد الخليفة طه يقول لي دعني انشدك لنجيلة (ينطقها بضم النون - وليس بفتحها كما نعرفها).. وبعد أن أصفق للأبيات التي يقول لي انها من نظمي انا محمد الخليفة طه، فأحاول سحب تصفيقي!

فيما بعد زادت مكاتباتنا ومهاتراتنا، ويروي م.خ. طه بنفسه انني كنت أعنون خطاباتي مذيلة بعبارة «شاعر آخر الزمان» وكانت خطابات سوق كسلا يوزعها شيخ ينادي على العناوين، ومنها محمد الخليفة طه شاعر آخر الزمان!

كان م.خ. طه بكسلا يعمل سكرتيراً للسيد محمد عثمان الميرغني (نجل السيد احمد) وقد علمت انه لا يقبض راتبا، فكتبت اليه مرة أصفه ببيت الشعر القائل:

عبيدك بالباب المبارك لابث

بذل وفقر فيه غاد وماكث

والبيت من ديوان عبدالله المحجوب الميرغني شيخ الطريقة الميرغنية (وهي أقدم من الختمية) والديوان شعره منظوم بمتابعة الحروف الهجائية.

تعهدات المستشفى:

ولائم كسلا عرفتني بالعم الخليفة احمد عروة - ونجله محمد الحسن - وقد ظلا يقيمان فيما بعد بالقضارف متخصصين في التعهد لأغذية المستشفى، وكانت لهما سمعة حسنة في هذا العمل.

اقول هذا لانني درست بسنجة أعمال التعهدات للمستشفى والسجن ومقاولات المباني وتقديم الأعلاف للجيش، وقد عرفت أن أرباح المتعهدين لهذه الأشغال ترتكز دائما على التلاعبات.

مثلاً يقدم المرشح لتعهد المستشفى عطاءه على أساس تسليم رطل اللبن الحليب بثلاثة مليمات، للمنافسة، بينما ثمنه في السوق تعريفة، وتسألهم من أين تأتي بالفرق فيقولون لك - انه يأتي من تخفيض الكمية بالاتفاق مع الطباخين - وهذا على حسب غذاء المرضى.. ثم يعتمدون على تقلبات أسعار الخضروات واللحوم والأسماك - حسب المواسم - ثم على الطفرة بأثمان السلع التي تطلب فجأة بدون ان تكون مرتبة بانتظام...الخ.

أولاد المسلمين:

عرفت بكسلا الأخ المرحوم الحاج منصور عطا الله - الشديد التقوى والورع وكان في تلك الأيام وكيلاً لشركة سنجر الامريكية، لتوزيع ماكينات الخياطة.

الأخ الحاج منصور رجل ظريف، أخبرني أن جده من الاقباط الذين أسلموا ومع أن الجد كان حسن الاسلام، الا انه كان يزجره في طفولته من اللعب بالشارع «مع أولاد المسلمين»!!

عمل المرحوم منصور في أيام الحرب العالمية الثانية بمصلحة التموين بالخرطوم، وفي أيامه الأخيرة في السبعينات كان سكرتيرا للشركة المحتكرة لاستيراد الشاي.

معارف:

من المعارف الذين اكتسبتهم بكسلا في أسبوع واحد من يناير ١٩٢٧ المرحوم الطيب الدويح ـ صاحب المكتبة الميرغنية إذ ذاك ـ والسيد عبدالرحمن مصطفى، وكان وارثا للولاء في البيت السيد أحمد الميرغني، وصديقا للنجلين.

وعرفت الأخ فضل الله احمد ـ صهر آل الخليفة طه، ثم صهري شخصيا في الثمانينات.

وسعدت في كسلا بمقابلة الأخ المرحوم مزكي الحويرص، وهو زميل دراسة، عايشته فيما بعد اسابيع في أريتريا ١٩٤١، وقد فقدناه حيث مات في الغربة ببلدة فورت لامي التي كانت تابعة للسودان الفرنسي، هذا الاسم كان يشمل تشاد التي تضم المدينة المذكورة كما يضم عدة أقطار من افريقيا الوسطى الى مالي.

بؤس الأسلوب التلغرافي:

لماذا لم تستطع مذكرات أغبش أن تقدم للقراء قطعة وصفية انشائية ممتعة تجعلهم يحسون بروعة جبل كسلا ومشاهد توتيل، وأشياء أخرى يذكر معها الشعراء والمغنون نهر القاش والفراش؟..

انني أقرأ في أحيان نادرة صفحات من الأدب الوصفي ـ بأقلام ادباء حقيقيين فيشتد أسفي على ضياع حياتي مع هذا «الانشاء اللاهث».. الذي مع بؤسه لا أخجل ولا أستحي (والاختشوا ماتوا) من عرضه في هذه المذكرات الغبشاء. ـ بمعنى الكلمة الأخيرة ـ.

هل يوجد سبيل ـ وأغبشكم في السبعين (١٩٨٥/٧/٢١) ـ لغرس موهبة أدبية حقيقية بعد الآن؟
ـ أم أنني حقا وصدقا ـ في الصيف ضيعت اللبن؟

مدثر البوش وأغبش في رحلة البحث عن الجذور بقرية عصار

لماذا تغير مسار خط سكة الحديد من المفازة الى الحواتة؟

أكرمني أصدقاء آل عبد الحفيظ بالقضارف بولائم متلاحقة لما وصلت اليهم في يناير ١٩٣٧ (المرحومون الشيخ محمد حمد ابو سن والشيخ كرار كشة والسيد احمد حامد موسى ـ حكيم السعية وغيرهم).

وبالامارة حضرت زواج الاخ بلة سليمان الشايقي وكان من الضروري أن أذهب الى بلدة عصار ـ البلدة التي ولد بها والدي ففي طفولتنا كان يقال لنا أن لوالدكم (جنينة) بعصار تركها لابني اخته (عشان يعيشوا من وفرها) وأبناء الأخت هؤلاء هم أولاد محمد صالح وقد كررت هذه القصة كثيراً للأخ المرحوم الطيب عبد الحفيظ. فلما عاد الى القضارف أرسل لي قائمة بشكل (شجرة النسب) تضم أسماء عشرات من الرجال والنساء هم ذرية أولاد محمد صالح ـ أبناء أخت والدي ـ والذي كان يقيم بالقضارف (ابننا) اسماعيل سليمان (المشهور باسم كساب) وكساب اسم بلدة أخرى مجاورة لعصار يدار بها سوق للمحصول.

عبأنا لرحلة عصار مع اسماعيل كساب والمرحوم احمد حامد موسى.

ولما وصلنا، وجدنا قدامنا القاضي الشرعي الجديد مولانا الشيخ مدثر البوش ـ أدام الله علينا بركة وجوده ـ وكان مثلي يبحث عن الجذور من المغاربة وقد اتضح انها جذور متقاربة بالنسبة له ولي.

في الحقيقة أنه كان يقال لنا في طفولتنا ان للشيخ علي البوش ابنة هي قريبتكم ـ وهذه الابنة هي اخت الشيخ مدثر كما هو واضح ويمكن لمولانا ان يفسر لنا الأمر.

في واد مدني فبراير ١٩٨٣ في مأتم شقيقي علي رجب رحمه الله ـ بهرتني ذاكرة مولانا الشيخ مدثر البوش حيث قال لي انه اجتمع بي في عصار يناير ١٩٣٧ وكان عمري ٢٠/٢١ سنة والحقيقة احدى وعشرين سنة ونصف.

كانت الذبائح التي ذبحت لاكرامنا مشتركة والأقارب من الشباب أو الشيوخ رجالاً ونساء كانوا تقريباً كلهم من عائلة واحدة.

وذهبنا الى منزل ود زائد ـ ناظر قبيلة الضبانية ـ القبيلة السائدة في المنطقة ـ وكان الشيخ عوض الكريم ود زائد رحمه الله معتكفا ـ فاستقبلنا وكيله الشيخ عمر ود مردس (بضم الميم واسكان الراء وضم الدال) وهو أخوه من أمه.

رأينا شيوخ الضبانية مشلخين مثل الشايقية ويمكن أن يفيدنا عن هذه النقطة فتاهم الشيخ عطية محمد سعيد الداعية الاسلامية ـ وهو نجل فقيه الضبانية وله عرق في المغاربة (الشاعر القضارفي هاشم الياس حينما رثى شيخهم سماهم (بني ذبيان) وهذه قبيلة عربية مشهورة في الجاهلية).

كان ود زائد مشهوراً بالكرم وقيل إن قدح الطعام الذي يقدمه للضيوف كان يحمله أربعون رجلاً من (أضراس حديد بجوانبه) وهو باختصار عبارة عن (زورق من الخشب) يعوسون اللقمة (العصيدة) ويلقونها على جوانب الزورق ثم يفرغون عليها حلل الملاح ويتحلق القوم حول هذا القارب ليأكلوا حتى يشبعوا فوجا بعد فوج.

كان ود زائد سجينا بسجن السائر بأمدرمان بأمر خليفة المهدي وأثر عنه انه في أثناء مجاعة سنة ١٣٠٦هـ انه قال ـ لو خلونا في بلدنا نزرع (القبوب) ما كان حصل الحصل.

والقبوب صقع شاسع كان الناس يذهبون اليه بالمئات لزراعة الذرة في المساحات (الماهلة) واسألوا عنه الريفي فقد كان في شبابه (أغبش) وذهب الى هناك... القبوب كان تحت ادارة ناظر الضبانية ود زائد.

تذاكر مشايخ المغاربة مع مشايخ الضبانية سيرة أسلافنا ـ الشيخ مدثر البوش وكاتب هذه السطور.
ذهب معي بعض الأهل الى أطراف البلدة وقالوا لي هذا مكان (جنينة أب رجب) وقد رأيت حفرة ـ قالوا انها الأثر الباقي من (المترة).
يتضح مما سلف أن أقاربنا بعصار كانوا من المغاربة وهم أقارب والدة أبي... أما اصله من ناحية أبيه فسوف اتركه لسياق آخر..
ومن القوم الذين ذكروا والدي بالقضارف وعصار شيوخنا المرحوم الفكي عبدالرحمن (والد الأخ حسين عبدالرحمن الخبير الزراعي زادنا الله من بركة وجوده).
كذلك زارتني الأخت المرحومة والدة محمد عبدالله محمود واخوانه ـ وبكت متذكرة اسلافنا بعصار.
ومن ناحية والدتنا كان لنا أقارب بالقضارف من العركيين يتزعمهم شيخنا المرحوم حسن الريح.
وكذلك مجموعة بقرى الدلسات والحميليات كان يتزعمهم الشيخ المرحوم يوسف الناير.

الاقامة:

في القضارف أقمت بمنزل السادة بشير اخوان.. وكان الأخ المرحوم الحاج عوض بشير رجلاً مستنيراً يقرأ الصحف ويناقش السياسة والمواضيع العامة (وكما قلت من قبل فان هذه هي صيغتي لاحترام إنسان العصر).
ذهب الأخ الحاج يوسف بشير الى القلابات تمهيدا لفتح الفرع لي هناك ولما عاد أفاد تقريره ان الحالة واقفة ـ وهذا تعبير تجاري من الكساد وذلك بسبب توقف الحرب العدوانية من ايطاليا ضد الحبشة ـ وقد زادت الفوضى لعدم استقرار السلطة ، وبالتالي توقف وصول القوافل التجارية (حيث يحمل الأحباش بضائعهم على ظهور البغال) . فان الطرق مليئة بكمائن الشفته ، وهم قطاع الطرق في الحبشة وتنطبق عليهم تلك الفكاهة التركية:
(قبض الجنود على قاطع طريق وأحضروه أمام الغازي مصطفى كمال ـ الذي قال له لماذا يا رجل لا تنضم الى الجيش الوطني وتدفع نفسك عن مذمة قاطع الطريق ؟
قال الرجل ، لكمال اتاتورك : انا غاز مثلك ! وسميتموني قاطع طريق لأن رجالي قليلون ـ وأنت مثلي سموك غازيا بسبب كثافة رجالك ضحك مصطفى كمال ـ وأقنع اللص بالانضمام الى الجيش التركي).

استقرار بالقضارف :

قال لي المرحوم عوض بشير ـ دعنا نترك فكرة فرع القلابات مؤقتا ـ واعمل معنا (كاتبا) بالقضارف ـ فلم أرفض لأن القضارف بها بريد منتظم ومناقشات أدبية وسياسية .
(في المرحلة الأولى عرفت الريفي والمرحومين السلمابي وميخائيل بخيت وآخرين) .
فتحت فرعا من مكتبتي بسنجة تحت ادارة الأخ المرحوم السلمابي حيث ظلت تصل المجلات باسمه عدة شهور ـ ولكن فرعنا لم ينجح لأننا لم نستطع منافسة الأخ المرحوم حنا تسفاي (حبشي وصهر ميخائيل بخيت) .
وفي الحقيقة ما كان لنا ان نحاول منافسته في هذا المجال الذي كان ضيقا في الثلاثينات .

وكالة الروطل :

كما يعلم القراء ، فان نشرة اخبارية موجزة بالانجليزية ـ من وكالة رويتر ـ يمكن التقاطها في كل صباح

بكل مكتب تلغراف ويجري توزيعها على كبار ممثلي السلطة في القضارف ـ تقليديا ـ كان (اللواء) وهو القومندان البريطاني لفرقة العرب الشرقية وهو أعلى موظف رتبة ـ ويتلوه مفتش المركز.

وكانت نشرة رويتر تباع باشتراك شهري لمن يريد من التجار . وكان الأخ المرحوم عوض بشير يحضرها لي من التاجر اليوناني كيكوس جوانيدس فأترجم الاخبار المتعلقة بذيول الحرب الحبشية الايطالية ـ على ورقة أخرى يجعلها الخليفة عوض موضوع الونسة في كل يوم .

وبرندة عوض بشير كانت تجمع مجموعة من الناس وتضج بالضحك في الساعات السابقة للظهر .... فان عمنا المرحوم الحاج على الكردي كان كثير المزح مع اشخاص عديدين خصوصا الأخ دانيال روفائيل جريس

أما اغبش فقد كان يراقب العم الحاج احمد عبد الله (والد محمود واخوانه وهم بشير محمد سعيد واخوانه) كان عم أحمد رحمه الله ـ متواصل الصمت ـ شديد الحياء متواضعا جدا ولكنه كان واسع الخبرة في العمل التجاري . عظيم الحكمة في كل نصيحة أو مشورة تلتمسها لديه .. (وهل يوجد تعويض لشخصيات مثل عم أحمد ؟؟) .

سوق المحاصيل :

ودربني الأخ المرحوم عوض بشير على النيابة عنه في سوق المحاصيل .

ان طريقة القضارف في تجارة المحاصيل كانت تختلف عن طريقتنا بسنجة ـ فان القضارفيين يشترون السمسم والصموغ بالمزاد (الذرة فقط اذ ذاك كانت تباع بالمساومة ـ ولكنها فيما بعد ضمت الى المزادات .. وصارت بالوزن بدل الكيل) .

كانت القضارف تمتاز بفرض تنظيف المزارع للسمسم قبل عرضه ، يغربلونه ويبعدون عنه (الجوجاو) ـ اللوزات الفارغة ـ والغويش ـ ورق الشجيرات ـ والأتربة .. الخ .. كانت محاصيل المزارعين تعرض في أمكنة مستقلة لكل « النظارة » بشرط ان تكون الكمية المعروضة في كل (نمرة) بحجم معقول مثلا ٣٠ جوال سمسم على الأكثر وهذا ينطبق على الصمغ .

قبل المزاد يمر التجار أو وكلاؤهم على النمر . فيختار أحدهم النمرة أو النمر التي تعجبه ويكتب عنها مذكرة .

قبل المزاد بدقائق يجلس التجار بالترتيب بعد عملية قرعة لجلوسهم وينطق أولهم بالسعر الذي يشتري به النمرة المعينة ـ ويتزايدون . في السابق كانت المزايدة بالتعريفات ثم صارت بالملاليم .

ويحضر وكيل التاجر وزن نمرته ويخرج (القباني) ورقة باسم كل مزارع وزن كميته ويسلم التاجر قيمة النمر لوكلاء النظار . ويحضر كل مزارع ورقته لوكيل ناظره الذي يكون بيده قائمة بالأسماء والأوزان ويكون قد باشر (تضريب) قيمة كل وزنه .. فيدفع القيمة .

اكتشفت في أيامي تلاعبات بالاتفاق بين المستخدمين (القبانية ـ القبانيين) ووكلاء النظار ووكلاء التجار .. يخصم ٥ أرطال تلقائيا من كل وزنة ـ فاذا كانت الوزنات ٣٠ تكون حصيلة اللعبة ١٥٠ رطلا في كل نمرة مثلًا يكتبونها في آخر الكشف باسم «أحمد محمد» ثم يتقاسم (الأمناء) الثلاثة قيمة الوزنة الضمنية الأخيرة ـ واذا شكك التاجر الأصلي في مشتريات فانه سوف يجدها مضبوطة اذا أعاد وزنها. (لم يعرض المتواطئون ـ وهم البعض ـ وليس كل الأمناء على أغبش مشاركتهم ـ وبذلك فانه لا يريد ان يدعي لنفسه الانفراد بالامانة) ولكنه كان يفعل شيئا يغيظ البعض، وهو انه لموهبته الحسابية ـ كان يقول للمزارع: انت

تستحق كذا قرش.. مثلاً ١٦ رطلاً بسعر القنطار ٧٤ قرشا تساوي ١١٨ قرشا وأربعة مليمات وهذه عملية بسيطة يحسبها أغبش بدون قلم حتى الآن. وقد اشتهر أغبش بهذه الموهبة الحسابية واستفاد من هذه الشهرة فيما بعد.

العشور :

كانت ضريبة العشور بمناطقة سنجة تقدرها لجان على المزارعين بعد رؤية زراعاتهم ـ قبل الحصاد ـ ولكن في القضارف كانت عشور السمسم تحصلها السلطات من التجار بأسواق المحاصيل ـ ومع ان هذه الطريقة تضيع الضريبة على المستهلكات والمخزونات والمهربات ـ فانها بالفعل أضمن وحصيلها أوفر. والصمغ كانت تحصل عنه عوائد بنفس الطريقة. الذرة في الثلاثينات كانت عشورها في القضارف يجري تقديرها بواسطة اللجان ـ ثم جرى ضمها الى قاعدة التحصيل من التجار بالاسواق.

ود أب صفية :

(انت في الأبيض وما بتعرف ود أب صفية ؟؟)

ود أب صفية هو الامام الداعية الولي صاحب القبة المشهورة.

نظام أسواق المحاصيل بالقضارف كان قد اقتبس من اسواق كردفان. ولدى تدشين النظام الجديد في أوائل الثلاثينات.. دبرت السلطة رحلة لنظار القبائل بالقضارف وهم رجال أقوياء وكانوا يتنافسون أو قل يتحاسدون ـ وهم المرحومون الشيخ حمد ابو سن (وكيل ناظر الشكرية ـ لأن النظارة كانت كبيرة تبتلع في جوفها البطانة التي تمتد اضلاعها الى رفاعة بالنيل الأزرق والى ضواحي الخرطوم والى ضواحي شندي والى ضواحي كسلا. ومن مدن النظارة القضارف ورفاعة وخشم القربة والمفازة...الخ) والناظر بكر مصطفى (وربما كانت الحادثة التي أريد روايتها في عهد احد انجاله ـ أرجح نصر الدين قبل عبدالله بكر) ـ نظارة بكر كانت تضم قبائل نازحة من دارفور. وآل بكر (منهم الرشيد الطاهر) ينحدرون من أسرة ذات سلطة قبلية كانت تحكم سلطنة المسبعات بكردفان، في عصر السلطنة الزرقاء، ونظارة بكر كانت تمتد الى حدود الحبشة من ناحية القلابات.

والناظر موسى يعقوب كان يتزعم قبائل برقو وكان رجلاً ذكيا ـ يقال انه رشا المهندسين البريطانيين الذين خططوا السكة الحديد ـ بحيث اخترق منطقته من الحواتة الى جبل قرين الى قلع النحل ـ بدلا من منطقة جيرانه آل أبي سن وهي متاخمة تماما للمفازة ـ جبل قلي ـ جبل بيلا .. ثم تصل الى قلع النحل .. موسى يعقوب هو والد يعقوب الذي كانوا يسمونه الامير وقد مات منتحرا في السبعينات والناظر ود زائد ناظر الضبانية ..

في الابيض ـ أثناء حفلة شاي ـ وقف المرحوم موسى يعقوب مع مدير مديرية كردفان ـ وهو بريطاني، وهمس له بكلمات .. فلما انتهى الحفل ـ جاء المدير للناظر موسى ووضع يده في يده وأركبه الى جانبه وذهب به.

انزعج النظار جدا فلما عاد زميلهم موسى يعقوب تقاطروا عليه برغم حسدهم وسألوه : الحكاية شنو ؟ ـ أنا قلت للمدير أنا داير ازور ابوي ود أب صفية !!

(روى لي القصة الاخ المرحوم كرار كشة) ..

أهل اللباس البوجه
المابعومو عكس الموجه

لاحظ المرحوم عوض بشير رغبتي في الخروج مبكرا في الساعة السابعة صباحاً فأوكل لي أمر فتح المحل بالسوق، حيث كان ينتظرني صديقي علي حسن الهوساوي الذي ما زال يعمل مع أبناء عوض بشير.

وعلمت ان جدي المليك عبدالله شرف الدين (والد المرحوم الشيخ بابكر) قد وصل الى القضارف زائراً لصديق شبابه الشيخ حمد أبو سن فواليت عدة أيام التعريج عليه في كل صباح. وفي اليوم الأول استقبلني المرحوم محمد حمد أبو سن - الذي صار يعرفني - وقادني الى ضيفهم في غرفة مخصصة له.

الشيخ حمد.. ولي الله؟

مما أخبرني به جدنا المليك انه يلاحظ ان تصرفات الشيخ حمد أب سن تكاد تجعله من أولياء الله. وقال لي انه ينوي أن يسأله (الفاتحة) - يعني أن يلتمس منه الدعاء له - ونصحني أن أفعل مثل ذلك - وفي ذلك اليوم قدمني للشيخ حمد باعتباري حفيده (ولكنني لم أطلب الفاتحة!).

والحقيقة ان الشيخ حمد أب سن رحمه الله كان يجمع حوله الفقراء - العابدين - والفقراء المساكين (بمثلما عرفناه في الثلاثينات عن المرحوم عبدالمنعم محمد عبدالمنعم الثري المعروف بالخرطوم).

وفي إحدى الأمسيات كنت مدعواً لافطار رمضان مع الشيخ محمد حمد أبو سن ولما دخلت من الباب وجدت الشيخ حمد (الاب) يجلس مع عشرات المساكين من الفلاتة وغيرهم - وبعضهم من طبقة الشحاذين - وأمامهم عشرات السلطانيات المشاريب وباشريات الفتة واللقمة (العصيدة)...الخ.

وكان أغبش مدعواً لمائدة أخرى بخلاف هذه المائدة التي تعج بغبش بعضهم برصى وبعضهم مجذومون.

الشيخ عوض الكريم:

ولم اعرف أن جدي المليك قد سافر في اليوم السابق فلما جئت في الصباح وجدت غرفته بها ضيف آخر كان هو الشيخ عوض الكريم الناظر الكبير للشكرية - ونظارته معترف بسلطتها آنذاك في كل من مديريتي كسلا والنيل الأزرق. والنظارة موزعة على اخطاط (جمع خط).

الشيخ حمد أب سن كان يدير خط أب سن القضارف... وكان يوجد خط بالبطانة ببلدة (الصباغ) ثالثة (ريرة) و(الصفية)... المشهورتين اسطوريا (ألا تعرفون الأسطورة؟؟ يقال: انصرف الاعرابي الذي كان يزعم انه مظلوم وهو يهدد... فناداه الشيخ أب سن - الذي كان مديراً لمديرية الخرطوم بالعهد التركي وقال له: شن بتسو؟.. رد الاعرابي: بس بولع كدوسي بين ريرة والصفية!! (ومعنى هذا التهديد انه سوف يحرق المرعى) فرضاه مدير المديرية أب سن).

وتوجد شياخة ثالثة ببلدة رفاعة.

وجدت الشيخ عوض الكريم أب سن رحمه الله - يأكل - والشيخ محمد حمد أب سن بين يديه ممسكا بهبابة يهب بها الطعام كي يبرد قليلاً (من شروط العصيدة عندهم ان تكون شديدة السخونة - والأكل بالأصابع).

وقد تراجعت من باب الغرفة مسرعا - فلا سلام على طعام - ثم وجدت من أنبائي بسفر جدي المليك.

تمرد المثقفين:

من ناس رفاعة جمعت معلومات كثيرة فحواها ان المتعلمين منهم كانوا ساخطين على معاملة الشيخ عوض الكريم لهم. فهو يجلس على عنقريب صغير ويترك لهم السجادة امامه... ويشرب جبنة القهوة وحده ويولع السجارة من السجارة من نوع السجاير (أبو محفظة) ـ ماتوسيان وجمسراجات..

أحد مشايخ التعليم برفاعة جاء من الخرطوم بالاجازة وسمع الشيخ عوض الكريم بوصوله دون ان يزوره... ولما سئل الأستاذ قال انه لا يريد الجلوس على الواطة أمام شيخ الشكرية.. فأرسل له الشيخ ـ ولما لبى الدعوة استقبله بمناداة الأولاد أن يضعوا للأستاذ كرسيا فوق (وليس الى جانب) طربيزة الصفرة!

المرة الثانية التي رأيت فيها الشيخ عوض الكريم كانت بالقضارف سنة ١٩٤٣ تقريبا وقد كان يجلس الى التاجر اليوناني كيكوس جوانيدس وكان سكرتير اللجنة التجارية ـ التي عمل معها أغبش أمينا (للسنديكة) ـ مخزن بضائع التموين ـ وقد أحضرت مبالغ كبيرة من المال للخواجة ـ وسلمت على الشيخ ـ ثم أوضحت لكيكوس تفاصيل الفلوس. وكانت الثقة متوفرة فوقع على المستندات بدون إعادة عد ربطات البنكنوت.

التفت الشيخ نحوي وقال لي: أنت حسّاب يا ولدي ـ الله يديك قروشن تحسبن (تعليقي: الا تعرفون أن الشيخ عوض الكريم أمه ابنة عم أبيه)؟!

ما لبث الشيخ عوض الكريم أن توفي في منتصف الأربعينات ـ وقسمت نظارته الى قسمين احدهما (الشكرية مديرية كسلا) والثاني (الشكرية النيل الأزرق). وتقرر توريث النظارة عن طريق الانتخاب ـ وكان من بين المتنافسين (شقيق المرحوم) وهو المرحوم علي عبدالله أبو سن ـ الذي عرفناه مديراً ناجحاً في سلطنة علي دينار وكتب كتاباً جيداً عن تاريخ دارفور.

نجح صديقنا المرحوم محمد أحمد أب سن في الانتخابات وظفر بنظارة الشكرية مديرية كسلا (شاملة للبطانة من خشم القربة الى رفاعة الى الخرطوم).

قسم رفاعة قد آل الى آل أب سن المقيم بها أولاد عبدالله (اخوان عوض الكريم) وأولاد حلمي واخوانه ـ ومنهم محمد أحمد حلمي أب سن الذي كان وزيراً في أيام الجمعية التشريعية ١٩٤٨ ـ واستوزر أيضا في العهد الاستقلالي ـ وهو واحد ممن عناهم المرحوم محمود الفكي في قصيدته بقوله:

ناس أب سن وأب جن جاطوها
ربوها وما صفوها
أهل اللباس البوجه
المابعومو عكس الموجه

اتضح بعد وفاة الشيخ عوض الكريم أبو سن ـ رحمه الله ـ انه كان محسناً ـ يعرف توزيع الصدقات الخفية ـ وقطع الطريق ـ ان الشيخ حمد أب سن رحمه الله كان محدثا وقد ظل يروي قصص احداث كثيرة ومثيرة شهدها في شبابه ـ وبينها حوادث قطع الطريق.

نحن في منطقتنا نقول لقطاع الطرق (الرباطين) و(النهاضين) أما كلمة (الهمباته) فلم تكن معروفة عندنا. ويبدو انها كانت مستعملة في غرب السودان.

أقدر ان الشيخ حمد كان في حوالي الثمانين حينما توفي في سنة ١٩٤٠ (كنت عائداً من مصر في يوم الكريسماس ١٩٤٠ وفي الخرطوم أبلغني الأخ المرحوم ميخائيل بخيت بنبأ وفاته ـ وواصلت رحلتي حيث

ادركت امتداد أيام المأتم).

أريد أن أقول ان الشيخ حمد ـ رحمه الله ـ كان في شبابه في أواخر الأيام التركية (٢٥ سنة في سنة فتح الخرطوم وقتل غردون ١٨٨٥) ونضج في فترة المهدية. واستقبل الحكم الثنائي ١٨٩٩ وهو في التاسعة والثلاثين ـ وفترات الفوضى وقطع الطريق كانت متوفرة في العهود الثلاثة.

وفي سنجة كان عمنا المرحوم محمد ود العوض (وهو شيخ جعلي مواز في السن للشيخ حمد) يتحدث عن ممارسات لقطع الطريق.

وفي الحقيقة أن أغبش قد استمع لحكايات كثيرة عن الرباطين وعلى ألسنة أشخاص كانوا رباطين واستمع الى مجادعات الدوباي المنسوبة الى لصوص الجمال من الشكرية والبطاحين والكواهلة (الأخيرون أهلنا) وقد استمعت الى قصص (كرم) زعماء اللصوص الذين كانوا يذبحون غنائمهم للضيوف.

وفي سجن واد مدني ١٩٥١ ملأت ثلاث كراسات بدوباي اللصوص المسجونين ولكنها ضاعت مني.

لماذا بار القيفي؟!

لاحظت ان الشيخ محمد حمد أب سن ـ رحمه الله ـ يجلس جلسات طويلة على البساط على الأرض يستقبل وفود الأعراب ويستمع الى حكاياتهم وشكاويهم ـ والقهوة توزع على الوافدين حتى ليظن المرء أن هناك مأتماً.

وكان أغبش قد وصل مع المرحوم الى درجة من المباسطة ـ فقال له يوماً: والله أنا ما أتمنى شغلانة شيخ العرب دي لنفسي..!.

وحكى لنا الشيخ محمد رحمه الله أن مدير مديرية من البريطانيين ـ أظن اسمه كان بيلي ـ قد زار والده وشرب المدير مرطبات وشاياً مع حلوى على النظام الانجليزي ـ ولما أراد أن يتحرك قال له الشيخ حمد: القهوة!

قال الخواجة: دى القهوة البوًرت القيفي؟

وضحك الشيخ حمد.

لما ذهب الخواجه سأل محمد أباه عن حكاية القيفي.

قال الشيخ حمد: القيفي واد في البطانة كان قد روي من مياه الأمطار وتوجبت زراعته.. ولكن رجال قبيلة الشكرية ظلوا في كل صباح يتجمعون ويقول قائلهم: نذهب للزراعة بعد شرب القهوة ـ والقهوة يشربونها بكرى ـ وتني ـ وتلتاوي.

والنهار تشتد حرارته.. فيقولون نزرع باكر.. واستمروا على هذا المنوال الى أن ملأت الحشائش الوادي وامتصت المياه وبالتالي بار القيفي بسبب القهوة!

الشكري يعدي يومو خنق:

كل زعماء الشكرية الذين رأيتهم من آل أب سن كانوا يتميزون بالصبر والحلم ـ واعتقد ان المثل الذي يضرب بصبر أصهارهم الجعليين أكثر انطباقاً على الشكري. والمثل الذي أعنيه هو القائل (الجعلي يعدي يومو خنق) أي أنه يصبر يوماً كاملاً على حبل المشنقة. (أو أن تكون أصابع المعتدي على رقبته).

أحضر المضيف كفتيرة كبيرة ملأى بالشاي ووزع الكبايات على ضيوفه وكانوا عشرة رجال من الشكرية ـ والحادي عشر من قبيلة أخرى.. ولما أراد ان يطبق لهم تصدى له الرجل رقم (١١) وقال له: (حرَّم تقعد تشرب معانا) وأجلسه بالقوة وصب له كباية وناولها إياه مكرراً له الحلف أن يشرب.

فلما ذاق المضيف الشاي لفظه من فمه وانتفض مذعوراً فقد كان الشاي ثقيلاً جداً شديد المرارة ـ ولم يكن فيه أي شيء من السكر.

أما الرجال الشكرية العشرة فقد كانوا مستعدين للتثنية والتثليث بدون أي كلام!

العمدة بشير مصطفى:

واقتضت مني عملية شراء السمسم ان أذهب الى بلدة كساب التي يقام بها (سوق) مرتين في الأسبوع. وهي على بعد ٢٠ ميلاً من القضارف.

كانت كساب تتبع نظارة بكر ـ وعمدتها كان العم المرحوم الشيخ بشير مصطفى ـ شقيق بكر بك الكبير ـ وعاصرناه وكان رجلاً داهية.

أراد عم العمدة بشير التخلص من مساعد الحكيم بالشفخانة فأرسل اليه في الصباح الباكر واعطاه ٥٠ قرشا وقال له: الليلة اصبحت مبسوط ودائرك تتبسط.

وجاء مفتش المركز وزيارته كانت معروفة عند العمدة واستعد لاستقباله.. ولم يكن مساعد الحكيم بين المستقبلين.. بينما كان ناظر المدرسة والمشايخ قد تزينوا واصطفوا للترحيب بالمفتش الانجليزي... وطاف الركب بمعالم البلدة ـ المدرسة وسوق المحصول وبقية السوق ولما وصلوا الى الشفخانة وجدوها مقفولة وسألوا عن مساعد الحكيم فخرج لهم وهو سكران يتعتع ويلغلغ ـ فأركبوه بوكس البوليس في الخلف وأخذوه الى القضارف.

ولكن عم بشير مصطفى مدح ناظر المدرسة للمفتش الانجليزي في زيارة أخرى فقال له: انه رجل فاهم دارس للتاريخ عرفنا منه حاجات وعرفنا ناسات كبار زي سعد زغلول ومصطفى كمال. وعظمة الدولة المصرية (ونتيجة المدح كانت بالطبع نقل ناظر المدرسة بسرعة)!!

قيل ان مدير النيل الأزرق كان قد سأله في إحدى المرات عن مفتشي المراكز وكلهم بريطانيون فقال لهم كلهم سمحين ولكن المستر فلان طوّل (بفتح الطاء وتشديد الواو المفتوحة) ومعنى الكلمة أنه مكث كثيراً. وكانت النتيجة نقل المفتش المعني.

واعد عولك:

في رمضان كنت سهران وقمت نعسان وجريت الى الدكان كي ألحق باللواري الى سوق كساب وقال لي المرحوم عوض بشير: كم تريد؟ قلت له ٥٠ فأعطاني نقوداً ولم اسمع رده ـ ولم أراجع النقود بل وضعتها في جيبي وذهبت.

واشتريت نمرة كان ثمنها أقل من خمسين جنيهاً ـ فأخذت الجنيهات الزائدة وسلمت الباقين الى أمين الناظر بدون أن أراجعه أيضاً.. وفي العصر لاحظ عوض بشير انني قلت له ثمن النمرة كم وأربعين وأرجعت له جنيهات قليلة ـ فقال لي: ولكنني أعطيتك ٦٠ ـ غالطته فسكت ـ ولكنني في الليل تذكرت وقلت له في الحقيقة أنا لم أراجع الفلوس ـ لا في القضارف ولا في كساب وبكرت في اليوم التالي فذهبت اليها بعربة مخصوصة بـ ٧٠ قرش توجهت في كساب الى الشفخانة وكان يديرها الأخ احمد يوسف ـ رحمه الله ـ (وهو قريب السادة بشير اخوان وصهرهم) وحكيت له القصة فاتفقنا على مقابلة أمين الناظر ومواجهته بدعوانا أننا أعطيناه ١٠ جنيهات زيادة ـ مؤكد ـ فإذا أقر كان بها وإلا فانه بيننا (اليمين في واعد عولك).

ونفذنا دورنا في المسرحية فقال الرجل انه أيضاً لم يعد الفلوس وبعد الصرف لاحظ وجود زيادة وحتى الآن لا يعرف كم هي.. وهذي أوراقي راجعوها معي والزيادة تكون حقتكم ـ وقال: ان الأهالي كالعادة يتركون له (الفكة) فراجعنا الأوراق ووجدنا الزيادة ٩٨٠ قرشا. فأعطاني إياها (رحمه الله) بكل سماحة.

في القضارف قيدت الفرق على حسابي في دفتر الزمامات ـ أكثر من ١٠٠ قرش بما في ذلك المصاريف. فأحس الأخ عوض بشير تحركي فقام وفتح الدفتر وشطب المبلغ (بالمناسبة كان تجار القضارف الوطنيون في تلك الأيام لا يستعملون طريق الحساب النظامية المعروفة باسم (الدوبيا) وكانت في سنجة مستعملة بالمحلات الكبيرة).

ماذا يعني واعد عوك:

(واعد عوك) معناها (ودع أهلك) لقب يطلق على مصحف قرآن مخطوط مودع بأحد (المسايد) ـ جميع مسيد ـ وهو مدرسة القرآن ـ وكان المتخاصمون يذهبون الى هناك لأداء القسم من أجل فض الخصومة ـ وكان الاعتقاد السائد ان الحالف بالزور لن ينجو من النكبة.

في النيل الأزرق كانوا يختارون الحلف في الخصومات بضريح (مدني ود حامد) ولست أعرف أين مقره؟

سكرتير المؤتمر:

في سنة ١٩٤٦ زرت الناظر عبدالله بكر ـ رحمه الله ـ في مناسبة عزاء وقدمني الى عمه العمدة بشير مصطفى ـ رحمه الله ـ وهو يضحك قائلاً (دا فلان سكرتير لجنة المؤتمر بالقضارف العايزين الملك فاروق ملك على السودان) ـ وهو يشير طبعا الى قرار مؤتمر الخريجين برئاسة الزعيم أزهري رحمه الله قبيل شخوص وفد السودان الى مصر.

وكنت قد عرفت الناظر عبدالله بكر منذ أيامي الأولى بالقضارف عام ١٩٣٧ حيث قدمني اليه أحد الأصدقاء أثناء حفلة شاي وبسرعة قال لي انه يقرأ مقالاتي في جريدة السودان ولفت نظره مقالي بعنوان: (السودان في طريقه الى التكرنه) ويهمه ان نلتقي لمناقشة هذا الموضوع وحدد لي موعداً على الغداء.

وكلا الناظرين المتنافسين محمد حمد أب سن وعبدالله بكر جمعناهما في لجنة المؤتمر الفرعية بالقضارف سنة ١٩٤٢ (لكنهما انسحبا بعد تقديم مذكرة المؤتمر ومنع السكرتير الاداري عضوية الاداريين والقضاة في نفس ذلك العام)... ولكن الناظرين وأقاربهما واصلوا العمل معنا في لجنة التعليم الأهلي، وكانت استمرارية المرحوم محمد حمد أبو سن في هذه اللجنة أطول لأن عبدالله بكر قد اختير (وكيل وزارة) للدفاع ضمن المجلس التنفيذي ١٩٤٨.

* * * *

دردشة عن تجارة المحاصيل المطرية

ومع ان السادة بشير اخوان كانوا يديرون تجارتهم الخاصة في المحاصيل فقد كانوا يحتفظون بتوكيل شركة بوكسول وشركاه في شراء الصمغ العربي أو تسلم مشتريات من تجار محليين ثم تجهيز الصموغ للشحن بالاشراف على تنظيفها واعادة تعبئتها وكان أغبش تقريباً يقوم بهذا العمل كله فقد جاء من سنجة وهو على دراية به وكانت شركة بوكسول تكلفنا في الموسم بإرسال برقية يومية نذكر فيها أرقام الوارد والأسعار وأسماء المشترين وكنا نستعمل رموزاً فمن الشاذ مثلاً أن نقول أن الشيخ صماغ قد اشترى ١٠٠ قنطار ولذلك اتفقنا على أرقام نرمز بها لاسماء كبار التجار.

في السياق ألاحظ أن الأدب التجاري باللغة العربية في ذلك الوقت (الثلاثينات) كان مقصراً في خلق (كود) أو (شفرة) بينما اللغة الانجليزية لدى التجار الكود المعروف باسم (بنتلي) ويجري استعماله حتى الآن بالسودان ونجد الاشارة اليه في العناوين المطبوعة لبعض الشركات وبالطبع فان هذه الشفرة مكشوفة اذ يمكن للآخرين ان يحلوا رموز برقيتك ولكن هذا بالطبع يحتاج لمجهود، وشفرات الحكومات والجيوش والجواسيس كلها يمكن حلها بعد تعب. وكانت تصلنا في أيام الموسم برقية يومية من الأبيض عاصمة كردفان عن أسعار الشراء للصمغ الهشاب هناك. فإن سوق الأبيض للصمغ ذات مقام عالمي لأنها أكبر الأسواق في العالم لهذه السلعة ولكن التجار في الأبيض يؤثرون في الاسعار بطريقة مصطنعة فإذا أرادوا إنزال السعر يحضرون مخزوناتهم ويعرضونها بنفس الطريقة التي نراها الآن تستعمل في أسواق العملة لتخفيض سعر الدولار مثلاً.

واعتقد ان الصمغ الهشاب أكبر انتاجه في كردفان تأتي بعدها مديرية كسلا مركز القضارف فقط ثم الفونج (سنجة والروصيرص) ثم النيل الأبيض (كوستي والجبلين) ودارفور لها قسط وأعالي النيل لها قسط ضئيل (مركز الرنك).

وكما هو معروف فإن السودان هو أكبر قطر منتج لهذه السلعة ومجال زيادة انتاجها متاح.

لماذا الصمغ العربي:

ان صادرات صمغنا لا تستعمل في التلصيق ومن السذاجة ان يقول أحدنا كيف نستورد الصماغات ونحن أصحاب الصموغ فالصموغات بها غراء مستخرج من الحبوب (الجلوتين) ألا ترى الجلادين والصرماتية ينضجون مديدة الدقيق للتلصيق؟ انها افضل من الصمغ.

كنا نظن أن الصمغ الصادر يستعمل في صنع الحلوى وهذا صحيح ولكنه ليس كافياً وقال لي قاموس اكسفورد ان الصموغ تستعمل في تصليب قماش الكتاب (التيل) واعتقد ان هذا ليس كافياً فعسى أن يفيدنا كيمائيو الصناعة الذين تكاثروا عندنا وكان الانجليز يحرموننا من هذا التخصص حتى الصيدلية بأبسط أشكالها مثل قراءة كتالوجات شركات الأدوية (فان التركيبات قد انقرضت تقريباً) كان السودانيون محرومين منها.

جيمس لينج:

أقدم شركة كانت متخصصة في تصدير الصمغ هي شركة جيمس لينج وكان يمثلها (أولاد بنو) وهم يهود وقبل ان نعرف شركة بوكسول وهي انجليزية أيضاً والشركة الفرنساوية (فيما بعد سميت الشركة العقارية السورية) عرفنا شركة الواردات والصادرات السودانية (آل توتونجي وهم شوام).

ويقال ان شركة يونس احمد وعبدالمنعم محمد كانت أول مؤسسة سودانية تقتحم حرم تصدير الصمغ وجاءت بعدها شركة حسنين أبو العلا وأولاده وعثمان صالح وأولاده ومحمد أحمد البرير واخوانه...الخ.

وصادرات الصمغ من السودان كانت معروفة في القرن التاسع عشر أيام الحكم التركي ١٨٨١/٢١م والمهدية ١٨٩٩/٨٥ وكانت صموغنا تصل الى مصر على ظهور الجمال أو الى سواكن وجده والسويس على البحر الأحمر ولعل هذا سر تسمية هشابنا الصمغ العربي.

قلع النحل:

صمغ القضارف كان أكبره يرد الى سوق قلع النحل وهو هناك أجود بمعنى ان (الكعكول) اكبر حجماً. كان سوق قلع النحل للصمغ يدار مرتين في الاسبوع ويصل اليه الصمغ من أنحاء منطقة واسعة.

التجار الهنود:

لم ير أغبش التجار الهنود المعروفين باسم (البنيان) والبنيان شجرة هندية الا في أمدرمان حينما زارها قبل القضارف ولكنهم موجودون بالقضارف وكسلا وأكثرهم ببورتسودان.

الهنود (هندوس) لا يأكلون اللحوم (ولكنهم يأكلون اللبن والعسل الأبيض) ويصنعون خبزهم أحياناً من الدخن ويستهلكون كثيراً من البروتينات النباتية مثل الفول واللوبيا والفاصوليا (وهم مغرمون باللوبياء العفن) في بورتسودان يدير الهنود مؤسسة اسمها بيت مسكين يودعون بها حيوانات وينفقون على اطعامها حتى تموت موتاً طبيعياً بدون ذبح إذا اشتريت من التاجر الهندي بضاعة فإنه يضيف الى آخر الفاتورة مبلغاً صغيراً من درجة قرش واحد لحساب بيت مسكين.

لماذا هذا الاستطراد؟ ان التجار الهنود متخصصون عندنا في الغالب في تجارة الاقمشة ولكن وكيل هركسونداس بالقضارف فكر في محاولة الإتجار بالصمغ ١٩٣٨ ولم تكن لديه خبرة فاستعان بشركة بشير اخوان وقد كلف أغبش بالسفر معه الى قلع النحل للشراء من هناك.

ركبنا اللوري وقد علق التاجر الهندي قربة تيل على جانبه ومعها كوز الومنيوم في الطريق شرب أغبش بالكوز فإذا بالتاجر الهندي يملؤه تراباً ويغسله بشدة مع ان التاجر المشار إليه كان يشـرب معنا القهـوة والشاي بأوانينا.

في القضارف كان يوجد تاجر هندي تخلى عن تحريم اللحوم وكما قرأنا في سير زعماء الهند فإن الكثيرين يتخلون عن هذا التحريم ولكن أفراداً لا جماعات.

سمرة المحاصيل:

في الخرطوم وأمدرمان كان يوجد اشخاص مهمتهم عرض وعقد صفقات محاصيل بالنيابة عن تجار المحاصيل مثلاً كنا نرسل برقية هكذا المشرف المختار أمدرمان صرفوا ٣٠ سمسم فلان فيفهم السمسار أننا نعرض للبيع ثلاثين طناً من السمسم المغربل تسليم بورتسودان.. (بضاعة حاضرة).

ولكن البعض يبيعون على المكشوف مثلاً يبيع احدهم ألف طن وهو في شهر سبتمبر للتسليم في نوفمبر وديسمبر مثل هذه المغامرة أحياناً تربح كثيراً إذا كان الموسم بطيئاً وأحياناً تكون الخسائر مدمرة.

اشتهر السادة روفائيل جريس وأولاده بهذا النوع من المغامرة وفي إحدى السنوات كانت خسارتهم فادحة ولكن والدهم رحمه الله كان قوي الارادة وقد صمد حتى غطى الصفقات المكشوفة ولذلك لما توفي في أوائل الأربعينات كانت برقية أغبش لهم في الخرطوم (ماتت النزاهة) وصارت هذه الجملة المختصرة مضرب مثل في مجالس الأقباط.

اردت أن أقول ان اكبر أبناء روفائيل وهو عبدالسيد قد صار سمساراً للمحاصيل بالخرطوم أما ثالث السماسرة الذين عرفتهم فهو العم عزيز خير الذي كان يجلس بمحل هريدي بأمدرمان مع المرحومين الشيخين احمد عثمان القاضي ومحمد طاهر أزرق وهوايتهم المشتركة هي الشيشة.

الرهن بالبنوك:

كان عم المشرف مختار هو رجل ورع فقدناه منذ سنوات قليلة صديقاً للأخ المرحوم عوض بشير وهو بخلاف السمسرة كان يدير تجارة خاصة وكان له وكيل بالقضارف يقيم معنا بمنزل بشير اخوان بالقضارف (أولاً) المرحوم محمد بابكر من بري الشريف (والثاني) الشيخ شبور من المتمة.

ومنه سماعاً عرفت طريقه إيجاد رأسمال بمجرد الثقة.. شراء صابون بالدين بميعاد ثلاثة شهور وبيعه بالنقد بأقل من سعر السوق وتوظيف النقد في شراء صمغ وتخزينه في انتظار ارتفاع السعر ورهن المخزون بالبنك واستعمال الدين النقدي في سداد دين الصابون!

القضارف في الثلاثينات لم يكن بها فرع لأي بنك وحتى حساب بشير اخوان كان بأحد بنوك أمدرمان.

ضربات الصمغ:

الصمغ أحياناً كان يتيح فرصاً للاثراء لأن الأسعار كثيراً ما تتأرجح وقد لاحظت في خلال سنوات قليلة ان سعر قنطار الهشاب هبط من ١٠٠ قرش الى ٢٥ ثم صعد الى ٢٠٠ وفي كل طور من هذه الأطوار يغتني أفراد ويفتقر أخرون.

الجنين:

تنطق كما تنطق (الجنينة) ولكن بدون الهاء الأخيرة وكلمة الجنين تستعمل في الاشارة الى غابات صمغ الهشاب وهي محجوزة لا يقطع حطبها ولا يحرق بها فحم وسلطات نظار القبائل في الفونج والقضارف توزع الجنين اقطاعات للعائلات.

لدى انتهاء موسم الامطار يذهب اصحاب الجنين لاجراء عملية (طق اشجار الهشاب) باستعمال فؤوس صغيرة من نوع (الفرار) بتشديد الراء الأولى والطق هو تسليخ اللحاء من الشجر فتقوم طبيعيا الشجرة في الأيام التالية بإفراز المادة الصمغية مثل تجليط الدم لتغطية جروحها وفي البداية ينزف محلول الصمغ بكثافة ويتجمد في كتلة تسمى الكعكول يتراوح وزن الكعكول من أوقية الى ٤ أوقيات.

يبدأ صاحب الجنينة في جمع الصمغ اللقطة الأولى في ديسمبر ولقطة ثانية بعد شهرين ثم يشح الصمغ ويحدث اهمال يجعل اللصوص يعتدون على الجنين ويسرقون الصمغ غالباً في شهر ابريل وتسمى هذه الفترة جاغت.

الصمغ المطور:

الصمغ المجموع في آخر الموسم قد يكون ممطوراً أي ضربته الأمطار المبكرة وهذا يشتريه التجار بأسعار واطئة ويوزعونه بالخلط مع كميات كبيرة.

والصمغ عادة في أول الموسم يكون لينا شديد الطراوة ويحب الأطفال أكله وفي المخازن يجف وعادة يصل نقص الوزن الى ١٠ في المائة حينما يجف تماماً وأجود الصمغ للتصدير يكون في نفس العام ولكنه حينما يخزن لأكثر من عام فإنه يتكسر ويكتسب لوناً آخر.

أم سابو:

يوجد صمغ آخر بخلاف صمغ الهشاب أعني صمغ الطلح وهذا واطىء القيمة مع انه أكثر قوة في عملية التلصيق.

وصمغ الطلح طليق في الغابة لا تحتكر جنائنه ويسمونه أم سابو.

وكان وارد الطلح في القضارف قليلاً ولذلك كان تجار المحاصيل يتفقون على شرائه بدون المنافسة بثمن واطىء عليه ويتقاسمونه فيما بينهم وحينما تتجمع لدى أحدهم كمية كبيرة يحاول شراء مخزونات الآخرين لاكمال شحنة الـ ٣٠ طناً.

لم تكن توجد فرص كثيرة لاتفاق التجار من أجل زيادة أرباحهم فان الرواج يحتم «المنافسة» وخصوصاً حينما تكون فرص الشحن كافية.

سمسم القضارف:

ان سمسم القضارف جيد أبيض اللون وغني بالزيت ونادراً ما يكون مشروباً. سمسم سنجة أقل دسامة ولكن السمسم الجبلي من جهة الروصيرص أغنى من سمسم القضارف.

سماسمنا كانت تستهلك بشكل زيت في أنحاء السودان ويصدر منها فائض لمصر لصنع الطحينة والطحينية وتزين السميط وكانت سماسمنا تصدر الى إيطاليا كسوق أوروبية من اجل أغراض لا نعلمها.

زيت الطعام:

لم ير أغبش زيت بذرة القطن إلا بعد أن ذهب الى مصر في سنة ١٩٤٠ وفي سنجة عرف زيت السمسم وزيت الدملوج (ثمرة اللالوب) وعليه فان زيت الفول السوداني لم يذقه الا بعد الحرب العالمية الثانية.

في سنجة حتى الآن لم تقم بها معصرة زيوت آلية وكان صديقنا المرحوم احمد محمد ابراهيم قد خطط لاقامة معصرة آلية بسنجة في الخمسينات وذهب معه كاتب هذه السطور الى شركة متشل كوتس ولكنهم صعبوا له الأمور.

وفي القضارف رأينا المعاصر الآلية الكبيرة طاحونة للغلال ومعصرة للزيت في بناء واحد. رأيت مؤسستين من هذا النوع هناك لما وصلت عام ١٩٣٧م وكان يملك احداهما تاجر يوناني (كيكوس جوانيدس خليفة مخالي) الذي جاء مع الجيش الفاتح من ناحية الشرق في سنة ١٨٩٦ والثاني فيليب كالباكيان الارمني.

معاصر الزيوت في شرق كردفان اقتحمها السودانيون في وقت مبكر ومن روادها عمنا الشيخ مصطفى.

حجيتك ما حجيتك:

من احاجي حبوباتنا (طويل وما يلحق الكعكول)

أجب أن استطعت....

مقارنة بين سنجة والقضارف
هل يتعرض قضروف ود سعد للتحبيش؟

في سنة ١٩٣٢ زار من السوكي الأخ المرحوم الطيب عبدالحفيظ مدينة سنجة بدعوة من الأخ المرحوم أمين نابري ـ ولما عاد قال لي ساخراً ان سنجة وليد صغير فقلت له ماذا تعني؟ قال أعني انها بلدة صغيرة الحجم بالمقارنة مع القضارف فقلت له ان سنجتنا عاصمة مديرية ـ مديرية سنار التي كانت تمثل السلطنة الزرقاء ـ بينما كانت قضارفكم تائهة وسط بادية البطانة ـ وعلى درب غارات الشفتة من المكادة (الأحباش).

وفي سنة ١٩٣٧م اتضح لي أن للقضارف بعض الترجيحات:

أول ما يدهشني هو بناء السوق بنظام مخطط بناء متيناً ـ تتزاوج فيه قطع الصخر المنحوتة مع الاسمنت والطوب الأحمر ـ وان كان سوق القضارف ظل يشتمل على دثار من الدكاكين القديمة المشرورة التي تجد مثلها في أمدرمان وسنجة ووادي مدني وكسلا ... الخ.

وبخلاف مباني الحكومي ـ التي هي جيدة في كل مكان ـ كانت توجد مبان أهلية قليلة في ثلاثة شوارع غرب السوق. مبنية بالبناء المتين الذي وصفناه ـ وكان يملكها مع الشيخ حمد أبو سن، بعض التجار أقلهم وطنيون وأكثرهم أجانب وأرمن وأغارق وهنود وأقباط، بعضهم مستأجرون وهذا في الثلاثينات. ولا شك ان هذه المباني كانت تكاليفها غالية بمقاييس ذلك الزمن.

وقد ساعدت طبيعة أرض القضارف على متانة البناء ـ فالطبقة الطينية تحتها قاعدة صخرية ـ وفي سنجة اذا حفرت بئراً بطول عشرين قامة لا يعترضك حجر. ولا تحتاج الآبار في سنجة الى ديناميت ـ ولذلك رأينا مباني سنجة بالطوب الأحمر تنهار في عمر لم يزد على ٣٠ سنة وهذه القاعدة شملت المباني المصرية المتينة التي شيدت في السنوات العشر الأولى بعد الفتح (١٨٩٩-١٩٠٩) مثل مسجد سنجة السابق ـ ومثل ديوان المديرية ذي الطابقين ـ وكان البناء الوحيد ذو الطابقين بسنجة خلال النصف الأول كله من هذا القرن ـ بينما كان سوق القضارف يشتمل على جملة بنايات من طابقين.

وحتى القش فان «النال» الذي نسقف به في سنجة قطاطينا ـ خفيف وله شرش يجذب الحرائق ـ التي كانت عاتية بسنجة. بينما يعتمد القضارفيون اكثر منا على قش آخر هو «البوص» أقل جاذبية لألسنة النار.

والأمر الذي ساعد وما زال يساعد على انفجار السكان بالقضارف تركز الاقتصاد بهذه المدينة. فهي كانت عاصمة السمسم. ومع السكة الحديد في الثلاثينات صارت للذرة قيمة تصديرية (منطقة الفونج انتفعت أيضاً من انتعاش الذرة. ولكن سنجة لم تكن تتمتع بالمركزية ـ فشرق النيل منعزل من الروصيرص الى السوكي ـ وضهاري غرب النيل بعضها يتعامل مع سنار... وتجارة الحدود من كرمك وقيسان تتعامل مع واد مدني والخرطوم...

والحرب الحبشية (الثلاثينات) والأخرى العالمية (الأربعينات) انتفعت منهما القضارف اقتصادياً بتركيزها. بينما ظلت سنجة معزولة.

وكانت منطقة الفونج مهيأة للتوسع في زراعة الذرة مثل منطقة القضارف ـ فكلتاهما من مناطق زراعة الحريق التي انتعشت في الثلاثينات ـ وبالتالي استفادت المنطقتان من الزراعة الآلية التي أجريت تجاربها بمنطقة القضارف في أواخر الاربعينات وابتداء التوسع فيها مع الخمسينات (سمعناهم يقارنون القضارف بالكويت)!.

يجب أن يفهم القارىء مما سلف أن القضارف توسعت وهي مهددة بالتوسع اكثر ـ وبدأ الضرر يقع على أهلها بسبب شح مياه الشرب ومنافع أخرى ـ ولكن سنجة لن تصل في التوسع الى مزالق خطرة (رأيناها في السنوات الأخيرة غزوة من الاسمنت المسلح والمباني المتعددة الطوابق).

أغبش كانع:

في يناير ١٩٣٧. في اليوم الأول الذي استقررت فيه بالعمل بمحل «عوض وعلي بشير».

أخذني الأخ عوض رحمه الله في الثالثة ظهراً بالمقعد الأمامي من اللوري الذي كان يقوده الأخ واغنياك لوسنيان ـ أرمني كان يعمل سواقاً بجنيهات قليلة ـ ثم رأيته في الستينات صائغ حلي ذهبية بالخرطوم بعمارة أبي العلا. ولم أسأله عن مؤهلاته الفنية ولا التمويلية!

فرقة الحدير:

ذهب بي الأخ عوض أولاً على امتداد «ديم الخامة» ولا أدري سر التسمية فقد كان وما زال يسكنه أصدقائي آل كشه. وأحمد حامد موسى. وآل القاضي «محيي الدين واخوانه» وآل البربري وآل عبد الله محمود ـ كما كانوا يسمونه فريق «البقاسة» ولا أدري سر التسمية. ولكن بالحي تقيم العائلات الكردية والتركية ـ من بقايا التركية السابقة ـ وحتى أيامنا كان معروفاً أن بعضهم يربطون التركية والكردية ومنهم والد الأخ عباس قاسم ـ الذي كان ضابط صف بالجيش في الثلاثينات ووصلنا الى «الجبل وكانت ترابط به فرقة العرب الشرقية».

هذه الفرقة جندت بعد اخراج الجيش المصري ٢٤/١٩٢٥ وفرقة العرب تعار منها أورطة الى سنجة كنا نسميهم «الحدير» بضم الحاء وتشديد الدال المكسورة بطريقة مائلة الى الفتح.

العرب المشار اليهم في جنود الفرقة المذكورة ليسوا أبداً من أعراب البطانة وجيرانهم ـ لا شكرية ولا بطاحين ولا لحوين ولا ضبانية ولا بوادرة... الخ ـ بل ان العرب المجندين هم بجاويون وفي الغالب هم «الحلنقة» ـ المقيمون بكسلا. أقارب البكباشي عبدالله نور (و) حسين بك طاهر. وهم أقل بداوة من الهدندوة وبني عامر بمنطقة القاش وحدود اريتريا (ولا أشير الى الأرتيقة والسواكنية بطوكر وسواكن وسنكات وبورتسودان!).

درنا حول الجبل حتى رأينا المقابر. ثم ذهبنا الى ناحية قرية الجباراب (التي اتصلت الآن بالمدينة) وعبرنا «الميدان» الذي كان مخصصاً للمهرجانات ومنذ مدة صار من الامتدادات السكنية. ومررنا على قرى أخرى الآن ابتلعتها القضارف منها «روينا» و«طردونا».

ومررنا على «السرف ورأينا مزرعة كان يديرها متولي الاغريقي وكان يربي بها «كداريك» خنازير...

يدلك هذا على أن المياه كانت وفيرة وكانت بتلك المنطقة المحيطة بالقضارف عدة سواقي كان يملكها الحاج عثمان ـ زعيم الشايقية ـ والحاج على الكردي وآخرون (يقول لك القضارفيون ان سواقيهم كانت تكفيهم من الخضار ـ وملوخيتهم طاعمة وليست مسيخة مثل وارد كسلا!).

كانت مياه الشرب بالقضارف تنزح من آبار في داخل المدينة. ثم لم تعد تكفي فأوقفت زراعة السواقي وصارت مياهها تنزح للشرب.. وحتى هذه نضبت فرأينا مشاريع جلب المياه من دلسة ثم من نهر سيتيت وغير ذلك. فلا شك ان سكان القضارف قد تضاعفوا خمس مرات بين ١٩٣٧ و١٩٧٧.

ما هي الديوم:

وشملت دورة اللوري. ولكن في اليوم التالي. ديم بكر ومحطة السكة الحديد وسوق المحصول ـ وقرية «أبايو» وديم النور.

اني واصدقائي كنا نقيم في «ديم حمد» يعني حمد اب سن - ويبدو أن هذا الحي قد نشأ بعد المهدية. وديم النور - حي يدار ضمن القضارف. وهو منسوب الى «النور عنقرة» الذي كان محارباً في العهود الثلاثة (قبل وبعد المهدية).

اما ديم بكر - وبكر المشار اليه هو بكر بك مصطفى زعيم قبائل الفور - فان الحي كان يدار مستقلاً عن المدينة في تلك الأيام ويتبع نظارة بكر.

ودراسة تاريخ هذه الأحياء تتطلب مراجعة تاريخ معارك الشرق. مع جيش الفتح. ومع الاحباش - وأهم عنصر هو تفتت جيش احمد فضيل. الذي حاول الوصول الى النيل الأبيض بعد هزيمته في الشرق. وبعد سقوط امدرمان.

ومن الواضح ان تجمعات القضارف ومنطقتها كانت تحتوي على قبائل رحبت بالفتح الجديد تحت زعامة الختمية..

الجاليات بالقضارف:

أعجب لصديقي المسن خلف الله بابكر. وكيف يحتفظ في ديوانه بقصيدة غزلية عنوانها «ابنة الفران» والفران المشار اليه أرمني كان بالقضارف.

ان الأرمن بالقضارف كانوا اكثر منهم بالعاصمة والمعروف ان الآلاف من هذا الشعب كانوا قد هاجروا من تركيا أثناء حرب ١٩١٨/١٤ لأنهم في سبيل استقلال بلادهم قد حاولوا العمل مع العدو - وفتك بهم الأتراك بقسوة. ونرى لهم في هذه الأيام جماعة ارهابية عالمية تحاول الانتقام من الحكومة التركية الحالية.. ارمينيا ما زالت مقسمة حيث نرى الآن جزءاً منها يدار كجمهورية سوفييتية باسم «اريفان» بينما توجد مقاطعتان تركيتان هما القرص (و) اردهان..

أرمن القضارف عاشرناتهم ورأيناهم منذ الأربعينات يتسللون - خارج البلاد. وفي سنة ١٩٤٥ جاء لهم السوفييتيون بسفينة رست باسكندرية. وكنا نضحك مع شبان أرمن القضارف عن قصة الأرمني الذي سافر الى اريفان. ووعد أصدقاءه بأنه اذا أعجبته الأحوال سيكتب لهم بحبر عادي. واذا لم تعجبه يكتب لهم بحبر أحمر.. ولما جاء خطابه بالحبر العادي اشتمل على حاشية في أخر الصفحة أنه بالأسف لم يجد حبراً أحمر!

ولكنني سمعت عم بورتان يقول: اننا لا ننفع هناك ولا عتالين ولكننا نريد «و ت ن»!!

ان أرمن القضارف قد ذهبوا كلهم تقريباً ولكن الى أين؟

ان «أولاد البيض» يجدون تأشيرات من الخرطوم الى الولايات المتحدة ضمن «كوتة السودان من جداول الهجرة الامريكية».

بهذه الطريقة سافر الى الولايات المتحدة أغاريق - و - أرمن - ويهود و....الخ.

قانون «من هو السوداني» الذي سنه حكام الحكم الثنائي في أواخر الأربعينات يعطي الجنسية السودانية الى جميع رعايا السلطنة العثمانية المنتهية عام ١٩٢٤ (وبين هؤلاء سوريون وعراقيون ولبنانيون وحجازيون - وأرمن وأتراك...الخ).

يونانيون:

بالقضارف وجدنا في الثلاثينات خلفاء ميخالي وهم قبرصيون (كيكوس جودانيدس واخوانه) ووجدنا مجموعة «الشركة الحبشية» وهم شركاء من عائلات كان بعضها بالخرطوم مثل كرسونس - وبتسيلادس.. ويوجد أفراد من اليونان الكبيرة أو من قبرص يديرون متاجر وبقالات ومعمل ليموناده...الخ.

لاحظوا أن اليونانيين بالسودان كثيراً ما يكونون أقارب بعضهم.. أكثر يونانيي القضارف جاء بهم ميخالي...

كونتو ميخالوص جاء به خاله «كباتو» وكلا الرجلين جاء بعدد كبير توزعوا في أنحاء السودان.

مما يذكر: ان اللورد كرومر كتب في أحد تقارير السنوات الأولى بعد فتح السودان ١٨٩٨ أنه على الرغم من مرور فترة قصيرة.. فانك كلما رفعت حجراً بالسودان وجدت تحته تاجراً اغريقياً.!

الأقباط:

أبرزهم بالقضارف كان المرحوم روفائيل جريس وأولاده ـ والباقون أقاربهم ـ وبعضهم تسودنوا بدرجة شديدة في بلدة دوكة ـ وكلهم من آل المعلم سعد (أسلاف روفائيل) وكانت لهم مبادرات زراعية بالسواقي بمنطقة عصار (مع أسلافنا) منذ التركية السابقة.

العجيب ان السوريين لم يقيموا بالقضارف تقريباً وقد عاشرت هناك سليم موصللي رحمه الله وقد قال انكم يا سودانيون مش عرب لأنكم تتكلمون بالفصحى (وينطقها بكسر الفاء).

أفلا ترى ان حجته خاطئة؟ لقد رأى أغبش أعراباً في البادية يتكلمون الفصحى..

اليمنيون:

العجيب أنني في سنجة لم أر أكثر من ثلاثة يمانيين كان أحدهم طباخاً يصنع الفول بالسوق. والثاني خبازاً بفرن عم قاسم رحمه الله (رأيته مرات أخرى في اريتريا والقضارف) والثالث كان يجوب الشوارع ينادي على الطعمية ويسميها فلافل...

ولكنني رأيت من لا يقلون عن عشرة يمانيين بالقضارف بعضهم مستقرون لهم عائلات وأملاك وأولاد (مثل المرحوم الحاج عبده ـ والحاج أبو زيد ـ وغيرهما)... ولكن اليمانيين المستقرين بكسلا وبورتسودان بالمئات وهناك يمارسون عديد الأشغال ومنها العتالة والنقل بعربات الكارو...الخ.

في سنجة ـ لما كنا صغاراً ـ كانوا يحذروننا من أن يخطفنا اليمانيون (وأذكر حادث اختفاء ابن أحد جيراننا من العشرينات حتى الآن). ولكن في القضارف عرفت ان شبهة الخطف تلتصق ليس باليمانيين وانما بأعراب الزبيدية. وهم بدويون مقيمون بامتداد البطانة من كسلا الى الدامر ـ ولونهم شبيه بلون اليمانيين.

تحبيش القضارف:

منذ أيامي الأولى بالقضارف في الثلاثينات رأيت الأحباش. أحباش سنجة في الغالب «قاللا» وهم عندنا هناك غير مستقرين. يكسبون المال ويرجعون الى بلادهم.. ولكن في القضارف أحباشهم «أمهرا» ـ و ـ «تقرا» ـ بعضهم من الحبشة الأصلية وبعضهم من أريتريا.. وبعضهم في شكل عائلات (ومنهم مسلمون مثل الأخ حسن مكين والد محمد الفاتح السموال. لاحظ المبالغة في الطموح المتسامي!... منهم زعيم الرياضة الشيخ أمان) ومنهم آل تسفاي ـ صهرهم ميخائيل بخيت كان مولوداً بالخرطوم ـ ولأحباش القضارف كنيسة ارثوذكسية ومدرسة.

أحباش القضارف القدماء قضارفيون وسودانيون لا شك فيهم ـ ولكن القضارف معرضة الى «تحبيش» بسبب تسلل اللاجئين والاندماج وعدم وجود بشائر عودة الى بلادهم ـ لا تستغرب اذا سألت احدهم عن جنسيته ـ فقال لك انه «جعلتي!» ـ هل فهمت الأحجية أم تحتاج الى تركيب؟!

نظرة على سنجة:

ان سنجة أيضاً قد ابتلعت القرى التي كانت محيطة بها. ولكنها تظل أقل جسامة من القضارف.

صدق الأخ الطيب عبدالحفيظ رحمه الله حيث قال ان سنجة «وليد صغير».

تاريخ الصحافة السودانية

(١) بسرعة دعني أزعم أن الصحافة في السودان قد بدأت بغازيتة حكومة السودان، ونشرة رويتر - فكلتاهما جاءتامع الفتح عام ١٨٩٩م.

(٢) ثم خرجت جريدة «السودان» في أوائل القرن العشرين وقد كان يحررها ويديرها عملاء مخابرات من اللبنانيين المتمصرين هم ثلاث أسر محترفة للصحافة ومترابطة - عائلات «صروف» و«نمر» و«مكاريوس» - وهذه المجموعة من الأسر كانت تصدر بمصر «جريدة المقطم» اليومية ومجلة «المقتطف» الشهرية.. وتضع المجموعة اللبنانية المذكورة نشاطها في خدمة الاحتلال البريطاني الذي توطد بمصر منذ هزيمة العرابيين في سنة ١٨٨٢م (بينما كانت أسرة «تقلا» وهي لبنانية أيضاً تملك جريدة «الأهرام» تتعاون مع الفرنسيين وفي تلك الأيام كان التعاون مع الاستعمار الفرنسي أنظف!).

بهذه العقلية حرر آل نمر وصروف ومكاريوس جريدة «السودان» بالخرطوم، باحترام للحكام - في اطار الحكم الثنائي - وشجب لعهد المهدية.

يمكن القول انهم جلبوا لبلادنا أوليات فن الطباعة.. والصحافة وقد انتهى دورهم قبل الحرب العالمية الأولى... ولا بد أن يكونوا قد أتاحوا بروز أو طموح بعض الأدباء السودانيين..

(٣) نجد في فترة الحرب الأولى ١٩١٤/ - مجلة «الرائد» وهي أدبية كان يحررها مدرس سوري يدعى قليلات وأذكر شيئاً طريفاً وهو أنه قبل دخول تركيا العثمانية للحرب في صف دولتي الوسط (ألمانيا والنمسا) كانت السلطنة قد اقتنت طائرة سميت «أدرميد» وقد تبارى شعراء سودانيون منهم المرحوم أحمد محمد صالح والشيخ حسن عثمان بدري أطال الله عمره في تسطير قصيدة تحيي الطائرة العثمانية...

وقد أردت هنا أن أخرج بدلالة أن السودانيين لم يكونوا معزولين «عن العالم» وكانت لهم حتى في ذلك الوقت المبكر مواقفهم «الاسلامية» و«العروبية».

صحف انجليزية أخرى:

بخلاف الغازيتة التي كانت تصدر باللغتين الانجليزية والعربية وتشتمل على نصوص القوانين وعلى الاعلانات القضائية والرسمية.

ظهرت مجلة «سودان نوتس اند ركوردز» "Sudan Notes And Recordes" بالانجليزية في عام ١٩١٩م على أيدي لجنة من المثقفين الانجليز الموظفين - بعون من حكومة السودان - وقد ظلت هذه المجلة طوال ثلاثين سنة تنشر الأبحاث التاريخية والانثروبولوجية بأقلام المفتشين البريطانيين - الى أن سودنت في الأربعينات وعربت ودخل الى تحريرها العنصر السوداني مثل الأستاذ جمال محمد احمد (صار اسمها: «السودان في رسائل ومدونات»).

«حضارة السودان»:

في عام ١٩١٩م ظهرت جريدة «حضارة السودان» بتمليك اسمي مزيف للثالوث الطائفي (المرحومين الثلاثة السادة علي الميرغني وعبدالرحمن المهدي ويوسف الهندي)... وبدون دخول في تفاصيل حول فترتها الأولى قبل ١٩٢١م التي محصها صديقنا محجوب محمد صالح، دعني أشر الى أنها كانت تستهدف ايجاد رأي عام سوداني مستقل يعبر عن نزعة انفصالية ضد مصر وثورة ١٩١٩م - وقد تولى تحرير «حضارة السودان» الأستاذ حسين الخليفة شريف (والد زين العابدين حسين شريف الذي تولى تحرير جريدة «النيل»

في الخمسينات ـ وشقيق محمد الخليفة شريف أحد كبار مؤسسي حزب الأمة عام ١٩٤٥م ـ والأسرة الشريفية من بني عمومة محمد أحمد المهدي).

للمرحوم حسين شريف فضل صياغة عبارة «السودان للسودانيين» ـ وهذه الصياغة لا جديد فيها فإن لطفي السيد وسعد زغلول وغيرهم من زعماء «حزب الأمة» المصري قبل ١٩١٩م كان شعارهم «مصر للمصريين» في مقابلة مناداة الحزب الوطني (مصطفى كامل) بالتبعية العثمانية لتوكيد عدم شرعية الاحتلال البريطاني.

وكما هو معلوم فإن خصوم «الانفصاليين» لم يجدوا مطعناً في عبارة «السودان للسودانيين» إلا بقول «إنها كلمة حق أريد بها باطل» ـ وهذا الوصف نفسه مأثور من قصة رفع المصاحف من جيش معاوية أمام جيش علي بدعوى الاحتكام لكتاب الله.

ونحن في هذا الجيل يجب ان نعتز بعملية «توزيع الأدوار» ولذلك فإنني أرشح المرحوم حسين شريف كأول صحفي سوداني مجاهد.

علي عبداللطيف:

العجيب أن الزعيم علي عبداللطيف قد حوكم بالسجن لنشره مقالاً في الصحف المصرية وكانت نسخة من المقال موجودة بطرف محرر «حضارة السودان» ولم ينشرها ولكن المخابرات أخذتها وحوكم علي عبداللطيف بموجبها وسجن عاماً ـ والمقال مجرد مطالبة بتوسيع فرص التعليم ووجوب تخلي الحكومة عن احتكار السكر، مع انتقاد لمشروع الجزيرة (١٩٢١م).

فهل يسوغ لنا اعتبار علي عبداللطيف صحفياً؟

العربية الفصحى:

تولى تحرير «حضارة السودان» بعد المرحوم حسين شريف الشيخ أحمد عثمان القاضي رحمه الله ـ وكان قاضياً شرعياً واشتهر بالولاء للحكم الانجليزي ـ وهو على كل حال من فئة كانت ترى أننا في حاجة الى التعليم والتدريب على يد البريطانيين.

مع ذلك كان المرحوم أحمد عثمان القاضي معروفاً ومحترماً لدى الشخصيات المصرية ويعتبر صديقاً للأمير عمر طوسون ـ من الأسرة الحاكمة إذ ذاك بمصر وكان يعطف على السودانيين وقد اتيح له الانفاق على تعليم عدد من الشباب السودانيين، الدرديري أحمد اسماعيل ويعقوب عثمان وغيرهما ـ .

وكان أحمد عثمان القاضي يتكلم باللغة العربية الفصحى في حياته العادية كما كان ذا علم وفير.

اشترك أحمد عثمان القاضي في تأسيس حزب الأمة وكان من أعضاء المجلس الاستشاري لشمال السودان (١٩٤٦ـ١٩٤٨م).

لقد أسلفنا اعتبار قاعدة «توزيع الأدوار» وبموجب هذه القاعدة يحتفظ أحمد عثمان القاضي بمكانته في تاريخ الصحافة السودانية.

ملجأ القرش:

كان الأستاذ عبدالفتاح المغربي استاذاً بكلية غردون ومع ذلك كان يشارك في تحرير جريدة «حضارة السودان» مما أذكره انه كتب مقالاً يطالب فيه بإنشاء «معهد القرش» ـ معهد صناعي لليتامى ـ وقد أقيم فعلاً بواسطة تبرعات بسيطة تبدأ من «قرش واحد»..

كان هذا في أوائل الثلاثينات ومعهد القرش الآن معهد فني عظيم.

الفكرة مقتبسة من فكرة الأستاذ أحمد حسين زعيم جماعة «مصر الفتاة» الذي تبنى في تلك السنوات «مشروع القرش» لانشاء«مصنع الطرابيش» - غطاء الرأس الذي كان شائعاً بمصر وانتهى تقريباً بعد الحرب العالمية الثانية. (الطرابيش كانت تستورد من أوروبا، وخصوصاً النمسا)!.

الأستاذ المغربي - برغم انه صار فيما بعد عضو مجلس السيادة الأول عام ١٩٥٦م فإنه كان شديد الاعتدال في أفكاره السياسية - وفي سنة ١٩٤٨م برغم الجو المحموم للسياسة، كتب مقالة في جريدة «السودان استار» اليومية (Sudan Star) التي كانت تصدر بالانجليزية في الخرطوم، مشيراً الى «الوزارات» الاسمية في المجلس التنفيذي الانجليزية، تلك الوزارات والوكالات التي نالها المرحوم عبدالله خليل وأخرين منهم المرحوم عبدالرحمن علي طه ومكاوي سليمان أكرت والدرديري نقد - إلخ - فعدد (المغربي) تفوقاته الدراسية.

ثم ذكر أنه إذا استحق المذكورون الوزارات فهو شخصياً جدير بالصيرورة ملكاً يرتقي عرشاً! (وقد ترجم عبدالله رجب المقالة المشار اليها لجريدة «السودان الجديد»).

على كل حال، للأستاذ المغربي الحق في الذكر كصحفي قديم من واضعي أسس الصحافة السودانية.

مصطفى التني:

عمنا المرحوم مصطفى التني - والد المرحوم الشاعر يوسف مصطفى التني واخوانه - كان رجلاً لسناً وقد ارتبط اسمه بتاريخ جريدة «حضارة السودان» ليس كمحرر، ولا ككاتب ولكنه كان «محصلاً للاشتراكات».

كان يجوب أقاليم السودان في الشرق والغرب والشمال والجنوب، ويجعل الجريدة تصل الى عديد المدن والمحطات والأسواق.

بفضله صار السودانيون يسمون كل صحيفة «حضارة» وعبدالله رجب كان يبيع «الحضارات» بسنجة! (أي الصحف والمجلات المصرية والسودانية).

ولولا تمهيد المرحوم مصطفى التني ما كان يمكن انتشار المكتبات بأقاليم السودان.

لا تنسوا أن الراديو لم يبدأ الاذاعة بالولايات المتحدة وبريطانيا إلا في العشرينات... وبمصر في الثلاثينات... وفي السودان في سنة ١٩٤٠م وما بعدها.

أشهد لقد قرأت نبأ وفاة سعد زغلول في أغسطس ١٩٢٧م بسنجة على صفحات «حضارة السودان» - وبالأمارة كان ذلك في أيام المولد النبوي (ربيع الأول) راجعوا ذلك!

سليمان منديل:

عرفنا في العشرينات العم المرحوم سليمان داود منديل كناشر - نشر «راتب المهدي» ثم نشر كتاب «طبقات ود ضيف الله» وكان المذكور يمارس التجارة أيضاً ويستورد فوانيس الغاز من ألمانيا. ثم أصدر الأستاذ سليمان داود منديل «الجريدة التجارية» وهي تختلف قليلاً عن «حضارة السودان»...

دعنا نحتسب له فضل إثارة إهتمام السودانيين بالشؤون الاقتصادية.

في حوالي ١٩٢٤م شاءت الادارة الثنائية أن تصفي وجود «حضارة السودان» بالاتفاق مع سليمان منديل على ادماج «الجريدة التجارية» و«الحضارة» في جريدة واحدة باسم «ملتقى النهرين». وقد عاشت الجريدة ما شاء الله لها أن تعيش، وأذكر أنني قرأت على صفحاتها بحثاً عن «الدوباي» وما زلت أحفظ أبيات الفخر التي تقول: (نحن ولاد قريش ما فينا واحد خملة) ولكن «الملتقى» لم تكن شعبية مثل جريدة «السودان» التي أوجدها شيخنا المرحوم عبدالرحمن أحمد وسيرد ذكرها.

دعنا نلاحظ أن المرحوم سليمان منديل قد حافظ على ارتباط ما بدائرة المهدي، وقد صار أحد مديري جريدة «النيل» في فترة لاحقة.

النهضة السودانية:

ظهرت مجلة «النهضة السودانية» لصاحبها المرحوم محمد عباس أبوالريش في أوائل الثلاثينات وعاشت فترة قصيرة ـ اني لم اطلع عليها في وقتها لصغر سني إذ ذاك ولم أهتم بها فيما بعد ـ ومن الحق أن نقول ان المجلة قد خدمت «الأدب» وكانت أول محاولة من نوعها والأستاذ أبوالريش يستحق التكريم فإن مكتبته «النهضة السودانية» التي عاشت بعده لعشرات السنين ـ وحتى الآن ـ صرح عظيم يسبغ الفضل على أسرته كلها وهي لم تكن عاطلة من الأفضال فقد خدمت التعليم (المرحوم الاستاذ السني عباس أبوالريش) والطب (الدكتور إبراهيم عباس أبو الريش ـ رحمه الله ـ وهو ذو فضل أدبي أيضا. فهو مترجم كتاب «النيل الأزرق» تأليف مورهيد بطريقة فخمة).

مرآة السودان:

أنشأها المرحوم الأستاذ سليمان كشه في الثلاثينات وعاشت حياة متقطعة ـ وحاول أن يعيدها في الخمسينات أيضا.

وهي محاولة أدبية تنسجم مع وقتها والمذكور كان من رجال ثورة ١٩٢٤ وقد كفر بها وعمل ضد افكارها.

الكفر بتلك الثورة قد شمل آخرين منهم المرحوم عرفات محمد عبدالله والمرحوم صالح عبدالقادر ـ وكثيرين آخرين ـ.

المرحوم سليمان كشه في آخر أيامه قد قدم خدمة عظيمة لتاريخ الصحافة بنشره قصاصات كثيرة من صحافة السودان في الطاشرات والعشرينات ضمن كتيبات ـ تستحق إعادة طبعها ـ.

الفجر:

مدرسة «الفجر» ١٩٣٥ـ١٩٣٧م معروفة جدا وهي قد ضمت بخلاف عرفات، المحجوب وأحمد يوسف هاشم (وهذه المدرسة كان لها دورها في وضع لبنات الاتجاه الى تقرير المصير، والتلميح الى الاستقلال، ويتهمونها بمسايرة المخابرات التابعة لحكومة السودان لاجتماعات أساطينها مع المرحوم ادوارد عطية وهو مثقف لبناني كان موظفا بالمخابرات.

عرفات كان رئيس التحرير، ولم يعش طويلاً، وبعد وفاته لم تعش المجلة طويلاً ـ وهو يتميز عن زميليه بدوره في ثورة ١٩٢٤م.

المحجوب، مع أن دوره كصحفي قد تكرر بعد «الفجر» فإن تكريمه يجد مبرراته الكافية كسياسي وكشاعر وكأديب.

أحمد يوسف هاشم سيجد مجال الذكر كصحفي ممتاز لعمله في روز اليوسف والنيل ـ والسودان الجديد ـ ورئاسته الممتازة لاتحاد الصحافة السودانية.

هناك أديب ذو نزعة سياسية وكان له دور متكرر في الحركة الوطنية هو الأستاذ جمال أبو سيف، قد ساهم في تحرير النهضة والفجر.

عبدالرحمن أحمد:

كان شيخنا المرحوم الأستاذ عبدالرحمن أحمد من رجال التعليم، ثم من محرري «حضارة السودان» - وكان من ضمن نشاطاته إدارة «مكتبة الهداية» بأمدرمان باسم نجله أحمد جمال الدين وهو صحفي مخضرم يواصل عطاءه حتى الآن.

في سنة ١٩٣٥م أنشأ الشيخ عبدالرحمن أحمد جريدة «السودان» نصف أسبوعية (مثل الحضارة والملتقى) وشاركه في ادارتها المرحوم الأستاذ محمد السيد السواكني.

كانت جريدة «السودان» جريئة، وقد اقتحمت أشياء ممنوعة من قبل مثل قضية «المناطق المقفولة» - الجنوب على الخصوص.

برز على صفحات جريدة السودان ١٩٣٥م والسنوات التالية كثيرون منهم المرحوم خضر حمد والمرحوم حيدر موسى (دعني أذكر أنني عبدالله رجب قد نشرت لي هذه الجريدة منذ ١٩٣٥م مقالات عديدة من أهمها مقالة بعنوان «السودان في طريقه الى التكرنه» أوائل ١٩٣٧م - وقبلها مقالتي التي هاجمت فيها هيكل باشا لأنه وصف السودانيين بكلمة «عبيد» في مقال بمجلة الهلال ١٩٣٦م).

وخضر حمد على الخصوص يستحق الذكر لأنه من زعماء جماعة أب روف التي شملت ابراهيم يوسف سليمان وعبدالله ميرغني واسماعيل العتباني وآخرين كونوا حزب «الاتحاديين» الذي كان يطالب بالاتحاد مع مصر - مع احتفاظ السودان بكيانه الذاتي.

زعامة الدرديري أحمد اسماعيل وثالثهم أحمد السيد حمد ورابعهم الشاعر أحمد سنجر! (وهذا استطراد سابق لأوانه لتخفيف الملل!).

محمد عبدالرحيم:

في الثلاثينات أيضا أصدر شيخنا المؤرخ المرحوم محمد عبدالرحيم مجلة باسم «أم درمان» - لم أطلع عليها - ولكنها تظل مذكورة لأن الشاعر التجاني يوسف بشير قد عمل بها ويقال ان المقالات المجموعة في كتاب باسم «نفثات اليراع» هي بقلم المرحوم التجاني وقد انتحلها العم المؤرخ.

والعم المرحوم محمد عبدالرحيم على كل حال مذكور ومشكور كمؤرخ وقد خلف آثاراً وكان يتميز بعقلية صحفية هي التي جعلته يرصد أحداث التاريخ التي عاصرها في عهد المهدية وعهد الحكم الثنائي.

يسرني أن أذكر أن «الصراحة» في الخمسينات قد تلقت من المرحوم محمد عبدالرحيم ونشرت له عديد المقالات التاريخية.

فيما بعد - في هذه المذكرة - سنخصص فصلاً قصيراً عن المؤرخين الصحفيين.

شركة الطبع والنشر:

في سنة ١٩٣٤/ ١٩٣٥م ظهر هتلر بألمانيا ونقض معاهدة فرساي بإعادة تسليح نهر الراين، ودخل مع موسوليني الزعيم الفاشي بإيطاليا في «محور» وهدد الأخير الحبشة، ثم اعتدى عليها - وفي تلك الفترة اعتدت اليابان على الصين وانتزعت منشوريا - ونشبت الثورة المضادة بأسبانيا بقيادة فرانكو بتشجيع من ألمانيا وإيطاليا.

هذا الجو الدولي أوحى الى بريطانيا بفكرة تهدئة الشعب المصري، فبعد عقد اتفاقية مياه النيل ١٩٢٩م مع محمد محمود وفشل مفاوضات النحاس - هندرسون ١٩٣٠م وتولي صدقي باشا الحكم بدستور مزيف ١٩٣١م - وفشله - أوحت بريطانيا بإعادة دستور ١٩٢٣م والاتجاه الى إجراء معاهدة مع «حكومة قومية» -

وتمهيداً لذلك:

نظموا رحلة من باشوات مصر الذين كان لهم نشاط تجاري وزراعي «غرفة تجارة القاهرة» و«الجمعية الزراعية الملكية» وسياسيين وصحفيين منهم المؤرخ عبدالله حسين المحرر بالأهرام الذي كتب كتابا في ثلاثة أجزاء عن تاريخ السودان ـ بعد الرحلة ـ.

كان الغرض أن يتعرف المصريون على السودان وامكانات الانتفاع المتبادل في المجالات التجارية والزراعية والثقافية والسياسية ـ على ضوء الاتجاه الى تعديل اتفاقيتي الحكم الثنائي ١٨٩٩م.. ومهد انجليز الخرطوم للبعثة المصرية بالتفاهم هنا مع المرحوم السيد عبدالرحمن المهدي والخواجة كونتو ميخالوص ـ اليوناني ـ والتجار آل أبوالعلا وآل عبدالمنعم.

جاءت البعثة وقد مدت لها الولائم والحفلات بالخرطوم وأمدرمان وواد مدني والأبيض وكسلا وبورتسودان. اما في الجزيرة أبا فقد «ردم الأنصار البحر» لتسير عربات الوفد المصري بدون معدية! ـ على خور الجاسر ـ.

اثمرت الرحلة اتفاقات تجارية وزراعية قطاع خاص ـ لا تهمنا هنا ـ ولكن يهمنا أنها ادت الى فكرة اصدار جريدة «النيل» يومية برئاسة تحرير محرر مصري هو الاستاذ حسن صبحي والمذكور ما زال عائشاً بالقاهرة وقد شاخ وكف بصره وصار يسير بقيادة كلب مدرب. ومنذ سنوات كان يصدر مجلة خاصة في القاهرة بتسامح من السلطة المصرية بعد التنظيم القائم للصحافة.

تكونت شركة الطبع والنشر لاصدار جريدة النيل بتمويل مشترك من دائرة المهدي والتجار متشل كوتس (شركة بريطانية) وكونتو ميخالوص وأبو العلا وعبدالمنعم.

وصدرت «النيل» عام ١٩٣٦م تقريبا، واشترط محررها المصري حسن صبحي تجنيد خريجين جدد لتدريبهم على التحرير ـ واصل من هؤلاء الأستاذ محمود مصطفى الطاهر ـ وكانت «النيل» تخصص صفحتين كبيرتين للأخبار الخارجية التي تجمعها بواسطة «الالتقاط اللاسلكي» وكانت صحافتنا من قبل تعتمد على نشرة «رويتر» التي تتحكم في انتخاب بعض أخبارها مصلحة البوسته وتعيد توزيعها بإشارات مورس على شبكتها السلكية في أنحاء السودان ـ وذلك لأن «الاذاعة» لم تتأقلم بالسودان إلا في سنة ١٩٤٠م بينما كان الأثير يعج بإذاعات عديد الدول (والشركات أيضاً)!..

جاءت جريدة «النيل» بثاني زنكغراف في السودان بعد مصلحة المساحة، والثالث السودان الجديد ١٩٤٧م والرابع مطابع ماكوركوديل ١٩٤٩م والخامس مختار ستكيان...الخ.

محمود مصطفى الطاهر ربما كان الصحفي الوحيد الذي يعرف تلك الفترة في جريدة النيل وصحافة الخرطوم.

يبدو لي أنه قبل جريدة النيل ١٩٣٦م كانت الرقابة متحكمة في صحافة الخرطوم ـ كما حدثنا أحمد جمال الدين من خبرته بجريدة «السودان» التي أنشأها والده ـ ثم جاءت معاهدة ١٩٣٦م بين السودان ومصر وكان الجديد فيها بالنسبة للسودان:

استمرار العمل باتفاقيتي ١٨٩٩م مع توكيد أن هدف دولتي حكم دولتي الحكم الثنائي هو رفاهية السودانيين.

اتاحة فرص الوظائف للمصريين في الحالات التي لا يوجد لها مؤهلون سودانيون.

عودة وحدات الجيش المصري الى جبل أولياء وجبيت وإيقاف مبلغ الـ ٧٥٠ الف جنيه الذي كانت تدفعه مصر سنويا منذ سنة ١٩٢٥م من أجل الدفاع عن السودان.

فتح مكتب الخبير الاقتصادي لمصر في السودان ـ وهو تمثيل مصري شبه قنصلي ـ وكانت مصر محرومة من أي تمثيل بدعوى أن الحاكم العام نفسه هو ممثلها ـ وجميع الدول كانت ممنوعة من أي تمثيل

دبلوماسي أو قنصلي بنص اتفاقية ١٨٩٩م. وكان الهدف تنجية السودان من تطبيق الامتيازات الاجنبية المذلة التي كانت سارية بمصر وبكافة الولايات العثمانية.

فالآثار المذكورة التي جاءت مع معاهدة ١٩٣٦م من الواضح انها توحي للادارة البريطانية بالسودان بفتح المجال لخلق رأي عام سوداني ـ وهذا يتضح من وجود الجريدتين «النيل» و«صوت السودان»، وانبثاق مؤتمر الخريجين ونشاطاته الأخرى.

وبالطبع فإن إعلان الحرب ضد المانيا في سبتمبر ١٩٣٩م قد أعاد الرقابة بالسودان.

والرقابة بالسودان كان يمارسها مكتب المخابرات، الذي اتخذ في أوقات مختلفة عدة أسماء في أيام الانجليز.

- مكتب المخابرات.
- مكتب الشؤون الأهلية.
- مكتب الاتصال العام (العجيب أن هاتين العبارتين تصح بأي منهما ترجمة الاسم الانجليزي (ببلك رليشنز Public Relations) ثم تسودن في العهد الوطني وصار اسمه «مكتب الارشاد القومي» ـ وجاءت اسماء أخرى منها الاستعلامات والاعلام.

آل المهدي

تقريبا في سنة ١٩٣٨م آلت شركة الطبع والنشر برمتها الى «دائرة المهدي» بخروج الشركاء التجار المذكورين أعلاه ـ وصار المرحوم عبدالله الفاضل المهدي مديراً للشركة، واستمر المرحوم الشيخ الحاج الأمين عبدالقادر محرراً لها... ورأينا أيضا المرحوم الإداري عمر الأمين العمرابي مديراً.

أحمد يوسف هاشم:

كان المرحوم أحمد يوسف هاشم من خريجي معهد أمدرمان وقد اشتغل كاتبا بالمحاكم الشرعية ـ وقد تعرض لقضية إدارية في عمله جعلته يخرج منه ويرحل الى مصر حيث عمل بجريدة روز اليوسف اليومية ـ نعم اليومية ـ وكان من ضمن من زاملهم فيها المرحومين عباس العقاد والدكتور محمود عزمي.

ولما جاء أحمد يوسف هاشم في أواخر الثلاثينات تولى رئاسة تحرير «النيل» بعد فترة فراغ منذ أن تركها حسن صبحي ـ الذي لا أدري أسباب تركه إياها ـ ومما يذكر للمرحوم «أبي حميد» في تحرير النيل انه جندها لقضايا وطنية جريئة ـ كشف سوء أحوال مزارعي الجزيرة والاستغلال الفاحش من جانب الشركة الاحتكارية البريطانية. (وسترد اشارات أخرى لأحمد يوسف في وفد السودان والسودان الجديد واتحاد الصحافة).

صوت السودان:

أدت أيلولة جريدة النيل الى دائرة المهدي، الى تحرك «الختمية» فكونوا «شركة السلام وجريدة صوت السودان» بزعامة المرحوم الشيخ احمد السيد الفيل والمرحوم البكباشي خلف الله خالد والمرحوم الشيخ محمد الحسن دياب والقاضي الدرديري محمد عثمان والمرحوم المهندس ميرغني حمزة ـ والتجار المرحوم كشه عبدالسلام والشيخ يحيى عثمان الكوارتي والشيخ أورتشي وغيرهم.

وظهرت «صوت السودان» في تلك الأيام حيث تعاقب على تحريرها المرحوم الأستاذ محمد عشري الصديق والأستاذ حسن بدري ثم الأستاذ اسماعيل العتباني في أوائل الأربعينات. وقد عاونه في تحريرها نخبة هم جماعة «صالون الفول»: أحمد خير الذي كان يدرس الحقوق، وأحمد مختار وعلي حامد ومحمد عامر بشير ـ وقد تولى تحرير الصوت المرحوم عبدالله ميرغني بعد عتباني في سنة ١٩٤٥م.

مؤتمر الخريجين:

كانت الجمعية الأدبية بنادي واد مدني نشطة وقد تصادف ضمن الموظفين هناك باقة نادرة نذكر منها أحمد خير واحمد مختار وحسن نجيلة وعلي نور واسماعيل العتباني.

وهناك ولدت فكرة مؤتمر الخريجين وانتقلت الى أمدرمان. يهمنا أن نذكر أن الجريدتين اليوميتين «النيل» و«صوت السودان» كانتا تؤيدان المؤتمر ومشروعاته مثل يوم التعليم وحركة المدارس الأهلية وشركة السنما والمهرجانات الأدبية... الخ - بل أيدت الجريدتان مذكرة المؤتمر السياسية الأولى ١٩٤٢م التي طالبت بحق السودان في تقرير المصير.

وبعد ذلك ظهرت على السطح النزعات الطائفية أنصار وختمية - والتحزبات السياسية استقلاليون ووحدجية - والأحزاب في الحقيقة قد أخذت شكلها الكامل في نهاية ١٩٤٤م.

جريدة الأمة:

بعد تدشين الأنصار لحزب الأمة أصدروا «جريدة الأمة» في ١٩٤٥م وكان أول مرشح لتحريرها المرحوم محمد أحمد محجوب ولكن شروطه إذ ذاك اعتبرت تعجيزية فقد رفض أن يستقيل من وظيفته «كقاض جزئي» ما لم يكن راتبه الشهري ٧٥ جنيهاً ويخصص له منزل لسكناه، ويمنح سيارة، واذا أقيل يدفع له تعويض يبلغ ألف جنيه فقط!

تولى التحرير المرحوم الشاعر يوسف مصطفى التني وزامله كثيرون منهم محمد احمد عمر وامين التوم وابراهيم عمر الأمين العمرابي.

وفي عهد تحرير حسن محجوب عرفنا محررين من الشباب بجريدة النيل منهم فتحي حسن علوب وعلى آدم ابن الخياط الصغير...الخ.

السودان استار (Sudan Star):

يبدو لي ان كونتو ميخالوص وأولاده كانوا يصدرون جريدة «السودان هيرالد» بالانجليزية منذ مدة وقد استمرت حتى الخمسينات وفي عهدها الأخير كان يحررها «شوهيت» وهو يهودي - وكان محمد أحمد عمر يتعاون معهم -.

في الأربعينات أصدرت شركة متشل كوتس للشرق الأوسط - وهي شركة أخطبوطية كانت متغلغلة في القارة من السويس الى الكاب - أصدرت جريدة «السودان استار» بالانجليزية في الخرطوم... وهذه الجريدة كانت راسخة وقد عمل فيها كل من بشير محمد سعيد ومحجوب محمد صالح وصلاح احمد محمد صالح.

المستر ديفيدسون محرر السودان استار كان له دور في ايجاد وكالة الاعلانات السودانية - مع شركاء مثل بارسميان وليكوس ومحمد أحمد عمر وكافوري - وهذه الوكالة وطدت صناعة اعلانات السينما المصرية - ولكنها لم تنجح في أخذ اعلانات اللوحات التي ظفر بها الأستاذ السلمابي في سنة ١٩٥٣م.

الرأي العام:

في سنة ١٩٤٥م صدرت جريدة الرأي العام لصاحبها الأستاذ اسماعيل العتباني وقد عاونه في التحرير أيضا أصحاب «صالون الفول» القدماء المذكورون في صوت السودان (طبعا باستبعاد علي حامد وفوراوي) وفي الحقيقة كانت هناك «الأسرة المطعمة» (على حد تعبير الشاعر المرحوم محمد الفكي) هذه الأسرة كانت تشمل المرحوم ميخائيل بخيت والمرحوم حسن عثمان اسحاق والدكتور مكي شبيكة والمرحوم عبدالرحيم وشى

وعابدين محجوب وحسن نجيلة ومحمد عبدالحليم العتباني...الخ ـ ففي الحقيقة كانت «الرأي العام» مجال جلوس عشرات المثقفين.

سبق لي أن كتبت «بالصراحة» أقول ان «الرأي العام» كانت تعبر عن أفكارها باعتدال وهذا الاعتدال قد سمح لها بمواصلة رسالتها «فإن الصحف المتطرفة تتخطفها المعارك الباكرة».

لقد واصلت «الرأي العام» الصدور بانتظام طوال ٢٦ سنة ولم تتوقف الا بعد تحويل الصحف في عهد مايو الى الاتحاد الاشتراكي وتحويلها الى اسبوعية لم تصمد للمنافسة.

ممن تخرجوا من «الرأي العام»: سليمان بخيت والفاتح التجاني ومحمد الحسن محمد سعيد وقبل الجميع محمد أحمد السلمابي الذي ذهب الى «صوت السودان».

نشرة فوراوي:

كان الأستاذ محمد عامر بشير ـ الذي اشتهر باسم فوراوي في شعاراته «عاش السودان وعاش المؤتمر» ـ قد أصدر «نشرة فوراوي» وهي اسبوعية باللغتين العربية والانجليزية ١٩٤٥م تقريباً، ثم حولها الى جريدة يومية متعثرة في أواخر الأربعينات ـ وذلك قبل أن يعمل بالجمعية التشريعية لينتقل قبل المعاش الى مصلحة الاعلام ـ وممن عملوا معه في الفترة الأولى يحيى محمد عبدالقادر وفي الثانية رحمي محمد سليمان، وقد اتيح لي ان أكتب بالجريدتين.

مجلة كردفان:

صدرت بالأبيض عام ١٩٤٥م ومنشئها هو الأستاذ الفاتح النور ـ ولكن عبدالله رجب كان أول محرر لها، وكان شريكا بالمناصفة في تمويل مطبعتها ثم انسحب في أول الشوط بسبب توجسات سياسية!.

كانت مجلة «كردفان» رائدة كصحيفة اقليمية وقد أدت دورها.

من كتابها: عبدالرحمن أحمد سعد (غشيم) وفي الحقيقة ان هذا الكاتب قديم مثلنا ومعروف بصحافة الخرطوم منذ الثلاثينات. وهناك كتاب كردفانيون كثيرون اشتهروا على صفحات «كردفان»، وساهم في الكتابة بها عاصميون مثل التجاني عامر وابراهيم عمر الأمين وغيرهما.

الأديب:

أصدر الأستاذ أحمد مختار عدة صحف مثل «الأديب» و«الهدف» ـ في الأربعينات وفي أوائل الخمسينات ـ والأستاذ أحمد مختار أديب ووطني مثالي، ولكن صحافته لم تنجح من الناحية التجارية. وهذا قد ينطبق أيضاً على شقيقه الأستاذ حسن مختار الذي باشر أكثر من مغامرة صحفية. (وأخر مغامراته جريدة «الشعب» التي شاركه فيها الأستاذ قيلي أحمد عمر ـ وهو صحفي عمل طويلاً بمصر وشقيق المرحوم عفان).

الرائد:

في سنة ١٩٤٦م أصدر الأستاذ مكي عباس مجلة «الرائد» أسبوعية ـ وقد عاونه الأستاذ الريفي ـ الى جانب هواة من زملائه وتلامذته مثل الأستاذ هاشم ضيف الله.

كان مكي عباس من أبرز رجال مصلحة التعليم، ومن النخبة التي أصطفيت ورشحت للحكم في عهد الحكم الذاتي ـ ولكنه كان مستقلاً في تفكيره فلم يرتكز على سند حزبي.

عاشت المجلة ما عاشت وهي أشبه بمؤسسة أكاديمية!

الشباب:

كان الأستاذ عثمان أحمد عمر (عفان) ـ رحمه الله ـ من أعذب «أولاد أم درمان». أصدر في سنة ١٩٤٦م مجلة «المدارس» ثم حولها الى اسم «الشباب» ولكنه جعلها سياسية متطرفة، كان أحمد مختار من أصدقائه ومعاونيه في التحرير، وكذلك كان المرحوم عبدالمنعم حسب الله... وقد سمح عفان للشيوعيين ومتطرفين آخرين بينهم كاتب هذه السطور بالكتابة في صحيفته التي تعرضت لعديد الغرامات في أواخر الأربعينات ثم توقفت.

التحق المرحوم عفان بالعمل بمشروع الجزيرة كمفتش غيط في الخمسينات وتوفي قبل أوانه (الاشارة الى «أولاد أم درمان» مأتاها أن المرحوم عفان كان يكتب سلسلة بعنوان «شيطنة أولاد أم درمان» ويعتز بها كثيراً ـ ويظهر أن صديقنا علي الملك مرشح لمتابعة هذه السلسلة!).

السودان الجديد:

أخرت الحديث عن «السودان الجديد» عامداً فهي في الحقيقة قد صدرت كمجلة أسبوعية مصورة في سنة ١٩٤٤م وكان صاحبها المرحوم أحمد يوسف هاشم ما زال يعمل بجريدة «النيل» ـ وشاركه في البداية الأستاذ حسن مختار شقيق أحمد مختار.

وقد استجلبت «السودان الجديد» معدات زنكغراف لحفر الاكلشيهات.

وتعاقد المرحوم أحمد يوسف هاشم فيما بعد مع الأستاذ محمد عثمان جودة ـ وهو فنان كخطاط ورسام وصحفي ـ واشتملت المجلة على كاريكاتير سياسي وفكاهي من ريشة جودة الساخرة. وقد ترك أحمد يوسف هاشم «النيل» وتفرغ «للسودان الجديد» اليومية في ابريل ١٩٤٧م ـ ومن الأسبوع الأول للجريدة اليومية عمل عبدالله رجب معه «كمدير إدارة» ولكنني نشطت كمترجم وكاتب مقالات.

كان المرحوم محمد أحمد محجوب يكتب المقال الرئيسي في بعض الأحيان بدون إمضاء.

من الذين عملوا «بالسودان الجديد» كمحررين: محمد فضل الله ومحجوب محمد صالح وفضل بشير ـ حسب ترتيبهم الزمني ـ وعثمان علي نور وطه المجمر والتجاني محمد أحمد وعصمت يوسف وجعفر عبدالرحمن ويحيى العوض ومحمود محمد مدني.

القادمون من مصر:

أسلفت القول عن الصحافيين اللبنانيين المتمصرين الذين أنشأوا الصحافة السودانية، ثم ذكرت حسن صبحي المصري. وفي الحقيقة أن أحمد يوسف هاشم يعد أيضاً ممن تدربوا بمصر.

وفي سنة ١٩٤٥/١٩٤٦ جاء من مصر إلى الخرطوم سودانيون مطرودون من هناك بشبهات شيوعية منهم الأستاذ محمد أمين حسين (الذي كان يحرر بالقاهرة مع الأستاذ عبده دهب مجلة شيوعية متعاونة مع «ح د ت و» واسم المجلة «أم درمان» وذلك في سنة ١٩٤٥م) وكذلك الأستاذ صالح عرابي ـ الذي كان يتعاون مع «أم درمان» اليسارية بالقاهرة، وفي نفس الوقت مع مجلة «السودان» اليمينية التي كان يصدرها المرحوم علي البرير بالقاهرة أيضاً ويعاونه في تحريرها الدكتور بشير البكري والمرحوم عقيل أحمد عقيل والدكتور أحمد السيد حمد...الخ.

عمل كل من الأستاذين محمد أمين حسين وصالح عرابي بجريدتي «الأمة» و«النيل» في البداية، ثم تركاها.

اشترك محمد أمين حسين مع يساريين آخرين منهم الدكتور عبدالوهاب زين العابدين ١٩٤٦م في نشر نداء بوضع السودان تحت وصاية الأمم المتحدة وتقرير مصيره بعد خمس سنوات وكانت الفكرة جيدة إذ ذاك.

يجب أن اذكر أن الأستاذ محمد أمين حسين قد صحح وضعه بالانضمام الى المعسكر الذي ينسجم معه ـ وعلى صفحات «صوت السودان» ثم على صفحات «الصراحة» فيما بعد كتب أمين مقالات نارية وأكثر الغرامات التي عوقبت بها «صوت السودان» كانت بسبب مقالاته. وقد عوكس أمين في رخصة المحاماة وتصعيد المعادلة أمام الحقوقيين المتخرجين من مصر كان بسببه ـ ومحاكماته كانت تجعل شارع غردون ـ الجامعة الآن ـ حاشداً بالناس.

أما الأستاذ صالح عرابي فقد أصدر مجلة «التلغراف» وهو سيظل مذكوراً بتوطيد عنصر الفكاهة في الصحافة السودانية... وقد جندت «التلغراف» لحزب الأمة ثم ضده لمصلحة الوحدة مع مصر.. وفي ظروف تحرير جريدة «التلغراف» اتحادية في أوائل الخمسينات حكم صالح عرابي بالسجن ستة شهور، وتلقى أبوصلاح الضرب بالشارع من عملاء حزب الأمة مع عبدالله رجب في أسبوع واحد وكان الاثنان قد استمعا الى تحذير من هكسويرث بمكتب السكرتير الاداري في يوم سابق.

الوكالات:

في أواخر الأربعينات ظهرت موجة من «الوكالات» وهي عبارة عن نشرات باللغة الانجليزية تشتمل في الغالب على تلخيص أخبار الصحف السودانية وخصوصاً السياسية وتباع باشتراكات «غالية» للشركات الأجنبية ثم جاءت المكاتب السياسية الأجنبية والسفارات بعد الاستقلال فواصلت «الدفع».

هذه الوكالات لعل أولها «سودان ببلستي ايجنسي» التي كان يصدرها محمد أحمد عمر ـ من بطانة آل المهدي ـ وظهرت «سودان نيوز سيرفيس» التي كان يصدرها المرحوم حسن عثمان اسحاق وعبدالرحيم وشى وبشير محمد سعيد... ثم ظهرت «وكالة الأخبار الافريقية» لصاحبها عبدالرحمن مختار وهذه امتازت بتوزيع أخبار عربية أيضاً وتشبهها وكالة أنباء رابعة كان قد أصدرها الأستاذ عبدالكريم عثمان المهدي وظهرت وكالة خامسة يحررها الأستاذ عمر كرار الذي كان موظفا بمصلحة الاستعلامات. وفي فترة ما بعد أكتوبر ١٩٦٤م ظهرت «وكالة اخبار الخرطوم» التي أسسها الأستاذ سعد أحمد الشيخ الذي كان مؤسس إدارة جريدة «الصراحة» وكان يهوى أيضا العمل بالانجليزية فتعاون مع «السودان نيوز سيرفس» في أوائل الخمسينات وتعاون مع «شركة إعلانات السودان» أيضا.

كانت «وكالة الأنباء العربية» ـ وهي مؤسسة انجليزية ـ تدير فرعا بالسودان يوزع أخبارها مع أخبار رويتر (وهذا في الحقيقة بعد الخمسينات) وممن عملوا مع رويتر المرحوم الشاعر صالح عبدالقادر.. والأستاذ محمد ميرغني بعد أن عمل بجريدة «الأيام».

قبل ذلك كانت نشرة «رويتر» تصل بالانجليزية الى مكتب الاتصال العام، وكانت جريدة «الرأي العام» في سنواتها الباكرة تحصل على ترجمة جيدة لأخبار «رويتر» بقلم المرحوم عبدالله وقيع الله (والد الفنان عثمان).

كانت «السودان استار» تنشر «رويتر» بالانجليزية بينما كانت «السودان هيرالد» تحصل على نشرة «الاسوشياتد برس» (ظللت في «السودان الجديد» أترجم من الجريدتين ١٩٤٧ـ١٩٤٩م ـ وقد أتيح لي أن أترجم النص الكامل تقريبا لميثاق حقوق الانسان قبل أية جريدة أخرى في العالم العربي).

مجلة الاذاعة:

منذ الأربعينات ظلت تصدر مجلة «الاذاعة» وقد أتيح لها أن تحافظ على مقام أدبي بفضل تعاقب محرريها الأدباء المبارك إبراهيم ومحمد الفيتوري وجعفر حامد البشير وقرشي محمد حسن وأخيراً عبدالله جلاب (ولو ان الفترة الأخيرة لا تدخل في نطاق هذا البحث).

مجلة الصبيان:

في أواخر الأربعينات أوجدت مصلحة التعليم «مكتب النشر» الذي أصدر مجلة «الصبيان» ومطبوعات أخرى وكان يدير المكتب المستر هودجكن ـ وهو الرجل الأمين الذي رفض تعويض السودنة ١٩٥٥م لأنه قال ان مستقبله مضمون كرجل تعليم في بلاده! (وقد كان).

شملت المؤسسة المرحوم عوض ساتي ـ وهو كاتب جيد وقبل موته مارس الصحافة نفسها ـ وممن عملوا في المكتب جمال محمد أحمد وبشير محمد سعيد والدكتور عبدالله الطيب والمرحوم الدكتور أحمد الطيب والمرحوم أحمد الطيب عبدالحفيظ وفخرالدين محمد عبدالباقي وأبوالقاسم بدري واسماعيل ود الشيخ ومحمد عثمان جودة ومحمد زبير رشيد ـ ولكل المذكورين انتاج أدبي وفني وصحفي أو تاريخي في مكان أو آخر.

جريدة المؤتمر:

كان مؤتمر الخريجين قد رخص له بجريدة اسبوعية ينتدب لتحريرها أعضاء من اللجنة التنفيذية أو الهيئة الستينية وقد عرفنا على صفحاتها المرحوم محمد عثمان ميرغني شكاك ـ مبتكر أسلوب التبسيط اللغوي وهو أول كاتب اقتصادي سوداني ـ كما عرفنا الأساتذة يحيى الفضلي (رحمه الله) ومحمود الفضلي.

وفد السودان ١٩٤٦م:

تكونت الأحزاب تقريبا في فترة ١٩٤٤/١٩٤٥م وصار مؤتمر الخريجين «مؤسسة اتحادية» بعد أن ادخل في انتخاباته العنصر الطائفي، بينما الختمية بالعاصمة المثلثة أغلبية ترجح «القائمة الاتحادية» في انتخابات «اللجنة الستينية» التي تجري بنادي الخريجين بأمدرمان في كل عام... وصار «لحزب الأمة» ناديه الخاص.

وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية في عام ١٩٤٥م طالبت حكومة القاهرة بريطانيا رسميا بالجلاء عن مصر والسودان... فيما يتعلق بالسودان قال البريطانيون ان السودان كيان خاص، وهذا ما كان يقول به السودانيون أنفسهم ولكنهم انقسموا الى معسكرين. أجازت اللجنة الستينية للمؤتمر في سنة ١٩٤٥م قراراً بتقرير مصير السودان «في وحدة مع مصر تحت التاج المصري».. وتمسك حزب الأمة باستقلال السودان...

وجرت محاولات في الخرطوم للتقريب بين المعسكرين وقد نجحت بإرسال وفد السودان الى مصر ممثلاً لجميع الأحزاب والصيغة التي اتفقت عليها تلك الأحزاب كانت بالغة الركاكة «تقرير مصير السودان في اتحاد مع مصر وتحالف مع بريطانيا!» وقد سافر بالفعل وفد مشترك الى مصر كان يضم السادة اسماعيل الأزهري (الأشقاء) وعبدالله ميرغني (الاتحاديين) وعمر الخليفة عبدالله (وحدة وادي النيل) واحمد يوسف هاشم (القوميين) وعبدالله نقدالله والدرديري نقد (حزب الأمة) وأحمد خير (بصفة ما).

سفر هذا الوفد المشترك ١٩٤٦م كان في البداية قد أخفى النيات والخصومات وأوقف المهاترات حتى لقد كانت الصحافة في تلك الأيام كتلة واحدة ضد الاستعمار البريطاني.[في عام ١٩٤٦م أطلعني الأخ

السلمابي بمكتب «الرأي العام» على مذكرة كتبها كبار البريطانيين يهددون فيها بالاستقالة مما يؤدي الى انهيار النظام بالسودان في زعمهم وذلك بسبب الحملات الصحفية ـ ومن الواضح ان لهذه المذكرة نتائج تلتها بالمحاكمات المتتابعة للصحف ـ طوال سنوات ١٩٤٦ ـ ١٩٥٢م).

إضراب الصحف:

كان ما سمي مؤتمر الادارة المؤلف من شخصيات بريطانية وسودانية (غير حزبية) قد أوصى بالانتقال الى المرحلة التالية في «التدرج الدستوري» بعد مرحلة «المجلس الاستشاري لشمال السودان» وكان الانجليز يريدون للجنوب كيانا منفصلاً، وقد تقرر في النصف الثاني من عام ١٩٤٧م عقد «مؤتمر جوبا» لمناقشة الأمر مع زعماء جنوبيين... ومع أن «العنصر الشمالي» كان ممثلاً في المؤتمر بالمرحوم القاضي الشنقيطي، فقد رفض السكرتير الاداري السير جيمس روبرتسون تمثيل الصحافة السودانية، ولكنه وعد بعقد مؤتمر صحفي بعد عودته من المؤتمر.

ولما عاد وعقد المؤتمر الصحفي الذي حضره رؤساء تحرير صحف الخرطوم، احتد روبرتسون عند استماعه الى أحد الأسئلة ورمى بقلمه غاضبا ـ فخرج الصحفيون غاضبين ـ وكتبت ثلاث صحف مقالات نارية هي «السودان الجديد» و«صوت السودان» و«الرأي العام» (بينما تريثت «النيل» و«الأمة» لأسباب حزبية).

في نفس اليوم صدر قرار السكرتير الاداري (حسب المادة كذا من قانون الصحافة ١٩٣١م) بتعطيل الجرائد الثلاث.

واجتمع الصحفيون في اطار «اتحاد الصحافة» بدار جريدة «النيل» وقرروا أن تكتب كل صحيفة مقالاً تهاجم فيه تصرف السكرتير الاداري ثم تتوقف عن الصدور... وقد حصل...

(تحريا للدقة أرجو الرجوع الى التفاصيل في صحافة تلك الفترة).

وقد أضربت الصحف أسابيع متصلة خسرت فيها إدارتها مبالغ كبيرة لأنها كانت تدفع أجور العمال والمحررين والموظفين وايجارات المكاتب...الخ. مع عدم وجود موارد أخرى.

اشتركت جميع الصحف في الاضراب بما في ذلك مجلة «كردفان» بالأبيض ـ ولكن الجريدتين الانجليزيتين والجريدة اليونانية بالخرطوم لم يضرب أصحابها.

أصدر مكتب الاتصال العام جريدة يومية باسم «السودان في أسبوع» كانت توزع مجاناً.

اضطر السكرتير الاداري أن يعتذر للصحافة السودانية فعادت للصدور!

اتحاد الصحافة:

كان اتحاد الصحافة قد تأسس في الأربعينات ورئيسه الأول المرحوم أحمد يوسف هاشم، وكان الاتحاد لا يفرق بين «أصحاب الصحف» و«المحررين المستخدمين» كما كان يضم اسميا الصحفيين الأجانب بالجريدتين الانجليزيتين والجريدة اليونانية.

وكان سكرتيره الأول اسماعيل العتباني (لو لم تخني الذاكرة) ولكن رئاسة أحمد يوسف هاشم كانت ممتازة وقد ظل يمنح حيويته لتلك المؤسسة ولم تؤثر فيه ارتباطاته السياسية. فقد سمي المرحوم أحمد يوسف هاشم «أبو الصحف» لأنه كان يحرص على حضور ولادة كل صحيفة جديدة ويتسلم نسختها الأولى من المطبعة ويقدم تهانيه وانتقاداته بمودة صافية.

وكان يدافع عن مصالح الصحافة ككل لدى السلطات كما كان يحتج على المظالم التي تقع على أفراد

الصحفيين ـ فعلى الرغم من تعاونه السياسي والمالي مع دائرة المهدي فإنه قد صاغ بنفسه البيان الذي هاجم اعتداء المهدويين اكثر من مرة على صحفيين منهم عبدالله رجب وصالح عرابي ١٩٥٠م ثم قاد حملة اضراب الصحافة عند تعطيل جريدة «الصراحة» في ديسمبر ١٩٥٢م.

وعلى كل حال، فان اتحاد الصحافة ككل ولجنته التنفيذية المنتخبة وخصوصاً في الخمسينات هي التي ظلت تقود الاحتجاج على المواد القانونية المقيدة للحريات مثل:

قانون الصحافة (والطباعة) ١٩٣١م وهو يسمح بالتعطيل الاداري للصحف.

المادة ١٠٥ التي كانت تعاقب على الاساءة واثارة الكراهية ضد حكومة السودان أو حكومة بريطانيا أو حكومة مصر.

المادة ١٠٦ و١٠٧ و١٠٧(أ) الاثارة العامة وإثارة الطبقات.

المادة ١٢٧(أ) إثارة الشغب.

المادة ٤٣٦ إشانة السمعة.

المادة ٤٢٧(أ) الكذب الضار.

واللجنة التنفيذية للاتحاد قد شملت في أوقات مختلفة الأساتذة اسماعيل العتباني وبشير محمد سعيد ومحجوب عثمان ومحجوب محمد صالح ومحمد سعيد معروف وفضل بشير وعبدالله رجب. (بعد تنازل أحمد يوسف عن الرئاسة أختير بشير محمد سعيد كرئيس في عام ١٩٥٦م وقد خدم بشير الاتحاد من ناحية التمويل وتأثيث دار، وسعى من اجل توطيد امتيازات حكومية للصحفيين ـ ولكنه كان يفتقد الحمية المأثورة عن أبي الصحف رحمه الله).

الاحتجاج أفاد:

من الواضح أن السكرتير الاداري كان قد لجأ الى قانون الصحافة ١٩٣١م في تعطيل الصحف الثلاث عام ١٩٤٧م كما ذكرنا أعلاه ـ ولذلك فان حكومة الانجليز في السودان قد احتمت بالحاكم العام شخصياً في أواخر ١٩٥٢م لكي تعطل جريدة «الصراحة» لمدة ٦ شهور. ونظراً لرد الفعل العنيف، لم يلجأ الانجليز الى ذلك الاجراء مرة أخرى.

وحوكمت مجلة «الشباب» (عفان) و«صوت السودان» كثيراً تحت المادة ١٠٥ (ولكن حتى صحافة حزب الأمة قد ذاقت هذه الكأس فان جريدة «الحادي» التي كان يحررها محمد أحمد عمر بصفة ملحق لجريدة «الأمة» قد حوكمت بتهمة اساءة مصر).

ذاقت «السودان الجديد» محاكمة واحدة في أواخر أيام الانجليز لنشر مقال مثير مجهول الكاتب... وغرمت ١٥ جنيهاً.. وأظن أن «الرأي العام» قد غرمت مبلغ ٥ جنيهات لرفض البوح بمصدر أحد الأخبار وهذه هي الغرامة المنصوص عليها في السابقة الأولى.

«الصراحة» وحدها حوكمت بأشكال وألوان من العقوبات سترد لمحات عنها...

ومن الطرائف أن الاستاذ أحمد مختار قد حوكم بموجب قانون الجمارك والبضائع المهربة عند احتجاز حروف طباعة مادة مثيرة، وذلك كان تفادياً من السلطة لاستعمال المواد القانونية التي تكرر الاحتجاج عليها من جانب الصحفيين ـ فيما يبدو لي ـ.

في العهد الوطني قد توقف تقريباً استعمال المواد المذكورة آنفاً ـ ومع ذلك فإن جريدة «الصراحة» قد حوكمت ثلاث مرات على الأقل في سنوات ١٩٥٤ـ١٩٥٧م.. أي في عهد الحكم الذاتي وفي عهد الاستقلال ـ وضرب عبدالله رجب مرة ثانية بواسطة عملاء من حزب الأمة في أواخر عام ١٩٥٧م وكان الهدف في هذه المرة القتل التام.

صحافة الاتحاديين:

كانت الأحزاب الاتحادية محرومة كأحزاب من إصدار صحف رسمية باسمها ما عدا صحيفة «المؤتمر» وهي أسبوعية ظلت تصدر متقطعة الى أواخر الأربعينات ـ ثم صحف أفراد متعاطفين ـ أو صحيفة «صوت السودان» الخاصة بالختمية.

ولكن الحكومة اضطرت في أوائل الخمسينات (وربما بفضل تمثيل اتحاد الصحافة) أن تعطي «الاشقاء» جريدة بهذا الاسم، ثم صدرت للحزب الوطني الاتحادي بعد الاندماج والاتفاقية جريدتا «العلم» و«الاتحاد».

وكانت هناك صحف عديدة للأفراد الذين يختلفون في ولاءاتهم الحزبية وبعضهم يتقلبون ويتلونون!

يحيى محمد عبدالقادر:

لا شك أن الاستاذ يحيى محمد عبدالقادر من أقدم الصحفيين السودانيين وانني لأذكر له مقالات نشرت بجريدة البلاغ القاهرية عام ١٩٣٥م وقد هاترته مجلة الفجر في ذلك العام أو العام التالي بناء على مقالاته التي كان يرسلها للقاهرة من شندي ـ مسقط رأسه، وقد عمل بـ جريدة النيل في أيام حسن صبحي أو بعده ـ وظل يراسل جريدة الأهرام كمراسل رسمي من منتصف الأربعينات الى الخمسينات.

وفي أواخر الأربعينات أصدر مجلة «المستقبل» أدبية وقصصية لم تنجح، وصار يحيى يحرر جريدة «السوداني» في أوائل الخمسينات ـ ولهذه الجريدة قصة ـ ثم أحرز لنفسه رخصة جريدة «أنباء السودان» التي كانت تصدر يومية أو أسبوعية وتتوقف الى أن عطلت بعد ثورة أكتوبر ١٩٦٤م، وبالأسف فان «لجنة التطهير» برئاسة احمد سليمان المحامي قد باعت مطبعته بالمزاد بمبلغ تافه لا أعتقد أنه يزيد على ٢٠٠ جنيه بدعوى تلقيه معونات من الحكم العسكري.

وكان يحيى في الغالب مستقلاً عن الأحزاب وان كان استقلاليا ـ حتى في فترة عمله كمراسل لجريدة «الاهرام» الذي انتزع منه في أيام نشاط صلاح سالم ١٩٥٢/١٩٥٣م ـ وفي تلك الأيام انضم مع قريبه النشط الظريف الدكتور عبدالقادر مشعال، الى الشريف عبدالرحمن الهندي في تكوين «الحزب الوطني الهندي» العجيب!

الأستاذ يحيى محمد عبدالقادر الآن متقاعد تقريباً بعد أن ربى دستة وربع دستة من الأولاد والبنات. وقد حاولت حكومة مايو إلحاقه بعمل ذي صفة معاشية ولكنه لم ينشط لذلك.

إن يحيى بخلاف جهاده الصحفي قد ألف كتاب تراجم شخصيات سودانية في ثلاثة أجزاء.

الصراحة:

إني ظللت أحلم بالصحافة منذ أواخر العشرينات وقد أصدرت صحيفة محلية تكتب باليد في السوكي عام ١٩٣٢م وسميتها «الحق الصراح» ومنذ ذلك العام بدأت مراسلة الصحف، ولكن أول جريدة سودانية نشرت لي شيئا هي «السودان» في أعوام ١٩٣٥/١٩٣٧م ثم قفزت الى «النيل» ١٩٢٨/١٩٤٥م وجربت «السودان الجديد» الأسبوعية ١٩٤٤/١٩٤٦م و«الرأي العام» ١٩٤٥م و«أخبار فوراوي» ١٩٤٥/١٩٤٩م و«الشباب» ١٩٤٦/١٩٤٨م...

ومع انني انسحبت من شراكة مجلة «كردفان» ١٩٤٥م فإن مراسلتي لها قد اتصلت.. والتحقت بـ «السودان الجديد» اليومية في ابريل ١٩٤٧م واتصلت كتابتي بها الى يناير ١٩٥٠.

حصلت مفاوضة مع المرحوم عبدالله ميرغني للعمل «بصوت السودان» ١٩٤٦م بوساطة الأخ

السلمابي، ومع إني كنت أتعاطف مع حزب الاتحاديين (بفضل تعاوني مع ابراهيم يوسف سليمان في لجنة المؤتمر بالقضارف ١٩٤٢/١٩٤٥م وعبدالله ميرغني كان إذ ذاك اتحاديا) فإنني رجحت العمل مع مكي عباس بمجلة «الرائد» ـ على أساس أن «الصوت» طائفية ـ ولكنه أبطأ عني فقبلت عرض «السودان الجديد» لأنها مستقلة (وكنت قد اعتذرت للمرحوم أحمد يوسف هاشم عندما عرض علي العمل بـ «النيل» في سنة ١٩٤٢م لأنها طائفية!).

في سنة ١٩٤٩م كان أحمد يوسف هاشم قد دخل الجمعية التشريعية بالتعاون مع حزب الأمة، وقد فكرت في انتمائي السياسي وطورت فكرة جزيدة «الصراحة»، وحصلت على رخصتها في تلك السنة ولكنها صدرت في ١/١/١٩٥٠م.

وأنا في الحقيقة قد علمت نفسي بالدراسة الفردية للغتين العربية والانجليزية، والاطلاع الواسع النطاق الذي كان يستهدف حشد المعلومات العامة بطريقة موسوعية، واستهداف العمل الصحفي... ومنذ الثلاثينات كونت آرائي وحددت مواقفي من قضية الاستقلال والحكم الجمهوري والاشتراكية والحريات الأساسية ـ وعبرت عن هذه الأغراض ما أمكن على صفحات «السودان» و«النيل» و«السودان الجديد» خصوصاً «السودان الجديد» اليومية ١٩٤٧ـ١٩٤٩م.

والاشتراكية مثلاً، درست فكرتها في كتاب «الاشتراكية» تأليف نقولا الحداد عام ١٩٣٣م وتابعت «المجلة الجديدة» لسلامة موسى نحو عشر سنوات (١٩٣٥ ـ ١٩٤٤م).

وفي سنة ١٩٤٥م أقمت بالقاهرة نحو أربعة شهور في سبيل الاعداد لمجلة «كردفان» وهناك تعرفت بأسرة مجلة «أم درمان» الشيوعية وأعضاء «ح د ت و» (إذ ذاك عبده دهب ومحمد أمين حسين وعبدالماجد أبو حسبو) كما تعرفت بأسرة مجلة «السودان» التي كان يصدرها المرحوم البرير وتعرفت على أفكارهم الوحدجية والتقيت بالأصدقاء الدكاترة بشير البكري ـ والمرحوم عقيل ـ وأحمد السيد حمد. واقتنيت عشرات الكتب الماركسية بالانجليزية من مكتبة «الميدان» المشهورة بالقاهرة، وعن طريقها دفعت اشتراك مجلة «الحرب والطبقة العاملة» التي كانت تصدر بموسكو وصار اسمها فيما بعد «نيو تايمز» المعروفة حاليا ـ وظلت تصلني بالقضارف بعد انسحابي من «كردفان» ـ ولكنني لم أشأ محاولة الانتماء لأية منظمة شيوعية أو سياسية اخرى لا في ذلك الوقت ولا فيما بعد.

وأفكاري المضادة للطائفية ـ بجوانبها الدينية والسياسية كانت معروفة منذ الثلاثينات بسنجة والقضارف وقد عبرت عنها في مقالاتي الصحفية، وفي سنة ١٩٤٩م كانت مثار اصطدام بين المرحومين صديق المهدي وأحمد يوسف هاشم. وقد دافع الأخير عني بمحاولة اقناع الصديق المهدي بأن والده السيد عبدالرحمن المهدي ضد الطائفية بدليل كلمته المشهورة. «لا طوائف ولا شيع ولا أحزاب، ديننا الاسلام ووطننا السودان» وكانت هذه الكلمة تنشر على الصفحة الأولى من جريدة «النيل» كشعار لها.

والأمر غير المشكوك فيه أنني كنت ولن أزال مسلما متمسكا. وقد حاولت منذ سنة ١٩٤٤م أن أتجاوب مع الأخوان المسلمين بمصر ـ ثم مع الحزب الجمهوري الاسلامي ـ ولكنني صدمت من عدم وجود نزعة اشتراكية لدى الأولين ومن فكرة تعطيل الشعائر وادعاءات الوحي لدى الأخيرين.

قدام هذه الخلفية أصدرت جريدة «الصراحة» وقد قبلت المساهمات التحريرية من الأصدقاء الشيوعيين على التتابع. حسن الطاهر زروق ومحمد سعيد معروف وعبدالماجد أبوحسبو وأحمد محمد خير والوسيلة والتجاني الطيب وقاسم أمين وعبدالخالق محجوب...الخ.

وكنت حر التصرف في الأشياء التي أنشرها والأشياء التي أجمدها ـ (وقد اتخذت من الشيوعيين مواقف معارضة مكشوفة في حالات معينة أهمها تعاونهم مع «حزب الأمة» في الجبهة الاستقلالية).

كان تمويل الجريدة من رأسمال أولي قدمه شقيقي علي رجب ومن اشتراكات الأقاليم التي لي فيها صداقات قوية مثل القضارف وسنجة ـ ومع أزمات الجريدة المتلاحقة اتصلت مساعدات شقيقي وقروض أصدقائي ـ كان الشيوعيون من قبل ومن بعد قد مولوا وأداروا عدة صحف منها.

الأحرار:

صاحب امتيازها المرحوم أحمد محمد علي السنجاوي، على أساس أنها تخص «حزب الأحرار الاتحاديين» الذي كان ينتمي اليه حسن الطاهر زروق، وقد اشترك في تحرير هذه الجريدة حسن الطاهر زروق وحسن سلامة واحمد عبدالله المغربي (الى أن خاف السنجاوي من شيوعيتها فأشرف على تحريرها وقتلها بنفسه) كان هذا في ١٩٤٩/ ١٩٥٠م.

الجهاد:

كان يملكها الأستاذ عبدالمنعم حسب الله وهو إتحادي ولما تعثر في تمويلها وإدارتها سلمها للشيوعيين ـ وهذا في عام ١٩٥١/١٩٥٢م تقريبا.

الطليعة:

لسان حال اتحاد العمال ١٩٥٢م والسنوات التالية.

الميدان:

لسان حال الجبهة المعادية للاستعمار ١٩٥٣م والسنوات التالية، وبالمثل جريدة «أدفانس» بالانجليزية.

صوت المرأة:

التي كانت السيدة فاطمة أحمد ابراهيم صاحبة امتيازها، وهي على كل حال شخصيا كانت شيوعية وقد واصلت المجلة الصدور فترة أيام الحكم العسكري (عبود).

أما «الصراحة» فإنهم لم يساهموا في إدارتها بأي مال، بل كانت تدفع الممكن كرواتب للمحررين المنتظمين (على التحديد محمد سعيد معروف ـ ومحمد الحسن أحمد) وكان الأخرون يجدون بعض الاكراميات.

كل محاكمات «الصراحة» كانت باسم عبدالله رجب ونتيجة لتصرفاته (ما عدا إحدى القضايا الهايفة التي حولتها باسم معروف تفاديا للغرامة التي كان يمكن ان تتصاعد بفضل السوابق، وكانت هذه قضية شخصية من احد جيراننا بسنجة والسبب الأخير كان أيضا من دواعي الزحلقة وقد انتهت القضية بالبراءة).

ومحاكمات الصراحة شملت:

١ ـ الضرب الشخصي مرتين ضد عبدالله رجب ـ من جانب المهدويين.

٢ ـ السجن مرتين، في احدهما لم يؤيد من جانب المحكمة الأعلى.

٣ ـ التغريم أكثر من عشر مرات.

٤ ـ التعطيل لمدة ستة شهور (وهذا يمثل نكبة مالية ما زلت أعاني منها) ـ صدر قرار التعطيل من الحاكم العام السير روبرت هاو في ديسمبر ١٩٥٢م.

٥ ـ التعزير (وهذا معناه التوبيخ) قراه السيد بابكر عوض الله رئيس مجلس النواب أمام البرلمان وأنا واقف تحت حراسة الحرس (كان معي محمود مصطفى الطاهر في قضية مشابهة).

٦ ـ اللوم بطريقة رسمية من جانب السيد اسماعيل الأزهري رئيس الوزراء بمكتبه ـ ولكنه أجلسني على كل حال!

٧ ـ اشتكاني الجيش المصري لاساءة الملك فاروق في سنة ١٩٥١م حينما قرأنا عبثه ولعبه القمار بأوروبا ـ وقد اتصل بي الأستاذ الدرديري أحمد اسماعيل المحامي وأفهمني أنهم «لأسباب وطنية يفضلون عدم السير في القضية تحت المادة ١٠٥ لاسيما وأن «الصراحة» جريدة شعبية ـ ولذلك يطلبون مني الاعتذار». وقد فعلت، فإن الاحترام كان وما زال متبادلاً بيني وبين الأستاذ الدرديري وكذلك الأخ محمد أمين حسين الذي شارك في هذه المبادرة.

٨ ـ هناك قضايا أخرى انتهت بالصلح بفضل كرم المرحومين عبدالله خليل ـ ومحمد نورالدين ـ كل فيما يختص به.

٩ ـ واحدة من القضايا قدمت تحت اسم المال المسروق (وهذه ترجمة ركيكة لعبارة الممتلكات المسروقة). وانصبت القضية على وثائق هربت من مكتب مدير الزراعة البريطاني وكانت الوثائق ضد السودنة، وقد نشرتها «الصراحة» منسوبة الى «الضبع الأسود» وهو موظف لم نشأ أن نبوح باسمه.

١٠ ـ افتعل «الأمن العام» ١٩٥١م قضية اشانة سمعة البوليس ضد «الصراحة» وحوكمت في ثلاث مراحل برئت في المرحلتين النهائيتين وكانت القضية مشهورة استرددت فيها غرامة المائة جنيه بدفاع مجيد من المرحوم رشدي بطرس المحامي والقضية بعنوان «حكومة السودان ضد عبدالله رجب محمد» طبعت منفصلة في كتاب يدرس بكلية الحقوق كسابقة قضائية هامة!

(يسرني أن أشير الى أن المرحلة الثالثة من هذه القضية أمام محكمة الاستئناف العليا كان المرحوم أبو رنات عضواً فيها على جانب القاضيين البريطانيين اللذين كان أحدهما رئيس القضاء حتى تلك الأيام من سنة ١٩٥٤م).

١١ ـ وقبل هذه القضية ـ أثناء اضراب البوليس السوداني ـ أفردت «الصراحة» وحدها بوضعها تحت الرقابة في سنة ١٩٥١م لفترة يوم واحد ـ وأحمد يوسف هاشم رئيس اتحاد الصحافة بشجاعته المعهودة قد تصدى للاحتجاج ـ.

١٢ ـ وحتى في أيام الحكم العسكري ١٩٥٩م وضع عبدالله رجب ومحمد الحسن أحمد تحت الحراسة ٢٤ ساعة لنشر تفاصيل أحكام الاعدام للضباط علي حامد وآخرين قبل اعلانها رسمياً ـ ثم افترضت السلطات حسن النية وعوقبت «الصراحة» بتعطيل رمزي (ليوم واحد فقط).

بعض صحف الأفراد:

إن محاولة تذكر جميع الصحف التي صدرت بين ١٩٤٦م و١٩٦٠م من الذاكرة محاولة عسيرة ولكن بالطبع هناك صحف لا يمكن نسيانها.

قبل ١٩٥٠م صدرت مجلة بالشراكة بين الأستاذ كمال عبدالماجد بشارة (الآن نازح بالخليج) والأستاذ وليم رياض تكلا (الآن مدير شركة تجارية) ولم تعش المجلة طويلاً وكان اسمها «الأسبوع» لو لم تخني الذاكرة.

من أمثلة صحف الأفراد أيضا، صحيفة أصدرها المرحوم الشيخ كامل الأحمدي بالتعاون مع زعماء الختمية المضادين للأشقاء ـ محمد الحسن دياب والعمراب ـ الذين سموا «جبهة التعديل».. ولم تنجح ولم تعمر طويلاً.

محمد مكي محمد:

جاء المرحوم محمد مكي محمد الى الخرطوم حوالي ١٩٤٩م وعمل بالحكومة وبشركة النور كما عمل مع صالح عرابي «بالتلغراف» ثم نال رخصة جريدة «الناس» في أوائل الخمسينات، وكانت الجريدة «جريئة» ومتهمة «بالابتزاز» وعلى كل حال فانها كانت ضالعة مع حزب الأمة ... وأظن أنها عطلت لفترة ما في عهد حكومة أزهري ١٩٥٤-١٩٥٦م ثم عادت واستمرت طوال أيام الحكم العسكري ولكن القوى التي استولت على ثورة اكتوبر ١٩٦٤م لم تر في هذه الجريدة شيئاً جديراً بالتطهير ولا التعزير، ولكن لما قامت ثورة مايو ١٩٦٩م كان محمد مكي محمد خارج البلاد - ولم يشأ أن يعود - وأقام بلبنان وقيل انه «خطف» هناك لأسباب سياسية أو غير ذلك.

كان محمد مكي متهماً بالعمالة لمخابرات دول خارجية مفردة أو مزدوجة منها بريطانيا والولايات المتحدة وحيث أنه أحد اثنين من الصحفيين السودانيين ذهبا الى لبنان أثناء نزول قوات بحرية الأسطول السادس بميناء بيروت فان محمد مكي قد ظل يباهي بوثيقة تنعته بصفة ضابط في الأسطول الأمريكي! (غفر الله له).

السوداني:

هناك تاجر بواد مدني (لا أذكر اسمه) - ولم أقابله - كان قد حصل في أوائل الخمسينات على رخصة جريدة باسم «السوداني» ولم يصدرها، ولكنه سلم امتيازها لجناح نورالدين لدى انشقاق الأشقاء (١٩٥١م). وكلفوا الأخ يحيي محمد عبدالقادر بتحريرها تحت اشراف الاستاذ خضر عمر الخضر - السياسي البارع الذي لم يجد أي حظ لدى توزيع الأسلاب!..

أحمد جمال الدين:

صديقنا أحمد جمال الدين - نجل شيخنا عبدالرحمن أحمد - له تجارب منذ الثلاثينات في جريدة «السودان»..

وقد أصدر جمال الدين في الأربعينات والخمسينات مجلتين في فترتين متباعدتين «الشروق» و«الحقيقة» ولم يتح لاحداهما أن تعمر طويلاً.

ثم عمل احمد جمال الدين في صحافة الحزب الوطني الاتحادي وظلت تعاوده هذه الهواية حتى الآن!

الصباح الجديد:

كان الأستاذ حسين عثمان منصور قد عاد من دراسته بمصر في الخمسينات، ولدى انقسام الأشقاء انحاز لجناح أزهري وجعل يدافع عنه باقتباسات ماركسية، مع العلم أن اليساريين كانوا يؤيدون جناح نورالدين (لا أدري لماذا!؟).

ثم أصدر حسين جريدة «الصباح الجديد» أزهرية حيناً وناصرية حيناً آخر - وضد عبد الناصر في فترة تالية - وبعد أكتوبر اشتطت ضد أحد أجنحة حزب الأمة، وفي عهد مايو بعد فترة عمل قصيرة بأجهزة الاعلام نزح حسين عثمان منصور الى الخارج.

«الرياضة والسنما»:

مجلة «الرياضة والسنما» قد ظل يصدرها الأخ ابراهيم المغربي نحواً من عشرين سنة وهي لا تجد توزيعا في الشارع ولكنها تحصل على رزقها من الاشتراكات والاعلانات التي ظل يقدمها العاطفون على هذا الأديب الكريم.

في فترة تقرير المصير أصدر المرحوم محمد المصطفى الشيخ علي جريدة استقلالية مستقلة باسم «العاصفة» والمرحوم كان بحزب الأمة منذ تأسيسه، كما انه كان من ثوار ١٩٢٤م ولم يعجبه موقف المصريين مثل آخرين.

رحمي محمد سليمان:

ظل الأخ رحمي محمد سليمان يهوى الصحافة منذ الأربعينات وكان موظفاً كتابياً بالمصلحة القضائية واشتغل مع الأستاذ فوراوي في جريدة «الاخبار» ١٩٤٨م، ثم أتيح له في سنة ١٩٥١م أن يصدر مجلة لعل اسمها «أخبار الأسبوع» وكانت متعثرة عطلت بسبب تعثرها في أوائل ١٩٥٣م (وان كانوا قد تذكروها حينما اتفق معه عبدالله رجب على اعادة اصدارها أثناء تعطيل «الصراحة»)!

عمل رحمي كاتبا بالغرفة التجارية لفترة ما بعد تعطيل مجلته الى ان حصل على رخصة اخرى لجريدة باسم «الأخبار» وعلى صفحاتها اشتهر كاريكاتير عزالدين كما اشتهرت مقالات المرحوم صالح محمود اسماعيل.. وممن كتبوا فيها الأستاذ احمد عبدالحليم (الدراسات الاضافية بجامعة الخرطوم ثم سكرتير لجنة الاعلام بالاتحاد الاشتراكي في عهد مايو) ـ وممن تعاونوا مع الاستاذ رحمي الصحفي الشاب الناجح كمخبر ادريس حسن، ومحمود أبو العزائم، وشريف طمبل، ومصطفى حامد الأمين. عطلت «الأخبار» أثناء موجة تطهيرات ثورة أكتوبر، وكصحفي أتيح للأستاذ رحمي أن يعمل بجريدة «الأيام» في عهد مايو وقد استقال مع الفاتح التجاني وأوجد لنفسه مصالح أخرى. والاستاذ رحمي محمد سليمان صحفي مجتهد وطبيعته مرحة ولم تكن له فلسفة سياسية.

صحف حزبية أخرى:

كان الحزب الجمهوري (الاسلامي) قد أصدر في أواخر الأربعينات جريدة باسم «الجمهورية» نشر فيها أفكاره الاشتراكية التي تسمح بامتلاك البيت والسيارة (وذلك قبل أيام «الرسالة الثانية للاسلام»).

أما الحزب الجمهوري الاشتراكي برئاسة المرحوم ابراهيم بدري (لورد أمهاني ـ كما سمته «الصراحة») فقد أصدر جريدة يومية باسم «الوطن» كان يحررها الأخ محمد خير البدوي ـ النازح الآن ببريطانيا ـ وعلى صفحات هذه الجريدة قد عمل معهم الأخ المرحوم حامد أحمد حمداي، الذي جعل يدافع عن الحزب المذكور بأفكار الفلسفة الديالكتيكية، بنفس الطريقة التي كان ينافح بها عن «حزب الأمة» من قبل ـ فمنذ ١٩٤٥م كان حمداي قد اعتنق الماركسية وعمل مع المنظمات الشيوعية بمصر ولكنه لم ينتم لأي واحد من التجمعات الشيوعية السودانية، بل ظل يعمل بحزب الأمة، ثم بالحزب الجمهوري الاشتراكي... وحيث انه كان «ناظر محطة» في الأربعينات فقد عاد الى المواصلات وصار «ضابط صحافة» الى ان أحيل الى المعاش وتوفي رحمه الله.

صدرت مجلة باسم «الصيحة» ضمن صحافة حزب الأمة في أواخر الأربعينات وكان يحررها الأستاذ أمين التوم، ومن قبلها كانت هناك مجلة «الحادي» التي سلفت الاشارة اليها.

أصدر الأستاذ يحيى الفضلي في الخمسينات مجلة باسم «الحرية» لم تعش طويلاً.

مجلة العامل:

هذه المجلة اصدرها نادي العمال بالخرطوم لتشجيع الحركة النقابية في أواخر الأربعينات وقد حررها على التعاقب كل من الأستاذ فضل بشير والأستاذ الأمين علي ـ الأخير من أقدم عمال المطابع وهو رجل أمين وأديب ومطلع ـ.

أما فضل بشير الذي كان سكرتير نقابة التاكسي فقد عين عضواً بالجمعية التشريعية لمركزه العمالي... أما عمله الصحفي بجريدة «السودان الجديد» فقد حدث في أواسط الخمسينات وهو صاحب فضل في توطيد الجريدة المذكورة في وقت كان فيه المرحوم أحمد يوسف هاشم قد أصابه الكلال.

الصحافة النسائية:

بخلاف مجلة «صوت المرأة» ـ إدارة فاطمة أحمد ابراهيم التي سلفت الاشارة اليها ـ فقد صدرت قبلها «مجلة اسلامية» (نسيت اسمها) برئاسة تحرير السيدة سعاد الفاتح البدوي وقبل المجلتين كانت الآنسة تكوى سركسيان ـ الموظفة بمطابع ماكوركوركوديل ـ قد أصدرت مجلة نصف شهرية منذ سنة ١٩٤٧م.

وأعتقد أنه كانت هناك مجلات أخرى سابقة ولاحقة ويحسن أن نذكر بعض أسماء الكاتبات السودانيات اللواتي كتبن بالصحف:

المرحومة نعمات الزين (الرأي العام) فاطمة طالب اسماعيل (الصراحة) نفيسة احمد ابراهيم ونفيسة المليك (الصراحة) سعاد وزينب الفاتح البدوي، فاطمة سعد الدين (صوت السودان) حاجة كاشف، فاطمة أحمد ابراهيم، اخلاص علي حمد، بنت الشمالية أم عادل، بخيتة أمين، آمال عباس، آمال مينا ـ (وذلك ليس للحصر، كما أن هناك كثيرات كن يكتبن باسماء مستعارة).

شيوعيون آخرون:

ان الشيوعيين الذين سلف ذكرهم لدى الحديث عن «الصراحة» إنما هم الكتلة الرئيسية التي عرفت بمصر والسودان باسم «الحركة السودانية للتحرر الوطني» (= ح س ت و) المنتمية الى التنظيم المعروف بمصر باسم «الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني» (= ح د ت و) ـ والتنظيم المصري المذكور هو الذي أوجده اليهودي الايطالي المليونير هنري كوريل ومن أساطينه الشاعر كمال عبدالحليم وشقيقه الكاتب ابراهيم عبدالحليم، وهو نفس التنظيم الذي نظم حركة السلام بمصر التي عرف في صفوفها المرحوم يوسف حلمي والكاتب عبدالرحمن الشرقاوي...الخ ـ وفي السنوات قبل تولي عبدالخالق محجوب زعامة الفرع كان يمثلهم حسن الطاهر زروق والدكتور عبدالوهاب زين العابدين ـ وقد حصلت تصفيات متعددة فرأينا محمد أمين حسين والدكتور زين وعبدالماجد أبو حسبو في صفوف الأحزاب الاتحادية تحت عناوين مختلفة، كما رأينا انشقاقات متعددة جمعت وفرقت شيوعيين آخرين أشهرهم عوض عبدالرازق وحسن أبوجبل وأحمد عبدالله المغربي وعبده دهب وحسين ونى وأبو المعالي عبدالرحمن وسيد أحمد نقدالله...الخ.

يجب أن يضاف هنا ان بعض المذكورين في نهاية الفقرة كانوا قد أوجدوا لهم مجلة، ولكن ما اسمها؟ ـ لا أذكر ـ ومصيبة كتابة المذكورين هو حشد النصوص الغامضة المترجمة من لينين في محاولة الرد على خصومهم الذين كانوا يتميزون بنشاط عظيم في أوساط الأحزاب والفئات مثل المزارعين والعمال وأندية الموظفين وطلبة الثانويات والكليات.

الصحافة الاقليمية:

كانت جريدة «كردفان» ١٩٤٥م رائدة كجريدة اقليمية ثم اصدرت إدارة مشروع الجزيرة جريدة «الجزيرة» في سنة ١٩٥٠م.

محاولات الأفراد الآخرين مثل الأستاذ أمين البنا بالأبيض، وآخرين بواد مدني وبورتسودان لم تنجح ـ (ومن ذلك محاولة المرحوم محمد عوض الكريم القرشي اصدار مجلة أخرى بالأبيض بعد ثورة أكتوبر ١٩٦٤م).

الصحافة الدينية:

هناك جملة محاولات لايجاد صحف دينية فردية، قام بها أمثال الشيخ عبدالله شوقي الأسد، والحاج محمود بشير المغربي (قبل سنوات قليلة) ولم تعش مجلاتهم طويلاً، ولكن المذكورين وآخرين قد باشروا نشر المقالات الدينية بالصحف، وفي هذه الأيام نرى جيلاً جديداً من الكتّاب الدينيين.

صحف المؤسسات:

مع أن هذا النوع من النشرات والمجلات لا يدخل في نطاق بحثنا، لكن لا بد من التنويه، فقد صدرت مجلات باسم كلية غردون وبعدها الجامعة وأفراد الكليات ومؤسسات تعليمية أخرى مثل المعهد الفني ومعهد أمدرمان الديني ومدارس الأحفاد ـ ومصالح السكة الحديد والبريد والزراعة والغابات والبوليس والسجون وتقريباً كل المصالح الأخرى، أما وزارة التعليم فقد كان لها بخلاف «الصبيان» محاولات عديدة أخرى أهمها مجلة «الكبار» ومجلة «بخت الرضا» وربما مئات الكتب المخصصة لثقافة الأجيال الجديدة. كذلك كانت هناك مجلة «الغرفة التجارية» ومجلة مصلحة الآثار التي لها اسمها الخاص وتظفر بمقام عالمي... و«السودان نوتس اند ركوردن» التي ظلت تصدر بغير انتظام حتى عهد قريب.

المجلات الأدبية:

تعددت محاولات اخراج مجلات أدبية متخصصة ولم يبق في ذاكرتي بالأسف سوى «مجلة القصة» التي أصدرها صديقنا القصاص عثمان علي نور ـ ومجلة «الحياة» التي أصدرتها دار الأيام في الخمسينات، ومجلة «القلم» التي أصدرها الأستاذ حسن نجيلة في الستينات، والمجلة الوجودية التي أصدر منها عدداً أو عددين المرحوم...؟ وكان هناك الأديب الشاب المدرس الأستاذ مصطفى شكري وقد أخرج مجلة ايضاً.

مجلات سياسية:

كان الأستاذ محمد عبدالجواد ـ قد أصدر مجلة «الخرطوم» في أواخر الخمسينات، وأصدر الاستاذ بابكر كرار مجلة «الاشتراكية» في الستينات، كما أصدر الأستاذ التجاني عامر مجلة «العاصمة» بعد ثورة اكتوبر.

وبعد ثورة أكتوبر صدرت مجلة «اكتوبر» لصاحبها المرحوم صالح محمود اسماعيل... وكانت هناك مجلة بالانجليزية تحمل نفس الاسم أصدرها الفنان حسين مأمون شريف (من آل المهدي).

وصدرت مجلة «أخبار الأسبوع» لمنشئها عوض برير، وكانت يسارية مستقلة ـ في ذهني فكرة غامضة عن تعطيلها بواسطة صادق المهدي حينما تولى الحكم.

الاخوان المسلمون:

كان الاخوان المسلمون ـ السودانيون ـ مجموعة أفراد عمل بعضهم في صفوف الأحزاب الاتحادية مثل علي طالب الله والسنهوري وعثمان جاد الله ـ وقد ذهب الأخير الى حزب الأمة.

وبعد الاستقلال رأينا مجموعة جديدة من الأخوان تصدر مجلة، لعل اسمها كان «البلاغ» وقد تعطلت في أيام الحكم العسكري ٥٨/ ١٩٦٤م. ثم بعد ثورة أكتوبر ١٩٦٤م جاءت أزهى أيامهم بالسودان وقد تجمعوا ربما مع آخرين تحت اسم «جبهة الميثاق» وأصدروا جريدة «الميثاق» التي تعطلت مع حركة مايو ١٩٦٩م.

جريدة الزمان:

أصدر الأستاذ عبدالعزيز حسن دسوقي جريدة «الزمان» بشراكة مع المرحوم الدكتور عقيل أحمد عقيل والدكتور محيي الدين صابر ـ وثلاثتهم متعاطفون مع مصر ـ وقد حدثت هذه الشراكة بعد ثورة يوليو، وعاشت «الزمان» حتى أيام الحكم العسكري (عبود).

الدكتوران من أوائل المتعلمين بمصر ومن الذي أوفدتهم الحكومة المصرية في بعثات الى فرنسا من أجل تعليم فوق الجامعي، وليس هذا هو كل السبب في ايمانهم بوحدة وادي النيل من قبل ومن بعد.

ظهر بجريدة «الزمان» ككاتب مستقل الأديب مصطفى عابدين الخانجي.

جريدة الأيام:

احسبني قد أخرت جريدة «الأيام» اليومية عن مكانها التاريخي، وهي على كل حال قد صدرت عام ١٩٥٣م والى جانبها شقيقة بالانجليزية كان اسمها «المورننق نيوز» وقد اشترك في اصدار الجريدة وتمويلها بشير محمد سعيد ومحجوب عثمان ومحجوب محمد صالح وعبدالرحمن مختار.

كان بشير من خريجي المدارس العليا (التي تطورت اليها كلية غردون الثانوية في الأربعينات) وقد عمل بالتدريس ثم كان ممن اختيروا للعمل بمكتب النشر وتحرير مجلة «الصبيان» مع عوض ساتي وجمال محمد احمد وفخرالدين محمد عبدالباقي. ـ ثم اشتغل بـ «السودان استار» التي كانت تصدر بالانجليزية يومية بالخرطوم وزامله فيها محجوب محمد صالح، الذي كان ايضاً من خريجي المدارس العليا ـ وأتيح لبشير أن يذهب في دراسة صحفية ببريطانيا بإعانة من المجلس البريطاني.

أما محجوب عثمان فقد كان ممن سجنوا في مظاهرات الجمعية التشريعية ١٩٤٨م ببورتسودان وجاء للخرطوم وعمل بجريدة «الرأي العام» واتضح انتماؤه الشيوعي حينما سمح باستعمال اسمه كمحرر لجريدة «الطليعة» العمالية، وما لبثنا أن عرفنا انه كان عضواً بالمكتب السياسي لـ «ح س ت و».

وعبدالرحمن مختار كان موظفاً بتلغراف حكومة السودان بينما كان والده من مشايخ الأنصار، وظهر في أواخر الأربعينات في دور سياسي يخص حزب الأمة بين الجنوبيين. وقد خرج الأخير من جريدة «الأيام» وتبادلوا اتهامات وقيل إذ ذاك ان عبدالرحمن اخذ وثائق من «الأيام» وسلمها لحزب الأمة... وبعد ذلك أصدر عبدالرحمن مختار «وكالة الأخبار الافريقية» التي كان يقال انها انشئت باتفاقيات كبرى بين حزب الأمة والامبراطور هيلاسيلاسي ونيكروما زعيم غانا (وسترد سيرة عبدالرحمن مختار مرة أخرى لدى ذكر جريدة «الصحافة»).

كانت جريدة «الأيام» تحرر بطريقة ذكية وهي غير متطرفة وتحمل ثلاثة اتجاهات.

- يمينية يعبر عنها بشير محمد سعيد (وهو جريء مهما كان الرأي في اهدافه).
- يسارية يعبر عنها محجوب عثمان.
- ووسطى يعبر عنها محجوب محمد صالح ـ الذي اشتهر بابتكار شخصية «عبدالصمد».

وكانت إدارة جريدة «الأيام» جيدة، وعلاقاتها الداخلية والخارجية رابحة، ولذلك انتعشت وأسست منشآتها الاضافية (القسم التجاري ـ انتاج الكراريس والدوسيهات...الخ).

ويمكن القول ان بشير محمد سعيد ـ على الرغم من كفاءته التجارية ـ تغلب عليه نزعة صحفية قوية... ولديه طموح سياسي يتلمظ للاستيزار!

ومحجوب عثمان ذو نزعة سياسية ذات طابع كفاحي... أما محجوب محمد صالح فهو أقرب الى

الأكاديمية ولكن ظروفه قد دفعته الى التجارة!.. وهو أيضا أديب وقد اشترك معه في تحرير مجلة «الحياة» الأديب المرحوم عبدالله حامد الأمين. وعمل بجريدة «الأيام» صحفيون آخرون منهم مصطفى أمين ومحمد ميرغني وعبدالله جلاب ـ وفي فترة ٦٥/١٩٦٩م أتيح لي (عبدالله رجب) أن أعمل بها جانبياً وفي تلك الفترة عمل بها الوليد ابراهيم وصديق محيسي وعبدالمجيد الصاوي وعبدالباسط مصطفى ـ ومن الخطاطين الأستاذان شبر والخواص...الخ.

وممن عملوا «بالمورننق نيوز» المرحومان الدكتور أحمد الطيب وعوض ساتي والدكتور اسماعيل الحاج موسى.

الحكم العسكري:

جاء الحكم العسكري في نوفمبر ١٩٥٨م وقد اشترط على الصحف قيوداً كانت نتيجتها توقف الصحف الحزبية الصريحة (مثل «الأشقاء» و«الأمة» و«الميدان») وبقيت صحيفتا الطائفتين «النيل» و«صوت السودان» قبل أن تتوقفا بدواعي التقييد العسكري.

كما بقيت صحف الأفراد «الرأي العام» و«السودان الجديد» و«الصراحة» و«الأيام» و«الزمان» و«الأخبار» (رحمى) أما «الصحافة» فانها لم توجد أصلاً الا بعد قيام الحكم العسكري.

من بين هذه الصحف أوقف الحكم العسكري جريدة «الأيام» لفترة ما ولا أذكر السبب بالضبط، وواصل الشركاء العمل بجريدة «المورننق نيوز» وبأعمالهم التجارية ـ ثم نزح بشير محمد سعيد الى نيويورك فعمل بسكرتارية الأمم المتحدة وهناك في أواخر ١٩٦١م قابل الفريق عبود ومرافقيه وكان بينهم صديقاه الوزيران احمد خير وزيادة أرباب، وحدثت وساطة تم بموجبها الاتفاق على عودة «الأيام» فعادت وربما في أوائل ١٩٦٢م.

أصدر مكتب الاستعلامات جريدة «الثورة» في اغسطس ١٩٦٠م وكلف عبدالله رجب ومحمد الحسن أحمد بتحريرها ـ الى جانب الأستاذين قيلي أحمد عمر ومحمد فضل الله، وهذان صحفيان قديمان ولكنهما كانا موظفين بمكتب الاستعلامات قبل اصدار الجريدة ـ وعلى كل حال كان الوضع شديد الضغط على أعصاب عبدالله رجب الذي لم يستطع أن يوفق بين انطلاق الصحافة الحرة ومسلكية الاعلام الرسمي، فانسحب من الجريدة بنهاية ديسمبر ١٩٦٠م بدون استقالة، وبدون تسلم راتب الشهر الأخير!

كانت كل الصحف المستقلة متعاونة مع الحكم العسكري (بدون استثناء «الأيام» و«الأخبار»...الخ) وحيث ان الزميلين محمد سعيد معروف ومحمد الحسن احمد «بالصراحة» كان لهما انتماء شيوعي فانهما لم ينفذا قرار حزبهما برفض الحكم العسكري وقد صوتا في «الصراحة» مع المحررين الآخرين عبدالله رجب وجعفر حامد البشير ـ بالتعاون.

نهاية الصراحة:

لم يكن لعبدالله رجب أي انتماء حزبي وكان هدفه خدمة الوطن والمجتمع «عن طريق النشر العلني» وقد مارس العمل نحو هذا الهدف تحت الحكم البريطاني... هذا هو المنطق الذي سمح «للصراحة» بالاستمرار.

وفي الحقيقة ان «الصراحة» التي خلقت مكافحة قد فقدت أكثر قوتها مع الاستقلال لأنها هادنت الحكومات الوطنية ـ بما فيها حزب الأمة ـ قليلاً ـ وبما فيها الحكم العسكري ـ تماما!

تدهورت أحوال «الصراحة» المالية وقد قبلت قرضاً من الحكومة بواسطة الاستعلامات مقداره ٢٠٠٠ (ألفي) جنيه يؤجل عاما ثم يبدأ تقسيطه، مع الفوائد.

في سنة ١٩٦١م لم تستطع دفع الأقساط، بل واجهت قضايا ديون تجارية عديدة بالمحاكم، وحصلت حجوزات على المطبعة والمنقولات... وفي هذه المرحلة، وفي يوم كان فيه عبد الله رجب بالحراسة بمجمع المحاكم الملاصق لمجلس الشعب (البرلمان القديم)، جاء الزميل معروف الذي كان قد اشتغل مدرسا بمدارس الأحفاد وعرف التفاصيل وذهب الى الاستعلامات حيث قابله السيدان طلعت فريد ـ ومحمد عامر بشير، وقد تدخلا لتأجيل القضية التي كانت موضوع وضع عبد الله رجب بالحراسة، واحتلال مطبعة «الصراحة» ـ بالبوليس.

في مرحلة تالية اتفقوا على دفع الديون الخاصة «بالصراحة» مؤقتا ـ وكان منطقهم أن «الصراحة» كانت متعاونة مع النظام فيجب اخراجها من دائرة الشماتة! ثم طلبوا جرد ممتلكات «الصراحة» بما لها وما عليها ـ وكانت متوازنة تقريبا، فقط الديون التي «لنا» كانت عسيرة التحصيل ـ وأفادنا الأستاذ فوراوي ان هناك «مأزقا قانونيا» لا مخرج منه إلا بالتوقيع على عقد بيع لجريدة «الصراحة» للحكومة بما لها وما عليها... وقد استدركت على كشف الجرد أن هناك حقوق خدمة للعمال... وهناك ديون لم ترصد ـ أهمها إعانات شقيقي المرحوم علي رجب ـ وهناك مصيري الشخصي.

قبلوا فقط «حقوق العمال» ـ وهذا أرضى ضميري ـ ففي الحقيقة انه كان يمكنني اجراء «تفليسة رسمية»، ولكن كان يضار بذلك العمال. فعمال «الصراحة» نجدهم الآن تقريبا كلهم بالمطبعة الحكومية وغيرها من مؤسسات الدولة، وقد تقدمت أجورهم وكفاءتهم الفنية وحقوق خدمتهم منذ الخمسينات مسجلة.

والأمر الثاني، أن بعض الديون التي دفعت كان أصحابها أصدقاء قد تطوعوا بتقديمها بدون مطمع في الكسب.

بالنسبة لجريدة «الصراحة» شاءت سلطات الاستعلامات ان تسلمها للأستاذ محمود أبو العزائم فسماها «الصراحة الجديدة»، وكانوا يدفعون لي ٥٠ جنيها في كل شهر مقابل «حق الامتياز» ولما قبلت وظيفة ضابط استعلامات بكسلا براتب ٨٠ جنيها أوقفوا الـ ٥٠ جنيها ـ وقد احتججت في مذكرة طويلة في أكتوبر ١٩٦٢م فأوقفوا «الصراحة الجديدة». وقد استقلت في سنة ١٩٦٣م وعملت بدار الطباعة مع الأستاذ السلمابي.

ونظرا لإصراري على مواصلة النصر، فقد ظللت أكتب مقالات أسبوعية لجريدة «الثورة» تحت رئاسة تحرير الريفي، مقابل ٥ جنيهات للمقالة ـ ووجدت فرصا قليلة أخرى بمجلة «الاذاعة» والاذاعة نفسها ١٩٦٣ـ١٩٦٤م، وكافة هذه الجهود كانت ثقافية أي تاريخية أو شؤون خارجية.

في أسبوع ثورة أكتوبر كتبت مقالاً بجريدة «أنباء السودان» فهمه الناس خطأ بسبب تضليل الاذاعة التي حذفت الاشارة الى «الجنرال خان» فقد كنت أحاول التحذير من التدخل الأجنبي.. وان كنت أيضا قد حاولت التعريض بحزب الأمة...

على كل حال أكرر القول انني كنت متعاونا مع الحكم العسكري ووقوفي معه حتى النهاية أشرف في نظري من الذبذبة والكبكبة وادعاء البطولة كما فعل آخرون. والحكم العسكري كان سودانيا ـ وأنا على الأقل لم اتعرض لشبهة العمالة الأجنبية والحمد لله أولاً وآخراً.

جريدة الصحافة:

جريدة «الصحافة» أصدرها الأستاذ عبدالرحمن مختار في عهد الحكم العسكري ٦٠/١٩٦١م وكان الترخيص بها قد سلف في عهد الحكومة السابقة برئاسة المرحوم عبدالله خليل... وفي تلك الفترة نشرت وثائق اتضح منها أن رئيس الوزراء المرحوم عبدالله خليل كان قد كلف إحدى الشركات البريطانية بإعداد مطبعة «الصحافة».

الصحافة الجنوبية:

بعد ثورة أكتوبر ١٩٦٤م رأينا بالخرطوم مجلة «فيجلانت» بالانجليزية ومعناها «المتيقظ» وكان يحررها بونا مالوال (وزير الاعلام في عهد نميري) وكانت الجريدة عنيفة في نقد الحكومة إزاء الجنوب، ولكنها للأسف قد نشرت «أدب الزنوجة» وأعني الكثير من الأشعار التي تعتز بسواد اللون وتهاجم البيض ـ وهذا الأمر كنا نفهمه لولا أن المراد به كان عزل شمال السودان عن جنوبه ـ ولم يكن الشماليون من البيض المعنيين.

وصحافة حزبية مرة أخرى:

بعد ثورة أكتوبر ١٩٦٤م أصدر كل من الأستاذين أحمد زين العابدين وعبدالماجد أبو حسبو مجلة قائمة بذاتها، وهما من الحزب الوطني الاتحادي، وكانت المجلتان حزبيتين صارختين.

ومحاولات صحفية أخرى:

كان المرحوم محمد عثمان أحمد الميرغني في الخمسينات قد حصل على رخصة جريدة كلف بتحريرها الأستاذ محمد فضل الله (الذي سبق له العمل بجريدة «السودان الجديد» ـ ثم التحق بوزارة الاستعلامات) لم تعش جريدة السيد «شمبات» كثيرا، وقد اشتهر المرحوم السيد محمد عثمان أحمد الميرغني بهذا الاسم للتفريق بينه وبين السيد محمد عثمان علي الميرغني ـ وكان المرحوم ينازع عمه السيد علي في بعض الممتلكات، وقد جنح في مواقف سابقة لمعارضته سياسيا، ولم يستطع بالطبع أن يزحزح سلطة «حلة خوجلي»، وفي النهاية تم الصلح بين الطرفين ـ رحمهما الله.

كان الأديب القبطي وحيد عبدالسيد شديد الالحاح في الحصول على رخصة جريدة ولم يفلح، ولشدة جنونه بالصحافة صار يصدر صحيفة باسمه في مصر ثم يشحنها الى الخرطوم كي تباع على اعتبار أنها سودانية (والجنون فنون).

الأديب حبيب غفريل شامي ـ وهو سوداني من أصل سوري (مولود بجبال النوبة) ـ قد درس الصحافة بالجامعة الأمريكية بالقاهرة، وقد عمل بجريدة «الثورة» ١٩٦٠م، ثم تعاون مع الكاثوليك في اصدار جريدة عربية بالخرطوم باسم «السلام» في الستينات.

حاول المرحوم التجاني عبدالحليم أن يصدر جريدة يومية باللغة الانجليزية بعد توقف «السودان استار» في الخمسينات ـ ولم تعش محاولته طويلاً ـ وفي تلك الفترة كانت «المورننق نيوز» التي ظلت تصدرها شركة الأيام أرسخ مثيلاتها قدما.

بعد ثورة أكتوبر ١٩٦٤م أصدر السيد صادق صديق المهدي جريدة يومية بالانجليزية حررها الأستاذان أحمد علي بقاوي ومحجوب عمر باشري ـ ولم يكن هناك توفيق ـ.

بالتعاون مع دار الأيام أصدر الأستاذ ولد عيسى زيادة ـ وهو من رجال التعليم ـ جريدة للطفل، ولم تستطع منافسة «سمير» و«ميكي».

كان الأستاذ عبدالكريم عثمان المهدي ـ بخلاف وكالته الاخبارية ـ يصدر نشرة اقتصادية باللغة الانجليزية ظلت تجد القبول في المصالح والشركات والسفارات (في الخمسينات والستينات).

تصفية اتحاد الصحافة:

في يوم ١٧ نوفمبر ١٩٥٨م جرى «تشميع» دور الصحف وشمل «التشميع» الأندية السياسية وغير السياسية بما في ذلك «دار اتحاد الصحافة»، وكانت عبارة عن منزل حكومي هو بالضبط الآن ضمن مجموعة

المساكن التي يحتلها قسم الجوازات.

كان محمد سعيد معروف هو سكرتير اتحاد الصحافة والرئيس هو بشير محمد سعيد ـ وعبدالله رجب كان أمين الصندوق ـ وفي مرحلة ما طولبنا بدفع الايجارات المتراكمة للداخلية فدفعنا مبلغاً، وفي مرحلة تالية لما طولبنا طلبنا السماح لنا بعقد اجتماع للجنة اتحاد الصحافة لمراجعة الموقف برمته، فرفضوا، والتزمت مصلحة الاستعلامات بدفع إيجار المنزل والتليفون.

ثم قالوا ان الداخلية محتاجة للمنزل وأعطوا اتحاد الصحافة منزلاً آخر، وكلف السكرتير معروف بالاشراف على نقل الأثاثات إليه وأفادني أنه منزل المرحوم الاستاذ السني عباس أبو الريش الذي كان مأخوذاً منه في مقابل سكناه بمنزل حكومي...

وما لبث أن توفي أستاذنا فباشروا نقل الأثاثات الى مكان آخر ـ في هذه المرة كنت أنا الذي كلف الطيب شبشة لمتابعتهم في هذه العملية وقد جاءني بكومة مفاتيح.

كانت الأثاثات عبارة عن كراسي خيزران وكراسي جلوس ودواليب ومكتبات ومناضد وكتب ودفاتر وملفات.

وبعد ثورة أكتوبر ١٩٦٤م أتيح لي أن أرى بعض ممتلكات اتحاد الصحافة ـ وبعض منقولات جريدة «الصراحة» بمظلات المعرض الألماني بشارع المطار!

كان لاتحاد الصحافة حساب ببنك باركليز شارع الجامعة، وآخر قائمة حساب وصلتني بعد سنوات من التجميد كانت تحتوي على باق يزيد قليلاً على خمسين جنيهاً ـ ولا أدري مصير هذا المبلغ، ولا مصير المنقولات المشار اليها ـ ومن الواضح أن الحقوق يمكن أن تؤول قانونيا للنقابة الجديدة.

مراسلة صحف الخارج:

عرفنا يحيى محمد عبدالقادر مراسلاً لجريدة «الأهرام» القاهرية، وأنا نفسي حصل لي المرحوم أحمد يوسف هاشم في عام ١٩٤٩م على مراسلة جريدة «الأساس» التي كان يحررها الأستاذ محمد صبيح للسعديين ـ وقد اقترنت خدمتي بتوكيل لبيع الجريدة المذكورة التي صارت تصل بالطائرات لأول مرة، ولم تنجح لعدم قبول «الأساس» نفسها ـ وفيما بعد وصلت «المصري» للأستاذ أحمد يوسف (أولاً) ثم للأستاذ أحمد عبدالعزيز فيما بعد ـ وصارت تصل «الأهرام» ليحيى عبدالقادر ـ الى أن آلت عملية استيراد الصحف لوكلائها المتخصصين، أما قبل ذلك فقد كانت تصل ببريد السكة الحديد ثلاث مرات في الأسبوع ـ وهذا النظام البري قبل ثلاثين سنة كان منتظما وسريعاً أكثر من النظام الجوي الحالي!

ممن باشروا مراسلة صحف القاهرة من قبل ومن بعد الأستاذ محمد أمين حسين المحامي («الأهرام» و«الاذاعة»).

والأستاذ محمد أحمد السلمابي والأستاذ عبدالعزيز حسن دسوقي (كلاهما «الزمان»).

وراسل الأستاذ محجوب عثمان صحافة «أخبار اليوم» لسنوات (وكانت طريقتهم أن يدفعوا بانتظام ثم يجندونه في اللحظات الهامة فقط).

في تجربتي القصيرة كمراسل لصحف القاهرة قد اتضح لي أنهم يسمعون كلامك في التليفون وينشرون خلافه بالشكل الذي يتفق مع أهوائهم ـ وعلى لسانك ـ ولذلك لم أحرص على الاستمرار ـ (كنت بخلاف جريدة «الأساس»، قد راسلت «الأهرام» ١٩٤٩م نيابة عن يحيى محمد عبدالقادر).

أتيح للبعض مراسلة صحف ووكالات أجنبية مثل عبدالكريم مهدي «أسوشياتد برس» ـ ومحمد سعيد محمد الحسن ـ وكالة الصحافة الفرنسية ـ وحاول عوض برير مراسلة صحافة بيفربروك «الديلي اكسبريس» وكانوا يقبلون ارساله البرقيات برسم التحصيل ولكنهم لا يكافئونه إلا إذا نشروا رسالة منه!

تحديد بعض الأسماء:

يبدو لي أن من المفيد محاولة تذكر أسماء المحررين والمعاونين الذين تعاقبوا على الصحف الرئيسية في الأربعين عاما الماضية:

١ ـ «النيل»:

الحاج الأمين عبدالقادر، محمود مصطفى الطاهر، أحمد يوسف هاشم، أمين بابكر، المبارك ابراهيم، الهادي العمرابي، عبدالرحيم الأمين، يعقوب عثمان، سليمان كشه، صالح عبدالقادر (الشاعر)، يحيى محمد عبدالقادر، خالد آدم، التجاني محمد عبدالحليم، قرشي محمد حسن، صالح عرابي، عبدالله عبدالرحمن نقدالله، زين العابدين حسين شريف، الطيب حسب الرسول، عبدالله رحمة الله.

٢ ـ «صوت السودان»:

محمد عشري الصديق، حسن عثمان بدري، اسماعيل العتباني، محمد عامر بشير، محمد الخليفة طه الريفي، محمد أحمد السلمابي، محمد أمين حسين، أحمد السيد حمد، عبدالعزيز حسن، جعفر حامد البشير، محمد عبدالجواد، حسان محمد أحمد، علي الشيخ البشير، محمد زيادة، عبدالجبار محمد أبوبكر، حسن دراوي، عثمان العقيلي، الطيب شبشة، عوض الكريم أحمد أبوسن (كشاجم).

٣ ـ «السودان الجديد»:

أحمد يوسف هاشم، حسن مختار أحمد، محمد أحمد محجوب، محمد عثمان جودة، عبدالله رجب، محمد فضل الله، محجوب محمد صالح، فضل بشير، مصطفى أبو شرف، طه المجمر، محمد الخليفة طه الريفي، عصمت يوسف، عثمان علي نور، أحمد باشري، جعفر عبدالرحمن، حامد الحاج، يحيى العوض، محمود محمد مدني.

٤ ـ «الرأي العام»:

اسماعيل العتباني، عبدالرحيم وشى، عابدين محجوب، حسن نجيلة، محمد أحمد السلمابي، عبدالعزيز حسن، محجوب عثمان، سليمان بخيت، محمد الخليفة طه الريفي، عوض برير، الفاتح التجاني، محمد الحسن محمد سعيد، جمال عبدالملك، أحمد علي بقادى، عبدالباسط مصطفى، محمد الحسن أحمد (أعضاء «الأسرة» كان بينهم غير المتفرغين: أحمد مختار، أحمد خير، ميخائيل بخيت، ابراهيم عثمان اسحاق، الدكتور ابراهيم أنيس، محمد عبدالحليم العتباني، وهؤلاء كانت أيامهم الزاهية في الأربعينات).

٥ ـ «الأمة»:

يوسف مصطفى التني، محمد أحمد عمر، أمين التوم، حسن محجوب، علي آدم ابن الخياط الصغير، فتحي حسن علوب، محمد ابراهيم طاهر، محمود ادريس.

٦ ـ الصحافة الاتحادية:

محمود الفضلي، يحيى الفضلي، الدكتور عقيل أحمد عقيل، مبارك زروق، محمد أمين حسين، أحمد السيد حمد، محمد زيادة، حسن دراوي، الدكتور محيى الدين صابر، الدكتور عبدالوهاب زين العابدين، صالح محمد اسماعيل، حسني حواش، عبدالمنعم حسب الله، أحمد جمال الدين، زين العابدين أبو حاج، علي الأزهري.

٧ ـ «الصراحة»:

عبدالله رجب، جعفر السوري، محمد سعيد معروف، سعد أحمد الشيخ، عبدالرؤوف الخانجي، محمد الحسن أحمد، جعفر حامد البشير، محجوب محمد عبدالرحمن، محمد خالد الخليفة، ابراهيم عوض بشير ـ (ومن المتعاونين المواظبين حتى النهاية: حسن الطاهر زروق، أحمد محمد خير، الوسيلة عبدالرحيم، محمد عمر بشير).

٨ ـ «الأيام» و«المورننق نيوز»:

بشير محمد سعيد، محجوب عثمان، محجوب محمد صالح، محمد ميرغني، مصطفى أمين، الرشيد بحيري، بيتركلنر (بريطاني ارلندي)، أحمد علي بقادي، الوليد ابراهيم، عبدالباسط مصطفى، ابراهيم التني، صديق محيسي، عبدالمجيد الصاوي، محمد أحمد عجيب، فؤاد عباس، الطيب شبشة. (هناك شخصيات كبيرة اشتغلت لفترات: الدكتور أحمد الطيب أحمد، عوض ساتي، الدكتور بهاء الدين ادريس، الدكتور اسماعيل الحاج موسى، محمد عمر بشير ـ كأمثلة ـ بخلاف المساهمين بين حين وآخر مثل جمال محمد أحمد ـ الذي كان يكتب أحيانا بتوقيع «عارف سعيد»!).

٩ ـ «الثورة» ١٩٦٠م:

عبدالله رجب، محمد الحسن احمد، قيلي أحمد عمر، محمد فضل الله، يوسف عبدالعال، سليمان عثمان، حسان سعدالدين، محمد البصيري، محمد الخليفة طه الريفي، منير صالح عبدالقادر ـ وغيرهم ـ (المحرران الحقيقيان هما السيد محمد عامر بشير «فوراوي» والسيد أحمد خير وزير خارجية عبود).

هؤلاء يرحمهم الله:

تضم القائمة التالية أسماء صحفيين وأشخاص آخرين كانت لهم أدوار بارزة في تاريخ الصحافة السودانية، وأرجو الترحم عليه جميعاً:

حسين شريف
عرفات محمد عبدالله
الشريف يوسف الهندي
عمر الأمين العمرابي
المرضي محمد خير
أحمد يوسف هاشم
محمد عشري الصديق
حيدر موسى

مصطفى التني
علي عبداللطيف
عبدالرحمن أحمد
الهادي العمرابي
محمد عبدالرحيم
السيد عبدالرحمن المهدي
د. سعدالدين اسماعيل فوزي
عبيد عبدالنور

محمد عباس أبوالريش
احمد عثمان القاضي
الحاج الأمين عبدالقادر
التجاني يوسف بشير
حمزة الملك طنبل
خضر حمد
محمد عثمان ميرغني شكاك
محمد السيد السواكني

معاوية محمد نور
د. التجاني الماحي
عثمان أحمد عمر (عفان)
حسن عثمان اسحاق
ميخائيل بخيت
علي الشيخ البشير
عبدالمنعم حسب الله
حامد أحمد حمداي
عبدالله وقيع الله
الشاعر/ عبدالله عبدالرحمن
التجاني عبدالحليم
ابراهيم اسرائيل
علي البرير
اسماعيل الأزهري
عمر حسن
كامل الأحمدي
عثمان علي حسن
الشفيع أحمد الشيخ
عبدالله حامد الأمين
حسن عزت
عزيز اندراوس.

أحمد السيد الفيل
محمد الحسن دياب
عبدالله ميرغني
يوسف مصطفى التني
مبارك رزوق
محمد عوض الكريم القرشي
يعقوب عثمان
محمد سعيد العباسي
صالح عبدالقادر
المبارك ابراهيم
جعفر السوري
عوض ساتي
د. عقيل احمد عقيل
الحاج هاشم
توفيق البكري
صالح محمود اسماعيل
علي السيد الفيل
أحمد محمدصالح
أبوبكر خالد
محمد عثمان يسن

خلف الله خالد
السيد علي الميرغني
ميرغني حمزة
عبدالرحيم الأمين
محمد أحمد محجوب
يحيى الفضلي
محمد مكي محمد
عبدالرحيم وشى
سليمان منديل
السيد محمد عثمان احمد الميرغني
محمد محمد علي
د. احمد الطيب احمد
علي الأزهري
كوركين اسكندريان
الدكتور ابراهيم أنيس
محمد المصطفى الشيخ علي
عبدالخالق محجوب
أحمد محمد علي السنجاوي
عمر الحاج موسى
محمد عبدالرحمن شيبون

ملحوظة:

بالأسف فإن الترتيب الزمني رديء جداً بل لا تدل القائمة على أي نوع من الترتيب.
دعني أحاول فيما يلي وضع قوائم لمن خدموا الصحافة على أساس التخصصات والحظوظ.

صحفيون وزراء - أو العكس:

يحيى الفضلي
محمد زيادة
محمد ابراهيم خليل
محجوب عثمان
أحمد عبدالحليم
د. جعفر محمد علي بخيت
د. عون الشريف قاسم.

أحمد السيد حمد
عبدالله عبدالرحمن نقدالله
د. محيى الدين صابر
محمد عبدالجواد
د. بهاءالدين محمد ادريس
د. اسماعيل الحاج موسى

مبارك رزوق
حسن محجوب
صالح محمود اسماعيل
بونا مالوال
عمر الحاج موسى
موسى المبارك

مؤرخون عرفتهم الصحف:

د. مكي شبيكة
محمد سليمان
محمد عبدالرحيم.
د. أبوسليم
أبوالقاسم بدري
عبيد عبدالنور
التجاني عامر

مترجمون عرفتهم الصحف:

معاوية نور
ابراهيم اسرائيل
ابراهيم عثمان اسحاق
صالح عبدالقادر
د. أحمد الطيب أحمد
عوض ساتي
عبدالله عشري الصديق
محمد أحمد عمر
صلاح أحمد ابراهيم
محمد صالح ابراهيم
أحمد جمال الدين
رحمى محمد سليمان
خليفة خوجلي
عبدالفتاح المغربي
ابراهيم ابو عكر
محمد عمر محمد
هنري رياض
التجاني عامر
فخر الدين محمد عبدالباقي
أبوالمعالي عبدالرحمن
حبيب مدثر هاشم
عبدالله رجب
محمود بابكر جعفر
عرفات محمد عبدالله
الدكتور سعد الدين فوزي
حامد أحمد حمداي
محمد أحمد محجوب
محجوب عمر باشرى
محمد عشري الصديق
بشير محمد سعيد
أحمد زين العابدين
عبدالرسول احمد عرابي
متولي عيد
جمال عبدالملك
عبدالرحمن الياس
حسين طه زكي
محمد عامر بشير
ميخائيل بخيت
علي الملك
حبيب غفريل شامي
عزيز انداروس
احمد عبدالحليم
التجاني عبدالحليم
طه عبدالرحمن
فضل بشير
محمد عثمان مصطفى.
توفيق البكري
جمال محمد أحمد
عوض برير
قيلي أحمد عمر
حسن عزت
عبدالله وقيع الله
عبدالخالق محجوب
عبدالكريم يعقوب
محجوب عبدالمالك
محمود مصطفى الطاهر
زين العابدين حسين شريف
مصطفى حامد الأمين
حسن عثمان اسحاق
أحمد حسن مطر
حسن الطاهر زروق
سيد أحمد نقدالله
الجنيد علي عمر
منصور محمد عبدالرحمن
محجوب محمد صالح
أحمد عبدالله المغربي
محمد عمر بشير
محمد علي محمد صالح

أدباء عرفتهم الصحف:

حمزة الملك طنبل
عثمان الخوري
عيسى الحلو
الطيب زروق
مصطفى عوض الله بشارة
أحمد جبارة
محمد عمر بشير
جعفر حامد البشير
التجاني يوسف بشير
معاوية نور
توفيق البكري
جمال أبو سيف

سعد الأفندي
الوليد ابراهيم
هنري رياض
أحمد عبدالحليم
بشرى السيد أمين
ابن خلدون
محمد عبدالرحمن شيبون
أحمد علي بقادي
طه حسين الكد
محمد محمد علي
محيي الدين صابر
حسن نجيلة
قرشي محمد حسن
محمد سعيد معروف
محجوب عمر باشرى
سيد أحمد نقدالله
الزبير علي
خوجلي شكر الله
الهادي أدم
عبدالله حامد الأمين
أبو بكر خالد
علي الملك
صلاح أحمد إبراهيم
ابراهيم عبدالقيوم
عبدالرحيم الأمين
الطيب محمد الطيب
المرضي محمد خير
د. عبدالله عمر أبو شمة
محمد أحمد محجوب
التجاني عامر
علي السيد الفيل
الهادي العمرابي
المبارك ابراهيم
منير صالح عبدالقادر
محمد المهدي مجذوب
د. عبدالله الطيب
د. أحمد الطيب أحمد
كمال شانتير
أبوالقاسم عثمان

عسكريون عرفتهم الصحف:

مزمل غندور
محمد محجوب
عوض أحمد خليفة
فاروق أحمد عمر.
عمر الحاج موسى

نقاد الأدب في الصحف:

حمزة الملك طنبل
د. احسان عباس
محمد محمد علي
محمد المهدي مجذوب
عبدالهادي الصديق
محمد أحمد محجوب
د. عبدالمجيد عابدين
منير صالح عبدالقادر
حامد حمداي
صديق محيسي.
د. محمد النويهي
د. مصطفى هدارة
عبدالله حامد الأمين
عبدالقدوس الخاتم

شعراء عرفتهم الصحف:

عبدالله محمد عمر البنا
عبدالله عبدالرحمن
أحمد محمد صالح
حسن عثمان بدري
علي نور
محمد أحمد محجوب
محمد سعيد العباسي
خلف الله بابكر
محيي الدين فارس
صالح عبدالقادر
مصطفى سند
صلاح أحمد ابراهيم
محمد المكي ابراهيم
سيد أحمد الحردلو
اسماعيل حسن
الحسين الحسن
د. عبدالله الطيب
محمد الفيتوري
توفيق صالح جبريل
تاج السر الحسن
الهادي آدم
كمال عمر الأمين
عبدالمجيد حاج الأمين
عزيز اندراوس
أحمد سنجر
أبوطراف النميري
محمد الخليفة طه الريفي
حمزة الملك طنبل
قيلي عبدالرحمن
محمد محمدعلي

محمد المهدي مجذوب
محيي الدين صابر
ابراهيم عوض بشير
حسن نجيلة
ابراهيم عمر الأمين

منير صالح عبدالقادر
الرشيد نايل
التجاني عامر
يوسف مصطفى التني
عبدالقادر كرف

دفع الله عبدالرؤوف
جعفر حامد البشير
أبو أمنة حامد
حسن طه
الطيب محمد خير

نقاد الألعاب الرياضية بالصحف:

هاشم ضيف الله
كوركين اسكندريان
عمر حسن
الحاج هاشم
الجمل.

عمر عبدالتام
أدهم علي أحمد
مصطفى عالم
حسن مختار

طه المجمر
ميرغني أبو شنب
كمال طه
أبارو

نقاد فنون بالصحف:

عثمان عبدالله وقيع الله
محمد عثمان مصطفى
اسماعيل خورشيد
حسن مختار.

سليمان عبدالجليل
محمد ابراهيم حتيكابي
ميرغني البكري

اسماعيل حسن
خالد أبوالروس
السر حسن قدور

كتاب عماليون بالصحف:

فضل بشير
محمد السيد سلام
عثمان ابراهيم حربي.

قاسم أمين
سليمان علي حمد

الأمين علي
الشفيع أحمد الشيخ

كتاب علوم بالصحف:

د. التجاني الماحي
اسماعيل الأزهري
الأستاذ الشايقي

ود الريح
ابن خلدون
محمد المهدي دوليب

محمود أحمد مهدي
عوض ساتي
عبدالله رجب

فنون الخط والرسم والتبويب بالصحف:

محمد عثمان جودة
اسماعيل ود الشيخ
كندورة.

عثمان عبدالله وقيع الله
محمد زبير رشيد

محمد الأمين شبر
عزالدين عثمان

* (هذه مجرد أمثلة فإنني لا أعرف الجميع).

عمال قدماء بمطابع الصحف:

مهدي مصطفى — عبدالعظيم عبدالكريم — عثمان محمد علي
منير محمد يس — كامل عبدالله خيري — عبدالعزيز محمد داود.

(لمجرد تمثيل هذه الفئة العظيمة).

مصححون قدماء بالصحف:

محمد محمد علي — المبارك ابراهيم — الناصر قريب الله
بله الطيب — عبدالرحمن فهمي — عبداللطيف عمر
عبدالرحمن الياس — ابراهيم عوض بشير — الصادق الجيلاني
محمد صالح ابراهيم.

كشف أخير بأسماء الصحفيين المخضرمين والعاملين

(هذا الكشف قد لا يشتمل على الزملاء الجدد الذين التحقوا بمهنة النكد في السنوات الأخيرة):

حسن عثمان بدري — ابراهيم أبوعكر — زين العابدين شريف
عبدالفتاح المغربي — متولي عيد — حسين مأمون شريف
محمود الفضلي — جمال محمد أحمد — عبدالله جلاب
عبدالرحمن مختار — بشير البكري — عابدين محجوب
حسن مختار — حسن سلامة — أحمد مختار
حسن مختار أحمد — سليمان بخيت — اسماعيل العتباني
مكي عباس — جعفر عبدالرحمن — محمد أحمد عمر
فضل بشير — محمد الحسن أحمد — أمين التوم
عبده دهب — محمود أبوالعزائم — خالد أدم
أبوالقاسم بدري — عبدالرسول عرابي — أمين بابكر
محمد أمين حسين — أحمد جمال الدين — محمد أحمد السلمابي
حسن الطاهر زروق — عبدالله رجب — حسن محجوب
بابكر محمد علي — علي أدم — عبدالله عبدالرحمن نقدالله
رحمي محمد سليمان — محمد محجوب — بشير محمد سعيد
أحمد محمد خير — صلاح أحمد محمد صالح — محجوب محمد صالح
عبدالعزيز حسن — حسن نجيلة — محجوب عثمان
عبدالماجد أبوحسبو — قيلي أحمد عمر — محمد عامر بشير
أحمد زين العابدين — صالح محمد اسماعيل — فتحي حسن علوب
علي أحمد عبدالرحمن — محمد فضل الله — محمد الخليفة طه الريفي
حسب الله الحاج يوسف — الفاتح النور — محمد صالح يعقوب
محمد عثمان جودة — طه عبدالرحمن — صالح عرابي

محمد المشرف
محمد ابراهيم طاهر
ابراهيم عبدالقيوم
عثمان خليل
فضل الله محمد
ميرغني فضل (الفنط)
موسى المبارك
محمود مصطفى الطاهر
محمود بابكر جعفر
عثمان علي نور
نورالدين مدني
طه المجمر
طلحة الشفيع
التجاني محمد أحمد
ميرغني حسن علي
صادق عبدالله عبدالماجد
فؤاد عباس
عصمت يوسف
الوليد ابراهيم
سعد أحمد الشيخ
فاروق احمد عمر
عبدالكريم المهدي
عبدالباسط مصطفى
محمد ابراهيم خليل
خليفة خوجلي
عوض أحمد خليفة
مصطفى شكري
عثمان عبدالله وقيع الله
فايت محمد فايت
قرشي محمد حسن
محمد علي محمد صالح
جعفر حامد البشير
محمود ادريس
مصطفى أمين
زين العابدين أبوحاج
محمد ميرغني
عثمان سنادة
كامل حسن محمود
د. محمد عثمان أبو ساق
مصطفى أبوشرف
جمال عبدالملك
أحمد طيفور
حبيب غفريل شامي
أحمد علي بقادي
حسني حواش
محجوب خيري
صديق محيسي
منير صالح عبدالقادر
عباس الطاهر
العراقي
محمد عثمان مصطفى
درويش
سالم أحمد سالم
حسن ساتي
تيتاوي
السر حسن فضل
ابن البان
ميرغني أبوشنب
عبدالله عبيد
عبدالله عبيد أحمد
بخيتة أمين
العوض وداعة الله
آمال مينا
الرشيد حميده
آمال عباس
عثمان العقيلي
نور تاور
فاروق أحمد ابراهيم
علي عثمان المبارك
شيخ ادريس بركات
عبدالرحمن محجوب
توفيق صالح
محمود محمد مدني.

مراسلون اقليميون للصحف:

دبورة (عطبرة) — محيي الدين زمراوي (عطبرة)

عيسى عبدالله (مدني) — قسم الله الأمين ـ أبو سيف (مدني)

[لمجرد التمثيل، واقدم منهم السلمابي (القضارف) والفاتح النور (الأبيض)]!.

استدراكات:

* ربما اكون قد تعمدت تأجيل الحديث عن مجلة «الأضواء» التي أصدرها محمد الحسن أحمد في أواخر الستينيات ـ لأن المذكور من «أبناء الصراحة» وأجد الاغراء كي أقول ان جريدته تشبه «الصراحة» ببعض الوجوه، وسوف أخصص لها فقرة بعد هذه الاستدراكات.

* هناك مجلة «الخرطوم» التي صدرت في الستينيات أيضاً عن وزارة الاعلام ـ شهرية ـ كان يحررها

الأستاذ قيلي أحمد عمر، وقد اكتسبت أسرة خارج الحدود، ومن جملة انتصاراتها نشر قصة «عرس الزين» للطيب صالح ـ والطيب صالح معروف بالسودان من قبل، فهو «إذاعي لامع» بمقاييس لندن، وقد جرت محاولة لتجنيده للاذاعة السودانية منذ أكثر من ١٥ عاماً لكنه تضايق من تخلف معداتها (وينطبق هذا على الأديب علي أبو عاقلة أبو سن، وهو أيضاً إذاعي لامع ومتخصص في ببليوغرافيا تاريخ السودان وأعتقد أنه الآن بالخارجية) أما الطيب صالح فهو بالخليج يقدم خبرته الاعلامية.

* بالخليج أيضا الدكتور ابراهيم الشوش (وهو أكاديمي) يحرر منذ مدة مجلة «الدوحة» الناجحة على نطاق العالم العربي ـ وليس هذا للحصر فإن النازحين كثيرون ـ.

* نسيت من بين المؤرخين الذين عرفتهم الصحافة شيخنا المرحوم صالح ضرار ـ وتخصصه في تاريخ شرق السودان ـ كما نسيت نجله الذي يحمل الراية من بعده ضرار صالح ضرار ـ وتخصصه تاريخ السودان ككل.

* سهوت بين الاعلاميين عن ذكر المرحوم محمد عبدالرحمن الخانجي ومن بين كتّاب العلوم نسيت المرحوم الريح العيدروس الذي ثقفنا في الثلاثينات في علم الفلك الحديث ـ ونسيت أيضا المرحوم الدكتور السماني عبدالله يعقوب مدير جامعة جوبا والدكتور طه بعشر ـ المتخصص في الطب النفسي والعصبي.

* الكتّاب الدينيون كان لا بد أن أذكر عمنا المرحوم الحاج أحمد حسون الذي نشر أفكار أنصار السنة والمذهب الوهابي بقلمه ولسانه ـ وكثيراً ما عوقب بالضرب، فإن هذا الجانب من الفكر يجابه عداوة طائفية ـ ومن اللامعين في نشر الفكر الديني المرحوم الزين صغيرون، والشيخ عطية محمد عطية ـ وقبل كل هؤلاء الشيخ محمد المبارك عبدالله وهو أزهري متخصص من طبقة شلتوت والشعراوي.

* «والشعراء الذين في كل واد يهيمون» فاتني منهم كثيرون ثم لمحت جماع ومحمد عبدالحي ومبارك المغربي والواثق وسعد دياب وكجراي ـ والدكتور كامل الباقر ـ دعني أذكر أن الصحافة لها فضل على الشعر لأنها تتيح الذكر حتى للمقلين الذين لا ينتجون دواوين.

* من المترجمين ـ وفي نفس الوقت الصحفيين ـ فإن عمر الزين صغيرون كانت له مكانته.

* الكتّاب الاقتصاديون: المرحوم محمد عثمان ميرغني شكاك والمرحوم الدكتور سعدالدين فوزي والمرحوم عمر مصطفى التني ـ ومن الأحياء محمد هاشم عوض وعثمان سوار الدهب وعبدالله رجب (لم لا؟).

* الكتّاب المتظرفون بخلاف صالح عرابي هناك أحمد جبارة ومحمد توفيق.

جريدة «الأضواء»:

كان محمد الحسن أحمد قبل تصفية «الصراحة» ١٩٦١م قد التحق بوزارة الاستعلامات بجريدة الثورة وبعدها كموظف في الاعلام العام، ثم في منتصف الستينات عمل بـ «الرأي العام» ـ الملحق الأسبوعي ـ وكانت له جولة معلومات سياسية ذات قيمة.

بعد ذلك أحرز رخصة جريدة «الأضواء» التي كانت تحرر بأسلوب مبتكر، وممن عملوا معه في هذه الفترة مجموعة الأصدقاء القدماء، عبدالكريم يعقوب ومحجوب عبدالمالك وعبدالله رجب.

عاشت الجريدة مع حكومة مايو، ولما حصل التنظيم الجديد أوقفت من جملة الجرائد والمجلات والمعتقد أن التعويض المالي الذي ناله محمد الحسن وكذلك جميع أصحاب الصحف المستقلة ـ كان مجزياً.

اختير محمد الحسن أحمد رئيساً لمجلة ادارة «دار الصحافة» ورئيساً لتحرير جريدة «الصحافة» ـ خلفاً للسيد جمال محمد أحمد ـ واستمر محمد الحسن من ١٩٧٣م الى ١٩٧٥م حيث آل المنصب بشقيه للدكتور جعفر محمد علي بخيت.

كان محمد الحسن أحمد «عاملاً إدارياً» بمصلحة السكة الحديد، وحوكم بالسجن وفقد وظيفته في أوائل الخمسينات وجاء الى الخرطوم حيث تولى تحرير جريدة «الطليعة» التابعة لاتحاد العمال، ثم تركها والتحق «بالصراحة» تقريباً عام ١٩٥٥م.

محمد الحسن يعتبر من الذين «علموا أنفسهم» وهو ناجح جداً كمخبر، كما انه مقتدر تماماً على تكوين علاقات المودة مع أصحاب المواهب والمناصب ـ وهذا عنصر ضروري في النجاح الصحفي.

عصاميون

السلمابي:

عرفت الأخ محمد أحمد السلمابي بالضبط عام ١٩٢٧م بالقضارف حيث عملنا معـاً ضمن الوكلاء للتجار هناك (وهذا ينطبق على الريفي أيضاً)... وكان اتصالنا يومياً تقريباً وكنا نتبادل الصحف والمجلات ـ في الحقيقة انني كنت حتى ذلك الوقت أدير مكتبة بسنجة توزع الصحف والمجلات وقد فرعتها بالقضارف تحت إدارة السلمابي.

بعد ذلك أدار السلمابي مكتبة أخرى كشريك لأحد التجار وهذه كانت تمتاز بعرض الكتب الثقافية والأدبية المستوردة من مصر، مما أتاح للسلمابي أن يقرأ كثيراً.

باشر السلمابي كتابة القصص وقد نشر في أوائل الأربعينات بعض قصصه بمصر (مجلة «الاثنين» ومجلة «آخر ساعة»). أتيح للسلمابي أيضاً أن يكتب مقالات بجريدة «صوت السودان» منذ سنة ١٩٤١م بنفس أسلوبه المسجوع الذي كنت أتضايق منه!

في سنة ١٩٤٥م اتصلت بي أسرة «الرأي العام» للدعاية في القضارف لها وجمع اشتراكات ـ وقد تعاون معي السلمابي في هذه المهمة ـ وما لبث السلمابي أن صار مراسلاً للجريدة الجديدة وسجل لقطة جلبت له شهرة حيث قابل مدير المصلحة الطبية الذي جاء الى القضارف في مهمة تفتيشية، وكان الحديث في تلك الأيام يكثر عن البنسلين ـ العقار الناجح ـ الجديد إذ ذاك فقال السلمابي للمدير البريطاني لماذا لا توفرون هذا الدواء؟ فقال المدير: «إنه عقار غال والسودانيون قوم كسالى لا يستحقونه...». وانتهزت أسرة «الرأي العام» هذه الفرصة للتباري في الرزاية والاستخفاف بالخواجة حتى ترك البلاد!

في سنة ١٩٤٦م دعت «الرأي العام» السلمابي للعمل بها كمحرر بالخرطوم... وفي أثناء عمله بها، جرت مهاترة بين جريدتي «النيل» و«صوت السودان» سنة ١٩٤٩م فتطوع السلمابي بالكتابة «بالصوت» ضد محرر «النيل» ـ أو بالأحرى في صف «الختمية» ضد «المهدويين» ـ واتصلت كتاباته الى أن دعوه للعمل «بصوت السودان» وكان فرق الراتب بين الجريدتين عدة جنيهات، وعرض السلمابي على «الرأي العام» المصالحة على زيادة جنيهين فقط فاعتذروا.

كانت رواتب الصحفيين الثانويين بالخرطوم في الثلاثينات أقل من ١٠ جنيهات وفي الأربعينات بين ١٥ و٢٥ جنيهاً في الشهر.

عوكس السلمابي «بالصوت» في أيام صلاح سالم (١٩٥٣م) وكان السلمابي قد اختار الجناح الاستقلالي، ثم الاستقلال في شركات الاعلان والطباعة، ونال الحظ والثروة، وظل كريماً يهتم بالصحفيين كما ظل غيوراً على المصلحة العامة.

الريفي:

أما أخونا الخليفة محمد بن الخليفة طه عوض (الذي سمى نفسه «الريفي» وهو ليس «ابن ريف» بل

شايقي مشلخ «لاورا» فهو مولود بالقضارف وخلافة الخلفاء في بيتهم ووالدهم رحمه الله كان «يبيع المطر!».

عرفت الريفي قبل أن أراه وتكاتبنا بفضل صديق ثالث رحمه الله، وحينما تقابلنا عام ١٩٢٧م لم نكد نجد جديداً في الصفات التي عرفها كل منا في الآخر.

أتيح لي الاجتماع الوفير مع الريفي طوال عشر سنوات على الأقل ـ بقدر أكثر من السلمابي ـ وقد قرأنا وتناقشنا وبرغم اختلافنا الفكري كنا نفهم بعضنا.

والريفي كذلك قد علّم نفسه بنفسه، بل ان نصيبينا في المدرسة الأولية كان أقوى منه، ولكنه ذو موهبة في الشعر والأدب (فتوح الأبوين كما قال تاج السر! ـ أليس كذلك يا ود الخليفة؟).

ذهب الريفي الى المهرجان الأدبي بواد مدني عام ١٩٣٩م وتعرف الى الشخصيات العاصمية... وعمل في «صوت السودان» ١٩٤٤ ـ ١٩٤٦م وتركها للعمل «بالرائد» مع الأستاذ مكي عباس ثم عاد الى «الصوت» وكانت له مشاركة سياسية في حزب الاتحاديين، وعمل بجريدة «السودان الجديد» وبجريدة «الثورة» في أيام فوراوي وطلعت فريد ـ وأخيراً بـ «الصحافة» و«الأيام» وهو لم يلق السلاح بعد...

التطهير: أكتوبر ومايو:

لم تنشر وثائق التطهير في ثورة أكتوبر ١٩٦٤م وكان عبدالله رجب قد تلقى خطاباً بتوقيع أحمد سليمان المحامي رئيس لجنة التطهير يطالبه بمبلغ ألفين وكذا من الجنيهات عبارة عن سلفة (٢٠٠٠ جنيه) من الحكومة مع فوائدها... وكان ردي أن هذا المبلغ يدخل ضمن (صفقة بيع «الصراحة» المزعوم) وطالبت بطرح القضية برمتها و«إنصافي» لأنني كنت (قبل ثورة أكتوبر ١٩٦٤م) قد طالبت بإعادة النظر في هذه القضية... ومن الجلي أن الأوراق حفظت.

يبدو لي أن مطالبات ومحاسبات أخرى قد جرت على يد اللجنة المشار اليها أو غيرها ـ ولكن بالأسف كانت دائماً مثل هذه الاجراءات تتعلق بمسائل صغرى ضد شخصيات جانبية وتعد زاهدة ـ وهذا بالفعل ينطبق على يحيى محمد عبدالقادر ورحمي محمد سليمان وعبدالله رجب الذين لم يملكوا حتى ولا منازل «جالوص» ولا سيارات ولا إيجار تليفونات واثنان من ثلاثتهم ربوا عائلات بالعشرات.

تطهيرات مايو:

أما التطهيرات التي نظمت باسم حكومة مايو بالنسبة للصحفيين فقد تعلقت بإعانات من الحكومة لأفراد أو صحف بشكل مساعدة إنسانية أو أدبية ـ وكلها مبالغ تافهة ـ.

وكانت «الصراحة» مرة أخرى ممثلة في فترة التحقيق وبالاشارة الى عديد الوثائق كان المبلغ الذي تلقيته يدخل في نطاق (صفقة بيع «الصراحة»).

وهذه القضايا قد انتهت بالحفظ.

الصحافة في عهد مايو ١٩٦٩م:

سمحت سلطة مايو ١٩٦٩م للصحف غير الحزبية بمواصلة الصدور، ولكن كانت هناك «رقابة» من ممثلي الأمن العام يزورون كل مطبعة تطبع جريدة ويطالعون بروفاتها النهائية ـ وسارت الأمور بدون مشاكل الى أن أنهيت هذه الرقابة.

كانت حكومة الأحزاب قبل مايو ١٩٦٩م قد أوجدت في الشهرين الأخيرين جريدة يومية بوزارة الأعلام لتنشر وجهة نظر الحكومة لأن الصحافة الحزبية في تلك الأيام شديدة المهاترة... وكان يشرف على الجريدة الأستاذ قيلي أحمد عمر (وهو صحفي مؤهل) وأسند التحرير الفعلي الى صحفيين آخرين منهم عبدالله عبيد

أحمد وزين العابدين أبو حاج وعثمان علي نور ـ الذي كان يعمل أصلاً بالاستعلامات، وآخرين منهم عثمان سنادة ـ وأسندت لعبدالله رجب مهمة كتابة صفحة خارجية عن العالم العربي. وجدت سلطة مايو جهاز الجريدة اليومية المذكورة جاهزاً فأصدرت الجريدة باسم «الأحرار» وفي مرحلة تالية تولى تحريرها الأستاذ ابراهيم عبدالقيوم وكان من محرريها حسني حواش... وكلف عبدالله رجب بكتابة تعليق يومي (في تلك الأيام كنت أعيش من هذا العمل الجزئي بعدة صحف).

التأميم:

في سنة ١٩٧١م شكلت وزارة الاعلام لجنة من عدد من الصحفيين القدماء ـ والمفكرين ـ طولبت بدراسة أوضاع الصحافة السودانية، وقد تدورس تاريخ الصحف الحزبية والفردية، وحصل الاعتراف بأن الصحافة السودانية كان لها دورها المجيد في تحرير وتوعية الشعب السوداني... ولكن ما يجوز بعد الآن أن تكون في حدود طموح أفراد ذوي امكانيات قليلة، ولذلك فقد اقترح تأميمها أو إلحاقها بمسؤولية الاتحاد الاشتراكي وتوفير تمويلها الكبير من الحكومة أو النظام المصرفي كيما تتحسن خدماتها للشعب... ولم تقصر اللجنة في التوصية بتعويض أصحاب الصحف القائمة وإتاحة الفرص أمامهم في أعمالهم التجارية والصناعية الأخرى ـ بل في العمل الصحفي ـ وبالنسبة للصحفيين كانت هناك توصيات بتأهيلهم وكفالة حقوقهم.

أعتقد أن التوصيات المشار اليها قد نفذت.

نظرة عامة:

ان الصحافة السودانية على الأقل منذ الثلاثينات قد قامت بدور محسوس في توعية الشعب السوداني نحو التحرر والديمقراطية ونشر التعليم ورفع مستوى المعيشة كانوا يرفعون شعار محاربة «ثالوث الفقر والجهل والمرض».. ثم جاءت نداءات الاشتراكية والتصنيع... والانتماءات العربية والافريقية... وقضية السلام العالمي.

أذكر القارىء بفكرتي السالفة عن «توزيع الأدوار» ـ وكيف أن أسلافنا في اليمين أو اليسار قد ساهموا في خدمة البلاد ـ كل منهم في موضعه ـ وحتى مع تعارضهم وتناقضهم وخصوماتهم. (فقط لا يمكننا أن نعترف على الدوام بنظرية «توزيع الأدوار» لأنها تحتاج الى مسافة زمنية، والى تفحص كل حالة في حد ذاتها).

تمويل الصحف:

أذكر القارىء أن الصحف في جميع أنحاء العالم انما تعتمد على «موارد زلقة» مثل الاعلانات، وهي في أحيان كثيرة تكون أدوات املاء.

ونحن نعلم أن الصحف الكبرى في بريطانيا والولايات المتحدة يملك بعضها بليونيرات يملكون بدورهم غابات الأخشاب ومصانع الورق الضخمة وترسانات صنع معدات الطباعة... أفلا يملك هؤلاء التوجيه والاملاء؟

وحتى هنا في السودان كان تمويل الصحف من أحزاب أو شخصيات كبيرة أو من مجموعات مشتركين ـ مع الضغط من أصحاب النفوذ.

والصحف الحزبية في السودان ـ الصحافة الاتحادية «والأمة» و«النيل» ـ في مجموعها ـ قد خسرت أكثر من مليون جنيه!

دعنا نفترض أن الصفات السالفة بالنسبة للصحافة السودانية قد ذهبت مع الماضي.

أفلا يكون تمويل الصحافة السودانية بنظامها الحالي أكرم وأشرف!؟

واخيرا

إن جميع وثائق الحكم والاتحاد الاشتراكي ـ كما ذكرها الرئيس نميري في خطابه الأخير يوم عيد الجمهورية (١٢ أكتوبر ١٩٧٥م) تنص على حرية الصحافة.

إنني أطالب الزملاء بممارسة هذه الحرية وحماية مصالح «الأهالي الغبش».

أشكركم مع مزيد تحياتي....

الخرطوم ١٥ أكتوبر ١٩٧٧م.

المخلص
عبدالله رجب



مختارات لمقالات كتبها المرحوم عبدالله رجب...

- أولها مقالته عن صديق عمره ودربه وكفاحه المرحوم محمد أحمد السلمابي.
- الثانية عن المرحوم حسن الطاهر زروق رحمة الله عليهم جميعاً.
- الأخيرة كانت الأخيرة التي نشرها بالصحافة.

مضى ولن ينقضي..

منذ ان سمعت النعي مساء الاثنين اول يناير باشرت الحداد بقلمي ـ لم اكتب أي سطر سوى هذا السطر فوق يدي مباشرة بعد عدة أيام ـ والعجيب ان أحد الأهل في المـأتم قد لامني لأنني لم أكتب عن السلمابي كأن الكتابة عنه يمكن ان تكون عزيزة مثل عزته علينا. والحال ان الصحف السودانية لن تفرغ قريباً من التفجع لفقده ـ ولو كان يعود بالكتابة لما بقيت في حوزة اصدقائه وتلاميذ مدارسه ورقة إلا واشتملت على نقش اسمه.

لم تخل صحيفة طوال الاسبوع الماضي من ذكر اسمه، فالصحافة كانت ميدان بروز شخصيته الأول.. ولن تنفك المنابر تؤبنه فقد برهن في سنواته الأخيرة على انه خطيب ذو تأثير ـ وقد بادر بنعيه رئيس الجمهورية، ولم يقصر في تأبينه «مجلس الشعب» ـ وتـراكمت أكداس البـرقيات، وتتـابعت أفواج المعـزين من اقاليم السودان.

ان السلمابي قد خلد ـ ومع ان البقاء لله ـ فإن المولى قد أذن ببقاء اسمه الى ما شاء الله، بفضل ما مكنه من بناء المؤسسات التعليمية والطبية في اصقاع هذا القطر ـ وما قدمه من عون لجامعة الخرطوم والبارزين من خريجيها ـ الى غير ذلك من المبررات الظاهرة والخفية.

ومع ان السلمابي كان وسيظل مذكوراً بين رجال المال والأعمال والصناعة والاقتصاد وفنون الطباعة والتغليف والاستيراد ـ فالأمر الذي يعنيني هنا: ان الأجيال القادمة من أبناء وبنات الشعب السوداني سوف تجد فيه القدوة في الكفاح والصبر والارادة والنجاح ـ مع العصامية والفقر وضآلة البداية من التعليم.

لقد سبقني في الأسابيع الأخيرة ـ لمناسبة تكريمه بدكتوراه جـامعة الخـرطوم ثم موتـه المفاجىء ـ الأصدقاء حسن نجيلة وجعفر حامد البشير ويحيى محمد عبدالقادر وطلحة الشفيع وزين العابدين ابوحاج ـ وآخرون من زملاء صحافة الخرطوم: ولم اذكر الأخ محمد الخليفة طه (الريفي) بـرغم تعدد مبـادراته في ذكريات «الصحافة زمان» لأنه يتميز معي بالمعرفة المبكرة، بجوانبها من الصداقة الحميمة، منذ النصف الثاني من الثلاثينات للطود الذي حاولنا أن ندفنه بتراب صحراء الخرطوم الجنوبية مساء الثلاثاء ٢ يناير ١٩٧٩ ـ وقد أبى إلا أن يظل شامخاً ملء السمع والبصر والحياة.

لا شك ان كثيرين في ميادين الصحافة والأدب والسياسة والتجارة والصناعة واستثمار المال والسياحة والطباعة ـ وفي جامعة الخرطوم، ووزارة التربية والتعليم ووزارة الصحة وفي شتيت من الهيئات الاجتماعية ـ في أقاليم السودان والخارج ـ قد عرفوا السلمابي، وبعضهم أكثر مني، ولذلك فان الاحاطة بأبعاد شخصيته وتأثيراته أمر يستعصي على طاقتي وطاقة اي فرد غيري، برغم أنني قد عرفته فترة ٤٢ سنة من يناير ١٩٣٧ الى يناير ١٩٧٩.

وانني لأحمد الله على أننا لم نخسر مودتنا المتبادلة طوال هذه الفترة، ولم نبت ليلة على خصام حينما كنا نتعايش في اتصالات يومية مدى سنوات متصلة، ولم تحدث بيننا قطيعة حينما اختلفت أماكن اقامتنا ـ وقسمة الله لمعايشنا ـ وانخفض عدد مرات اللقاء بيننا بحيث صارت مرة أو مرتين في العـام. ومن حقي ان أكرر الامتنان بأننا صنعنا المودة بين أسرتينا، وأورثناها أعقابنا (ان شاء الله).

نشأة السلمابي:

لمحاولة تحديد عمر فقيدنا العزيز محمد أحمد عبدالله السلمابي، أذكر أنه منذ سنوات كان قد ذكر لي أنه وجد في أوراق المرحوم والده (الذي توفي بالخرطوم ١٩٥٥) ان مولده بالتاريخ الهجري (القمري) كان يوم كذا، ويريد مقابلته بالتقويم الشمسي فانكببت على عملية حسابية وثم لكي اتأكد ذهبت الى دار الوثائق مع الأخ منير صالح عبدالقادر حيث تكرم المديران الاستاذان ابو سليم وبدري فلبيا رغبتي في تصوير الصفحة الأولى من أحد أعداد جريدة الحضارة السودانية من مجموعة سنة ١٩٢٠، وبذلك قد تم تأييد مولده في تلك السنة (وصفحة الحضارة ربما يتاح العثور عليها في مخلفات المرحوم) فحياته إذن ١٩٢٠ ـ ١٩٧٩ وقد لاقى ربه عن ٥٩ سنة بالحساب الشمسي أو ٦١ سنة بالحساب القمري (تقريباً).

في القضارف:

مع ان الأخ السلمابي قد ولد بكركوج وتعلم بمدرستها الأولية (كركوج الفونج، وليست كركوج الجزيرة) فإنني لم أعرفه بسنجة التي لا تبعد كثيراً عن مسقط رأسه بل عرفته بالقضارف التي انتقلت اليها سنة ١٩٣٧ وكان عملنا مع التجار قد جعلنا نلتقي كل يوم بسوق المحصول، ثم تذهب في يوم الجمعة الى «سوق كساب» باللواري لشراء السمسم هناك.

وكان كاتب هذه السطور منذ تلك الأعوام يتأبط على الدوام لفافات الصحف والمجلات، وكما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ان الأرواح جنود مجندة، ما تآلف منها ائتلف وما تناكر اختلف).. فانجذبنا الى بعضنا وصرنا نتبادل الصحف والكتب والمجلات والمناقشات، وهذه المبادلات كانت قد شملت معنا أخرين أسماهم أحد الظرفاء بالقضارف «أولاد الرسالة» ـ ومع ان «الرسالة» اسم للنساء مألوف بالسودان فهو أيضاً كان اسم مجلة المرحوم احمد حسن الزيات القاهرية ذات التأثير الأدبي الملموس في بلادنا في الثلاثينات، وكانت «مجلة الرسالة» من مستندات اطلاعنا ونقاشنا، وكنت أباشر إلقاء المنشورات بينما كان من الزملاء من يحسن إنشاد الشعر (كذلك كانت تتاح لنا الخطابة في حفلات الوداع وفي ليلة المولد الأخيرة وفي اجتماعات النادي).

وكنت في نزوحي الجزئي الى القضارف قد خلفت ورائي مكتبة «الثقافة العصرية» التي أملكها مستمرة بدون تصفية تحت إدارة بعض الأصدقاء بسنجة، ثم اتفقت مع الأخ السلمابي على تفريغ تلك المكتبة بالقضارف تحت إدارته ـ وكانت تقتصر على مجلات وصحف قاهرية قليلة ـ نافسنا بها صديقنا المرحوم حنا تسفاي لعدة شهور ثم أوقفناها.

اللغة الطليانية:

وافترقنا.. كتب الله لي أن أعيش ١٩ شهرا بالمفازة ١٩٣٨/ ١٩٤٠ ـ وهي بلدة صغيرة على رافد الرهد ـ وذهب سلمابي الى متمة الحبشية تحت حكم الطليان (وهناك أتيح له أن يتعلم اللغة الايطالية بدرجة ما، وهذا ما سهل عليه ان يتلقن فيما بعد، من خلال الحروف اللاتينية، اللغة الانجليزية وبعض اللغات الأخرى) وكانت اقامته بخور قلابات قد أدار فيها توكيل أحد التجار الأرمن.

وبسبب نذر الحرب العالمية الثانية كانت السلطات العسكرية قد نصحت التجار بالحدود بالانسحاب الى الداخل وبذلك عاد السلمابي الى القضارف، وأدار مكتبة أخرى مولها الأخ مدني الحاج الطاهر، وهذه المكتبة تميزت باستيراد كتب نفيسة ومجلدات كبيرة ـ وربح «بركات» منها الاطلاع على الأقل.

(كان بعض القضارفيين يتعصبون بطريقة ودية إزاء «البحارة» ـ أي القادمين من ضفاف النيل ـ مثل

سنجة ورفاعة والخرطوم وبربر وشندي...الخ، وفي أحد الأيام جعل احدهم يعدد مصادر النزوح بحضور سلمابي وذكر بلدتي كركوج وبركات ـ فلصق على السلمابي لقب «بركات» بالقضارف حتى اليوم).

أعماق الحبشة:

كنت بعد تصفية عملي بالمفازة في أسبوع دخول ايطاليا الحرب، يونيو ١٩٤٠، قد اقترحت على الأخ السلمابي ان ننزح الى مصر «لمجرد المغامرة» ولكنني ذهبت الى سنجة ومنها اتجهت الى الخرطوم فالقاهرة ومن هناك ظللت أكاتب سلمابي كي يلحق بي في اللحظة المناسبة. ولكنني في ديسمبر ١٩٤٠ قررت العودة، فلما التقينا بالقضارف في مطلع عام ١٩٤١ غامرنا بالذهاب الى الحبشة التي كانت ميدان حرب (فالمغامرة كانت من أغراضنا).

في طريقنا الى الروصيرص والحدود وكان لنا زميل ثالث، آدم ابراهيم، وهو سنجاوي ـ مررنا بكركوج والتقينا بالسلمابي رقم ٢ (بشير عبدالله السلمابي) وكان تلميذاً بالمدرسة الأولية.

وكان عملنا مع سلاح المهندسين الذي يخدم قوة دفاع السودان والحلفاء الآخرين حيث كنا نشرف على عمال يشقون طريقاً للسيارات، من الروصيرص شرقي النيل الأزرق وروافده الأولى وعبر منطقة بني شنقول التي يسكنها سودانيون مسلمون ووثنيون تحت حكم اقطاعي تابع لأديس أبابا.

لم نكن غرباء هناك: فالتجار سودانيون والجنود سودانيون وكذلك «الحملجية» ـ الهجانة المدنيون الذين ينقلون الأثقال على ظهور الجمال (التي هي أيضاً سودانية، وقد ماتت منها في الطرق الصخرية الوعرة والمستنقعات الآسنة في داخلية الحبشة عشرات الآلاف ما زالت عظام سناكيتها وأعواد حواياها تملأ الرحب هناك!).

عبر هذه الطرق وفي أعماق الغابات وعلى حفافي المستنقعات وعلى قنن الجبال تسامرنا شهوراً وكانت معنا الكتب ودواوين الشعر ومجموعات من مجلتي الرسالة والثقافة ـ وبعض كتب المطالعة الانجليزية ـ وبذلك حولنا مغامرتنا الفاشلة الى بعثة تعليمية مثمرة:

كانت رحلتنا قد توغلت حتى ولاية قجام في مقاطعة «متكل» التي كان يحكمها الفتراري «زل غ ى» الذي لم يسلم للطليان في فترة ٣٦ / ١٩٤٠ وهو في أيامنا كان يتعاون مع الحلفاء وهيلاسلاسي وقد أهدى الى معسكرنا ثوراً ذبحناه وقد رأيت لأول مرة طريقة أكل اللحم مع الشاي.

وابور صفر يا سلام
وكبايتو منْ أمات حزام
وشرابو باللحم أب عضام

حقاً، لقد كان عمنا عثمان خليل رئيس العمال قد شرب الشاي مع أكل اللحم بدل الكعك (وكان الشاي محلى بعسل النحل لعدم السكر)!

لقد كنا على مقربة من (دبرا تابور) في طريق أديس أبابا ـ وبمنطقة بحيرة تانا ـ وقد تقيحت أقدامنا بفعل «الماجرية» وهي ديدان عجيبة تقتحم الجلد وهي لا تكاد ترى ثم تلف نفسها بنسيج أبيض من لحم الانسان وبذلك تتقرح القدم وحينما تستخرج الديدان بالنخس تكون احداها في حجم حبة الفاصوليا.

لماذا الفاصوليا؟ انها مع زيت السمسم تشكلان مصدرنا الغذائي من البروتين النباتي ومع دقيق الذرة الذي نصنع منه عصيدة (بني كربو) المشهورة ـ وهي مادة نشوية لا بأس بها، تشكل مائدتنا ـ وهذا الطعام الشهي قد صار عقوبة قاسية مع الاستمرار الطويل.

وعدنا الى بلادنا في موسم الامطار ومن تصاريف الأقدار اننا التقينا بالعم المرحوم عبدالله السلمابي بمنطقة ود الماحي من المراكز الحدودية قبل الروصيرص ـ وظللت مع الشيخ الكريم في مودة حتى توفاه الله.

وبمجرد وصولنا الى الروصيرص في رحلة العودة شفيت أقدامنا المقرحة بفضل حرارة بلادنا ـ أو قل ببركتها ـ وكانت مقرحة ومعبأة بديدان «الماجرية».. أليس ذلك عجيباً؟.

واخترنا ان نذهب الى الخرطوم بعشم أن نحصل على وظيفة (حكام) في أملاك العدو المحتلة ـ ولكننا لم نظفر بوظيفة، فذهبت وحدي الى اريتريا في «مغامرة انفرادية» دامت شهوراً وعدت الى القضارف مع بداية عام ١٩٤٢ وعايشت السلمابي في هذه المرة أربع سنوات متصلة ـ وكان عملنا التجاري موحداً (بالتقريب) شملنا مع اصدقائنا السادة بشير اخوان، وقد رحل سلمابي مع أسرته كلها الى هناك وجمعتنا المحبة.

الجانب الصحفي:

لا أحتاج أن أقول انني سبقت الأخ السلمابي بالكتابة الى الصحف منذ ١٩٣٣ وصرت معروفاً بدرجة نسبية في الأوساط الصحفية بالخرطوم ولدى قراء الأقاليم سنة ١٩٣٦ وما بعدها (فأنا أكبر من سلمابي في السن بخمس سنوات).

وعلى كل حال فقد بدأ السلمابي يكتب لصحف الخرطوم منذ أواخر الثلاثينات ـ ونشط كثيراً منذ بداية الأربعينات ـ وفي هذه الفترة نشرت له قصص قصيرة بمجلتي «الاثنين» و«آخر ساعة» القاهريتين (وكان أسلوبه الأدبي مسجوعاً يتميز بخصوصية الخيال ـ بينما كان أسلوبي وجيزاً يتصف باختصار البرقيات مع التمسك بالواقعية المباشرة المجففة من كل خيال!).

في سنة ١٩٤٥ (مايو) زرنا مكتبة مجلة آخر ساعة بالقاهرة (أيام ملكية المرحوم التابعي لها، قبل ايلولتها لمؤسسة أخبار اليوم) وسمعت مع الأخ الفاتح النور ثناء على قصص سلمابي من محرري مجلة آخر ساعة، وقد أضاف أحدهم أن آفة تلك القصص كسائر انتاج الأدباء الشرقيين هو «قصر النفس».

الرأي العام:

وقبيل صدور الرأي العام في مارس ١٩٤٥ كنا قد تعاونا (سلمابي وأنا) في جمع اشتراكات لها بالقضارف، ثم حول السلمابي نشاط مراسلته لها منذ صدورها، وكانت له خلال ١٩٤٦/٤٥ سلسلة ناجحة من الأخبار المثيرة، وكان أن دعته أسرة «الرأي العام» للعمل بها ـ ويمكن أن نذكر أنه قبل عتباني، كنا معروفين لدى حسن نجيلة وأحمد خير وأحمد مختار والمرحوم ميخائيل بخيت (الاخير بفضل قضارفيته، والأولان سنجاويان والثالث صديق الثاني، والثلاثة الأوائل عاشوا بواد مدني ـ ومعهم عتباني ـ وفي المهرجان الأدبي هناك عرفوا سلمابي والريفي ـ وكلهم من الأسرة «المطعمة» أسرة الرأي العام كما وصفتها قصيدة المرحوم محمود الفكي!.).

إذن فان سلمابي قد التحق بالعمل الصحفي المنتظم قبلي (١٩٤٦) أما أنا فقد شاركت الأخ الفاتح النور في جريدة كردفان بالأبيض سنة ١٩٤٥ ثم انسحبت منها وعدت للاقامة بالقضارف.

هدية اقليمية صغيرة:

كنت في القضارف أكتب للصحف ومنها النيل والرأي العام وكردفان والسودان الجديد (مجلة مصورة)... ولما ذهب سلمابي للرأي العام، دشنته بمقال عنوانه «محمد احمد السلمابي.. هدية اقليمية صغيرة» وكلفته بنفسه ان يحمله الى «مجلة السودان الجديد» الذي نشرته، وكان يشتمل على دعابات منها قصة تزعم انه عمل كجرسون ـ وفي الحقيقة انني واصدقاء آخرين منهم سلمابي كنا نجتمع ونلعب الطاولة بقهوة منصور بالقضارف، وكان السلمابي قبل عمله التجاري في أوائل ١٩٣٧ كثير المكث بذلك المقهى بفضل

صلة صداقة مع صاحبه.

وللأسف فان المهاترات السياسية بالخرطوم كانت قد استغلت تلك الدعاية ضد سلمابي ـ ولم يبال بها ـ وكان يصر على الاعتراف بأنه بدأ حياته «عاملاً».. واعتقد ان هذا كله «شرف» وليس «عاراً» ويسرني أن أذكر انني نشأت نشأة متواضعة مثله وربما أكثر وعرفت مناولة الشاي والقهوة وحمل الدمورية (٥ طاقات، ٥٠ رطلاً ـ على ظهري) ونقل الزراق (بالكورجة على كتفي) بل ساعدت العتالين الذين كنت كاتبهم بالسوكي في حمل جوالات الصمغ ١٠٠ كيلو ـ أما السكر الراس (١٤٠ رطلاً) فإن نقل جوالاته لا يستحق الفخر!

سامر القضارف:

يستحب ان أذكر أن سامرنا بالقضارف كان يشمل مع السلمابي (أحياناً الريفي) والأخوان يوسف محمد السواكني وجعفر الخليفة طه وعمر كرار كشة والمرحوم ابراهيم حسن كردي والمرحوم حنا تسفاي ـ وآخرين ـ من بنات أفكارنا في تلك الفترة تكوين لجنة مؤتمر الخريجين الفرعية بالقضارف ـ ثم بفضل التعاون مع الناظرين محمد حمد أبوسن (و) المرحوم عبدالله بكر مصطفى أمكننا إيجاد مؤسسة التعليم الأهلي (التي بناها معنا من العاصميين الأستاذ ابراهيم يوسف سليمان ـ (و) المرحوم الدكتور أحمد علي زكي. تلك المؤسسة التي سمقت فيما بعد تحت رعاية رجال القضارف الذين زاملونا أو خلفونا.

ويسرني أن أذكر اننا في تلك الفترة كنا نجد فرص التعرف بالبارزين من زوار القضارف وبسرعة أذكر: المرحوم محمد أحمد محجوب والشاعر خلف الله بابكر وحسن عوض الله والمرحوم محمد نورالدين...الخ.

صحافة الخرطوم:

وجرني السلمابي معه الى صحافة الخرطوم (السودان الجديد اليومية ٤٧/ ١٩٥٠) حيث كان يتفاوض بالنيابة عني مع أولئك الذين دعوني للعمل معهم، مثل المرحوم عبدالله ميرغني (صوت السودان) والسيد/مكي عباس (الرائد) وليس آخراً ولا أخيراً المرحوم احمد يوسف هاشم الذي ظللت على صلة معه منذ سنة ١٩٤١ (بجريدة النيل ثم السودان الجديد ـ المجلة).

وفي أمدرمان عشنا متجاورين في البداية وابناؤنا وبناتنا إذ ذاك نشأوا في حضانة مشتركة ـ ثم فرقت بيننا المساكن ودواعي العمل (فرقت بين أبداننا وحرمتنا المعايشة اليومية ولكننا حافظنا على صلات المودة ولم تفسد الدواعي المادية عواطفنا، بنعمة الله وحمده).

البقاء لله:

ان مناشط السلمابي كصحفي وكرجل أعمال ورجل بر وإحسان وخير لأكثر من ثلاثين سنة، إنما هي من المهام التاريخية التي سوف تشغل كثيرين وأنا منهم.

وإذا أوقفت اليوم حديثي عنه مع نهاية الأربعينات، فان قصتنا كصديقين، وقصته في المجتمع السوداني ككل، إنما تنتفش وتسمق أمامي مثل الجبل الأشم.

لقد أتيح لي أن أسفح الدمع في الأسبوع الماضي ومثل هذه اللحظات الروحية المريرة لم تمر بي مرات عديدة.. ولكنني أعتقد بعد الآن أن الحزن سوف يكون نصيبي كلما تذكرته أو رأيت أهله أو ذراريه، وهم أهلي وأهل أهلي (بفضلنا عزيزنا جميعاً الذي مضى ولن ينقضي).

أسأل الله أن يتقبل من السلمابي صالح أعماله وأن يتجاوز عن سيئاته وأن يبارك في ذريته، وأن لا يفتننا بعده ولا يحرمنا أجره.

«عبدالله رجب»

عشرة عشر سنوات

الصحافة ـ الأحد ـ ١٩٨٠/٣/٩

في الأسبوع الماضي التقينا بالصديق الزميل صالح عرابي وتذكرنا واقعة مشتركة مع الأستاذ حسن الطاهر زروق ـ وضحكنا ـ ومن يدرينا؟ لعل تذكرنا إياه كان في نفس لحظة رحيله، وكلنا لها.

عرفت الأخ حسن الطاهر زروق رحمه الله في سنة ١٩٤٤م بنادي الخريجين بأمدرمان وكنت قد أتيت من القضارف مندوباً من اللجنة الفرعية لمؤتمر الخريجين في أيام عيدالفطر (١٣٦٣هجرية).

في سنة ١٩٤٥م كنت قد ذهبت الى مصر بوصفي أحد صاحبي مطبعة كردفان إذ ذاك وكجزء من محاولاتي لإحراز قدر من الثقافة السياسية، تعرفت بمجموعة مجلة أمدرمان التي كان يصدرها سودانيون يساريون بالقاهرة وعلى رأس المجلة الأساتذة محمد أمين حسين، وعبده دهب، وعبدالماجد أبوحسبو (كانوا تابعين لحزب شيوعي مصري باسم (الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني) ـ ح د ت و ـ وهي حركة كان يرعاها هنري كورييل الذي هو مليونير يهودي ايطالي) وبمساعدة جماعة مجلة امدرمان ذهبت الى مكتبة الميدان التي كان يمولها كورييل واشتريت عشرات الكتب الماركسية باللغة الانجليزية كما اشتركت بواسطة المكتبة في مجلة «الحرب والطبقة العاملة» من موسكو مباشرة «ذا وور أند ذا ويركنق كلاس» التي صارت فيما بعد تصدر حتى الآن باسم نيو تايمز، وظلت تصلني بالقضارف الى نهاية ١٩٤٦م وترجمت مقالات منها نشرتها «السودان الجديد» بالخرطوم ١٩٤٧/٤٦م في فترتها الأسبوعية.

كان أحد أصدقائي بمجلة (أمدرمان) القاهرية قد اخبرني (١٩٤٥م) ان من اساطين حركتهم بالسودان (فلان وفلان وحسن الطاهر زروق) ولم اتصل به في هذا الشأن.

وفي تلك الفترة، فترة تكوين وفد السودان ١٩٤٦م والوقدة السياسية الوطنية التي اتصلت الى الخمسينات. وكان هناك حزب باسم (الأحرار الاتحاديين) زعيمه الشاعر السياسي الفكه (أبوالطيب) ومن أعضائه المرحوم محيى الدين البرير. ومنهم ـ وربما كانوا البقية الباقية أربعة اساطين عاشرتهم بمودة هم المرحوم/أحمد محمد علي السنجاوي مواطن مسقط رأسي الذي عرفته منذ الطفولة في العشرينات والمرحوم حسن الطاهر زروق والصديقان حسن سلامة وأحمد عبدالله المغربي ـ وكانت تجمعنا أمسيات نادي الخريجين ـ وقهوة ود اللغا بأمدرمان ـ وذلك منذ أن أقمت بالعاصمة في سنة ١٩٤٧م حيث بدأت بالعمل مع المرحوم أحمد يوسف هاشم في تحرير وإدارة (السودان الجديد) لدى تحولها الى يومية حيث بقيت بها الى ان اصدرت «الصراحة».

مجموعة الأربعة المذكورة تعاونت على تحرير مجلة «الأحرار» برئاسة تحرير السنجاوي ـ الذي كان برغم زمالته الحزبية معهم أقل يسارية منهم وقد انتهى به الأمر بتعطيل المجلة بيده بدل تركها تحمل اسمه وهي حمراء قانية.

وفي ديسمبر ١٩٤٩م اكملت الاستعدادات لصدور جريدة «الصراحة» بالخرطوم في أول يناير ١٩٥٠م فسارع الأخ المرحوم حسن الطاهر زروق فكتب مقالة للعدد الأول، وتوالت مقالاته ومقالات الأستاذ محمد أمين حسين المحامي وعبدالماجد أبو حسبو «غير المحامي» وآخرين ضد السلطة الاستعمارية ولم تكن هذه المقالات تشرح آراء لينين وستالين ولكنها كانت تحاول تثوير قضية السودان وإثارة الجماهير السودانية وربط الكفاح المشترك مع الشعب المصري.

اما أنا فقد تخصصت في الأمور الصعبة «مثلاً» ضد الملك فاروق وضد الطائفية.. وبهذه المناسبة أذكر أن الأخ المرحوم حسن الطاهر زروق كان يصف نزعتي المضادة للطائفية بأنها «مانيا» وهذه الكلمة اليونانية المستعارة في علم النفس تعني الجنون التلبسي!

طوال تسع سنوات تقريباً حتى نهاية ١٩٥٨م «قيام الحكم العسكري» ظللنا نلتقي مع اصدقاء آخرين بالمكتب أو المنازل أو الأندية - في كل يوم مرة أو مرتين.

تجاوبت أفكاري مع المرحوم حسن الطاهر زروق وكان يتفهم نزعتي الدينية وقد بلغ من أمر صداقتنا انني كنت استمع بكل ود لملامته لي إزاء كل خطأ يصدر عني. واليوم فقط لحسرتي اكتشف أنني لم أعرف إلا آحاداً بلغت صداقتي معهم هذه المرتبة وسمحت لنفسي بالبكاء.

لقد عرفت في المرحوم حسن الطاهر زروق عفة وتكبراً ولم أسمعه أو أسمع عنه يسأل أو يتسول ومع ذلك كنا نتقاسم معيشتنا.

الرجاء ملاحظة أنني لم أنتمِ للحزب الشيوعي ولم انتفع به وعاشرت من عاشرت من المنتمين اليه كأصدقاء جمعتنا «الكلمة» وبصفاتهم الشخصية ولم أكن أخفي انتقاداتي لمواقف داخلية وخارجية ومع انني تلقيت الأذى من بعضهم فإنني بنعمة الله قد صنت الولاء والوفاء لمن استحقوهما عندي.

انصرف عني الأخ المرحوم حسن الطاهر زروق في سنوات الحكم العسكري ٥٩/١٩٦٤م وقد اختفى مع آخرين في تلك الفترة أما أنا فإنني كنت أصدر جريدة «الصراحة» المرخصة من قبل السلطة وهي صحيفة علنية كانت تباع في السوق ولم تكن نشرة سرية.. وأيدت جريدتي سياسة الحكم العسكري «واتقبل حكم التاريخ» وقد التقت أفكاري مع العسكريين في إنهاء فوضى الأحزاب وإيقاف المزايدة من وراء الحدود ومقاومة الانحراف الطائفي ثم طابت نفسي لممارسة تنمية داخلية وتفاهم عالمي.

بعد أسابيع من ثورة أكتوبر ١٩٦٤ اصدر الشيوعيون السودانيون كتاب «ثورة شعب» زعموا فيه لأنفسهم جميع المبادرات والممارسات الثورية الوطنية فقط نسوا بكل بساطة أن يذكروا ان جريدة «الصراحة» التي صمدت تسع سنوات حتى ولا مجرد التفاخر بدورهم في تحرير بعض أقسامها - وذكروا صحفاً أخرى كانت أقل استمراراً وتأثيراً - ولكنني لم أعجب بهذا الموقف بعد اطلاعي على كتاب تاريخ الحزب الشيوعي السوفييتي البولشفيكي الرسمي الذي كانت تتجدد طباعته بموسكو مرة كل بضع سنوات وكانت كل طبعة تتميز على الأخرى بإبراز أشياء سبق تناسيها واسقاط أشياء سلف تضخيمها «ومن شابه اباه فما ظلم» ومن الأشياء التي تناساها الحزب الشيوعي السوداني في كتاب «ثورة الشعب» الشوط الذي قطعوه في التفاهم مع الفريق عبود.

ومع ذلك فإنني لن ألوم أحداً فقد رفضت الانتماء والالتزام للحزب الشيوعي وأنكرت في مواقف عالمية ومحلية له وليس السنوات الأخيرة بل منذ أيام الحرب العالمية الثانية فقد خذلوا ثورة الهند الصينية واليونان والجزائر وقضية عرب فلسطين «من زمان» الى أن جاءت تخطيطاتهم في الكونغو ١٩٦٠ وتوريط مصر في اليمن ١٩٦٢ ومأساة ١٩٦٧ بكل حجمها الكبير ومأساة الخرطوم ١٩٧١ التي هي نفس بروفة أول ١٩٧٨ التي لم تنجح عندنا.

انني لا ألومهم على معاملتهم إياي لأنني لم أكن منهم ولكن ان كان الأمر أمر اشتراكية فانني افهمها في انصاف المهضومين وبناء مصالح الأكثرية وفي سبيل هذا الهدف ضحيت بمصلحتي ومصلحة اسرتي ولا أملك حتى اليوم في هذا القطر الشاسع حجراً على حجر وأتحدى من يزعم انني استعملت وسائل اخفاء قانونية أو غير قانونية تهرب من المداينين مع انني الى هذا اليوم مدين ولا استعمل حق «مضي المدة».

ولكن هل استفاد حسن الطاهر زروق شيئاً؟ لقد ظل هنا مستور الحال حينما كان متاحاً له العمل كمدرس مخلص وفي عثراته كان يتلقى البر من أبناء اخته ولكنه لم يربح شيئاً بينما «تبرجز» عديد من زملائه وقد اختار فقيدنا العزيز الهجرة ولم نسمع عنه شيئاً ضد بلاده وعلى كل حال فانه ظل في السودان في حضوره وغيابه مذكراً بالخير على منابر السودان فعلت أنا على صفحات الصحف وكذلك فعل المرحوم الدكتور جعفر بخيت قبل أن يسبقه الى حيث لا ينفع مال ولا بنون.

وليرحمنا الله جميعاً...

ان رحمة الله واسعة فلنستمطرها عليه «أرجو أن نلتمس حصر قصصه وأفكاره ومذكراته هناك في بغداد وإعادتها الى هذه البلاد التي أحبها وأحبته» وليرحمنا الله جميعاً.

عبدالله رجب

* * * *

تعالوا نفكر

ابنوا لنا امتدادات بالسليكون !
مواليد ١٩٨٥/١٩٨٦، يجب ان يتفلهموا..

(آخر مقالة كتبها المرحوم) الصحافة ١٩٨٥/٣/٢٢

تفيدنا جريدة الصنداي تايمز (لندن ١٠ مارس ١٩٨٥م) أن الكمبيوترات صارت الآن «لعب أطفال» ونحن نرى الطفلة كارولين في عامها الرابع تتابع عملية على آلة كمبيوتر صغيرة ـ بل هناك أطفال أكملوا عامين فقط وصاروا يتابعون مثل هذه الالاعيب الشديدة الجد والتركيز.

وتقول الآنسة كرستين كروس ـ وهي مشرفة على دار حضانة لرضعاء المستخدمات والطالبات بمعهد لانكشتاير للفنون التطبيقية ـ بمدينة بريستون ـ ان حضنيائها يحبون هذه الالاعيب العلمية لدرجة أنهم يرغبون في الجلوس اليها ومتابعة عملياتها طول النهار. ولكنني أحرص على الا اتركهم مع هذا التركيز الشديد أكثر من عشر دقائق في كل مرة.

ان إحدى اللعبات الكمبيوترية تمثل عملية شراء من المتجر حيث تعرض الشاشة صوراً تشتمل على قائمة البضائع ومكان دفع النقود بالطريقة الآلية ومكان السلة التي تحتاج اليها لحمل مشترواتك ويختار الطفل (مثلاً) باقة أزهار وينفذ العمليات المطلوبة بواسطة الأزرار.

وقد لاحظت الفتاة الحاضنة ان حضنياءها لا يخافون من الكمبيوترات وكيف أنها مع زميلاتها في المحضن ـ يستعملن عدة كمبيوترات وبرامج تعلم الحضناء عمليات الغد، وتمييز الألوان وتعلمهم التعرف على عدد كبير من الأشياء والأسماء (وسبحان الله الذي علم آدم الأسماء).

جهازالكمبيوتر (سنكلير «زد ـ اكس» يكلف ١٢٩ جنيها استرلينيا)، والأطفال يتعرفون على الأشياء والأسماء بواسطة الأزرار ولكنك تراهم يتكلمون مع شاشة الكمبيوتر ويضحكون معها ويهللون.

وأغبش يريد للشعب السوداني نماذج من هذه الفلهمة بخطوات وئيدة... تبدأ مع مواليد هذه السنة.

مرض النوم:

عرفنا في تاريخ السودان المعاصر (مرض النوم) بجنوبنا وخصوصاً غربي الاستوائية (منطقة الزاندي مثلاً) ومرض النوم يصيب الانسان يجعله ناعساً متخدراً طول الوقت بينما يؤدي بالحيوان الى حالة هزال وضعف يسمونها (نقانا) وتتسبب في المرض ذبابة اسمها «تسي تسي».

كان من المقرر في الأسبوع الماضي ان تعتمد السوق الأوروبية المشتركة جملة ملايين من المال لتمويل حملة استئصال ذبابة التسي تسي في أربعة أقطار أفريقية هي ملاوي وزامبيا وزمبابوي وموزامبيق لتنظيف مساحة ٧ ملايين كيلومتر مربع من أراضي الغابات والأحراش وحشائش السافنا وإتاحة الفرصة لرعي ١٢٠ مليون رأس من الأبقار وبالتالي انتاج مليون ونصف مليون طن سنوياً من اللحم البقري. مثل هذه الحملة قد نجحت من قبل في نيجيريا والكاميرون بمجهودات منظمة الأمم المتحدة للزراعة والغابات (فاو) وهم يقولون انهم أنفقوا بلايين وما زالت الحملات المطلوبة تتطلب بلايين.

وتثار مشكلة طريفة فحواها أن ذبابة التسي تسي كان لها فضل حماية أصقاع شاسعة في أفريقيا من التصحر، والأراضي المستعملة الآن في الزراعة والرعي مهددة بالجفاف والتصحر. فمن الخير إذن ادخار تلك المساحات الموبوءة بمرض النوم ومرض الـ (نقانا) للمستقبل.

أغبش يرجو من خبرائنا في الطب البيطري والبشري أن ينورونا عن موقف بلادنا في الماضي والحاضر والمستقبل إزاء حشرة التسي تسي ومرض النوم ومرض (النقانا).

نسأل الله أن يقينا وينقينا (استفاد باب تعالوا نفكر المعلومات.والصور من جريدة الصنداي تايمز ـ لندن ١٠ مارس ١٩٨٥م).

امدادات السليكون:

اشتهرت جامعة كامبردج البريطانية (وهي احدى الجامعتين العريقتين مع اكسفورد المشيدتين بطراز العمارة القوطية تفريقاً بينهما وبين جامعات الطوب الأحمر) ولا أعني جامعة الخرطوم ولا جامعة الجزيرة ولا جامعة جوبا ولا جامعة أمين الكارب بسلطنة علي دينار بل أعني جامعات عديدة في بريطانيا نفسها يعتبرونها «مستجدة نعمة» ما رأيكم في هذه الحذلقة الغبشاء؟

أقول اشتهرت جامعة كامبردج بالتفوق العلمي ثم بالتكبر الأكاديمي على (الانتفاع التجاري) ولكن هذه القاعدة قد انكسرت الآن كما أفادنا تقرير استفادت منه المجلتان الامريكيتان المتنافستان المتشابهتان تايم ونيوزويك ١٨ مارس ١٩٨٥م.

اتضح لنا من التقرير ان مدينة كامبردج قد صار لها (امتداد سليكون) يشبه امتدادات أخرى، في أمثلة أوردتها تايم في كل من كاليفورنيا وماساشويستس (بالولايات المتحدة) بل في اسكتلندا البريطانية نفسها في قلاسقو وادنبره (ولماذا السبق الاسكتلندي يا انجليز؟).

ان هذا الامتداد السليكوني قد أشاع جو حركة في مدينة كامبردج الناعسة التي يسكنها مائة ألف والتي يمتطي طلابها الدراجات في شارع ترينتي.. ويعمل الآن بالامتداد السليكوني ١٣,٧٠٠ عامل يمثلون ٢٠ في المائة من القوة العاملة بالاقليم.

حركة السليكون بدأت منذ عدة سنوات بكامبردج وصار عدد شركاتها ٣٠٠ في سنة ١٩٨٣م من أشهر شركات كامبردج (مؤسسة سنكلير للأبحاث وكمبيوترات أكورن) هذه الشركة بدأت في سنة ١٩٧٨م برأسمال قدره ٥٠٠ دولار فقط.. ونراها في العام المنهي أول يوليو ١٩٨٤م قد ربحت ما يعادل ١٤ مليـوناً في جملة مداولاتها البالغة ١٢١ مليوناً.

نسي أغبش أن يقول لكم ان هذه الشركات والمؤسسات قد خطط لها ونفذها أساتذة وخريجـون من كامبردج لانتاج وتطوير الأجهزة التكنولوجية المتقدمة مستفيدين من المحيط العلمي وقد اجتذبوا رؤوس أموال وخبرات من الدوائر الصناعية ليس فقط في بريطانيا وحدها بل حتى شركة (أوليفتي) الايطالية التي نعرفها مع الآلات المكتبية قد اشترت أخيراً ٤٩,٣ في المائة من سندات شركة (أكورن) التي أفردناها بالذكر أعلاه.

ويقولون الآن أن طلاب كامبردج سيتركون الدراجات ويركبون سيارات طراز (بورش).

نريد نشاطاً سليكونياً حول جامعاتنا ولا بأس أن يبدأ بإنتـاج الأدوية والأمصـال ومعدات الطاقـة الشمسية.. وغير ذلك من الأشياء تبدأ بالبساطة ثم تتعقد.

كفاية بأه:

زحمنا الصفحة بالصور لنترك للقراء الكرام مساحة كافية للتفكير ـ تكفيكم ١٠ دقائق للتركيز في كل يوم أنت تفكر فأنت حي والانسان حيوان مفكر وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ليس عبادة كتفكر) والى اللقاء حتى نجتمع مرة للتفكير والتدبير.

مقالات كُتبت عن المرحوم عبدالله رجب قبل رحيله.. بمناسبة تكريم جامعة الخرطوم له - يناير ١٩٨٤

جامعة الخرطوم وتكريم الرواد

نجوم ساطعة في سماء المجتمع ورواد في شتى مناحي الحياة
نضال متصل وعطاء ثر وإسهام فاعل

منحت جامعة الخرطوم درجات الماجستير الفخرية للخليفة يوسف ود بدر في الآداب والشيخ مصطفى الأمين في الآداب والحاج أبوزيد خليفة الآداب والأستاذ عبدالله رجب في الآداب والأستاذ الطيب محمد الطيب في الآداب.

كما منحت الجامعة كذلك درجات الدكتوراه الفخرية للبروفسور أمين الكارب في العلوم والبروفسور محمد عبدالله نور في العلوم والسيد منصور محجوب في القانون والدكتور محيى الدين صابر في الآداب والشيخ عوض الله صالح في القانون.

ولكل من كرمتهم الجامعة مجاله الذي فيه يصول وبه يجول. منهم أهل القرآن وعلوم الدين ومنهم أهل السياسة والصحافة ومنهم أهل المعرفة والثقافة، ومنهم من بسط الله في رزقه فانفق منه في وجوه البر والاحسان، ولقد سلكوا في الحياة سبلاً مختلفات ضربوا فيها بسهام فائزة، ونصال صائبة، فكان لهم في الفلاح حظ وفي النجاح نصيب... وبعضهم عرفته الجامعة محاضراً في أروقتها أو مشاركا في إدارتها أو مثرياً لنشاطتها علماً وتجربة وثقافة وممارسة.

الصحافة تنشر بعضاً من ترجماتهم الذاتية التي على ضوئها كرمتهم جامعة الخرطوم بالدرجات العلمية الفخرية ليقف القارىء على نضالهم المتصل وعطائهم الثر واسهامهم الفاعل كل في مجال تخصصه في بناء الأمة وبلورة فكرها ووطنيتهم الصادقة وبذلهم الفياض في خدمة الانسانية.

الاستاذ عبدالله رجب:

أما الأستاذ الصحفي عبدالله رجب، مدرسة في بناء الانسان وعطاء الانسان، انه نموذج في العصامية التي يبلغ بها الانسان العظيم المستوى الرفيع في المعرفة والإحساس المرهف بقضايا الناس والتعبير عنها، وإثارة وعي الناس بها، وحثهم على تبنيها وحثهم على حلها كانت قضية شعب بأسره، أو قضية جماعة من الناس، أو قضية إنسان فرد. ولا يبالي بما يلاقي في سبيل ذلك، ما ذكر الكادحون أو الأهالي الغبش إلا ذكر الأستاذ عبدالله رجب وذكرت جريدة الصراحة لسان حالهم وحادي نضالهم، مدرسة الوطنية ومغازلة الاستعمار ومناصرة حركات التحرر.

ولد الأستاذ عبدالله رجب بمدينة سنجة عام ١٩١٧ ونشأ يتيم الأب له شقيق واحد أكمل المدرسة الأولية وعمل كاتباً تجارياً، وأسس أول مكتبة بمدينة سنجة. شغف بقراءة الكتب الدينية والأدبية ودواوين الشعر والصحف وأكب على درسها بنهم شديد.. انتقل من سنجة الى السوكي عام ١٩٣٣ وعمل في مؤسسة تجارية للمحاصيل ورحل عنها ليستقر بالقضارف عام ١٩٣٥م وعمل بها موجهاً تجارياً.. جذبته اللغة الانجليزية فتعلمها بالمراسلة حتى أجاد قراءتها وترجمتها وبرع فيها..

بدأ عمله الصحفي مراسلاً للصحف وظهرت له مقالات في الصحف السودانية والمصرية... وفي عام ١٩٤٧م اختاره الأستاذ المرحوم احمد يوسف هاشم ليعاونه في جريدة السودان الجديد.. أسس جـريدة الصراحة عام ١٩٤٨ وكانت أكثر الصحف السودانية تطرفاً في معارضة الادارة البريطانية فجذبت الشباب الوطني كتّاباً وقرّاء.. جهرت بصوت الشعب وتبنت قضية الحرية والتقدم للسودان ولغير السودان.

كتبت في النظريات السياسية ونادت بضرورة تغيير الأوضاع فأثارت المستعمرين وأهل التدرج على حد سواء فكان نصيب الأستاذ عبدالله السجن والغرامة، والضرب أحياناً، وعطلت الصراحة مرات عديدة وأرهق كاهلها بالغرامات فأقام الناس بنك الأهالي الغبش لدفع الغرامات المفروضة عليها وكان المحامون الوطنيون يتبارون في الدفاع عنها طوعاً واختياراً، وهكذا خلقت هذه الجريدة الظاهرة حولها مدرسة وحركة شعبيـة مستنيرة وشدت أفئدة الناس اليها شدأ... والأستاذ عبدالله هو أول من أدخل عبارات (الكادحين) و(الأهالي الغبش) في قاموس الصحافة السودانية...

وقد اقترنت «الصراحة» بالدفاع عن حق التنظيم والعمل النقابي، ناصرت الحركة النقابيـة للعمال والمزارعين، ودافعت عن حقوق المرأة وساندت تنظيمها الوليد وكانت النصير لمطالب الطلاب وحقهم في التنظيم، ووقفت مع تنظيم الشباب، وآزرت اضراب البوليس.

ان عطاء الأستاذ عبدالله الصحفي لم يتوقف وكتاباته وترجماته في السياسة الدولية والقضايا العالمية نطالعها أسبوعياً في جريدة الصحافة.

ما من إنسان فرد استطاع أن يخلق مثل الأثر الذي فجره هذا الرجل العملاق، لم ينتم لاي حزب، الشيء الذي جعله ينتقد دون تقيد بولاء غير الولاء للناس والضمير الحي... وهو رجل متدين من حفظة كتاب الله، نفر من المغريات وواجه الشدائد في صبر وجلد ويخشى الأضواء.. يعمل في مكتب الترجمة بقصر الشعب، يقرأ ويكتب للناس ويخشى الله... ماله الضئيل دائماً لغيره مما جعله يعيش في منزل بالايجار الى الآن ولا يملك داراً... وتقديراً لعصاميته التي بلغ بها هذا المستوى الرفيع من الحياة المتجردة والعطاء، ولما نشر من الوعي بين أجيال من أبناء وطنه، ولاسهامه في مجال الصحافة منحه مجلس اساتذة الجامعة درجة الماجستير الفخرية في الآداب...

الصحافة ١٩٨٤/١/٣١م

افسحوا الطريق..

جاء المكرمون

الصحافة ـ الثلاثاء ١٩٨٤/١/٣١

بقلم: الفاتح النور

لازم التوفيق قمة جامعة الخرطوم بتكريمها شخصيات سودانية غير عادية.. مشرفة للبلاد.. وقدوة للشباب.. وأدب التاريخ يحدثنا (تقييم الرجال بقدر ما يحسنون من أداء.. ويتقنون من عمل.. لا بقدر ما يتصنعون من ثورية.. وما يجيدون من تزلف)!!

فكل من هؤلاء ظاهرة ـ في تخصصه ـ جديرة بالتكريم والتعظيم ـ فالحياة لا تتمخض عن العظماء من الناس صدفة وانما بمعاناة للشدائد. ومكابدة للأهوال.. وعلى قدر الابتلاء تكون عظمة العظيم ومكانة المصلح الكبير..

وعندما نجتر سيرة بعض المكرمين الذين عرفناهم عن قرب ـ ومعذرة للسادة الآخرين كمولانا الشيخ عوض الله صالح وعمنا الحاج ابوزيد خليفة. وأخينا الأستاذ عبدالله رجب نجد لا عجب في تكريمهم. وانما العجب حقاً الا يكرموا من قبل.

فكل منهم مدرسة في ميدانه. وخبرة في مجاله.. بل مادة خصبة لرسائل تحليلية لنيل أعلى الدرجات الجامعية.. وتراجم حياة المبرزين مادة دسمة للتحليل والتخريج من قديم. فالناس يتميز بعضها عن بعض كما يتميز الماس من الفحم وكلاهما من أصل واحد! ها هو الحاج أبو زيد خليفة عصـامي لا يستحق التكريم فحسب، وإنما هو نفسه مادة لدرجة علمية فقد استطاع ان يتربع في قمة صناعة الطباعة بمؤسسته العملاقة (مطبعة التمدن) التي تعد مفخرة المطابع السودانية.. بدأ المشوار بعد أن ترك العمل كعامل صغير بمطبعة مكوركديل ليبدأ بمطبعة صغيرة تدار باليد. وكان هو صاحبها ومديرها وعاملها الوحيد صفاً ـ وطباعـة ـ وتجلياً ـ واستطاع بعزمه وصدقه وكدحه عاملاً بالليل مع النهار ليربح عشرين قرشاً في اليوم، ان يحقق حلمه وتطلعه، والانسان إذا عرف ما يريد، سهل عليه الحصول على ما يريد، هكذا سنة الحياة...

والواقع الحاج أبوزيد، صاحب نزعة مزاجية تنحصر في الطباعة، فأشهى الحديث عنه حديث المطابع وأعذب الأصوات عنده ضجيج المطابع.. وأطيب الروائح عنده رائحة الاحبار بل وصل به الوله بالمطابع ما زالت ماكينة اليد التي بدأ بها موجودة وهو على استعداد أن يبيع ملابسه، لكنه غير مستعد ان يبيع ماكينة واحدة مهما بلغ قدمها. ولديه فلسفة في ذلك فعندما سألته عن حكمة احتفاظه بالماكينات القديمة، ولديه أحدث آلات الطباعة أجاب ببساطة (الزول يخلي ولده الكبير علشان جابوا ليه أولاد جداد!)..

وأذكر كنا ذات مرة بمكة المكرمة، في شهر رمضان المعظم وإذا به يأتي بعد صلاة التراويح ليقول لي انه أعد لي مفاجأة.. وما علي إلا الذهاب معه، فذهبت معه ـ وأنا أمني نفسي برؤية اثر من آثار الصحابة ـ ومن شارع الى زقاق الى حارة الى منعطف وأخيراً دخلنا منزلاً لأجد بداخله مطبعة..

ولما كان في غاية الانتشاء باكتشافه العظيم، فقد جاريته الاعجاب.. ولكن كان عجبي كيف عرف هذه المطبعة، وكيف شم رائحتها وفي مكة المكرمة..

والحديث عن عبدالله رجب مختلف.. وان كان كرفيقه حاج أبوزيد عصامياً، بدأ من القاعدة، وان شغف أبوزيد بالمطابع فإن عبدالله توله بالقراءة والكتابة، فهو يقرأ أي شيء ويكتب في أي شيء دون مبالغة، فهو نهم يقرأ أي كتاب يقع في يديه سواء عن الدين أو اللاهوت، ويقرأ كل صحيفة من ألفها الى يائها، ويقرأ كل ورقة تقع عينه عليها ولو كانت حساباً ـ وهو على فكرة من الذين يجمعون الملايين ولكن في رأسه!

وبسبب قراءاته المتفرعة. اصبح لديه مخزون ضخم من المعلومات. بل أصبح دائرة معارف متنقلة. لذلك تجد الكلمات تعجز عن استيعاب ما لديه. لهذا انفرد بأسلوب صحفي لا يشاركه فيه أحد. فهو صاحب أسلوب تلغرافي. يجمع أكثر المعاني في أقل الكلمات ولهذا يكثر من المعلومات الاضافية في كتاباته ليجعلها بين قوسين. بل ازدحام عقله بشتى المعارف جعل كلامه غير كتابته ـ وقديماً قال أفلاطون (عقول العباقرة مدونة في أطراف أقلامهم)!

والذين عاصروا العصر الذهبي للأستاذ عبدالله رجب عندما كان يكتب المقال. كم يتمنون أن يجمع مقالاته الساخرة اللاذعة الصريحة في كتب. ليرى الجيل الجديد نوعاً من الفحولة انفرد بها هـذا الكاتب الجريء. وبسبب مقالاته هذه. ضرب وسجن وشرد. وحورب في رزقه. ومع ذلك لم يرضخ لتهديد ولم يستسلم لترغيب فعاش على الكفاف الى يومنا هذا.. وصدق ابن المقفع عندما قال:

(ان البلبل الحسن الصوت.. يحبس دون غيره من الطيور)..

ولم يبق غير مولانا الشيخ عوض الله صالح.. ولا أدري من اين (نكتوه) فهو كنز خبيء ثمين.. إذا التقيت به ولم تعرفه من قبل.. ظننت انه جلابي مدردح.. لبساطته في مظهره.. ورقة حديثه.. وحلو دعابته.. وابتكار مقالبه.

أما اذا سمعته محاضراً.. أو متحدثاً في محفل ديني.. لأقسمت «طلاق» بأن هذا الرجل غير ذاك، فهو ظاهرة دينية اجتماعية ذات أبعاد متعددة.. فقد انفرد ـ كعالم اسلامي ـ برقة في حديثه الديني عندما يفسر آية.. (انه شعراوي السودان) في بساطته ووضوحه وألمعيته.. فحديثه سهل ممتنع يظن المستمع من السهولة تقليده.. ولكن عندما يخلو بنفسه يجد العجز والعي.

والشيخ عوض الله بجانب علمه الغزير وحديثه الممتع.. رجل مرح يدخل المسرة في القلوب.. يألف الناس ويألفونه.. ورسولنا العظيم يقول: (المؤمن آلف مألوف.. ولا خير في من لا يألف ويؤلف)..

ذات مرة التقيت به وكان بين مجموعة من العلماء.. وعندما رآه أحد يسلم علي سلام معرفة سـألـه ـ هامساً ـ الزول منو؟ فكان رد الشيخ: (دا أخونا من الأبيض.. ووقت وفدنا زارهم قدمنا المراكيب) فقال السائل: الزول ببتاع مراكيب؟.. أجاب الشيخ بالتأكيد (من أكبر الاسكافية هناك)، ومرة أخرى التقيت به في الحج.. وكنا في منى.. فطلب مني أن أرافقه لنعيّد على الحجيج.. ولم نذهب بعيداً حتى نادته حاجة سودانية (مولانا).. وذهب إليها ودار بينهما الحديث التالي:

قالت: حسه يا مولانا ختيتونا هنا نسوي شنو؟

قال: ديل يقطعوا في ديلك.. وديلك قطعوا في ديل.

قالت: وبعد القطيعة ما تكمل.. نسوي شنو؟

قال: اقطعوا مرة ثانية في الخيمة دي.. واقطعوا في الناس الخليتوهم في البلد.

قالت: كان كدى سمح.. جيهتنا.

وترك الحاجة ببساطة وعاد لنكمل المشوار.. ولكن قلت له: دا كلام شنو يا مولانا؟

قال: دي الحاجة فلانة أعلم منك بس كانت تداعب..

وقابله احدهم ـ ويبدو انهما معارف ـ فقال للشيخ: تتذكر يا مولانا يوم كنت في المدينة المنورة.. تتحدث في الحرم النبوي.. وسألك رجل عن كذا.. فقال الشيخ لا أتذكر.. فقال الرجل كان السائل يا مولانا السيد عبدالسلام عارف نائب رئيس الجمهورية العراقي.. وكنت أقف خلفه فسمعته يثني على شرحك ويسأل عن اسمك..

وقد علمت فيما بعد بأن السيد عبدالسلام عارف.. الذي أصبح فيما بعد رئيساً للجمهورية العراقية.. عقد صداقة مع مولانا الشيخ عوض الله صالح الى ان انتقل الى رحمة الله.

* * * *

جامعة الخرطوم تكرم خريجي الشعب

جريدة الصحافة: الخميس ٢٦/١/١٩٨٤

بقلم: الريفي

لولا صلاته الاجتماعية ـ النقية المنتقاة ـ ولولا انتشار الذين تخرجوا على يديه في (المطابع) منذ أكثر من ربع قرن مضى والى اليوم وغداً إن شاء الله لما عرفه أحد إلا أقرباؤه وتلامذته واصدقاؤه (الحاج أبو زيد خليفة، صاحب مطبعة التمدن)...

عرف الحروف وألفها منذ نعومة أظفاره في منزل والده القادم من شمال السودان من مدينة ـ أو جزيرة ـ نورى بلد (المخطوطات)، والجوامع والمآذن العديدة في مركز مروى وبلد خلاوي (القرآن) التي قبست اقاليم السودان كلها بلا استثناء ـ من نار القرآن التي لا تخبو تحت نخيلها الباسق... والى اليوم..

أرسل الوالد ابنه (أبو زيد) الى (خلوة) القرآن في الخرطوم ثم المدرسة الأولية وبعدها أخذ مخطوطات والده كل ما عاد من عمله (تلميذ) يتدرب على (الجمع) ويرى الحروف التي عرف أشكالها المختلفة من المخطوطات، وفي بعض المطبوعات الدينية ـ مرصوصة حول (عنقريب) والده يتناول منها.. ويعيدها الى مكانها كل صباح.

وبأسرع مما تصور صاحب (المطبعة).. أصبح (الصبي) أبوزيد.. عاملاً مرموقاً دؤوباً صامتاً.. أو خفيض الصوت هادىء الحركة والصدى.. ومحبوباً ممن حوله في المطبعة وفي الحي..

وانتقل من مطبعة الى مطبعة في ثلاث دور للطباعة ثم كانت له مطبعة صغيرة ـ خاصة به ـ هو صاحبها وزميل الذين عملوا معه فيها ممن تدرب معهم. وتفوق عليهم أو عمل معهم وشدهم الى العمل ـ بخلقه الرزين وأدبه وأدبه.

وقبل أن يأتي العقد الخامس من هذا القرن الميلادي، كان الحاج (أبوزيد) صاحب أكبر مطبعة تجارية في السودان.

وكبرت الدار... وأرسل المبعوثين من مطبعته وعلى نفقته للتدريب على العمل في أرقى مطابع (اليوم) وما يجد في ميادين الطباعة (الغد).. وبجميع اللغات المكتوبة التي يقرؤها الانسان في جميع القارات.. ووجد أصحاب دور النشر والطباعة في (القاهرة) و(بيروت) و(بغداد) اسمه في كل دار للطباعة في بريطانيا وألمانيا.. بل وفي امريكا اسم مطبعة التمدن..

ووجد أصحاب المكتبات الشهيرة في أوروبا.. وفي منطقة الشرق الاوسط اسم مطبعة التمدن والحاج أبوزيد في غلاف أرقى الكتب التي يقرؤونها ـ للكتاب والمؤلفين السودانيين ـ واليوم يجلس الحاج أبو زيد في الطابق الثاني من (عمارة) مطبعته التي شيدها.. وفي الطابق الثاني آلات الطباعة الدقيقة والتي تعمل (بالالكترون).. وفي الطابق الأرضي تجهيز ما يهبط اليه من أعلى العمارة.. وأعلى مستويات الطبع والاخراج و.. (التمدن)..

وما يزال الحاج أبوزيد واحداً من العمال الذين دربهم... والجيل الثاني من ورثة صداقته وعطفه من أبائهم والذين عادوا من الخارج أو يستعدون لرحلة التدريب على الطباعة المتقدمة في الخارج.

الاكتفاء الذاتي.. ما يزال في بعض المواقع حلماً.. وفي بعضها خطة وفي بعضها الآخر بداية..

أما في (الطباعة) فان الحاج أبوزيد خليفة ـ دون أن يكون مستأثراً ـ يؤكد بمطبعته التي شيدها بدأبه واخلاصه وذكائه وبما في السودان (من مطابع)..

ان الاكتفاء الذاتي في مجال الطباعة و.. الطباعة الراقية.. قد تحقق للسودان.

وصديقكم الصدوق الأستاذ عبدالله رجب يا قراء.. أو أيها المواطنون لو انه استهدف بذكائه وطموحه وصموده (درجة علمية) لنالها قبل ربع قرن من الزمان.. ولكنه مخلوق ـ أو مهيأ بملكاته وشجاعة قلبه وقلمه ورأيه.. فيما بعد ـ ليقهر ـ ومنذ طفولته ما يطلب فيه...

غيره السند القوي والركن السديد...

لقد قرأ عبدالله رجب ـ وهو دون العشرين في مدينة سنجة ـ ما لم يقرأ إلا القليل من خريجي (الكلية.. هو الذي لم تتجاوز دراسته المدرسة الأولية)...

وكان أستاذ نفسه.. تعلم الانجليزية ـ تحدث وكتب بها ـ وهو في العشرين... ودرس بالكتاب الذي تحت عينيه في النهار وفي الليل ـ علوم النحو والصرف والبلاغة... وحفظ ديوان المتنبي.. قبل أن يبلغ الخامسة والعشرين من عمره..

* * *

عمل في الكتابة لتجار سوق سنجة.. وربطته بمن لم يرهم من المثقفين والصحفيين في العاصمة.. وفي القضارف.. في الأبيض.. مكاتبات ـ رسائل ـ كان فيها هو القارىء ـ العليم والباحث المتعمق والمفكر الذي عرفنا من رسائله الى أين يتجه فكر (توفيق الحكيم) ولماذا يعارك (الرافعي) طه حسين... أو يهاجم (العقاد).

كان يقرأ كثيراً ـ ويكتب ـ قليلاً في الصحف قبل أن يحترف الصحافة ـ عن الأفكار التي جاءت نتاجاً للحرب العالمية الثانية (الرأسمالية) والاشتراكية.

وكان له رأي في كثير مما حوله ـ نشره في الصحف ورده في المجالس ـ لم تخطئناه متاعبه ـ ولم تلن لها قناته.

ويوم ان جاء الى مدينة القضارف، وعمل في التجارة (كاتب تجاري) لم تصرفه شواغله عن توسيع دائرة صداقاته.. ولم ينصرف عما أخذ به نفسه من استقامة الخلق.. (والقراءة والكتابة لصحف الخرطوم ولصحف القاهرة أحياناً)...

ثم.. ميزته الكبرى.. وقدرته على (التعايش السلمي) مع الذين يخالفونه الرأي يبدي رأيه ـ بلا شطط أو تنبو منه عبارة ـ ويسمع منهم ويناقش ما استحق المناقشة.. وساير المنطق..

حتى لم أعرف حتى اليوم صاحب رأي احترمه مخالفوه قبل أن يؤسس جريدته الصراحة وأحبوه مثل الأستاذ عبدالله رجب.. ثم هو (ود بلد)...

لم أعرف حتى اليوم متى كان عبدالله ثرياً، ومتى كان فقيراً اذا وجد انفق بلا حساب.. واذا لم يجد، فان يده تبقى في مكانها بيضاء وعليا.

.. و.. صديقي الطيب محمد الطيب صاحب (الصور الشعبية) لم يقدم موضوعاً للمشاهد أو المستمع.. أو كتاباً للقارىء عن الفنون الشعبية وقد شملت حلقاته ومقالاته وكتبه القارة الأفريقية كلها الا بعد ان طاف كل بقعة في السودان.. وقطع في تحريه ودراساته المسافات الطويلة..

حملته الطائرة الى جهات افريقيا الأربع.. وتنقل في أرجائها على قدميه، يصعد الجبل ويخترق الغاب و.. يعبر النهر.. ويرى نجوم الليل في الصحراء وبين مضارب العرب الرحل..

... بل انه وقف على آثار (بعلبك) بعد آثار الفراعنة في مصر وزار (القيروان) ووقف في مكان (تمبكتو)... لم تبعثه جامعة.. أو تكلفه جمعية.. أو تنفق عليه مؤسسة وانما كان يمشي راجلاً.. ويسافر بمختلف

الوسائل.. ويعيش في الغاب.. أو مع بدو الصحراء.. ليأتي إلينا بما نقرؤه ونشاهده حتى لكأن ما قدمه مما يجهله حتى علماؤنا ـ منهجاً علمياً قائماً بذاته للدارسين..

ان جامعة الخرطوم وضعت هذه الدرجات في مكانها تكريماً لمن بذلوا لغيرهم وانكروا ذواتهم.. فلها الشكر ولهؤلاء الأفذاذ الثلاثة التهنئة.. فهم حقاً أبناء هذا الشعب الذين انبعثوا من ضميره وعملوا من أجله.

* * * *

من زكي مبارك الى عبدالله رجب

بقلم: الريفي

أخيراً ـ والحمد لله ـ ظفرت بمجموعات مقالات الدكتور زكي مبارك... أحد ادباء عصر طه حسين والعقاد والمازني والزيات واحمد امين. وأحد كتاب مجلة (الرسالة) ـ البارزين.. وصاحب درجات الدكتوراه الثلاث...

أولها من جامعة القاهرة وهي أول رسالة دكتوراه تمنحها لممتحن في مدرجاتها عندما كان مديرها العالم الفيلسوف الدكتور احمد لطفي السيد الذي ترجم للأمة العربية كتاب (أرسطو) المعروف في تاريخ الفكر الانساني وعندما مدح شوقي هذه الترجمة قال...

يا (لطف) أنت هو الصدى　　　　من ذاك الصوت الرخيم...

ويوم ان أقبل الدكتور زكي مبارك ليواجه ممتحنيه (في مدرجات جامعة فؤاد) جامعة القاهرة... كان متهيباً وموضوع رسالته (الاخلاق عند الغزالي).. فدعاه الدكتور لطفي السيد رئيس لجنة الامتحان ترفقاً به، وهو يقول له، (أقبل يا ابني... ليس الغزالي بأكبر من ان يخطىء ولا أنت بأقل من أن تصيب).

ليس عندي مجموعة الرسالة.. ولا ذاكرة أستاذنا عبدالله رجب ـ وهي مكتبته السرية الحافلة الأرفف.

ووجدت في مكتبة عامرة جديدة في ميدان التوفيقية بالقاهرة كتاب (الحديث ذو شجون) ـ للدكتور زكي مبارك...

مجموعة مقالاته في مجلة الرسالة، وفي جريدة البلاغ جمعتها ابنته وطبعتها في كتاب ضخم تزيد صفحاته على ستمائة صفحة.. طباعة أنيقة..

ونفدت طبعته الأولى التي عرضتها اكبر واشهر مكتبات العالم العربي..

وبعض مقالاته سبق لي أن قرأتها في (القضارف) منشورة في مجلة الرسالة.. وبعضها في جريدة البلاغ وجميعها كانت في الفترة ما بين عام ١٩٣٥ على ما اذكر وعام ١٩٥٠.. وهو العام الذي فارق فيه الدكتور زكي مبارك فارس البيان العربي في زمانه والذي وصفه توفيق الحكيم في حياته ـ فانه يخرج من معركة متأهباً الى معركة أخرى..

ولقد صرفني العكوف الليلي على قراءة شؤون زكي مبارك وشجونه عن لقاء أصدقائي في القاهرة.. فما تذوقت فيما قرأت للكبار شهياً مثل سهله الممتنع أو سلساً مثل بيانه الرائع وفكره المتوهج فهو كاتب فريد حقاً يأخذ من الحياة التي نراها ما لم تره عيوننا أو تدركه عقولنا من أسرارها وخفاياها ويلاحق بقلمه من كانت

تتعاصر عن حولهم وطولهم أقلام كبار الكتّاب ومشاهير الأدباء...

ويعشق ويصف عشق صراحة كما فعل في الفصول التي جمعها في حياته.. كما جاء في كتابه (ليلى المريضة في العراق)...

ولقد ذكرت الأخوين السلمابي - يرحمه الله - وعبدالله رجب أطال الله عمره ومتعه بالعافية.

السلمابي.. كان مفتوناً بزكي مبارك، وقد تأثر بأسلوبه فيما كتب.

وعبدالله رجب الذي كان يعقب بقلمه في مجلة الرسالة التي نقرأها كلها على ما يكتبه كبار الأدباء فيها.. بل ان عبدالله رجب بعث برسالة الى الدكتور زكي مبارك بعث بها إليه من قرية (المفازة) حيث كان يعمل وجاءه الرد على رسالته من الدكتور زكي مبارك من القاهرة وتلك ميزة قليل من ظفر بها من أدباء السودان في ذلك الزمن..

وارجو أن تكون محفوظة في أوراق عبدالله رجب المعكوسة في صناديقه الخشبية.. ومما أذكره أن خط الدكتور زكي مبارك ليس جميلاً مثل أسلوبه.

من لي بمن يجمع مقالات السلمابي - يرحمه الله - التي نشرها في الجرائد التي عمل فيها وأولاها بالاهتمام تلك التي عنوانها (صور وعبر)...

باشا بالصدفة

الصحافة: الاثنين ١٣ فبراير ١٩٨٤ — بقلم: محمود أبو العزائم

بمناسبة تكريم جامعة الخرطوم

لم تعرف الأمة العربية.. الصحف... والعمل الصحفي إلا في أخريات القرن التاسع عشر.. إذ صدرت الصحيفة العربية الأولى في حلب...

وبعدها بأيام صدرت أول صحيفة مصرية.. وكانت الثانية عربياً.. ونشطت حركة النشر بعد ذلك وكان أبرز فرسانها جمال الدين الأفغاني الذي أصدر عدة صحف... أشهرها العروة الوثقى التي كانت تصدر من العاصمة الفرنسية باريس.. وكانت نظرة القارىء العربي للصحيفة مثلما كانت نظرة المجتمع في السودان للمطربين قبل سرور وكرومه... ويعود السبب الى تلك النظرة المريبة الى رجال الدين وبخاصة أولئك الذين يظاهرون الباب العالي في تركيا.. والجناب العالي في مصر.. افساداً لثورة الأفغاني وهو رجل دين التي اختار لها القلم سلاحاً... حتى ان سؤالاً ورد من قارىء مسلم يبدو انه تأثر بحملات رجال الدين الخفية والعلنية ضد اشتغال جمال الدين الافغاني بالصحافة مفاده: ما هو حكم الدين في الذين يشتغلون بالصحافة والذين يقرأونها... فجاءت فتوى الشيخ جمال الدين الأفغاني تقول (يجوز للمسلم أن يتعاطى الصحافة) وهو يعني الكتابة في الصحف... وقراءة الصحف.. وتطورت النظرة العدائية للصحف العربية فتضعها في خانة المهانة في المجتمع فيروي الأستاذ مصطفى أمين أن المحاكم في مصر كانت ترفض شهادة المشخصاتي (الممثل) والجورنالي (الصحفي) كانت شهادتهما لا تقبل في المحاكم.

ويروي الأستاذ مصطفى أمين أيضاً... ان الشيخ علي يوسف صاحب جريدة (المؤيد) تزوج من ابنة نقيب الاشراف في مصر... وهو لقب لشيخ مشايخ الطرق الصوفية... فرفع نقيب الأشراف دعوة أمام المحكمة الشرعية لالغاء ذلك الزواج والحكم ببطلانه لأن الصحفي ليس مؤهلاً للزواج من بنات الناس... ورضت المحكمة ببطلان زواج الشيخ علي يوسف صاحب المؤيد لأنه ليس كفؤاً للزواج من ابنة نقيب الأشراف لمجرد أن مهنته الصحافة فتدخل أشراف الفكر والثقافة لدى الخديوي... الذي أنعم بالباشوية على الشيخ علي يوسف.. واستجاب ولي النعم فأنعم عليه بالباشوية فهو أحد رجاله... ليصبح بعد ذلك الشيخ علي يوسف باشا... ويصبح بالتالي كفؤاً لمصاهرة نقيب الأشراف... ورحلة العذاب التي قطعتها صحافة مصر وصحفيوها لم يسلم منها بلد عربي في ذلك الوقت... ولهذا كانت ظاهرة الأسماء المستعارة تملأ أعمدة الرأي... بما فيها الأفغاني نفسه... والدكتور محمد حسنين هيكل... والتابعي ومصطفى أمين وعلي أمين وغيرهم... الى أن اصبحت موضة وصلتنا هنا في الخرطوم... لنقرأ (ليمان) وطبجي... وحميدان وغيرهم وبين هؤلاء (أغبش).

وأغبش هذا... هو أستاذنا الكبير عبدالله رجب... الذي حمل العبء الاكبر من عذاب المهنة فالصحافة في السودان لم تمر بظروف زميلاتها في مصر وسائر البلدان العربية الأخرى... لأنها جاءت بعد ذلك بكثير... وفي جو يختلف باختلاف الظروف... لكنها كانت في كثير من الأحيان هي الحركة الوطنية... وكانت (الصراحة) لمنشئها وصاحبها ورئيس تحريرها عبدالله رجب ليست حزبية... وليست مستقلة بمعنى الاستقلال الذي تسير على نهجه الصحف المستقلة... كانت حركة وطنية دائمة لم تتوقف ابداً... وكان شعارها التزام جانب الشعب... وكانت تمثل فلسفة الحياد الايجابي الذي جاء بعدها بسنوات طويلة، هي تمثله على النطاق الداخلي وسط صراعاته الحزبية والطائفية... وتمثله أو تمثل فيما بعد عالمياً في منظمة دول عدم الانحياز...

كانت (الصراحة) تستمد وجودها وحيويتها... ومواقفها من صاحبها عبدالله رجب نفسه.

إذ كانت شخصيته متوازنة جداً لا يستطيع حزب من الأحزاب أو طائفة من الطوائف.. ان تزعم بأن (الصراحة).. قد ظاهرتها أو انحازت الى جانبها أو رفعت في يوم من الأيام راية من راياتها... وانما هو على الدوام... الالتزام... الالتزام جانب الشعب... ويكبر عبدالله رجب في نظر قرائه وفي نظر زملائه على السواء حين امتشق القلم دفاعاً عن الغبش... فيتعرض للايذاء... حتى من بعض الغبش انفسهم ولا يجعله ذلك ينكص... أو يتراجع.. بل يستمر في الدفاع عنهم على الرغم من كل شيء... ولأنه كان صاحب رسالة... كان لا بد له من الصمود حتى تنتصر الرسالة التي نذر نفسه لها ومن هو صاحب الرسالة في تاريخ البشرية الذي لم يتعرض للايذاء... كان استاذنا الكبير عبدالله رجب... وما زال القدوة الحسنة في سلوكه وفي معاملاته وفي تعامله... منذ عرفه الناس وعجموا عوده... بانياً لصرح مجده وتاريخه... بأظافره فقد أفنى حياته كلها للناس... ولم يطلب شيئاً لنفسه فهو عطاء... بلا منّ... ولا سلوى...

(ويوم شكره ان شاء الله ما يجيء) ذلك لانه عبدالله رجب...

* * * *

أغبش على بسكليت في شوارع الخرطوم

(بقلم: محمد سليمان - جريدة الصحافة - ١٦/٩/١٩٨٤)

وأغبش بالطبع هو صديقنا عبدالله رجب وقد آثر أن يضفي هذا اللقب على نفسه انتساباً لها وإلتزاماً منه للأهالي الغبش وقد ارتبط به اسمه وصحيفته (الصراحة) إرتباطاً وثيقاً لم يحد عنه قيد أنملة بالرغم مما لاقى في سبيله من عنت وظلم.

أغبش الآن يكتب مذكراته في الصحافة الغراء ولا أخال جيلنا إلا واجداً فيها نفسه وأنا لا أريد أن أحدد السن هنا لا خوفاً على أغبش أو على نفسي ولكن لينضم إلينا من يشاء أما بحكم الواقع أو طائعاً مختاراً. لقد أعطى أغبش صورة حقيقية لما كنا عليه من حيث التثقيف الذاتي إذ كنا لا نعرف إلا القراءة والاطلاع حيث كانت الكتب والصحف والمجلات التي اشترك فيها هي نفسها التي كنا نتداولها ونتسابق على اقتنائها وكان الكتّاب والعلماء الذين اغترف من منهلهم هم الذين تأثرنا بهم وتأثر بهم كذلك أبناء الوطن العربي.

لقد قرأنا الأيام لطه حسين وجان جاك روسو لهيكل وساعات بين الكتب للعقاد ونحن في مستوى ما يسمى بالمدرسة الابتدائية اليوم وكان معلمونا في تلك المدارس على مستوى عال من الثقافة والاطلاع وكانوا يدفعوننا دفعاً ويحببون لنا القراءة وكان أستاذنا المربي الراحل عبدالقادر شريف والد مهدي شريف القانوني الضليع يدخل علينا ويقرأ لنا أحسن ما قرأ في مجلة الرسالة لأحمد حسن الزيات والجهاد لتوفيق دياب ومن شعر شوقي الى غير ذلك وكانت الرسالة توزع في السودان أكثر من مصر باعتراف صاحبها أحمد حسن الزيات وكنا نحفظ عن ظهر قلب كثيراً من مقالاتها ولا زال صديقنا الريفي يردد علينا ما حفظه منها وكان التجار وبعض الموظفين في الأقاليم يهرعون الى المسجد بعد الفراغ من أعمالهم وبعد صلاة المغرب يجلسون لدراسة الفقه واللغة وعلى سبيل المثال نذكر الشيخ الصديق الأزهري في رفاعة، الشيـخ حسن القدال في كـوستي والشيخ علي أدهم تلميذ ود البدوي في أمدرمان وكثير غيرهم وكانت البلاد عبارة عن معسكر ثقافي آنذاك ولا عجب ان كان السودانيون على قدر كبير من الثقافة العامة مما كان يشيد به العلماء المصريون مثل محمد فريد أبو حديد والدكاترة زكي مبارك وكل من اتصل بالبلاد منهم.

أعود لأكتب عن أول عهدي بأغبش وكان ذلك في منتصف الأربعينات وكنت قد سمعت عنه أو بالأصح عنهم - عبدالله رجب والريفي والسلمابي من بشير محمد سعيد حيث ذكر لي انه تعرف عليهم في القضارف ولمس سعيهم الدؤوب للمعرفة والعلم.

• وذات مرة وأنا أقف مع صديق أمام مقهى خباز - اجزخانة كمبال في المحطة الوسطى إذ أقبل علينا شاب وسيم وكان يركب دراجة وقلت في نفسي بعنجهية وتعالي أولاد أمدرمان من هذا الذي يركب دراجة وفي اكثر شوارع العاصمة إزدحاماً وكمان يلبس لبساً إفرنجياً حيا ذلك الشاب صديقي وحياني ثم ذهب لشأنه وسألت صديقي من هذا قال عبدالله رجب الصحفي المعروف في صحيفة السودان الجديد - لم أكن أتصور إغبش كذلك فقد كنت أحمل له صورة في ذهني غير ما رأيت وأرجو الا تعجبوا ان وصفته بالوسامة فالرجل اليوم ليس كالأمس حيث الشباب والعود الريان وهو اليوم يحبو الى السبعين من عمره ولا يحمل إلا أسفاراً

وأوراقاً وحتى عصاه التي لم تكن تفارقه كعصا موسى لا يفعل بها إلا أن يتوكأ عليها وليس له فيها مآرب أخرى.

والتقيت بأغبش مرة أخرى في عام ١٩٤٩ في اركويت حيث كانت الادارة الأجنبية كما يحلو لعزيزنا يوسف بدري أن يسميها ولا يقول الاستعمار وأنا أشاركه هذا الرأي ـ تقيم معسكراً ثقافياً سنوياً منذ عام ١٩٤٤ وكانت تختار له نخبة من المواطنين المثقفين ليسهموا مع بعض البريطانيين في مناقشة ما يعرض عليهم من مواضيع لكي تتقارب الأفكار والتعاطف مع بعضهم البعض وكنت وأغبش وفخرالدين محمد نكون ثالوثاً متفقاً في الرأي أثناء المناقشة.

ثم يصدر أغبش جريدة الصراحة ولعلها عام ١٩٥٠ وكانت الحرب العالمية الثانية مهدت الطريق لأفكار جديدة وفلسفات لم تعرفها البلاد من قبل وظهرت قوى وطنية منتظمة أخذت تشارك في الحياة السياسية وتنهج نهجاً لم يحفل بالقديم بل أخذت تشق طريقها وسط الصخور وفتحت الصراحة لهم صدرها ووجدت هذه القوى ـ المثقفون والعمال والمزارعون ـ جريدة الصراحة ضالتهم المنشودة حتى قوي ساعدها وقامت بدورها الملحوظ ومكانتها المرموقة في تاريخ البلاد..

لقد كانت الصراحة مدرسة جديدة بحق تخرج فيها كل الرافضين للطائفية السياسية والحالمين بمجتمع انساني رفيع ولا أريد أن اتحدث عن أغبش وبراعته الصحفية وابتداعه لبعض التعبيرات ـ الكيسة في عالم الصحافة لا لثقافته الموسوعية ولكن آثرت أن أكتب هذه الكلمة تحية مني اليه على ما أدى ويؤدي للثقافة والبلاد من علم وعمل متواصل وان فاتني أن أهنئه بتكريم جامعة الخرطوم له ولصنوه الطيب محمد الطيب فليقبل مني هذه العجالة وفي القلب ما فيه من ود واحترامٍ له..

أما جامعة الخرطوم فلها الشكر والتهنئة أيضاً لهذا التوفيق في تكريم الرجال العاملين لوطنهم ولا يعرف قدر الرجال الا الرجال.

أما صديقنا الطيب محمد الطيب فيكفيه مني أن أهديت له كتابي الذي نقلته من الانجليزية عن القبائل والبيوتات المعروفة في مديرية النيل الأزرق والذي ما زال منذ أغسطس ١٩٨١ ينتقل من يد الى يد ومن مطبعة الى مطبعة حتى استقر أخيراً عند دار النشر بجامعة الخرطوم التي يرأسها الدكتور خالد المبارك، تحية للجميع والشيء بالشيء يذكر.

* * * * *

وبعد رحيله ...

رثاء لشيخ الكادحين
المرحوم عبدالله رجب

(التيجاني عامر)

صراع مع الدنيا مرير وعارم   وعين كخرط الشوك صعب وصارم
درجت به طفلاً طريراً ويافعاً   وكهلاً وشيخاً هد منه التقادم
سلكت طريق الكادحين مرحباً   بكل صعاب كالحات تصادم
ولم يجد اليأس المميت سبيله   الى عزمه تحتار منها العزائم
وطفت في الآفاق تسبر غورها   سلاحه صبر وافر وملازم
ما صدك الحرمان عن نيل غاية   تحف بها من كل جنب ملاحم
وأوغلت في بحر الثقافة صادئاً   لتكرع لم يفزعك منه التلاطم
ولونت اشتات المعارف ناثراً   بفن من الابداع يمليه ناظم
وغصت الى الأعماق تخرج غالياً   من الدر لم تدرك مداه الدراهم
وترجمت الى الفصحى كنوزاً خبيئة   تناقلها قوم طغاة أعاجم
وبالقلم السيال ينصاع دافقاً   ويكشف أسراراً لهم ويخاصم
هتكت ستور الغاصبين فروعوا   وبانت لنا آثارهم والمظالم
وكنت فريداً كالفرند تمزقت   على شفرتيه الماضيات جماجم
تعففت لم تمدد يديك لحاجة   وقد كان من كفيك تلقى المكارم
لتحفظ من حق (الصراحة) صدقها   لئلا يؤم الفكر بالمال سائم
نأيت بها عن ساحة البيع شامخاً   لتحمي حقوق الشعب والشعب نائم
وكانت شواظاً للطوائف كلها   تهاب عواديها اللحى والعمائم
سلكت بها صوب التقدم رافعاً   عقيرة جبار قوي يهاكم
نفثت لهم سم الأفاعي مترجماً   الى كلمات ما حوتها المعاجم
سلاماً أخا الزهد الممض ورحمة   من الله تهديها اليك الغمائم
لئن جحد الناس الجميل جهالة   فحقك عند الله باق وقائم

جريدة الصحافة
الثلاثاء جمادى الأولى ١٤٠٦هـ (الموافق ٢٨ يناير ١٩٨٦م)

رحل عبدالله رجب الأغبش صديق الغبش

بقلم: حسب الله الحاج يوسف

على الرغم من حتمية الموت وعلى انه قانون حاد لا مناص منه إلا انني قد أصبت بما يشبه الذهول، استغفر الله ـ حينما فوجئت بنبأ وفاة عبدالله رجب وأحسست وكأنني كنت على موعد أعمى ولحظة جراح بالنسبة لنبأ هذه الفجيعة.

وقد نقلتني الذاكرة الى أعماق السنين الخالية عندما كنت أعمل معلماً بشرق السودان بمدرسة درديب الأولية في مطلع الخمسينات حيث كان الاستعمار الانجليزي متسلطاً بدهائه المعهود ومرونته الشرسة وتلك الفترة كانت فترة يقظة في الفكر والسياسة والحياة والشباب قد وعوا أن الأحزاب السودانية قد اختبأت في عباءة الطائفية ولا فكاك من ذلك، وأطل عبدالله رجب يقرع الناقوس في صحيفة الصراحة التي كانت فتحاً في الفكر السوداني وداعية للنقد الصريح وقد فتحت أبوابها لكل واعد صريح فالتقى على صفحاتها اليسار الهادف والتمرد الصادق وتخرج من مدرستها الاعلام في الفكر والأدب والسياسة.

وقد كان من كتاب الصراحة الأساتذة المرحوم حسن الطاهر زروق والمرحوم عبدالرحمن عبدالرحيم الوسيلة والدكتور محمد النويهي والدكتور عبدالمجيد عابدين والأديب الشاعر جعفر حامد البشير ومحمد سعيد معروف والقاص الزبير علي والقاص خوجلي شكرالله والأستاذ محمد الحسن أحمد الذي اشتهر بعموده الثابت ـ (وجدانيات صرفة) كما كان شخصي الضعيف يكتب مقالات وطنية تحت عنوان (حديث المائدة)...

لقد كان الأستاذ عبدالله رجب رحمه الله مدرسة صحفية قائمة بذاتها، وكان منحازاً الى الجماهير بكل حدته وصراحته وعنفوانه اذ كان يكتب مقالات ساخنة ضد الاستعمار بتوقيع (أغبش) حتى انه كان كثيراً ما يصطدم بالمستعمرين لمقالاته التي تغضب السكرتير الاداري روبرتسون فيتعرض بذلك للغرامات والإيقاف والمصادرة وكانت هذه الغرامات باهظة قصدت الى تعطيل الصراحة ولكن الصراحة كانت تجد دائماً من يناصرها من الأهالي الغبش وأحياناً يلتزم شقيقه علي رجب التاجر بمدينة سنجة بسداد تلك الغرامات.

وذات مرة أوقفت الصراحة نهائياً بقرار السكرتير الاداري روبرتسون فاتصل بنا الأستاذ عبدالله رجب عن طريق منشورات يخبرنا فيها بانه بصدد إصدار صحيفة أخرى اسماها (الصراع) وأعد لتمويلها (بنك الأهالي الغبش) الذي وجد استجابة منقطعة النظير في جميع أنحاء السودان، وعندما شعر السكرتير الاداري انه لا يستطيع منعه من اصدار هذه الجريدة والتي ستكون حتماً من نفس وزن وقافية الصراحة ولا تختلف عنها إلا في الاسم رأى ألا مناص من إطلاق قيد الصراحة فعادت كعادتها تصارع حتى انصرع الاستعمار.

ان الحديث عن عبدالله رجب يطول فالرجل وطنياً كثير الإيمان بوطنه وكان صريحاً وقاسياً في عداوته، لا يجامل ولا ينافق ولا يعرف الهزر وكان رجلاً زاهداً في حطام الفانية حتى أن الأخ الزبير علي وهو موظف مسؤول بالبريد والبرق كان يسهل له مهمة صرف التحويلات التي كانت ترد الى الصحيفة من الأقاليم، فكان عبدالله يبعثرها في شكل عطايا على من حوله من زملائه وكتاب الجريدة.

وقد سألته ذات مرة عما أعده لأسرته وضمانات مستقبلها فقال لي: ـ (أنا يا حسب الله لا أطمع في شيء في هذه الفانية أكثر من حق الزيت وأجرة البيت وأن أغادرها نظيفاً ولا طالب ولا مطلوب) تلك كانت فلسفته في

الحياة وقد غادرها فعلاً عليه رحمة الله حيث خرج جثمانه من منزل بالايجار في مدينة الحلفايا وهذا دأبهم أولئك الزملاء الأفاضل الذين تساقطوا واحداً إثر واحد كأوراق الغصون الجافة.. السلمابي.. صالح محمود اسماعيل.. حسن نجيلة.. عوض برير وغيرهم ولا عوض لنا عن أولئك الزملاء القدامى فالمرء مهما كانت الأحوال لا يستطيع أن يغرس شجرة ليأكل ثمرها ويتفيأ ظلها بين ليلة وأخرى.

رحم الله عبدالله رجب الذي سلم الراية الى عبدالحفيظ وأشقائه وشقيقاته والذي يترك أمثال هؤلاء الفتية ما أظنه قد مات.

صحيح ان الحزن يعتصر قلوبنا ولكن الحياة تمشي في صيرورتها بعد أن مات عبدالله رجب الأب وليبارك الله في الأبناء.

جريدة الصحافة

الخميس ٢٠ جمادى الأولى ١٤٠٦هـ (الموافق ٣٠ يناير ١٩٨٦)

* * * * *

رحم الله عبدالله رجب

بقلم: يحيى محمد عبدالقادر

رحل عنا الى عالم افضل الزميل والصديق ورفيق الدرب عبدالله رجب.

وكان لنعيه في نفسي ألم لايعدله ألم، وأسف لايعدله أسف فإن تخلف الرفاق الواحد إثر الآخر عن المسيرة بما يعني لي إنذاراً بقرب النهاية وشعوراً بالوحدة والانقطاع حيث لا أجد غير نفسي وقلة قليلة تنتظر من أولئك الذين أضناهم طول الطريق وعناء الرحلة، ومتاعب الجسم المنهك المنهار.

وعبدالله رجب الطيب القلب الصوفي النزعة الكريم المضياف المتلاف رجل في اعتقادي قليل النظير ان لم يكن منقطعه.

لقد كان لكل الناس بعامة ولأسرته وخلصائه الادنين بخاصة.

تمر به الأحداث الجسام غير مكترث، لإيمانه بالله وتوكله عليه وانصرافه بكلياته اليه ورضائه بما قسم له.

لا يجأر بالشكوى ولا يتذمر ولا يخور، قوي دائماً شريف دائماً لا يؤذي ولا يسيء ولا يثور ولا ينفعل لعرض من أعراض الدنيا كبر أو صغر.

عرفته منذ ما ينوف على أربعين عاماً معرفة وثيقة فكان في كل أحواله براً رؤوفاً سمحاً نبيلاً شديد الحرص على الجهر بكلمة الحق شديد الغيرة على وطنه ومواطنيه واسع الطموح يتقد ذكاء ويثب وثبات القادر الشجاع لا يخشى الا الله ولا يستعين بغيره.

لم ينتظم عبدالله رجب في مدرسة بعد الدراسة الأولية ولكنه استطاع ان يعلم نفسه بكثرة الاطلاع وان يلم بالانجليزية كتابة وقراءة وان يترجم عنها في دقة وان يتكلم في حدود تكفي للتفاهم.

وفد الى العاصمة في سنجة في العام ١٩٤٧م وعمل مديراً لإدارة «السودان الجديد» لصاحبها أحمد يوسف هاشم مع الاشتراك في التحرير.

وأصدر صحيفة الصراحة في عام ١٩٥٠م مرتين في الأسبوع ثم اضاف مرة ثالثة وقد التزمت «الصراحة» في ذلك العهد الجانب المعارض للحكومة الاستعمارية والطائفية والقبلية والعنصرية والاقطاعية وساير الكفاح الوطني في فدائية مطلقة وكان يستعين بكتاب الجبهة المعادية للاستعمار لاشعال النار في جريدته.

وكانت الصراحة في ذلك العهد صورة حية للاتجاهات الجريئة المتطرفة، وكانت هذه الاتجاهات تستأثر باعجاب الجماهير فكثر الاقبال على الصراحة وكان لما تكتب صدى قوياً في أنحاء البلاد المختلفة.

وتخلى عن جريدة «الصراحة» لوزارة الاستعلامات في عهد عبود بعد أن ثقلت عليه وطأة الديون التي جرها اسرافه في الانفاق في غير حدود.

وعمل رئيسا لتحرير جريدة «الثورة» تحت تأثير صديقه الحميم السيد احمد خير وعندما اصطدم بالطائفية أبعد عنها ليعمل موظفاً في الاعلام.

واعتزل العمل الحكومي بعد أكتوبر ثم التحق بأعمال السلمابي لفترة قصيرة. وانشأ بعد ذلك مكتباً

للترجمة لم يكفل له النجاح مما أدى أخيراً الى قبول منصب في القصر الجمهوري ثم أحيل أخيراً للمعاش.

لقد كانت هموم الحياة والأسرة في أخريات حياته سبباً في أن يلوذ بالوظيفة والمهادنة فإن عهد المغامرات والسعي الملح وتحدي العقبات قل ان يتصدى لها شيخ ضعفت صحته واستبدت بـه الأمراض ولاحقتـه المطالب.

وان البشر ليسوا بمردة ولن يكونوا.

رحم الله عبدالله رجب بقدر ما أدى لوطنه من خدمات.

٢١ يناير ١٩٨٦
« الايام »

*** * * ***

عبدالله رجب ـ الصحفي العصامي

بقلم: قاسم عثمان نور

خلف الأستاذ عبدالله رجب ثروة أدبية زاخرة من أدب السيرة الذاتية، فقد ظل يكتب مذكرات أغبش منذ مطلع الخمسينات في جريدة «الصراحة» وحتى مطلع الثمانينات في جريدة «الصحافة». وكانت مذكرات أغبش في عهدها الأول والثاني على السواء تمتاز بالصراحة والوضوح والصدق والأمانة، ورغم أن فقيدنا لم يتبع منهجاً تاريخياً في تسلسل الأحداث فقد كان يكتب عفو الخاطر مما أكسب كتاباته البساطة والعفوية واستطاع بأسلوبه التلغرافي المعبر ذلك الأسلوب الذي تميز به في الكتابة الصحفية، ان يكتب لوحات فنية رائعة يؤرخ فيها لفترات طويلة من تاريخ السودان الحديث، وتعددت كتاباته وتنوعت لتشمل أشكالاً وأنواعاً من أدب السيرة الذاتية فقد تناول في تلك المذكرات طفولته الباكرة بسنجة ودراسته للمرحلة الأولية بمدرستها والدور الذي قامت به جدته بعد فقدهم لوالدهم.

وكان واضحا تأثير الجدة على الطفل وقد لازمه هذا التأثير حتى أصبح رجلاً، فقد كان معجباً بأسلوبها في الحياة، لما جبلت عليه تلك المرأة من قوة شكيمة وصعوبة المراس، ويبدو أنه قد تطبع بالكثير من طباعها، حيث كان معجباً بها غاية الاعجاب.

وتحدث في مذكرات أغبش عن قراءاته الباكرة وتنمية مهارة القراءة والاطلاع لديه، ثم عمله التجاري وفتحه لمكتبة بسنجة استطاع ان يحصل على مطبوعاتها وتزويدها بالكتب من القاهرة وأصبح لها زبائن من الموظفين ومثقفي المدينة، وسرعان ما أصبحت المكتبة منتدى ومكانا لتجمع الطبقة القارئة بالمدينة واستطاعت تلك المجموعة ان تكون حلقة من حلقات القراءة وهي شكل من أشكال الجمعيات التي كان يسمح الاستعمار بها في حدود، كما انها تشبه الى حد بعيد حلقات القراءة التي تكونت في أمدرمان مثل حلقة جماعة أبوروف وجماعة الهاشماب اللتين قادتا النضال الوطني فيما بعد.

واستطاع عبدالله رجب في تلك الفترة الباكرة من حياته أن يراسل الصحف المحلية والعربية وكان يعمد في أعماله الصحفية تلك فضح ممارسات الادارة البريطانية، وغطرسة المفتشين والحكام الانجليز مما سبب له الكثير من المضايقات والاستجوابات وكتب عدة تعهدات، وفي تلك الفترة أيضا تنقل بالأعمال الحرة والتجارية والزراعية مع مواصلة الكتابة ومراسلة الصحف وبعد الحرب العالمية الثانية وما تعرض له العمل التجاري من كساد، وما كانت تطمح به نفس الفتى الاقليمي من تطلعات للذهاب للعاصمة ليكون لصيقاً بالعمل الصحفي الذي عشقه وبمتابعة الاطلاع والقراءة التي أحبها.

حزم أمره وارتحل للعاصمة في مطلع الأربعينات وقد تعرض لتلك الفترة في أكثر من حلقة من مذكراته واصفا ما لاقاه من مشقة وعنت حتى أمكن له أن يجد موضعا صغيراً في المجتمع العاصمي النامي، حيث بدأ في مزاولة الكتابة في بعض الصحف المحلية حيث أخذ يفكر جديا في اصدار صحيفة حتى تقابل مع صديقه الصحفي الفاتح النور والذي ربما عرض عليه المشاركة في اصدار صحيفة اقليمية لاقليم كردفان ويبدو أن الأمر قد لاقى استحسانا وهوى في نفس الشاب فسافر مع صديقه الى القاهرة، وبعد وصوله للقاهرة تنازعته عدة عوامل في ان يواصل دراسته بالقاهرة أو أن يدخل في مشاركة مع صديقه الفاتح النور.

ويبدو انه في النهاية قد حزم أمره وشارك صديقه وعاد للخرطوم بعد شراء التجهيزات الخاصة بإصدار صحيفة كردفان وعاد الأستاذ عبدالله وتوجه الى الأبيض ولكن قبل الشروع في إعداد الصحيفة كان عبدالله قد غير من رأيه وان كان لم يفصح عن الأسباب التي أدت الى تخليه عن مشروع مشاركة صديقه الفاتح النور في اصدار صحيفة كردفان حيث قرر العودة للعاصمة.

وربما كان السبب في ذلك عدم رغبة عبدالله رجب استبدال سنجة بالأبيض إذ أن الأبيض لم تكن ترضي طموحات الفتى ويذكر في تلك المذكرات كيف أن صديقه قد تفهم موقفه ووافق على شراء نصيبه من المشاركة.

حيث عاد الى العاصمة واستمر في عمله بمراسلة الصحف والكتابة هنا وتعاظم حلمه الذي يراوده في إصدار صحيفة بالخرطوم، حتى تم له في إصدار جريدة الصراحة ـ ليصدر العدد الأول في مطلع يناير من عام ١٩٥٠ ـ لتصدر ثلاث مرات في الأسبوع وقد كان شعارها التزام جانب الشعب وصدرت الصراحة في وقت بلغت فيه الحركة الوطنية اشدها وشددت نضالها ومعارضتها للحكم الثنائي.

وما لبثت ان انضمت الصراحة لزميلاتها، «النيل» و«صوت السودان» و«السودان الجديد» و«الرأي العام». و«الصراحة» ما لبثت ان صدرت يومية واستطاعت ان تخلق لها قاعدة عريضة من القراء وذلك لاهتمامها بقضايا الطبقة العاملة النامية وقضايا المزارعين والطلاب وبقضايا السواد الأعم من المواطنين والذين كان يحلو لصاحب الصراحة بوصفهم (بالغبش) وهو أحدهم أغبش حيث صار يوقع مذكراته بهذا الاسم.

تميز أسلوب الصراحة الصحفي بعدة ميزات حيث صبغها الأستاذ عبدالله رجب بأسلوبه التلغرافي وعرضه الموجز المحكم للقضايا وبعده كل البعد عن المحسنات اللفظية والبلاغية وتخليه عن أسلوب الانشاء والاستطراد الذي كان طابعاً مميزاً للكثير من كتّاب وصحفييّ ذلك الوقت.

ووقفت «الصراحة» مواقف صارمة ضد السياسة البريطانية في السودان وعملت على كشف ممارستها ومواقفها ونادت باستقلال السودان وإزاء تلك المواقف تعرضت الصراحة للإيقاف أكثر من مرة كما تعرض صاحبها للغرامة والسجن أيضاً، كما عرفت «الصراحة» بموقفها المعادي للطائفية إذ أنها رأت في مهادنة الطائفية ورجال الادارة الأهلية للمستعمر البريطاني خيانة بقضية الوطن وإزاء هذا الموقف تعرض الأستاذ عبدالله رجب للاعتداء من قبل تلك الجماعات.

استمرت جريدة «الصراحة» في الصدور منذ أول يناير ١٩٥٠م حتى ٣١ أغسطس ١٩٦١م صدر خلالها الألفي عدد وخلال رحلتها هذه استقطبت «الصراحة» مجموعة من الكتّاب والصحفيين الشباب حيث رأت العديد من الأقلام النور لأول مرة في «الصراحة» وتخرج من مدرستها الكثيرين منهم جعفر حامد البشير، محمد الحسن احمد، عصمت يوسف، محجوب عبدالمالك، محمد سعيد معروف، المنبثق، شتيون، صلاح أحمد ابراهيم، علي المك، وغيرهم من الصحفيين والكتّاب.

طوال هذه الرحلة والقراءة والاطلاع ظلت تلازمه والكتّاب كان صديقه الوفي فعلّم نفسه اللغة الانجليزية حتى استطاع ان يتخاطب بها بل يترجم منها وكانت قراءاته متعددة فهو يقرأ كل ما يصادفه من أدب وتاريخ واجتماع وعلم نفس واقتصاد حتى أصبح كاتباً موسوعياً يكتب من الذاكرة في الكثير من القضايا المحلية والدولية.

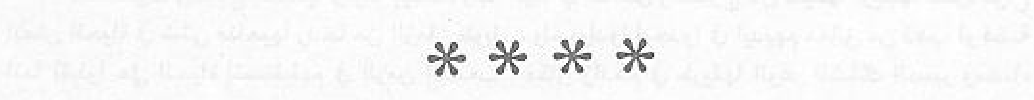
وبعد تخليه عن الصراحة في مطلع الستينات اتجه للعمل الصحفي في صحيفة الثورة ثم الى وظيفة في وزارة الاستعلامات والعمل ثم ما لبث أن تركها وعاد للصحافة مرة أخرى كاتباً ومترجماً حيث عين في أواخر ايامه في وظيفة بالقصر وذلك إثر عزمه للهجرة والعمل خارج السودان بعد أن ضاقت به سبل العيش وظل فقيدنا حتى أيامه الأخيرة يقرأ ويكتب ويترجم.

الا رحم الله الشيخ الجليل عبدالله رجب بما قدمه لوطنه ومواطنيه فقد جاء للدنيا فقيراً وخرج منها فقيراً إلا غنى النفس وشموخ وكبرياء العزة.

ان جمع ونشر مذكرات أغبش بجزءيها الأول والثاني خير تخليد لذكراه العطرة وفي نشر تلك المذكرات عظة وعبرة ودروس في الوطنية الصادقة والنضال الشريف من اجل الوطن والمواطنين البسطاء فقد كان فقيدنا العظيم بحق راعي حقوق الغبش فله الرحمة، ولآله وأصدقائه وتلاميذه وقرائه السلوى...

١٩٨٦/١/١٤

« الأيام »



جريدة القوات المسلحة (الخميس ٣ ابريل ١٩٨٦م)

الأديب عبدالله رجب
لمحات من حياته ونضاله

استطاع ان يقهر الصعاب ويطوع المستحيل

صلاح أحمد ابراهيم

السودان أرض النيل غني بأبنائه لأنه بلد العروبة انني عرفت في التاريخ بمواقف الرجولة والبطولة والفداء.

السودان بلد الخلوة والمسيد، بلد الفقراء والصلاح.. تاريخه القديم والحديث زاخر بأسماء كثيرة لمعت فتوهجت عطاء، أضاءت بلادنا فضلاً وخلقا وخيراً... ومن ثم توارت في أرضه وتلك سنة الله في خلقه... ولكنها خلفت صفحات في كتاب السودان مليئة بالبذل والتضحية جديرة بالتسجيل، ليجد من خلالها الناشئة في الحاضر والمستقبل الدروس والعبر عسى أن يتآسوا فينهجوا منهج السلف...

شخصيات ونماذج انسانية رفيعة بيضت وجه البلد في الداخل والخارج لأن حياتها أريجها عطره فواح انعش الحياة في شتى مناحيها ردحا من الزمان طويل.. ولم يولدوا ليجدوا في أيديهم معالق من ذهب أو فضة انما أقبلوا على الحياة لتستقبلهم في الزمن الصعب.. فكان زادهم في طريقها الوعر الشائك الصبر ومضاء العزيمة فاستطاعوا ان يقهروا الصعاب ويطوعوا المستحيل وان يحققوا طموحاتهم ويوجهوا طاقاتهم لخير بلادهم فكان مكانهم الريادة والصدارة عن جدارة وأهلية.. من هؤلاء في تاريخنا المعاصر المرحوم عبدالله رجب محمد، فقد ولد في سنجة ١٩١٥م وقد كان السودان آنذاك ضمن مستعمرات التاج البريطاني الذي لا تغيب الشمس عن مستعمراته، وفرص التعليم محصورة وأبواب المعرفة موصدة.. ذلك الجيل قدره كبير ولكن عزيمته كانت أكبر فنهلوا من فيض المعرفة ما تفوقوا به على أترابهم وأقرانهم الذين وجدوا فرص التعليم النظامي..

ذلك جيل عظيم كان من رواده محمد الخليفة طه الريفي ويحيى محمد عبدالقادر والفاتح النور وعبدالرحمن أحمد سعد (غشيم) أطال الله أعمارهم ومتعهم بالعافية والمرحوم السلمابي والمبارك ابراهيم وعبدالله رجب عليهم الرحمة.

بدأ عبدالله رجب بعد المرحلة الأولية في التعليم غير النظامي تعلم أصول اللغة العربية وتردد على حلقات العلم والفقه التي كان لا يخلو منها مسجد فدرس مختصر خليل وألفية ابن مالك وقراءة ابن عبدالوهاب، فمن عنده عشق القراءة والشغف بالمعرفة يقول في ذكرياته (كان كاتب هذه السطور منذ تلك الأعوام يتأبط على الدوام لفافات الصحف والمجلات وكما قال الرسول صلى الله عليه وسلم «ان الأرواح جنود مجندة ما تآلف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف». فانجذبنا الى بعضنا وصرنا نتناول الصحف والكتب والمعلومات والمناقشات، سماهم أحد الظرفاء بالقضارف أولاد الرسالة ومع ان الرسالة اسم للنساء مألوف فهو أيضا اسم مجلة المرحوم أحمد حسن الزيات القاهرية ذات التأثير الأكبر والملموس في بلادنا في الثلاثينات).

ولعل هذه العادة لازمته حتى أن شارف السبعين واستطاع ان يتعلم اللغة الانجليزية حتى تفوق فيها واصبح من القلائل الذين يترجمون في مستوى رفيع منها واليها... واهتم بدراسة علم النفس والاجتماع.. بدأ مسيرته العملية مع المرحوم محمد أحمد السلمابي كتبة ووكلاء في البيع والشراء لبعض التجار وعمل عقب الحرب العالمية الثانية كاتبا مع سلاح المهندسين ومن ثم تاجراً بالمفازة ولكن عشقه للمعرفة كان أقوى. يقول في ذكرياته (كنت بعد تصفية عملي بالمفازة قد اقترحت على الأخ السلمابي ان ننزح الى مصر لمجرد المغامرة ـ ولكني ذهبت لسنجة ومنها اتجهت الى الخرطوم بالقاهرة ومن هناك ظللت أكاتب السلمابي ليلحق بي في اللحظة المناسبة ولكني في ديسمبر ١٩٤٠م قررت العودة فالمغامرة كانت من أغراضنا)...

نستخلص من هذا أن روح الاقدام والشجاعة قد تملكت أقطار نفسه منذ فجر شبابه وانشأ في القضارف مكتبة ثقافية في الثلاثينات وقد ظل يكتب لجريدة «النيل» و«الرأي العام» و«السودان الجديد» في مختلف المواضيع السياسية والأدبية والاجتماعية.. كما كتب لبعض المجلات المصرية ـ آنذاك فئة قليلة تجد فرص النشر في الصحافة خارج السودان ـ ثم بدأ مع الأستاذ الفاتح النور فكرة انشاء جريدة كردفان الاقليمية عام ١٩٤٥م ولكنه تخلى باختياره عن الفكرة وأصدر الفاتح النور كردفان كأول جريدة اقليمية ظلت راسخة كشجرة التبلدي في سهول كردفان.

ورحل للخرطوم عام ١٩٤٧م ليلتحق بجريدة السودان الجديد اليومية المستقلة وأطلق على الصحافة مهنة النكد.. لم يقف به جواد طموحه عند ذلك فقد أعد العدة، اكبر رصيده ثقته بنفسه وأصدر الصراحة نصف أسبوعية عام ١٩٥٠م وجعل شعارها التزام جانب الشعب وأقبل الناس على الصراحة شجاعة الرأي دسمة المادة صريحة القول فكان صوتها عاليا في مناهضة الاستعمار وأعوان الاستعمار وامتاز أسلوبه بالايجاز البليغ التعبير فتوالت الغرامات والمحاكات على الصراحة ومن ثم ضاق بها الاستعمار فأوقفها فترة ستة أشهر فكر خلالها باصدار بديل لها باسم الصراع. وحوكم عبدالله مرات كان آخرها ستة أشهر سجناً أمضاها بسجن واد مدني، كانت جريدة «الصراحة» صوت الشعب المعبر فبادله شعبنا الوفي خير الوفاء، في مرحلة التحرر الوطني ورغم أن الأخوة المحررين محمد سعيد معروف ومحمد الحسن احمد ومحجوب محمد عبدالرحمن كانوا أعضاء في (حستو) وان الصراحة انجزت للكثير من كتّاب جماعة الحركة السودانية للتحرر الوطني الا ان عبدالله استطاع المحافظة على استقلال جريدة الصراحة من التبعية او الانقياد لجماعة الحركة السودانية للتحرر الوطني حستو.. واسهمت «الصراحة» في الحركة الفكرية والأدبية اذ كانت تعد أعداداً أدبية لنشر نتائج مسابقات في الشعر والقصة والنثر وأفسحت المجال لناشئة الأدباء آنذاك.. منهم الطلاب علي الملك وصلاح احمد ابراهيم وغيرهم كجعفر حامد البشير والزبير علي..

وعبدالله لم يكن عضواً في حزب من الأحزاب ولم تكن له أي علاقة غير الصداقات مع جماعة (حستو) فقد ظل طوال حياته مستقلاً في رأيه وتفكيره.. وعبدالله رحمه الله رغم صرامته فانه انسان بسيط طيب النفس يصل أحيانا لحد الدروشة ـ كريما متلافا ـ ورغم ذلك استطاع أن يؤسس مطبعة صغيرة للصراحة عاونه فيها شقيقه المرحوم علي رجب ولكن الدهر لا يبتسم إلا ليعبس بعد حين.. فقد اثقلت الديون كاهل الصراحة وعند انقلاب نوفمبر ١٩٥٨ ونُدت «الصراحة» ومطبعتها وهي في عنفوان الشباب..

وجيء بعبدالله رجب رئيسا لتحرير جريدة الثورة وقطعا لم يأت طامعاً ولا وجلاً ولكنه قد كان له رأي في ممارسة الأحزاب والوضع السياسي المتردي إلا أنه رغم ذلك لم يستطع الاستمرار في جريدة الثورة أكثر من شهور معدودة... فعين كبيراً لضباط الاستعلامات بكسلا وابتعد عن العاصمة وأجوائها... وفي تلك الفترة اتسمت حياته بالتمزق الداخلي وعبدالله انسان مهذب ورقيق الحاشية ولكنه ما انهزم فصرف نفسه للترجمة

أفاد بها كثيراً.. وكنت موقناً ان المقام لن يطول به وقد كان... عاد للعاصمة لا يملك إلا ذكريات عذاب وشجن مرير ليجد مكاناً في مؤسسات المرحوم السلمابي ولكنه ترك العمل بعد فترة وانصرف عبدالله للتصوف وقراءة القرآن الكريم فجذوره مرتبطة بأهله العركيين المنتشرة قبابهم في أرض الجزيرة فتذوق حلاوة القرآن الكريم حتى أصبح المصحف الكريم لا يفارقه حتى ان كان مستقلاً وسائل المواصلات... واختير عبدالله في السبعينات بالقسم الصحفي بالقصر الجمهوري فلم يحرق بخوراً ولم يدق دفوفاً للسلطة بل حصر جهده في الكتابة عن الشؤون الخارجية وبعض مذكرات أغبش بجريدة الصحافة.

واعترافا بجهده في المجال الثقافي كرمته مشكورة جامعة الخرطوم بمنحه درجة الماجستير الفخرية في الأدب...

المرحوم عبدالله رجب مجموعة من الملكات والصفات الحميدة.. خرج من الدنيا من منزل إيجار بالحلفاية عاش فقيراً في حساب المال وكان في مقدوره لو أراد ان يكون من رجال المال أو السلطان وهذا دأب الرجال الزهاد...

فأحسن الله خاتمته وهذا خير من الدنيا وما فيها... رحم الله عبدالله وان كان لنا من كلمة فلنهمس في أذن نقابة الصحفيين أن تتولى بعناية واهتمام نشر (مذكرات أغبش) تعبيراً عن جهده في الدنيا...

المراجع:

(١) السلمابي الذي غاب (١٩٨٠) دار الأضواء/حسب الله الحاج يوسف.

(٢) شخصيات أدبية (١٩٦٥) جريدة كردفان/جمعة محمد حامد.

كلام الناس

نور الدين مدني

انتقل الى رحاب الله صباح أمس الصحفي الجامع الأستاذ الشيخ عبدالله رجب الذي كان مدرسة متميزة في دنيا النكد التي جاءها يحمل قلمه ولا شيء سواه وظل حتى آخر أيامه يحمل هذا القلم رايته التي لم ينكسها أبداً...

والحديث عن زعيم الغبش الذي غادر هذه الدنيا كما ولدته أمه نظيفاً طاهراً عف اليد واللسان لا تسعه هذه المساحة المخصصة للكلام ولكنها كلمة حق لا بد ان تقال في رجل قل أمثاله في هذا الزمان.

علم نفسه بنفسه لم يبخل بعلمه ولم يتخلف عن أداء دوره فظل يكتب في الشؤون الخارجية كالسيف وحده يصارع الاستعمار والصهيونية والعنصرية وينبه دائماً الى مخاطر التشتت العربي.

كنا نحن تلاميذه نتدخل في بعض تعبيراته رغم اعجابنا الشديد بها مراعاة للمتغيرات السياسية في علاقاتنا الدولية ولا ننسى كيف كان ينعت ريجان بالمغامر راعي البقر ويقول للولايات المتحدة (طظ) ويتندر من حال العرب الذي اصبح كل شيء عندهم (صابون).

وكانت عباراته الطيبة للزملاء بالمطبعة والتصحيح والسكرتارية التنفيذية والمكتب الفني وهي غالباً ما تتخلل المادة المكتوبة أو مصحوبة معها تجد كل الاهتمام لأنها بمثابة توجيهات من معلم وصحفي مخضرم وأستاذ بكل ما تحمل هذه الكلمة من معانٍ.

وكان نصيبه من دنيا النكد (ملاليم) كما يقول عادل أمام.. ولكنه كان زاهداً بطبعه وتركيبته النفسية والاجتماعية وحتى تكريمه الذي صادف أهله لم يحوله عن مكانه الطبيعي وسط أهله الغبش وانما استمر على نهجه ينقب بين الأوراق الكثيرة لينتقي لنا الكلمة الطيبة التي ستبقى ما بقيت ذاكرة هذا الشعب العظيم الوفي.

رحم الله شيخنا وأستاذنا عبد الله رجب صاحب الصراحة والكاتب الصحفي متعدد المواهب الذي طلب العلم النافع ففتح الله عليه أبوابه وظل ينير لنا دروب المعرفة بقلمه الذي ارتاد شتى الساحات وميادين الفكر الى ان اختاره الله الى جواره مع الصديقين والشهداء مع دعوات اخوانه وزملائه وتلامذته وقرائه وعشيرته من الغبش الميامين الذين أحبوه ورضوا عنه.

الصحافة في ١٩٨٦/١/٧

في رثاء شيخ الصحفيين (عبدالله رجب)

عمر الجزولي زراعي

نعت الصحافة عالماً وفقيهاً ... هو درة الأقلام في ماضيها

بكت البلاد بأسرها في عيدها ... في حين استقلالنا يبكيها

يا صيحة ضاعت صحائف عصرنا ... كانت لنا في مهدنا توجيها

يا ساحر الكلمات في أيامنا ... تحكي صمودك شامخاً ونزيهاً

تحكي الصراحة فجر عهد زاخر ... تنتشر فوق ربوعنا تحميها

وحملت قلمك ساخراً أو صارخاً ... من أجل استقلالها تفديها

وغرست حب الأرض في أجيالنا ... حتى أطل الصبح في واديها

إحساسك الفياض في نبضاتها ... طرق القلوب ففاض ما يمليها

كم كلمة قد خطها أستاذنا ... كانت تجيش طلاوة وبديهة

وتداعت الكلمات في أوراقنا ... كم كنت تتبنى لكي تبنيها

يا ليت شعري هل نؤبن شيخنا ... أم نكسر الأقلام كي ننعيها

يا سنجة جفت صحائف أرضنا ... يا ليت أرضك فيضنا يرويها

يا أهل سنجة والفقيد بأرضكم ... فقد البلاد وكل ما تحويها

ندعوك يا رحمن يا باري الورى ... تسكنه جنات يعشعش فيها

والهم بصبر آله وأحبابه ... بل ساحة العلم التي يأويها

جريدة الصحافة:
الاثنين ٢ جمادى الأولى ١٤٠٦هـ (الموافق ١٣ يناير ١٩٨٦م)

عبدالله رجب العصامية والإيمان

عمر بشير

لقد كان عبدالله رجب طوال حياته مثالاً للصحفي الناجح والكاتب الأمين مما أكسبه ثقة الناس على مختلف مذاهبهم وقطاعاتهم حتى عرفته الأجيال المتلاحقة لأنه لم يسجل غياباً عن الساحة ولم تقعده السن مثلما لم تثنه عن عزمه الماضي تشنجات الذين يخضعون كل أمر من الأمور لمقاييسهم الطائفية، فلا زالت ذاكرة الصحافة تحتفظ بشريط الاعتداء على عبدالله رجب.. ولكن مثل ذلك الأسلوب لا يمكن ان يزحزح من هو مثل عبدالله رجب عن ثباته على مبدأ «الصراحة» والوضوح... بل دفعه ذلك المسلك الى مزيد من العطاء.. الى ان تجاوز الوعي العام تلك المرحلة التي نتمنى ألا تعود مرة أخرى لأن مثل ذلك السلاح قد أثبت فشله التام في حروب الفكر وميادين الثقافة وشرف الممارسة السياسية الرشيدة.

كلما أكرمني الله بدخول الجامع الكبير بالخرطوم، كنت ألقى حلقات ومجالس التلاوة وتجمعات الاذكار.. وكنت أجد في ركن قصي ذلك الشيخ بطلعته وهو يرتدي بنطالاً ويضع على يمينه عصاً وعلى يساره حقيبة المعرفة التي لا تفارقه أبداً، فالقراءة.. عند شيخنا هذا والذي هو عبدالله رجب كالأكل والشرب وحلقة العصامي الأغبش عبدالله رجب ليس فيها سوى عبدالله رجب وهو يؤانس النفس بخير أنيس الا وهو كتاب الله الذي أحكمت أياته... وطال مكوث الرجل حتى أشفقت عليه لعامل سنه... ولكن بركة القرآن تسري في النفس الطمأنينة وتمدها بقوة الايمان وتشحنها بطاقة اليقين وكلما نظرت اليه أجد طائر تأملي يلحق بي في عوالم الأمس وعطاء الذين أسسوا لنا ببذلهم وصبرهم وطموحهم أساسيات انطلاقنا في المجالات كافة.. ومن هؤلاء في طليعتهم عبدالله رجب وأبناء جيله الاعلام، وقطعت تأملي هذا مشاهدتي لعبدالله رجب وهو يخر ساجداً لمليك العليين ولا غرابة في السجود ولكن ما أثار ولا أدري بم أصف ذلك الشعور. هو طول ذلك السجود ولأكثر من ثلث الساعة حتى حسبت في نفسي ألف حساب واستعنت بأحد الشيوخ.. قلت له: هذا الشيخ طالت سجدته ولا أرى له حراكاً... فطمأنني قائلاً: يا بني هذا هو عمك الصحفي الكبير القديم عبدالله رجب (واصلوا يسجد طويل كده وأكثر من كده)... وحمدت الله وقلت اللهم أعنه على عبادتك وأكرمنا بتلك النعمة.

(الوان ٢٧/١/١٩٨٦م)

إلى روح المرحوم عبدالله رجب

عبدالرحيم كدودة

نزيل الخرطوم ـ عبرى الشمالية

كيف أرثيك يا مناضل أبي   في اشتياق الى الصديق الغالي

كيف أرثيك لا أطيق رثاء   أنت حي في خاطري وخيالي

كيف أرثيك قد تجمد شعري   تحت ضغط الدموع والانفعال

قد توقعت أن تعود سليماً   تجري للبص باحثاً للمجال

مقعدا في تواضع وسرور   ما تعانيه ظاهر في احتمال

رغم طول النضال عشت فقيراً   دون بيت سيارة كالرجال

تجري للبص والعصا في يمين   تحمل الزاد ممسكاً بالشمال

رزة في ناي اهتمام   وهي زاد العقول لا للتسالي

كيف لا والصريح أسس صرحاً   في مجال التثقيف أعظم حال

تلك كانت صراحة في اندفاع   ومناراً للشعب في اقبال

قبل أعوام في الطريق التقينا   قلت هيا للبيت نحو العيال

قلت هيا الى الغداء سويا   قلت إني مسافر للشمال

سوف نلقاك عن قريب ونمشي   مع بعض حلفاية لا تبالي

لن تجدني ولن أراك وداعاً   فتشاءمت طعنة كالنبال

أصدقاء كموعد في اتفاق   ذهبوا في رحلة بالتوالي

كل فرد في ميزه ومكان   باذر في الضلوع للابطال

في ذهول وحيرة واضطراب   وخمول في الذهن كالاطفال

قد صبرنا قناعة لا احتمال   لا مفر فالخلق نحو الزوال

نحن في الدرب يا صديقي فقل لي   كيف حال الاخوان والاحوال

هل جنان في روعة وافتتان   أم جحيم في شقوة ووبال

هل صراع في فتنة وانقسام   كصراع الأحزاب يا للسؤال

لا مجيب يشفي الغليل ولكن   هو خوف من المنون سؤالي

تلك دار الخلود نور ونار   فأسفات على مدى الأجيال

عجز العقل في حوار ولما   طال عهد البحوث والأقوال

تركوا العقل في فراغ وراحوا   ضمن من راح حفرة في انعزال

رحمة الله انتقلت نظيفاً   لا اكتساباً للجاه أو للمال

قد عرفتم مصيركم في وضوح   نحن في ظلمة وفي أغلال

جريدة الصحافة:

السبت ١٥ جمادى الأولى ١٤٠٦هـ (الموافق ٢٥ يناير ١٩٨٦م)

جريدة الميدان (الأربعاء ٨ (يناير) ١٩٨٦

التجاني الطيب

غاب صاحب الصراحة

نعى الناعي عبدالله رجب، فتهاوت أمام رهبة الموت حواجز قامت، وتداعت صور من الماضي البعيد ظلت محفورة في الذاكرة رغم توالي الأحداث.

تذكرت أول لقاء لي بعبدالله في أواخر عام ١٩٤٩ بنادي الخريجين بأمدرمان وكان يستعد لاصدار جريدته (الصراحة). واجتذبتني إليه فوراً حيويته وكلامه السريع وضحكته المعدية وذكاؤه النافذ.

وخرجت (الصراحة)، فكانت فتحاً جديداً في عالم الصحافة السودانية. وكانت مدرسة قائمة بذاتها، وإحدى أبرز مؤسسات الحركة الوطنية. علمت جيلاً كاملاً منا، ممن يعيشون الآن في الخمسينات والستينات من أعمارهم علمتهم وفتحت أعينهم على الواقع السوداني من خلال مقالات كاتبها ورسائل مراسليها من مدن وقرى السودان في شتى اصقاعه.

ولا أبالغ حين أقول ان ملف الصراحة يمكن أن يشكل منجماً لا ينفد لدراسة البرنامج العلمي للحركة الوطنية. ففي كل عدد نجد المقالات الضافية عن مختلف جوانب العمل السياسي ونجد أيضاً رسائل شعبي من (كوستي) وكدودة من (وادي حلفا) والصويم من (النهود) وصديق أحمد البشير (من الفاشر) وغيرهم من المراسلين تنقل مطالب الناس في بناء مدرسة او شفخانة أو توفير داية أو عن مظلمة وقعت من مفتش أو مأمور أو تفضح أعمال النظّار وزعماء العشائر.

ولعبت (الصراحة) دوراً هاماً في بناء الحركة النقابية وكتب فيها قاسم أمين مقالاته المشهورة (كشفناك يا نيومان)، ونيومان هذا كان مسجل النقابات البريطاني مطلع الخمسينات، وكان يتآمر باستمرار لقسم الحركة النقابية أو تدجينها.

وكانت (الصراحة) تلهب الحماس مع كل عدد يصدر منها، وكان الناس يقدرون محررها وكتّابها ومراسليها ولم يكن غريباً والحالة هذه ان تنتهز السلطة الاستعمارية كل فرصة سانحة لتقديمها للمحاكمة. وكثيراً ما صدر الحكم عليها بالغرامة ـ ولكن الشعب كان يبادر فيشتري النسخة الواحدة بأضعاف ثمنها لتوفير الفدية المطلوبة.

لقد عاشت (الصراحة) عصرها الذهبي حتى نهاية الخمسينات، وكانت منبراً عالي الصوت للوطنية السودانية، بشعارها الحي (التزام جانب الشعب).

وهذه هي الصورة التي تبقى مشرفة في ذهني ووجداني. رحم الله عبدالله رجب وغفر له من ذنبه ما تقدم وما تأخر.

الفهرست

المقدمة ....
- مقدمة بخط المؤلف ....
- الرحلة الطويلة لـ عبد الله رجب ١
● (مقابلة صحفية معه أجراها بابكر العراقي وأحمد محمد الحسن ـ نُشرت بالصحافة بتاريخ ٤/٢/١٩٨٤)
- من مساعد نجار بسنجة إلى كاتب صحفي ومترجم بقصر الشعب. مارس التجارة، شق الطرق وتجول طلبا للمعرفة. ماذا قال له «العراف» الهندي ومن أين اكتسب الأسلوب التلغرافي؟
- الرحلة الطيولة لـ عبد الله رجب (٢) ٦
● رفضت ربط السياسة بالمشيخة والطائفية الدينية حرصاً على الوحدة الوطنية ....
- شايقية القضارف والاسلوب التلغرافي ولغة الثراء ١٢
- خمسون سنة مع علم النفس ومحاولة تحديد الهدف ١٦
- المهدي فرز لجدي الكتب التي كان يدرسها ١٨٨٥م ٢٠
بابكر بدري قدم لي خدمة في سنة ١٩٢٤م
- مفاجاة أغبش عن أصل أبيه ٢٥
- مفتش المركز الانجليزي حاول حرق منزلنا ـ لماذا؟ ٢٧
● بدأت معرفة الصحف مع ثورة ١٩٢٤ وعمري ٩ سنوات
- المدرسة الأولية أسست عندي القرآن والدين واللغة العربية والحساب... الخ ٣٢
● في بيت الزار امرأة تصير مرفعينة وتاكل اللحم النيء ـ سجنوا حبوبتي في غيابي وأخرجتها من السجن
- قريبنا عاد من مكوار بالشورت والسجاير فقالوا كفر! ٣٨
● تربية الأرملة، هل تفسد الأبناء؟ ....
- طردني المهندس الانجليزي من العمل بيومية قرشين ـ بداية مكتبتي عشرون كتابا بجنيه ونصف ـ مناقشة دينية وسياسية حول اختلاس ١٩٢٧م ٤٤
- محاولة لتاليف الأغاني في فترة زعماء الحقيبة ٥٠
● زيارات للطرق الصوفية ـ ولمحة عن تاريخ الختمية
- كيف تمت مقابلة أغبش الصغير للسيد عبد الرحمن عام ١٩٢٥ .... ٥٧
● معاملة الفئات المختلفة من أنصار المهدي في أيام الحكم الثنائي
● كيف بدأت دائرة المهدي في العشرينات ....
- مجاعة سنجة... والمساهمات المشكورة ٦٤
● لماذا استبدل اسم مكوار بسنار؟ ....
- الحرب العالمية وسياسة الانجليز في السودان ومصر ٦٨
- اشتغلت مع ١٧ تاجرا في ٢٥ سنة تعلمت منهم فنون التجارة ٧٣
● لماذا غضب الشريف يوسف الهندي... وطلب انزال العلمَ البريطاني من قمة قصره ببري الشريف؟ ....

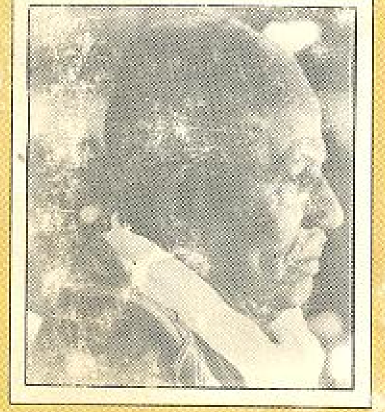
- أغبش مع عصابة الهباتة الصغار بالليل والنهار ٨١
- جدكم عوج الطويل كان يشوي السمك بقرص الشمس ٨٧
● كتاب سعد ميخائيل ذهب بكرعينه الى بيت آل أغبش ....
- لماذا كثر اسم يونس بين مواليد التجار في العشرينات؟ ٩٣
● زار أغبش (بيان) السيد الحسن أب جلابية ....
- أغبش حاول المعيشة على العدس ٩٨
● نشرت مجلة الدنيا المصورة بمصر ١٩٢٩ رسالة من أغبش احتج عليها مأمور مركز سنجة ....
● العقلانية.. حرمت أغبش من الخيال وربطته بأدب المعري ....
- آراء أغبش عن بعض الأدباء والمفكرين ١٠٦
عاصر أغبش عشرين سنة من المعارك الفكرية ـ ربع قرن ـ ١٩٢٧ـ١٩٥٢ ....
- أغبش طرد مرتين من الكبانية وظل شجرة الحلواني ـ عندما حملت صندوقي وتسكعت بشارع كزري ١١٣
- لمحات عن حياة المراكبية والعتالين ومستخدمي السكة الحديد ١١٩
عمل أغبش محاسبا لعمدة العتالين ....
- لماذا حطم الفنان سرور بسنجة اسطوانة (عزه في هواك) بصوت الخليل ١٢٥
- أغبش ناشر كتب ١٩٢٢ .... ١٣١
● البريقادير بلاكي حكم على أغبش بـ ١٥ جلدة ....
- لماذا طرد المفتش الانجليزي الفكي البشير من سنجة؟ ١٣٧
- كيف درب أغبش نفسه على مقاومة الخوف من البعاعيت والتماسيح؟ ١٤١
● أوليات فلسفية عن كيفية رسم هدف في الحياة ....
- الصينيون الماويون بالسودان كرموا أول موتاهم باقامة قبة على ضريحه مثل الأولياء ١٤٦
● تعريف بالحاج حسون.. وبرئيس نادي المريخ الأسبق ....
● نظرية يوسف بدري ودور المسيد في التنمية الشاملة ....
- درب أغبش نفسه على أشتغال الزراعة المطرية ١٥٣
● استوردت من كسلا للسوكي طرد مرتجعات مجلات بالسكة الحديد ....
- كيف تغلب المرحوم العجب على مرارة القهر؟ ١٦٠
- سعد وحسبك من ثلاثة أحرف ١٦٥
- السياسة في ونسة العشرينات والثلاثينات بأقاليم السودان ١٧٠
● هل يعرف الجيل الحالي الملكة أمنة وخوجلي ود الحسن؟ ....
- الآثار السياسية لبداية الحرب العالمية الأولى في المنطقة العربية ١٧٤
- أغبش صاحب دكان لبيع الشطة والصحف ١٧٧
- أصدقائي بسنجة كانوا وفديين ثم صاروا نازيين؟ ١٨٢
- لوحة كرونولوجية للحرب العالمية الأولى ١٨٦
- درب الطير يمثل رواسب المسيحية النوبية ١٩٠
- اكتشاف جهل السودانيين بعالم الأزهار ١٩٤

- تلخيص تاريخ السينما من أواخر القرن التاسع عشر ٢٠٠
● أغبش وزير في أواخر العشرينات ....
- الاعراس في السودان مدرسة فنية واجتماعية واقتصادية وسياسية ٢٠٥
- السراج وعبدالله الطيب من الأفذاذ ٢١١
- هؤلاء علموني والبقية تأتي ٢١٥
- مجموعة ثانية من هؤلاء علموني ٢٢٠
- المكاتبات الاخوانية مدرسة جذابة ٢٢٤
● سمعنا اذاعة لندن ١٩٣٢ بواد مدني ....
- أحمد يوسف هاشم بالبزة العسكرية ٢٢٨
● كيف فهم أغبش نظرية الري بالجاذبية؟ ....
- أغبش في رحلة زراعة الحريق ٢٣٣
- أخي علي رجب ....
- من الاسكله وحلا .. قام من البلد وللا ٢٣٧
- أغبش ساخط على قلة أدبه الشخصي... فقد عجز في كسلا عن وصف الجبل والقاش وأسراب الفراش! ٢٤١
- مدثر البوش وأغبش في رحلة البحث عن الجذور بقرية عصار ٢٤٦
● لماذا تغير مسار خط السكة الحديد من المفازة الى الحواتة؟ ....
- من نوادر الزعامات القبلية ٢٥٠
● أهل اللباس البوحة الما بعومو عكس الموجة ....
- دردشة عن تجارة المحاصيل المطرية ٢٥٥
- مقارنة بين سنجة والقضارف ٢٥٩
● هل يتعرض قضروف ود سعد للتجيش؟ ....
- تاريخ الصحافة السودانية ٢٦٣
- مختارات لمقالات كتبها المرحوم عبدالله رجب ....
● مضى ولن ينقضي ٣٠٤
(نعي للمرحوم السلمابي) ....
- عشرة عشر سنوات ٣٠٩
(نعي للمرحوم حسن الطاهر زروق)
- آخر مقالة كتبها المرحوم عبدالله رجب ٣١٢
- مقالات مختارة نُشرت عن المرحوم قبل رحيله بمناسبة تكريم جامعة الخرطوم له ـ يناير ١٩٨٤ ....
- نجوم ساطعة في سماء المجتمع ورواد في شتى مناحي الحياة ـ نضال متصل وعطاء ثري وإسهام فاعل ٣١٥
(جريدة الصحافة) ....
- افسحوا الطريق .. جاء المكرمون ٣١٧
(بقلم الفاتح النور) ....

- جامعة الخرطوم تكرم خريجي الشعب ٢٢٠
(بقلم محمد الخليفة طه الريفي) ....
- من زكي مبارك الى عبدالله رجب ٢٢٣
(بقلم الريفي) ....
- باشا بالصدفة ٢٢٥
(بقلم محمود أبوالعزائم) ....
- أغبش على بسكليت في شوارع الخرطوم ٢٢٧
(بقلم المرحوم محمد سليمان) ....
- وبعد رحيله ٢٣٠
رثاء لشيخ الكادحين ....
(قصيدة نظمها المرحوم التيجاني عامر) ....
- رحل عبدالله رجب الأغبش صديق الغبش ٢٣١
(بقلم حسب الله الحاج يوسف) ....
- رحم الله عبدالله رجب ٢٣٣
(بقلم يحيى محمد عبدالقادر) ....
- عبدالله رجب ـ الصحفي والعصامي ٢٣٥
(بقلم قاسم عثمان نور) ....
- استطاع أن يقهر الصعاب ويطوع المستحيل ٢٣٨
(بقلم صلاح أحمد ابراهيم) ....
- كلام الناس ٢٤١
(بقلم نورالدين مدني) ....
- في رثاء شيخ الصحفيين ٢٤٢
(قصيدة نظمها عمر الجزولي [زراعي]) ....
- عبدالله رجب العصامية والايمان ٢٤٣
(بقلم عمر بشير) ....
- الى روح المرحوم عبدالله رجب ٢٤٤
(قصيدة نظمها عبدالرحيم كدودة) ....
- غاب صاحب الصراحة ٢٤٥
(بقلم التيجاني الطيب) ....

المؤلف في سطور

* عبد الله رجب محمد
* مواليد سنجة ١٩١٥
* شيخ الصحافة السودانية وزعيمها ظل يعمل فيها ويكتب لاكثر من نصف قرن
* صاحب ورئيس تحرير (الصراحة) ١٩٥٠ ـ ١٩٦٠ التي كانت طليعة للنضال الوطني ضد الاستعمار





* صاحب اول ترجمة عربية لوثيقة حقوق الانسان له تراجم عديدة نشرتها الصحف في الشؤون العالمية وعلم النفس وموضوعات متنوعة تشكل في مجموعها مجلدات ضخمة
* صاحب الفضل في رواج كلمات وتعبيرات كثيرة اولها العيش والاهالي العيش ومحمد احمد دافع الضرائب وعروس الرمال الابيض ـ ... ـ اختصار ... ـ وتعابير اخرى
* انتقل الى رحاب الله في السادس من يناير ١٩٨٦



« دار الخليج للصحافة والطباعة والنشر »
الشارقة ـ تليفون ٣٥٠٨٨٣

تصميم الغلاف
عبد العظيم بيرم